عبد الله الطيب



في الأغراض والأساليب

الجزء الرابع (القسم الثانى)

الإهداء

إلى جميع من أعانوا على خلق هذا الكتاب ، بما تَوَلَّوْهُ من إرشادي وتعليمي ونَقْدِي ، أَوَّلُهم أبي رحمه الله .

عبدالله الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم
القسم الثاني

مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى جل من قائل في كتابه المحكم العزيز: « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون . »

ومما حفظ به كتاب الله عرفان العربية وتذوق جزالة أساليبها ، وكان من كبار علماء اللغة والنحو والأدب حفظة لكتاب الله أخذت عنهم القراءة والرواية والتفسير كأبي عمرو بن العلاء والكسائي وقالون فقد ذكروا أنه كان نحوي المدينة على زمانه وهو تلميذ نافع والأصمعي ، وكان من رواة قراءة نافع ، والفراء وأبي عبيدة ومكانهما في معاني القرآن ومجازه وتفسيره غير خاف . وكان الطبري محمد بن جرير مقدما في النحو والعربية وهو من حفظة الكتاب العزيز قراءة وتفسيرا . وكان ابن جني صاحب الخصائص وراوية أبي الطيب هو أيضا صاحب المحتسب الذي إنما هو حاشية وشرح موجز جيد وتعليق على كتاب السبعة لابن مجاهد . والأمثلة في هذا الباب أكثر من أن تحصر وتحصى .

ولأمر ما كثر استشهاد أهل التفسير بالشعر الصحيح من لدن ابن عباس رضي الله عنهما إلى زمان أبي عبيدة والفراء ومن بعدهما . من ذلك أن الشعر الصحيح الجزل فيه روح البيان العربي . وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين . وقال تعالى : « إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون » (يوسف) وقال تعالى : « إنا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون » (الزخرف) وقال تعالى : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » (الشعراء) .

وبعض أهل السفسطة ربما زعم أن من ألفاظ القرآن ما ليس بعربي وهذا هو الضلال المبين . ولو سلمنا جدلا أن امثال استبرق من ألفاظ القرآن لسن عربيات ، فماذا عسى أن يستنتج من ذلك مستنتج أورود كلمة الون في شعر الأعشى يجعله فارسيا ، وذلك حيث قال :

بالون يضرب لي يهز الإصبعا

أو مجيء كلمة الكرد في قول الفرزدق

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه فوق الأنثيين على الكرد

أي العنق يجعل شعر الفرزدق غير عربي ؟

أم لا يزيد أحيانا في بلاغة الكلم البليغ أن يجاء فيه بكلمة ذات دلالة واضحة في لغة أخرى لكي تنتقل بعض الوان تلك الدلالة إلى السياق الذي هي فيه ؟

ذلك واضح سائغ في كل اللغات إلى الآن .

على أنه ينبغي أن نذكر أن مكة كانت ملتقى تجارة العالم كله آنئذ فكم من كلمة صهرتها ألسن العرب فيها فصارت عربية ـ هذا على تقدير التسليم أن العرب استعارت أمثال قنطار ودينار لتدير به تجارتها، وقوله تعالى: «والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة» يدل على اطمئنان الكلمة في بحبوحة العربية .

على أن العربية لغة قديمة الأصول والروم والفرس واليونان كل أولئك أحدث عهدا في الوجود الحضاري من العرب ـ عادهم وثمودهم وجرهمهم وقطورائهم وأميمهم وطسمهم وجديسهم وعماليقهم بله حمير وسبأ واليمن الأقدمين .

قال أبو عبيدة (وقد ذكروا أنه كان شعوبيا واتهموه بمذهب الخوارج وهلم جرا)[1] قال في أوائل كتابه بعد البسملة : قالوا إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتصداق ذلك في آية من القرآن وفي آية أخرى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب ومن الغريب والمعاني . وقال رحمه الله في فصل تال: «نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن " طه " بالنبطية فقد أكبر، وإن لم يعلم ما هو، فهو افتتاح كلام وهو اسم للسورة وشعار لها، وقد يوافق اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها . فمن ذلك الاستبرق بالعربية وهو الغليظ من الديباج والفرند وهو بالفارسية استبره وكوز وهو بالعربية جوز وأشباه هذا كثير. ومن زعم أن«حجارة من سجيل » بالفارسية فقد أعظم، ومن قال إنه سنك وكل، إنما السجيل الشديد . »

---

(١) راجع مقدمة محقق مجاز القرآن الاستاذ محمد فؤاد سزكين ـ قال تحت عنوان مذهبه فى مقدمته ص ١٠ / ١ (الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م بيروت)تكاد تتفق كلمتهم على أن أبا عبيدة كان من الخوارج وانه كان يكتم ذلك ولا يعلنه إلخ ـ قلت فقد قالوا فيه بالظن . ثم يقول الاستاذ سزكين (ص١١) ونسبة أبي عبيدة إلى مذهب الخوارج تارة وإلى القول بالقدر تارة أخرى تكشف عن صلته بمعاصريه وتدل على أنه لم يكن محبوبا بينهم إلخ ـ نقول كان من علماء العربية واعتمد على ما قاله جماعة من كبار علماء أهل السنة كمحمد بن جرير ومحمد بن اسماعيل رحمهم الله أجمعين .

وقد اهتم جار الله محمود بن عمر الزمخشري بأمر البلاغة العربية عامة، وبلاغة القرآن خاصة، ومهد لتفسيره الجليل بعمل معجمه البلاغي النادر المثال«الأساس - أساس البلاغة». ؟ مما يدلك على أنه مهد به تفسيره لقوله تعالى : «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون» فقد قال إن المرأة لا يقال لها مفندة لأنها لم يكن لها عقل وهي شابة وهذا الوجه بعينه جاء في عبارة "الأساس" ولعل "الفائق" مما مهد به أيضا. وقد ألف تفسيره وهو مجاور بمكة. وقد اعتمد على ابن جرير . إلا أن مذهبه في بيان البلاغة القرآنية كأن قد انفرد به. واستشهاده بالشعر غزير. وكان مما ذهب اليه الاستشهاد بشعر حبيب وأبي الطيب، يجعل مايقولانه بمنزلة ما يرويانه. وما سوغ له ذلك إلا ما أحسه بجودة ذوقه من تمكنهما من جزالة القول. وما كل علامة راوية بمستطيع جزل الكلام إن رام قوله. ماعدا الزمخشري أن استأنس بما أورد من شعر فحول المحدثين إذ لم يكن خافيا عليه أنه لا يصح الاستشهاد بكلامهم على شيء من نحو أو صرف أو لغة. وقد سلك مسلك الزمخشري رحمه الله جماعة منهم مثلا صاحب "مغني اللبيب" ومن الأوائل من تشدد أحيانا فكره الاستشهاد بمن لا شك في فصاحته كالذي ذكره أبو الفرج من طعن يونس في ابن قيس الرقيات مثلا .

علم الأوائل كله كان مداره على صحة الرواية عن مشافهة. وكان الحديث ادق العلوم رواية وأعوصها طريقا فيها. وكان سيبويه شيخ النحاة رحمه الله قد طلب الحديث أول الأمر. ثم لما خطأه حماد بن سلمة في حديث "ليس أبا الدرداء" عدل الى درس النحو. فلم يكن ليستشهد على مسائل النحو بما لم يكن على معرفة حقة بوجوه صحة روايته من علوم الحديث. وقد عدل عن متابعتها كما ترى. وقد كان قرأ القرآن على حفظته ورواته ويذكر اسماءهم في كتابه. وقد روى الأشعار وسمع مشافهة من العرب. فعول على هذا الذي كان يعلمه ويعلمه علماؤه. وقد كان عاصم بن أبي النجود، أحد شيوخ أبي عمرو [وهو شيخ سيبويه] حجة في القرآن جلس يعلمه بالكوفة اربعين سنة بعد أبي عبدالرحمن السلمي وهذا جلس من قبل يعلمه أربعين سنة وعن الصحابة الاجلاء أخذ - وذكروا أن عاصما لما أدركته الوفاة كان يردد قوله تعالى« ثمّ ردوا إلى الله مولاهم الحق» يحقق القاف تحقيقا حتى قبض الله روحه. مع هذا لم يكن عاصم بحجة عند أهل الحديث مع إجماعهم على قرآنه وصلاحه وعلمه فتأمل .

ليس الأمر أن الحديث كان يروي بالمعنى، فلذلك لم يستشهد به النحويون **كلا. كان من رواة الحديث رجال هم من جيل من يستشهد بكلامه بلاريب. كالشيوخ الذين عنهم اخذ الإمام مالك. وقد قيل ذلك في مالك نفسه وزعموا أن دجاجلة جمع**

دجال لم يعرفه أهل اللغة إلا منه في خبر يذكرونه له فيما بينه وبين ابن اسحاق، وابن اسحاق ممن وثقه مسلم والبخاري. فلعل هذا الخبر ألا يصح والله تعالى أعلم. إنما ذكرناه استيفاء للحجة فيما ذكرناه من فصاحة أهل رواية الحديث الأولين الذين عنهم أخذ أمراء جرحه وتعديله ومعرفة صحيحه من ضعيفه.

وما أرى إلا أن سيبويه رحمه الله كان يعلم أحاديث كثيرة. ولكن تحرج ان يستشهد بها لم يجز عليه مشافهة. وكان في القوم دقة في التحصيل، ومراقبة لله فيه، وحرص على تجويد ما يقبلون عليه من عمل.

واقتدى بسيبويه من أخذوا الكتاب عن سعيد بن مسعدة وكان صدوقا.

هذا ـ قدمنا أن عرفان العربية وتذوق جزالة أساليبها مماحفظ الله به كتابه. وقد وعد ووعده الحق أنه حافظه. والقصيدة المحكمة هي المفتاح الأول لعرفان العربية وأهدى المسالك الى تذوق جزالة أساليبها. من أجل هذا ما استأنس الزمخشري بشعر أبي تمام وأبي الطيب وهو في معرض الإرشاد الى نكت بلاغة القرآن. وقد تعلم قوله أن المعري إنما برى لقول الله تعالى «إنها ترمي بشرر كالقصر» حيث قال هو:

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

والمقامة على فضلها، بين يدي القصيدة جارية تخدمها.

وأبى الله، وهو اعلم بمراده ودقائق حكمته. أن تزول القصيدة المحكمة ومكانها فيما وعد به من حفظ كتابه مكانها، ولا سيما حين جعلت تحيط بدار الإسلام الغوائل، وأشرعت الصليبية إليها الأسنة من رومها وروسها وفرنجتها وصقالبها وبلغارها وأصناف من عددهم أبو الطيب في شعره كقوله:

وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذا الطعن اساس لها ودعائم

وقوله: يجمع الروم والصقالب والبلـ ـغار فيها وتجمع الآجالا

وتوافيهم بهم في القنا الصمـ ـم كما وافت العطاش الصلالا

وسددت التتار إليها سهامها، وخيف عليها كل الخوف من الاجتياح.

في معركة بغداد سنة ٦٥٦ هـ وهي التي كانت القاضية على دولة بني العباس، سقط بقريته صرصر وهي من سواد بغداد شهيدا مقبلا غير مدبر على ما كان من ضرره

وما أعفاه الله به من مباشرة القتال، الإمام يحيى الصرصري[1]، رحمه الله، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ـ وهو الذي يقول:

ركب الحجاز ومنك الخير مأمول ... هل عندك اليوم للمشتاق تنويل
علل بها طاب للبطحاء من خبر ... ذا الوجد إن كان يشفي الصب تعليل
هل ربة الستر بعد النأي دانية ... أم حبلها بعد طول القطع موصول
أم هل تحل مطايانا بساحتها ... وربعها الرحب بالأحباب مأهول
ونقتضي بالمصلى والصفا ومنى ... دنيا تصرم حين وهو ممطول
وهل تجد بنعمان الأراك لنا ... من المواهب أسمال رعابيل
وهل تخب بنا بين العقيق الى ... سلع رواحل تحدوها الأراجيل
مضبرات القرى كوم كرائم لا ... يسأمن من دأب قود مراقيل

رعابيل أى مزق ينظر فيه الى قول كعب:

تفري اللبان بكفيها ومدرعها ... مشقق عن تراقيها رعابيل

والأراجيل ينظر الى قوله:

منه تظل سباع الجو ضامرة ... ولا تمشي بواديه الأراجيل

وقوله مضبرات بالضاد المعجمة من التضبير وهو القوة والقرى الظهر وتأمل جودة رنين قوله "كرائم" مع سبق راء القرى من قبل ومجيء "مراقيل" من بعد وهي جمع مرقال والإرقال ضرب من العدو وبه سمى هاشم بن عتبة المرقال إذ كان يرقل بالراية في صفين وهو يرتجز

أعور يبغى أهله محلا ... قد عالج الحياة حتى ملا
يتلهم بذي الكعوب تلا ... لا بد أن يفل أو يفلا

وقال النابغة في البائية:

إذ استنزلوا عنهن في الحرب أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
مراقيل أى مسرعات
بالنقى أعظمها والدر حالية ... ومن كلال ومن هزل معاطيل

---

(1) أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري ـ ذكر صرصر ياقوت في البلدان أنها من سواد بغداد.

هكـذا في طبعة المجمـوعـة وأحسبه خطأ وقـد فسره الشـارح بأن النقي هو المخ والـدر الحليب وأعظمها ضبطه ضبط اسم التفضيل بفتح الظاء بعـد عين ساكنه وهذا كله لا يستقيم إذ لا معنى لأن تكون حالية بالحليب عظامها، ثم معاطيل لأنها جمع لا تصلح خبرا لأعظمها إلا علي أن نـؤول أن "أعظمها" عدده أكثـر من واحدة أو تقدمـه مبتدأ الوجه عندي أن البيت صوابه هكذا إن شاء الله.

بـالنقى أعظمهـا والـدو حـاليـة ... ومن كـلال ومن هـزل معـاطيل

فالهزل مقـابل للنقى وهو المخ وكون أعظمها بضـم الظاء أي عظامها فيهـا النقي دلالة على أنه لا هزل بها. والكلال مقابل الدو وهـو القفر والصحراء واذا كان الدو لها حليا مع مخ عظامها دل ذلك على مواصلتهـا للسير وهي قادرة عليه غير ذات كلال ـ فهي عاطلة من الكلال ومن الهزل.

خـوص لها أرب تحت الـدجى وإذ اشـ ... ـتد الهجير وضم القسـور الغيل

القسور الأسـد، وكانت في طـريق الحج السباع والمخاوف، فـانظر كيف كـان حرص المسلمين على أداء شعائرهم فكيف أساء المعري حيث قال ما قال

تحكين نفـث نعـام راعهن ضحـى ... زعـر ويثفـرن والصـوان مبتـول
يلبـزن صم الحصى لبـزا ومـدرجهـا ... خط عليـه فمنقـوط ومشكـول

كلا هـذين البيتين فيهما تحريف من ناسخ ـ تحريف كثير ولعل الصواب هكـذا إذ هو أشبـه بالمعنى والـرسم يحتملـه كالـذي مر من "الـدو" لما بين الـواو والراء من شبـه:

يحكين نفـر نعـام راعهـن ضحى ... ذعـر وينفـذن والصـوان مبتـول
ينبـذن صـم الحصى نبـذا ومـدرجهـا ... خط عليـه فمنقـوط ومشكـول

ذلك بأن النفاذ يماثله البتل أى القطع والنفر يشاكله الذعر ويناسبه واللبز باللام بعيدة لأن الحصى لا يلبز ولكن ينبذ أى يقذف ويرمى به

إذا الحداة بسلع عـــرضـــوا فلهـــا على الـــــوجى ودوام السير تبغيل
تحن شـــــوقـــــا وأنـى لا تحن إلى حمى الـــرســول النجيبـــات المراسيل

فهذه المقـدمة التي مرت ليست من قـرى صناعة المقـامات والبديع وأوصـاف الشموع وضروب العبث بالمحسنات واللعب اللفظي والمعنوي، ههنـا أنفاس فحولة من الشعر شبيهة بأنفاس فحول صدر الإسلام والمحدثين المشهود لهم بالتقدم، وكالقدماء لا يجد الشاعـر عسرا في الاستهلال بالديـار والنسيب، إذ الديار التي تيمت قلبه ذكـراها هي الكعبة الشريفة والمشـاعر والمعرف ومنى ورباع مكـة المقدسات والقبر الزكـي والروضة والمسجد والحرم وأحد والبقيع وقبا ومشاهد دار الهجرة العظام.

تأمل هذا التعبير النبيل الجزل:

هل ربـــة الستر بعـــد النأي دانيـــة أم حبلهـا بعـد طـول القطع مـوصـول
وهـل تجد بنعمان الأراك لنـــــــا مـن المواهـب أسمال رعـــــــابيـل

والشاهـد قولـه «من المواهب أسمال رعابيل» ـ فالأسمال الـرعابيل من صفـة الثياب، والأسمال أيضا بقايا الماء في الركايا، وكل هذه الظلال من المعاني مرادة ههنا

قال المعري:

جلبت من الشـــامين أطيب جـرعـــة وأنـــزرهـــا والقـــوم بـــالقفــر ضـــلال
يلـــوذ بأقطـــار الـزجـاجـــة بعـدمـــا هـريقـت لما أهـديت في الكثـر أمثـال

يصف قبلتهـا أنها أطيب جـرعة على قلتهـا حتى إنها لا تـزيد على مـا تبقى في أقطـار الزجاجة بعد أن يراق ما فيها

فـإن زعمـــــوا أن الهجير استشفهـم إليهـــا فمنهـــا في المزايـــد أسمال

أى بقـايا، ومـا أرى إلا أن الصرصري رحمه الله يشير الى مـا ذكره أبـو العلاء ههنـا من معنى المواهب، وكان لأولى الضرر خاصة بأبي العلاء فرط ولع وإن اختلفت مذاهبهم

لاتفاقهم في باب التعمق في اللغة وآدابها، فهذا الذي صنعه الصرصري من خفي التضمين وبارعه.
وجلي أن الصرصري رحمه الله يجاري "بانت سعاد" وتستنير بصيرته بضوء قوافيها ومعانيها، غير أن مجاراة الصرصري لـ «بانت سعاد" ههنا ومجاراة غيره من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم لها، كالبوصيري في لاميته:

الى متى أنت باللذات مشغول   وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وابن جابرالأندلسي في لاميته:

بانت سعاد فعقد الصبر محلول   والدمع في صفحات الخد مبذول

وجماعة غيرهم أورد من نظمهم في مجاراتها صاحب المجموعة النبهانيه رحمه الله ـ وفيهم الزمخشري صاحب الكشاف والفيروز ابادى صاحب القاموس ـ كل ذلك أريد به أول من كل شيء التبرك، وذلك أن كعب بن زهير رحمه الله نال بها عفوا وجائزة وذكرا حميدا وقد ضاهى في الجودة مذهب أبيه مع ما له من حرارة أنفاس الشباب ـ على أن أباه كما يعلم القارىء الكريم أصلحه الله، شديد الأسر، قوي الروح، متين الأنفاس.
ولقد أحسن الإمام يحيى الصرصرى إذ يقول في أخريات لاميته

ياسيد الناس في الدنيا وسيدهم   يوم القيامة منك الخير مأمول
حبرت فيك قصيدا حسن مدحك في   رؤوس أبياتها الحسنى أكاليل

رؤوس الأبيات عنى بها الروى، كما يقال للفواصل رؤوس الآى، وجعل القوافي كالأكاليل لمقاطع الأبيات هنا، لمكان هذا القري في مدحة كعب، وقد فصل هذا المعنى ووضحه في ما بعد:

نظمتها وزن من قد قال مبتدئا   "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول"
تبركا باتباعي ما نحاه ولم   أبغ المضاهاة أين الطوْل والطول
لقد علا كعب كعب كل ممتدح   فمن يفاضل يوما فهو مفضول

لعلها " فمن يفاضله " ومن جازمة ويجوز ما ههنا على معنى والذي " يفاضل " فهو مفضول وما أشبه أن تكون هاء الضمير قد غفل عنها في الطبع والتصحيح أو أخطأها الناسخ وذلك أن الرنة بها أقوى وأشبه بنغم الصرصرى الفحل :

لقد علا كعب كعب كل ممتدح ... فمن يفاضله يوما فهو مفضول
سبقا وفضلا و إنشادا مشافهة ... وبردة قصرت عنها السرابيل
لكنني إن يك التسويف قصر بي ... وقيل إنك مبعوث ومسئول

يشير الى قول كعب : " وقيل إنك منسوب ومسئول "

أقول للواعظ المهدي نصيحته ... أقصر فلي شافع في الحشر مقبول
محمد خير مبعوث بمرحمة ... وجاهه الغمر للراجين مبذول

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

ونلفت القارىء الكريم الى قوله : « سبقا وفضلا و إنشادا مشافهة » ثم ذكر البردة فكل هذا شاهد كما ترى بمعنى التبرك .

وقد نهج البوصيري نهج الصرصري في الإقرار لكعب بن زهير بالسبق المطلق لأن كلامه عربي جزل أصيل ـ غير أنه أعطى نفسه فضيلة المشابهة له في أمرين ، أولا مدح الرسول صلى الله عليه واله وسلم خالصا فيه وثانيا رجاء العفو عند الله سبحانه وتعالى بجاهه عليه الصلاة والسلام ، وذلك أن كعبا قد استحق القتل قبل أن يتقدم بمدحته هذه فنال بها العفو والرضا والجائزة : قال :

ها حلة بخلال منك قد رقمت ... ما في محاسنها للعيب تخليل
جاءت بحبي وتصديقي إليك فما ... حبي مشوب ولا التصديق مدخول

أى كما حب كعب وتصديقه كانا غير مشوبين ولا مدخولين إذ وفد معتذرا وفي الناس من يتهمه بذلك كما يدل عليه قوله :

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا ... والعذر عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرءان فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وقد كثرت في الأقاويل

كذلك أنا حبي غير مشوب وتصديقي غير مدخول وما سلكت مسلك كعب في الروي والبحر وأنا أبغي انتحال كلامه أتزين به . أو مباراته أباهي بذلك ولكني وجدتك

غفرت له وحقنت دمه ففاز بمكانة الصاحب فهو لى بذلك قدوة وحسبي شافعا أنى أرمي إلى غرض كغرضه وهو صدق المدح فيك والتماس العفو من الله بجاهك :

هـا حلـة بخـلال منـك قـد رقمت ... مـا في محاسنهـا للعيب تخليـل
جـاءت بحبي وتصـديقي اليك ومـا ... حبي مشـوب ولا التصـديـق مـدخـول
ألبستهـا منـك حسنـا فـازدهـت شرفـا ... بها الخواطـر منـا والمنـاويل

فتح التاء من ألبستها أجود وأشبه بمعنى البيت إذ منه الخواطر والمناويل (جمع منوال) التي تم بها نسج القصيد وقد لبست حسنا من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فالنية هي التي أكسبت خواطره وملكته الشرف الذي ازدهاها فازدهت به ـ وهذا المعنى ينظر الى قول الصرصرى

حبرت فيك قصيدا حسن مدحك في ... رؤوس أبياتها الحسنى أكاليل

والتشابه في أن مدحه صلى الله عليه وسلم هو المستمد منه الحسن ثم يقول البوصيري، وهذا يقوي به معنى صدق حبه :

لم انتحلهـا ولم أغصـب معـانيهـا ... وغير مـدحك مغصـوب ومنحـول
ومـا على قـول كعب أن تـوازنـه ... فـربما وازن الـدر المثـاقيـل

أى المثقال وزن بعينه وليست موازنته لمقدار من الدر بجاعلته مماثلا له في القيمة والحسن ـ وقد فسر مراده من بعد أن تقصيره عن كعب ليس في صدق المدح وجودته ولكن عند كعب من الجزالة والفصاحة والأصالة في ذلك ما ليس عنده :

وهل تعادله حسنا ومنطقها ... عن منطق العرب العرباء معدول

وليس المولد مهما يسم قدره في هذا المدى ببالغ مبلغ العربي.
وما غاب عن الإمام شرف الدين فضل كعب بالصحبة والمشافهة والإنشاد، فهذا على

أنه ضمنه معنى عروبته الأصيلة وأنه نال العفو بما قال من رسول الله صلى الله عليه وسلم عفوا مباشرا عن لقاء، قد ذكره صريحا من بعد، ولم يفصل فيه تفصيل الصرصرى لما أغنى به هذا بوضوحه فيه عن كل مزيد ـ رحمهما الله الرحمة الواسعة.
ثم يقول البوصيرى :

وحيث كنا معا نرمي الى غرض ... فحبذا ناضل منا ومنضول

الناضل كعب وهو المنضول كما تقدم من قوله :

إن أقـف آثـاره إني الغـداة بها ... على طـريـق نجـاح منك مـدلـول

لما غفـــرت لــــه ذنبـــا وصنت دمـــا لــولا ذمـامك أضحـى وهـو مطلــول
رجـوت غفـران ذنب مــوجب تلفي لـــــه من النفس إمـــلاء وتســويل
وليس غيرك لى مـــــولى أؤملـــــه بعـــد الإلـــه وحسبي منك تـأميل
ولى فــــؤاد محب ليس يقنعـــــه غير اللقــــاء ولا يشفيـــــه تعليـل

فهذا شاهد قولنا إنه ذكر فضل كعب باللقاء صريحا

متى تجوب رســول اللـــه نحــوك بي تلك الجبـــال نجيبـــات مـــراسيل
فأنثني ويـــدى بـالفــوز ظـافــرة وثــوب ذنبي مـن الآثـــام مغســول

أما قـوله رحمه الله «لم انتحلهـا » فقد نبه بـه على اختلاف الـوجه الذي سلكـه في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجه قصيدة كعب وإن تشابها في حسن الثناء عليه وطلب العفو من عنـده صلى الله عليه وسلم . وقد جعل البـوصيري مكان النسيب في أول قصيدته طلب سبيل التوبة والاعتراف بالندم على ما فرط فيه :

الى متى أنـت بـــاللـــذات مشغـــول وأنت عن كـل مـــا قـدمـت مسئـول
في كل يـــوم تـرجي أن تتـــوب غـــدا وعقـــد عـزمـك بـالتســويف محلـول

ومما يعجب في مطلع هذه القصيدة قوله :

فجـــرد العـــزم إن الموت صـــارمـــه مجرد بيـــــد الآمـــــال مسلــــــول
واقطع حبـــال الأمـــانى التى اتصلت فإنما حبلهـــا بـــالـــزور مــوصـــول

هذا كقول كعب « ان الأماني والأحلام تضليل »

أنفقت عمـــرك في مـــال تحصلـــه ومــــــا على غير إثم منـك تحصيـل
ورحـت تعمـــــر دارا لابقـــــاء لها وأنت عنهـــا وان عمــرت منقـــول
جـاء النـذيـــر فشمــر للمسير بـــلا مهـل فليس مع الإنــــــذار تمهيـل
وصن مشيبـك عن فعل تشـــان بــــه فكل ذى صبـــوة بـالشيب معـــذول
لا تنكـرنـــه ففي الفـودين قـــد طلعت منـــه الثــريـــا وفـــوق الـــرأس إكليل

والثـريا والإكليل كـلاهما كما تعلم من نجـوم السماء ثم أخذ البـوصيري في طريق هـو خريته ولنا الى ذلك أوبة إن شاء الله تعالى .

وقال ابن جابر الأندلسي الضرير:

وقد أتيت بضعفي ما أتاك به كعب على أن باعي ماله طول
هـــذا يقتـــدي فيــه بيحيى الصرصرى

فإن قبلت ونـــالتنى مـــراحـم قـــد نـــالتــه لم يبق لى من بعــدهــا ســول
وإن كعبــا علينــا إذ غـــدا سببـــا لكعب خير بيمـن اللـــه مشمـــول

ولبرهان الدين القيراطي رحمه اللـه (توفى سنة ٧٨١ هـ) لامية كعبيـة الروي نظمها نظم علماء الفقـة سنة ٧٦٤ هــ يقضى بها حق ما علمـه اللـه بجهد منـه يلتمس به الأجـر ويكون فيه زكاة له ، أولها :

جرح الجفون بقذف الدمع تعديل والحب شاهده المجروح مقبول

تأمل الجرح والتعديل ـ هاتان عبارتان من اصطلاح أهل الحديث . ثم القذف والقاذف لاتقبل شهادتـه لكن الجفون إذا قذفت الدمع فجـرحها قذفه حتى صـارت تبكي دما فذلك لها تعـديل ـ وآخر هـذا الاجتهاد الفقيري الـوقيري بعد أبيات زدن على مـائة ما يدل على أن الشيخ الصـالح لم يكن الشعر له فنا ولكنها اقتحم طـريقه يرجو بـه لنفسه صلاحا بمديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال :

يا سيد الرسل قد قدمت من كلمي مدحا محياه من ذكراك مصقول
صيرت لفظي لألفاظ الورى ملكا لتـاجـه بلآلى الـزهـر تـكلـيل

لا يريد هنـا افتخارا على الشعراء بأن لفظه كالملك بين ألفاظهم فـالشيخ رحمه الله أوقر نفسا وأكرم تواضعا من ذلك . يقول كلفت لفظي أن يصير ملكا على هذه الألفاظ التى يستعملها الناس فينظمها فتكون له تا جا من لآلىء النجوم الزهر ـ بضم الزاي وسكون الهاء ـ وأخذ المعنى من قول الآخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

إن كان أخذه .

بكم هديت سبيلا للمديح لكم أمسي امرؤ القيس عنه وهو ضليل

أى ضل عنه امـرؤ القيس بشعر قالـه في الباطل وحمل به لواء الشعـراء الى النار ـ قـالوا وكان يكثر من وأد البنات خوفا من العار إذ كان محاربا محاربا فعل هذا هو سبب ترديه في النار والله أعلم وعل هذا من شنيع صنيعه يصحح أن البيتين :

فقد اختلس الطــعنة لا يدمـي لهـا نصـلى
كجيب الدفنس الورهاء ريعت وهي تستفلي

له لا لامرىء القيس الكنـدي الآخر ـ (ابن عابس) لما فيهما من الدلالـة الخفية أن هذه الدفنس هي الموؤودة .

وقد قدمت بأبياتي عَسَى سبب　　　أنجو به محكم الإبرام مفتول

السبب الحبل والإحكام والإبرام من نعوت الحبال لا من قولهم محكمة النقض والإبرام فهذا من استعمالات عصرنا

لولاك يأيها البحر البسيط ندى　　　ماطاب لي في بحور الشعر تفعيل

وكأنه رحمه الله كان يترنم بكل بيت ويقطعه ويناظر ذلك بتفعيل

والقول ما قاله كعب وان حسنت　　　من المعارض في المدح الأقاويل

أي مدح رسول الله عليه الصلاةوالسلام

لكعب القدم الأعلى ففاضلنا　　　في جنب مدحته الغراء مفضول

ولي وإن فاق حسن النسج منه على　　　أذيال بردته العلياء تذييل

رحمه الله وأثابه خيرا

وقال شمس الدين النواجي من رجال المائة التاسعة (توفى ٨٥٩هـ) وشعره متوسط يذكر كعبا في أخريات كلامه:

قدمت بين يدي نجواي من كلمي　　　هدية فضلها لى منك مبذول

لامية راق معنى مدحها ولها　　　من بحر جودك يوم العرض تنويل

فبحرها وقوافيها اذا انتظمت　　　كأنه منهل بالراح معلول

في بعض أوصاف خير الخلق قد قصرت　　　باعي وان كان نظمى فيه تطويل

هذا من اتباع للصرصري

ولم أعارض بقولي من تقدمني　　　منهم وان عذبت مني الأقاويل

لايعنى أنها عذبت فيمدح بذلك نفسه، ولكن على معنى على تقدير التسليم بأنها عذبت منها الأقاويل

كعب له في مديح المصطفى قدم　　　سباقة وبخير الخلق تفضيل

يعنى بلقائه وإنشاده أمامه ومشافهته له صلى الله عليه وسلم.

وروضة ابن زهير طاب مغرسها　　　فزهرها بندى كفيه مطلول

وإن نسجت على منوال بردته　　　طراز مدح له بالدر تكليل

فإنه كان مفتاحا لباب هدى　　　لنا به في ديار الخلد تأهيل

إن لم أفز بقبول في متابعتى　　　«بانت سعاد» «فقلبى اليوم متبول»

ولانريد بعد أن نستقصي ذكر كعب في ما جوريت به لاميته المباركة. غير أنه عسى ألا نغفل في هذا الباب ـ باب مجاراة الفقهاء ومشايخ اللغة لكعب رضى الله عنه ـ عن لاميات الزمخشرى وأبي حيان الأندلسى وصاحب القاموس مجد الدين الفيروز ابادى. وثلاثتهم لم يشيروا الى كعب اكتفاء بظهور ذلك من ركوبهم بحره ورويه أما الزمخشري فمطلع كلمته:

أضاء لي باللوى والقلب متبول ... نجدي برق بنار الحب موصول

ولم يسلم في أولها رحمه الله من جهد عمل واستقام له الروي فى آخرها، لإفصاحه عما تضمنه فؤاده من حماسة وغضب للحق ـ قال:

يا خاتم الرسل إن الطَّوْل منك على ... راجي الشفاعة يوم الحشر مأمول
فهل يجيب فتى لا حبل ذمته ... واه ولا عقده في الصدق محلول
ولااشتكت دخلا منه مناصحة ... و لا مناصح إلا وهو مدخول

فهذا تعريض بالخصوم كما ترى.
ثم مضى غاضبا على سبيل التعريض وشكوى الخصوم الى الرسول صلى الله عليه وسلم:

مامست الكأس يمناه ولاصدمت ... فاه وكلهم بالراح معلول
والعرض ريط يمان في الصوان وإن ... تملك يداه مصونا فهو مبذول

قوله والعرض رِيْط يمانٍ عبارة فصيحة ومعها صدق يصل إلى القلب ينبىء به عن حال نفسه في العفاف.
ثم يقول:

وإن يَلِ العمل المسخوط آونة ... فبينما العمل المرضي معمول

وعجيب ممن يلتمس الشفاعة أن يعتذر بهذا الاعتذار الذي تخالطه أرواح اعتزاز عما بدر منه من الذنوب. ولا يخفى أنه يضمن قوله هذا نوعا من الإشارة الى قوله تعالى: «وءاخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وءاخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم» [التوبة] وقوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» [هود].

ومكان الاعتـزاز أنه جعل ذلك له حقـا . وكان أشبـه بما هو بسبيله من التعبـد بالمديح النبوي أن لو غلب التواضع والتسليم لله ، والتعويل كل التعويل على تأميل النجاة من طـريق الشفاعـة ، لا من طريق أن مـا عمله من مسخـوط سيمحوه أن ذلك قـد وقع منـه«بينما العمل المرضي معمـول» . وإنما يذهب العمل المرضي بـالعمل المسخـوط إن صحبه القبول من المولى تعالى وصحب هذا العفـو. وعل قوله«المرضي» يحتمل شيئا من الدلالة على القبول والله تعالى أعلم .

وطـاء أعقـاب قـوم مـا لهم عمل في نصرة الـدين والإسـلام مجهـول
لهم ضمائر للتفكير قـارعـة وألسن كلهـا بـالـذكـر مشغـول

عنى بهؤلاء المعتزلة أنهم أهل فكر في خلق السماوات والأرض. وأنهم أهل ذكر بما أتقنوا من أبواب علوم الكلام . وأصل هذه المعـاني من الجاحظ أن المعتزلة كانوا هم الحارسين للدين الذابين عنه بما انتضوا دونه من سيوف حجة الكلام .

مـوحـدون إلاهـا أنت صفـوتـه مصـدقـوك فـلاغـالتهم غـول

**يشير الى مقالـة المعتزلـة أنهم أهل العدل والتوحيـد. وقولـه«أنت صفوتـه» رجع فيه الى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ولايخلو في هذه الالتفـاتة من إدلالة بتوحيده مخالطها حب لنبيه صلى الله عليـه وسلم. وله في ذلك صوت بالصـدق الصارح جهير، جهارة جانب الخطابة والمقولة العقلية أقوى فيها من جانب الحرارة الشعرية . وقوله .
«فلا غالتهم غول» من قول عبدة بن الطبيب :**

ان التى ضربت بيتـا مهـاجـرة بكـوفة الجنـد غـالت ودها غـول

ولا يصلح«غالتهم غول» في الموضع الـذي وضعها فيه الزمخشرى كصـلاح«غالت ودها غـول» ههنا ــ على ما احتـال به الـزمخشري من مذهب الـدعاء ومـا عناه من الاشـارة والتضمين .

أم لا يخلـو رحمه الله في مجيئـه بقولـه : «فلا غـالتهم غول» ــ بما فيه من دعـاء وإشارة وتضمين ـ ههنا من نـوع اعتذار عن هذا الاعتزاز بـالاعتزال والدفاع عن الفرقـة القائلة به؟ وكأنه ههنـا يلتفت من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم والتقـرب إليه ، إلى هذا الاعتذار ذي الاعتزاز والافتخار معا ، ذي المظهر المتحدي بالاعتزال لسائر من حوله من أهل السنة ، المتراجع ، أو كالمتراجع عن التحدي بهذا الدعاء :

. . . . فلا غالتهم غول

في نفس الوقت.

هل كان الزمخشري معتزلا حقا؟ أم هذا الاعتزال حلة جعلها مظهرا لقوة شخصيته وحرية فكره واعتداده بخلافته سيبويه وجهابذة لغة العرب وفحول البيان المتقدمين؟

إن زال عن رمى أغـراض الهدى فـرق تلهـو مضللـة قـالت لهم زولـوا

هل عنى أهل السنة؟ استبعد ذلك. وأشبه أن يكون عنى أعداءه الذين تسببوا في أخذه بسبيل الهجرة. وقد ضمن ههنا قافيته من قول كعب:

في فتيـة مـن قـريش قـال قـائلهم ببطن مكـة لما أسلمـوا زولـوا

إلا أنه قد انحرف بـالتضمين شيئا عن وجهه، إذ قائلو القولة«زولـوا» في بيته هم الفرقة المضللة وعند كعب هم أهل الهدى

فقـوس قـومي بـالتقـوى مـوتـرة وسهمهم بـاتبـاع الحق منصـول

وفي هذين البيتين اللذين جعلهما خاتمة القصيدة، على جودة معناهما وملاءمته لأن يكون من بـاب حسن المقطع، تعب تكلف في الصياغـة. يشهد بذلك أنـه احتاج إلى وصف الفـرق وهي في آخـر صـدر البيت: «إن زال عن رمي أغـراض الهدى فـرق» بجملتين أولاهما وصف ثالث هو الحال ـ مضللة ـ والجملة الثانية«قالت لهم زولوا» غير واضحة ملاءمة الصياغة لما قبلها. وكأن أصل المعنى: «ان زال عن رمى أغراض الهدى فرق قالت لهم زولوا فإنهم لم يزولوا عن ذلك لأن أقـواسهم موترة بالتقوى ولها نصول من اتباع الحق» ثم جاءت الجملة«تلهو مضللة» معترضة. وهو مذهب خطابي مستقيم في جدل الكلام، ولكنه ذو تعسف وتكلف في طريقة الشعر.

لاريب أن الزمخشري بعيد كل البعد عن التقية. إلا أن يكون قد اتخذ من مظهر الاعتزال سترا لبعض التشيع.. بعض يسير، ربما، ـ لا كما صنع ابن أبي الحديد من بعد إذ يزعم أنه من أهل العدل والتوحيد وهو محتب في بحبوحة من الرفض.

أبو العلاء ذو التقية والتهيب أشعر شاعرا بمدى بعيد من الزمخشري، مع قـوة الشبه بينهما في علم العربية واللغة وفهم أسرار البيان. وزمان ما بين الرجلين غير جد بعيد.

ولعل القارىء الكريم ذاكر ههنا في هذا الموضع ما كنا قلناه من أن قضية الصدق في الشعر ـ أو قل الصدق الشعري ـ من أعسر القضيات وأعوصها لمن يروم لها شرحا وتوضيحا. لا يكفى في وصف الصدق الشعري أن يقال إنه حماسة وطرح تهيب وغرف من تجارب النفس.

لابد مع ذلك من طرب وترنيم إيقاع وذهول عن هذه النفس التى بها الصدق ولها طرح التهيب وعنها التعبير. من هذا كله عند المعـرى ذي التقية والدهاء والمراوغة قدر عظيم هو الذي به تفوقه شاعرا ومزاحمته للفحول .وفي مثل قوله :

خليليّ لا يخفى انحساري عن الصبا فحلا إساري قد أضر بي الربط
ولي حاجة عند العراق وأهله فإن تقضياها فالجزاء هو الشرط

وفي مثل قوله :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أنيّ بالعراق على شفا رزيُّ الأماني لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزنا بين مشت وإقلال

من صدق الشاعرية (ترنُّمها وطرح تهيبها وغرفها من تجاربها وذهولها) ما ليس شيء مثل شيء منه عند الزمخشري رحمه الله. شعر الزمخشري رحمه الله شعر العلماء والمعري شاعر أولا، على تبحره في العلم وبين العلماء.

هذا: وكان أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي نزيل مصر (توفي ٦٨٤ هـ) ممن يرون كالزمخشري من قبل أنهم آلت إليهم خلافة سيبويه وعلم كتابه. وكان صاحب تفسير ذا بسط فيه وهو البحر المحيط. وفيه من النحو مسائل وأقاويل. ولكثير من معاصرينا به شغف ولأصحاب رسائل الجامعات الآن عليه أيُّما عكوف. وجامع البيان أملأ بغرائب مسائل النحو من البحر المحيط لما عند ابن جرير من قوة ميل إلى طريقة الكوفيين مع حذقه أقاويل نحاة البصرة، الخليل والأخفش وسيبويه وأصحابهم انظر مثلا وقفته عند الآية: «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة آية الأنعام» فإن له فيها تفصيلا أكثر مما في معاني الفراء، جاء فيه بمقالات من سيبويه ومن أبي زيد الأنصاري وغيرهما. وما خلا أبو حيان رحمه الله من بعض غفلات سذاجة العلماء، كما في تفسيره قوله تعالى من سورة: "والضحى" : «ووجدك ضالا فهدى» إذ زعم أن تفسير «وجدك ضالا فهدى» قد أهمه ثم إنه غفا فرأى في المنام قائلا يقول له إنها على تقدير حذف مضاف أي وجد رهطك ضالا، فصحا فكتب ذلك على الفور أو كما قال، وله قصيدة طويلة يذكر فيها علمه بسيبويه ويعرض ببعض معاصريه من أهل مصر. وقد كان له بأندلسيته اعتزاز ـ وكانت الأندلس ثغر جهاد، فمن شرّق منها يريد الحجَّ كان بذلك جامعا بين الغزو وأداء الفريضة فتانك فضيلتان يزيد بهما على أكثر

قصَّاد البيت من أهل المشرق. قال في اللامية التي جارى بها كعبا رضي الله عنه:

وإذ قضيت غـــزاة فأتنف عمـــلا للحج فـــالحج لـــلإســـلام تكميل
واصل سراك بسير يـــا ابـن أنـــدلس والطـــرف أدهم بـــالأشطـــان مغلـــول

يعني السفينة ـ ينظر بعض النظر إلى قول أبي الطيب يصف سفن سيف الدولة:

دهم فـــوارسهـــا ركـــاب أبطنهـــا مكـــدودة وبقـــوم غيرهـــا الألم

وأصل دهم أبي الطيب من دهماء علقمة التي حاركها بالقتب محزوم.
ثم يقول في نعت سفينته التي هي طرف أي حصان أدهم مغلول بالأشطان أي الحبال:

يـــلاطـم الـــريح منـــه أبيض يقق لـــــه من السحب المربـــــد إكليل
يعلـــو خضـــارة منـــه شـــامخ جلل ســـام طغى وهـــو بـــالنكبـــاء محمـــول

أحسب أن الصـواب «سام طفـا» بـالفاء أخـت القاف لا الغين المعجمـة أخت العين المهملة ـ حتى يقول من بعد:

مـــا زالت الموج تعليـــه وتخفضـــه حتى بـــدا من منـــار الثغـــر قنـــديل
فكبَّر النـــاس إعظـــامـــا لـــربهم وكلهم طـــرفـــه بـــالسهـــد مكحـــول
وصـافحـــوا البيـدَ بعـد اليـم وابتـدروا سبـــلا بها لجنـــاب اللـــه تـــوصيل

ثم يقول:

يســـوقهم طـــرب نحـــو الحجـــاز فهم ذوو ارتيـــاح على أكـــوارهـــا ميل
شعـث رؤوسهم يبس شفـــــاههـم خـــوص عيـــونهم غـــرث مهـــازيل

لأبي حيان كما للزمخشري شخصية قوية. غير أنه دون الزمخشري حدة ذكاء ووقدة حماسة صدق ألا أن عنده نشوة طرب وليست نشوة الطرب وحده ببالغة مبلغ إيحاء رنات حاق الشعر ههنا أيضا أمر فيه استعصاء على الشرح والتوضيح كأمر الصدق الشعريّ.
هذا وأول قصيدة أبي حيان فيه نظر إلى أول كلمة ابن زريق:

لا تعـذليـــه فإن العـذل يـــولعـه قد قلت حقـا ولكن ليس يسمعه

وهو قوله:

لا تعـــذلاه فما ذو الحب معـــذول العقل مختبـل والقلب متبـــــول

وكانت عينية ابن زريق كأنما نظمت بالأندلس[1] وقول أبي حيان: «فما ذو الحب معذول» ضعيف جدا. إذ أكثر ما يعذل أهل الحب ـ ولله در البوصيري إذ يقول:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة ... مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وقول ابن زريق «فإن العذل يولعه» تتمة حسنة لما بدأ به. ومما يعجب من عينيته، وكلها معجب، مقالته هذه الحزينة جدا في أولها:

جاوزت في نصحه حدا أضر به ... من حيث قدرت أن العذل ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالخطب يحمله ... فضلعت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من روعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه ... عزم إلى سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب إلا أن تكلفه ... للرزق سعيا ولكن ليس يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل ... موكل بفضاء الله يذرعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة ... رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه
قد قسَّم الله بين الناس رزقهم ... لم يخلق الله مخلوقا يضيعه
لكنهم كلفوا حرصا فلست ترى ... مسترزقا ومدى الغايات يقنعه
والحرص في الرزق ـ والأرزاق قد قسمت ... بغي ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه ... عفوا ويمنعه من حيث يطمعه
أستودع الله في بغداد لي قمرا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

وكان موضع ذكر هذه الأبيات في مكان مما تقدم أو مكان أنسب مما يلي وعسى أن يكون موقعها ههنا بين أشعار هؤلاء العلماء، قبل أن نصير إلى حاق شعر المديح النبوي عند مجيديه، مما يستراح إليه، عملا بمذهب أمير الأدباء وشيخ أهل التأليف أبي عثمان رحمه الله.

(١) وإنما نظمت ببغداد وألحقت بها أسطورة أندلسية وأحسبها في طبقات السبكي بسند قوي.

هذا وعلى ما كان بين الزمخشري وأبي حيان من شبه، كان بينهما نوع من تنافر، كأن أبا حيان، وزمانه متأخر عن زمان الزمخشري بنيف ومائة سنة، كان يغار من سمعة هذا وما أحرز من منزلة في مراتب أهل اللغة والتفسير والنحو. وقد تتبعه في مواضع مما جسر به كتلحينه قراء أبي عمرو بإدغام الراء في اللام، وتخطئته أبا شعيب السوسي في مفصله حيث أدغم الضاد في الشين في آية النور. وما عدا الزمخشري في الذي صنع مذاهب القدماء. ونقد القراءات عند ابن جرير كثير لا يرى بأسا في أن يصرح باستحسان ما يستحسن منها وكراهية ما لا يستحسن. وغلب على المتأخرين اتباع سبعة ابن مجاهد والثلاثة المكملي العشرة. ولأبي حيان تسليم ورع في هذا الباب. وعنده رحمه الله من بركة أهل السنة وانكسارة تواضعهم. اختلاط ذلك بها لعلماء اللغة والنحو من شراسة تباه أحيانا كثيرة من العجب. ثم كانت لأبي حيان جمحات شاعر ربما خرجت به من طريق التعبد بالمدح النبوي إلى المألوف من أساليب الشعراء في الوصف والنسيب ـ قال مثلا في أوائل القصيدة:

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول	العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمرا من خوط قامتها	فما انثنى الصب إلا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها	فكم لها جمل منه وتفصيل
فالنحر مرمرة والنشر عنبرة	والثغر جوهرة والريق معسول
والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج	والخصر مختطف والمتن مجدول
هيفاء ينبس في الخصر الوشاح لها	درماء تخرس في الساق الخلاخيل
من اللواتي غذاهن النعيم فلا	يشقين آباؤها الصيد البهاليل

ثم يقول بعد أن استمر به الغزل شوطا رحمه الله:

فعد عن ذكر لبنى إن ذكركها	على التنائي لتعذيب وتعليل

ولعل الغزل الذي مر مناسب لما صار إليه بعد من ذكر الجهاد ـ ثم هو مناسب لما كان عليه آخر الأندلس من قتال الكفرة المستمر:

فشق حيزوم هذا الليل ممتطيا	أخا حزام به قد يبلغ السول
أقب أقود يعزى للوجيه له	وجه أغر وفي الرجلين تحجيل
حفر حوافره معر قوائمه	ضمر أياطله والذيل عثكول

أما صاحب القاموس مجد الدين الفيروز آبادي [1] فقد كان من معرفة غريب اللغة لدى ذروة شاهقة إلا أنه كان عظيم الثّقة بما يقول كثير التعقّب للجوهري وقد لهج بنقد صاحب الصّحاح لهجاً، والعلماء مجمعون على تقديم الصّحاح على سائر ما صنّف بعده من المعاجم، والقاموس من أنفس المراجع واخصرها وأوضحها وأكثرها فوائد وغناء.

من شواهد عظيم ثقة الفيروز ابادي بما يقول مقدّمته التى يقول فى تحميدها «الحمد لله منطق البلغاء باللغى في البوادي ومودع اللسان ألسن اللسن الهوادي ومخصص عروق القيصوم وغضى القصيم بما لم ينله العبهر والجادي»، ثم بعد سجعات إنما هن كقواف لالتزامه رويا واحدا قال في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «باعث النبي الهادى، مفحما باللسان الضادي كل مضادي [2] مفخما لا تشينه الهجنة واللكنة والضوادي، محمد خير من حضر النوادي وأفصح من ركب الخوادي [3] وأبلغ من حلب العوادي [4]، بسقت دوحة رسالته فظهرت على شوك الكوادى [5] واستأسدت رياض نبوته فعيت فى المآسد الليوث العوادي صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الدآدي إلخ»

فمما قاله فى نسيب القصيدة وأولها:

هل حبل عـزة بعد البين مـوصول   أو بـارق الوصل بين البين مأمـول

وهذا كمطلع كلمة عبدة بن الطبيب

هل حبل خولة بعد الهجر موصول   أم أنت عنهـا بعيد الـدار مشغول

وكأنه يوهم بمجاراتها دون لامية كعب وجاء منها بقوله:

والمرء سـاع لأمـر ليس يـدركـه   والعيش شـح و إشفـاق وتـأميل

ولكنه اقتدى بكعب بلا ريب - إذ جاء له:

إن الصبابة بعد الشيب تضليل

(١) ولد بفارس سنة ٧٢٩ هـ في ربيع الثاني وتوفي باليمن بزبيد في ٢٠ من شوال سنة ٨١٧ أو ٨١٦ هـ.

(٢) مضادي، مخالف

(٣) الخوادي: الإبل من خدى البعير يخدي.

(٤) العوادي: الإبل

(٥) الكوادى هـى الكدى أى الأراضي الصلبة. عيت: أعجزت وأعيت. الدآدي الليالى المظلمة وهي ليالى آخر الشهر وهكذا فسرها صاحب القاموس فى باب الهمزة مفردها دأداء ودئداء ودؤدؤ بتثليث الدال الأولى وفتح الثانية أو ضمها.

فهذا من كلام كعب، وله :

والأمر من ربه لا شك مفعول

وهذا من كلام كعب ـ وقال :

وقال حيهلا قد رام جابركم سؤرا فسيروا إليه يا عياهيل

وهذا من قول كعب : «قال قائلهم ببطن مكة»، والحديث هنا فى كلام مجد الدين رحمه الله عن شاة جابر رضى الله عنه

وقوله : «إلا وفيها حصاة منه زهلول» من قول كعب : «أقراب زهاليل» وهذا باب يطول فمما قاله في نسيب القصيدة وأغرب :

وليلة بت ذا حزن وذا قلق والدم والدمع مطلول ومهطول
وخامر النفس من ترداد زفرتها هول وخبل وعلعول وعقبول
أما وعيني في الهجران تسلفها بالدمع دجلة والسيحون والنيل
قد حفلتها حفولا طفلة كملت فى الحسن قد صانها لطف وتحفيل[1]
رقراقة بضة حوراء هيكلة دعجاء بلجاء زانتها الأكاليل
رعبوبة رئدة لفاء هيضلة شنباء لمياء مثواها البراغيل[2]
نجلاء برجاء هيفاء مخصرة شماء قنواء بين الغيد عطبول
خود مهفهفة عطا هبنكة هركولة وثناياها معاسيل[3]
والخلق ذو بهج والخلق ذو غنج والطرف ذو دعج والثغر معسول

(١) حفلتها ملأتها بالدمع

(٢) الهيضلة النصف كما فى القاموس وينبغى أن يكون عنى بها أنها جسيمة كأنها نصف والبراغيل قرى الريف واحدها برغيل بكسر الباء.

(٣) عطا أى عطاء بتشديد الطاء المهملة أى طويلة. هبنكة بتشديد النون أى ذات كسل.

والـــوجـــه ذو بلـج والثغـــر ذو فلج / والــردف ذو رجج والطـرف مكحـــول
والخصر فى زعــج والقلـــب فى دمــج / والعين في خمج والشعـــر مـــرطـــول[4]
ميــاســة لـــو تمشت عـــرقلى نـــزلت / عـــرقـــال قلبى فتضنيـــه العـــراقيل[5]
إن الحماطيط من صـدغيك قـد لسعت / حماطتى فأحـــاطت بي الـــزعـــابيل[6]
لبــانـــة منك يـــا لميــاء لـــو قضيت / لبـــــان للبين إبـــــدال وتحويـل

فتأمل أصلحك الله.

ولصاحب القامـوس ولع بذكر ما له معان من الإحماض ـ ذلك جلي فى القاموس قلت كلمة تخلو مما يمت إليه كل الخلو

وقال فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبلج الـوجـه هلقـام لـــه شمم / وأدعج العين مــــزدان بها الميـل

الميل المرود. الهلقام الأسـد. والإغراب فى الهلقام كما ترى. أبيـات المدح على الجملة أقل إغـرابـا ممـا قبلها ونظم فيهـا من أسماء النبـى صلى الله عليـه وسلم عـددا. وأسلـوب القصيدة شعر علماء. وسط. فرحمه الله وأثابه.

هذا ـ

واعلم أيها القارىء الكريم أصلحك الله أن نقادنا أهملوا باب المديح النبوي وقسمتهم لأطوار الشعر العربي بعد زمان صدر الإسلام هكذا:

(١) العصر العباسي الأول
(٢) العصر العباسي الثاني
(٣) العصر العباسي الثالث
(٤) عصر الإنحطاط
(٥) النهضة
(٦) العصر الحديث

(١) قوله فى دمج أراه تحريفا صوابه رهج والخمج هنا مقارب لمعنى الغنج. مرطول مدهون.

(٢) العرقلى كالخيزلى. العرقال فى القاموس من لا يستقيم على رشده ويمكن حمل المعنى هنا عليه وهو بعيد وأراه محرفا من عرقاة أى أصل عروق القلب: «عرقاة قلبى»

(٣) الحماطيط جمع حمطيط بفتح الحاء أى الحية وأراد عقـارب الصدغ اذ الحية تلـدغ والعقرب تلسع ومثل هذا جـائز فقد سموا القدم حافرا فى ضرورة الشعر والحماطة سواد القلب، ذكرها المعرى فى أول رسالة الغفران.

ولا يخفى أن هـذه القسمـة تتضمن عنصرا من الـرغبـة المريضـة أن ينتسب النـاس إلى أوروبا وحضارتها وأن يكونوا امتدادا منها وجزءاً لا يتجزأ. الأوربيون يؤرخون عصورهم هكذا:

(١) العصر الكلاسيكى وينتهى بسقوط رومة سنة ٤٧٦ م
(٢) العصر المظلم من ٤٧٦ م إلى القرن التاسع الميلادى
(٣) العصر الأوسط من القرن التاسع الميلادى إلى القرن الخامس عشر الميلادى
(٤) النهضة القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر الميلادى
(٥) العصر الحديث، القرن السادس عشر الميلادى

فالحافظو بيت الشاعر وهو السهروردي:

فتشبهـوا إن لم تكـونـوا مثلهم   إن التشبـه بـالكـرام فـلاح

أو معنـاه، شبهـوا سقـوط بغـداد سنـة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بسقـوط رومـة. ثم ران الظلام. ثم جاءت النهضة. ثم هانحن أولاء فى العصر الحديث.
والتأريخ الإسلامي والعربي معا يكذبان هذه التصنيفة الخاطئة لعصورنا.
لقد كان أخذ التتار بغداد و إخرابهم لها كارثة.
ولكنه قـد قامت بعد بغـداد دول إسلامية قويـات. وامتدت رقعة الإسـلام. ونبغ فيها العلماء والأدباء. مـا بني التاج محل ولا مراصد سمـرقند إلا بعد سقوط بغـداد. وازدهر الاسلام. بتمبكتـو في القرن التاسع والعاشر الهجرى. وازدهرت بلاد المغرب بـالمعارف والعلوم وضروب مـا ينسب إلى الحضارة وتنسب الحضارة إليـه من القرن الخامس إلى أن تغلبت أوربة بدفعة الاستعمار في القرن الماضـى الميلادى. وانتشر الإسلام فى بلاد جاوة والماصين وقرع العثمانيون أبواب فينا بصلاصل الحديد.
وفى هذا العصر الـذي يقال لـه عصر الانحطاط بـرز السيوطي وابن حجـر وابن تيمية وابن القيم وابن الخطيب وابن خلدون وهذا بعد باب واسع.
وفي الشعر كان في هذه الفترة شعراء المديح النبوي المفلقون. وهؤلاء أهملهم المستشرقون عمدا وهم في ذلك معذورون. من يلوم مستشرقا على ألا يؤرخ لمن يقول:

جـــاء المسيح مـن الإلـــه رســـولا   فـأبي أقـل العـــالمين عقـــولا
قـــوم رأوا بشراً كـــريما فـــادعـــوا   من جهلهـم للـــه فيـــه حلـــولا

ولكن المسلمين غير معذورين إذ أهملوا درس هذا الشعر. ونحن هاهنا إنما نريد أن ننبه على مكانه. ثم هو جزء جوهـري من تأريخ الشعر العربي، إهماله خطأ فى باب الدرس

عظيم . ورحم اللـه الدكتـور زكي مبارك وأسكنـه فراديس الجنـان ، فقد نبـه على مكان المديح النبوى بكتـاب له فيـه . ورحم الله شـوقيا والبـارودي وجيلهما رحمة الله عليهم ورضـوانـه فقـد انتفعوا بـالمديح النبـوي ونفعـوا بـه ، على من قيل فيـه أفضل الصـلاة والتسليم .

أطوار المدحة النبوية وبعض أمرها :ـ

أطوار المدحـة النبويـة على وجه التقـريب لا الحصر أربعة ، طـور الدعـوة ، طور السياسة ، طـور التعبد الممهد ، طور النضج الذى جعلها سيـدة القصيد بعد أن ذهب بهاء قصيدة المدح وما يمت إليها .

أما طـور الدعوة فقـد كانت قصيدة المدح النبـوي فيه جزءا لا يتجـزأ من الشعر العربي آنئذ ومن أقدم ما وصلنا من قصيد الدعوة ما نسب إلى أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأشهر ذلك جميعه القصيدة اللامية التى يقول فيها :ـ

كـذبتـم وبيت اللـه نبـزى محمـدا　　ولما نطـا عن دونـه ونناضل
ونسلمـه حتـى نصرع دونـه　　ونـذهل عـن أبنـائنـا والحلائل (١)

ومنها وهو بيت مشهور:

وأبيض يستسقى الغمام بـوجهـه　　ثمال اليتـامى عصمـة لـلأرامل

مقال ابن هشـام إن أكثر أهل العلم ينكرونها لـه لا ينفيها به كلها ولكن أكثـرها إذ هي ذات طـول . ولا بد لـذلك من أصل وقد رواهـا ابن اسحـاق عن مصادر روايتـه وابن اسحاق وثقـه الشيخان . والذين روى عنهم ابن اسحـق من جيل العرب الخلص ومن أخذوا عنه صحيحه ومنحوله يستدل به بلا ريب .

ومن شعراء العرب ممن لم يسلم ومدح رسـول الله صلى الله عليه وسلم الأعشى الكبير وكلمته مشهورة :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وأدخله بها أبو العلاء فردوس رسالة الغفران .

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر والرجز جماعة . وممن كان مع المشركين يهجو المسلمين ثم أسلـم وحسن إسلامه ومـدح الرسـول صلى الله عليـه وسلم جماعة كأبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن الزبعرى وكعب بن زهير صاحب اللامية الغراء .

---

(١) أولها فيما ذكروا :

خليلى مـا أذنـى لأول عـاذل　　بصغـواء فى حـق ولا عنـد بـاطـل

وأوردها البغدادي مشروحة في الخزانة (طبعة بولاق) ج١ ـ ٢٥٢ واعتمد على شرح السهيلى فى الروض الأنف .

أما الأنصار فمع ما قدمناه من أن شعرهم جزء لا يتجزأ من شعر العرب فى أول الإسلام فإنه كان مختلفا عن شعر الأيام والنقائض والمفاخرات بأنه كان ملتزما بالقرآن والدعوة ـ كقول عبدالله بن رواحة رضى الله عنه :

إني تفرست فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما أتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

ومما ينسب إلى حسان رضى الله عنه :

نبي أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارا وبشر جنة ... وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقى ... بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلاها أنت أعلى وأمجد

وقد اضطر شعراء قريش والمشركين إلى مواجهة الدعوة بما ينقضونها به . وقد نهى الإسلام فى أيام بدئه عن رواية أشعارهم ، ثم لما ضرب الإسلام بجران تذوكر منها ، من ذلك فإن مثلا مما قيل في رثاء قتلى بدر (وقد مر الاستشهاد به أو ببعضه وهو من الرثاء المبدوء بنوع من النسيب) :ـ

ألمت بالتحية أم بكر ... فحيوا أم بكر بالسلام
ألا يا أم بكر لا تكرى ... على الكأس بعد أخى هشام
وبعد أخي أبيه وكان قرما ... من الأقوام شراب المدام

فجعل شرب المدامة فضيلة وكان الإسلام آنئذ قد ذمها إلا أنها لم تحرم إذ قيل هذا الشعر وحمزة سيد الشهداء رضى الله عنه حي وببدر فعل بالقوم الأفاعيل .

ألا من مبلغ الرحمن عنى ... بأني تارك شهر الصيام

فإن صح هذا البيت له فقد جاء بالرحمن سخرية ومغايظة ـ قال تعالى ، «وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله الا هو عليه توكلت وإليه متاب» ـ وكان رمضان قد فرض

إذا مـــا الــــرأس زايل منكبيـــه فقـــد شبع الأنيس من الطعـــام

هذا على مذهبهم. قال تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت»

أيــوعــدنــا محمـــد أن سنحيـا وكيف حيـــاة أصـــداء وهـــام

هكذا رواية البخارى للبيت وكنت أحسب أن رواية البيت ما فى رسالة الغفران «أيوعدنا ابن كبشة» وأن أصحاب الحديث حوروه تأدبا، وبعد التأمل أرى أن رواية أصحاب الحديث هي الصحيحة، وكانوا أهل دقة، وقد رووا من كلام المشركين ألفاظا. ولم يكن اسم الرجل الذي نبزوا بمشابهة أقواله نبينا عليه الصلاة والسلام كبشة ولكن أبو كبشة ولا يستقيم الوزن بابن أبي كبشة، فيكون الشاعر جاء به كما رواه البخاري وكما في السيرة. كان أبو كبشة فيما رووا يعبد الشعرى. وفي كتاب الله: «وأنه هو رب الشعرى» ـ فشتان مقال النبي صلى الله عليه وسلم إذ دعا قومه ومقال أبي كبشة. وقيل أبو كبشة كنية السعدى زوج حليمة، ويجوز، وهذا ليس مما ينبز به أحد، وإيثار أبي العلاء هذه الرواية مما ينبس ببعض ما كان يخامره رحمه الله وعفا عنه، فقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالة الغفران على لسان جنيه حيث قال:

مكـــة أقـــوت مـن بني الــــدربيس فما الجنـــي بها مـــن حسيـــس
وكسرت اصنـــــامهـــا عنـــوة فكـل جبـت بنصـل رديـس (١)
وقـــام في الصفـــوة مـن هــــاشم أزهـــــر لا يغفـل حـق الجليس
يسمع مــــا أنـــزل من ربـــه الـــ ـقدوس وحيا مثل قـرع الطسيس (٢)
يجلـــد فى الخمـــر ويشتـــد فى الـــ أمـــر ولا يطلق شرب الكسيس (٣)
ويــــرجم الــــزاني ذا العـــرس لا يقبل فيـــه ســـؤلـــة مـن رئيس

وقال حسان رضي الله عنه:

---

(١) كل جبت أى كل صنم مردوس أى بفأس

(٢) أى مثل قرع النحاس

(٣) الكسيس: النبيذ، كأن المعري يتكر بهذا على من أجاز شرب النبيذ.

عـدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء

قالوا لما دخلت خيل المسلمين مكة جعلت النساء تلطمهن بخمرهن (جمع خمار المفرد بكسر الخاء وفتح الميم بعدها الف والجمع بضمهما)فكان هذا مما نظر فيه حسان بعين البصيرة والكشف والهمزية التى منها هذه الأبيات من جيد شعره ومشهوره ـ قال رضي الله عنه:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدا ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جندا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوف نخب هواء

عنى أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهذا قبل إسلام أبي سفيان هذا

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

ويمكن أن يعتبر شعر الأنصار من حيث التزامه بدعوة الإسلام ودفاعه عنها مقدمة وتمهيدا لما افتن فيه الشعراء من بعد من ضروب أساليب الشعر المدافع عن مذاهب الفرق والجماعة وهلم جرا

ثم أمر آخر كان شعر الأنصار به مختلفا عن أشعار الأيام والمفاخرات ولم تكن شعراء الكفرة قادرة على أن تجاريهم فيه، وإن جارتهم فى الدفاع عن قضايا كفرها، وهو التعبد، وذلك لصدق إيمان الأنصار، واعتقادهم بحق أن ما يقولونه ينصرون به رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقربهم إلى الله، وهو عبادة.

شعر الجوارى الذي استقبلن به الرسول صلى الله عليه وسلم يقلن:ـ

نحن جوار من بني الأنصار ... ياحبذا محمد من جار

مـراد به التعبـد لا اللهـو إذ لا يخفى أن استقبالـه صلى اللـه عليـه وسلم والابتهاج بـه عبادة. وكذلك قول النساء والصبيان في استقباله بالنشيد:

طلع البـــــدر علينــــــا من ثنيـــــات الــــــوداع
وجـب الشكــــر علينــــا مــــا دعـــا للـــــه داع
أيها المبعــــوث فينـــــا جئـت بـــالأمــــر المطـــاع

وقد سبقت الإشارة إلى وضـوح معاني التعبد في شعر عبد الله بن رواحـة رضى الله عنه نحو قوله:

لاهم ان الأجـــــر أجـــر الآخــــرة فـــارض عـن الأنصـــار والمهـــاجـرة
ونحـو: لاهم لـولا أنت مـا اهتـدينا ولا تصـــــدقنـــا ولا صلينـــــا
ونحـو: خلـوا بني الكفــار عن سبيلـه خلـــوا فكل الخير في رســـولـــه

وقد حفظ له رجز بمؤته وبيده الراية حتى استشهد:

أقسمت يـــا نفـس لتنـــزلنـــه طـــائعـــة أو لتكـــرهنـــه
إن أجلب القــوم وشــدوا الــرنـــة مـــالى أراك تكـــرهين الجنـــة

وكما قدمنا لم يكن شعـراء المشركين ليستطيعوا هذا المسلك، وإنما كانـوا ينطقون بلسان الملإ من قريش، وهـؤلاء كانوا أهل حمية لا دين. قـال تعالى: «وما كان صـلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» [الأنفال].
إلا مـا كان من أمـر أمية بن أبي الصلت الثقفـي، وكان امرأ منافقـا، كفر قلبـه وآمن لسانه. وشعره الذي يتدين به، من أجل ذلك، خال من حرارة انفاس الإيمان الصادر عن القلب. ولعل آخر كلمة له مما رووه من كلامه:

إن تغفـــــر اللهم تغفـــــر جما وأي عبــــــــــــــد لـك لا ألما

وإنما قالها على حين لا تقبل توبة، على الأرجح.
قال تعـالى: «إنما التوبة على اللـه للذين يعملـون السوء بجهالـة ثم يتوبـون من قريب فأولئك يتـوب اللـه عليهم وكـان اللـه عليماحكيما. وليست التـوبـة للـذين يعملـون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الـذين يموتون وهـم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما.»

وقال تعالى: واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بئاياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلا القوم الذين كذبوا بئاياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون.» [الاعراف] فيذكر أن هذه الآيات نزلت في أمره وقيل غير ذلك. فإن تكن في أمره فهو خبر قاطع في هلاكه وما كان قوله الذي قال إلا لهثا لهث به، كما يلهث الكلب، ونعوذ بالله من سوء المنقلب.

طور السياسة

هذا هو الطور الثاني من أطوار المدحة النبوية. وغير خاف أن الطور الأول منه جانب سياسي ـ إلا أن جانب التعبد والجهاد لإعلاء كلمة الدين هو المعنى والمقصد الأول، وما سواه فرع منه، إذ لم تكن السياسة نفسها آنئذ إلا فرعا من إقامة الدعوة ـ ومما يشهد بهذا ما مر من كلام حسان رضى الله عنه في الهمزية وكلام ابن رواحة

رضى الله عنه. ونحو قول كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم في سورة التوبة، رضى الله عنه :ـ

نطيع نبينا ونطيع ربا	هو الرحمن كان بنا رؤوفا
فإن تلقوا إلينا السلم نقبل	ونجعلكم لنا عضدا وريفا
وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر	ولا يك أمرنا عشا ضعيفا

واختلاف هذا الطور عما قبله كامن في أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مراد به جانب نصر دعوة سياسية بعينها، هي دعوة آل البيت وشيعتهم الذين كانوا يرون أن الإمامة لا تكون في حى سواهم الا غصبا إذ هم أهل الحق.

مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في شعر هؤلاء كان مذهوبا به مذهب الاستنجاد بدعاء يتوسلون فيه به لينصرهم الله على من غصبوا آله حقهم، فهذا جانب ديني تعبدي، وكان مذهوبا به أيضا مذهب استنهاض همم المسلمين لرعاية حقه ومن حقه أن يحفظوا عهد الله إليهم في آله إذ قال سبحانه وتعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» ـ وأن يحاربوا من حاربهم، وألا يروا أحدا صالحا للإمامة غيرهم وهلم جرا، فكل هذا جوانب سياسية.

الكميت بن زيد الأسدي صاحب الهاشميات أبرز من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الوجه السياسي. ولعل من رثاء حسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكون مما مهد له ولمن سبقوه كأبي الأسود الدؤلي وقد روي له قوله:

يقـــول الأرذلـــون بنـــو قشير ... طـــوال الـدهـــر مـــا تنسى عليـــا
أحب محمـــدا حبـــا شـــديـــدا ... وعبـــاســـا وحمزة والـــوصيـــا
فـإن يك حبهـم رشـــدا أصبـــه ... ولست بمخطـىء إن كـــان غيـــا

فقد شمل بحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حبه لعميه ولعلي رضى الله عنهم. ولم يكن حسـان رضى الله عنـه ممن عرف لـه تشيع، وكان فيـه حب لعثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه، وقد رثاه بقوله المشهور:

ضحـوا بأشمط عنـوان السجـود بـه ... يقطع الليـل تسبيحـا وقـرآنـا

غير أنه في رثائه رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد له أنفاس حزن شديد لعله مستمد من شعور الأنصار أنهم قد غلبتهم قـريش على أمر رياسة الدولة الاسـلامية وسياستها بعد بيعة سيـدنا أبي بكر رضى الله عنه يوم السقيفـة وانصراف الناس عن سيد الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه ـ قال رضى الله عنه :ـ

مـــا بـــال عينـك لاتنـــام كأنما ... كحلت مـــآقيهـــا بكحـل الأرمـــد
جـــزعـــا على المهـــدي أصبح ثـــاويـــا ... يـــا خير من وطـىء الحصى لاتبعـــد

المهدي هنا هو رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهذا البيت من أقدم مـا جاء فيه هذا اللفظ، وهو ليس في القرءان، ولكنه ورد في بعض الحديث

وجهـــي يقيـك الترب لهفـــي ليتنـــي ... غيبـت قبلك فى بقيـع الغـــرقـــد

البقيع فيه قبور أهل المدينة وفيه من قبور الصحـابة عدد رضوان الله عنهم أجمعين وفيه قبر فاطمة الزهراء وقبر العباس وقبر عثمان بن عفان رضى الله عنهم وأرضاهم.

فظللت بعـــد وفـــاتـــه متبلـــدا ... متلـــددا يـــا ليتني لم أولـــد

هذا الشعر شديد انفعال العاطفة لمتأمله. وحسان الذي يقول «يا ليتني لم أولد» كان إذ قال هذا ابن سبعين سنة أو زاد عليها

أقيم بعــــدك بـــالمدينـــة بينهم ... يـــا ليتني صبحت سم الأســــود
أو حل أمـــر اللـــه فينـــا عـــاجــلا ... في روحـــة من يـــومنـــا أو في غـــد
فتقـــوم ســـاعتنـــا فنلقى طيبـــا ... محضـــا ضرائبـــه كـــريـم المحتـــد
يـــا بكـــر آمنـــة المبـــارك بكـــرهـــا ... ولـــدتـــه محصنـــة بسعـــد الأسعـــد
نـــورا أضـــاء على البريـــة كلهـــا ... من يهد للنـــور المبـــارك يهتـــد
يـــارب فـــاجمعنـــا معـــا ونبينـــا ... في جنـــة تنبي عيـــون الحســـد

فهذا تعريض بمن يكون حديث عهد بالإسلام وفي ضميره للأنصار عداوة، وقد حف أهل الردة بالمدينة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بقليل فلولا ما هدى الله إليه سيدنا أبا بكر من التشمير، ولكن الله سلم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم.

في جنـــة الفـــردوس فـــاكتبهـــا لنـــا ... يـــا ذا الجلال وذا العلى والســـؤدد
واللـــه أسمـــع مـــا بقيت بهالـــكٍ ... إلا بكيـــت على النبـــي محمـــــد
يـــا ويح أنصـــار النبي ورهطـــه ... بعـــد المغيـــب في ســـواء الملحـــد
ضـــاقت بـــالانصـــار البـــلاد فأصبحـــوا ... ســـودا وجـــوههم كلـــون الإثمـــد
ولقـــد ولـــدنـــاه وفينـــا قبره ... وفضـــول نعمتـــه بنـــا لم تجحـــد
واللـــه أكـــرمنـــا بـــه وهـــدى بـــه ... أنصـــاره في كل ســـاعـــة مشهـــد
صلى الإلـــه ومن يحف بعـــرشـــه ... والطيبـــــون على المبـــــارك أحمد

هذه القصيدة من نفيس شعر حسان وجيده. والأسى على ما صار إليه أمر الأنصار جلي كما ترى. وفي شرح نهج البلاغة شعر سياسي ذو لهجة شديدة منسوب إلى حسان ـ تناول رجال قريش ونسب بعضهم إلى نوع من حمية الجاهلية كقوله:

وعكرمة الشانى لنا ابن أبي جهل

وهذا الشعر منحول. ومما يكون جرأ على انتحاله وانتحال أمثاله ما في هذه المرثية (١) من مستكن معاني السياسة مع ما هي مشتملة عليه من اللوعة والحزن العميق. روى أبو عبيدة بيت يا ويح أنصار النبي إلخ هكذا:

---

(١) لا نعني أن المرثية منحولة. كلا. ولكن صحتها جرأت من ينتحل ما ينتحله محذوا على نموذجها.

وقيل أفـــرطت بل قصـــدت ولـــو عنفني القـــائلـــون أو ثلبـــوا
إليـك يـــاخير من تضمنت الــــ أرض ولـــو عـــاب قـــولي العيب
(أي العائبون بفتح العين المهملة والياء)
لـج بتفضيلك اللســـان ولـــو أكثــــر فيك الضجـــاج واللجب
أنت المصفى المحض المهذب في النــ سبـــة إن نص قـــومك النسب

ولو كان لم يقل فيه عليه السلام إلا مثل قوله:

وبـــورك قبر أنـت فيــه وبـــوركت بـــه ولـــه أهل بـــذلك يثـــرب
لقـــد غيبـــوا بـــرا وحـــزمـــا ونـــائلا عشيـــــة واراك الضريـح المنصب

فلو كـان لم يمدحه عليه السـلام بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامـة العرب لما كان ذلك بالمحمود، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا؟!»ا. هـ كلام الجاحظ.

قلت وماخفي عن الجاحظ مراد الكميت وهو القائل:

يشيرون بـــالأيـــدي إلى وقـــولهم ألا خـــاب هـــذا والمشيرون أخيب
فطـــائفـــة قـــد كفـــرتنـى بحبكم وطـــائفـــة قـــالـــوا مسيء ومـــذنب

فالكميـت لايعني أنهم يعيبون مـدحه المصطفى عليـه الصلاة والسلام ولكـن حبه آل البيت وغلوه في ذلك وهو بعد القائل:

أهـــــوى عليـــا أمير المؤمنين ولا ألـــوم يـــومـــا أبـــا بكـــر ولا عمـــرا
ولاأقـــول وإن لم يعطيـــا فـــدكـــا بنـت النبي ولا ميراثـــــه كفـــــرا
اللـــــه أعلم مـــاذا يحضران بـــــه يـــوم القيـــامـــة من عـــذر اذا اعتـــذرا

فهـذا الذي كـان ينكره النـاس على الكميت لاحبـه النبي صلى الله عليـه وسلم ولامدحـه له، ومراده غير خاف، فـالذى عابه بـه الجاحظ على هذا فيه نظر. وأمـا عيبه عليه «لقد غيبوا بـرا إلخ» أنها كما يمدح به الرجل الكريم من عامـة العرب، فهو أيضا فيه نظر، لأن الكميت ما عدا أن اتبع حسان في مرثيته الجيدة حيث قال:

فبـــوركت يـــاقبر الرســـول وبـــوركت بـــلاد ثـــوى فيهـا الـــرشيـــد المســـدد
وبـــــورك لحد منـك ضمـن طيبـــا عليـــه بنـــاء مـن صفيح منضـــد
تهيـل عليـــــه الترب أيـــــد وأعين عليـــه وقـــد غـــارت بـــذلك أسعـــد
لقـــــد غيبـــــوا حلما وعلما ورحمة عشيـــة علـــوه الثـــرى لايـــوســـد

وراحـــوا بحـــزن ليس فيهم نبيهم — وقـد وهنـت منهم ظهـور وأعضـد
يبكـون من تبكي السمـوات يـومـه — ومن قـد بكتـه الأرض فـالنـاس أكمـد
وهل عـدلت يـومـا رزيـة هـالك — رزيـة يـوم مـات فيـه محمـد

صلى الله عليه وسلم.

والعجب لابن قتيبه قال: «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كـان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعـره في بني أمية أجود منه في الطالبيين. ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة»ا. هـ

وزعم ابن قتيبة أن الكميت شـديد التكلف في الشعر كثير السرقة. ولـو كان هذا حقـا مـا كان شعـره ليعجب الفـرزدق في الخبر الـذى رووه، اللهم إلا أن يكـون الخبر مكذوبا وهذا بعيد. ومما يعجب لأمره من كلام ابن قتيبة أول شيىء قوله«آل أبي طالب» وقوله «في الطالبيين» والكميت نفسه يقول:

يـاويـح أنصـار النبي ونسلـه — بعـد المغيب في سـواء الملحـد

استشهد بـه في موضعين أو ثـلاثة من مجاز القـرآن. ونسله ورهطـه كلتاهما روى ومتقاربتا المعنى إلا أن نسله أخص والمعنى يـاويح أنصاره وويح نسله أو رهطه ويجوز ياويح أنصار نسلـه أو رهطه. وإن يكن أبو عبيدة قـد كان كما زعم بعضهم به ميل إلى رأي الخوارج فرواية نسله أشبه إذ ذلك لايتجاوز فاطمة رضي الله عنها وكان بقاؤها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم قليلا. ومـا كان أبو عبيدة ليستشهد بهذا البيت في تفسير القرآن وينسبه إلى حسان إلا وهو من ذلك على ثقة.

كان في أكثر الأنصار ميل إلى علي كرم اللـه وجهه وقد أصيب المسلمون على أيام يزيـد بن معاوية بمقتل الحسين رضي اللـه عنه وبوقعـة الحرة. وقد جعل الكميت من صلة ما بين الأنصار وآل البيت حجة يجادل بها ـ قال:

وقـالـوا ورثنـاهـا أبـانـا وأمنـا — ومـا ورثتهـم ذاك أم ولا أب
ولكن مـواريث ابن آمنـة الـذى — أقـر لـه بـالفضل شرق ومغـرب
بك اجتمعت انسـابنـا بعـد فـرقـة — فنحن بنـو الإسـلام نـدعى وننسب
يقـولـون لم يـورث ولـولا تـراثـه — لقـد شركـت فيهـا بكيـل وأرحب
ولانتشلت عضـوين منهـا يحابـر — وكـان لعبـد القيس عضـو مـؤرب

عـــلام إذن زرنـــا الـــزبير ونـــافعـــا بأسيـــافنـــا بعـــد المقـــانـب مقنب
وشــاط على أرمــاحنـــا بــادعــائهــا وتحويلهـــــا عنكـم شبيب وقعنب
وإلا فقـــولـــوا غيرهـــا تتعـــرفـــوا نــواصيهـــا تــردى بنـــا وهي شــزب
ولم يكن الأنصـــار عنهـــا بمعـــزل ولاغيبـــا عنهـــا إذ النـــاس غيب
هم رئمـــوهـــا غير ظأر وأشبلـــوا عليهـــا بأطـــراف القنـــا وتحدبـــوا
فـإن هي لم تصلـح لحى ســــواهـم فإن ذوي القــــربـى أحق وأقـــرب

في هذه الأبيـات من البائيـة «طربت وما شـوقا إلى البيض» بعض البيـان لما تقدم ذكره من أمر المزج بين مدحه صلى الله عليـه وسلم وقضايا السياسية التي كانت تحترب عليها الفـرق آنئذ ـ الزبير ونـافع وشبيب وقعنب هؤلاء من زعماء الخوارج، وكانـوا يرون تقديم الصالح من المسلمين للإمامة لايشترطون كونه قرشيا. ومكان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله «بك اجتمعت أنسابنا» لايخفى. وهذا يشبهه قول الآخر:

دعـى القـــــوم ينصر مــــدعيـــــه ليلحقـــــه بــــذى الحسـب الصميم
أبي الإســــــلام لا أب لى ســــــواه إذا افتخـــــــــروا بقيـس أو تميـم

قال الجاحظ في كتابه الحيوان:

« ومن المديح الخطأ الذي لم أر قط أعجب منه قـول الكميت بن زيد وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلـم، فلو كان مديحه لبني أمية لجاز أن يعيبـه بذلك بعض بني هاشم، ولو مدح به بعض بنى هاشم لجاز أن تعيبه العامة أو لو مدح به عمرو بن عبيد لجاز أن يعيبه المخالف، ولو مدح المهلب لجاز أن يعيبه أصحاب الأحنف ـ فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوؤه ذلك حيث قال:ـــ

فــاعتتب الشـــوق في فـؤادي والشعـــ ـــــــر إلى مـن إليـــــه معتتـب
إلى الســــــراج المنير أحمـــــد لا يعــــــدلني رغبـــــة ولا رهـب
عنــــه إلى غيره ولـــــو رفـع النـــا س إلى العيــــــون وارتقبـــــــوا

(ههنـــا كما تـــري شيء من التضمين)

بني هـــــاشـم رهـط النبي فـإنـني   بهم ولهم أرضـى مـــــرارا وأغضـب

فلم يقسمهم إلى طالبيين وغير طالبيين وقد ذكر سيدنا العباس «عم نبينا» ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أساء ابن قتيبة في هذا التخصيص الذي الكميت بريء منه، ولا ريب، كان الكميت يدافع عن قضية آل البيت ويرى عليا كرم الله وجهه احق الصحابة بالخلافة فهذا قد مرد سادة بني العباس الخلفاء من بعد المنصور على إنكاره وحمل من استطاعوا حمله على القول بذلك فقالوا:

أني يكـــــون وليس ذاك بكـــــائن   لبنـي البنـــــات وراثـــــة الأعمام

فصار شعر الكميت ولا سيما هاشمياته مرغوبا عنه لديهم. فهل جاء ابن قتيبة بمقاله هذا مصانعة لأهل الدولة؟

والذي صنعه الجاحظ قريب منه، والجاحظ أقوى عذرا إذ كان من رجال الدولة أقرب.

ومما يزيد العجب عجبا أن ابن قتيبة حين استشهد بما قال هو إنه يستجاد من شعر الكميت، لم يجيء بشيء مما قاله في بني أمية إلا قوله في هشام:

مصيب على الأعـــواد يـوم ركـوبـه   لما قـــال فيهـــا مخطيء حين ينـــزل

وهذا يذمه به من اللامية الهاشمية التي ذم فيها بني أمية فقال:

تحل دمـــــاء المسلمين لــــديهم   ويحرم طلـع النخلـــــة المتهـــــدل

وجاء بأبيات من البائية فقال ويستجاد له قوله في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم:

يقـــولـــون لم يـورث ولـولا تـــراثـــه   لقـــد شركت فيـــه بكيـل وأرحب
ولانتشلت عضـــوين منهـــا يحابـــر   وكـــان لعبـــد القيـس عضـــو مـؤرب
فـإن هي لم تصلـح لحي ســـــواهـم   إذن فـــذوو القـــربي أحق وأقـــرب

الهجرة. وكتاب الإمامة والسياسة إن كان حقا من تأليف ابن قتيبة يشعر بميل فيه إلى علي كرم الله وجهه. فيكون ما ذكره عن الكميت من باب التقية والله أعلم.

واستشهد على سرقة الكميت بأبيات من رائيته في بني أمية ـ وقد زعم آنفا أنه كان يجيد مدحهم، وأي جودة لما هو سرقة بينة ـ فتأمل. وآفة الرأي الهوى.

كان الكميت شاعرا مجيدا وهاشمياته في آل البيت من روائع شعره، وقد كن مما اندكت به صروح ملك بني أمية. وقد قتل من أجلها وتذرع إلى ذلك بعصبيته لمضر وهجائه لقبائل اليمن في الكلمة النونية التي يقول فيها:

فما أعنى بذلك أسفليكم　　ولكني عنيت به الذوينا

وقد صرح بعض شعراء الشيعة بعد الكميت بهجاء الصحابة، فعل هذا مثلا السيد الحميري فكان ذلك مما جعل الناس ينفرون من رواية شعره، إلا من كان له في ذلك هوى.

وقد حببت الهاشميات الناس في الشعر الحزين الذي يذكر مقاتل أهل البيت وما أصيبوا به من قبل طغيان بني أمية. فصار القول في ذلك كأنه طرف من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كالذي اشتهر من أمر تائية دعبل الخزاعي:

مدارس آيات خلت من تلاوة　　ومنزل وحي مقفر العرصات
ديار علي والحسين وجعفر　　وحمزة والسجاد ذي الثفنات

قال عبدالله بن المعتز «وهو صاحب القصيدة:

مدارس آيات خلت من تلاوة　　ومنزل وحي مقفر العرصات

وهي أشهر من الشمس ولا حاجة بنا إلى تضمينها ولا تضمين شيء منها. وهو صاحب التائية الأخرى التي أولها:

طرقتك طارقة المنى ببيات　　لا تظهري جزعا فأنت بدات
في حب آل المصطفى ووصيه　　شغل عن اللذات والقنيات

إن النشيــــد بحب آل محمــــد	أزكي وأنفع لي من القينــــات
فــاحش القصيـد بهم وفــرغ فيهم	قلبــا حشــوت هــواه بــاللــذات
واقطع لبــانــة من يــريــد ســواهم	في حبــه تحلل بـــدار نجــاة

وهي أيضا طويلة مشهورة فتركنا إيرادها».

ولم يكن ابن المعتز يخلو من نصب ما ولم يسلم من لهوجة وتمريض ما في ترجمته لدعبل، وهو معذور إذ هجا أجداده. وزعم المعري أن دعبلا كان في تشيعه كـاذبا. فالله أعلم أي ذلك كان.

وعلى طريق دعبل في التائية سلك ابن الرومي في الجيمية:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج

وفيهما معا أمل التبرك والنفس السياسي، وكأن المعري يزعم أنه كان كاذبا إذ قال إنه على مذهب غيره من الشعراء وهذا أخف من مقاله في دعبل إذ قال: «ما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع». [ص ٤٢٠ رسالة الغفران]

الطور الثالث

وهو طور التعبد الممهد. نعني بالممهد أنه قد كان توطئة لطور نضج القصيدة النبوية، وصار حينئذ التماس التعبد بها طريقا مهيعا.

ويدخل في مجال شعر التعبد أصناف كثيرة كلها يصح أن تعتبر من قبيل التمهيد لقصيدة المدح النبوي الناضجة. منهن ما كان في الصدر الأول. وقد أورد صاحب أنساب قريش شعرا كثيرا لعباد قريش، مما يشهد بأن أمر الروحانيات في شعر العرب قديم.

وفي النقاد ولع أن يجعلوا بداية الفكر العربي والإسلامي كله من عند القرن الثالث، يحاكون في هذا المستشرقين. وإنما أتي المستشرقون من إصرارهم على أن يجعلوا أمر تطور حضارة المسلمين شبيها بما كان من تأريخ النصارى، إذ مرت مائتان من السنين قبل أن يتلئب أمر النصرانية وأناجيلها على نهج واضح. فلزم عندهم أن يكون أمر المسلمين وحضارتهم كذلك.

فمن ههنا مثلا جاءت قصة التفرقة بين الزهد والتصوف والأوصاف المعنوية والأوصاف الحسية إلى آخر الباطل الذي يسرف فيه المسرفون. ولماذا يطلب المسلم معاني الروحانية وشهود أنوار الحق عز وجل من الهند ومن اليونان ومن الفرس وعنده

كتاب الله سبحانه وتعالى يقرأ فيه: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا» ويقرأ فيه: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» ويقرأ فيه: «سبحان الذي أسرى بعبده» ويقرأ فيه: «فوجدا عبدا من عبادنا ءاتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا» ويقرأ فيه «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رءاه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر». ويقرأ فيه: «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» ويقرأ فيه: «ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على مايرى. ولقد رءاه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأي من ءايات ربه الكبرى».

وقال تعالى: «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

يدخل في مجال التعبد نحو قول الراجز:

الحمد لله الذي أعفاني وكل خير صالح أعطاني

رب المثاني الآي والقرآن

وقول الآخر:

حلفت بالسبع اللواتي طولت وبمئين بعدها قد أمئيت
وبمثان ثنيت فكررت وبالطواسيم التي قد ثلثت
وبالحواميم التي قد سبعت وبالمفصل اللواتي فصلت

وزهديات أبي العتاهية على ما قيل فيه وزهديات أبي نواس وأشعار أهل العقائد والتصوف كشعر الحلاج ومما يروى له:

يـــــاسر سر يـــــدق حتى ... يجل عـــن وصـف كـــل حـــي
وظـــاهـــرا بـــاطنـــا تبـــدى ... مـــن كـــل شيء لكـــل شي
يـــاجملـــة الكل لست غيري ... فما اعتـــــذاري إذا إلي

وقـد فشت أسـاليب أهل التصـوف التي في أشعـارهـم وأدعيتهم حتى تظـرف باستعمالها الشعراء قبل زمان الحلاج وبعده وقـد جاءت من أشعار المولدين في شعر أبي نواس مثل قوله :

خلقـت لآدم قبـل طينتــــه ... فتقــدمتــه بخطـــوة القبـل

وقد عاصر الجاحظ أبا نـواس وذكر أنه أسن منه وقد ورد ذكر المتصـوفة في كلامه مرات .

وفي شعر حبيب :

لا تسقنـي مـــاء الملام فـإنني ... صب قـد استعـذبت مـاء بكـائي

وتقدم الحديث في هـذا وما بمجـراه ، وقد ذكرنـا من قبل نار الأحبـة التي كانت تشاهـدها بصائر القلوب ، قلـوب العشاق من لدن امـريء القيس إلى جميل إلي أبيات عبيد الله حيث ذكر حب عثمة فقال :

تغلغـــل حيـــث لم يبلـــغ شراب ... ولا حـــزن ولم يبلـــغ سرور

وفي أبيات الحلاج الحلـول . وأصاب المعري إذ لم يعـد أن في أبيات الحلاج معنى جديدا حقا إذ الناس كما قال قد عبدوا الحجر. فهذا بلا ريب من عنصر توهمهم حلول الإله فيه . ويلحق بهذا الضرب مقال فرعون : "أنا ربكم الأعلى" .

واكتفى أبو العـلاء بوقفة عند صياغـة الأبيات ، قال : فلا بـأس بنظمها في القوة ولكن قوله "إلي" عاهة في الأبيـات يعني "إلي" بكسر الياء ، وأبو العلاء يعلم أن هذه قراءة حمزة في : «وما أنتم بمصرخي» فانصرف بشيء من خبث خفي من نقد الحلاج إلى الطعن في قـراءة من السبعة التي اختـارهـا ابن مجاهد والقـراءة كما قال شيخ النحـو في

كتابـه هي السنة، فهـذا يجعلها بـلا ريب يحتج بها لا عليهـا. أحسب أن لو كـان أبو العتاهية حلى زهدياته بشيء من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مع إدمانه قرع باب الديانـة من طريق التذكير بالموت لكانت دخلتها من ذلك بـركة ونور، ولسلم إذن من تهمة الزندقة التي اتهمـه بها بعضهم، ذلك إذ رجحوا أنه بذكره الموت دون البعث كأنما أسر في نفسه كفرا به ـ وقد احتاط أبو نواس في زهدياته إذ يقول:

لا يجتلي الحوراء مـن خـــدرهـــا إلا أمـــرؤ ميـــزانــــه راجـح

جعل مكـان المديح النبـوي يقـوي في النفـوس متصـلا بـالعبـادة مستقـلا عن السياسة والتشيع. ومما قواه أن أساسـه ودعامته حب النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر ذلك من أمـر الكتاب والسنـة قريب. قـال تعـالى: «قل إن كنتم تحبون اللـه فاتبعـوني يحببكم الله ويغفـر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم» والاتبـاع لا يصح بلا حب، وحب رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم هو الطريـق للمعرفة، والمعـرفة لا تتم إلا بعـون الله وتوفيقه، ورأس الحكمة مخافة الله، واتقـوا الله ويعلمكم الله، ولا يعرف الإنسان نفسه إلا بالحكمة، فإذا عرفها أحبها الحب الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى، فلم تستول عليه شهواتها فيصرفه هواها عن سبل الرشـاد. وسبيل الرشاد السنة. ومن زعم أنه يتبع السنة وليس في قلبــه حب الـذي سنهـا فهـــو غير صحيح الإيمان. لأن الاتبـاع بـــلا محبـة هواء. فنسأل الله الهدايـة إنه سميع قريب مجيب. ومما يشهد بأن أمـر المديح النبوي قد قوي جدا وأن تعلق النـاس به قد كان شـديدا على زمان أبي العتاهيـة وأبي نواس مقال الجاحظ الذي أنكر به ما أنكـر على الكميت بن زيد حيث قال «فأما مدح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوءه»؟

ويذكر أن أبـا الطيب سئل لم لم يمدح رسول الله صلى اللـه عليه وسلم أو ليم في ذلك فـاعتذر بأن قـدر رسول الله صلى اللـه عليه وسلـم أعلى من أن يبلغه مـدحه أو بشيء من هذا المعنى، وقد رأيت في أحد دواوين أبي الطيب بيتين له في مدحه صلى الله عليه وسلم أو الاعتذار عن ذلك وند عني موضعهما من بعد.

وقال الشيخ يـوسف النبهاني رحمه اللـه في مقدمة المجمـوعة النبهـانية في المدائح النبوية (طبعة بيروت فى المطبعة الأدبية سنة ١٣٢٠هـ) في مقدمته لها في الفصل الثامن (ص١٧): «قـال بعض العلماء إن سبب عـدم مـــدح البعض من مشـاهير الشعـراء كالمتنبـي وأبي تمام والبحتري للنبي صلى الله عليه وسلـم إنما هو علمهم أنهم عـاجزون

عما يليق به صلى الله عليه وسلم من المدح فتركوا مدحه آدبا معه عليه الصلاة والسلام اهـ أقول لا شك في عجزهم عما يليق به صلى الله عليه وسلم من المدح وعجز الناس كافة عن ذلك بل عجز الخلق أجمعين عن معرفة فضائل سيد المرسلين وكنه كمالات حبيب رب العالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى فلا يقدر على وصف هذا العبد الكريم إلا سيده العظيم عز وجل. ولكن ذلك لا يمنع الشعراء من مدحه للتقرب إلى رضاه ورضا مولاه سبحانه وتعالى بقدر استطاعتهم فإن الله تعالى شرع لنا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن نحمده تعالى ونشكره ونثني عليه مع عجزنا كمال العجز عما يجب له ويليق به سبحانه وتعالى كما قال صلى الله عليه وسلم وهو سيد الحامدين والشاكرين والمثنين على الله تعالى، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. وكم مدح النبى صلى الله عليه وسلم نظما ونثرا من أئمة أمته من الصحابة فمن بعدهم، سادات أجلاء الواحد منهم أكثر أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة بما يليق به من ملء الأرض مثل المتنبي وأمثاله، ولكن السبب الصحيح الذي أراه لعدم مدحهم له عليه الصلاة والسلام أن مدحه من جملة الطاعات والعبادات فيحتاج للتوفيق من الله تعالى للعبد حتى يتيسر له فعله، وهؤلاء وأشباههم لم يوفقوا لهذه الطاعة العظيمة لعدم تأهلهم لها بسبب ما اتصفوا به من أخلاق الشعراء من نحو توغلهم في الكذب بأبلغ العبارات في المدح إن رضوا والذم إن غضبوا، فضلا عن تعديهم على أعراض الناس وقذفهم المحصنات والتشبيب بمعين النساء والغلمان ونحو ذلك من السفاهات وكفى بذلك مانعا لهم من مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ما لم يتوبوا إذ الظلام والنور ضدان ففى آن واحد لا يجتمعان وكونهم من أكابر الشعراء لا يقتضي تأهلهم لعبادة الله بمدح عبده ونبيه وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم، فإنا نرى كثيرا من الأغنياء لا يحجون ولا يزكون ولا يتصدقون، ونرى بعكسهم كثيرا من الفقراء كما نرى كثيرا من الأقوياء لا يصلون ولا يصومون ولا يقومون الليل، ونرى بعكسهم كثيرا من الضعفاء وما ذلك إلا بسبب توفيق الله تعالى لكثير من الفقراء والضعفاء، وعدم توفيقه لكثير من الأغنياء والأقوياء، فكذلك يقال هنا يحرم المتنبى وأمثاله من الشعراء من هذا الخير العظيم في مدح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ويرزقه كثير من العلماء والصلحاء ممن بضاعتهم في الشعر قليلة بتوفيق الله تعالى لهم. اهـ. الفصل الثامن (ص ١٩).

مقال الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في جملته لا غبار عليه. غير أنه ربما صح عليه الاستدراك في أشياء، سوي الذي سبق من زعمنا أن المديح النبوي طور خلص

إليه خلوصا اخر الأمر بعد أن خبت جذوة القصيدة المادحة وما أشبهها مما هو من سنخها كقصيدة الفخر وشكوى الحال والمراثي الحسان: من ذلك أن طاعة الله في غير عزائمه التي جاء بها الكتاب وهدت إليها السنة واتلأب عليها أمر العبادة والعمل الصالح، باب واسع. وأن هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين ذكرهم، أبا تمام وأباد عبادة وأبا الطيب، كانوا أهل جد على وجه العموم، وأمرهم في دينهم أعلم به خالقهم، ولعلهم فائزون برضاه. وقد خدموا بشعرهم رؤساء وأمراء من أهل الجهاد والذود عن حياض الإسلام. وروح الجهاد في بائية أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

جلية لا تحتاج إلى دليل ـ وفيها يذكر وقعة عمورية:

أبقيت جد بني الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب

وفيها مما فيه توكيد لمعني الجهاد:

لو كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب

والمدح المستكن لرسول الله صلي الله عليه وسلم هنا كما ترى
وقال في مدح الخليفة وما مدحه إلا بالجهاد هنا:

أجبته معلنا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منعفرا ... ولم تعرج على الأوتاد والطنب

وقال في كلمة مدح بها عمرو بن طوق فصرح في أثناء مدحه بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم يذكره أن له به ـ لو اقتدى بسنته أسوة حسنة:ـ

لك في رسول الله أعظم أسوة ... وأتمها في سنة وكتاب
أعطى المؤلفة القلوب رضاهم ... كملا ورد أخايذ الأحزاب

فقوله «أعظم أسوة» هو شاهدنا ههنا.
وقال في رائية مقتل الأفشين:

هذا الرسول وكان صفوة ربه ... مابين باد فى الأنام وقارى

وقال في إحدى مدائحه :

سـلام اللـه عـدة رمل خبت على ابـن الهيثـم الملـك اللبـاب

وأرى أنه أخـذ هذا الأسلوب في التسليم من طـريقة الصلاة والسـلام في المديح النبوي وأن ذلك في النبويات المتعبد بها كان معروفا شائعا في زمانه. على أن هذا المذهب له في العربية أصـول قديمة كما في قول الآخـر «ألا فاسلمى ثم اسلمي ثمت اسلمى» ولكن قولهم عدة كذا وعدد كذا مذهب نبوي والله أعلم.
وقال البحتري :

إن لم يبلغك الحجيـج فـلا رمـوا في الجمـرتين ولا سقـوا فى زمـزم

فهذا دعـاء من قلب مسلم وقد سبق منـا القول أن نفس هذه الـديباجـة للبحتري مما اقتدي به مداح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد ـ وقال :

ذكـروا بطلعتك النبـي فهللـوا لما بـرزت مـن الصفـوف وكبروا

وإنما ذكـرهم النبي صلي الله عليـه وسلم أن المتـوكل برز في بـرد النبي صلي الله عليـه وسلم ـ وذلك قوله :

وبـرزت في بـرد النبي مـذكـرا بـالله تنـذر تـارة وتبشر

فالقصد من البحترى ههنا إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ضمنا، كما تري، وإنما جعل مدحه الخليفة فرعا من ذلك وطرفا
وقال أبو الطيب في سيف الدولة :

فمن كـان يـرضى اللـؤم والكفـر ملكـه فهـذا الـذي يـرضي المكـارم والـربـا

وقال :

هنئيـا لضرب الهام والطعـن فى العـدا وراجيـك والإسـلام أنـك سـالم

وقال :

أرى المسلمين مـع المشركيـــــــن إمـــا لعجـــز وإمـــا رهب
وأنـت مع اللــــه في جـــانـب قليـل الـــرقـــاد كثير التعـب
كـأنك وحـــدك وحـــدتـــه ودان البريـــة بـــابـن وأب

وقال :

فبـــاتـــوا لخالقهـم سجـــدا ولـــو لم تغث سجـــدوا للصلـب

وشعـر المتنبي في الجهـاد المقصود بـه رفع رايـة الإسـلام وإعلاء كلمـة الشهـادة كثير، وصدق روحـه فيه يشهـد بانه مـا أراد به الدنيـا ـ وذلك وإن لم يصرح فيـه بمدح النبي صلي الله عليه وسلم فقد صرح فيه بنصر دين اللـه، وذلك نصر لرسول الله صلي الله عليـه وسلم ـ فنأمـل أن يدخلـه ذلك في زمـرة من عزروه ونصروه. وإن يكن إسـاء في بعض أمـره، كـالـذي اتهم بـه من دعـواه في صبـاه، وكقـولـه يمـدح أحـد الأشراف العلويين :

وأبلـغ آيـــات التهـــامى أنــــه أبـــوك وأبهى مـــالكم مـن منـــاقب

مما اضطرته إليه مذاهب المبالغة المفرطة، فقد أحسن في جهادياته كل الإحسان :ـ
مثلا قوله

نخلى لـــه المرج منصـــوبـــا بصـــارخـــة لـــه المنـــابـــر مشهـــودا بها الجمع

وهل تشهد الجمع إلا بإعلان النداء وفيه الشهادتان اللتان هما ركن الإسلام الأول؟
وبعد فقيمة الإنسان ما يحسنه. وهؤلاء الثلاثـة قد فرغوا بأنفسهم للشعر وأبلغ ما قالوه مستمد من صميم بيان العربيـة الذي يدرك به أمر معجزة بيـان القرآن ولئن كان الذي وقع لهم من الحكم والأمثال ـ وما منهم إلا له قول يتمثل به ـ من باب الحكمة التي من يؤتها فقد أوتي خيرا كثيرا، فلهم بهذا إن شاء الله فضل بين.
وقد جاء أبو العلاء بقطعة نبوية في لزومياته أولها :

دعـــاكم إلى خير الأمـــور محمـــد وليس العـوالي في القنـا كـالسـوافل

وأغلب الظن أن قومه كانوا يعجبون من أمره شاعرا يتحدث في ذم الدنيا ولا يمدح رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ فقد مدحه في رسالة الغفران وههنا ونونيته في سقط الزند:

علـــــلاني فإن بيض الأمـــــاني فنيت والظـــــلام ليس بفـــــاني

فيها من روح المديح وإن كان جرى به على وجه من وجوه الميل إلى التشيع وهو قوله:

أحـــد الخمســة الـــذين هم الاغـــر ـــــراض فى كـل منطق والمعـــاني

ومن أقدم مدائح التعبد رائية الزمخشرى (توفي رحمه الله سنة ٥٣٨ هـ) التي مطلعها:

قــــامت لتمنعني المسير تماضر أني لها وغـــرار عـــزمى بـــاتـــر
شـامت عقيقـة عـزمتى فحنينهـا رعـد وعينـاهــا السحـاب الماطـر

وهي في جملتها من فصيح الكلام وفيها أبيات جياد وعواطف طيبة وصدق تجود معه المعاني.
والزمخشري قد عزم على هجرة أوطانه إلى بيت الله الحرام لا لأداء الفرض وحده ولكن للمجاورة عند البيت الحرام بعد أداء الفريضة وزيارة القبر الشريف. بدأ الزمخشري كلمته بحماسة أعلن بها تحديه لتماضر وفخر عليها بأنها إن تك ظبية فهو ليث العرين. ثم أمرها أن تصبر. ثم خلي سبيلها غير مبال ما تقول عنه في شكواها. وما يخلو الزمخشرى من أن يكون ضمن تماضره هذه معني الدنيا وزهرتها غير أنه رحمه الله ما كان يخلو من جانب خشن الى النساء والرفق بهن مما أمر به المولي عز وجل وذلك قوله سبحانه وتعالي:
«وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» من تخشين الزمخشرى لتماضر، وينبغى أن نحملها معنى الدنيا، حتى يتم عندنا إن شاء الله معني إعراضه وتخشينه:

حني رويـــــدا لن يـــرق لظبيـــة وبغـــامهـــا ليث العـــرين الـــزائر

سيأكلها إن كان جائعا وإلا فإنه سيرق ـــ فلعلك ان تلمح في المعني هنا بعض الاضطراب

أرخي قنــاعـك يــا تماضر وامسحي عينيك صــابــرة فــإني صــابــر

هـذا البيت تخالطه رقـة ، ومصـدرها قـوله «أرخي قنـاعك» فإنها إن تكن ممن يحل لـه فكشفها قنـاعها أشبه بحال الطبيعـة ، فما يكون أمره إيـاها بإغداف القناع ــ وارخاؤه إغدافه ـ إلا أن وجهها وعينيهـا أثرتا فيه ، فلاذ بهذا الأمر الذى ظاهـره خشونة وُباطنه رقـة . وإن تكن محرمـا فهـو زجر دفعتـه إليـه رقـة مستكن الحب ، حب الأخت والأم والمحرم ، والعرب كانت مما تذكر بناتها وما إلى ذلك في باب السفر كقول الراعي :

قــالـت خليـدة مــا عـــراك ولم تكن أبـــدا إذا عـــرت الشئـــون سئـــولا
أخليـــد إن أبـــاك ضـــاف وســـاده همان بـــاتـــا جنبــــه ودخيـــلا

وقال الأعشى :

تقـــول ابنتى حين جـــد الـــرحيل أرانـــــا ســـــواء ومـن قـــــد يتـم

والزمخشري من أعلم الناس كان بالعربية وبالشعر

لــــــــو أشبهـت عبرات عينـك لجة وتعــــرضت دوني فـإني عـــابـــر

أخذ هذا من رائية وضاح اليمن ، ولكنه أخذ جيد وجانب العاطفة فيه قوي

إنى لـــــذو جـــــد كما جـــربتنى صلب وبعض النــاس رخــو فــاتــر

وقع في الطبع خطأ إذ هو هناك «إنى لذو وجـد كما جربتنى صلب » وهذا لا يستقم به المعنى وإنما هـو لذو جـد وهـذا البيت كأنـه أراد به أن يستمـر في معنى ليث العـرين ومضاء العزم ، ولو كان تنبه للأمر رحمه اللـه لكان قد تبين له أنه قد فرغ من المعنى كله عند قوله «فإني عابر» فإن رام زيادة بعد ذلك فإنما تحسن إن جاءت غنائية محضة ، وهذا باب قل من يحسن طرقه ، بله أن يؤذن لـه ـ مثلا قول البحترى :

إنى وإن جـــانبت بعـض بطـــالتى وتـــوهم الـــواشـــون أني مقصر
ليروقنـى سحــــر العيـــون المجتلى ويشــــــوقنـى ورد الخدود الأحمر

البيت الأول تـام معنـاه ، ولكن الشـاعـر احتال على التغنى بجعلـه شرطـا يحتـاج إلى جـواب ، ثم لما أتم المعنى والغنـاء معـا صرف شعـره إلى المدح إذ لم يبق في الـذي كـان بصدده من زيادة لمستزيد ـ وقال أبو تمام :

إن كـــان مسعـــود سقـى أطـــلالهم   سيل الشئـــون فلست مـن مسعـــود

فهذه نهاية تشعرك أنها آخر الكلام، ثم إذا بالشاعر يزيد معنى آخر يتغنى به ويترنم ويفتن

رحلـــوا فكـان بكـــاي حـولا بعـــدهم   ثم ارعـــويـت وذاك حكم لبيـــد

فهو من لبيد لا من مسعود، وعنى به ذا الرمة أو عنى به أخاه لقول ذى الرمة، كما مر بك أيها القارىء الكريم من قبل :-

قـــــد عجبـت أخت بنـي عبيـــــد
وهـــــزئت منى ومـن مسعـــــود
رأت غـــلامي سفـــــر بعيـــد
يـــدّرِعـــانِ الليـل ذا الســـدود
مثـل ادراع اليلمـق الجديـــــد

وقد جاء الزمخشري بعد البيت الذي زعم فيه أنه صلب وبعض الناس رخو فاتر بأبيات وسط هن قوله :

إن عـن لى أمـــر فلي عـن رفضـــه   نـــاه وبـــالإقـدام فيـــه آمـــر

وعنى أمرا من الجد ولكن عبارته كما ترى عامة فلا تفيد الدلالة القاطعة على معنى الجد الذى هو مراده إن شاء الله. هـذا وبعض الأمور مما يجب على العاقل رفضه وألا يقدم عليه. قال تعالى: «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به» - استشهدنا بالآية للدلالة على أن الأمر يقع على الشيء وعلى ضده ونقيضه.

فإذا عـــزمت على تقـــارب نهضتي   أمضى العـزيمـــة حـــدي المتنـــاصر

أى الذي ينصر بعضه بعضا وفي القافية كما ترى قلق

والجد شيمـــة مـن لـــه عـــرق إذا   عـــدت عـــروق ذوي المرائر طـــائر

قال الشارح الشيمة الطبيعة والعرق أصل كل شيء والمرائر جمع مريرة وهي العزيمة وأصلها الحبل المفتول والطائر المرتفع - انتهى قلت لا يظهر المعنى على هذا الوجه، وقد

ذكر الشارح رحمه الله أنه نقل القصيدة من ديوانه الخط (ج٢ ـ ص١٣١ ـ ١٣٥) ـ هل يريد إذا استمر ذوو المرائر في سيرهم الجاد فإن له عرقا يطير به طيرانا ؟ يجوز هذا الوجه على بعد ويكون يعني بالطيران هنا منتهى الغلو في السرعة وقد يسوغ هذا التأويل ذكره المهري من بعد وهو الجمل السريع النجيب، منسوب إلى مهرة التي تنسب إليها الإبل المهرية النجب.

مـــا فضـل المهـــري إلا أنـــه بـــالجد فى طي المراحـل مـــاهــــر

ذهب هنا من مـذاهب أهل البديع إلى حسن التعليل ــ ثم بعد هـذه الأبيات التي كما قدمنا لم يزد بها كبير شيء على قوله يفتخر «إنى لذو جد» رجع إلى حديث تماضر:

سيرى تماضر حيث شئت وحـــدثي إني إلى بطحـــاء مكـــة ســـائر

تماضر اسم الخنساء. ومـا ذهب الزمخشري إليـه ولكننى أحسبه ذهب إلى معنى تماضر سلمى بن ربيعة حيث يقول ؛

حلت تماضر غـــربـــة فـــاحتلت فلجــا وأهلـك بـاللـوى فـالحلـة
وكـأن في العينين حـب قـــرنفـل أو سنبـــلا كحلت بـــه فـــانهلت
زعمـت تماضر أننى إمـــــا أمـت يســدد أبينـوهــا الأصـــاغـر خلتى
تـــربت يــداك وهـل رأيت لقـومـــه مثلى على يسري وحين تعلتـــــى
رجـــلا إذا مـــا النـــائبـــات غشينـة أكفـى لمعضلــــــة وإن هـي جلـت

والأبيات من مشهـور الفخر وجيده وهي ممـا اختاره أبو تمام في الحماسة فإلى هنـاك نظر جار الله رحمه الله ـ أما قوله: «سيرى تماضر» فقد جارى به قول الضبي «تربت يداك» وكأنه أخذه من قول الحطيئة:

سيرى أمـــام فإنـــا الأكثـــرين حصى والأكـــرمين اذا مـــا ينسبـــون أبـــا

فجعل مكان أمـامة تماضر وهي المزجورة في قـول الضبي، وجعل مكان الحث في قـوله سيرى معنى الزجر الـذي في «تربت يداك» وإنما دعا عليها ومـراده زجرها لا أن تصب عليها لعنة ما.

فاختيار تماضر لم تمله عليه القافية بل فيما أرى من أجله جعلت القافية هكذا إذ قد تقمص الزمخشري رحمه الله شيئا من نفس هذه الكلمة المختارة

سيري تماضر حيث شئت وحدثي إني إلى بطحاء مكة سائر

ضبط في المجموعة بفتح همزة أن على أن هذا حديثها والوجه القوى وهو المقصود إن شاء الله الكسر أي اذهبي أنى شئت وحدثي الناس أني فارقتك ـ إني سائر إلى بطحاء مكة، هذا عزمي وأنا به صارح. يدلك على أن هذا كلام مستأنف تعلق ما بعده به:

حتى أنيخ وبين أطماري فتى للكعبة البيت الحرام مجاور
متعوذ بالركن يدعو ربه يشكو جرائر بعدهن جرائر
يشكو جرائر لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال كبائر

ظاهر الشكوى أنه يشكو جرائر جرها عليه غيره، إذ لم يعين أنه صاحبها. ثم كأنه في البيت التالي لبيت الركن يلوم نفسه مع بقاء الإيهام بجواز كون الجرائر من غيره، والذي يشعر بلوم نفسه قوله لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال ـ فكأن هذا تأمل منه لنفسه وفيه بعض نفس انكسارة. يقوى هذا الوجه الذي نذهب إليه قوله من بعد:

والله أكبر رحمة والله أكـ ـبر نعمة وهو الكريم القادر
وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه وأحق من يشكو إليه الغافر

فدل بهذا أنه قد عنى نفسه وان كان قد بدأ بها يوهم شكوى ذات عموم

فعسى المليك بفضله وبطوله يكسو لباس البر من هو فاجر

يلاحظ على صياغة الزمخشري الصحة وقصد الفصاحة ولكنه بالتزامه ذلك ربما جاء بالكلام جافا غير عذب الرنين ـ قوله "لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال" فيه تعب صناعة وتكلفها لأنه لما شبه الذنوب في الكثرة بالحصى بالغ فكبر هذا الحصى فجعله جبالا لأن الذنوب كبائر وفي كبائر هنا معنى الكبر الذي في الجبال لا معنى الكبر الذي يجعل صاحبه في منزلة بين المنزلتين على رأي المعتزلة، فكأن قوله حصى كبائر أي كبار مثل الجبال يحترس به ان تظن كبائر من نوع الفواحش اللواتي هن من كبائر الإثم. وقوله يكسو لباس البر من هو فاجر فالفاجر ضد البر بفتح الباء فمن لبس لباس البر بكسر الباء فهو بر بفتحها. ههنا أيضا عمل وتعب. وقوله: «وأحق من يشكو إليه الغافر» إن أراد بالغافر المولى سبحانه وتعالى وهذا من أسمائه لقوله تعالى: «غافر الذنب

وقابل التوب» فهو لا بأس به، وإن أراد أحق من يشكو إليه من يغفر ذنبك ففيه نظر. والعرب تقول: أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك. والذي يصح به المعنى ويستقيم أن يريد بالغافر الله عز وجل، وإيهام قصد عموم المعنى يدخل في سنخ صياغة هذا البيت نوعا من ضعف

يامن يسافر في البلاد منقبا إنى إلى البلد الحرام مسافر

عجز البيت حسن لأنه تغن بتكرار المعنى الذي سبق «إني إلى بطحاء مكة سائر» ولكن الصدر ضعيف، أولا لأن النداء خارج عن السياق، إذ السياق يقتضى أن يكون ينادى تماضر وما يشبه معناها. فقد ترك زجرها ليزجر غيرها وهذا تشويش ـ ويمكن أن يعتذر له بما تقدم ذكره من أن تماضر رمز للدنيا وزهرتها وطلب متاعها الفاني، فقوله:

يا من يسافر في البلاد منقبا

كأنه يقول به: «يا من غرته تماضر» أى الدنيا فخرج يطوف في الآفاق يريد المال والجاه.

إن هاجر الإنسان عن أوطانه فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع بالدين دنياه فنعم التاجر
تا لله ما البيع الربيح سوى الذي عقد التقي وكل بيع خاسر

نظم هذه الأبيات مستقيم، إلا أنها قليلة الرونق وذلك أنها لم تعد أن نظمت بعض معاني آي الكتاب كقوله تعالى: «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» ونظم معاني الآي مسلك مزلة، والحاذق من يقصد قصد الاقتباس والإشاره، إذ ان المصباح لايضيء في الشمس، وبلاغة القرآن ضوء شمسها غامر باهر، ولا ريب أن الزمخشرى قصد إلى معنى الاقتباس، فسلك بما سلكه من نظم المعاني القرآنية مسلكا يجعل شعره تعليمي المعدن، فذلك يكسبه من الجفاف ويذهب ببعض الرونق. ثم يقول رحمه الله، يشكو الذنب، بانكسارة عابد، على أنها انكسارة فيها جانب من شدة نفس العالم اللغوي التي لا تفارق الزمخشري رحمه الله:

خربت هذا العمر غير بقية فلعلنى لك يا بقية عامر
وعهدتني في كل شر أولا فلعلنى في بعض خير آخر
في طاعة الجبار أبذل طاقتي فلعلني فيها لكسرى جابر

تأمل الطباق في كل بيت ـ ولكنه سهل سائغ، ونفس شاعر ينتظم هذه الأبيات فيه

روح من أدب وصدق في حضرة المولى سبحانه عز وجل :

سأروح بين وفـود مكـــة وافــدا حتى إذا صـــدروا فما أنـا صـــادر

هذا كأنه يخاطب بـه نفسه ، ولذلك حسن شيئا موقع العزم والجزم بـه ، إذ لو كان مراده مخاطبـة غيره لكـان لـزمه الاحتراس بـذكـر الأمل والمشيئـة ، وقـد جـاء بهذا المعنى فيما بعد ، فـدل بذلك أنـه ههنا إنما يخاطب نفسـه ـ غير أنه قبل أن يصل إلى مـوضع ذلك أطال في تفسير قوله « فما أنا صادر » أنه يريد به المجاورة ، وقد سبق أن قال ذلك ، وهذا كما لا يخفى مذهب نثرى يصير به ناظمه في طريقـة الشعر إلى ما وسموه بالإخلاء ـ غير أن في اطناب الـزمخشري الذي أطنبه نغمة حـزن خفية ، كأنه بها يعزى نفسـه على فراق تماضر ، هاته التي تحتمل الكناية عن الوطن وزهرة الدنيا جميعا

بفنـــاء بيت اللـــــه أضرب قبتي حتى يحل بي الضريـح القـــابـــر

يعني حتى أحل به ، والعبارة فصيحة في مذهب العربية ولا ريب أن الزمخشري تعمدها

ألقى العصـا بين الحطيـم وزمـزم لا يطبيني إخــــوة وعشـــــائر

عنى بالحطيم البيت كله

ضيفـــــا لمولى لا يخل بضيفـــــــه ويـــريـــه أقصى مـــا تمنى الـــزائر

حسبي جـــوار اللـــه حسبي وحـــده عن كـل مفخــرة يعــد الفـــاخـــر

لا يخفى أن ههنا تطـويلا ونفسا خطابيا مـا عدا به تكرار الفكـرة التي تقدمت ومع أن هذا التوكيد يخاطب به نفسه قد عدا به الاعتدال المؤثر حقا .

سأقيـم ثـم وثـم تـــدفـن أعظمى ولســوف يبعثنـى هنـاك الحاشر

هذا مما عجل بـه الزمخشري في طلبه توكيد المعنى ، معنى الجوار الـذى بدأ به ، فغفل من حيث لم يشعر ـ أم قـد شعر ـ من قولـه تعالى : « وما تدرى نفس مـاذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير »وهي مما لا يغفل عنـه ، فكأن قد تذكر وتنبه ، فمن أجل ذلك قال من بعد ذلك مباشرة :

يـــاليـت شعـــري والحوادث جمة والغيـب فيــــه للحكيـم سرائر

هذا كما ترى كالاستدراك والتذكر

والعبـــد يحرص أن ينفـــذ عـــزمـــه ووراء عـــزم العبـــد حكم قـــاهـــر

هل في قضـــــاء اللــــه أني قـــادم أم القـــرى وإلى البنيـــة نـــاظـــر

والنظر إلى الكعبة عبادة

فمقبل الحجـــر المسح ملصقــا خـدى بـه وعليـه دمعي قـاطـر

وإنما يقبل الناس الحجر اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي وضعه في موضعه بعد أن أوشكت قبائل قريش أن تقتتل حرصا منها ألا تنفرد واحدة منها بشرف وضعه ـ فكفاهم الله ذلك بمحمد الأمين، إرهاصا بما أعده له من وحيه وإكرامه بأن يكون خاتم الأنبياء المرسلين الداعي إلى توحيد الله لا نشرك به شيئا " إليه أدعوا وإليه مئاب " ـ صلى الله على نبينا وسلم تسليما وعلى آله وصحبه

ثم أخذ الزمخشري يصف نفسه حاجا قائما بما يقوم به الحاج

فبـذلك البيت المطهـر طـائف ... في ثـوبي الاحـرام أشعـث حـاسر

فمبـادر للسعي مـابين الصفـا ... والمروةوالعبـد المجـد مبـادر

التعبير مستقيم غير أن في نظم البيت عناء وقلة رونق في الديباجة ـ كأنها إلى تخشين النظم التعليمي أقرب. ويعتذر لذلك بما يخالطه من أرب التعبد.

فمـراقب نفـر الحجيج إلى منى ... فإلى منى قبـل المعـرف نـافـر

أي نافر إلى منى قبل يوم عرفة والمعرف بضم الميم وفتح الراء مشددة

بهم يبـاهـي اللـه في ملكـوتـه ... أهل السمـوات العلى ويفـاخـر

حتى إذا دلكت بـبـراح فطـارق ... جمعـا فمنـه إلى المحصب نـافـر

جمعا: أى مـزدلفة. طارق أي آتٍ بليل ليذكـر الله عند المشعـر الحرام ويجمع فيها بين المغرب والعشاء جمع تـأخير. دلكت براح بكسر الباء وراح جمع راحة وفيـه قولان ذكرهما الطبري عند تفسير آية الإسراء فمن قال غربت قال إن المأمور بصلاتها المغرب ومن قال مالت عن الـزوال قال إن المأمور بها صلاة الظهـر ورجح الطبري القول الأول وبكليهما قيل وبـراح بوزن قطـام قيل اسم للشمس وبراح بكسر البـاء من مسح العينين لمعرفـة الزوال أو المغيب يدلك المرء عينيه لاتقاء الشعـاع والذي هنا براح بفتح الباء إذ ليس في الحاء تنوين وأنشدوا ـ ذكره الطبري والقرطبي وصاحب المجاز جميعا:

هـذا مقـام قـدمي ربـاح ... ذبـب حتى دلكـت بـراح

وآية الإسراء هي « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرءان الفجـر إن قرءان الفجر كان مشهودا».

والوقوف بعرفة الواجب الذي الإخلال به فيه الدم هو ما بين الزوال إلى الليل ولا يجزىء الوقوف قبل الزوال ـ هذا في مذهب مالك، أعنى كـونه واجبا، والوقوف الذي هو أحد أركان الحج التي لا حج للمرء بدونها هو عند مالك ما يكون في جزء من الليل فإن نفر قبل الغروب فلا حجة له وعند غيره يجزئه الوقوف بعد الزوال.

وقـوله « بهم يبـاهى »، أخـذه من الحديث ومعنى المباهـاة جلي أي يـرى الله الملائكـة حجاج بيته شعثا غبرا وهم بذلك أبهى منهم، إذ لايخفى أن الملائكـة لا يباهون الله عز وجل إذ هم عبيده " يخافون ربهم من فـوقهم ويفعلون ما يؤمرون " . ويفـاخر اضطرت الزمخشري إليها القافية ويمكن تأويلها على قريب من نفس المعنى في عسر.

فمجمـــر فمقصر أوحــــالق نحـر النهـار فللنسيكـة نـاحـر

وفي الجناس « نحر ــ ناحر » عمل كعمل المعرى وجهد علماء وكـان المسلمون إلى زمان قريب يـؤثرون الحلق على ترك الشعر سـائبا كما يفعل الناس اليـوم . وإنما سيب الناس شعـورهم بتقليـد الافـرنج، ثم إذا بعضهم يفطن ويفطنهم إلى أن ذلك كـان من عمل العرب .

وكان بدو البجاة عنـدنا ولايزال ذلك دأبهم يتركون شعرهـم ينمـو على الرؤوس ويسقونه الدهن .

وقال ابن الطثرية يصف شعره :

فيهلك مـدرى العاج في مـدلهمة إذا لم تفــرج مــات غما صــؤابها

والصؤاب صغار القمل[1].

وكان ثور أخـوه قد عاقبه بحلق رأسـه إذ تعدى مرارا على إبله فنحر منهـا فقال في هذه الكلمة :

فأصبح رأسي كـالصخيرة أشرفت عليهـا عقـاب ثم طـارت عقـابها

وقال الشنفري :

ويــوم من الشعــرى يــذوب لــوابــه أفــــاعيــــه في رمضـــــائه تتململ
نصبت لـــــه وجهي ولا كــن دونــــه ولاستر إلا الأتحمــــــي المرعبـــــــل
وضــــاف إذا هبت لـــه الــريح طيرت لبــــائد من اطــــرافــــه مـــا تـــرجل
بعيــد بمس الــدهن والفلي عهـــده لـــه عبس عـــاف مـن الغسل محول

نحر النهار أوله

وحلق الرأس الذي كان يفعله الرجال في أكثر بلاد افريقية تبركا بعمل الحج بالنسبة إلى حـال أكثرهم أصح وأدخل في حـاق النظافـة، ومن سيب عملا بها كـانت عليه عـادة العرب في غير الحج وجاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أفرع فوجه الصواب والبركة في ماقصد إليه ظاهـر ومثل هذا لاريب يلتزم بالنظافة التي سن الشرع

---

(١) راجع التماسة عزاء بين الشعراء للمؤلف ص ١٣٥ ـ ١٣٧

وإنما الأعمال بالنيات، وفي خبر الحديبية ما يشعر بتفضيل الحلق على التقصير في العمرة ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهما معا الفضيلة في قوله تعالى: لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون (الفتح).

وقال الزمخشري من بعد فأخذ في مدح النبي صلى الله عليه وسلم جاعلا الزيارة تتمة لما كان من أداء الفريضة، وكأن الحاج حين يقصد المدينة يقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هاجر، وبعض أهل الفضل والعزم الصحيح يتعمدون سلوك طريق الهجرة يتبركون بذلك :ـ

ومتى تضم قتود رحلي ضامرا   يهفو به نحو المدينة ضامر

عنى بالضامر الأول نفسه وبالضامر الثاني بعيره

ماض على الظلماء يخبطها إلى   بلد أضاء به السراج الزاهر
يهوى إلى قبر النبي محمد   خببا كما زف الظليم النافر

أما يهوى فقرآنية (سورة ابراهيم) وأما "الظليم النافر" فجاهلية ـ وكان ينبغي أن يلتمس تمام البيت بغير قوله «كما زف الظليم النافر» إذ كأنه غير تام الملاءمة لما سبق، لأن الهوي تناقضه حركة النفار، فتأمل.

لله ميت بالمدينة قبره   قصر مشيد والقصور مقابر

المراد من المعنى ظاهر ولكن الاداء قاصر، اذ من القبور ما يبنى كالقصور كتاج محل. ولكن مراده أنه قصر في القلوب والأرواح معمور بالمحبة النابعة من صدق التقوى والإيمان، ولا معنى للموازنة من بعد إذ شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك. ويأبى الزمخشري رحمه الله إلا أن يقحم بعض ما كان يشعر به من تبرم ممن لم يكن عنهم ذا رضا.

لله ميت كل حي لم يكن   بهداه حيا فهو عظم ناخر

هذا البيت بحمد الله جيد ومعانيه من القرآن ـ قوله تعالى: أوَمَنْ كان ميتا فأحييناه (الانعام) وقوله تعالى(ائذا كنا عظاما نخرة) [النازعات] وقرأ الكسائي "ناخرة" وقال الطبري إنها أعجب القراءتين إليه، وكان الزمخشري رحمه الله كثير الاتباع للطبري في تفسيره جزاهما الله عن هذا العمل الحميد خيرا.

ثم أخذ الزمخشري بعد هذا البيت الجميل في ذكر معنى قريب من نفسه، وذلك أنه كان اعرج فلا يقدر على الغزو وكان ذلك زمان جهاد لإبراز الصليبيين أنيابا

عصلا، أخذوا بها بيت المقدس، فما اشبه اليوم بالبارحة، إن الله على كل شيء قدير .

إن لم أنلــــه ولم يكن مني لــــــه بسنـــــان رمحي أو لســـــاني نـــاصر

يعني إن لم أكن من أهل ذلك الـزمـان فأسعـد بنيل رؤيـاه كما سعد الصحـابـة الأبرار، فأجاهد كما جاهدوا بالسنان واللسان .

فأنـــا النصــور لـــوحيـه بـــدلائل وجـــــه اليقين بهن أبلج زاهــــــر

ثم من ههنا رجع إلى أمر نفسـه وترك ما كان فيه من المديح، وهـذا اشبه بمذهب القصيدة، إذ كلها مبنيـة على ما عزم عليه من هجرة الأوطـان والمجاورة بالبيت الحرام ـ غير أن ههنـا التفاتـا من باب التعبـد المحض الـذي كان ينبغي أن يـرومه الى نـوع من مقارعـة الخصوم . وقـد يعتذر له في هـذا بأنه قد استفـاد من ذكر النبي صلى اللـه عليه وسلم نشوة واريحيـة وشجاعة فؤاد، وقد صـدق في هذا الذي ذكره عـن تفسيره وما هو ملحق بالتفسير من علوم اللغة والأدب، أساسه، وفائقه، ومفصله فكل اولئك ذو فوائد جمة تمت إلى فهم التنزيل والسنة بسبب متين .

مـن يلقهـن بفهمــــــــــــــه فكـأنما في مسمعيـــه الـــوحي غض نـــاضر

غض فيها إشارة إلى قول ابن مسعود رضي الله عنه .

ويهز مـن أملي إذا جـن الــــــــدجى أملى كما هــــز الجنـــاح الطـــــائر

التشبيه هنا ضعيف البنية غير متناسب مـع ماقبله، وذلك ان الطير لا ترفرف اذا جن الـدجى ولكنها تفعل ذلك عنـد اقتراب الصبـاح وإنما يذكـر من الطير مع الليل البوم وما أشبه مما يكره ان يشبه به المرء نفسه .

والجن من سراء الليل . فأعجب لما روي من قول الآخر :

أتـــوا نـــاري فقلـت منــــون انتم فقـــالــوا الجن قلت عمـوا صبـاحـا

في أبيات، والراجح أن يكـون هذا مصنوعا، لان النار لاتـوقد مع الصباح والجن ليليون، وإنما حذي هذا على قول الآخر :

ونـــار قـــد حضـأت بعيـــد وهن ... بـــدار لا أريـــد بها مقـــامـــا
ســـــوى تحليـل راحلـــــة وعين ... أكـــالئهـــا مخافـــة أن تنـــامـــا
اتـــوا نـــاري فقلت منـــون قـــالـــوا ... سراة الجن قلت عمـــوا ظـــلامـــا
وقلـت الى الطعـــام فقـــال منهـم ... زعيم نحســـد الإنس الطعـــامـــا

وزعم أهل الكتاب فيما سطروا من كتابهم أن الملائكة أكلت من العجل الحنيذ لما أرسلوا وهم في طريقهم إلى تدمير قوم لوط . فتأمل .

قال الزمخشري :

واللـــه أكـــرم أن يـــرى متجـــردا ... من حلتـي نعماه عبـــد شـــاكـــر

جعلهما حلتين تشبيها بكساء الحج . يدلك على ذلـك قوله "متجردا" ، إذ الحاج يتجرد من المخيط والمحيط :

يـــارب إني أستجيرك في الـــذي ... نطت الـــرجـــاء بـــه وأنت الخائر

هكـذا استجيرك في المطبوعـة ومـا أرى إلا أنـه أستخيرك بالخاء المعجمـة أي أنـا استخيرك وأنت سبحانك تختار لي .

وإليـك أرغب في النهـــوض بهمتـي ... حتى أفي بجميـع مـــا أنـــا نـــاذر

وهذا مقطع حسن للقصيـدة ، ومقطعه على قـول من قال إن المقـاطع هي أواخر الأبيات ، أيضا حسن .

وقـريب من زمان الـزمخشري ، سابق لـه إذ هو من رجـالات آخر القـرن الخامس (توفى سنة ٥٠٧ هـ) الأبيوردي الشاعر ، الأموي السفياني نسبا وكان يقول في نسب نفسه المعاوي نسبة الى معاوية رحمه الله . وله في المجموعة النبهانية قصيدة جاري بها "بانت سعاد" ، نبويـة ، عمد فيها الى الفاظ ضخام ، ولم يخل من أنفـاس أموية إذ نسب النبي صلى الله عليه وسلم قـرشيا ليدخل بذلك بنو أمية وأجـداده منهم في حيز هذا الشرف ، ولا ريب أنهم كـانـوا في قريش يعـاسيب ، إلا أنهم لم يكـونـوا من أهل البيت ، إلا أم حبيبة رضي الله عنها وما كان لمعاوية رحمه الله من جهة الصهر ، وقد رام يزيد أن يعتذر عن قتل الحسين صلوات الله عليه ولا عذر له حيث قال :

بيني وبين حسين الله والرحم

ولم يرع لا الرحم ولا الله سبحانه عز وجل فقصمت عنقه وهو في أوج ما كان يظن لنفسه من نصر ـ وأول كلمة الأبيوردي :

خاض الدجى ورواق الليل مسدول	برق كما اهتز ماضي الحد مصقول
أشيمه وضجيعي صارم خذم	ومحملي برشاش الدمع مبلول

وصدق من نعت الأبيوردي بأنه صاحب الفاظ لا معان فأول هذا البيت من أبي الطيب وآخره من امريء القيس .

ومن غزلها بعد أن ذكر السير ـ وإنما جاء بالغزل بعد السير لجعله المحبوبة ذكرى وطيفا ـ

واعتاده من سليمي وهي نائية	ذكر يؤرقه والقلب مبتول
ريا المعاصم ظمأى الخصر لا قصر	يزري عليها ولا يزرى بها طول
فالوجه ابلج واللبات واضحة	وفرعها وارد والمتن مجدول
كأنما ريقها والفجر مبتسم	فيما أظن بصفو الراح معلول

فهذا منهج كعب، وقال النبهاني في مقدمة مجموعته [1]: «والذي عليه الاكثرون أن التشبيب بمعين غير من يحل له من زوجة أو جارية، وبغير معين، جائز لأن المقصود منه تحسين الشعر وترقيقه على عادة الشعراء، وسماعه جائز أيضا ان لم يفتتن به سامعه بان يهيجه الى المعصية أو يطبقه على من يحرم تمتعه به، هذا في مطلق الغزل، وهو في المدائح النبوية غير مستحسن مطلقا، لأن الغزل ولو في غير معين، المشتمل على وصف الخدود والقدود والارداف وما أشبه ذلك من اوصاف النساء والغلمان التي من هذا القبيل، وما يجري للعاشق مع المعشوق من السفاهات والترهات هو مما يأبى ذكره الذوق السليم، والطبع المستقيم، في مقدمة قصيدة يمدح بها احد العلماء العاملين، والأولياء العارفين ، فضلا عن سيد الأنبياء والمرسلين ، وصفوة خلق الله أجمعين ، صلى الله عليه وسلم أما قصيدة "بانت سعاد" التي اتخذها دليلا بعض من سالك هذا المسلك واستحسنه وهو في نفسه غير حسن فهي لا تصلح دليلا لذلك لأن ناظمها كعب بن زهير رضي الله عنه كان قبل اسلامه شاعرا جاهليا فنظمها على طريقتهم قبل ان يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على يديه ويعرف اداب الاسلام، وما ينبغي ان يخاطب به سيد الأنام عليه الصلاة والسلام واقرار النبي صلى الله عليه وسلم له ولغيره على ذلك لعله لهذا السبب وقرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها مع علمه صلى الله عليه وسلم انهم لم يقصدوا بغزلهم معينا، وانما هو شيء جرى على

(١) مقدمة النبهاني ـ الفصل الخامس.

قاعدتهم فلا يترتب عليه محذور ، وحينئذ لا حاجة الى الجواب بان سعاد هي زوجته ابنة عمه وقد طالت غيبته عنها ، لان تشبيب الرجل بزوجته وان كان جائزا الا انه مخل بالمروءة كما هو ظاهر ونقله في الزواجر عن بعض الفقهاء . ولو صدرت منه هذه القصيدة بعد اسلامه واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته احكام الدين وآداب المسلمين ، ولزوم كمال التأدب في خطاب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، لربما كانت تصلح ان تكون دليلا لمن سلكوا هذا المسلك ويدل على ما قلته انه رضي الله عنه لم يحصل منه مثل هذا التشبيب بعد اسلامه ولا من احد من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم من شعراء الصحابة رضي الله عنهم في مقدمة شعر مدحوا به النبي صلى الله عليه وسلم إلا مع قرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها ، اما بعد ذلك فلم يرو عن أحد منهم شيء من هذا القبيل . وكيف يكون ذلك وهم أوفر الناس عقولا واعظم الناس ادبا مع الله ورسوله(صلى الله عليه وسلم) وقد قال الله تعالى : «يآيها الذين ءامنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » أتراهم بعد ان سمعوا هذا يضعون سفاهات الغزل بالنساء واوصافهن المتهجنة موضع الصدقة في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حاشاهم ثم حاشاهم ، ونحن مع ما بيننا وبينهم من الفرق العظيم في كل وصف جميل عقلا وشرعا ، ندرك بالبداهة عدم استحسان ذلك . ا . هـ »

وقد حذف الغزل من همزية حسان وأثبت نعت الخمر فلم يجيء من غزله إلا بقوله :

لشعثاء التى قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما ... فهن لطيب الراح الفداء

ولا يمكن أن يزعم لحسان أنه قال هذه القصيدة وهو حديث عهد بإسلام فقد قيلت في فتح مكة ومسلمو المدينة قد أسلم منهم العدد الصالح على يد أوائل الأنصار من أهل البيعة الأولى كأسعد بن زرارة رضى الله عنه .

ولحسان في ميمية بدر غزل منه قوله :

بنيت على قطن أجم كأنه ... فضلا إذا قعدت مداك رخام

فهذا من نعت الجسم لا يخفى . وفي الأبيات الهمزية قول حسان رضي الله عنه :

كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

على أنيـــــابها أو طعـم غـض مـن التفـــاح هصره اجتنـــاء
على فيهـــا إذا مــــا الليل قلـت كـــواكبــه ومــــال بها الغطـــاء

فإن يكن النبي صلى اللـه عليه وسلـم سمع هذه الأبيـات من حسـان رضى الله عنـه فليس بصواب أن نحرم سماعها، إلا أن يكون الشيخ يوسف رحمه الله قد ثبت عنده أنه لم يسمعها الـرسول عليـه الصلاة والسـلام. ويعذل رحمه اللـه إن يكن حذفهـا ليقوي بذلك حجتـه المتقدمة: ولعلـه قرأ الهمزيـة في نسخة ليست هـذه الأبيات فيها ــ قال المعرى في رسـالـة الغفـران يخاطب حسـان رضي اللـه عنـه على لسـان ابن القـارح:
«ويحك، أما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول كان أسجح مما تظنون إلخ»
قـال تعالى جل من قـائل: «فبما رحمة من اللـه لنت لهم ولو كنت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولك»
ونقل النبهاني عن ابن حجة في الفصل الرابع من مقدمته بعد أن مهد بأنه يستحسن لمن يمدح النبي صلى الله عليه وسلم أن يشبب بذكر الديار الحجازية ومعالمها إلخ قال:
«قال العـلامة تقي الـدين بن حجة في خـزانة الأدب في شرح البيت الأول من بـديعيته وهنا فائدة وهو ان الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ويتشبب مطربـا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعـذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ويطرح محاسـن المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العـذار وما أشبه ذلك وقل من يسلك هـذا الطريق من أهل الأدب. ا، هـ
عابوا أبا الطيب لقوله:

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

فقيل ما معناه أى عفاف هذا الذى يذكر السراويلات؟
ولقد أعجب من هذين الفاضلين اذ ينهيان عن ذكر الخدود والقدود والأرداف ولا يخلو كـلامهما من بعض الأنس إلى ذكـر ذلك، ولاسيما ابن حجـة إذ لم يكد يـدع شيئـا من صفة ما يشتهي وتأمل قوله «وبياض الساق وحمرة الخد».
وأحشم من ذلك، وحق لـه ذلك قول البـاعونيـة: «ويتعين في غزل المديح النبـوي أن يحتشم فيه ويتشبب بـذكر الجهات الحجازية من سلع ورامـة والبان والعلم وذي سلم وما في معنـاها ويطرح ذكـر التغزل في الردف والقـد والخد ونحو ذلك فإن سلـوك هذا

---

(١) راجع كتـاب التماسة عـزاء ص ٢٢٨ وهامش خـزانة الأدب لابن حجـة طبعة مصر ١٣٠٤ هـ تصوير بيروت ص ٣١٢.

الطريـق في المدح النبوي مشعر بقلـة الأدب، وحسب العاقـل قول الله تعـالى: «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» ا. هـ

على أن الشيخ يـوسف النبهـاني رحمه اللـه كأن قـد رجع عما قطع بـه من أن الغـزل في المدائح النبويـة على الوجه الـذي نصه، سوء أدب إذ قـال في الفصل السادس: «كنت عزمت أن لا أضع في هذه المجموعة شيئا من القصائد التي وقع التشبيب فيها بوصف الولدان والنسـاء الحسان لئلا أكون شريكا لنـاظميها فيما يلحقهم من الملام بتغزلهم بما ذكر في مقدمة مديح النبي عليه الصلاة والسلام ثم رأيت ذلك في كثيرمن غر القصائد فلم تسمح نفسي بحرمان المجموعة من ذلك الدر النظيم وحرمان اولئك الأفاضل من هذا المقام الكريم والفضل العظيم بإدخالهم هنـا في جملة مداح هذا النبي الكريم عليه أفضل الصـلاة والتسليم. ولئن أساءوا رحمهم اللـه وعفا عنهم من تلك الجهـة بعض الاساءة، فقد أحسنوا من جهة مـديحهم للنبي صلى الله عليه وسلم كل الإحسان. وقد قال صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنـة تمحها. وفي حديث آخر: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان. ولا يخلو أمرهم من إحدى هذين.
وعلى كل حال فقـد فازوا بأعظم الحسنيين، مع أن مقاصدهم في تغـزلهم بتلك الحبيبة وذلك المحبوب لا يطلع عليها إلا علام الغيـوب. بل الظاهر المتعين أنهم ليس مرادهم ما يتبادر للأفهام من ذلك الكلام. مع أنـا نعلم أن تغزلات الشعراء منذ عهد الجاهلية إلى الآن هي جـارية هـذا المجـرى بدون أن تعـاب من أحـد من أهل هذه الصنعـة بل يعـدون ذلك من محاسنها وإنما جـاءها العيب الـذي شرحناه من جهـة رعايـة الأدب اللازم مع النبي صلى الله عليه وسلم ولولا ذلك لجاءت على القياس، ولم يكن فيها بأس وقد غلبت عليهم رعاية الصنعة الشعرية فجروا على قاعدتها بدون سوء قصد ولا فساد نية ولذلك رجعت عن عـزمي الأول وأدخلتها في هذه المجموعة كغيرهـا راجيا من الله تعـالى ثم من النبي صلى اللـه عليـه وسلم العفـو عني وعنهم والقبـول مني ومنهم ان الحسنات يذهبن السيئات وإنما الأعمال بالنيات. ا. هـ»

قلت قولنا بعد أبيات الأبيوردي الأربعة فهذا منهج كعب ربما أغنى عن الإطالة، غير أن كلام الشيخ يـوسف النبهاني رحمه اللـه في غايـة الأهمية، لما فيـه من تقريـر قوة الصلة بين القصيدة القديمـة وهذه النبوية التى خلفتها، ولا يخفى مـا في الرجوع الذي رجعـه من سماحة النفس ومن استشعـار بركـة الأرب الذي من أجلـه صمم مجموعتـه النفيسة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

هذا:

ونقف يسيرا عند قول الأبيوردي رحمة الله عليه:

كأنما ريقها والفجر مبتسم ... فيما أظن بصفو الراح معلول

فقوله والفجر مبتسم يشير به إلى المعنى الـذي يكرره الشعراء من ذكر طيب رائحة الفم بعد الـرقاد عند الفجـر والغالب أن تتغير رائحة الفم انئـذ ـ قال اليشكـرى يصف ثغر رابعته:

أبيض اللون لذيذا طعمه ... طيب الريق إذ الريق خدع

قال الشارح [1] يقال خدع ريقه إذ تغير

وقولـه فيما أظن احترس به من نـاقدي الغـزل وفيه نظـر إلى دفاع المعـرى عن حسان في رسالة الغفران واستمر يعتذر عن غزله فقال:

صـــدت ووقـــرنى شيبـى فما أربى ... صهبـــاء صرف ولا غيـــداء عطبـــول

وحــال دون نسيبي بـــالـــدمى مــدح ... تحبيرهــا بــرضــا الــرحمن مــوصــول

أزيـــرهـــا قـــرشيـــا في أسرتـــه ... نـــور ومن راحتيـــه الخير مأمـــول

هنا مع مجاراة كعب ومحاكاته (نظر إلى «لنـور يستضاء به» أو « لسيف يستضاء به» وإلى «والعفو عند رسول الله مأمول»)، مع هذا نظر شديد إلى الكميت وأخذ منه.

قوله: وقرنى شيبي، من قول الكميت: ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

وقوله: « فما أربى صهباء صرف ولا غيداء عطبول»

من كلمات الكميت: «طربت وما شوقا ـ ولا لعبا ـ ولم يلهنى دار إلخ»

وقول الأبيوردى: «أزيرها قرشيا إلخ»

من قول الكميت:

ولكـن إلى أهل الفضـــــائل والنهـى ... وخير بنـي حـــــــواء والخير يطلـب

بنـي هـــــاشـم رهـط النبي فـإننـى ... بهم ولهم أرضـى مـــــــرارا وأغضـب

فجعل الأبيـوردى قرشيـا مكان قـول الكميت بني هـاشم، فهذا مـا قدمنـاه من معنى أمويته.

على أنه رحمه اللـه قد سار في سـائر المدحة على منهج منبىء بأن القصيدة النبـوية على زمانه قد اتلأبت على منهاج واضح: النسيب الـرمزى أو ما بمجراه وقد يستغنى عنه، التخلص إلى مدحه صلى الله عليه وسلم، الاختتام بالصلاة عليه وذكر أصحابه ـ

---

(١) شرح الأنبارى الكبير ص ٣٨٣.

قال الأبيوردي :

يـا خـاتم الـرسل إن لم تخش بـادرتي ... على أعـاديك غـالتني إذن غـول

والنصر بـاليـد مني واللسـان معـا ... ومن لـوى عنك جيـدا فهـو مخذول

وكل صحبك أهـوى فـالهدى معهم ... وغـرب من أبغض الأخيـار مفلـول

هـذا من الحديث : أصحابي كـالنجوم بأيهم اقتـديتم اهتديتم . ثم خلص إلى الخلفاء الأربعة ومضى على منهج أهل السنة أنهم خير الصحابة أو كما قال اللقاني في الجوهرة :

وخيرهـم مـن ولي الخلافـة ... وأمـرهم في الفضل كـالخلافـة

ثم خصص الشيخين بجمعهما معـا ومفهـوم ضمنـا أن أبـا بكـر رضى اللـه عنـه هـو المقـدم ، وأحسب أن سبب هـذا التخصيص أراد به الطعن في الـروافض على وجـه من التعريض :

وأقتـدي بضجيعيك اقتـداء أبي ... كـلاهما دم من عـاداه مطلـول

وهل عنى بقـوله «أبي» آبـائي أم كـان أبوه ذا مـوقف في هـذا الاقتـداء عرف بـه ، فأراد الأبيوردى أن يدل على مكان قدم هذا الاعتقاد عنده؟

ومـن كعثمان جـودا والسماح لـه ... عبء على كـاهل العليـاء محمـول

وأيـن مثل علي في بسـالتـه ... بمأزق مـن يـرده فهـو مقتـول

أى من مثل علي في الشجـاعـة وخـوض المآزق التي يخاف فيهـا الهلاك وواردهـا مقتـول . الكلمـة بـلا شك مأزق ميـم وألف بهمـزة وزاي وميم لا ألف بـلا همزة وذال معجمة ، فهذه لا معنى لها . وينظر الأبيوردى إلى قول أبى تمام :

والحرب قـائمـة في مأزق لحج ... تجثـو الكماة به صغـرا على الـركب

وفي عبارة الأبيـوردي على قوة تبدو في صنـاعة لفظه قصـور عن أداء المعنى على تمامه . وآخر القصيدة :

إني لأعـذل من لم يصفهـم مقـة ... والنـاس صنفـان معـذور ومعـذول

فمـن أحبهم نـال النجـاة بهم ... ومن أبـى حبهم فـالسيف مسلـول

والمعنى المراد حسن إلا أن اللفظ مقصر عنه ، إذ القسمة في كلا البيتين غير صحيحة إذ ليس النـاس صنفين : معذور ومعـذول ولكن معـذور وغير معذور؛ أو معـذول وغير معذول فيدخل في (غير معـذور) من هو ملوم ومن هو ليس بحـاجة أن يعذر إذ لم يقع منه مـا يوجب ذلك ، (على أن أكثر مـا يستعمل «غير معذور» للدلالـة على الملوم ولكن قصدنا إلى معنى القسمـة المنطقية الصحيحة .) وهذا أظهـر فى معذول وغير معذول إذ يدخل في (غير المعذول) من كان معذورا ومن لم تكن بـه حاجة لأن يعذر أو نحو ذلك مما يشعر بسبق خطأ أو ذنب .

وقوله فالسيف مسلول لا يقابل (نال النجاة بهم) لأن السيف قد يسل ولا يقع، والمعنى الصحيح أن من أحبهم نال النجاة بهم ومن أبى حبهم لم ينل النجاة وكان مصيره الهلاك.

ورحم الله الأبيوردي فقد رام بما صنع سبيل الثواب، وإنما الأعمال بالنيات، وهو بعد من أقدم كبار الشعراء فى زمانه، نظم قصيدة خالصة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح أصحابه رضى الله عنهم أجمعين.

ويقوى ما ذهبنا إليه من أن مدحة الأبيوردي قد سار بها على نهج قد استقامت عليه بنية القصيدة النبوية ما صنعه المعري وهو أسبق من الأبيوردي فى القطعة اللزومية

دعاكم إلى خير الأمور محمد ... وليس العوالى فى القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحا ... وشهب الدجى من طالعات وآفل
وألزمكم ما ليس يعجز حمله ... أخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس ... وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمرا خلت ألبابَ شربها ... من الطيش ألبابَ النعام الجوافِلِ
يجرون ثوب الملك جر أوانس ... لدى البدو أذيال الغواني الروافل
فصلى عليه الله ما ذر شارق ... وما فت مسكا ذكره فى المحافل

هذا البيت الأخير من صميم أسلوب القصيدة النبوية. و ما قبله سار به أبو العلاء على مذهب الخطباء الوعاظ إذ لا يخلو قوله دعاكم وحداكم و ألزمكم من جفاء؛ وكان أدخل في المدح لو قال: دعانا، حدانا، ألزمنا، فلم يبد كأنما قصد إلى أن يخرج نفسه. والوجه ما قدمنا أنه ذهب مذهب الخطباء الوعاظ، وكمذهب أبى العتاهية في نحو:

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى ذهاب

ولكن أبا العتاهية كان نديما داهية يعرف كيف يتأتى إلى القبول لدى نفوس ملوكه الذين يعظهم ــ فسرعان ما ترك الخطاب إلى ضمير المتكلمين الجماعة ثم إلى ضمير المتكلم الواحد:

لمن نبنى ونحن إلى تراب ... نصير كما خلقنا من تراب
ألا يا موت لم أر منك بدا ... أبيت فلا تحيف ولاتحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى ... كما هجم المشيب على شبابى

ويـــا دنيــــاي مــــالى لا أرانــى   أســـــومك منــــزلا إلا نبـــابـى

وعلى كثرة مـا يبدأ بحمد اللـه وبسبحان الله لا تجد أبا العتـاهية يذكـر النبي صلى الله عليه وسلم أو يصلى عليه بعد أن بدأ بالحمدلة

قصيدته ذات الأمثال بدأها بالحمد فبلغ به تسعة أبيات فيما بلغنا منها :

الحمـــــد للـــــه على تقـــديـــــره   وحسـن مــــاصرف من أمــــوره

الحمـــــد للـــــه بحسـن صنعــــه   شكــــرا على إعطــــائه ومنعــــه

يخير للعبـــــد وإن لم يشكـــــره   ويستر الجهـل على مـن يظهـــــره

خـــوف مـن يجهل مـن عقـــابــه   وأطمـع العـــامل في ثــــوابـــه

وأنجـــد الحجـــة بــــالإرســـال   إليهــــــم فى الأزمـــــن الخوالي

نستعصـم اللــــه فخير عـــاصـم   قـــد يسعـــد المظلـــوم ظلم الظـــالم

فضلنـــا بــــالعقل والتـــدبير   وعلـم مــــا يـأتـى من الأمـــور

يــا خير من يـدعى لـدى الشـدائد   ومن لـــه الشكـــر مـع المحـــامـد

أنـت إلهى وبـك التــــــوفيـق   والــوعــد يبـدى نـوره التحقيق

ثم يجيء بعد :

حسبك ممـــا تبتغيـــه القـــوت   مـــا أكثـر القـــوت لمن يمـــوت

إن كـــان لايغنيـك مـــا يكفيكـــا   فكـل مـــا فى الأرض لايغنيكـــا

الفقـــر فيما جـــاوز الكفـــافـــا   من عـــرف اللـــه رجـا وخـــافـــا

ولو صلى على رسول الله صلى اللـه عليه وسلم بعد الحمدلة لكان ذلـك لكلامه زينا . وقوله وإن لم يشكـره مذهب في العربية جيد، أى لم يشكـره بسكون الراء وضم الهاء ثم نقل ضمة الهاء إلى الراء ومن شواهد سيبويه :

عجبت والـــــدهـــر كثير عجبـــه   مـن عنـــزى سبني لم أضربـــــه

وقوله :

فضلنا بالعقل والتدبير   وعلم ما يأتي من الأمور

عجزه فيه نظر، إذ المعنى مقبول إن أراد به التفكر فى العواقب وليس التفكر في العواقب علما بالغيب وإن اتفق فيه الحدس الصائب أحيانا، إذا لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى .

فهذا موضع مأخذ على قول أبي العتاهية :ـ

وعلم ما يأتي من الأمور

وموضوع آخر قوله :

وأنجد الحجة بالإرسال عليهم في الأزمن الخوالى

كان عليـه أن يتبع ذلك ما منَّ اللـه به على خلقـه أجمعين وعلينا نحن معشر المسلمين خـاصة مـن إتمام نعمته بإرسـالـه بعـد تلك الأزمن الخوالى سيدنـا محمـدا على فترة من الرسل ، هاديـا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجـا منيرا ، صلى الله عليه وسلم تسليما .

هذا ومن قـديم المدح و أنضجه ويقوى مـا قدمناه ذكره الـلامية الشقراطيسيـة أوردها النبهاني فى ص١٣٨ فى قـافية اللام(المجلد الثـالث) وهى من مائة وخمسة وثـلاثين بيتا

رصينـــة السبك صريحة فى المدح النبـــويـــة عميقـــة الفهم للسيرة ، كثيرة البـــديع والشقراطيسـى المغربي من رجـال الخامس الهجرى تـوفى سنة٤٩٦هـ. وقـد أورد هذه اللامية أيضا صاحب المنهاج الواضح[1]فى آخره ، ومطلعها :

الحمـــد للـــه منـا بـــاعث الـــرسل هـــــدى بأحمد منـــــا أحمد السبـل

خير البريـــة من بـــدو و من حضر وأكـــرم الخلق مـن حـــاف ومنتعل

تـــوراة مـــوسى أتت عنـــه فصـــدقهـا إنجيـــل عيســى بحـــق غير مفتعـــل

وقد أفاض مـادحو الرسول صلى الله عليه وسلم من بعـد في أمر البشارة ومن أوسعهم وأجودهم قولا في ذلك الامام البوصيرى رحمه الله .

أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت بما رأوا ورووا في الأعصر الأول

ثم ذكر خبر المولد النبوي والمعجزات ثم ذكر المعراج فمما قال فيه :

عرجت تخترق السبع الطباق إلى مقام زلفى كريم قمت فيه على

وفى القافية هنا جهد ما وقل مثل ذلك في هذه القصيدة

ومما قال في قتلى بدر:

غادرت جهل أبى جهل بمجهلة وشاب شيبة قبل الموت من وجل

---

(١) المنهاج الـواضح في تحقيق كرامـات أبي محمد صالح ألفـه أبو العبـاس أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن محمـد صالح بن نيصارت الماجرى المغربي طبع مصر ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٥٢م .

لأنه لقي حمزة أسد الله وسيد الشهداء رضي الله عنه

وعتبــــة الشرك لم يعتب فتعطفـــــه ... منك العـــــواطف قبل الحين في مهل
وعقبـــة الغمــر عقبـــاه لشقــوتـــه ... أن ظل مــن غمــــرات الموت في ظلل

أي عقبة بن أبي معيط ووصفه بالغمر جيد بـالغ والغمر الذي لا تجربـة له ومن أهل الطيش لذلك.

وآخر القصيدة قوله:

وصـل رب وواصـل كل صــــــالحة ... على صفيك في الإصبـــاح والأصـل
عليـــه صـل صـــلاة لا انقطـــاع لها ... عـد الحصى وعـديد الـرمل ثم صل
واحفظ على القلب مني حسن خلتـه ... واغفـر لعبـدك عبـد اللـه وابن علي

فهو أبو محمد عبد الله بن علي أبي زكريا الشقراطيسي المغربي رحمه الله.

يدخل في باب طـور التمهيد الذي صارت بعـده مدحة الرسـول صلى الله عليه

وسلم هي القصيـدة الحقة ومـادحه صلى الله عليـه وسلم هـو الشاعر الحق مـا جعل بعض مداحه عليه الصلاة والسلام يفتنـون فيه من البديع. مع العلم بأن افتنانهم هذا قد جاء بعد أن قطع البديع أشواطا من فرط التكلف والتصنيع نجد لديهم من الأريحية إلى ما يفتنـون فيه مـا يذكرنـا بنشوة البـديعيين الأوائل. ولا ريب أن مرد ذلك إلى روح التعبد وسماحة النفس فيه ببذل الجهد التماسا للأجر.

فمن ذلك صنيع الوزير أبي زيد الفازازي الأندلسي من رجال أوائل القرن السابع الهجري صـاحب العشرينيات، وهي قصـائد من عشرين بيتا كل منهـا، نظمها على حروف المعجم، يبدأ البيت بـالحرف ويختمه به، فهو مطلع البيت ومقطعـه ـ مثلا من الكلمة التي اختارها له النبهاني في المجموعة:

سـلام كعـرف الروض أخضلـه النـدى ... على خير مخلـــــوق من الجن والإنـس
سليل خليـل اللـــه خـــاتـم رسلـــه ... وفي الختم منع للــــزيـادة في الطـرس
سبـــوق بـــلا أين قـــريب بـــلا مـــدى ... عليم بـــــلا خـط حفيظ بـــــلا درس
سري المزايــا طـــاهـــر البأس والنـــدى ... كـريم السجـايا طـاهـر الجسم والنفس
سريــرتــه والجهـــر نـــور وحكمـــة ... وقـــد سبق التطهير للقلب في الحس

يعني خبر شق الصدر كما في حديث المعراج وحديث أيامه صلى الله عليه وسلم عند حليمة السعدية

سرى نحو مولاه وجبريل صاحب فناهيك من قدسين في حضرة القدس

وذكر النبهاني في مقدمته لهذه القصيدة أنه أي الفازازي أنشأ ديوانه سنة ٦٠٤هـ وحدث به في الحرم المكي سنة ٦٢٤هـ ـ فذلك قبل سقوط بغداد كما ترى.

قال النبهاني في مقدمته في الفصل السابع: «اعلم أن مداح النبي صلى الله عليه وسلم في كل عصر ومصر كثيرون لا يحصيهم عد، ولا يحيط بهم حد ولو جمعت مدائح أهل عصر واحد منهم لبلغت عدة مجلدات، وكثير منهم نظموا في ذلك دواوين على أنحاء مختلفة وبعضهم التزم في شعره أمورا لا تلزمه كالوترى والطرائفي والفازازي ومن تبعهم كالشهاب أحمد المنيني الشامي فقد نظموها عشرات وعشرينيات على حروف المعجم والتزموا أن يكون أول حرف في كل بيت كحرف القافية وبعضهم جعل جميع القصيدة حروفا مهملة والبعض جعلها على عدة قواف وغير ذلك من تفننات الشعراء فجاءت قصائدهم في الغالب غير سالمة من وصمة التكلف» ا. هـ.

والوتري من رجال القرن السابع في النصف الثاني منه وتأريخ وفاته لعله سنة ٦٦٢هـ (الذي في وترياته المطبوعة بالدار البيضاء ٦٦٢هـ وأغلب الظن أن هذا مراد لتقرأ المثين فيه من جهة اليمين) وفي المجموعة النبهانية أنه أكمل نظم وترياته بالأندلس سنة ٦٥٢هـ واكملها تهذيبا بمصر سنة ٦٦١هـ وإنما سميت الوتريات لأنه زاد على عدد الفازازي واحدا فجعل كل قصيدة من واحد وعشرين بيتا وبهذا التوتير سمي الوتري وهو مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الواعظ البغدادي. وقد أورد النبهاني وترياته كلها في مجموعته مع ما فيها من ظاء وشين وغين في القوافي ـ قال: «قال وقد ظهر لي الآن أن أذكرها جميعها لقوله في خطبتها أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بعد فراغه منها وهي في يده الشريفة ومعه جماعة من أصحابه عرف منهم أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال فلما رآني قام إلي ضاحكا مستبشرا إلخ ما قاله في ص٢٨٧ من الجزء الأول من المجموعة. وهي تسع وعشرون قصيدة جعل فيها لام الألف قافية وكان حقه أن يجعلها مقصورة وقد تنبه الشيخ النبهاني لهذا، وله بعد وجه إذ مراده إظهار مكان الألف التي ليست بهمزة ولو كان قد جعلها ألفا مقصورة لسلمت من أن يلتبس أمرها باللاميات وهي التي أولها[1]:

---

(١) طبعة دار الفكر، الدار البيضاء غير مؤرخة ص٣١.

لأحمد فضل لا يعد ولا يحصى | ومن ذا يعد القطر أو يحصر الرملا
لأعظم رسل الله قدرا ومنزلا | وأوفاهم عزا وأعلاهم فضلا

ومن أشهر الوتريات، ما كان ينشده المداح عندنا إلى زمان غير جد بعيد سينيته التي أولها[1]:

سلام سلام لايحد انتشاره | على من له نور يزيد على الشمس
سلوا زمرة الأملاك عن عرس أحمد | وكيف جلوه في السماء على الكرسي
سماء وأفلاكا وحجبا يجوزها | وما زال حتى باشر العرش باللمس
سرى وسما يبغى السمو على السما | فأكرم بالإيحاء في حضرة القدس
سليل خليل الله لله قد دنا | وخص من الرحمن مولاه بالأنس
سقاه بكأس الوحي فوق سمائه | فساد على الأملاك والجن والإنس
سعادتنا إذ رد بالبشر راجعا | ومن بعد خمسين الصلاة إلى الخمس
سماوية أمست فضائل أحمد | فوالله ما تحصى بحفظ ولا درس

وفي كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري رحمه الله كلمات عدد ملتزم فيها ما لا يلزم على طريقة المعري، نظمن في التبرك بمثال نعله عليه الصلاة و السلام، وكان شكل المثال ربما رسم وتبرك به على نحو من كتابة التمائم والمعوذات.

ومن أقرب المهملات من المنظومات عهدا:

ألا واصل الله السلام المرددا

من نظم العلامة الفاهاشم الفلاتي من رجال النصف الأول من القرن المنصرم (الهجري) وشطرها الشيخ ولد الشيخ الطاهر المجذوب رحمهم الله أجمعين فصار المطلع المشطر:

ألا واصل الله السلام المرددا | لأكرم رسل الله طرا وأسعدا

وقد خلص اسلوب النظم على حروف المعجم من الفصيحة إلى الدارجة فاقتدى بديعيوها بمشابه منه، مثل كلمة المادح:

يا ناس لنصل على نبينا | كونه علينا اشفق من أبينا

---

(1) نفسه ص٢٧ واعتمدنا على النبهانية الجزء الثاني ص٢٦٢.

بـــالألف ابتـــدينـــا ومـــا غبينـــا وهلم جرا

ومن أغرب أنواع الالتزام صنيع ابن جـابر الأندلسي في رائية نسجها على روي أبي قردودة:

يـا جفنـة كإزاء الحوض قـد هـدمـوا ومنطقـــا مثل وشى اليمنـــة الحبرة

فجاء فيها بسور القرآن تباعا، قال في أولها:

في كـل فـــاتحة للقـــول معتبرة حق الثنــاء على المبعـوث بـــالبقـرة
في آل عمـران قـدمـا شـاع مبعثـه رجـالهم والنسـاء استـوضحـوا خبره
قـــد مـد للنـــاس من نعماه مـــائدة عمت فليسـت على الأنعـــام مقتصرة
أعـراف نعماه مـــا حل الـــرجـاء بها إلا وأنفـــال ذلـك الجود مبتـــدرة
بـــه تـــوسـل إذ نـــادى بتـــوبتـــه في البحـــر يـــونس والظلماء معتكـــرة
هـــود ويـوسـف كم خـــوف بـه أمنـا ولن يـــروع صـوت الـــرعـد من ذكـــره
مضمـــون دعـــوة إبـــراهيم كـــان وفي بيت الإلــه وفي الحجـــر التمس أثـــره

وهكذا حتى يقول:

والكـــافـرون إذا جـــاء الـورى طـــردوا عن حـــوضـه فلقـــد تبت يـد الكفـــرة
إخـــلاص أمـــداحـــه شغلي فكم فلق للصبح أسمعت فيـه النـاس مفتخـره
أزكي صـــــلاتي على الهادي وعترتـــــه وصحبـــه وخصـــوصـــا منهم العشرة
صـــديقهم عمـــر الفـــاروق أحـــزمهم عثمان ثـم علي مهلـك الفجــــــــرة

وهكذا. وكـان ابن جابر (توفى سنـة ٧٨٠هـ) مولعـا بالبديع والتزام مـا لا يلزم مفتنا في ذلك وله المقصورة التي التزم فيها قبل الألف حروف المعجم أولها:

بـــــادر قلبي للهـــــوى ومـــــا أرتأى لما رأى من حسنهـــا مـــا قـــد رأى

ثم بعد عشرة أبيات انتقـل إلى الباء بعدها الألف اللينة ثـم إلى التاء وهكذا حتى استوفى حـروف المعجم الثمانية والعشرين فبقى له التاسع والعشرون وهـو الألف اللينة ولا تستطاع قبل مثلهـا فجاء بلام الألف جـريا على عادة تعليم الهجـاء، ليست ألفها ألف إطلاق ولكن ألف لين هكذا:

والآن قـد أكملتهـا في مـدحـه مقصـورة يقصر عنهـا من خـلا

ثم بعد أربعـة أبيات من هذا الضرب جاء بتسعـة قبل الألف فيهن راء ثم بسبعة قبل الألف فيهن دال.

وفي المقصورة أبيـات حسان، وهي طويلـة تدل على تمكن من اللغـة واقتدار على النظم، وقد فخر فى أوائلها فقال وذكر شوقه إلى وطنه:

لـولا اشتيـاقي لـديـار كـرمت لبعـدهـا يـرثـى لنـا من قـد رثى
ومـدح من أرجـو بأمـداحى لـه إصـلاح مـا قـد عـاث منى وعثى

عنى الرسول عليه الصلاة والسلام:

لم أجعـل الشعـر لنفسـى خلـة ولم يجش فكـرى بـه ولا غثـا
يـاضيعـة الألبـاب فى دهـر غـدا فيـه فتيت المسك يعلـوه الخثى

أى بعر البقر - ثم يقول:

أنـا الفتـى لا يطبينى طمـع فأبـذل الـوجـه لنيل يـرتجى
لا أسأل النـذل ولـو أنـى بـه أملك مـا حـاز النهـار والـدجى
حسبي بنـو عبـد منـاف بهم يغنى مـن استغنى وينجـو من نجـا

فإن يكن عنى ببني عبد مناف آل البيت فيجـوز أن يكون مراده بني هاشم وبني المطلب، على أنه لـو قال بنـو هاشم و يمكن أن يستقيم بـذلك الوزن كأن يقـول مثلا "إذهم بهم" لفهم أن بنى المطلب متضمنون فيهم، وإن يكن عنى كل بنى عبد مناف فقد دخل فيهم بنو أمية، ولعله كان لهم بحكم أندلسيته ذا هوى -

ومما فيه أنفاس أندلسية قوله فى مقدمة النسيب:

يـارب ليل قـد تعـاطينـا بـه حـديث أنس مثل أزهـار الـربـا
في روضـة تعـانقت أغصـانها إذ واصلت مـا بينهـا ريح الصبـا
نـادمت فيهـا من بنى الحسـن رشـا يصبـو لـه من لم يكن قـط صبـا
أيـام كـان العيش غضـا حسنـه عـذب الجنى ريـان مـن مـاء الصبـا
أي زمـان ومحل للمنـى مـا ضـاق مغنـاه بنـا ولا نبـا

ومن جيد مدحه للمصطفى عليه الصلاة والسلام:

صلى عليك اللـه يـامن جـاهـه يـوم الحسـاب ملجأ لمن عصى
يـامـن جـرى من كفـه الماء ومن حـن لـه الجذع وسبح الحصى

وقوله:

إن يقض يعـــدل أو متى يسأل يهب ... وإن يقل يصـــدق وان يعـــد وفى
مـــا لي لا أضفى لـــه المدح وقـــد ... أضحى بـــه الحق علينـــا قـــد ضفـــا

ومما فخر به فى مقدمة القصيدة:

أنـــا الفتى لا يطبينـى مطمـع ... فأبـــذل الـــوجـــه لنيل يـــرتجى

فهذا فى معنى ما قدمناه من أن أصحاب الملكات الجيدة أحسوا كساد سوق التكسب بالمدح فانصرفت همم كثير ممن هدى الله منهم إلى التماس الأجر عند الله بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مما حثهم وقوى عزمهم فى هذا الباب داعي الجهاد الذي كان يدعوهم ليذودوا عن دار الإسلام بالمال والأنفس والسنان والبيان، إذ قد أحدق بها فى المشرق والمغرب بأس أعدائها من الصليبيين وغيرهم من الكفرة، فكانت القصيدة النبوية مما تستثار به الهمم وتعزى به النفوس، وتنشرح لنشيده الصدور، وتعرف بوجوه بلاغته وجوه بلاغة الكتاب العزيز، وذلك من أهم ما حباه الله عز وجل من أسباب حفظه. «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.»

طور النضج

وصلت القصيدة النبوية أوجها ونضجها على أيدي جماعة من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا شعراء مطبوعين لهم فى الشعر باع طويل، ومع ذلك انصرفوا بقوى ملكاتهم كلها إلى تجويد المدح النبوي دون غيره من سائر أغراض الشعر يدفعهم إلى ذلك حب عميق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرة على الدين الحنيف إذ دعاهم داعي الجهاد وتيسير من الله سبحانه وتعالى وتوفيق (١).

الوترى والفازازى وابن جابر ومن سلك سبيلهم يمثلون جانب البديع واللزوميات من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام. والزمخشرى وأبو حيان والفيروز آبادى يمثلون جانب العلماء الغالب على منهجهم أسلوب العلماء من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء قد تصفو ديباجة أساليبهم حينا ولكن الغالب عليهم نظم العلماء وقد مرت بك أمثلة ذلك في أبيات من لامية الفيروز آبادي وغيره ومما لا بأس بالاستشهاد به فى هذا المجرى دالية الحافظ ابن حجر التى أولها:

يـــاسعـــد لـــو كنت امـــرأ مسعـــودا ... مـــا كـــان صبرى فى النـــوى مفقـــودا
وسهـــرت أرتقـب النجـــوم كـأننى ... فى الأفـق أطلب للحبيـب عهـــودا

---

(١) ينبغى أن ننبه ههنا على مكان الوزير ابن أبى الخصال الأندلسى (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ) بين كبار مداح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد نوقشت بآخرة رسالة عنه بجامعة سيدى محمد بن عبدالله بفاس تدل على أن بخزانة القرويين من شعره مجموعة صالحة.

فإنه خلص فى اخرها إلى باب تعليمى محض حيث قال بعد ذكره الآل والصحابة رضى الله عنهم والإشارة إلى تابعيهم بإحسان :

من كل حبر تابع سنن الهدى ... ولى على أثر الهداة حميدا
مثل البخارى ثم مسلم الذى ... يتلوه فى العليا أبو داودا
فاقت تصانيف الكبار بجمعه الـ ... أحكام فيها يبذل المجهودا
قد كان أقوى ما رأى في بابه ... يأتى به ويحرر التجويدا

فهذا فصل في علوم الحديث ونقدها كما ترى .

وقد نظم الوزير ابن الحكيم وابن زمرك تلميذ ابن الخطيب وعدوه الموقع به من بعد وابن خلدون صاحب التأريخ والجاه الديواني بالمشرق والمغرب ولسان الدين بن الخطيب وغيرهما من أهل الجاه ووزراء الملوك ومن بمنزلتهم في المدح النبوي تبركا وتعبدا وتقوى أو تزينا بذلك وتقية كل من وجهته التى هو موليها بحسب النية التى كان ينويها . وقد كان ابن خلدون رحمه الله شاعرا لطيف الديباجة والبائية التى أوردها له النبهاني من الكلام الحسن، مطلعها :

أسرفن في هجرى وفي تعذيبى ... وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

وهي تسعة وثلاثون بيتا أربعة عشر منها في مقدمة النسيب فيها وشى من بديع كقوله :

غربت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبي

فهذا من قول البحترى « بالأمس تغرب من جوانب غرب» وأحسبه على بائية البحترى«كم بالكثيب من اعتراض كثيب» حذا قوله ههنا .

كقوله : يستعذب الصب الملام وإننى ... ماء الملام لدي غير شريب

والقافية قلقة وأول الكلام يشير به إلى قول حبيب :

لا تسقنى ماء الملام فإننى ... صب قد استعذبت ماء بكائى

وماء البكاء ذو ملوحة ونسج أبي تمام دقيق

ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى لولا تذكر منزل وحبيب

يشير إلى «قفا نبك» -

ويقول فى المدح :

ياسيد الرسل الكرام ضراعة تقضى منى نفسى وتذهب حوبى
عاقت ذنوبي عن جنابك والمنى فيها تعللنى بكل كذوب
هب لي شفاعتك التى أرجو بها صفحا جميلا عن قبيح ذنوبي
إن النجاة وإن أتيحت لامرىء فبفضل جاهك ليس بالتشبيب

هل يعتذر بهذا عن تشبيبه فى أول هذه القصيدة أو عن سائر ما اعتاده الشعراء من البدء بالتشبيب؟ أحسب هذا أشبه بما كان يغلب على ابن خلدون رحمه الله من التأمل الناقد، وقد بسط من ذلك فى مقدمته ما بسط

إنى دعوتك واثقا بإجابتى ياخير مدعو وخير مجيب
قصرت فى مدحى فإن يك طيبا فبما لذكرك من أريج الطيب

كان لسان الدين بن الخطيب [1] وابن خلدون متعاصرين ، وكأن قد كان بينهما من أشياء الغيرة وهنواتها ما يكون بين المتنافسين غير أن ابن الخطيب كان أعمق بحراً في فنون البلاغة والشعر، وهو صاحب التوشيح المشهور:

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

وقد كان ، مع كونه من أهل الوزارة والكتابة والتصنيف في مختلف العلوم والفنون ، من أدخل هؤلاء في حاق زمرة جماعة مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الذين خلصوا بذوات أنفسهم إليه ، جيد المذهب فيه ، ومن جياد مدائحه ، وذكر النبهاني أنها لم

(١) توفي ابن الخطيب سنة ٧٧٦هـ وابن خلدون سنة ٨٠٦ هـ وابن الحكيم الرندى كانت وفاته فى أوائل القرن الثامن وزار المدينة سنة ٦٨٤ هـ وكانت وفاته قتيلا رحمه الله وقتل معه شاعره ابن خميس التلمساني رحمه الله .

يوردها صاحب نفح الطيب :

تــــرك العــــرارة والكثيب شمالا ... وحـــــدا إلى ذات اليمين ومــــالا

ودعــاه داعي العــز فــابتــدر الفــلا ... سعيـــا لـــدعـــوتـــه وخـــاض الآلا

يتخير المرعـى ويفترع الـــــــربـى ... ويجر أذيـــــال الـــوشيج طـــوالا

حتى تـــوســـد أبـــرد الظل الـــذي ... كنـف العفـــاة وأحسب الآمــــالا

أى أعطاها كفايتها ثم يقول :

من مبلـغ قـــومـي على بعــــد المدى ... والبين بينهـم وبينـى حــــــــالا

أنى قطعـت البحــر للبحـــر الـــذى ... أغنـى وأقنـى واجتبـى وأنـــــــالا

فإذا نفضـت جـــوانحى عـن مطمع ... لم ألـــف للطمـــع المخـــل مجالا

إلا رضـــا اللـــه الـــذى هـــو غـــايـــة ... لأولى النهى سبحـــــانـــه وتعـــالى

ثم يقول في لوم النفس وروم سبيل الحج والزيارة:

كم مــــركب أنضيت في طلب الهوى ... وظـــلام مسعى تهت فيـــه ضـــلالا

وقفت بـــه قـــدمي على نـــدمى أسى ... مـن رام غير اللـــــــــــه رام محالا

إن ســـــامحت بنعم ونعمـى همتـى ... غـــارت بي الـــدنيـــا فقـــالت لالا

همنـــا بشمطـــاء المفـــارق لم تـــزل ... خـــرقـــاء تخلط بـــالنفـــار دلالا

عنى بالشمطاء الدنيا . وفى خرقاء نوع من إشارة إلى صاحبة ذى الرمة التي قال فيها :

تمام الحج أن تقف المطـــــايـــــا ... على خـــرقـــاء واضعـــة اللثـــام

وقوله «تخلط بالنفار دلالا» دل به على أنها غير خـرقاء في فتنة ذوي الألباب حتى تعزب بهم عنها أو كما قال :

غطى على الألبـاب منـــا سحـــرهـــا ... فنـرى الحقيقـة في الـوجـود خيـالا

ولابن الخطيب أحيـانا ولـع بعبارات الفلسفـة والمنطق ، فـربما كدر ذلك بعض صفـاء ديباجتـه شيئا وقـد يعلم القارىء الكريم أصلحـه الله طعن ابن خلـدون على تعاطى مـذاهب الفلاسفـة في الشعر حتى لم يعف من نقـد بها قـاله أبـا الطيب المتنبى بله أبـا العلاء فهل ضمن مقاله في ذلك بعض التعريض بابن الخطيب؟

يـاليت شعـرى هـل أرى متـوسـدا / كـومـاء تخبط سبسبـا ورمـالا
من كل حـاليـة الطلى تفـرى الفـلا / ظلمان جـو مـا عـرفن كـلالا
صـارت قسيا بـالضمـور وفـوقهـا / أنضـاء صيرهـا النحـول نبـالا

ما أرى إلا أنه (وفوقها الأنضاء) إذ ليس هذا مما يمنع من الصرف ويناسب مكان الألف واللام هنا مكانهما من قوله (بالضمور)

مـا زلن في تعب وشـدة لـوعـة / حتى بلغن بنـا النبي فـزالا

ثم أخذ فى مدحه عليه الصلاة والسلام فقال :

خير الأنـام ومعـدن النـور الـذي / نسخ الضـلالـة بـالهدى وأزالا
وغيـاث أهل الأرض يفـرج عنهم / ربق الـذنـوب ويـرفع الأغـلالا
وطبيب أدواء النفـوس إذا شكت / داء يعـز على النفـوس عضـالا
يـا من إذا ركض الجواد بمـدحـه / ملء الأعنـة لا يقـال تغـالى
يـا من مـلائكـة السماء بـه اقتـدت / هـديـا وصلت خلفـه أرسـالا
إني وصلت بجـاهـك الأحمى يـدي / وتخذت حبك عـروة وثمالا
أنت العـزيـز حقيقـة وبضـاعتى / قـد أملت أن تـوفي المكيـالا
حـاشـا جـلالك أن تخيب قـاصـدا / حـاشـا نـوالك أن تـرد سـؤالا
وعليك يـا خير الأنـام تحيـة / كـالـروض صـافح عـارضـا هطـالا
تختص أربعك المعطـرة الشـذى / والصحب والملأ الـرضى والآلا

ثم ذكر الخلفاء الأربعة وأعانته الملكة الجيدة واندفاعة صدق الإيقاع فأتقن نظم أسمائهم مع ما يناسب من حسن ثنائهم :

وعلى أبي بكـر خليفتك الـذي / كشف الخطـوب ودافع الأهـوالا
وعلى أبي حفص خليفتـه الـذي / فتح الفتـوح ونفل الأنفـالا
وعلى أبي عمـرو بـن عفـان الـذي / أغـرى بجيش العسرة الأمـوالا
وعلى على خير مـن صرع العـدا / يبغى رضـاك وجنـدل الأبطـالا
مـا فجـر الفجـر النهـار فخلتـه / نهرا على مـرج الـدجنـة سـالا
مـا لاح إصبـاح وأشرق كـوكب / وتعـاقبت ريح صبـا وشمالا
مـا غـردت ورقـاء حتى أطـربت / ألحانها غصن الـريـاض فمالا

لعلك فطنت إلى نفس طبيعة الأندلس ههنا

يـــا هل يبلغني السرى أم القـــرى — فـأهل مـن ميقـــاتها إهـــلالا
لعقيلـــة الــدين التـي قـــد أطلعت — من مسكـــة الحجـــر المقبـل خـــالا

يعني الكعبة، فجعل الحجر كأنـه بخدها وهي عقيلة كريمة، خـال ـ وقد كان الخال مما يستحسن في خدود البيض الملاح

للـــــه مـن حلل تشـــوق وأربـع — تهدي بطيب نسيمهـــا الضـــلالا
مـا استنشقت نفحـات هبـات الصبـا — إلا لأن جـــــرت بها الأذيـــالا
طـابت معـاهـدهـا بأكـرم مـرسل — فـــاق الأنـــام شمائلا وخـــلالا
صلى عليـه اللـــه مـــا ذكـــر اسمـــه — فجـلا السنـا وكسـا الــوجـود جمالا

فهذه كما ترى ديباجة جزلة عليها من البديع رونق، مع حرارة نفس ونصوع بيان وجودة رنين.

ويذكر عن أحد أمراء الافرنج الإسبـان أنه عجب من سادة المسلمين كيف أقدموا على قتل ابن الخطيب مع فضلـه الباهر وبيـانه السـاحر؟ وقد كـان رحمه الله من أخـريات إشراقات الأندلس، ومن أشدها وهج ضياء، وفخراً لغرناطة ما أحسبها أخرجت بعده من يضاهيه أو يدانيه، وما كان ابن زمـرك على تجويده لصناعته إلا انعكاسة ضوء لمحة من بارقه ـ تأمل مثلا قوله:

إليك رســـول اللــــه دعـــوة نـــازح — خفـــوق الحشـــا رهـن المدامع هيمان
غــريب بأقصى الغـرب قيـد خطـوه — شبــــاب تقضى في مــــراح وخسران
يجد اشتيــــاقـــا للعقيـق وبـــانـــه — ويصبـو إليــه مـا استجـد الجديـدان

فهذا يحاكي فيه ابن الخطيب، وليس فيه نفحات صدقه. وله همزية جارى بها:

أرج النسيـم سرى مـن الـــــــزوراء — سحـــرا فـأحيـــا ميـت الأحيـــاء
أهـــدى لنـــا أرواح نجـد عـــرفـــه — فـــالجو منــــه معنبر الأرجـــاء

وكان أمر ابن الفارض آنئذ معروفا، وعنـدى أن شعر ابن الفارض وسط إلا ما ندر وفيه بعد نظـر، ثم ليس فيه من المديح النبوي شيء ومن عجب الأمـر أن الجزالة إنما تعطى

قيادهـا مع المديح وما بمجراه فتأمل. وقـد يجوز أن يكون ابن زمرك نظـر إلى ما ثم من همزيات مجرورة الروي قديمة ككلمة حبيب:

قـــدك اتئب أربيت في الغلـــواء   كم تعـــذلـــون وأنتم سجـــرائى

ومهما يكن من ذلك فإنه مـا جاوز نهجا خطـابيا قليل الرونق، أشبه شيء بمنظـومات المناسبات التى لا يكون لها قوة تأثير بعد مناسبتها الأولى. ومطلعها:

زار الخيـــــال بـأيمـن الـــــزوراء   فجـــلا سنـــاه غيـــاهب الظلماء

وأكثر أبيات القصيدة على غرار هذا المطلع لا تكون أجود منه ان لم تكن دونه.
وللسان الدين بن الخطيب شعر نبوي قاله على لســان سلطانه ملك غرناطة الغني بالله من بني الأحمر محمد بن سلطان بن الحجاج ربما ضمنه من خاص شعوره وصدق محبته مع الذي اعتذر به على لسان سيده من التقصير عن قضاء واجب زيارة القبر الشريف بما كان يعدوه من واجب المرابطـة وجهاد العدو، وإنما قصد لسان الـدين وسلطانه إلى وجه من الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم. من ذلك بائيته التي مطلعها:

دعـــاك بأقصـى المغـــربين غـــريب   وأنـت على بعـــد المزار قـــريـب

والضمير يخاطب به رسول اللـه صلى الله عليه وسلم والمستغيث هو لسـان الدين على لسان سلطانه كما تقدم وجلي أيضا أنه مستغيث بلسان نفسه أيضا:

مـدل بأسبـاب الـرجـاء وطـرفـه   غضيض على حكـم الحيـاء مـريب
يكلف قـــرص البـــدر حمل تحيـــة   إذا مـــا هـــوى والشمـس حين تغيب
لترجـع من تلـك المعـــالم غــــدوة   وقـــد ذاع مـن رد التحيـــة طيـب
ويستـــودع الـــريح الشمالى شمائلا   مـــن الحب لم يعلـــم بهن رقيـــب

لعلهـا الشمال بفتح الشين وهو أشبـه من أن تقع في بيته شبـه ضرورة إذ حق الياء هنـا ظهور الفتحة عليها. وفي الأبيات التـالية لهذا البيت أخطاء نسخ أو طبع يشبن ما لا ريب فيه من روائها واستوائها وصفائها
ومنها:

ومـــا هـــاجني إلا تألق بـــارق   يلـــوح بفـــود الليـل منـــه مشيب
فبت وجفنـى مـن لآلى دمعـــــــه   غنـي وصبرى للشجـــــون سليب

ومنها

أيـا خـاتم الـرسل المكين مكـانـه حـديث الغـريب الـدار فيك غـريب
عـدت عن مغـانيك المشـوقـة للعـدا عقـــارب لا يخفـى لهن دبيـب
حــراص على إطفــاء نــور قــدحتـه فمستلـب مـن دونــــه وسليـب
بنصرك عنـك الشغل مـن غير منـــة وهل يتســاوى مشهـــد ومغيـب

أي شهودى لا بد منه لمباشرة الجهاد، فإن غبت للزيارة ناب عنى غيري فليس ذلك في القيام بواجب الجهاد كما لو أشهـد. ولعل القارى يفطن إلى جانب البديع في الاستعارة والطباق والتـورية ــ قوله غريب من قـولهم حديث غـريب أى نادر نفيس مـن طرق إسناده وقوله مستلب وسليب تضمين من بائية علقمة وإشارة إلى قوله:

رغـا فــوقهم سقب السماء فـداحض بشكتـــــه لم يستلـب وسليـب

يريد بالإشارة معنى عذاب الله الذى صبه على ثمود.

ولــولاك لم يعجم من الــروم عــودهـا فعـــود الصليـب الأعجمي صليـب
وجــاهك بعــد اللــه نــرجــو فإنــه لحظ ملء بـــالــــوفـــاء رغيـب
عليك صــلاة اللـه مــا طيب الفضــا عليـك مطيل بـــالثنـــاء مطيـب
ومــا افتر قـــد للغصـــون مــــرنح ومــــا افتر ثغـــر للبروق شنيـب

على جـزالة ابن الخطيب فيـه تصنيع ووشى كثير ولـه غرام بـذكـر النسائم والأغصـان والغيث، مما هو، على أصـالته في العربية، ذو نفحـات اندلسية مغربيـة. ومن بديعه المصنوع فى هذه البائية قوله:

فقــول حبيب إذ يقــول تشـوقـا عسى وطـن يـدنــو إلى حبيب

يعنى حبيب بن أوس في أول البيت. وقوله:

ويـا قادح الـزند الشحـاح ترفقـا عليك فشــوقـي الخارجي شبيب

أى الذى لا أستطيع رده قد شب ـ ويشير إلى شبيب زعيم الخوارج على زمان الحجاج.
ومما قاله على لسان سلطانه الغنى بالله:

إذا فــاتنى ظـل الحمى ونعيمــه فحسب فـؤادى أن يهب نسيمـه

وهى أجود وأصفى ديباجة من البائية وأحر أنفاسا وأخفى صناعة بديع

ويقنعنى أنى بـه متشبـه فـزمزمـه دمعي وجسمي حطيمـه

المطلع مشعر كما ترى بأرب الشاعر، وهو ما تقدم من شوقه إلى الحجاز، وما يعدو دون ذلك من أمر الجهاد. وجعله دمعه زمزما لملوحة الدمع وجسمه حطيم بالشوق والحطيم من أسماء البيت الحرام تسمية كل بجزء
ومنها:

ولم أر شيئا كالنسيم إذا سرى شفى سقم القلب المشوق سقيمه
نعلل بالتذكار نفسا مشوقة نـديـر عليها كأسه ونـديمه
ومـا شفنى بالغور قد مرنح ولا شاقنى من وحش وجرة ريمه
ولا سهرت عينى لبرق ثنية من الثغر يبدو وموهنا فأشيمه

تأمل رصانة هذه الأبيات مع عذوبة لفظها. وما خلا ابن الخطيب من نظر إلى قول أبي العلاء:

وما شاق قلبي بارق نحو بارق ولا هزني شوق لجارة هزان

والمعرى يشير لخبر الأعشى مع الهزانية وقد جاء بـه في رسالة الغفران. والذى أخذه ابن الخطيب نهج الصياغة وصدى إيقاعها ومنها:

ألا يـا رسول الله نـاداك ضارع على النأى محفوظ الوداد سليمه
مشوق إذا ما الليل مد رواقه تهم به تحت الظلام همومه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصبا شجاه من الشوق الحثيث قديمه
أيجهر بالنجوى وأنت سميعها ويشرح ما يخفى وأنت عليمه
وتعوزه السقيا وأنت غياثه وتتلفه الشكوى وأنت رحيمه

تأمل انسياب هذا الكلام وما فيه من شبه بأنفاس فحول المولدين حبيب والوليد وأبي الطيب

بنورك نور الله قد أشرق الهدى فأقماره وضاحة ونجومه
لك انهل فضل الله بالأرض ساكبا فأنواره ملتفة وغيومه

فى قوله «فأنواره» معنى الأزهار

ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى خليل الذى أوطاكها وكليمه

هنا إشارة إلى المعراج

لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره وبجدك في الذكر العظيم عظيمه
يجل مدى علياك عن مدح مادح فموسر در القول فيك عديمه

ويقول على لسان الغنى بالله معتذرا عن تقصيره عن الديار المقدسة :ـ

عدتنى بأقصى الغرب عن تربك العدا جلالقة الثغر الغريب ورومه

تأمل تسميته الأندلس الثغر الغريب، وقد سبقت الاشارة إلى أن ابن زمرك من طريقة لسان الدين أخذ

أجاهد منهم في سبيلك أمة هى البحر يعيى أمرها من يرومه

لا يخفى ما ههنا من تنبه إلى أن نصر المسلمين بالأندلس لا يتأتى لمن يريد نصرهم إلا بقوة البحر. وابن الخطيب قوي الإحساس بأن سبيل الاندلس، ما بقي منها، إلى ضياع، وكذلك كان إحساس ابن خلدون. ولمن قبلهما أحس أبو مروان بن حيان على حين لم تزل قرطبة وطليطلة واشبيلية كل اولئك تحت سلطان الإسلام، ولكن الفتنة التي طوحت بالخلافة الاندلسية وما تبعها من تفرقة دامية العراك هو الذي أوقع في نفسه هذا الحدس، وإلى الله تصير الأمور

ويقول فى آخرها يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام:

وأنت لنا الغيث الذي نستدره وأنت لنا الظل الذي نستديمه
ولما نأت داري وأعوز مطمعى وأقلقني شوق يشب جحيمه
بعثت بها جهد المقل معولا على مجدك الأعلى الذي جل خيمه
وكلت بها همى وصدق قريحتى فساعدنى هاء الروي وميمه

فهذه طربة حبيبية النشوة

فلا تنسنى يا خير من وطىء الثرى فمثلك لا ينسى لديه خديمه
عليك صلاة الله ما ذر شارق وما راق من وجه الصباح نسيمه

وهنا ما تقدم ذكره من النفحة الأندلسية ـ شاهد ذلك أنك تحس نوع أحساس من

الشاعر بهذا النسيم الذي راق، لا أنه يقصد إلى تكثير عدد الصلاة بذكر النسيم ليس غير.

وللسان الدين عدا ما ذكرنا مدائح يعرفها حذاق المنشدين وما زالوا يتغنون بها مع ما يتغنى به الذاكرون منهن على سبيل المثال رائيته التي يذكر فيها زيارته القبر الشريف:

اللـه أكبر حبـذا إكبـاره   لاح الهدى وبـدت لنـا أنـواره
لاحت معـالم يثـرب وربـوعهـا   مثـوى الـرسـول وداره وقـراره
هـذا النخيل وطيبـة ومحمـد   خير الـورى طـرا وهـأنـا جـاره
هـذا المصلى والبقيع وههنـا   ربـع الحبيـب وهـذه آثـاره

ومنها:

هـدي مـواضع مهبط الـوحي الـذي   تشفـي القلـوب من الحمـى أسراره
والـروضـة الفيحـاء هـب نسيمهـا   والبـان بـان ونـم عنـه عـراره
وتعطـرت سلـع بسـاطع طيبهـا   لم لا يطيب وحـولـه مختـاره
بشراك يـا قلبي فقـد نلت المنى   وبلغت مـا تهوى ومـا تختـاره

ومنها:

أيخيب مـن قصـد الكـريم وعنـده   حسن الـرجـاء شعـاره ودثـاره
أيـؤم بـابك مستقيل عـاثـر   فيرد عنـك ولا يقـال عثـاره
حـاشـا جلالـك أن يـؤملـه امـرؤ   فيعـود صفـرا خيبـت أسفـاره

رسمت حاشا بالألف بعد الشين في المطبوعة ولا أدري ما وجهه والعرب تقول حاشاك وحاشي لك وفي كتاب الله: "حاش لله ما هـذا بشرا"، تعجب فيه معنى الإكبار قال أبو عبيدة: وقلن حاش لله الشين مفتوحة ولا ياء فيه وبعضهم يدخل الياء في آخره كقوله:

حـاشي أبي ثـوبـان إن بـه   ضنـا عـن الملحـاة والشتم

ومعناه معنى التنزيه والاستثناء من الشر. قلت أحسب أن من جاء بالألف بعد الشين في الرسم توهمه من قول أبي عبيدة ولا ياء فيه إذ عني أبو عبيدة ياء اللين التي لرسم الألف اللينة، وذلك أن رسم المصحف العثماني في هـذا الحرف بالشين ليس بعدها شيء وكل القراء إلا أبا عمرو يقرأون بشين مفتوحة فهو المشار اليه بقوله بعضهم من كلام أبي عبيدة وذلك أن أبا عمرو اذا وصل مد فتحة الشين فجاء بألفها اللينة وتكتب ألفا حمراء بعد الشين وأهل الاداء يعلمون ثباتها عند أبي عمرو وصلا لا وقفا

وليس بموضع وقف لكن من اضطر فوقف عنده سكن الشين، فأحسب رسم النبهاني لها «حاشا جلالك» أو رسم النساخ من قبل إن يك هكذا مراعاة لرسم المصاحف .
ومن هذه الرائية قوله في أواخرها :

فـــامنن علي وكـن شفيعي والتفـت مستنصرا بجــــلالـك استنصــــاره

وكأن تأويله والتفت إلى مستنصر ونصب بنـزع الخافض وهو«إلى» وعندي انـه قد وقع خطأ من الناسخ ههنا وأن الصواب :

فـــامنن علي وكـن شفيعي ولتغـث مستنصرا بجــــلالـك استنصــــاره

أي ولتكن مغيثا لي، وزعم بعضهم أنه لا يجوز مجيء لام الأمر مع المضارع المبدوء بتاء الخطـاب بحجة أن فعل الأمر قد أغنى عن ذلك وليس هـذا بشيء لقراءة أبي «قل بفضل الله وبرحمتـه فبذلك فلتفرحوا » وهي عشرية في حـرف يعقوب عن رويس ذكره صاحب النشر.

صلى عليك اللـــه مـــاحيـــا الحيـــا روض الـــربـــا وتـــرنمت أطيـــاره

وتأمل نفحة الاندلس في تحية الحيا روض الربى، وترنم الأطيار .
كان لسان الدين بن الخطيب رحمه الله شـاعرا مفلقا ولعل النبهاني يشير إليه والى ابن نباته المصري وحازم وابن جـابر إذ قال في مقدمته أنه يبـدأ كل حرف بمديح الأئمة الثلاثة الأبوصيري فالبرعي فالصرصري «ان كان لهم كلام لأنهم أشهر مداحه صلى الله عليه وسلم وان كان قـد أتى من أئمة المشارقة والمغـاربة من هو مثلهم أو أعلى نظما من بعضهم كما سنقف على ذلك من كلامهم إن شاء الله تعالى .ا. هـ»
قلت لعل هذا من قول النبهاني رحمه اللـه أن يكون قد احترس به، ومن اجود من بالمجموعة ابن الخطيب وهو على براعته وصفاء ديباجته وما يتأتى له من الجزالة لا يبلغ مبلغ الثلاثة الأئمة في حاق المدح النبوي، إذ على صـدقه فيه، لا يخلو من شائبة بعض أنفاس الدنيا خلاف ما عليه نظم الثـلاثة، وقال تعالى جل من قال : «نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم . »

أحسب أن هذا ترتيبهم إن شبهناهم تشبيها لا نريد به حقيقة المماثلة ولكن نريد به نحوا من التقريب بثلاثة المولدين الكبار، أبي تمام وأبي عبادة وأبي الطيب. أشبههم بأبي تمام الصرصري. وأشبههم بأبي عبادة البرعي، وأشبههم بأبي الطيب البوصيري، وهو المقدم المجمع على تقديمه وتفضيله، والبرعي أشهر من الصرصري والذاكرون بالمديح النبوي أكثر لقصائده إنشادا. وقد كان الصرصري من رجال السابع الهجري في نصفه الأول قتل ببلدته صرصر سنة سقوط بغداد. قتله التتار شهيدا رحمه الله. وكان البوصيري من رجال نفس القرن ولد سنة ٦٠٨هـ مات في آخره سنة

٦٩٦هـ. وكان البرعي من رجال الثامن والتاسع كما في البدر الطالع وأشار اليه شارح القاموس في مادة برع ولم يذكر تأريخ مولده أو وفاته وذكر وفاته صاحب البدر الطالع أنها سنة ٨٠٣هـ وذكرها الزركلي في أعلامه عند عبدالرحيم بن أحمد بن علي البرعي ولكن ذكر أن الذي بأيدي الناس هو ديوانه الصغير وكنت اصبت تأريخ مولده ووفاته من الاستاذ المجمعي المفضال الشيخ محمد علي عقبات. من علماء مدينة صنعاء ثم ند عني موضع القصاصة وذكر الشيخ النبهاني رحمه الله أنه من رجالات القرن الخامس ولا احسبه صحيحا لوضوح ما في البدر الطالع وقوته .

للصرصري مقصورة نظم فيها عقيدته، وهي ما كان قائما عليه إجماع أهل السنة وأحسب أن اللقاني في جوهرته المشهورة وغيره من معروفي أصحاب المتون المنظومة في العقائد لم يخلوا من استفادة بها ونظمها أمتن من نظمهم بلا ريب كقوله :

ومعجزات الانبياء كلها ... ثابتة كيد موسى والعصا
ثم كرامات الولي ما بها ... ريب ولو قيل على الماء مشى
وأفضل العالم ممن آمنوا ... في كل عصر وزمان قد خلا
أمتك الزهراء خير أمة ... وخيرها القرن الذي بك اقتدى
وخير هذا القرن كل سابق ... وخيرهم اربعة هم الفرا
من «كل الصيد في جوف الفرا»

وكل من كان ببدر حاضرا ... لوقعة ففضله لا يرتقى
وبيعة الرضوان من يشهدها ... فهو عظيم الفضل محروس الحمى
والكف عما كان بينهم به ... أدين لا أقبل من واشٍ وشي
وإن أزواجك كلهن في الـ ... ـجنة يفضلن على شمس الضحى

ثم أخذ في نظم ما يدين به من الشرع مما كان عليه أشهر قول أهل السنة .

والصـوم والصـلاة والـزكـاة والـ	ـعمرة والحج وبيـع وشرا
والنصب والخمـر وكـل مسكـر	وكل مـزمـار وتحريم الـزنـا
والأمـر بـالمعـروف والنهي عـن الـ	ـمنكر والعـرف وتحريم الـربـا
والسمع والطـاعـة لـلأمير في الـ	ـجور وفي العـدل وحـرب من بغى
شرع صحيـح ثـابـت يبقـى إلى	أن ينقـض العلـم وينقضي المدى

فهـذه عقيـدتي نظمتهـا	أجعلهـا عنـدك ذخـرا يـرتجي
يعـرضهـا يـوم الخميس ملك	عليك يـا جـابـر كسر قـد هفـا

في المطبوعة الخميس بالخاء المعجمة ومـا ارى إلا انه الحميس بالحاء المهملة وهو يوم القيامة لما فيه من الحر والعرق .

فـاسأل لي الـرحمن أن يميتني	غير مغير إذا الـوقـت انقضـى

فقد مات ـ ان شاء الله ـ شهيدا رحمه الله

عسـاه أن يغفـر لي خطيئتي	بفضلـه ذو الملكـوت والغنـى
حتى تكـون لي بهذا شـاهـدا	عنـد الـذي يعلم سري ويـرى
صلى عليك اللـه ذو الجلال مـا	هبت مع الاسحـار أنفـاس الصبـا

لاحظ الفرق بين طريقة الصرصري في ذكر هبوب الصبـا وما مر من ارتياح ونشوة للطبيعة في كلام ابن الخطيب . ألا ترى هنـا أن الصرصري أشد اهتماما بأن هبوب الصبا في الأسحار وازن بين هذا وبين قول ابن الخطيب مثلا :

عليك صـلاة اللـه مـا ذر شـارق	ومـا راق من وجـه الصبـاح نسيمـه

وقوله :

صلى عليك اللـه مـا حيـا الحيـا	روض الـربى وتـرنمت أطيـاره

وقوله :

عليك صـلاة الله مـا طيب الفضـا	عليـك مطيل بـالثنـاء مطيـب
ومـا افتر قـد للغصـون مـرنح	ومـا افتر ثغـر للبروق شنيـب

وأول المقصورة استهلال عذب حسن الانسياب وهوقوله :

مـــا بين قـــرب وبعـــاد وقلى وبين ليـــت ولعـــل وعســـى
ضـــاع زمـــاني ووهت شبيبتي وصـــوح المخضر منهـــا وذوى
واهـــا لأيـــام شبـــاب مـــا لها من أوبـــة بعـــد الشبـــاب تـــرتجي
لكنهـــــا تمضي وتبقـى حسرة تثبت مـــا بين الضلـــوع والحشـى
من لم يكـن في غـــرة الـــدهـــر لـــه عـــزم كغـــرب السيف حين ينتضى

فـــقلمـــا ينجب في آخـــره أيـن البطـيء والمغـــذ في السرى

لو قد كـان جاء بجواب الشرط (من لم يكن) في عجز البيت لأشبـه مذهب ابن دريد في المقصورة ، ولكنـه بجعله الجواب في بيت تال قد بـاين ذلك المذهب ، وهذا أدل على سماحة طبعه وأنه لم ينصب من نفسه مجاريا لابن دريد وإن يكن قد أخذ ببحره ورويه

يـــاويح عبـــد ذهبت أوقـــاتـــه مستغـــرقـــات في جهـــالات الهوى
يسعى إلى الآثـــام جـــذلان وقـــد أحصى عليـه الكـاتبـان مـا سعى

ثم سلك الصرصرى من بعد سبيلا من الوعظ أصـاب فيها من النظر إلى ذكر الحساب واليوم الآخـر. ونظم معاني القرآن والحديث عسر ومـزلة أقـدام ، وقد تعلم كيف تكلف أبوتمام وقارب شفا الاساءة حيث قال :

ثـــانيـــه في كبـــد السماء ولم يكن لاثنين ثـــانيـــا اذ هما في الغـــار

أصاب الصرصرى رحمه الله شأوا بعيدا من الإجادة في بعض ما تناوله في هذا المجال . مثلا ما جاء من صفته للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قام بلواء الحمد للشفاعة :

مـــالى مجير ذلك اليـــوم ســـوى محمـــــد خير الأنـــــام المجتبى
أول مـن ينشـق عنـــــــه قبره ومـــــا عليـــــه من سبيـل للبلى
يـــــزفـــــه سبعـــون ألف ملـك وهـــو على البراق ســـاطع السنـــا

وهذه الصورة مأخوذة من قصة الاسراء والمعراج

بيـــــده اللـــــواء تحت ظلـــــه آدم والأشراف مـــن أهـــل البهـــى
وهـو شفيـع النـاس يـوم العـرق الطـ ـــاغي وفيـه كل وجـه قـد عنـا

جمع هنا بين معاني الحديث والقرآن ـ قال تعالى : وعنت الوجوه للحي القيوم

وضـــوعفت سبعين ضعفـا شمســـه حـــرا وقـــدر الميـل جـــرمهـا دنـــا
واشتـــد فيـــه غضب اللـــه على من صـــد بغيـــا وتعـــدى وطغى

يــــوم يقــــول الأنبيـــــاء كلهـــم نفســـى إلا الهاشمـــــي المرتضـــى
يقـــول وهـــو صــــادق أنـــا لها في مـــوقف فيــه الخليـل قـــد خشى

خشى بوزن سعى على لغة طيء في باب فرح وسمع الناقص

يجيـــز من كـــان مصـــدقـــا بـــه على صراط مـــــزلـق مـن اعتـــــدى
أعـــــد للعـــــاصين مـن أمتـــــه شفـــاعــــة تنقــــذ من حـــر لظى
ومــد حـوضــا قــدر شهــر عـرضــه ينقع غلــة الصــدى عــذبــا روى
أكـــــوابــــــه من ذهـب وفضـــــة مثـل النجــــــوم عــــــددا ومجتلى
أنقـى بيــــاضــــا مـن صريح لبـن ومـــن مصفـــى عســل أحلى جنـــى
يـــــــرده الشعث الـــــرؤوس أولا ورد عنـــــه كل فـــاجـــر غـــوى

فهذا كما ترى نفس حلو الانسياب، سهل الديباجة، جميل طريقة القصص.

ومن جياد شعر الصرصرى رحمه الله رائيته التي جعل أولها تشبيبا بالكعبة

المشرفة، وأعطاها صورة المحبوبة الحسناء التي يوافي طيفها فيهيج دوافع الشوق. وقد أخذ أصل المعنى من قوة علاقة الدار بالمحبوبة في قديمات قصائد العرب، وأخذ معنى خلع صورة الإنسان على الدار من طريقة أبي تمام فمزج جميع ذلك وولد منه ما صار هو إليه من المعانى الحسان، لا أشك أن محيي الدين بن عربي أخذ تغزله بالكعبة من ههنا، لأن شعر الصرصرى رحمه الله كان ذا سيرورة مشهورا. وتغزل ابن العربي الذي جاء به في الفتوحات ليس بجيد حقا، وكان النظم أغلب على طريقته نظما قليل الماء :-

ونعود بعد إلى ذكر رائية الصرصري، قال رحمه الله ورضى عنه :

حيتك ألسنـــــة الحيــــا من دار وكستك حلتهـــا يــد الأزهـــار

هذا المطلع كما ترى طنان رنان، فيه روح من طنانة أبي تمام:

الحق أبلج والسيوف عوارى

وقد سبقت منا الإشارة إلى أن في الصرصري رحمه الله أنفاسا حبيبية

وتعطـــرت نفحـات تــربك كلما فض النسيـم لطيمــــــة الأسحـــــار

فهذه الاستعارة حبيبيةِ المعدن.

فــلأنــت معهــدي القــديـم ومألفي وبك انقضـت محمـــودة أوطـــــارى
للـــه مـــا أبقى الأحبـــة مـــودعـــا بثـــــراك للمشتــــــاق مـن آثـــــار
لأصرحن اليــــوم فيك بلـــــوعـــــة كلفـت بها في الطلــــول ونــــــار
مـــاكنت بـدعـــا في الصبابـــة والأسى حتـى أوارى زفـــــــــرتـى وأوارى

مـــا الحب إلا لـــوعـــة تلج الحشـــا أو مـــدمع جـــار لفـــرقـــة جـــار
ومصـــونـــة حـــوت البهـــاء ستـــورهـــا سمـــــراء يطـــرب وصفهـــا سمارى

تأمل أصنـاف الجناس التـي مرت ــ ثم تأنيث الكعبـة ههنا وجعلهـا عقيلـة مصونـة معشوقة :

عـربيـة الأنســاب قـام بحسنهـا عذرى وطاب عليـه خلع عذارى

جعله الحسن عذرا فيه كالإشارة إلى قول امرأة العزيز: « فذلكن الذي لمتننى فيه » لما قلن لها : « حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »ثم أخذ بعد في ذكر الطيف :

زارت على بعـد المسـافـة بعـدمـا هـوت النجـوم ولات حين مـزار

يشير هنا إلى قول جرير:

طرقتك صـائدة القلوب وليس ذا وقت الـزيـارة فـارجعى بسـلام

وأراد جريـر أن عليه أن يصلى الفجر ويـواصل السير فهذا سبب طرده الخيـال، إذ هو طـرد للنـوم. ويروى أن السيـدة سكينـة بنت الحسين بن على رضي اللـه عنهم أجمعين أخـذت عليه، ومـا أحسب أنه غـاب عنها مـراده، ولكنها لعلهـا أخذت عليـه بعض مذاهبه في المدح والهجاء.

أو اخترع الخبر بعض الحذاق

زارت على بعــد المســـافـــة بعـــدمـــا هـــوت النجـــوم ولات حين مـــزار
أنى طـــوت شقق الفـــلا وديـــارهـــا بحمى الحجـــاز وبـــالعـــراق ديـــارى
أهــــــلا بطيف زائر أهـــدى لنـــــا ريـــــا ممنعـــــة الحمـى معطـــــار

دل ببيته هـذا أنه لم يطـرد الخيال، فجـرى قولـه « ولات حين مزار » مجرى الـدلالة على الوقت

جـــادت بـوصل وانثنت ومحبهـــا عارى المعـاطف من ملابـس عار

فهذه قرينـة مانعة من أن تكون المتغـزل فيها امرأة ـ على أنـه ليس في وصال الطيف من عار. ولا يخفى بعد مكان الجناس.

هل وقفـــة للـــركب في عـــرصــــاتها ولـــــه جـــــؤار في أعـــــز جـــــوار
فأقبـل الحصبـــــاء منهـــــا مطفئـــــا جمر الغضـى منى بـــــــــرمـي جمار

فهذا يكشف أن المتغزل بها هي الكعبة

فهنـــاك لا حجـــر ولا عـــار على ذي الحجـر في التقبيل للأحجـار

ذو الحجر أي ذو اللب

أم عـــائد منى بأجـــدر تـــربـــة ... بـــالقصـــد في أكنـــاف خير جـــدار
ربع بـــه غـــرر العـــلا مبـــذولـــة ... للمشترى والأري للمشتـــــــار

الأرى هو العسل ومشتاره جانيه والتربة عنى بها قبره صلى الله عليه وسلم

وبـه يبين للقلـوب حقـائق الـــ ... أسرار بـــــــدر لم يشـن بسرار

ومن ههنا أخذ في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

هـــو أحمد المختـــار أحمد مـــرسل ... قتـــال كل معـــانـــد ختـــار
نـــدب إذا بث الجيـــاد مغيرة ... علقت بحبل للثبـــات مغـــار
بيمينـــــه في الحرب حتف الممترى ... وحيـــاتها في السلم للممتـــار

هكذا وعندي أن ههنا خطئا من الناسخ وأن الصواب : وحيا بها أي وبها حيا أي غيث في زمن السلم لطالب جدواها ممتارا ، لأن الغيث يتبعه الخصب والميرة

غمـر النـدى جـلاء أغمار الـورى ... متكفـل بهدايــــــــــة الأغمار
جعل المهيمـن في مســامع خصمـه ... وقـرا وزان صحـــابـه بـــوقـــار
وهـو المظلـل بـالغمائم من أذى الـــ ... أسفـــار والمنعـــوت في الأسفـــار

يعنى أسفار أهل الكتاب

وبـــه تنشر حين ســـار مهـــاجـــرا ... للغـــار ذكـــر فـــاق نشر الغـــار
وانهل إكـــرامـــا لـــه صـوب الحيـــا ... والقطـــــر محتبس مـن الأقطـــار
فضل البريـــة كلهـــا ورســـا بـــه ... طـــود العـــلا في هـــاشـم ونـــزار

وما أرى إلا أنه عنى بنزار العرب أجمعين .

والمدح هنا خالص لا يشوبه تباه بشيء من عرض الدنيا أو التفات إليه ، وهذه مزية مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الذين انصرفوا بفنهم كله إلى مدحه عليه الصلاة والسلام ، لا يشوبونه بغيره ، ووازن بين ما ههنا وما مر بك من كلام الزمخشرى وابن الخطيب والأبيوردى والفيروزابادي مثلا .

يـــاهـــاديـــا شـــد الإلـــه بـــدينـــه ... أزرى وشـــد على العفـــاف إزاري
يـــا مـن بـــه إن عـــذت في سنـــة حمى ... أو زار فى سنــــــــــة محى أوزارى
يـــا من حبـــاء يـــديـــه محلـول الحبى ... لحبـــا يســـار أو لفـك إســـار
لـــو لم يكن مـــدحيـك من عـــددى لما ... أضحى شعـــارى صنعـــة الأشعـــار

وازن بين هذا وبين قول ابن جابر في المقصورة

أنا الفتى لا يطبينى مطمع　　فأبذل الوجه لنيل يرتجى

وقوله :

لـولا اشتياقي لـديـار كـرمت　　لبعـدهـا يـرثى لنـا من قـد رثى
ومـدح من أرجـو بـأمـداحي لـه　　إصـلاح مـا قـد عـاث منى وعثى
لم أجعل الشعـر لنفسي خلـة　　ولم يجش فكـرى بـه ولا غثـا
يـا ضيعـة الألبـاب في دهـر غـدا　　فيـه فتيت المسك يعلـوه الخثى

فإن ههنا خشونه مع جانب تعزز شخصى ذاتى ، وازن بين هذا وبين شعور النشوة والفرح النفسى بما حباه الله هذه الهبة حتى جعلها لنفسه صنعة وشعارا إذ مدح النبي صلى الله عليه وسلم من عدده للدنيا والآخرة .

لـو لم يكن مـدحيك من عـددى لما　　أضحى شعـارى صنعـة الأشعـار
نشر الثنـاء عليك أطيب نفحـة　　من مسك دارين تفـوح بـدارى

أرى أن الثناء فاعل لنشر وهو فعل وأطيب مفعول به وأصله صفة لمحذوف ونفحة تمييز أى نشر ثنائى عليك نفحة طيبة أطيب من مسك دارين ، فهي بدارى فائحة . ومن جعل « نشر» مصدرا والثناء مضاف إليه وأطيب خبر المبتدأ جاز ذلك وأحوج إلى تأويل النشر بمؤنث وليس فى جودة ما ذكرنا ، ورنة ما ذكرنا أجود ان شاء الله

ملأ المهيمن مذ قصدتك مادحا　　بيساره يمناى ثم يسارى

تأمل هذا الشكر والحديث بنعمة المولى وصدقه وأريحيته

ونفى بجـاهك يـا أعـز وسـائلى　　قتر الهوى عنى مع الإقتـار
فتخـذت سنتك المنيرة حجـة　　ومحجـة تهدى لخير منـار
وغدوت محروس الحمى من ضيقة الإعـ　　ـسـار عنـد تـواتـر الأسعـار

كأنما أطل على هذا البيت ظل من أبي تمام وذلك قوله :

وتباشروا كتباشر الحرمين في　　قحم السنين بأرخص الأسعار

وكأن الصرصرى يتعمد نوعا من الإلماع بالإشارة إلى هذا البيت ، لأن هؤلاء تباشروا بالخليفة وابنه الواثق والصرصرى بشراه وتباشره بهذا الشعار النبوي الذى نفعه وحماه وتتبع قتر ذنبه فمحاه .

حسبى رجـاء أننى من أمـة　　بك أصبحت مـوضـوعـة الأصـار
أنت الـزعيم لها وأنت سفيرهـا　　ان أقبلت من أطـول الأسفـار

وذلك ما بين المحشر والمات

ويزيد فيك رجاء قلبي قوة أن صار بي نسب إلي الأنصار

هذا المعنى حاوله من بعد لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه ولم يجيء به سهلا جيدا كما ههنا

قوم حللت بدارهم فتدرعوا ببدارهم لرضاك ثوب فخار
فاسأل إلهك لى بعشر محرم جبرا لقلب واجف الأعشار
وشهادتي حق قبيل شهادة فيها الوفاق لأهلك الأطهار

إذ قد استشهد منهم من قد استشهد في أول الإسلام ومن بعد، كسيدنا حمزة وعبيدة وجعفر وزيد بن حارثة وعلي والحسين وزيد ويحيى رضى الله عنهم أجمعين. وقد أجيبت دعوته. وحسن أولئك رفيقا.

جئنا بهذه القصيدة كاملة لم نحذف منها شيئا ليرى القارىء الكريم كيف أنفاس هذا النمط الروحى الخالص.

وقد كان في الصرصرى وصاحبيه طول نفس، وقديما قال أبو الطيب في ممدوحه الذي هو علي مجده من سائر أفراد الملوك:

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وقد سبقهم من صناعة أبي تمام والبحتري ما مهد لطول النفس عندهم، وكان أبو الطيب أميل إلى الإيجاز وبذلك تبريزه. وقد سبقهم أكثر من هذين أسلوب تطويل ابن الرومي الذي كان يتأتى إليه بتشقيق المعاني وتفريعها. غير أنه كان يهمل جانب تجويد اللفظ والإيقاع كما قدمنا .

وفي مادة السيرة النبوية من خبر الجهاد والصبر أيام قبل الهجرة وبعدها والمعراج وما كان فيه من الأسرار والتجلي وكشف الحجب مجال خصب للقصص وإطالة النفس من غير ما حاجة إلى التشقيق المعنوي والاحتيال الى تفريعه. فأتاحت طبيعة هذه الخصوبة في مادة السيرة إمكان الجمع بين متانة الأسر وجزالة اللفظ مع انسياب السرد ولا يخلو صدر القصيدة مع ما جبلت عليه بنيتها من إيثار الإيجاز من اتساع لطول النفس متى تهيأت أسبابه ومن أجل ذلك طالت المعلقات وبعض قصائد الأوائل كجرير والفرزدق. إلا أن الإيجاز كما تقدم هو القاعدة الأولى في بيان الشعر وبلاغته. وأحسب أنه من أجل هذا قال صاحب العمدة في باب اللفظ والمعنى: « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فإن وقع فيه شيء منها فبقدر، ولا يجب أن يجعلا

نصب العين فيكون متكئا واستراحة، وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس، وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبنى عليه لا ما سواه » ا. هـ والعجب لابن رشيق مع هذا كاد يميل الى تقديم ابن الرومي على أبي تمام في باب الغوص على المعاني. هذا، ولمادح الرسول صلى الله عليه وسلم عذر واسع إذ السيرة كلها لذي الإيمان مطربة، وليس شأن المديح فيها كشأن المديح لمن يكون من ملوك هذه الدنيا الفانية «متاع قليل ولهم عذاب أليم.»

من جياد الصرصرى ذوات الطول رائيته

ذكر العقيق فهاجه تذكاره ... صب عن الأحباب شط مزاره

وأول القصيدة تغزل بالديار الحجازية كنى به عن البيت الحرام والقبر الشريف والحج والزيارة ومشاهد الحرمين ثم خلص الى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوصف خلقه وخُلُقه ومولده وما صاحبه من الإرهاصات ووصف تقواه وسكينته ونبوته وشريعته وما خصه الله به من التشريف والمعجزة وما جاء في الكتب من قبل من التبشير بمقدمه ثم ختم بما كنى عنه في البداية فصرح به في النهاية من نية قلبه أن تجوز به ناقة كوماء الى حيث الرباع المقدسة ذات الهدى والسناء، ويبدو أن نظم هذه الرائية قد كان قبل نظمه التي قبلها إذ يذكر في تلك يسارا ويذكر في هذه عسرة يرجو أن يمن الله عليه بعدها بميسرة .

أما النسيب فقوله :

ذكر العقيق فهاجه تذكاره ... صب عن الأحباب شط مزاره
وهفت إلى سلع نوازع قلبه ... فتضرمت بين الجوانح ناره

هذه الديار بناحية المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

كلف برامة ما تألق بارق ... من نحوها إلا بدا إضماره
يشتاق واديها ولولا حبها ... لم يصبه واد زهت أزهاره
شغفا بمن سلك الفؤاد بأسره ... وبوده أن لا يفك إساره
لولا هواه لما ثنى أعطافه ... بان الحجاز ورنده وعراره

والضمير هنا للنبي صلى الله عليه وسلم والذات المحمدية

يا من ثوى بين الجوانح والحشا ... مني وان بعدت على دياره
عطفا على قلب بحبك هائم ... إن لم تصله تصدعت أعشاره
وارحم كئيبا فيك يقضي نحبه ... أسفا عليك وما انقضت أوطاره

لا يستفيق من الغـــرام وكلما حجبـوك عنـه تهتكت أستاره
مـا اعتاض عن سمـر الحمى ظلا ولا طـابت بغير حـديثكـم أسماره

والسمر بفتح السين وضم الميم من شجر الحجاز وبنواحي مكة وكانت بيعـة الرضوان تحت سمرة .

هـل عـائد زمـن تضـوع نشره أرجـا ورقت بـالـرضـا أسحـاره

هذا البيت يدل على أنه حج من قبل ويريد العودة . وذكر الأسحار كما مر بالقارىء الكريـم من قبل مما يتكـرر عند الصرصري ، وإنما خص الأسحـار لمكان صـلاة الفجر ولمجافاة أهل الصلاح خاصة للنوم في ساعـات السحر المباركة . قال تعالى : «الصابرين والصـادقين والقانتين والمنفقين والمستغفـرين بالأسحـار» . وللأسحـار في الحرمين بركـة وأسرار.

في مـربع بقبـاب سلع مـونق بـالأنس تهتف بـالمنى أطيـاره
فـاق البسيطـة عـزة ومهـابـة فسما وعـز من البريـة جـاره

ومن هنا تخلص إلى المديح النبوي في يسر حسن التدفق والانسياب :ـ

يحمى النـزيل وكيف لا يحمى فقـد حفت بجـاه المصطفى أقطـاره
أضحى ثـرى عـرصـاتـه مـذ حلهـا يشفى مـن الـداء العضـال غبـاره
سبحـان من جمع المحـاسن كلهـا فيـه فتم بهاؤه وفخـاره
محاسن المنظر ومحاسن المخبر
جبلـت على التشريف طينتـه فما نشـأت على غير العلى أطـواره
وصفت خـلائقـه وطهـر صـدره فـزكـا وطـاب أديمـه ونجـاره

فذكر هنا كرم العنصر وشرف النسب ثم أخذ في قصة المولد وفي صفة الرسول صلى اللـه عليه وسلم فـاستقام لـه ذلك على مـا بدأ بـه من حسن تخير اللفظ وسلامـة رنين الإيقاع :

حملتـه آمنـة الحصـان فلم تجد ثقـلا إلى أن حـان منـه بـداره
ورأت قصـور الشـام حين تشعشعت أنـواره وتبـاشرت حضـاره
وضعتـه مختـونـا وأهـوى سـاجـدا وكسـاه حسنـا بـاهـرا مختـاره
لا بـالطـويـل ولا القصير وإن مشى بين الطـوال علتهم أنـواره

هذا البيت جيد ، وذلك أنه كان صلى الله عليه وسلم مربوعا ، فكان يطول الطوال ببهاء الشخصية وقوة حضورها وبهجة نورها .

وإذا تكلل كالجمان جبينه ... عرقا لأمر عظمت أسراره
فأريجه أذكى وأطيب مخبرا ... من ريح مسك فضه عطاره
وإذا بدا في حلة يمنية ... قد زان دائر طوقها إزراره
فالشمس بعد الصحو مشرقة السنا ... والبدر في فلك الكمال مداره

ثم انتقل إلى صفة خلقه السني عليه الصلاة والسلام :

متقلدا بالسيف ليس مباليا ... بمن التقى عزت به أنصاره
حلل السكينة والثبات لباسه ... والبر والإخلاص فيه شعاره

وذلك أن الشعار هو ما يباشر الجسد من الثياب ، وهذا من شريف المعاني أن يكون الثبات والسكينة هو الحلة الظاهرة والإخلاص والبر هو الكساء الباطن .

وضميره التقوى وأوتي حكمة ... فازداد منها عقله ووقاره
والصدق منه والوفاء طبيعة ... والعرف والصفح الجميل دثاره
والعدل سيرته وحق شرعه ... وسبيله نهج الهدى ومناره
وشريعة الإسلام ملته وبالـ ... ـحق المبين إلى الورى إظهاره

ومن هنا أخذ في مدح الإسلام وقصة أول ظهوره على الشرك وما كان بجزيرة العرب من أديان .

ختم النبوة فهو درة تاجها ... وطراز حلتها الثمين عياره
أبقى لسنته طريقا واضحا ... رحبا سواء ليله ونهاره

اعلم أصلحك الله أن سواء تفيد التسوية فإذا جاءت بعدها الهمزة كانت المعادلة بأم وإن لم تجيء الهمزة جيء بالعطف بالواو. ولا تصلح أو ههنا لأنها للتخيير لا للمعادلة ولا للجمع . قال تعالى : " سواء علينا أجزعنا أم صبرنا " . وقال تعالى " سواء العاكف فيه والباد " وقال تعالى : " سواء محياهم ومماتهم " . ومن الأخطاء الشائعة الآن جعل أو في مثل هذا الموضع .

يمحو سنا الشمس الكسوف وينقص الـ ... ـقمر المحاق ويعتريه سراره
وشموس شرعة دينه محروسة ... من حادث يمحو الضياء غباره
نهج الصواب بجده وبجده ... بعد الدثور تجددت آثاره

تكرار الدال والجيم هنا فيه نظر إلى طريقة القدماء كذي الرمة وزهير كما فيه نظر إلى طريقة أبي تمام .

واستعلـن الحق المبين بنــــــوره بجبـــال فـــاران وقـــر قـــراره

جبال فاران هي جبال مكة بدليل أن أسفـار التوراة تزعـم أن إسماعيل ترك هو وأمه هاجـر يجولان في صحراء فاران (انظـر سفر التكويـن ٢١/ ٢١ ـ وسكن في بريـة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر). والذي عندنا أن الماء الذي أصابته هاجر بجناح الملك هو ماء زمـزم فتكون فاران هى أرض مكة وتـزوج إسماعيل من جرهم ولا يستبعد أن تكـون جرهم قـد كانت مثل قـريش تتـاجر إلى مصر والشـام والحبشة. وعنـد أهل الكتاب أن فاران بناحية سيناء، ولو كانت بناحية سيناء لم يكن أمر إسماعيل ليكون على بعد مـن سارة وابنها، وقـد أرادت سارة ابـراهيم على أن يبعد اسماعيل حتـى لا يشارك ابنها فى الميراث.

وجـــلا ظـــلام الحرتين ضيـــاؤه وبـــه سما نـــور وأشرق غـــاره

عنى بالحرتين المدينة

فخـرت بـــه خير القبـائل هـــاشم وحـــوى بـــه المجـــد الأثيل نـــزاره

قد يدخل في معنى نزار العرب كلهم ولا يبعد أنه نظر هنا إلى قول ابن الرومي:

كم من أب قـد علا بـابن ذرا شرف كما على بـــرســـول اللــه عـــدنـــان

واجعل بيت ابن الرومـي هذا من ضمن ما مهـد لمجيء القصيدة النبـوية لتخلف قصيدة المدح ومـا إليها. ثم أخـذ الصرصري في ذكر الجهـاد وما تبعه مـن ظهو شمس الدين على الدين كله ولو كره المشركون:

زهـــرت نجـــوم السعـــد في بـــدر بـــه وتبلجـت يـــــوم الـــــرضـى أقماره
وشمـــوســـه في فتـح مكـــة أشرقت فـــانجـــاب عن وجـــه العـــلاء قتـــاره

القتار بفتـح القاف عنى بها القتر بـالتحريك أي الغبـار وظاهر كـلام الأخفش في القوافي يفيد أن ذلك مما كانت تفعله العرب وعند سيبويه أن الإشباع في الضم والـكسر

وقال الآخر:

خـذا بطن هـرشى أو كـلاهـا فإنـه كـــلا جـانبي هـــرشى لهن طـــريق

ثم انتشى الأمام الصرصري الى مدح سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فقال :

سعـــدت بـــه أولاده ونســـاؤه وصحـــابـــه وزكـت بـــه أصهـــاره
وسمت بـــه غلمانـــه وإمـــاؤه وجـــــــــواده وبعيره وحماره

ولعل مكان الحمار أن ينكره السمع ، على أن السياق مستقيم بـه ، ولعله مما يسوغها ما يلابسهـا من روح السذاجة وقصد الاستيعاب . ويعتذر للصرصرى بأنـه مع الإطالة قد يقع في القصيـدة أن يختل موضع البيت والأبيات ولا يقدح ذلك في جـودة القصيدة كلها . وقد أخذوا على المتنبي قوله :

إنـى على شغفي بما في خمرهـــا لأعـف عما في سراويـــــــلاتها

ولم يمنع ذلك من استجادة هذه التائية وعدها أبو منصور من إحسانه وجاء بقوله :

ذكـر الأنـام لنـا فكـان قصيـدة كنت البـديع الفـرد مـن أبيـاتها

فقال إن هذا هو البديع الفرد من أبيات القصيدة .

وحـوى الفخـار سريـره وفـراشـه وخيـــامـــه وقبـــابـــه وجـــداره
وتضـــوعت أردان بـــردتـــه بـــه طيبـــــا وطـــــاب رداؤه وإزاره
شهـد الكتـاب الموســوي بفضلـه وتحققـت وتيقنـت أحبــــــاره

وقد كان احتـدام الحروب الصليبية مما شحذ أذهـان المسلمين إلى النظر في مقالات أهل الكتاب ونقـد ما ذهب إليه ذاهبـوهم من باطل التأويل وبيان مكـان البشارة فيما جـاء من مقـالات أنبيـاء بنى اسرائيل وكتبهم . من ذلك بشـارة مـوسى عليـه السـلام به ، وحملها أهل الكتاب على أن المبشر به هو عيسى عليه السلام ، وذلك صنعوه بتأويل بعيد .

وقد تناول هذا البحث جماعة من المحققين .

هـــو شـــاهـــد متـــوكل ومبشر هـــو منـــــذر متيقن إنـــــذاره
أضحى لـــلأمين حـــرزا مـــانعـــا وضعت بـــه عـن وقتـــه آصـــاره

عن وقته أي عن أمته إذ هي التي آمنت به حين جاء وقت رسالته .

بالشام دولته ومكة ربة الـ ... حرمات مولده وطيبة داره
علم اليهود الحق ثمت أنكروا ... حسدا فأفسد علمهم إنكاره

هذا البيت جيد بالغ، إذ ان العلم إنما يصح ببيان الحقائق، فمتى كتمت أو غيرت وجد الهوى السبيل إلى الرأي وهو آفته.

تبا لمن علم اليقين وصده ... لما استبان له الصواب نفاره
نفاره أي نفوره
وكذاك في انجيل عيسى وصفه ... في كل عصر تجتلى أخباره
عجبا لذي لب رآه وكيف لا ... ينبت عنه لوقته زناره

كان النصارى يشدون الزنار وهو سير يجعلونه حزاما يشدون به أوساطهم أي عجبا لهم لماذا يستمرون على كفرهم ولايطرحون هذا الزي إلى زي المسلمين.
والبعير وشده إلى البيت الحرام من شعار المسلمين ـ قال أبو الطيب يذكر الروم وجهاد صاحبه سيف الدولة:

فكلما حلمت عذراء عندهم ... فإنما حلمت بالسبي والجمل

وترك الصرصري حث النصارى على ترك دينهم وعجبه من ذلك وأقبل على ما يرجوه لنفسه من سبيل النجاة:
وعذافر حرف أمون ترتمي ... مرحا كهيق هاجه ذعاره

قد يبدو أول الأمر هذا الانتقال بعيدا مفاجئا. ولكن متأمله يجد عند التأمل ما يجمعه بما تقدمه من قوة الصلة من طريق تداعي المعاني على حسب الوجه الذي قدمنا ذكره. ثم لعل القارىء الكريم يرى كما نرى أنه حين جعل هذا المادح البارع مقدمة قصيده نسيبا وشوقا إلى الذات الشريفة، ثم أناله الله كريم الوصال حينما حاز شهود كمال الذات المحمدية أخذ في المديح الصرف حتى خلص إلى ذكر أهل الكتاب وعنادهم، ثم بعد ذلك سلك سبيل الشعراء إذ يتبعون معاني النسيب الارتحال إما إلى المحبوب وإما عنه، وهنا الرحلة إلى ديار المحبوب كما لا يخفى، إلى البيت الحرام وإلى حرم المدينة الشريف.

وعذافر حرف أمون ترتمي ... مرحا كهيق هاجه ذعاره [1]
كوماء يرفعها السراب كأنها ... فلك على بحر طمي تياره

---

(١) عذافر أراد عذافرة وهي الناقة القوية وكذلك الحرف والأمون المأمونة العثار والهيق الظليم والذعار بضم الذال وتشديد العين المخوفون جمع ذاعر

يطـوي بها شعب الفـلاة مشمـر كـالسيف للغمـرات سن غـراره
شهـم إذا رام الخطير مـن العـلا لم يثنـه عما يـروم خطـاره

هذا الفخر في هـذا الموضع حسن، لأنه هنا لا يطلب شيئا من معـالي الدنيا وإنما يـريد العـلا عنـد اللـه بأداء الفريضـة ثم الـزيـارة، وقد كـان الحج محفـوفا بالمشقـة والمخـاوف. وكان الصرصري رحمه اللـه من أولى الضرر فـوازن بين قولـه هذا وقـول أبي العلاء:

قـالـوا كبرت ولم تقصـد تهامـة في مشـاة وفـد ولا ركـاب أجمال
فقلت إني ضريـر والـذيـن لهم رأي رأوا غير فـرض حج أمثـالي

شتان ما بين اليزيدين:

يتجشم الـوعـر المخـوف ليأمن الـ ـخـوف الـذي بـالمرء يلحق عـاره

وهو خوف النار وعذاب الله عز وجل.

يسرى مع الـوفـد الكرام ليشهـد الـ جمع الـذي شرفـت بـه أقطـاره
فيي مـوقف جم المواهـب زاهـر وضعـت عـن الجاني بـه أوزاره

هذا يوم عرفة وموقفه ولذلك ذكر بعده المأزمين والمشعر الحرام.

والمأزمين ومشعـرا ذا حـرمـة ومحصبـا بمنى تعـد جماره

والمأزم المضيق قـال صـاحب القامـوس المأزم (بكسر الـزاي [1]) ويقال المأزمـان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكة و منى.

ويطـوف مضطبعا طـواف قـدومـه سبعـا ببيت عظمـت أستـاره

الاضطبـاع هيئة جـد من لبس الـرداء في الحج وذلك يمكن الحاج من الـرمل في الأشواط الثلاثة.

أبهى من الـديبـاج رونـق حجـره وعلى الـلآلى فضلت أحجـاره
ويسير بعـد قضـاء مفترضـاتـه ليـزور ربعـا كـرمت زوارة
ربعـا بـه نـور النبي محمـد متـلالىء نضرت بـه نظـاره

وقد أنبأنـا في آخر القصيدة أنه لم يحج ذلك العـام ولم يزر وإنما تذكر تلك الـرباع المطهرة وحن إليها وها هو هذا يهدي إليها المدحة والسلام:

نـاديتـه بـاللـه يـا مـن أسفـرت عن بشر وجـه نجـاحـه أسفـاره

وإسفار وجـه النجاح عن البشر والبشرى مذهب في الاستعارة حبيبي وهـو هنا

---

(١) الذي في القاموس ضبط القلم وما بين القوسين لنا.

يخاطب الحاج
بلغ هديت إذا وصلت سلام من قـامت بشيب عـذاره أعـذاره
فلم ير الضرر عذرا كما ترى ولكن الكبرة والضعف.

وقل السـلام عليك من متعـرض لعظيم فضلك رثـة أطماره
يـا مـن جـلا قتر الضـلال ومن إذا مـا أمـه العـافي انجلى إقتـاره
يـا من تسـاوى في المكـارم والنـدى كلتـا يـديـه يمينـه ويسـاره

أخذه من قول الآخر:

كلتـا يـديـه غيـاث عم نفعهما تستـوكفـان ومـا يعـروهما عـدم

وهذا البيت يذكر في قصيدة للفرزدق يمدح زين العابدين رضي الله عنه، وفي قصيدة للحزين الكناني يمدح بعض بني أمية ويجوز أن أصله للحزين فأخذه الفرزدق

أنـت الملىء بكشـف ضر مخلـف ذي عسرة بنـدى يـديك يسـاره

وبين اليسار هنا وفي البيت المتقدم مجانسة تامة. وهذا عذر آخر جاء به مع الكبر والضعف. وتأمل حذق الصناعة وخفاء البديع وجودته في قوله «بكشف ضر مخلف ذى عسرة». فهو من أولى الضرر. وقد تخلف بعذر صحيح. ثم هنا إشارة على الذين خلفوا عام غزوة جيش العسرة وهم الذين ذكروا في قوله تعالي: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا آية براءة».

جعل الثنـاء على عـلاك شعـاره فحلت بـه وتعطـرت أشعـاره
يـرجـو النجـاة بفضـل جـاهك في غـد في مـوقف يخشى التـوى أبـراره،

أشار هنا إلى حديث الشفاعة، حين يقول كل الأنبياء نفسي نفسي وما منهم إلا يذكر ذنبا أو يعتذر حتى نوح وإبراهيم وموسى وحتى عيسى إذ اعتذر ولم يذكر ذنبا عليهم السلام أجمعين ثم يصار إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم بالشفاعة ويسجد لربه ويفتح الله عليه من محامده ومن حسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علي أحد قبله ويقول له الله عز وجل «ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمتي يارب» ـ هذه القطعة من لفظ الحديث كما رواه البخاري في الصحيح في التفسير في تفسير سورة بني اسرائيل. وفي الحديث الصحيح «فذلك يوم يعطيه الله المقام المحمود» وفي الصحيح: « من قال حين يسمع النداء« اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة»

اللهم اجعلنا بشفاعته صلى الله عليه وسلم من الناجين.

وقد أوردنا هذه القصيدة كاملة بأرب التنبيه إلى صحة ما نزعمه من استواء ديباجة هذا المديح وقوة أسره وتمام معانيه وما فيه من روحانية الصدق ونوره.

وللصرصري كلمة رائية طويلة من مجزوء الرجز ذات طرب وإيقاع جوريت من بعده على سبيل الاستحسان والتبرك أولها:

جـــــرت نسيم السحـــــــر   على متـــــــون الغـــــــدر
فجعــــــــــــدتها وانثنــت   أعطـــاف بسط الــــزهــر

وقد ترى ذكر السحر هنا. وفي الأبيات أنفاس ربيعية سرعان ما صرفها إلى الحجاز وبانه وشيحه وعرعره.

وضمــــخت ملابــــس الروضــــ بنشــــر عطـــر
كأنما فضت بـــــــــه   ختـــام مسك أذفـــــر
أظنهــــا مــــرت على   سمار ذات السحـــــــر

وذات السحر كناية عن ربوع الحجاز فهذا سبب طيبها لا أنها مرت على الغدران والأزهار

فطــــــــــارحتهم وأتــت   مــن نحـــــــــوهــم بخبر
تسنــــــــده عن أرج الشـــــ   ـيح وريـــا العـــرعـــر
أملـت على بـــان النقـــا   مـــاعنـــدهـــا من أثـــر
فـــــرنحتـــه طـــربـــا   بــــرمـــــزهـــا المعبر

فصرح ههنا بذكر الرمز وأنه إنما يريد الكعبة والزيارة والذات المحمدية الباهرة

أذعـت يـــاريح الصبـــا   سر هـــــــــوى مستتر
فـــرددي مـــا شئت من   حـــــديثهـم وكــــرري
فـــذكـــر سكـــان الحمى   تعلـــــــــة المستهتر
آه لعيــش مـــــــــــر لي   بين اللـــوى والأجفـــر
وزمـن كـــان بنعـــــــــــ   ـمان ربيـع العمـــــر

ثم أخذ في الحنين إلى ليالى الحج ــ وموقف عرفة ومبيت مزدلفة وتلك الساعات القدسية من زاد العمر

يـــاليت شعـــري هـل تعـــو د ليلتـي بـــــالمشعـــــر
وهـل تـــــزول حسرة الـــــــ ـــــفؤاد في محسر

بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين مشـددة وبطن محسر قرب مـزدلفة يسرع فيـه الحاج عندما يجاوز موقف عرفة في سبيله إلى مزدلفة

وهـل لأيـــــام منـى مــن بـــــائع فـأشترى
ولـــو بأيـــام الحيـــا ة لمحـــة بـــالبصر
فما على مـن ســـامهـــا بـــروحـــه مـن غـــرر
وهـل إلى ذات الستـــــو ر أوبـــة في عمــــرى
فـأجتلى نـــور الـــرضـــا في روض حجــــر نضر
وأجتنـــى جنـــى العلى بلثـم ذاك الحجـــــر
يـــالـك من ليـــلات قـــر ب طــال فيهـــا سمـــرى

ولعلها "طاب فيها سمرى" فمثل هذا قد يقع فيه التحريف

لـــو سمح الـــدهــــر بها قضيـت فيهـــا وطـــرى
جـــاد شعـــاب الأبطح الـــ ــــمكي صـــوب المطـــر
وبـــارك الـــرحمن في صبـــاح ليـل مقمـــر

فقـد جـد في السفـر بعد النفـر ليصل إلى المدينـة في ليـال مقمـرات يطيب بهن السري :ـ

يسفر عن وادي العقيق لقرين السفر

ووادي العقيق بالمدينة

مبشرا بطـــالـع الســـــ ـــعد بخير البشر
بـــالعـــربي الهاشمـي ذي الجبين الأزهــــــر

فقولـه العربي هنـا هو الذي يـرجح عندنا أنـه عنى بنزار في الـرائيتين كل العرب وذلك أن بني اسماعيل كلهم راجعـون مع نسـب أبيهم إلى نسب أمهم أيضـا وهي من جرهم من العرب الأولى .

ثم اندفعت القصيدة من بعد في مدح محض لا ريب كان كأصلح ما يكون مثله للتغني العذب الصدوح الخفيف النغم، ذكر فيه خلق النبي صلى الله عليه وسلم وصفة خلقه ومحاسنها ومقامه السامي يوم المحشر فمن أمثله ذلك:

محمد بن هاشم بن غالب بن مضر
السيد المفضل المعزز الموقر
الطاهر المنصور والمؤيد المظفر
أجود بالمعروف من منبجس مثعنجر
منتخب من معشر أكرم بهم من معشر
وهم لعمري سادة الناس بكل الأعصر
ولا سعت أقدامهم إلا لكسب مفخر
طلق المحيا نوره يكسف ضوء القمر
صورته الجميلة الأوصاف أبهى الصور
ليس بفظ عابس جاف ولا منتهر
ميسر مؤلف وليس بالمنفر

سهل القياد قابل عذر الفتى المعتذر
أرسله الله العظيم بالهدى والنذر
وخصه مشرفا بمحكمات السور
ولم يزل مجاهدا كل غوي ممترى
حتى انجلى بنوره عنا حجاب القتر
وقهرت أمته أهلا الفلا والأبحر

ليس له في أول الخلق ولا في الأُخَّرِ

مناظر أنى وقد فضله بالنظر

الأخر بضم الهمزة والخاء مفتوحة مشددة جمع آخر أي ليس له في الأولين ولا في الآخرين مناظر إذ فضله الله بالمعراج والنظر إلى وجهه الكريم

وبـــالـــوسيلـــة التي لغيره لم تخطـــــــــر
وبـــالشفـــاعـــة التي خص بها والكـــــوثـــر

وبـــاللـــواء في المعـــاد والمقـــام الأكبر
حتى إذا حـــان قيـــام كـل ميت مقبر

فـــإنـــــــــه أول مـــن يخرج عنـــــــــد المنشر

بضم الميم أو فتحها فالضم من أنشر قال تعالى: «ثم إذا شاء أنشره». والفتح من الثلاثي، قال الأعشى: "يا عجبا للميت الناشر"

وليس تفتح الجنـــان قبلـــه للبشر
عليـه أزكى صلـوات البـارىء المصـور

ثم ذكر الصحابة الكرام رضي الله عنهم

ثم على صـاحبـه المبجل المصـدر
صـديقه الأتقى أبي بكـر وزين المحضر

لعلمه بتأريخ العرب وأخبار قريش وأنسابها مع ما خصه الله به من الايمان والتصديق والسبق المبين

ثم على المحدث الـ ـمفهـم المبـصـر
ذي النظر الثـاقب والقلب الصـدوق عمر
ثم علي البر الشهيـد الثـابت المصطبر
عثمان ذي النـورين من جهـز جيش العسر
ثم على ابن عمـه البحـر الخضم حيـدر
دلت على تفضيلـه الـرايـة يـوم خيبر
ثم على مـن كـان طـوع أمـره المبتـدر
من آلـه وصحبـه الغـر الكـرام الصبر
وتـابعيهـم بـالهدى من آثـر ومـؤثـر

ثم صـار إلى حنين نفسه إلى الحج والـزيارة والاستغفـار ورجاء الشفـاعة لتكـون كلمته خالصة في التقوى والعبادة وحب النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه :

يـا مزجي الخوص النـواجي في الشسوع المقفـر
إن جـزت عن وادي العقيق نحـو سلع فانظـر
تلك القبـاب البيـض إن عـاينتهـا فكبر
وقف تجاه الحجـرة العليـاء خير الحجـر
وحي مـن خيم في ذاك الجنـاب الأطهـر
تحيـة طيبـة عن العبيـد الأصغر
يحيى بـن يـوسف بن يحيى المذنب المقصر
وقل عبيـد بـركم ثـاو بأرض صرصر

فقد نسب نفسـه كما ترى وهو مذهب للمداح قـديم ـ وقد يعلم القارىء الكـريم قول عمير بن شييم القطامي :

من مبلـغ زفـر القيسى مـدحتـه عن القطـامي قـولا غير إفنـاد

وقال عمران بن حطان في كلمته النونية «من بعد ما قيل عمران بن حطان» ـ وقد سن مـداح الرسول صلى اللـه عليه وسلم الأولـون ذكر أسمائهم وأنسـابهم ، فعل ذلك حسان في كلمته التي قال فيها

ان جـدي خطيب جـابيـة الجَوْ لان عنـد النعمان حين يقـوم
وأبي في سميحـة القـائل الفـا صل حين التقت عليـه الخصـوم

وفعل ذلك كعب حيث قال :

تسعي الـوشـاة جنـابيهـا وقـولهم إنـك يـا بن أبي سلمى لمقتـول

فبذلك اقتدى مداح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد.

يـاصاحب الجاه المديـد الشـامل المنتشر
نحن وإن كنـا ذو جـرم عظيم خطـر
من زمـرة منسـوبـة إليك دون الـزمـر

فغر عليهـا واحمها وإن جنت فـاستغفر
وإن وهت فقـوهــا أو قهـرت فـانتصر

وكأنما نظر بهذا ببصيرة كاشفة إلى ما اقترب من خطر هولاكو، ثم ما من الله به من بعد من هداية أمم التتار والمغل ومن جاورهم جميعا إلى الإسلام فانتشر في آفاق الأرض كما لم ينتشر من قبل، والله غالب على أمره وهو على كل شيء قدير.

قال البرعى رضى الله عنه:ـ

ضربـوا الخيـام على الكثيب الأخضر ـــ مـابين روضـة حـاجـر ومحجـر
وتفيئـوا فى الأثل ظـلا وارتـووا ـــ مـن مــائه المتسجم المتفجـر
واخضر فـردوس الخمائل اذ غـدا ـــ وسرى عليـه حيـا العـريض الممطـر
فكأن لـؤلـؤ طلـه رأد الضحي ـــ درر متـى تسر النسـائم تنثـر [1]

هذا من قول أبي الطيب «دنانيرا تفر من البنان»

ولع البشـام بنفحـة نجـديـة ـــ تغشى الـريـاض بعنبر ومعنبر

تأمل هذه الديباحة البحترية

إن النفـوس على اختـلاف طبـاعهـا ـــ طمعت مـن الـدنيـا بما لم تظفـر
وعلى الكـريـم دلالـة عـذريـة ـــ بصرت بـه فأرتـه مـا لم ينظـر

أى للحب العذرى طريق إلى قلب الكـريم يعرفه ويراه فيرى به الكريم مـا لم تنظر إليه عينه ولكن يراه قلبه

يـا نـازلا بـربـا الأراك عـداك مـا ـــ مـا حملت من ولهى وطـول تـذكـرى
سل جيرة الجرعـا غـداة غـدت بهم ـــ بـزل الـركـائب في الفـريق المصحـر

لا تزال كلمة الفـريق مستعملة في اللغة الدارجـة بمعني يقارب معنى الخليط والأصل كما ترى واحـد إذ هو ممن يخالطون في المرعي ثـم يفارقون. وللبرعي رحمه اللـه إحساس دقيق بالطبيعة. وكما الطبيعة التي نحس نفحاتها من ابن الخطيب أندلسية مغربية فيها نعومة ربيع إقليم البحر المتوسط فالطبيعة التي عند البرعي يمنية عربية، أثلها الأخضر

وبشامها من أودية اليمن وأخياف جبالها وشعـابها، وفيها من أسر شدتها ما ليس عند ابن الخطيب . ثم مع إحساس البرعي رحمه الله بجمال الطبيعة قد أذابها كل الذوبان في نسيب المديح النبوي

سل جيرة الجرعـا غـداة غـدت بهم بـزل الـركـائب في الفـريق المصحـر
هل جـددوا عهـدا بمعهـد رامـة أم طنبـوا بـالشعب شعب العـرعـر
للــه در العيس وهـي رواسـم بمــروح ومصبح ومهجــر
يخرقن مـن حجب السراب سرادقـا مــا بين طيبـة والمقـام الأكبر

هنا هذا النمط بحتري وبحتريته آخذة من مذهب ذي الرمة بنصيب

ويلجن في لجج الظـلام ضـوامـرا شــوقـا إلى المزمـل المدثـر

صلى الله عليه وسلم

الأبطحـى المنتقـى مـن غـالـب والطـاهـر الطهـر البشير المنـذر
الصـادق الهادي الأمين المجتبي والسـابـق المتقـدم المتـأخـر

متقدم لما سبق من ذكره أنه أول من ينشق عنه قبره ومتأخـر لمقام الشفاعة للمذنبين من أمته عليه الصلاة والسلام

وابـن العـواتك مـن سليـم إنـه ذو الفخـر إجماعـا وإن لم يفخـر
مـلأت محاسنـه الـزمـان وأشرقت بـوجـوده الأكـوان فـاسمع وانظـر
وتتـابعـت نعم بـه وتطـاولت رتب تنـاهت في عـراض المشترى

على بحترية البرعي في الديباحة تجده كثير النظر إلى معاني أبي الطيب كما ههنا :

منـــازل صعـــدت والفكـــر يتبعهـــا فجـــاز وهـــو على آثـــارهـــا الشهبـــا

ومن بعد يأخذ البرعي في بعض الإلماع إلى أخبار السيرة النبوية الشريفة.
وللمنشدين كلف بالبرعي، ولولا اشتهـار البردة والهمزية حتى ليس كمثل شهرتهما بين العـوام والخواص شيء من المديح لكان البرعي أشهـر المداح قاطبـة وأسيرهم كلمات، لكثرة ما ينشـد المنشدون من ديوانه وهـو الذي زعم صاحب التاج أنـه ديوانه الصغير.
والبرعي مجهول تماما عند من يـرون أنهم من الخاصة من المشتغلين بالآداب وتعليمها في المدارس في عصرنا هذا. وابن الفارض وحده هو المعروف عند هؤلاء بفضل

شربنـا على ذكـر الحبيب مـدامـة سكـرنـا بها من قبـل أن يخلق الكـرم

والكلمة اللامية:

مـا بين بـان المنحنى وظـلالـه ضـل المتيـم واهتـدى بضـلالـه

والفائية:

قلبـي يحدثنـي بـأنـك متلفـي روحى فـداك عـرفت أم لم تعـرف

وفيها البيت:

وعلمـت أن المستحيل ثـلاثـة الغـول والعنقـاء والخل الـوفي

وهو مـا يجرى كبعض مجرى الحكمة. على أن هـذه القصائد ليست معـروفة حقـا عند المنشدين إلا أبيات الخمرية وأعرف منها الرائية القصيرة.

زدني بفـرط الحب فيـك تحيرا وارحم حشـا بلظى هـواك تسعـرا
وإذا سـألتـك أن أراك حقيقـة فـاسمح ولا تجعل جـوابى لن تـرى
يـا قلب أنت وعـدتنـى في حبهم صبرا فحـاذر أن تضيق وتضجـرا
إن الغـرام هـو الحيـاة فمت بـه صبـا فحقـك أن تموت وتعـذرا
قل للـذيـن تقـدمـوا قبلي ومن بعـدي ومن أضحي لأشجـاني يـري
عنى خـذوا وبي اقتـدوا ولى اسمعـوا وتحدثـوا بصبـابتي بين الـورى

وفي هذه الأبيات كما ترى صناعة وتفكير. وكأن في قوله "يا قلب أنت وعدتني" ما يناقض ما زعمه بعد في قوله "قل للذين تقدموا" . ومثل هذا قد أخذوه على كثير في قوله : « أريد لأنسي ذكرها » فقالوا وما له يريد أن ينسي حبها . وقوله "فاسمح ولا تجعل جوابي" هو الذي حبب الناس في هذه الكلمة لما تضمنه من معني الإشارة إلى القرآن وتجلي الحق سبحانه وتعالي للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا . وإن يكن موسى عليه السلام قد قيل له : «لن تراني ولكن . . » فالشيخ أولى أن يقال ذلك له إلا على تأويل الرؤية بعد الفوز في الدار الآخرة على حسب اعتقادنا :

ومنه أن ينظر بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار

هذا في اليوم الاخر. وقوله "ومن أضحي لأشجاني يري" ليس بخال من قلق وتتمة الأبيات إذ قد استطردنا بذكرها :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سري

وهذا بيت القصيدة

وأباح طرفي نظرة أملتها فغدوت معروفا وكنت منكرا

رجع إلى الصناعة والاستعانة بباد هواك

فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عنه مخبرا

هذا ضعيف لما في قوله غدا لسان الحال من صناعة وعمل

فأدر لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصورا

أصل هذا قول ابي نواس

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ونبه إليه شراح أبي الطيب ونقاده أنه أخذه منه في قوله :

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتي فذلك إذ أتيت مؤخرا

وآخر رائية ابن الفارض

لـــو أن كـل الحسن يكمـل صـــورة　　　ورآه كـــــان مهلــــــــلا ومكبرا

قال الشارح: "هذه القصيدة مع شهرتها بين المنشدين في غـاية المتانة وفي نهاية البلاغة وقد نظم كثير منهم على موازنتها، قال الشيخ شرف الدين بن عنين الدمشقى رحمه الله تعالي:

مـاذا على طيف الأحبـة لـو سرى　　　وعليهم لـــو ســاموني بـــالكـــرى

وقال الأديب الوزير أبوبكر بن عمار رحمه الله تعالى:

أدر الـزجاجـة فالنسيم قـد انبرى　　　والنجم قد صرف العنان عن السرى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى:

لم ينقلـــوا عنى الغـــرام مـــزورا　　　مـــا كـــان حبكم حـــديثـــا يفترى

وقلت مطلع قصيدة في دمشق حرسها الله من الآفات:

خـذ قصـة الأشـواق يـا حـادى السرى　　　ان كنـت مـن أهـل الغـــــرام مخبرا
وأقـــرأ صحيفـــة وجنتي مصفــــرة　　　تـدرى الحديث فمن قـرى خبرى درى

وأما قصيدة الشيخ رضه فإنها غاية لا تدرك وطريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك ". ا. هـ كلام الشيخ حسن البورينى الشارح (ص ٢٥٧ طبعة مرسلية ١٨٥٣م)-
قلت ان يكن أراد ابن عمار الأنـدلسي قتيل المعتمـد بن عباد فإن زمـانـه كان في القـرن الخامس الهجري قبل معـركة الزلاقـة وزمان ابن الفارض القرن السـابع الهجري لوفـاته ٦٣٢ هـ وإنما جـارى ابن عمار أبا الطيب وهـو الأصل وإنما أوردنا كـلام ابن الفارض للتنبيه على ما منى لذكره من اشتهار بين معاصرينا لا لشيء إلا أن المستشرقين كتبوا عنه ومـا كتب المستشرقون من كتب منهـم عنه - وأحسب من اولئك نيكلسـون المستشرق الانجليزي -إلا التماسـا لبعض معاني الحب التصوفي شريطة خلـوه من ذكر المصطفى عليه الصلاة والسلام لنفور القلوب الصليبية من ذلك، ولله در ابن الخطيب إذ يقول:

ولـولاك لم يعجم من الـروم عـودهـا　　　فعـــود الصليـب الأعجمي صليب

وقد كنت أعجب لم لا يذكر معاصرونا البرعى عبدالرحيم وهو أرق رقة من ابن الفارض وأطبع ملكةوأسلم متنا وأجمل ديباجة. والسبب أن أكثر ترتيب مواضيع مناهج تأريخ الأدب عندنا منحو فيه نحو ما وضعه المستشرقون، وهؤلاء ربما اعترفوا بفضل شاعر كالمعري أو فيلسوف كابن سينا من أبناء الإسلام وببعض المتصوفة ممن عسى أن يجدوا عنده أنفاس حلول وما أشبه من مذهب وحدة الوجود، أما ما كان إسلاميا حقا فهم منه شديدو النفور. لذلك نفر من نفر منهم عن أبي الطيب. وكان هؤلاء عن أمثال البرعي من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم أشد نفورا. وصدق الله العظيم. قال تعالى جل من قائل: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» [براءة].

رجع الحديث إلى رائية البرعى

هذا منارك يا محمد قد سما	طلعت طلائعه بنور النير
كم نازعتك الفخر سادة مكة	حسدا وهل صدف يقاس بجوهر
وفضلتهم بغبار نعلك إنما	ينمي بطيب العرق طيب العنصر

هذا جيد بالغ، لوضوح المعنى، وتخير اللفظ وقوة رنين الإيقاع وجزالة السبك.

ما نازعتك يد لنيل فضيلة	إلا وقال لها علا يدك اقصرى
أو وازنتك أكابر العرب انثنت	مرجوحة بقلام ظفر الخنصر

هذان البيتان تكرار لما قبلهما. على سلامتهما هما دون ما تقدمهما. وأحسب أن البرعى رحمه الله أتي من جهة قصده إلى الاستيعاب والشمول، إذ قد ذكر سادة مكة فبدا له، والله أعلم، أن المعنى يتم بذكر أكابر العرب، وهذا ما عليه ظاهر القياس، ولكن المعنى قد تم فلا يحتاج إلى مزيد وإن كان في قوله "مانازعتك يد" بعض التوكيد. وقوله بغبار نعلك أقوى من قلام ظفر الخنصر، أم ليس قلام الخنصر فسيطا كغيره والفسيط قلامة الظفر أم هو شر مكانا من قلام غيره؟ ـ وأقصى ما يؤخذ على الشاعر هنا التطويل لا الضعف ان أخذ ذلك.

ولأنت سر المرسلين وخير من	وطىء الثرى من منجد ومغور
ضربت رواق العز دونك هيبة	قصمت عرى المتكبر المتجبر

أحسبه يشير هنا إلى خبر الإراشى وأبى جهل، وقد جاء البوصيرى بالخبر أتم في الهمزية حيث قال:

وأبــو جهل إذ رأى عنق الفحـل إليــه كأنــه العنقــاء
واقتضـاه النبـي دين الإراشي وقـد ســاء بيعـه والشراء

والبوصيرى أمد باعا وأقدر على النظم وجر الأخبار لا من البرعي وسائر المداح النبويين وحدهم ولكن من كثير من كبـار من تقدموا من الشعـراء. والذي جاء بـه البرعي هنا أشبـه بطريقتـه في الترنم. وكلما أمكنـه الترنم مع النظم جاء بـه سلسـا سائغـا. ومتى اضطر إلى تكلفـه مسه به ضعف. ومثل ذلـك تحسه أحيانـا عند الصرصري. وقل من كبار شعراء المولدين من لا يقع له ذلك وقد تتبع النقاد مواطن الضعف عند أبي الطيب وأبي عبادة وأبي تمام جميعا كما تعلم.

وسمت نجومك بالسعود وأشرقت — شمس الـوجـود لحظـك المتـوفـر

لحظك المتوفـر تتمة لما بدأ به من ذكـر النجوم والسعود. ومن أخذ عليـه رحمه الله ذكر نجوم السعـود والحظ المتوفـر مع سيرة من أكذب قـول أصحاب النجـوم، وهوت على السرقة لمولده الرجوم، فقد يجد معتذر له مخرجا بقول حسان رضى الله عنه:

يـا بكــر آمنـة المبــارك بكـرهــا — ولدته محصنة بسعد الأسعد

وإنما هي طريقة كلام حسن ألفتها فصاحة منطق العرب

وأرتك أنـــوار النبـــوة مـــا انطـــوى — في الكـــون من مكنـــون سر مضمـــر
ووقتـك مـن لفح السمــــــوم غمائم — مبســوطـة من فـــوق بـــدر مـزهـر

هذا المعنى بديع، إذ لما جعل الغمام ظلا، التمس جعل من تحت ظل الغمام نورا، فهو وجه الذى ظلله الغمام عليه الصلاة والسلام.

وعليك سلمت الغـزالة مـذ رأت — بك من بديـع الحسن أكمل منظر

وذلك أن الغزالة من رموز الحسن:

وأوابد الوحش الكـوانس في الفلا — نــادتك بـاسـم معـرف لم ينكــر

فقد انتقل هنا ما ترى من السيرة المكية وأخبارها إلى ذكر النبوة والمعجزات

وببطـن كفـك سبحـت صـم الحصـى — وكــــــذاك حن الجذع يـــــوم المنبر
وبنت عليـك العنكبــوت بنسجهـــا — في الغـــار تـــوهـم أن منهجــه بـــرى

في قـولـه«أن منهجـه برى» بعض التعب والصنـاعة والمعنى أن العنكبـوت بنسجها قـد

أوقعت في وهم قفاة الأثر أن المنهج المدخل إلى الغار بريء من أثر الناس. وأخذ الصدر من قول الفرزدق في هجاء جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها ... وقضى عليك به الكتاب المنزل

أى أنت وشعرك كنسج العنكبوت وقد تعلم قول الله في ذلك "وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت" أو إن بيتك لبيت عنكبوت فالذى ضرب عليك ليس ذا عماد وطنب. وقد أحسن البرعي إذ غير أول ألفاظ البيت فجعل مكان «ضربت عليك» قوله «وبنت عليك» إذ البناء سقف، فأفاد بهذا ما صنعته العنكبوت عند فم الغار ونقل نسج الفرزدق العنكبوتى من هجائه إلى معنى لا ريب فيه من المدح.

وغدت مغيرة لإثرك في الثرى ... ورق الحمام فعاد غير مؤثر

ضبطها الطابع بشدة الثاء مع كسر وما أرى إلا أن الثاء مفتوحة مشددة أى عاد الثرى غير ذي أثر باد عليه.

وجعلت شق البدر معجزة لمن ... في الحي من بدو رأوه وحضر
ولمدحك الوحي المنزل فصلت ... آياته بفضائل لم تحصر

كقوله تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم» وقوله تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم» وقوله تعالى: «فأنزل الله عليه سكينته»

ومكارم قد عمت الدنيا ندى ... وهدى وأخرى أخرت للمحشر

وهي: «مقاما محمودا» الذي وعده الله تعالى.

حزت الجلالة والمهابة والعلا ... وشفاعة العقبى وحوض الكوثر
يا بهجة الدنيا وعصمة أهلها ... من كل خطب عابس متنكر
كن من أذى الدارين نصرى واحمنى ... ولنيل ما أرجوه موسم متجرى
واجعل مديحى فيك حبل تواصل ... بينى وبينك يا رفيع المفخر

فهذا توسل أخذ به في سبيل الختام

قل أنت يا عبد الرحيم وكل من ... والبيته في ذمة لم تخفر
ولمن يليني صحبة ورحامة ... بالخير يا خير الخلائق بشر
وادرأ بصولك في نحور حواسدي ... أبدا وقم بي حيث كنت وشمر

وممـا يدني مـدح البرعي من القلـوب حرارة تـوسله بـالنبي صلى اللـه عليه والـه وسلم، واستغاثته به واستنصاره على أعدائه

وعليـك صلى الله يـــــا علـم الهدى ‏ ‏ مـــا لاح مبتسم الصبـــاح المسفـــر

الصرصري يستبشر بـالأسحـار ونسيمها إذ كـان رحمه اللـه أعمى يشـم اقتراب الوقت. والبرعي منفتح البصيرة والبصر على جمال طبيعـة الكون حوله ، فهـذا الصباح يميط له عن وجهها الحجب .

وعلى قــرابتـك الكـــرام وســـادة الـــ ‏ ‏ إســــــلام صحـب الخير للمتخير

صلى الله عليه وسلم .

والبرعي رحمه اللـه كثير الجيـاد الحلوات السـائرات بين المنشـدين الى اليـوم، بين من لا يـزالـون تهش أسماعهـم وتطـرب قلـوبهم لأنغـام المديح النبـوي على نهجــه القـديم الأصيل . ومما يحبب البرعي قرب مأتاه من عقائد العامة ووضوح معانيه مع جهارة رناته . وسنـورد له كلمات ربما استـوفينا بعضهـا بتمامه كهـذه التي تقدمت وربما اخترنـا من بعضها ـ قال رحمه الله :

بـانـت عن العـدوة القصـوى بـواديها ‏ ‏ واستنشقت ريـح نجـد في بـــواديها

والبرعي من حسنـاته أن ليس يفـرط في تعـاطي البديع ولـه ولع بـالجناس التام . أحيانا وربما اتفق ذلك له في أول بيت من القصيدة كما ههنا وكما في نونيته :ـ

سمعت سويجع الأثـلات غنى ‏ ‏ على مطلـولـة العـذبـات غنـا

أي غناء وغنى الأولى فعل ماض

بـزل دعاهـا الصبـا النجدي فـانطلقت ‏ ‏ والشـــوق في البيـــد هـــاديها وحـــاديها
حنت وأنـت لمغنى طيبـــة طـــربـــا ‏ ‏ كأن في طيبـــة صـــوتـــا ينـــاديها

الحنين والنسيب والشوق هنا للزيارة الشريفة صريح به القول لا كناية فيه

وعللتهــا غـــوادي الشــام حـــاملـــة ‏ ‏ مـــاء معينـــا يـــروي غل صـــاديها
ولم تـــزل لغبـــار الارض خـــائضـــة ‏ ‏ نحـو الـريـــاض التي نـور الهدى فيهـا

تأمل حسن هذا البيت :

محمد سيد السادات من مضر ... خير البرية قاصيها ودانيها
بدر سرى فوق أطباق السماء له ... قد دان من رتب العلياء ساميها
والرسل تشهد بالفضل العظيم له ... دنيا وآخرة والله هاديها
نال الذي لم ينله قبله أحد ... في ليلة طاب مسراها لساريها

وهي ليلة المعراج والإسراء .

أمسى يخفف من أوزار أمته ... ثقلا ويشفع إكراما لعاصيها
بانت عن المسجد الأقصى ركائبه ... تسري إلى العرش لا فخرا ولا تيها
والنور يقدمه من كل ناحية ... والحجب ترفع عن أنوار باريها

هل بلغت توهمات المتصوفة مبلغا أعظم من هذا؟وأصول هذا في القرآن والحديث كما يعلم القارئ ـ أصلحه الله وإيانا ـ فلماذا يتعب بعض الباحثين ويجهدون ليبرهنوا أن للتصوف أصولا استعارها المسلمون من الهند ومن النصارى ولم يعرفوه إلا منهم . نعم لم ينحرف عن وجه الصواب إلا بما استعار من مذاهب غير الإسلام . أما أصول روحانيته الحقة فمن ههنا . ليس فيها من أخذ عن أهل الملل . وما يغمر هذه الابيات من نور روحاني شعشعاني لا يحتاج إلى دليل .

لما رأى الآية الكبرى وأدرك من ... أسرار حكمته أسرار خافيها
بانت حظائر قدس الله مشرقة ... بنوره إذ تمنته يدانيها

ههنا صدى من مطلع القصيدة .

والحجب والعرش والكرسي ما افتخرت ... إلا بأحمد خير الخلق راقيها

الضمير في راقيها يعود على الحجب والعرش والكرسي وأجود عندي أن تجعل راقيها حالا، أخفيت الفتحة فيه كإخفاء الضم والكسر للثقل على ياء المنقوص وهو مذهب للعرب ولك أن تجعل (راقيها) صفة متبعة بعد(خير الخلق) وعلى الوجه الذي قدمناه يكون المراد أنها افتخرت به إذ هو يرقاها وعلى الوجه الثاني "بعد أن رقاهافصار أنه رقاها نعتا له عليه الصلاة والسلام

ذاك الذي لو أعار المزن راحته ... ما كف واكف غاديها وساريها

يشير إلى خبر استسقاء الأمة به عليه الصلاة والسلام

ولـــو مشى في بـــلاد غير مخصبـــة لجادهـــا المزن واخضرت نـواحيهـــا
ولـو أشـــار إلى النـار التـي سعـرت أضحى سـلامـا وبـردا حـر حـاميهـا
كم مـــزقت حسراتي من مـــواهبـه يـــد وكم مـن ملمات كفـــانيهـــا
يـا صفـوة اللـه يـا أعلى الـورى شرفـا يـا خـاتم الـرسل يـا مـولى مـواليهـا

أي يا سيد سـادات الناس والضمير في مواليها يعـود الى الناس على معني الجمع المؤنث أي أنت السيـد حقـا لا هـؤلاء الـذين يقـال لهم إنهم سـادتها ومـواليهـا .

يـا منتقى مضر الحمـراء يـا يـدهـا الـ ـــعلياء يـانـورهـا يـا رشـد غـاويها
يا صـاحب النصر يا مردى القنـا قصدا يـا ضيغم الحرب يـا مـروي مـواضيهـا

وللبرعى نشـوة عنـد ذكـر الجهـاد وربما نظـر إلى طـريقـة أبي الطيب في نعت القتال ، وذلك من إحسانه الذي نبه عليه ابن الأثير.

يـا فـاضح القطـر والبحـر المحيط يـدا يـــا من جنى نعما حلــو مجانيهـــا

أو حلوا مجانيها

إليـك حبرت من نيـــابتي بـــرع مـــدائحـا فيك زانتهـــا قـوافيهـــا
عـــرائس كـريـــاض المسك رائقـــة زهـــر محاسنهـــا غـــر لئـــاليهـــا
مـا أنشـدت يـا رسـول اللـه في مـلأ إلا وسر قلـــوب النـــاس راويها

والغناء هنا عذب جهير مشرق :

ولا تجلت معـــانيهـــا لـــذى أدب إلا وحـــاز نصيبـــا مـن معـــانيهـــا
فصل بمـــرحمة عبـــدالـــرحيـم ومن يليـه أهـــلا وأرحـامـــا يعـانيهـــا

وتستـوقف قولتـه «يعانيهـا» . وهي بلا ريب جيـدة حيث وضعها ، لأن بـر أولي الأرحام ربما اتفقت فيه المشقة . قال تعالى جل من قـائل : «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» فهذا مما يقوي ما ذهب إليه ان شاء الله

والطف بنفس تـريـد الفضل منك ودم من صـولـة المكـر والمكـروه تحميهـا
عـــاشت بفضلك في أمن وفي دعـــة وأنت مـن محن الـــدارين كـــافيهـــا
صلى عليـك إلهي كـل آونـــــــــة يـــا سيـدي مـــا تـلا الآيـات تـاليهـا
وعم صحبـك يـــا بن الطيبين ومـن والاك مستقبل الـــدنيـــا ومـــا فيهـــا

بكسر باء مستقبل أي والاك مستقبلا هذه الدنيا بما فيها، لا يبالي إذ والاك ما يلقاه من خطوبها ولا معنى لفتح الباء وهو الذي في الطبع

وجاد أرضا حوتك الغيث ما سجعت ورق الحمام وغنت في نواحيها

وكما يرجع ابن الخطيب الى طبيعة الأندلس يرجع البرعي الى طبيعة اليمن، وله ولع بذكر الحمائم كقوله .

سجعت بأيمن ذي الأراك حمائمه وهمت على عذب الغوير غمائمه

وكقوله: فياحمامات وادي البان شجوك في ظل الأراك شجاني ياحمامات

وكقوله: سمعت سويجع الأثلات غنى على مطلولة العذبات غنا

وكقوله: ومن لي بأن أروي من الشعب شربة وانظر تلك الأرض وهي مطير

وأسمع في ظل البشام عشية بكاء حمامات لهن هدير

وللبرعي ولع بالبشام والأثل. وهذه الراء من مدحة له منسابة تدفق الوزن والروى، مفعمة بصبابة المحبة الروحية، جيدة المدح، متينة الأسلوب ـ كقوله:

ومدح رسول الله فأل سعادتي أفوز به يوم السماء تمور

نبي تقي أريحي مهذب بشير لكل العالمين نذير

إذا ذكر ارتاحت قلوب لذكره وطابت نفوس وانشرحن صدور

وكيف يسامي خير من وطيء الثرى وفي كل باع عن علاه قصور

وكل شريف عنده متواضع وكل عظيم القريتين حقير

وقال في ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم:

لئن كان في يمناه سبحت الحصى فقد فاض ماء للجيوش نمير

وخاطبه جذع وضب وظبية وعضو خفى سمه وبعير

ودر له الثدي الأجد كرامة كما انشق بدر في السماء منير

ومثل حنين الجذع سجدة سرحة وأنس غزال البر وهو نفور

وباض حمام الأيك في إثره كما بنت عنكبوت حين كان يسير

أى حين كان يسير إلى المدينة مهاجرا. واعلم أن أهل العصر قلوبهم منكرة وهم مستكبرون.

وليست معجزة من المعجزات بعسير أمرها على من له الخلق والأمر. وإذ الرسالة من عنده سبحانه وتعالى فدعمها بالمعجزة مما يناسبها. وقد يخيل إلى قوم أن أمر الرسالة

المحمدية يكون أوقع فى الأنفس حين تجرد من المعجزات. وأوشك الدكتور محمد حسين هيكل أن ينحو منحى من هذا الباب فى كتابه الحسن«حياة محمد»ــ على أن العنوان هكذا، «حياة محمد»، لايخلو من جفوة، كأنما كتبه افرنجى غير مسلم والذين يرغبون أن يباهوا بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم من غير إيمان بنبوته و بمعجزاته منافقون يستعاذ بالله من شرهم.

والمسلمون حقا فى كل بلاد الله يهشون لسماع القرآن ويخشعون لذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب. وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته للقلوب شفاء وقد خلص ذكرها من المديح الفصيح إلى المديح بالدارجة الذى قد ظل دهرا طويلا مما تطرب له أبناء الأمة الإسلامية وبناتها فى المشرق والمغرب. من ذلك مثلا قول الحاج الماحى بلساننا الدارج:

القصير اب دم يا محمد
قال له فيَّ سم يا محمد
الصلاة وسلام لى محمدا
وخاتم الكرام سيدى أحمدا

ثم أخذ البرعي بعد ذكر المعجزات في ذكر الجهاد:

وان الغمام الهاطلات تظله ... بروح نسيم إن ألم هجير
ويوم حنين إذ رمى القوم بالحصى ... فولوا وهم عمى العيون وعور
وجند في بدر ملائكة السما ... فجبريل فيهم قائد وأمير
ومن قومه في البئر سبعون سيدا ... قتيلا ومثل الهالكين أسير
ومن عزمه تخريب خيبر مثلها ... قريظة قرض والنضير نظير

مكان الجناس هنا أوضح في النطق اليمني إذ الضاد مقاربة للظاء. والحق أن أكثر نطق الضاد عندنا الآن بعيد عن الأداء الصحيح الجيد، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن القوافي فى أوائل هذا الكتاب فى جزئه الأول. و لا يخلو هذا البيت من لطائف بديعية على اقتصاد البرعي في البديع فلا يسرف في زخرفة بل نفس الجزالة المطبوعة أحب إليه، ولهذا ما زعمنا أن ديباجته بحترية الرنة والصفاء. على أن مكان البحترى في دقة الصناعة كما قد قدمنا. قوله قرض، يشير به إلى ما وقع بها من هلاك وانقراض. وقوله نظير يشير إلى ما وقع بالنضير من نظرة حتى إذ جاء زمان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلوا عن جزيرة العرب. وفي ذكر القرض والنظير ملاحة تعبير لما

في ذلك من الإيهام بالقروض والنظرة إلى ميسرة.
ومن أعجب أبيات هذه الرائية إلى كاتب هذه الأسطر ما في مقدمتها من صدق الصبابة والحب الروحي الخالص:

فـــؤادي بـــربـع الظـــاعنين أسير يقيـم على آثـــــــــارهـم وأسير

في المجموعـة ويسير وليس بصواب والـذى في الديوان هـو الصواب. أى فـؤداى عند ربع الأحباء الذين ظعنوا، هـو الواقف الجازع، المقيم ثم يبكى ويشجى وأنا أتقلب في البلاد

ودمعي غـزيـر السكـب في عـرصـاتهم فكيف أكف الـدمع وهـو غـزيـر
وإن تبـــاريحى بهم وصبــــابتـى لهن رواح في الحشـــا وبكــــور
أحـــن إذا غنــت حمائم شعبهـــم وينــــزع قلبي نحـــوهـم ويطير

فقد جعل قلبه حمامة من الحمائم. وعلى هذا الوجه تصح رواية من روى
يقيم على آثارهم ويسير
يقيم، باكيا على الربوع، ويسير نازعا إليها، ولكن السير والطيران لا سواء.

وأذكـــر من نجـــد فـــوارس بـأسهم فتنجـــــد أشـــواقـي بهم وتغير

إمـا الروايـة هكذا: «فـوارس بأسهم» و هو مستقيم مع الإنجـاد والإغارة والإغـارة من حـلـول الغور ومن الغـارة، و إمـا كما في المجموعـة«جـواري بأنسهم» وما أرى إلا أنـه تحريف لتشابه رسم الأحرف، ثم فى العبارة«جواري بأنسهم» ضعف لايشبه سائر هذه الـديباجـة الناصعـة. وقولـه«فوارس بـأسهـم» يناسب معنى النسيب سـواء أأريد بـه الكناية أم التصريح.

فيـا ليت شعـري عـن محاجـر حـاجـر وعـن أثـــــــــلات روضهـن نضير
وعن عـذبـات البـان يلعبن بـالضحى عليهن كـــاســات النعيم تـــدور

ههنا نشوة بالطبيعة من غير خروج بذلك عن روحانية الشوق وحنين النسيب.

ومن لي بـأن أروى من الشعب شربـــة وأنظـــــر تلـك الأرض وهـي مطير
وأسمـع في ظل البشـــــام عشيـــة بكـــاء حمامـــات لهن هــديـــر

ثم صار إلى محض الحنين في قوله:

فيـــا جيرة الشعـب اليماني بحقكـم صلـوا أو مــروا طيف الخيـال يـزور
بعـــدتـم ولم يبعـــد عن القلـب حبكم وغبتم و أنتـم في الفـــؤاد حضـــور

فأصبحوا هم الذين ساروا وحبهم مقيم

أغـــار عليكم أن يـــراكـم حـــواســـدي   وأحجـب عنكـم والمحب غيـــــــور

هـذا البيـت عجيب. هل زار المدينـة بعض مـن لم يكن أمـر ودهم إليـه إلا ضعيفـا وتعذرت عليه الزيارة فحز ذلك فى نفسه؟

أحييـــــاب قلبي هل ســـــواكـم لعلتي   طبيـب بـــــداء العـــــاشقين خبير
فجـــودوا بـــوصل فـــالـــزمـــان مفـرق   وأكثـــــر عمـــر العـــاشقين قصير
و لاتغلقـــوا الأبـــواب دوني لـــــزلتي   فأنتـم كـــرام و الكـــريـم غفـــور

ومن ههنا صار إلى المديح صريحا. ثم يقول في آخر القصيدة:

أمـــــولاي قم بي في الخطـــــوب فـإن لى   تجارة مـــــدح فيـك ليـس تبـــــور
عـــرائس لا تـــرضى بغيرك صـــاحبـــا   لهن عـــزيـــزات المهـــور مهـــور

على هذا الوجه تأول بعضهم قول حبيب:

ولقد خطبت قليلة الخطاب

و لكن الأظهر فى هذا أنه أراد ذم أهيل زمانه، كما صرح بذلك أبوالطيب فيما بعد

علـت وغلـت إلا عليـك فـأرخصـت   ليرخص حـــورا في القصـــور قصـــور

فسر الشارح القصور بالعجز و لا يستقيم عليه المعنى إذ قال من قبل«عرائس لاترضى بغيرك صاحبا» فأين القصور بمعنى العجز مع هذا. و الوجه أن القصور الأولى بمعنى الجمع للقصر و هذا واضح و القصور هنـا قصور الجنة. والقصور الثـانية من القصور من قصره يقصره(باب ضرب) وقصر المرأة أي حبسها فـلا تخرج أي عرائس من مديحى فيك علت وغلت إلا عليك، من أجل أن يكـون قصورهـا عليك سببا إلى الجنـة و أن تـرخص لقـائلها بـذلك الحور المقصـورات فى قصـور الجنة. ولك أن تقـول إن كلتـا الكلمتين القصور الأولى والثانية بمعنى واحد ــ يرخص قصورهن عليك الحور اللاتى في القصور ـ أي المقصورات

مـــــؤلفهـــا عبـــد الـــرحيـم كأنها   كـــــــواكب في جـــــــو السماء تنير

فهذا يمنع من تأويل القصور بمعنى العجز

لبسن معـــانيهـــا بمـــدحك بهجـــة   فـــــلاح لها نـــــور وفـــــاح عبير

لعبدالـرحيم رحمه الله ولع بالنون فى جمع غير العـاقل يعطيه بذلك صفة العـاقل وهذا المذهب جيد في العربية، وسلكه حبيب في قوله:

و لـو كـانت الأرزاق تجري على الحجـا   هلكـن إذن من جهلهـن البهـــائم

ثم يقول رحمه الله:

فقل أنت في الـدارين في حـزبنـا ومن   يليـك صغير سنــــــه وكبير
وصلى عليك اللــــه واختـص واجتبى   فأنـت هـــدى للعـــالمين ونـــور
وعـم رضـــاك الآل والصحـب إنهم   لــدينك يـاشمـس الـزمـان بـدور

ومن جياد البرعي المشهورات:

بـالأبــرق الفــرد أطــلال قـديمات   لآل هنــــد عفتهـن الغمامــــات
وملعب لعبت هـــوج الـريـــاح بـه   كأنهم فيــه مـا ظلــوا و مـا بـاتــوا
تنكـــر العلـم الغـــربي من إضـم   وأقفــرت بعــد بين الـركـب رامـات

إذ الركب قبل ظعنهم كانوا هم ربيعها

تشتيتهم جمع الأحـــزان في كبـــدي   فـــالهم مجتمع والـــركب أشتـــات
فإن أنسـت غيـابـات الفـؤاد بهم   فهم أحيبـاب قلبي يـا غيـابـات

قراءة نافع وأبي جعفر غيابات بـالجمع هذا في سورة يوسف واستعار البرعي اللفظة من هناك

فيـا حمامـات وادي البـان شجـوك في   ظل الأراك شجــاني يـــا حمامـــات
ويـا أثيـلات نجـد مـا لعبت ضحى   إلا لعبـت بقلبي يـــا أثيــــلات
تهيج لـــوعـــة قلبي المستهـــام إذا   هبت بنشر الصبـا النجـدي هبـات

ثم صار بهذا الحنين إلى ذروته حيث جعله شوقا إلى زيارة القبر الشريف:

فكيف حـــال بعيــد الـدار مغترب   لـــه إلى الشـــام حنـات وأنـــات
يهدي التحيـــة من نيـــابتى بـــرع   إلى نبي عطـــايــــاه جـزيـــلات

الشام عنى به المدينة لأنها بالنسبة إلى اليمن شـام، ثم هي طريق التجارة إلى الشام أيام الرحلتين

محمـــد سيـــد الخلــق الــذي امتلأت   من نـــوره الأرض والسبع السمـــوات

بالمعراج الذي عرجه صلى الله عليه وسلم وقد ذكر ذلك من بعد:

أسرى بــه اللــه من أرض الحجــاز إلى أن قبلت نعلــه الحجب الــرفيعــات
أدنــاه من قـــاب قــوس حين كلمــه بــالغيب مــن بعـد مـا قــال التحيـات
وزاده منـــــه تشريفـــــا وشفعـــــه في الخلق لاعــدمت منه الشفــاعـات

ومعنى الشفاعة لو تأمله المتأمل عظيم

فــالبـدر والبحـر والقطـر الملث حيا والفضل والفخــر فيــه والكــرامــات
تــاللــه مـا ارتفعت للــدين مــرتبــة لــولا مــراتبــه الشم الــرفيعــات
وبـذلك شهـادة القـرآن العظيم : « فبما رحمة من اللـه لنت لهم ، ولـو كنت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ـ « وإنك لعلى خلق عظيم »
أحيـا الــزمـان فـأيـام الـزمـان بــه يــومــان في اللــه إنعــام وغــارات
وفل شـــوكـــة أهل الشرك مـــرتضيـا للــه ربــا فما العــزى ومــا الــلات
فــالخيل تصهـل والأرمــاح شــاجــرة والبيض والبيض مسراهـا العجـاجـات

البيض السيوف والبيض المغـافر وذكرهـا يدل على الدروع وفي روايـة والنبل أى السهام ولا يستقيم مع العجاجات لأن النابل يرمي من بعد ويتحرى أن يرى ما يرميه
ما استمطـرته ثغـور المشركين حيــــا إلا سقتهــــا القنــــا والمشرفيـــــات

وكما تقدم مما ذكرناه تحس في أبيات الحرب هذه روح مشاركة في الجهاد

منى السـلام على القبر الــذى اعتكفت فيــه العــلا وانتهت فيه النهــايــات
وجـــاد طيبـــة مـــرفض يلـــوح بـــه زهـــر الـريــاض وتخضر البشـامــات
هذا منتزع من طبيعة الجزيرة العربية إذ هي قفار فإذا جادها الغيث كستها حلة الخضرة وابتسمت ثغور الأزاهير .
أرض سمـــت برســول اللـــه أشرف من تشرفـت فيـــه آبـــاء وأمـــات

هذا هو المعنى الذى فتقه على بن العباس وعسى أن ينال به الشفاعة لما فيه من صدق، وإن يكن جاء به على سبيل توليد المعاني :
كم مـن أب قــد سما بــابن ذرا شرف كما سما بـــرســول اللــه عـــدنــان

ولعمرى لو قد كان جعل القصيدة كلها نبويـة لكان ذلك خيرا له من مدحه أبا الصقر ثم كما تعلم قد اضطرته خيبة الأمل إلى هجائه .
متى أرى النور من أرجاء قبته متى تباشرنى منه البشارات

وهو نور تراه القلوب ـ قال الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين رحمهما الله :

لقـد طـال شـوقي يـا أميني لطيبـة ... أشخصهـا طـورا وطـورا أنـاظـر
تـذكـرت يـا خلي ليـالي مبيتنـا ... بمسجـدهـا والقـوم بـاك وذاكـر
تـذكـرت ترددادي أخي بين روضـة ... وبين دكـاك الـزيـت وهي أواخـر
يشـاهـد قلبي قبـة النـور وهي في ... ضيـاء لـه العـافـون شامـوا وسـامـر
وإن لها نـورا إلى العـرش سـاطعـا ... تشـاهـده أبصـارنـا والبصـائر

والشيء بالشيء يذكر والشيخ محمد المجذوب رضى الله عنه قريب العهد، في أوائل المائة الثانية عشرة ـ ولاريب أنه تأثر بشعر الشيخ عبدالرحيم رضى الله عنه وأرضاه.

ونعود بعد إلى الأبيات التائية :

فإن ولهت إلى قبر ابن آمنة ... فهو الذي ختمت فيه الرسالات

لأنه ليس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم رسول

ذاك الحبيب الذي يرجو عواطفه ... وبره الخلق أحياء وأموات

ثم أخذ في ذكر المعجزات وحسن الثناء

البـدر شـق لـه والغيـم ظللـه ... مـن الهجير وسبحـن الحصيـات
وشـاة جـابـر يـوم الجيش معجـزة ... نعـم النبي ونعـم الجيش والشـاة
وكـان في الشمس نـورا لا يقـوم لـه ... ظل بـذلك جـاءتنـا الـروايـات
لـه فخـار وتعظيم ومـرتبـة ... ومعجـزات كثيرات وآيـات

ثم أخذ في الاستغاثة :

مـولاي مـولاى فـرج كـل معضلـة ... عنى فقـد أثقلت ظهـرى الخطيئـات
وعـد علي بما عـودتنـى كـرمـا ... فكم جـرت لى بخير منـك عـادات
وامنع حماي وهـب لى منك تكـرمـة ... يـا من مـواهبـه خلـد وخيرات

الخلد الجنة والخيرات الحور يشير إلى قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان »

واعطف علي وخذ يا سيدي بيدى ... اذا دهتنى الملمات المهمات

أى المسببات للهموم

فقـد وقفت ببـاب الجود معتـذرا ... والعفـو متسع والعـذر أبيـات
وقل غـدا أنـت من أهـل اليمين إذا ... زخـرفن للـداخلين الخلـد جنـات

تأمل نون النسوة هنا وقد أشرنا إلى هذا الوجه من المجىء بها عنده من قبل

فلا يخف بعدها عبدالرحيم ومن يليه أهل وصحب أو قرابات
وإن مدحتك بالتقصير معترفا فمدحك الوحي والسبع القراءات

الوحى القرآن والسبع أراد المثانى ووضع القراءات مكان المثانى لأن معنى المثاني الآيات والسبع المثاني تخصيص من عموم وهي الفاتحة، ويجوز أن يحمل مراده على الوحى أى القرآن والقراءات السبع أى الأحرف السبعة للحديث أن القرآن نزل على سبعة أحرف. ولعل هذا الوجه أقوى لظهوره

صلى عليك إلهي يا محمد ما لاحت لنورك من بدر علامات

بدر في طريق المدينة فمن أراد مكة بعدها وهو قافل من المدينة ساحل وهو الطريق الذى سلكه أبو سفيان

والآل والصحب والأزواج كلهم فهم لسادات أهل الفضل سادات

فهذه القصيدة كما ترى في قوة الصياغة ونصوعها ووضوح المعاني وتوهج روح الصدق من خلال الأبيات وحلاوة النغم وجودة تتابعه مع اليسر البالغ وسهولة الطبع وعدم التكلف فسبحان الواهب المعطى .

ومن أعجب مدائح البرعي إلى من سمعنا من المنشدين ، وهي من جياده كلمته القافية التى أولها :

أرانى ما ذكرت لك الفراقا

واستعان فيها ببعض ما للمتنبى فى هذا الروى كقوله :

تظل رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاج لها رواقا

وله فيها البيت السائر :

نبي أنزل الرحمن فيه تبارك والضحى والانشقاقا

وكلمته التى أولها :

قل للمطايا اللواتى طال مسراها من بعد تقبيل يمناها ويسراها
ماضرها يوم جد البين لو وقفت نقص في الحي شكوانا وشكواها

وكلمته التى أولها:

خل الغرام لصب دمعه دمه حيران توجده الذكرى وتعدمه[1]

والتى أولها:

يا راحلين إلى منى بقيادى هيجتمو يوم الرحيل فؤادى

والتى أولها

سمعت سويجع الأثلات غنى

وفيها قوله:

رعى الله الحجاز وساكنيه وأمطره العريض المرجحنا
وأخصب روضة ملئت وفاء ومرحمة وإحسانا وحسنا
وقبرا فيه من ملأ النواحي هدى وندى وإيمانا ويمنا
إمام المرسلين ومنتقاهم وأكثر غيثهم طلا ومزنا
وأسرعهم على الملهوف عطفا وأسمعهم لداعي الخير أذنا
وخير مغارس الأكوان أصلا وأطيب منبتا وأتم غصنا
نمته دوحة قرشية من فوائحها ثمار الخير تجنى

قوله: طلا ومزنا، جعل المزن بمعنى الوابل فى مقابلة الطل وسوغ ذلك أنه ههنا جمع مزنة وهي المطرة ومن معانى المزن أنه السحاب ذو الماء فهذا يكون وابلا.

ومما لا ريب أنه كان مما يطرب له المسلمون الموازنة بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء صلوات الله عليهم، وأحسب أن الحروب الصليبية وجدل أهل الكتاب مما حرك ذلك ـ قال البرعي رحمه الله:

ولو وزنت به عرب وعجم جعلت فداه ما بلغوه وزنا
متى ذكر الخليل فذا حبيب عليه الله في التوراة أثنى
وإن ذكروا نجي الطور فاذكر نجي العرش مفتقرا لتغنى
وإن الله كلم ذاك وحيا وكلم ذا مشاهدة وأدنى

وقد تكلم العلماء في مسألة الرؤية وليس ههنا مكان التفصيل. ومن شاهد بعين البصيرة فقد شاهد. ولله در البوصيرى إذ يقول:

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

---

(١) وقد خمسها طيب الله ثراهما استاذنا الشيخ مجذوب جلال الدين وصديقه الشاعر حسن كردي رحمهما الله.

ثم بعد أن ذكر عددا من الأنبياء والمرسلين وفضلهم وما زيد به نبينا صلى الله عليه وسلم عليهم أخذ في ذكر الشفاعة والتوسل.
ثم يقول في أخريات القصيدة:

حججت ولم أزرك فليت شعري ... متى بمزارك الجاني يهنا
وثم صويحب يرجوك مثلي ... بعادك عنه أمرضه وأضنى
يكاد يذوب إن ذكروك شوقا ... إليك فهل بجاهك منك يدنى

تأمل عذوبة الروح الإنسانية التى قرنها باعتذاره هذا عن نفسه وعن صاحبه إذ يبدو أنه هو أيضا حج ولم يزر

عسى عطف عسى فرج قريب ... فقد وصل الأحبة وانقطعنا
فشرفنا بوطء تراب أرض ... بزورتها يحط الوزر عنا
وقل عبدالرحيم ومن يليه ... معي يوم الخلود يحل عدنا
عليك صلاة ربك ما تناغت ... حمام الأيك أو غصن تثنى

ومن أعجب قصائد الإمام الصالح المحب عبدالرحيم رضى الله عنه، القصيدة اللامية التي ذكر فيها مرض ابنه، وقد توسل بها إلى الشفيع صلى الله عليه وسلم، فشفي ابنه، وعسى أن يستفاد من سياق هذه اللامية أنه قد أتيحت له الزيارة فيما بعد. والشائع بين العامة عندنا أن البرعي رحمه الله لم يزر، وأنه لما عزم على الزيارة غلبه الشوق وهو متجه إليها فانشق حنينا وفاضت نفسه من غلبة حرارة الشوق والمحبة عليه، وأحسب أن صاحب البدر الطالع قد ذكر تأريخ وفاته ان كان ذكره فليراجع[1].
قال رحمه الله:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا ... فليس لى معدل عنهم وإن عدلوا

تأمل مناسبة هذا الاستهلال لما سيذكره في آخر القصيدة من مرض ابنه

وكل شيء سواهم لي به بدل ... منهم ومالى بهم من غيرهم بدل
إنى وإن فتتوا في حبهم كبدي ... باق على ودهم راض بما فعلوا
شربت كأس الهوى العذرى من ظمإ ... ولذ لي في الغرام العل والنهل

---

(١) توفي رحمه الله سنة ٨٠٣ هـ وقبره في طريق المدينة.

فليت شعري والدنيا مفرقة بين الرفاق وأيام الورى دول
هل ترجع الدار بعد البعد آنسة وهل تعود لنا أيامنا الأول

تأمل أنفاس هذه الصبابة، وعذوبة هذا التعبير، ورقة هذا الحنين

يا ظاعنين بقلبي أينما ظعنوا ونازلين بقلبي أينما نزلوا
ترفقوا بفؤادي في هوادجكم راحت به يوم راحت بالهوى الإبل

ومع أن ظاهر هذا الكلام نسيب تجد مكان الكناية فيه غير جد خاف لأن الشاعر المحب الصالح يهيجه شوقه إلى الزيارة كلما جاء الموسم ورأى الركب اليماني قد جعل يستعد للحج - ألا تجده يقول بعد :-

فوالذي حجت الزوار كعبته ومن ألم بها يدعو ويبتهل
لقد جرى حبكم مجرى دمى فدمي بعد التفرق في أطلالكم طلل

أي كأن قدمت بعد التفرق لأن قلبي قد أقام لدى أطلالكم فهو جزء منها.

لم أنس ليلة فارقت الفريق وقد عاقوا الحبيب عن التوديع وارتحلوا

كأنه يشير هنا إلى أن عزم رفاقه على الرجوع اضطره إلى الرجوع معهم فكأنهم بالذي صنعوا عاقوا الحبيب عن وداعه. والله أعلم.

لما تراءت لهم نار بذي سلم ساروا فمنقطع عنها ومتصل

أخذ هذا من معنى تنور الشعراء لنار الأحبة. وقد تنورها امرؤ القيس بيثرب فتأمل.

لا در در المطايا أينما ذهبت إن لم تنخ حيث لا تثنى لها العقل
في روضة من رياض الجنة ابتهجت حسنا وطاب بها للنازل النزل

ثم تخلص إلى المدح النبوي في سهولة ويسر

حيث النبوة مضروب سرادقها وطالع النور في الآفاق يشتعل
وحيث من شرف الله الوجود به فاستغرق الفضل فرد ما له مثل
محمد سيد السادات من مضر سر السيادة شمس ما له طفل
شوارد المجد في مغناه عاكفة وريق رأفته غض الجنى خضل

تأمل عجز هذا البيت وما فيه من حسن التشبيه للرأفة بالريف وما لابس ذلك من النعت لطبيعة اليمن السمحة التي كأن طبيعة المدينة بخصبها ونخيلها والجبال المكتنفة لها جزء منها. هذا على تقدير أن عبدالرحيم رحمه الله لم يصل المدينة. على أن سياق هذه الأبيات ينبىء عن مشاهدة. وليس بمستبعد على من يكون في مثل صفائه أن يشاهد بقلبه ما قد تعجز عن دركه المشاهدة بالعيان.

تثني عليه المثاني كلما تليت ... كما استنارت به الأقطار والسبل

المثاني آيات القرآن والسبع المثاني فاتحة القرآن

بحر طوارفه بر ومكرمة ... بدر على فلك العلياء مكتمل
مازال بالنور من صلب إلى رحم ... من عهد آدم في السادات ينتقل
حتى انتهى فى الذرى من هاشم وسما ... حملا وطفلا ووفي وهو مكتهل

يعني أنه عرف بالأمين لما صار إلى سن الاكتهال وذلك بعد الشباب وأخذ هذا من قوله تعالى "وابرٰهيم الذي وفى". ثم أخذ البرعي في ديباج خسروائي من المدح حتى صار إلى ذكر الشفاعة. وفرق ما بين هذا المدح وما كان يمدح به الشعراء الملوك ظاهر، إذ فيه المحبة الصادرة من صدق الإيمان وشعور العزة بالانتماء إلى الإسلام:

حتى انتهى في الذرى من هاشم وسما ... حملا وطفلا ووفي وهو مكتهل
فكان في الكون لا شكل يقاس به ... ولا على مثله الأقطار تشتمل
به الحنيفة مرساة قواعدها ... فوق النجوم ونهج الحق معتدل
وخلفه ليلة الإسرا على قدر ... صلى النبيون والأملاك والرسل

ثم صار إلى ذكر الشفاعة والمقام الرفيع حين يبعثه ربه مقاماً محمودا ويفتح عليه بالثناء عليه ويشفعه في أمته، صلى الله عليه وسلم :ـ

وذلك الشافع المقبول عصمتنا ... به إلى الله في الدارين نبتهل
ومنه ظل لواء الحمد يشملنا ... إذ العصاة عليهم من لظى ظلل
وإنه الحكم العدل الذى نسخت ... بدين ملته الأديان والملل

واعلم أصلحك الله أن اليمن لم تكن بمعزل من خطر الصليبية، فقد كان البرتغاليون محدقين بها من جوانب البحر المحيط ثم كفى الله شرهم.

يـــا خير من دفنت في الترب أعظمـــه   فطـــاب من طيبهـن السهل والجبـل
نفسي الفـــداء لقبر أنـت ســاكنـــه   فيـــه الهدى والنـدى والعلـم والعمل
أنت الحبيب الــذي تـرجى شفــاعتـه   عنـد السراط إذا مــا ضـــاقت الحيل
نــرجــو شفــاعتـك العظمى لمذنبنـا   بجـــاه وجهك عنـــا يغفـــر الـــزلل

ثم صار إلى التوسل الخاص وذكر مرض ابنه

يـا سيـدي يـا رسـول اللـه خـذ بيـدي   في كل حـــادثــــة مـــا لي بها قبل
قــالـــوا نـــزيلك لا يـــؤذى وهـــأنـــذا   دمي وعـــرضـي مبـــاح والحمى همل

فهـو كما ترى يشكـو ضيما حل بـه خاصـة. ولا أحسب أن هنـا مبـالغة، بل التجـاء بالشكوى صادق. وهذا البيت يدل على أنه إمـا بالمدينة وإما في الطريق إليها بين مكة وبينها حرسها المهيمن بعينه التي لا تنام.

وذا المسمى بـك اشتـــد البـــلاء بـــه   فـــارحم مـــدامعـــه في الخد تنهمل

ويروى وابنى المسمى بك وهو الذى في المجموعة والذي أثبتنا هو الذي في الديوان وكما سمعناه ينشد اعتمادا على نسخة الديوان الخطية وحفظا عن ظهر قلب "وذا" أحب إلى وأدل على الاستعطـــاف لما في ذلك من الـــدلالـــة على القـــرب والحضـــور والشفقـــة والتمريض، وذكر الـدموع المنهملة على خدى الطفل فيه معنى المعـاينة لحال ضعفه. وقد سمجت كلمة «التصوير» لكثرة ما يجاء به عند المتعاطين للنقد هذه الأيام، فكرهنا استعمالها في هذا الموضع. وكأن الغـلام المسكين قد أصيب بلذع من ذات الـرئة بدليل بكائه أن تنحل عقدة السعال وهي لا تنحل.

وذا المسمى بـك اشتـــد البـــلاء بـــه   فـــارحم مـــدامعـــه في الخد تنهمل
وحلِ عقـــدة هم عنـــه مـــا بـــرحت   واشرح بـــه صـــدر أم قلبهـــا وجل

جعلها عقـدة هم ـ لأنه هـو مهتم لما به من مـرض، فالدعـوة بحل العقدة تسرى على المريض وتسرى على والده المهموم لـه، فإذا انحلت عقدة مرضه وجـاء شفاؤه انحلت

عقدة همه هو، وانشرح صدر أمه. وهذا البيت غاية في الرقة والإنسانية: وفي قوله: «عقدة هم عنه ما برحت» عموم يدخل فيه الشاعر وسائر أفراد الأسرة ومن يعنيه أمرها وإن كانوا في طريق المدينة فيدخل فيه الرفقة المعاونون أيضا. وذكر الأم بعد تخصيص لها ثم أتبع ذلك ذكر نفسه وهو داخل في العموم الذي سبق ثم هنا ليجعل اسمه فى المدحة وليرجع إلى ما كان قدمه من ذكر الشفاعة ورجاء الغفران والرحمة:

وصل بمرحمة عبد الرحيم ومن — يليه لا خاب فيك الظن والأمل
صلى وسلم ربي دائما أبداً — عليك يا خير من يحفى وينتعل
والآل والصحب ما غنت مطوقة — وما تعاقبت الأبكار والأصل

قوله «يا خير من يحفى وينتعل» كأنه من قول القطامى:

أما قريش فلن تلقاهم أبدا — إلا وهم خير من يحفى وينتعل

فسيد قريش عليه الصلاة والسلام أولاهم بهذا الوصف، والبيت من كلمة القطامى:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل — وإن بليت وإن طالت بك الطيل

وهذا من المطالع الفخمات، نبه عليه ابن رشيق. والمعنى الذي تقدم لم يكن القطامى هو السابق إليه، وكأنما نظر إلى قول الأعشى.

إما ترينا حفاة لا نعال لنا — إنا كذلك ما نحفى وننتعل

فأخذ القطامى «يحفى وينتعل» من ههنا.

وشعر الشيخ عبدالرحيم البرعي در نفيس وفي هذا الذي استشهدنا به من شعره، ومنه قصائد جئنا بها بتمامها ما يشهد بما زعمنا من متانة أسره وصفاء ديباجته، وما يقوم ببعض حجتنا في إنكار هذا الذي فشا به القول بيننا الآن من أن الفترة التى تلت القرن الخامس الهجرى فما بعده كانت فترة انحطاط للشعر ولغيره من جوانب الفكر والفن والحضارة الإسلامية. فقد سبق التنبيه منا إلى بطلان هذه المقالة. ولعل المصنف يعترف أن عصر الانحطاط هو عصرنا هذا، نسأل الله سبحانه وتعالى الفرج والنجاة.

إذا رجعنا بالقارىء الكريم إلى ما قدمناه من قبل من تشبيهنا على وجه التمثيل والتقريب للصرصرى بحبيب والبرعي بأبي عبادة والبوصيرى بأبي الطيب، فإننا نريد،

مع الذى لا نشك فيه من أن القارىء حفظه اللـه لا يرى أن مرادنا محض التشبيه حتى كأن المشبه والمشبه بـه مدرسة واحدة كما يقـال بلغة هذا الزمان، أن نحتـاط لما مثلنا به البـوصيرى بأبي الطيب بأن وجـه المشابهة بينهما هـو في أمـر واحـد، وهـو أن كليهما ذو إقدام على مـا يقول، وثقـة بالمقـدرة على الإفصاح والبيـان وجودة الشعـر. مع هذا في ديباجـة الـبوصيرى متـانـة نسج تذكرك أبا تمـام وامـتداد نفـس يذكرك ابـن الرومي، و لالتزامـه جانب العبـادة والخشوع في مخاطبة محاسن الـذات المحمديـة، تجد ثقته لا يخالطهـا ما سماه الثعـالبى في حـديثه عـن المتنبى "إساءة الأدب بـالأدب" وإنما عنى بذلـك فرط التحـدى وجهارة قوة التعبير ممـا ينفر عنـه الملوك ومنـادموهم وصنـائعهم والمتنطسون بـالقرب منهم والتقرب إليهم. مع هذا ليس البـوصيرى غير ذي جهارة أو تحدى (١). كـلا ذينك لـديه، إلا أنهما قـد جعـلا عنـده بعض أساليب قتـالـه أهل الكتاب. ذلك بأن الحروب الصليبية ما زالت محتدمة نـارها على زمانه على انتصار كان من المسلمين بالمشرق وإيذان بقرب انهزام الفرنجة إذ كان جلاؤهم عن عكا وصور قبيل وفاة البوصيرى وانتصر المسلمون على التتار على أيدى حماة مصر حرسها الله تعالى، كما انحسرت غمـرات الكفر عن المشرق. إلا أن الحال كـانت حال جهـاد. وقد اشتـدت شوكة أهل الصليب بالمغرب على مسلمى الأندلس.

كنـا قد قلنـا في الجزء الأول من هـذا الكتـاب في معرض الحديث عـن همزيات البحـر الخفيف حين صار الحديث إلى همزية البوصيرى (توفي رحمه الله سنة ٦٩٦ هـ): «وهي تفصح بحجـة الإسـلام كما تفصح قصيدة دانتى بحجـة المسيحيـة». [ص ٢٠٣ من طبعة ١٩٧٠م]. وكان الرجلان كالمتعاصرين إلا أن البوصيرى أسبق، إذ تأريخ دانتى ١٢٦٥ ـ ١٣٢١م ـ [أى ٦٦٢ ـ ٧٢٠هـ] وتأريخ البوصيرى ٦٠٨ هـ مولده و ٦٩٦ وفاتـه ـ ١٢١٢ ـ ١٢٩٨ م ولعل البحث إن جـد فيه أصحابـه أن يكشف لنا أن دانتى تأثر بالبوصيرى وحاكاه وبمداح الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر أسين الإسباني في رسالتـه عن دانتى أنه تأثر بالمعـراج وأحاديثه وبرسـالة الغفران المعريـة. وعندى أن يكون قـد تأثر بالمديح النبـوي أقرب. لأن المديح النبوى كـان شيئا ظاهـرا، ويترنم به المسلمون في أعيادهم وجمعاتهم وزواياهم ويترنمـون به عند الأفراح وعند التعازى. وفي

---

(١) جئتنا بالياء خطا للتوضيح ويجوز الوقف بالياء وبذلك قرأ ابن كثير أحد السبعة.

ليلات الجمعة مساء كل خميس وليـلات الاثنين مساء الأحد. قال الصرصرى رحمه الله في إحدى استغاثاته:

ففى النفس حـاجـات ومـا لقضـائهـا ... ســـــواك إلى رب البريـــة شـــافع

أخذ قوله «وفي النفس حاجـات» من أبي الطيب: «وفى النفس حاجات وفيك فطانة» من أبيات بائيته في كافور «منى كن لى إلخ».

ومجمــوع حـــالى عنــده وهـــو عـــالم ... بتفصيل خـــافيـــه ومـــا هـــو ذائع
وفي كل يــــوم اثنين أو في خميسنـــــا ... رســـــولى بـأعمالى إليك يطـــــالـع
عنى منشدى مدائحه
فكن جـــابــرا نقصي بجـاهـك إنــه ... لجاه مـديـد عنـد ذى العـرش واسع
وسل ربـك النصر العــزيـــز لأمـــة ... تكنفهـــا قـــرن من الـدهــر ســابع

يشير هنا إلى حروب التتار وحروب الصليبيين وجعل القـرن كأنه قرن ثور يهجم به وأرخ لزمانه كما ترى

أضربها سعـــــــر وخلف وفتنـــــــة ... لها كل عــــام في القلـــوب قـــوارع

فكان ذلك سبب الهزيمة.

وكتب مسلمـو الأندلـس المغلوبـون على أمـرهم إلى سلطان آل عثمان في أوائل القـرن العاشر قصيـدة تائية يستنصرونـه ويشكون إليه مــا وقـع بهم من غـدر وبـلاء. فـمما قالوه[1]

ســـــلام كـــــريم دائم متجـــــدد ... أخص بـــــه مــــولاى خير خليفـــة
ســـلام عليكم مـن وجـــوه تكشفت ... على جملـــة الأعـــلاج من بعـــد سترة
ســـلام عليكم مـن بنـــات عـــواتق ... يســـوقهم اللبـــاط قهـــرا لخلـــوة

(١) راجع مجلة الاندلس (مدريد وغرناطة) ـ ١٩٦٦ Andalus vol. XXXI ـ المجلد ٣١ ـ ١٩٦٦م مقال منرو Monroe ص ٢٨١ وله فيه خلط مؤسف.

اللباط أي القسيس

سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم لجيفة

أحسب لحم الجيفة هو الثور الذي يقتل في المصارعات وإلى الآن يقول الاسبان (أوليه) تشجيعا للمصارع . فهل كان هذا محاولة من البائسين المسلمين آنئذ أن يذكروا اسم الله على هذه البهيمة التي كان عليهم أن يأكلوا من لحمها من دون ذكاة؟

وقد أمرونا أن نسب نبينا ولانذكرنه في رخاء وشدة

وقد سمعوا قوما يغنون باسمه فأدركهم منه أليم المضرة [1]

وهذا البيت هو موضع استشهادنا، إذ فيه الدليل على تغني المسلمين بالمديح النبوي . هذا بعد سقوط غرناطة . فقس عليه حال بقية المسلمين بصقلية وجنوب إيطاليا بعد هلاك فردريك الثاني (١٢٥٠م) وكان به عطف ما عليهم، زعموا أنه كان من أسباب عداوة البابوية له ولأسرته حتى أبادوها . وهؤلاء المسلمون الذين كانوا يتغنون بالمدائح والأدعية وبالقرآن بلا ريب ذكرت التائية التي مرت منها الأبيات السابقة أن منهم أهل بلدة:

بجامعهم صاروا جميعا كفحمة

ولئن صح مانرجحه من أن دانتى تأثر بالمديح النبوي وأغلب الظن بالبوصيري لاشتهار هذا شهرة واسعة على ذلك الزمان بقصيدتيه الهمزية والبردة على وجه التخصيص [2]، فإنه يترتب على ذلك أن يكون شعراء الأشعار الدينية الافرنج قاطبة قد تأثروا به . والمتأمل لأصناف أشعار الدينيين في الأدب الانجليزي واجد ما يدل على ذلك، مثلا قصيدة الأرج The Odour لجورج هربرت George Herbert (١٥٩٣ ـ١٦٣٣م)وهذا باب واسع . والشاهد هنا تشبيه جورج هربرت قوله : "ياسيدي" بأريج العنبر والعطور الشرقية ـ فهذا لقولهم : "فت مسكا" ـ وتضوع طيبا" ـ وفاح عرفا

---

(١) منه أي من الغناء

(٢) ولد دانتى بعد نصف قرن وزيادة من ميلاد البوصيرى فأمر البوصيرى يكون قد بلغ الآفاق فى هذه المدة . ولابن أبي الخصال (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ) قصيدة في المعراج كانت مشهورة عند المادحين بلغنا أن نسخة خطية منها موجودة بخزانة القرويين بفاس وقصائد نبويات أخر.

وما أشبه ممـا يذكر في باب الصلاة على النبي صلى اللـه عليه وسلم. ومن عجب الأمر أن مناهج درس الانجليـزية يتلقى فيهـا طلابنـا ما يتلقـون عن الشعر الـديني في لغة القوم. ويظلون يجهلون كل الجهل شعرنا الديني. وربما خيل إلى بعضهم أنه ليس بشعر وإنما هو أوراد عبادة مما كان يعكف عليه جيـل الرجعية أو الماضي المنقرض. «ويابؤس للجهل ضرارا لأقوام.»

همزيـة البـوصيرى أوشكـت أن تبلغ أربعمائة بيت إذ هي نيـف وستـون وثلثمائة من الأبيـات، قل فيهن بيـت سـاقط. وذلك أنـه اجتمع لـه مـع الملكـة والصـدق والعلم والافتنان، مجال قول واسع. وقد نظم السيرة من غير أن يعمد في ذلك إلى منهج تعليمي أو قصصي سردي. ولكنه سلك مسلك التأمل والموعظة الحسنة وأتبع الأمر مايناظره أو يقـابله أو يمت إليـه بنـوع صلة من غير التـزام بالتسلسـل التأريخي، ثقة بأنـه لن يقع التبـاس من هـذه الجهـة، إذ مصـادر السيرة من حيث هي تأريخ معـروفـة تلتمس في مظـانها من كتب السير والتأريخ. ثـم أكثـر أخبـار سيرة النبي صلى اللـه عليـه وسلم معروفة عنـد العوام والخواص فالشاعر الفحل الـذي يتغنى بها لا يجد نفسه مضطرا إلى عمل وصناعـة إلا أن يتعمد إيثار السرد بغـرض أن يستوعب أحداث السيرة، وهـذا ما صنعه الشيخ يوسف النبهاني في همزيته الألفية، وفيه عناء، مثلا نظمه الغزوات التي لم يكن فيها قتال:

غطفـــان ذات الـــرقـــاع بـــواط دومـــــة ذو العشيرة الأبـــــواء
بـــدر الأولى بـــدر الأخيرة بحـــرا ن سليـم لحيـــان والحمـــــراء

ومـا أراد النبهـاني أن يـربي على البـوصيري على الأرجح ولكن أن ينظم السيرة نظما على غرار همزيته من أجل التبرك.
ويلفتنا في همزية البوصيري أولا مطلعها:

كيـف تـــرقـى رقيك الأنبيـــــاء يـــاسماء مـــا طـــاولتهـــا سماء

لما يقرع به السمع من صيغة الاستفهام الإنكاري والنداء المؤكد والتفضيل المشتمل على روح من التحدي والقتال. ولا عجب فقد كان زمان البوصيري رحمه الله زمان الحروب الصليبيـة والمسلمـون بـالمشرق مقبلـون فيهـا على نصر وقـد كشف اللـه عنهم غماء التتار، وكان البوصيرى من أهل الجهاد بـالبيان إن كان غيره يباشره بالسيف والسنان. غير أنه رحمه الله هل غلا شيئا فى قوله بعد هذا البيت.

لم يســاووك في عــلاك وقــد حــا ل سنــا منـك دونهم وسنــاء
إنما مثلــوا صفــاتك للنــا س كما مثـل النجــوم الماء

السنا الضوء والسناء الشمس والبيت جميل الصياغة متينها ومنه هذا التجنيس والتشبيه بتمثيل الماء لضوء النجـوم بانعكـاس أشكالها فيـه بليغ مذهل أول الأمـر، غير أنه ربما أحست فيه نبـوة لما يوهم من أن التمثيـل لا حقيقة له، ولايجوز ذلك في حـق الأنبياء، وليس هو مراد البوصيرى، بلا أدنى شك، إذ معنى لا حقيقية تمثيل ضوء النجوم الذى في الماء أمر استفـدناه نحن من اصطـلاحات علوم الفيـزياء المعـاصرة حيث تسمى ما ينعكس على المرآة ونحوهـا لا حقيقيا (١)، ولاريب أن الضـوء المنعكس على الماء ومنه ضوء حقيقي وكأن البـوصيرى قد عمد إلى تـلافي ما قد يتبـادر إلى الوهـم من قولـه هذا وليس بمراده، بالأبيات التاليات:

أنت مصبــاح كل فضـل فما تصـــ ــدر إلا عن ضــوئك الأضـــواء
لك ذات العلــوم مـن عــالم الغيــ ــب ومنهــا لآدم الأسماء
لم تـنـزل في ضمائر الكـــون تختـا رُ لَـكَ الأمهـــات والآبـــاء
مـــامضت فترة من الــرسـل إلا بشرت قــومهـا بك الأنبيـــاء

فـالبيت «أنت مصبـاح كل فضل» أشار بـه إلى مقـام الشفاعـة إذ كل الأنبيـاء عليهم السلام يقول نفسى غيره صلى الله عليه وسلم ثـم يشفع الشافعون بعده حتى إن خيار المؤمنين ليشفعون لمن يعلمون إيمانه ممن يتردى بـذنبه عند عبور الصراط. والبيت «لك ذات العلوم» إلخ أشار بـه إلى قوله تعالى: «وإنه في أم الكتـاب لدينا لعلي حكيم.» أي القرآن وقد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم. والأسماء التي لآدم عليه السلام حقيقة لا خيال، فهـذا قولنـا إن البوصيري لم يـرد بقولـه «إنما مثلوا صفـاتك» إلخ أن ذلك لا حقيقة له وانه قد عمد من بعد إلى تلافي مايتبادر من توهم هذا المعنى. والبيت «لم تزل في ضمائر الكـون» إلخ واضح غير مشكل بشىء. والبيت «ما مضت فترة من الـرسل» يقوي معنى «لك ذات العلوم من عـالم الغيب» لأن تبشير الأنبياء صلوات الله عليهم بـه صلى الله عليـه وسلم سببه مـا أوحى به اللـه سبحـانه وتعـالى إليهم به من سـابق علمـه. وفي حديـث عربـاض بن سـاريـة ـ بكسر العين وسكـون الـراء وأصل معنى العرباض الرجل الطويل وكان رضى الله عنه من أهل الصفة ومن السابقين وممن نزلت

(١) هذا في باب الظلال (الظل الحقيقي) Real Image كظل الشىء من العدسـات والظل اللاحقيقي Virtual Image كظل الشي من المرآة والظل يكون بالضوء.

فيهم آية براءة : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » ـ ما يفيد مثل هذا المعنى ، إذ ذكر أن رؤيا آمنة من معنى البشارة وكذلك ترى أمهات الأنبياء . قال في المسند للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ج٤ ص١٢٧ س١٨ : «حدثنا عبدالله حدثنى أبى ثنا عبدالرحمن بن مهدي ثنا معاوية يعني ابن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبدالله بن هلال السلمي عن عرباض بن سارية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني عبدالله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين ترين»ا . هـ حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا أبو العلاء وهو الحسن بن سوار [١] قال حدثنا ليث عن معاوية عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى ابن هلال السلمى عن عرباض بن سارية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبدالله وخاتم النبيين فذكر مثله وزاد فيه أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام . وفي ص ١٢٨ س ٢٦ حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ثنا أبو بكر عن سعيد بن سويد عن العرباض بن سارية السلمى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبدالله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»ا . هـ. سعيد بن سويد المذكور في السند هو الكلبي ذكره البخاري في الكبير (٢) رقم ١٥٩٣ ص٤٧٦ طبعة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م ـ القسم الأول من ج٢ يروى عن عبد الأعلى بن هلال وعنه أبو بكر بن أبي مريم وذكر سعيد بن سويد آخر ونص على أن الأول شامي ولكن كما لاحظ المحشى هذا الثاني مرادي كوفي أو يروى عن كوفي (راجع هامش٤٧٧) وذكر البخاري اخرين كلاهما سعيد بن سويد وذكر في ميزان الاعتدال سعيد بن سويد وعن بخاري أنه لا يتابع في حديثه وإنما علق البخاري بقوله لا يتابع على سعيد بن سويد الآخر رقم ١٥٩٤ فوجب التفريق بين الثقة وغيره والحكم بن نافع ثقة . وحديث المسند صحيح والذي في ميزان الاعتدال (٣) وهم والله تعالى أعلم .

---

(١) في الطبع طمس والصواب سوار سين مهملة بعدها واو مشددة مفتوحة وآلف بعده راء مهملة افاده الثقة ا. هـ المسند للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه الطبعة السلفية المصورة ج٤ ص١٢٧/١٢٨ .

(٢) التأريخ الكبير للإمام البخاري .

(٣) ميزان الاعتدال للذهبى طبع القاهرة ١٣٢٥هـ ٣١٥٣ ج١ ص ٣٨ .

هـذا وإنما استشهدنـا بالحديث فى وجـوه روايتـه الثلاثـة كما في المسند فى هـذا الموضع للتنبيه على أن البوصيري فى ربطه بين البشـارة وبين «لك ذات العلوم من عالم الغيب» إنما نظر إلى ما في هذا الحديث من قوله «وسأنبئكم بتأويل ذلك» والله تعالي أعلم.

تتبـــاهى بك العصـــور وتسمـــو بك عليـــاء بعـــدهـــا عليـــاء
وبـــدا للـــوجـــود منـك كـــريم من كـــريم آبـــاؤه كـــرمـــاء

أي بدا بعد أن كان في عالم الغيب، في أم الكتاب، وفي علم الله سبحانه وتعالي، وكما قال عـز وجل: «الذين يتبعـون الرسـول النبي الأمي الذي يجدونـه مكتوبـا عندهم في التوراة والإنجيل» وكما قـال تعالي: «وإذ أخذ ربك مـن بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلي شهـدنا» فهذا كله من عالم الغيب والله أعلم.

نسـب تحسب العـــلا بحـــلاه قلـــدتها نجـــومهـــا الجوزاء

وذلك أن نجوم الجوزاء كـأنها وشاح. وزعم قوم أن امـرأ القيس إنما عني الجوزاء حيث قال: "إذ ما الثـريا في السماء تعرضت"، والثريا لا تتعرض وليست كـالوشاح المفصل وأن هذه صفة الجوزاء والبيت من إحسان امرىء القيس.

حبـــذا عقـــد ســـؤدد وفخـــار أنـت فيـــه اليتيمـــة العصماء

واليتيمة والعصماء من صفة الدر وفيها إلماع إلى يتمه صلي الله عليه وسلم وإلى عصمته صلي الله عليه وسلم. ثم تجيء أبيات المولد ومناسبتها لقوله "بدا للوجود" بعد "عالم الغيب"، ومناسبتها أيضا للنسب فى قوله "نسب تحسب العلا".

ومحيـــا كـــالشمس منـك مضيء أسفـــرت عنـــه ليلـــة غـــراء

هـذا من النظم الـذي لايتأتى إلا بتـوفيق وإلهام. ونعت محيـاه عليه الصـلاة والسـلام بإشراق الشمس وبهجـة ضوئهـا وارد في الحديث الصحيح، وإذ كـان مـولده في ليلـة أسفرت بوجهه جعلها الشاعر غراء وهي التي يكون فيها البدر المضيء فجمع بين محياه الشمسى الإشراق وليلـة مولـده التي صارت بـذلك غراء بـدرية ولا يكـون الكلام إلا

هكذا إذ لا توصف الليلة بأنها مشمسة وأحسب أن لو أراد أبو تمام هذا المعني لجعلها مشمسة بدليل محاولته البديعة أن يجعل النهار مقمرا حيث قال:

تريا نهاراً مشمسا قد شابه نبت الربا فكأنما هو مقمر

والشيء بالشيء يذكر

ليلة المولد الذى كان للديـ ـن سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفي وحق الهناء

وهذا البيت في المذهب القصصي ذروة لما في الذي سبقه من التمهيد ولما يجيء بعده من الالتفات إلى ما حول هذه الذروة من الآفاق كتداعي الإيوان وخمود النار وغيض البحيرة مما ينبيء ببروز الإسلام وانقماع الكفر وزوال دولة الشرك والجاهلية.
ولهذا البيت تخميس حسن:

حيث جبريل في السموات مجد يعلن البشر فى ولادة أحمد
سمعت أمه ابشرى بمحمد وتوالت بشرى الهواتف أن قد
ولد المصطفى وتم الهناء

وحسن هذا التخميس من أن صاحبه مازاد على محض الترنم، إذ لو عمد إلى زيادة شيء من معنى أو وشي لفظى لفسد بذلك إيقاع الكلام واتساقه. أبشرى أشهر فيه قطع الهمزة من الرباعي من قولك بشرته، فأبشر أى فرح، وجاء به ههنا من الثلاثي فلا يحمل على الضرورة والعجب لشوقي إذ حاكي همزية البوصيرى فى "همت الفلك واحتواها الماء (وقد سبق منا القول فى الجزء الأول في باب همزيات الخفيف أنا لا نراها من جيد شعره) فذكر مولد المسيح عليه السلام كأنه يضاهي بذلك صفة البوصيرى ليلة مولد رسولنا عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله:

ولد الطهر يوم مولد عيسى والمروءات إلخ

في أبيات اختارها أحد أصحاب الاختيارات من المسيحيين من شعر شوقى مع كلمة فى الصليب الأحمر وجعل الكلمة الثالثة المختارة:

خفت الأذان فما عليك مؤذن يدعو ولا الجمع الحسان تقام

فانظر إلى هذا من إسرار البغضاء وإظهارها كأن لم يجد في الكثير الطيب من شعر شوقي غير هذا السياق. وكلمة «المروءات» من قوله لا تخلو من ضعف في هذا الموضع إذ الشهير الفصيح إفراد هذه الكلمة كما قال أبو الطيب:

وترى الفتوة والأبوة والمروة في كل مليحة ضراتها

وموضع قوله «المروءات» مع ما تقدمه من ذكر الطهر ومولد عيسى عليه السلام كأنه مقحم وسائر الأبيات سرقة ومحاكاة للبوصيرى وهذا المسلك عند شوقي رحمه الله كثير ومما يؤخذ عليه ــ وقد حاكى أبيات المولد هذه أيضا في قوله، في قصيدته التي من بحر الكامل يذكر فيها مولد نبينا صلى الله عليه وسلم:

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء

قوله وفم الزمان إلخ صياغة أخرى لقول البوصيرى «المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء» حذف شوقي الدين وجعل اليوم زمانا. على أنه حين عدل عن خفيف البوصيرى ورويه اللذين جاراهما في «همت الفلك واحتواها الماء» إلى الكامل وروي أبي الطيب:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء   إذ حيث أنت من الظلام ضياء

وما خلا من أخذ منه، إنما اتبع حقا طريق الشهاب محمود الحلبي (رئيس دواوين الإنشاء بالشام المتوفي سنة ٧٧٥ هـ رحمه الله في ما ذكره النبهاني عند تقديم مدحته الهمزية)، حيث قال:

ما آذنته ببينها أسماء   فنقول ثاو مل منه ثواء
لكنه ذكر الحمى فتقاسمت   أحشاءه الأشجان والبرحاء

ونأمل أن يتيسر لنا ذكر شيء منها إن شاء الله تعالى

قال البوصيري يذكر تداعي الايوان وما إلى ذلك

وتداعى إيوان كسرى ولولا   آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه   كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا   ن لنيرانهم بها إطفاء

قوله « فهل كان لنيرانهم إلخ » من باب البديع المعنوي.

فهنيئا به لآمنة الفضـ   ـل الذي شرفت به حواء

مـن لحواء أنها حملت أحـــــــــــ ـــــــمد أو آنها بـــــه نفســـــاء
يـــوم نـــالت بـــوضعـــه ابنـــة وهب من فخـــار مـــا لم تنلـــه النســـاء
وأتـت قـــــومهـــــا بأفضـل ممـــــا حملت قبل مـــــريم العـــــذراء
شمتتـــــه الأمـــــلاك إذ وضعتـــــه وشفتنـــــا بقـــــولها الشفـــــاء

قوله «وأتت قومها» ، فإبنة وهب وضعته في مكة وكانت الشفاء قابلتها وهي من قراباتها بنى زهرة رهط سيدنا عبدالرحمن بن عـوف الزهرى أحد العشرة وصاحب الشورى التي أسفرت عن خلافـة عثمان رضى الله عنهم أجمعين والشفاء بفتح الشين وتشـديد الفاء مفتوحة أمه . يجوز أن يكون من مراده بقومهـا في هذا الموضع أخواله بني النجار بالمدينة إذ جاءتهم بـه وهو غلام صغير وتوفيت بـالأبواء في طريق عودتها . شمتتـه الأملاك من تشميت العاطس أي دعت له .

رافعـــا رأســـه وفي ذلـك الـــرفـــــ ـــــع إلى كل ســـــؤدد إيماء
رامقـــا طـــرفـــه السماء ومـــرمى عين من شـأنـــه العلـــو العـــلاء

فهذه صفة مـولده إذ وضعته أمه صلى اللـه عليه وسلم . ثم أخذ البـوصيرى في ذكر ما حف ذلك من معجزات . وتأمل جـودة الصياغة وسهـولة انسيابها ومـا معها من خفى البديـع ، البيت : «فهنيئا بـه لآمنة» تكررت فيـه الفاء ــ فهنيئا ــ الفضل شرفت والبيت الـذي بعده تكـررت فيـه حـواء عند قـولـه (بـه حواء) (من لحواء) ثـم جاء بحـاءات متتابعات ــ حملت ـ أحمد . ثم أخذ بطريق النون ــ أنها ـ نفساء ـ نالت ــ ابنة ـ وهب ـ تنله النســاء ـ ثم البيت «وأتت قومهـا» في صدره قاف وفي عجزه وكلمـة أفضل تناغي الفضل التي مرت من قبـل وتأمل الميمات قومها ــ مما ـ حملت ــ مريم ــ والشينات في البيت الذي بعده والراءات والسينات من بعد . ثم قص ما رأت أمه من إشراق أضاءت له قصور الشام ـ جاء بذلك في صياغـة رشيقة صدر فيها البيتين اللذين ذكر فيهما هذه المعجزة بفعلين متقاربي الوزن مبدوءين بالتاء مع شيء من الجناس الحرفي والمتشابه :

وتـــدلت زهـــر النجـــوم إليـــه فأضـــاءت بضـــوئهـــا الأرجـــاء
وتـــراءت قصـــور قيصر بـــالـــرو م يـــــراهـــــا من داره البطحـــــاء.

ثم لما أراد ذكر الرضـاعة ، جاء بصيغة أخرى ، بفعل ثلاثى مجرد فى صـدر جملة قصصية موجزة جعلها صدرا للبيت التالى ومهد بها لعجز البيت المشعر بقصد إلى تفصيل يجيء بعده

وبـــدت فى رضـــاعـــه معجـــزات ليس فيهـــا عـن العيـــون خفـــاء
إذ أبتـــه ليتمـــه مـــرضعـــات قلن مـــا في اليتيم عنـــا غنـــاء

فأتتـــه مـن آل سعـــد فتـــاة قـــد أبتهـا لفقـــرهـــا الـــرضعـــاء
أرضعتـــه لبـــانها فسقتهـــا وبنيهـــا ألبـــانهن الشـــاء
أصبحت شـــولا عجـــافـــا وأمست مـــا بها شـــائل ولا عجفـــاء
الشائل التى لا لبن لها .
أخصب العيش عنـدهـا بعـد محل إذ غـــدا للنبي منهـــا غـــذاء
يـا لها منـة لقـد ضـوعـف الأجـــر عليهـــا من جنسهـــا والجزاء
وإذا سخـــر الإلـــه أنـــاســـا لسعيـــــــد فإنهم سعـــــــداء

والشعر الجيد أبدا فيه الحكمة . والبوصيرى موهوب فى هذا الباب . وهذا أيضا من أوجه الشبه بينه وبين أبي الطيب وأبي تمام ، وصيـاغته للحكم أقـرب فىّ إيجازهـا وقـوتها إلى مذهب أبي الطيب وصياغته . ثم ينهى هذا الفصل من معجزات الرضاعة بقوله :

حبـــة أنبتت سنـــابل والعصـــف لـديـه يستشرف الضعفـاء

وهـذا كأنـه صـدى من بيت الحكمـة الـذى مـر وتعليل لـه مـا يبرره من الإشـارة إلى الآية : «كمثل حبة أنبتـت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة» . ومعنـى قوله والعصف إلخ قال النبهانى رحمه الله العصف هو ورق النبات اليابس . قال علقمة :

تسقى مـذانب قد مالـت عصيفتها حـــدورهـــا مـن أتِيِّ الماء مطمـــوم

وقال فى القـاموس العصف بقـل الزرع وقد أعصف الـزرع وكعصف مأكـول أي كزرع أكل حبـه وبقي تبنـه فأحسب النبهـاني جـاء بـاليبس من ههنـا وقـال فى مجاز القـرآن كعصف مأكول وهـو ورق الزرع وهو العصيفـه . فمعنى بيت البوصيرى أن هـذه الحبة أنبتت سنـابل سبعا رحمة من اللـه أسبغهـا على آل حليمة فلما طـال الزرع ولاح سنبلـه استبشر به منتظرو حصاده فهذا معنى قوله والعصف لديه يستشرف الضعفاء أي حين يعلو الزرع بسوقه وتلوح سنابله كثيرات جيدات هنالك يتطلع الضعفاء إلى يوم حصاده فإن كانوا أصحابه فهو لهم خصب وإن كـان أصحابه سواهم فإن خصبه يعمهم حتى ولـو أقبلـوا يلتقطـون ما يبقى بعـد الحصـاد . ولا معنى لأن يستشرف الضعفـاء لـورق يابس . ومعنى البيت كما ذكرنا إن شاء الله والله أعلم .
ثم لما فـرغ من ذكـر معجـزة الخصب صـار إلى قصـة شق الصـدر وهي معجـزة أخرى . ويذكر شق الصدر أيضا في قصة المعراج .

وأتت جــــده وقــــد فصلتـــــه وبها من فصـــــالــــه البرحـــــاء

على تقـدير الفـرض أن قـارىء هذه القصيـدة ليس لـه سابـق علم بالسيرة فقـد أنبأه البوصيرى بيتـم النبي صلى الله عليـه واله وسلم إذ أبتـه المرضعات. ثم أن الـذي تولى كفالته جـده ههنا. ولعلم القارىء بأمر اليتـم وكفالة جده عبدالمطلب لـه، فإن سياق الخبر من أجل الذكر والعظة الحسنة والبشرى.

إذ أحاطت به ملائكة الله فظنت بأنهم قرناء

وبعض جهلاء أعداء الإسلام يبنون على خبر شق الصدر مزعما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مصـابا بالصرع ويجعلون مـا يشابه من شدة الـوحى من ذلك. ولا خفاء أن هذا من سوء الأدب. ولـو قد كان بالنبي صلى الله عليه وسلم هـذا الذى زعموه لكان رواة سيرته أول من يخبرنا به إذ لم يكتمـوا من خبره شيئا. وما ذكر عن نبي ولا عن عظيم من تفصيل الخبر كما ذكر عن نبينا صلى الله عليه والـه وسلم. ولقد صحبه أصحابه فى الحضر والسفر فما غادروا من أمره شيئا. والأطبة فى عصرنا هذا لا ينطقون قاطعين برأي فى مرض مريض، أي مـريض، إلا بعد أصناف من الكشف الدقيـق. فقد حسن سوء الأدب وضلال الرأي وسخافته لهؤلاء السفهاء أن يقـدموا على تشخيص مرض ينسبونه إلى نبينـا على الظن وبالتحـامل والبغضاء وبغـرض الطعن والسب وعلى وجه خـلاف منكـر لكـل مـا ورد من خبره، أنـــه كـان أيقظ النـــاس وأصبرهم على مكــاره السفـر والحرب، شج في أحد وكسرت رباعيتـاه فما انتابه ضعف ولا خور. وفر عنـه الناس يوم حنين وهو مكانه لا يريم. وكان قواما صـواما. وتحامل فى مرض وفاته فصلى وأصحابه برؤيته مستبشرون.

ورأى وجــدهـــا بـــه من الـــوجــــ ـــــد لهيب تصلى بـــه الأحشـــاء

أى رأى عبدالمطلب حب حليمة له صلى الله عليه واله وسلم وتعلقها به.

فـــارقتـــه كـــرهـــا وكـــان لـــديها ثـــاويـــا لا يمـل منـــه الثـــواء

وقد أحسن تضمين كلام اليشكرى ههنا. وقد رام نحو هذا الشهاب فى همزيته الكاملية في المطلع.

مــــا آذنتــــــه ببينهـــــا أسماء فنقــــول ثــــاو مل منــــه ثــــواء

والصناعة هنا على سلامة الأداء . ثم يقول البوصيرى :-

شق عن قلبه وأخرج منه مضغة عند غسله سوداء
ختمته يمنى الأمين وقد أو دع ما لم تذع له أنباء
صان أسراره الختام فلا الفـ ـض ملم به ولا الإفضاء

وينتقل البوصيرى فى براعة قصصية من خبر الشق إلى بلوغ النبي صلى الله عليه واله وسلم أشده واشتغاله بالذكر والعبادة والتحنث وما كان عند مبعثه من ظهور الشهب تطرد الشياطين عن استراق السمع ثم يجمع بين هذا وبين تزوجه خديجة رضي الله عنها . ولو كان صاحب سرد همه تتابع الأحداث لكان ذكر بعد الرضاعة والفصال أحداثا أخر ثم أتبع ذلك ذكر الزواج ثم جاء من بعد بخبر المبعث . ولكن براعة البوصيرى تتجلى في ربطه الدقيق بين التحنث والوحي وخديجة رضي الله عنها وتثبيتها النبي صلى الله عليه وسلم وأنها كانت له وزير صدق :

ألف النسك والعبادة والخلـ ـوة طفلا وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء

صدق . وهذا من أبيات الحكمة .

بعث الله عند مبعثه الشهـ ـب حراسا وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسمـ ـع كما تطرد الذئاب الرعاء

وأحسب أنه يشير بإلماع خفي إلى الكهان بقوله كما تطرد الذئاب الرعاء ، أليس الأعشى يقول :

ما نظرت ذات أشفار كنظرتها حقا كما نطق الذئبي إذ سجعا

عنى بالذئبي كاهنا بعينه هو سطيح فيما ذكروا والتى نظرت هنا زرقاء اليمامة والأشفار أراد بها أجفان العين المفرد شفر بضم فسكون وهو أصل منبت شعر الجفن وللشفر معنى آخر وليس المراد ههنا ، أعنى بيت الأعشى إذ لم يقصد إلى معنى التأنيث ولكن إلى معنى النظر. هذا ويقوى ما ذهبنا إليه من الإلماع إلى الكهانة قوله من بعد :

فمحت آية الكهانة أيا تٌ من الوحي ما لهن امحاء

ومع ذكر المبعث أتى بـذكر زواج خديجة لمناسبته له من حيث مؤازرتها رضي اللـه عنها وإن كان الزواج قبل البعثة بخمسة عشر عاما

ورأتـــه خـــديجة والتقى والـــز هـــد فيـــه سجيـــة والحيـــاء
وأتـــاهـــا أن الغمامـــة والسر ح أظلتـــــــه منهما أفيـــــــاء
وأحـــاديث أن وعـــد رســـول اللـــ ـــه بـــالبعث حـــان منـــه الـــوفـــاء

فى سورةالصافات قوله تعالى يذكر تمنى قريش أن ينزل عليهم كتاب فلما جاءهم تنكروا له: «وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون» وفي سورة البقـرة قوله تعالى يذكر مـا كان يستفتح به أهل الكتاب من يهود إذ يترقبون خروج نبي يقتلـون به العرب قتل عاد وإرم، وكانـوا لغرورهم لا يرون إلا أنه سيكون يهوديـا منهـم: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصـدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهـم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»

فـدعتـه إلى الـــزواج ومـــا أحـــ ـــسن مـــا يبلغ المنى الأذكيـــاء

وليس ذكاء مكر دنيوي ولكن ذكاء توفيق وكيس ودين:

وأتـــــاه في بيتهـــــا جبرئيـل ولـــذي اللب في الأمـــور ارتيـــاء

عنى بذي اللب خـديجة والارتياء هنا من رؤيـة العقل، وذلك أنها ثبتت النبي صلى الله عليـــه وسلم وأقنعتـه بالبرهـان أن الذي رأى ليس بـرئي من الجن ولكن ملك الحق المنزل بأمره من عنده:

فأمـــاطـــات عنهـــا الخمار لتـــدري أهـــو الـــوحي أم هـــو الإغماء
فـاختفى عنـد كشفهـا الـرأس جبريـــ ـــل فما عـــاد أو أعيـــد الغطـــاء

أي الخمار ـ لتتأكد من أن كشفها رأسها هو سبب ابتعاد الملك فلم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصره

فـاستبـانت خـديجة أنـه الكنـــ ـــز الـذي حـاولتـه والكيميـاء

قد تبـدو هذه القـافية أول الأمر مجتلبـة ولكنها بعـد تأمل قليل تتضح قوة منـاسبتها،

وذلك أن الكنز فيه معنى الذهب، وكانت الكيمياء في ذلك الزمان إنما يجتهد أصحابها فيها من أجل أن يحولوا التراب وما أشبه ذهبا ـ أي هو الكنز وهو المنى والمعجزة وهو الإكسير.

وانتقل البوصيري إلى نفس الدعوة وما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم من إباء من أبى وعنادهم. وعلل هذا الإباء بالرغم من المعجزات، وعدد من المعجزات ثم ذكر انتصار الدعوة وظهور الحق ـ هذا الانتقال السريع من أول الدعوة إلى معجزاتها فانتصارها أفعل من حيث التأثير الشعري.

ثم قام النبي يدعو إلى اللـ ـه وفي الكفر نجدة وإباء
أمما أشربت قلوبهم الكفـ ـر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا وإذا الحق جاء زال المراء

هذا من باب الحمد والشكر لله أن لم يجعلنا ممن حضروا الكفر فأشربوه، وانتقال الشاعر من زمان أبي جهل إلى زمانه هو جيد بالغ.

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدي بها من تشاء
كم رأينا ما ليس يعقل قد ألـ ـهم ما ليس يلهم العقلاء

وعلل هذه الحكمة بقوله:

إذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفيـ ـل ولم ينفع الحجا والذكاء

وإباء الفيل معجزة كانت عند مولده عليه الصلاة والسلام. ثم ذكر تحية الحجر له وحنين الجذع وأمر الغار والعنكبوت والحمامة فصار إلى ذكر الهجرة:

والجمادات أفصحت بالذي أخـ ـرس عنه لأحمد الفصحاء
ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه وقلوه ووده الغرباء

قلوه: أبغضوه، وقد وده أهل المدينة وآووه صلى الله عليه وسلم

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء

أي ذات الجناح والريش وفيه معنى الرأي السديد من قولهم رأي محصد وجاء بهذا النعت من قولهم شجرة حصداء أي كثيرة الورق ودرع حصداء أي محكمة النسج

ومعنى الدرع مستكن في نسج العنكبوت في هذا الموضع، ومعنى كثرة الورق مستكن في لفظ الورقاء وإن يك معناه الرمادية اللون.

واختفى منهم على قرب مرآ ه ومن شدة الظهور الخفاء

واتلأب من بعد طريق السير الى المدينة:

ونحا المصطفى المدينة واشتا قت إليه من مكة الأنحاء
وتغنت بمدحه الجن حتى أطرب الإنس منه ذاك الغناء

يشير إلى خبر السيرة أن الناس أصبحوا يسمعون صوتا عاليا ولا يدرون من صاحبه ينشد:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتي أم معبد

خيمتا أم معبد موضع سمي بذلك من بعد وأم معبد هذه ضيفت النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه إذ درت شاتها. ثم يجيء خبر سراقة:

واقتفى إثره سراقة فاستهـ ـوته للأرض صافن جرداء

الصافن الفرس والجرداء الملساء ليست بشعراء وهذا ينبيء عن جودتها

ثم ناداه بعد ما سيمت الخسـ ـف وقد ينجد الغريق النداء

هذا تشبيه انتزعه من بيئة نيله وكان رحمه الله شديد الإحساس بالنيل وطبيعة أرض مصر وجمالها؛ هذا وذكر فرس سراقة كأنها دعا ذكر البراق على وجه من تجاوب المعاني وتداعيها. ومع أن المعراج كان قبل الهجرة، جاء به البوصيري هنا بعد خبر الهجرة لما في ذلك من المناسبة الروحية، إذ المعراج قد كان إيذانا بظهور أمر الدين وعلوه.

فصف الليلة التي كان للمخـ ـتار فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسيـ ـن وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأماني حسرى دونها ما وراءهن وراء

هذا مولد من قول أبي الطيب «مراتب صعدت والفكر يتبعها. البيت»

ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغثاء

أراد هنا تحدي القرآن. وما أراه جمع بين التحدي والمعراج إلا لأن سورة الإسراء فيها مع ذكره أنه أسري به صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

وهو يدعو إلى الإله وإن شق عليه كفر به وازدراء

يشير بقوله «وازدراء» إلى خبر الطائف إذ أغروا به سفهاءهم

ويدل الورى على الله بالتو	حيد وهو المحجة البيضاء
فبما رحمة من الله لانت	صخرة من إبائهم صماء

من براعة البوصيري فطنته إلى أن نظم آي القرآن جهد يضيع سدى لمكان القرآن من البلاغة في الذروة. فالوجه الإشارة والتضمين فمن ذلك الإشارة إلى قوله تعالى: «فاحتمل السيل زبدا رابيا» وإلى قوله تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم» وإلى قوله تعالى: «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم» فرحمة الله التي ألانت قلبه لهم ألانت قلوبهم فلم ينفضوا، ومن حسن تأتي البوصيري أنه لما نسب تليين رحمة الله إلى قلوبهم جعلها صخرة صماء فلانت والآية «فبما رحمة من الله لنت لهم» فيها الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى فطره برحمته لين الجانب رحيم الفؤاد على خلق عظيم، صلى الله عليه وسلم، ثم ختم البوصيري هذا الفصل بالإشارة إلى النصر وسورة الفتح:

واستجابت له بنصر وفتح	بعد ذاك الخضراء والغبراء
وأطاعت لأمره العرب العر	باء والجاهلية الجهلاء

الخضراء والغبراء أي كل مكان والخضراء السماء والغبراء الأرض ولكن المعنى الأول هو المراد إذ الأرب الدلالة على الشمول والعرب العرباء اليمن والجاهلية الجهلاء كل من كان على الشرك من العرب ـ أي كل العرب. وقد يكون المراد من العرب العرباء تأكيد بمعنى العرب الصرحاء أهل الشكائم.

وذكر العرباء والجهلاء جر إلى ذكر الجهاد والمصابرة والبلاء:

وتوالت للمصطفى الآية الكبـ	ـرى عليهم والغارة الشعواء
فإذا ما تلا كتابا من اللـ	ـه تلته كتيبة خضراء

أي تـامة عتـاد الحرب خضراء بالـدروع . هـذه الكتيبة ليست هي فقط كتيبـة الجيش المقـاتل بـالأسنـة والأعنـة والصوارم . ولكن للـه جنـودا لم تـروهـا . من ذلك مـا حل بالمستهـزئين من غضب الله عليهم وذلك قبل الهجرة . قـال تعالى : «فاصدع بما تـؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين . »

وكفـــاه المستهـــزئين وكم ســـا ء نبيـــا مـن قـــومـــه استهـــزاء
ورمـــاهم بـــدعـوة مـن فنـاء الـــ ـــبيت فيهـــا للظـــالمين فنـــاء

صناعة البـوصيري لا تكاد تحس لجودة الأداء ورصانته وهيمنة جـانب المعاني عليه مع نصوع الألفـاظ ـ تأمل «فنـاء» بكسر الفاء وفتحهـا ـ والكـاف والسين في البيت قبله ـ ومن قبل ، الكبرى ، كتابـا ، كتيبة . ومن قبل حمتـه الحمامة ، ولوضـوح هذا وتـواتره لا ينبغي أن نزيد على مجرد الإيماء إليه .
ثم نظم البـوصيري نظم الخرز أسماء المستهـزئين . ونحـن الآن مع أحـداث مـا قبل الهجرة . وجعل في مقابلتهـا اسماء من تواطئوا على نقض صحيفة القطيعـة التي كتبتها قريش :

خمســة كلهـم أصيبـــوا بـــداء والـــردى من جنـــوده الأدواء

إي بداء قاتل

فدهى الأسود بن مطلب أى عمى ميـت بـــه الأحيـــاء

فكان عماه من أسباب انكساره حتى قضى نحبه . وقـوله« ميت به الأحياء» أشار به إلى قول الكوتي بن الرعلاء

ليس مـن مـــات فـــاستراح بميت إنما الميـت ميـت الأحيـــــــــــاء
إنما الميـت مـن يعيـش كئيبـــــــا سيئـــا بـــالـــه قليـل الـــرجـــاء

هكذا كان ابن مطلب

ودهى الأســـود بن عبـــد يغـــوث أن سقـــاه كـأس الـــردى استسقـــاء
وأصـــاب الـــوليـــد خـــدشـــة سهم قصرت عنهـــا الحيـــة الـــرقطـــاء

هو الوليـد بن المغيرة و هو الذي نزلت فيه : « إنه فكـر و قدر» و في عجز البيت شيء .

وقضت شـــوكـــة على مهجـــة العـــا ص فللـــه النقعـــة الشـــوكـــاء

أي القتلة الخشنـة . وفي هذا البيت بعض القلق على حـذق المجانسة بين أولـه و آخره

و على الحارث القيوح و قد سا ل بها رأسه وساء الوعاء

هو الحارث بن الطلاطلة وبئس الوعاء رأسه. والوعي بفتح الواو هو القيح فمن فتح الواو ومد المقصور جاز على هذا المعنى و لكن الكسر أجود

خمسة طهرت بقطعهم الأر ض فكف الأذى بهم شلاء

اذ كانوا من ملأ قريش ودهاتها

ثم ذكر الخمسة الذين عملوا على نقض الصحيفة الظالمة:

فديت خمسة الصحيفة بالخمـ ـسة إن كان بالكرام فداء

أي لو أمكن أن يفدى الكرام فهؤلاء الخمسة الذين وقع بهم عذاب الله في الدنيا ولعذاب الآخرة أشق فداء لخمسة الصحيفة.

يا لأمر أتاه بعد هشام زمعة إنه الفتى الأتاء

وزهير والمطعم بن عدي وأبو البختري من حيث شاءوا

نقضوا مبرم الصحيفة إذ شـ ـدت عليهم من العدا الأنداء

اذكرتنا بأكلها أكل منسا ة سليمان الأرضة الخرساء

بنقل فتحة الهمزة إلى اللام. و قصة أكل الأرضة منسأة سليمان مذكورة في سورة سبأ وقد أكلت الأرضة الصحيفة إلا موضع اسم الله تعالى، و مكان التشبيه أن المشركين كانوا على ثقة بسلامة الصحيفة وما تضمنته من البغي، فكان أكل الأرضة لها مما خذل من كان رأيهم التمسك بها و قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأمرها فوجدوه كما ذكر عليه الصلاة والسلام!

وبها أخبر النبي وكم أخـ ـرج خبأ له الغيوب خباء

والخبء هنا تشير إلى خبر سيدنا سليمان في سورة النمل إيماء ـ وذلك في مقال الهدهد عن قوم بلقيس «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء. الآية.»

لاتخل جانب النبي مضيما حيث مسته منهم الأسواء

في المطبوعة «مضاما» و لا يصح إذ الفعل ثلاثي أجوف يائي واوى ضامه يضيمه ويضومه

كل أمر ناب النبيين فالشد ة فيه محمودة والرخاء

ثم علل هذه الحكمة :

لـو يمس النضـار هـون من النـا ... ر لما اختير للنضـار الصـلاء

وتعليل الحكمة أشبه بمذهب أبي تمام والصلاء النار والنضار الذهب . ثم ذكر ما حف النبي صلى اللـه عليـه وسلم من عنـايـة اللـه سبحـانـه وتعـالى ووقـايتـه

كم يـد عن نبيـه كفهـا اللـ ... ـه وفي الخلق كثـرة واجتراء
إذ دعـا وحـده العبـاد و أمست ... منـه في كل مقلـة أقـذاء
هم قـوم بقتلـه فأبى السيـ ... ـف وفـاء وفـاءت الصفـواء

تأمل الفاءات و الجناس في«وفاء» ـ «وفاءت»ـ والقـاف في«مقلة» ـ «أقذاء» ـ «قوم» ـ «بقتله» . وأشار إلى خبر الذي أراد قتله ثم هداه الله و إلى ذلك الإشارة في سورة المائدة : «يأيها الذين ءامنـوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطـوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم» وقـال تعالى : «يأيها الـرسول بلغ ما أنـزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته و اللـه يعصمك من الناس» و الصفواء الحجر و قـد همت حمالة الحطب أن ترميه بحجر فلم تره ، و بعد الهجرة همت اليهـود أن يلقوا عليه حجرا فكفاه الله عز وجل شرهم .
ثم ذكر خبر أبي جهل إذ هاب النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه يقتضيه دين الإراشي ـ رجل من بني إراشـه لوى أبوجهل دينـه فلم يؤده فدلـه الناس على الرسـول صلى الله عليه وسلم ليستعين به ، و مـا أرادوا إلا أن يسخروا به ، فكان ذلك سببا لنيلـه ما لوي عنه ظلما

و أبـوجهل إذ رأى عنق الفحـ ... ـل إليـه كأنـه العنقـاء
واقتضـاه النبي ديـن الإراشـ ... ـي و قـد سـاء بيعـه والشراء
و رأى المصطفـى أتـاه بما لم ... ينج منـه دون الـوفـاء النجـاء
هـو مـا قـد رآه من قبـل لكن ... مـا على مثلـه يعـد الخطـاء

وذلك أنه هم بالنبي صلى الله عليه وسلم فـرأى دونه فحلا و هو عين الفحل الذي رآه لما جاءه النبي صلى الله عليـه و سلم يقتضيـه دين الإراشي ـ فهـذا من خبر أبي جهل عدو الله كما ترى . ثم ذكـر خبر حمالة الحطب و هي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم

وأعـدت حمالـة الحطب الفهـ ... ـر و جـاءت كـأنها الـورقـاء

و ذلك أن الحرم فيه الحمام الورق - و الحمامة خفيفة الخطا ونعت البوصيرى أم جميل أنها جاءت كحمامة، نعت جيد، لما فيه من صفة هيئة دخولها، ثم كأن ههنا إشارة لقصة الحمامة التى دخلت على سيدنا داود في مصلاه إذ كان دخول أم جميل في الحرم، ثم الحمامة علامة سلم و الحمام بالحرم آمن، و قد جاءت أم جميل بمظهر الحمامة المسالمة وما جاءت إلا لحرب. قالوا وكان أبولهب و أم جميل كلاهما على حظ من جمال الصورة مع ما كان من سوء الطوية

يوم جاءت غضبي تقول أفي مثـ ـــلي من أحمد يقال الهجاء

تشير إلى الآية. وقالت: «مذمما أبينا و دينه قلينا»، تهجو بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما صنعت شيئا إذ لم يكن اسمه مذمما فمنعت من هجائه صلى الله عليه وسلم كما منعت من رميه بفهرها:

وتولت وما رأته ومن أيـ ـــن ترى الشمس مقلة عمياء

ثم إذ الشيء بالشيء يذكر جاء بخبر امرأة أخرى همت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بشر و هي زينب بنت الحارث اليهودية و العجب للأستاذ المستشرق ألفريد غيوم Alfred Guillaume ترجم خبرَها عن ابن هشام على صحته في ترجمته The life of Muhammad-A Translation of Sirat Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah- London 1955-p. 516:

حيث ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم صفح عنها و نص ترجمته:

So the Apostle let her off

ثم جزم بأنه قتلها في الكتيب الصغير الذي كتبه عن الاسلام وهو Islam by Alfred Guillaume من طبع بنجوين سنة١٩٥٦ ـ ١٩٧٨ في صفحة٤٩ حيث قال بها ترجمته «وطبعا أعدمت زينب»

Of course Zaynab was put to death

و هذا الذي جزم به لا يبرره نقله و ان تك قد وردت به بعض الروايات(انظر الروض٦/ ٥٧٠):-

ثم سمت لـــه اليهـــوديـــة الشـــا ... ة و كم ســـام الشقـــوة الأشقيـــاء
فأذاع الـــذراع مـــا فيـــه من شر ... بنطق إخفـــــاؤه إبـــــداء
و بخلـق مـن النبي كـــــــريم ... لم تقـــاصص بجـــرحهـــا العجماء

فهذا هو الخبر الصحيح و جعلهـا عجماء إذ كانت يهودية و ذكروهـا في الصحابة وأنها أسلمت :

من فضـــــلا على هـــوازن إذ كـــا ... ن لـــــه قبل ذاك فيهـم ربـــــاء
وأتى السبـي فيـــه أخت رضـــاع ... وضع الكفـــر قـــدرهـــا و السبـــاء
فحبـــاهـــا بـــرا تـــوهمت النـــا ... س بـــــه أنها السبـــاء هـــــداء

هذه قصة الشيماء أخته من الرضاعة و ذلك أنها عرفته بنفسها فلما عرفها صلى الله عليه وسلم أكرمها إكراما توهم به من لم يكن قد عرف خبرها أنه صلى الله عليه وسلم أرادها زوجة وذلك أنه بسط لها رداءه ولاطفهـا برا بحقها وكانت سببا في إطـلاق السبايا والمن الذي منه اللـه و رسوله على هوازن، حتى إن مالك بن عوف النصري قـائد هوازن وفد إلى رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم من بعد وأستأمن وأسلم وحبـاه رسول اللـه عليه الصـلاة والسلام حبـاء المؤلفة قلـوبهم و مدحـه صلى الله عليـه وسلم بكلمة منهـا :
مـــا إن رأيت ولاسمعـت بمثلـــه ... في النـــاس كلهم بمثـل محمـــد
أوفى وأعطى للجـــزيـل اذا اجتـــدى ... ومتـى يشـأ يخبرك عما في غـــد
يعني الحدس والألمعية والكشف لا علم الغيب فذلك استأثر به الخالق سبحانه وتعالى وفي سورة الأعـراف : «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء اللـه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء .»

بســـط المصطفــــى لها مــــن رداء ... أي فضـل حـــــواه ذاك الـــــرداء
فغـــدت فيـــه وهي سيـــدة النســـ ... ـــوة والسيـــدات فيـــه إمـــاء
أى كالإماء بالنسبة إليها لما نالته من عظيم الحرمة .
وهنا التفت البـوصيرى إلى محض الثناء الحسن عليه صلى اللـه عليه وسلم فجعل ذلك فصلا خلص منـه إلى الترنم بذكر بعض المعجزات، ثم اتبع ذلك تغنيـا يتمنى به الحج ورؤية البيت الحرام ولثم تراب تلك الـرباع القدسية من مكة والمدينـة حرسهما الكريم

القديم الجبار.

فتنـــزه في ذاتـــه ومعـــانيـــــه استماعـا إن عـز منهـا اجتـلاء
وامـــلإ السمـع من محاسـن يمليـــــها عليك الإنشـــاد والإنشـــاء

وهنا وصف جيـد لطريقته في النظم أنـه يتغنى به وينشـد وينشىء ويصوغ مع ذلك، وهذا منهج الفحـول من الشعراء أهل الملكـة والتجويـد. وكذا روي عن أبي الطيب. وقـريب منه عـن أبى تمام، وكذلك في خبر الأحـوص إذ جعل يـروض النغم على اسم موضع واسم رجل هم بهجائه. والذي وصى به ابن طباطبا ـ وقد مر ذكره ـ منهج أهل الصناعة والنحت. ورنة الإيقاع جليـة في نمط البوصيرى ولهذه القصيدة صلاة يفصل بها المنشدون بين فصولها، وإنما ينشدون منها الفصل والفصلين على سبيل الاختيار، لا كلها في المرة الواحدة لطولها، وهي:

صل يـــا رب ثم سلـم على من هـــو للخلـق رحمة وشفـــاء

وطريقـة التغنى بها متشابهة على مـا يكون من اختـلاف وجوه النغم والغنـاء في مختلف أقطار الإسلام.

كل وصف لـه ابتـدأت بـه استـو عب أخبـار الفضل منـه ابتـداء

هذا البيت أيضا فيه تنبيه على طريقته هو رحمه الله في صوغ القريض وقد ذكرنا من قبل أن من الشعراء من يوصد بـاب القول على نفسه فلا يترك لنفسه عندمـا يبتدىء ما يدع مجالا للقول يلى. وكأن البوصيرى قد فتح الله عليه فتحا خاصا بأن كل ابتداء في مدح الرسـول فالصفـة التي يذكرهـا فيه تستـوعب كل فصل، ولكنه يستطيع أن يبـدأ بدءا جديـدا، فكل بداية نهايـة، لأن كل فضيلة من فضائلـه صلى الله عليه وسلم شـاملة لكل الفضائل، ثم ليس لفضائله حصر، فتأمل هذا الحذق

سيـــد ضحكـــه التبسـم والمشـــــى الهوينـــا ونـــومـــه الإغفـــاء
رحمة كلـــه وحـــزم وعـــزم ووقـــار وعصمـــة وحَيـــاء
لا تحل البأســاء منـــه عـرى الصبـــــر ولا تستخفـــــه السراء
كـــرمت نفســـه فما يخطــر الســو ء على قلبـــه ولا الفحشــــاء

هذا بيت عزيز دقيق المعنى. أي معدن نفسه صلى الله عليه وسلم وجوهرها شريف كريم فهو بطبيعة شرفه وكرمه مناف ونـاف لكل دنس

عظمت نعمة الإله عليه فاستقلت لذكره العظماء

وذلك أن العرب وهم ما هم قد أحبوه حبا لم يحبوه أحدا قبله ولا بعده وما ملك قلوبهم إلا بتلك النعمة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى عليه صلى الله عليه وسلم وبه عليهم. ومما يعجبني هذا الخبر الذي نقله صاحب المجموعة (ج ـ ١ ـ ٥٦): عن زيد بن أرقم قال خرج عمر رضى الله عنه في خلافته ليلة يحرس فرأى مصباحا في بيت عجوز تنفش صوفا وتقول:

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواما بكى بالأسحار يا ليت شعرى والمنايا أطوار

هل تجمعنى وحبيبي الدار

تعنى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس عمر يبكي ثم قام فسلم عليها وقال لها أعيدي على قولك فأعادته بصوت حزين فبكى وقال لها: وعمر لا تنسيه[1] يرحمك الله فقالت:

وعمر فاغفر له يا غفار

ورووا في الحديث ما معناه أن عمر رضى الله عنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبه له أكثر من كل شىء إلا نفسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه أن لا يستثنى نفسه حتى يتم بذلك إيمانه ففعل رضى الله عنه وهو بذلك صادق وهو الصواب لأن المسلم لا يعرف نفسه المطمئنة إلا بمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه باب الإيمان بالله ولا يعرفه صلى الله عليه وسلم إلا بحبه إذ الحب باب الاتباع وباتباعه يكون حب الله للعبد الصالح

جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

قوله لم تعيه الأعباء مناسب لذكر البحر ههنا وما أرى إلا أنه أخذ هذا من صورة النيل

(١) أي لا تنسيه أن تجمعه هو أيضا الدار مع الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وحركة السفن الدائبة عليه وأهل النيل يسمونه البحر وهو لفظ صحيح في العربية وجاء بمثله القرآن الكريم

مستقل دنيـاك أن ينسب الإمـــ ـــساك منهـا إليــه والإعطــاء

قوله دنيـاك هنا جيد، أى دنياك يـا أخا الدنيا إذ لم يكن هـو صلى الله عليه وسلم من طالبي زهرتها

شمس فضـل تحقق الظن فيـــه أنـــه الشمس رفعـة والضيـــاء

هذا عاد به إلى قوله قبل «سنا منك دونهم وسناء» وجعله نهاية لهذا الفصل ليخلص منه إلى ما قدمنا ذكره من ترنمه بالمعجزات

فإذا مــــا ضحــــا محا نـــوره الظل وقــــد أثبـت الظــــلال الضحــــاء

فكـأن الغمامـــــة استــــودعتـــــه من أظلـت من ظلــــه الـــدفقــاء

يقول إن نور النبي صلى الله عليه وسلم يمحو ظلـه عند ارتفاع النهار والضحاء ارتفاع النهار فكأن الغمامة التي كانت تظله صلى الله عليه وسلم قـد جعلت النبي صلى الله عليه وسلم مستودعا من جانبها عند هذا النـور فصار هذا النور ظلا له كما كانت هي ظلا له. الهاء في استودعته ضمير يعـود على (نوره) في البيت المتقدم. ومن مفعول ثان لقوله استودعته ويريد به النبي صلى اللـه عليه وسلم والدفقاء أي الذين دفوا على أثره من أصحابه من بعده لأنهم بظله صلى الله عليه وسلم قد أظلوا الناس، أبوبكر وعمر وعثمان وعلى الخلفاء الراشدون المهديون من بعده والصحـابة الكرام وتابعوهم بإحسان رضي الله عنهم. قـال النبهاني الدفقـاء المراد بهم أصحابه صلى اللـه عليه وسلم وعلى هذا البيت كلام كثير يراجع في الشروح قلت ما تقـدم ان شاء الله فهو الصواب ودفقاء جمع دفوف مبالغة من داف بتشديد الفاء من دف يدف

خفيت عنده الفضائل وانجابت به عن عقولنا الأهواء

أى خفيت فضائل كل شىء بالنسبة إلى فضائله وذهب حب كل شىء بالنسبة إلى حبنا له وسلمت عقولنا بذلك من هوى النفوس أهواءها وذلك للرأى آفة

أمـع الصبـح للنجـــــــوم تجل أم مـع الشمس للظـــــلام بقـــــاء

معجـز القـول والفعـال كـريم الـــ ـــخلق والخلق مقسـط معطـــــاء

لا تقس بـــالنبي في الفضـل خلقـــا فهـــو البحـــر والأنـــام إضـــاء

كل فضـل في العـــالمين فمن فضــ ـــل النبـي استعـــاره الفضـــلاء

لأنه موصوف بالخلق العظيم في القرآن والقرآن في أم الكتاب ـ على هذا يخرج هذا القول والله أعلم

شق عن صدره وشق له البدر ومن شرط كل شرط جزاء

ههنا بديع الاستخدام لأن الشرط هو القطع والشق وهو أيضا في النحو معروف ، وكل جرح فله جزاء يكون تعويضا عنه ، فعن شق الصدر تعويض له بملئه علما وحلما وعن شق البدر ضياء عمه وعم أمته . ولكل شرط في النحو جزاء والمراد المعنى الأول وهذا الثاني ورى به وتجوز إرادته فيكون قد جاء بكلمة الشرط على معنيين لها وهذا هو الاستخدام، وجعلوا منه عند من قال ذلك قول الله تعالى : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه »أي الهلال وعدة أيام الشهر.

ورمى بالحصى فأقصد جيشا   ما العصا عنده وما الإلقاء

عاد رحمه الله إلى الموازنة وحرب أهل الكتاب . وكما قدمنا ينبغي أن يحمل هذا على ما كان بين المسلمين وخصومهم من عراك البيان والجدل . والعصا عصا موسى عليه السلام والإلقاء إشارة الى قصته مع السحرة إذ القوا ثم القى عليه السلام في سورة الأعراف : «وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون » هذا في خبر سيدنا موسى عليه السلام وقد تكرر ذكره في الآيات المحكمات وفي سورة الأنفال : «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من حصباء ورمى بها وقال شاهت الوجوه وأمر صحبه أن شدوا فكان النصر وذلك يوم بدر الكبرى .

ودعا للأنام اذ دهمتهم   سنة من محولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيا   م عليهم سحابة وطفاء

الوطفاء التي لها وطف كأهداب الجفون لكثرة مائها وثقلها وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله الله غيثا غدقا طبقا فكان وإلى هذا المعنى أشار البوصيري بنعته السحابة بأنها وطفاء، وكأن في ذلك إشارة إلى قول امرىء القيس

ديمة هطلاء فيها وطف   طبق الأرض تحرى وتدر

وقد جاء البوصيري بتتحرى في البيت التالي :

تتحرى مواضع الرعي والسقي وحيث العطاش توهى السقاء

أي تصب الأسقية وكأنها واهية أفواهها حين يشتد العطش وكذلك يرسل الله

سبحانه وتعالى السحاب مدرارا حين يشتد المحل ويجأر الناس إلى ربهم بالسقيا .

وأتى النـــاس يشتكـــون أذاهـــا ورخـــاء يـــؤذي الأنـــام غـــلاء
فـــدعـــا فـــانجلي الغمام فقل في وصف غيـث إقـــلاعـــه استسقـــاء
ثم أثـــرى الثـــرى فقـــرت عيـــون بقـــراهـــا وأحييت أحيـــاء

فهـذه صورة انتـزعهـا من غمـر النيل الأرض وإقـلاعه عنهـا فيعم بـذلك الخير ويخضر الريف

فترى الأرض غبـــه كساء أشرقت في نجـومهـا الظلماء

والـذي يحدث في الصحراء عمـوم النوار مع الخضرة فـالصورة التي يصف أشبـه بزروع النيل ونواويره إذ هي التي تشبه الظلماء بشدة خضرتها

تخجل الـدر واليواقيت من نـو ر ربـاهـا البيضـاء والحمـراء

وأزهار الصحراء غب المطر أكثر اصناف ألوان، والبياض والحمرة في ألوان نواوير زروع النيل أكثـر، وليس بعسير على شـاعـر تخيـل منظـر النبـات أنى كـان، وقـد رأى البوصيري جوانب الحجاز ورأى مكة والمدينة فليس ببعيد أن يكون رأى نحو ذلك منها غب مطر . وبيئة الشاعـر كما تكون أصلا لما يقوله ، كذلك خيـاله وتجاربه كل ذلك له بيئة . ومـن تجارب الشعراء علمهم بـالأشعار ومذاهـب القول فيها ، ثـم إن البوصيري يرتاح عنـد هذا الفصل إلى تمنى رؤيته صلى الله عليـه وسلم يجعل ذلك تمهيدا لموضوع الحج والزيارة فيما بعد ولذكر الجهاد فيما يلي مباشرة .

ليتـــه خصنـي بـــرؤيـــة وجـــه زال عـن كـل مـن رآه الشقـــــــاء
مسفـــر يلتقي الكتيبـــة بســـا مـــا إذا أسهـم الـــوجـــوه اللقـــاء

عرف كعب بن مالك رضي الله عنه عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم تزهران تحت المغفر ساعة اشتـداد البلاء يوم أحد فبشر المسلمين فأشار إليـه الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصت .

جعلت مسجدا له الأرض فاهتز به للصلاة فيها حراء

يقال له الآن جبل النور وهو من أجمل جبال مكة

مظهـر شجـة الجبين على البر ء كما أظهــــر الهلال البراء

أي أول الشهر

ستر الحسن منه بالحسن فاعجب   لجمال له الجمال وقاء

أي صارت شجة الجبين على وجهه الحسن هي نفسها حسنا

فهو كالزهر لاح من سجف الأكمام والعود شق عنه اللحاء

هذه الصورة نيلية بلا ريب . ويسمى خروج الكباسة من النخلة شق العود وهو أيضا موسم إزهار للجروف والبساتين والمزارع .

كاد أن يعشى العيون سنا منه لسر فيه حكته ذكاء

أي حكته الشمس، وقد وصف صلى الله عليه وسلم بإشعاع الوجه والهيبة وصفه بذلك واصفوه من الصحابة رضي الله عنهم

صانه الحسن والسكينة أن تظ   هر فيه آثارها البأساء

وتخال الوجوه إن قابلته   ألبستها ألوانها الحرباء

لأن وجهه شمس ، ولعل هذا البيت فيه مأخذ على استقامة معناه وسلامة لفظه وسبب ذلك أن تلون الحرباء أكثره أنه لا يحمد . غير أن البوصيري كأنه جيء إليه من جهة بيت كعب بن زهير رضي الله عنه :-

يوما يظل به الحرباء مصطخدا   كأن ضاحيه بالشمس مملول

وكأن البوصيري رحمه الله لم يخل أن أحس ببعض ما في البيت من قلق فالبيت الذي يلي كأنه اعتذار منه بما فيه من تفسير له .

فإذا شمت بشره ونداه   أذهلتك الانوار والأنواء

فخرج عن صورة الشمس هنا الى صورة السحاب والبرق والمطر ـ ثم رجع فرد الكلام الى قوله من قبل «ليته خصني برؤية وجه» :

أو بتقبيل راحة كان للـ   ـه وبالله أخذها والعطاء

تتقي بأسها الملوك وتحظي   بالغنى من نوالها الفقراء

لا تسل سيل جودها إنما يكـ   ـفيك من وكف سحبها الأنداء

درت الشاة حين مرت عليها   فلها ثروة بها ونماء

نبع الماء أثمر النخل في عا   م بها سبحت بها الحصباء

أحيت المرملين من موت جهد   أعوز القوم فيه زاد وماء

فتغدى بالصاع ألف جياع   وتروي بالصاع ألف ظماء

لا ريب في اتساق عقد هذه الأبيات ـ وبعض مرد ذلك إلى حسن تتابع الأفعال ـ درت ـ مرت ـ نبع ـ أثمر ـ سبحت ـ أحيت

ووفى قـــدر بيضـــة من نضـــار دين سلمان حين حـــان الـــوفـــاء
كـــان يـــدعى قنـــا فـأعتق لما أينعـت من نخيلـــه الأقنـــاء

القن العبد المعرق في العبودية والأقناء جمع قنو بكسر فسكون وهو غصن النخلة المثمر وجمعه ايضا قنوان كصنو والجمع صنوان وكلتاهما في القرآن قال تعالى: «ومن النخل من طلعها قنوان دانية »[الأنعام] وقال تعالى «ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد»[الرعد] .

أفـــلا تعـــذرون سلمان لما أن عـرتـه من ذكـره العـرواء

أي ارتجاف الحمى. سلمان الفارسي رضي الله عنه، في الحديث أن بلالا سابق الحبشة وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس ورسول الله صلى الله عليه وسلم سابق العرب .

وأزالـت بلمسهـــــا كـل داء أكبرتـــه أطبـــة وإســـاء
وعيـــون مـــرت بها وهي رمـــد فأرتها مـــا لم تـــر الـــزرقـــاء

هي زرقاء اليمامة ومر خبرها

وأعـادت على قتـادة عينـا فهي حتى مماتـه النجـلاء

ثم بعد تعداد هذه المعجزات عاد الى الوصف وقدم له برد الكلام إلى ما كان تمناه من قبل برؤية وجه، أو بتقبيل راحة . . .

أو بلثم التراب من قـــــدم لا نت حيـــاء من مسهـــا الصفـــواء
حظـي المسجـــد الحرام بممشـــا هـــا ولم ينس حظـــه إيليـــاء

أي بيت المقدس

ورمت إذ رمى بها ظلم الليل إلى الله خوفه والرجاء

هذا البيت جيد، وقد جاء بمعناه أتم في بردته الميمية حيث قال :

ظلمت سنـــة من أحيـا الظـلام إلى أن اشتكت قـــدمـــاه الضر من ورم
وشـــد من سغب أحشـــاءه وطـــوى تحت الحجـــارة كشحـــا مترف الأدم
وراودتـــه الجبـــال الشم مـن ذهب عـن نفســـه فأراهـــا أيما شمـم
وأكـــدت زهـــده فيهـــا ضرورتـــه إن الضرورة لا تعـــدو على العصـم
وكيف تـدعـو إلى الـدنيـا ضرورة من لـــولاه لم تخرج الـــدنيـــا من العـــدم
محمـــد سيـــد الكـــونين والثقليـــ ـــن والفـريقين من عـــرب ومن عجم

نبينـــا الآمــر النـــاهــي فــلا أحــــد أبــــر في قــــول لا منـــــه ولا نعم
هــو الحبيب الــذي تــرجى شفـاعتــه لكل هـــــول من الأهــــوال مقتحم

وأخذ بعضهم عليه قوله: « لولاه لم تخرج الدنيا من العدم » ـ ولعمرك إن تحجير الواسع لضـلال والمسارعـة إلى تخطئة المصيبين من الخطـل، وقد بين البـوصيري حقيقة مـراده بقوله:

هو الحبيب الـذى ترجى شفـاعته لكل هــول من الأهــوال مقتحم

فبرر خروج الـدنيا به من العـدم وفسره بأمرين بأنه هـو الحبيب، وبأنه هو الـذي جاء بالدين وبالبشرى ويرجو شفاعتـه المؤمنون. وقال تعالى جل من قائل: « أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا لـه نورا يمشي به في الناس كمن مثلـه في الظلمات ليس بخارج منها » فالكفـر وظلماته موت وعـدم كما ترى. وقال تعالى: « كيف تكفـرون بالله وكنتم أمـواتا فأحياكم » فالعدم موت كما ترى. وقال ابن الرعلاء:

ليس من مـــات فــاستراح بميت إنما الميـت ميـت الأحيـــــــاء

أضف إلى هذا ما ذكرناه من أن البوصيرى عاش في زمان جهاد بين مجاهدين لا في زمان استقرار الخلافة والملـك الذي سبق حين كان أصحاب مثل ملكتـه القوية مقبلين على مدح الملوك وأهل الجاه ويتنافسون على ما عندهـم من حطامها ويتقاتلون ولا بآخرة من الوقـت كزمـاننا هذا الـذي ضعف فيـه أمر البيان والإيمان والجهـاد جميعا فنسـأل الله الهداية والتوفيق ونعوذ به من الخذلان وأن تزيغ القلوب.

وقال في ورم قـدمي رسول الله صلى اللـه عليه وسلم من قيـام الليل وقيامه مـذكور في القرآن:

«إن ربك يعلم أنك تقـوم أدنى من ثلثي اليل ونصفـه وثلثـه وطائفـة من الـذين معك الآية»:ـ

ورمت إذ رمـى بها ظلم الليــــــ ـــل إلى اللــه خـوفـه والــرجـاء

خوفه فاعل رمى وهذا موضع الجودة. ويجوز أن يكون خوفه مبتدأ خبره شبه الجملة قبله وفاعل رمى ضمير مستتر والأول هو الجيد

دميت في الـــوغى لتكسب طيبــا مـــا أراقت من الـــدم الشهـــداء

تكسب متعد لاثنين ثلاثيا ورباعيا ومنه الحديث " وتكسب المعدوم أى تكسب من لا مال له مالا، أى الدم الذى سال منها يعطر به ما أريق من دم الشهداء في سبيل الله

فهي قطب المحراب والحرب كم دا ـــ رت عليهــا في طــاعــة أرحــاء

هـذا المعنى نفيس، جعل قـدمـه لقيامـه قطبـا لـرحى المحـراب وثم جهاد في طـاعـة الله، وجعلهـا لثباته المعـروف شأنه حين يفـر الناس قطبا لـرحى الحرب، وثم جهاد في طاعـة الله، فكم دارت على قـدمه وهي قطـب للحرب وللمحـراب من أرحاء طـاعة وعبادة وقتال في سبيل الله.

وأراه لـــو لم يسكن بها قبـــ ـــل حـراء هــاجت بها الـدأمـاء

الدأماء البحر، أي لو لم يسكن حراء بقدميه فسكن لزلزلت الأرض زلزالها، ولهوى الجبل في البحر، وكأن قد نظر رحمه الله إلى قول الشريف

جبل هــوى لــو خــر في البحــر اغتــدى مـن وقعـــه متتـــابع الإزبـــاد

ولقعقعة هذا البيت أبهة تلفت النظر

عجبـــا للكفـــار زادوا ضـــلالا بـــالـــذى للعقـــول فيـــه اهتـــداء

والـــذى يسألـــون منـــه كتـــاب منـــزل قـــد أتـــاهـم وارتقـــاء

أو لم يكفهـم من اللـــه ذكـــر فيـــه للنـــاس رحمة وشفـــاء

يشير إلى آيتي الإسراء: « وننـزل من القـرءان مـا هـو شفاء ورحمة للمـؤمنين ولا يـزيـد الظالمين إلا خسارا » وقوله تعالى: « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنـزل علينا كتابا نقرؤه الآيـة». أي هم سألوا النبي أن يرقى إلى السماء وأن يأتيهم بكتـاب فقـد جـاءهـم الكتـاب، وقـد جـاءهم الارتقـاء. «ومنـزل» ههنـا بالتخفيف لا من أجل الوزن فقط ولكنها قراءة معتمدة قرأ بها في مواضع غير واحد من السبعة ومن العشرة وعليها قراءة أبي عمرو إلا في حرفين في الأنعام «إن الله قادر على أن ينزل آية» وفي الحجر «وما ننزله إلا بقدر معلوم» وهي قراءة الجمهور في هذا الموضع وقد ذكـر صـاحب النشر تفصيل قـراءة أبى عمرو وابن كثير ويعقـوب وحمزة [النشر ٢/٨/ ٢١٨ـ٢١٩] فقول البـوصيرى مُنزل بـالتخفيف جاء بـه على القراءتين المكيـة والبصرية واللـه أعلم ثم أخذ البوصيري في تفصيـل معجزة القرآن والنـاس في هذا تبع لكعب بن زهير حيث قال رضى الله عنه:

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ـــقرآن فيهــا مــواعيظ وتفصيل

وقد أبدع البوصيرى حيث قال:

أعجـــز الإنـس آيـــة منــــه والجن فهـــلا تأتـى بها البلغـــاء

يشير إلى آية البقرة: « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبـدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا

شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» مشفوعة بآية الإسراء: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن الآية».

كل يـــوم تهدي إلي ســامعيـــه   معجـــزات من لفظـه القـــراء

يشير ههنا إلى أن نظم القرآن أي صياغته ذلك معجز

تتحلى بـــه المســـامع والأفـــ   ــــــواه فهـــو الحلى والحلـــواء

هو في المسامع أقراط وفي فم القارىء حلوى

رق لفظـــا وراق معنى فجـــاءت   في حـــلاهـــا وحليهـــا الخنســـاء

أي الجميلة إذ الغزالة هـي الخنساء وتشبه الحسناء بالغزالة، فكـأن غادة حسناء جاءت في زينتهـا وحـلاها. ولم يكـرر لأن الحلى بضم الحاء جمع حليـة المرأة بكسر أولـه والحلى بفتح فسكون كما تكـون بمعنى الزينة تكـون بمعنى جمال الخلقة وهـو المراد هنا. ثم في البيت مع هذا بديع رشيق إذ الخنساء اسم الشاعرة المشهورة ولها صحبة رضي الله عنها ولكنهـا تعد من شـواعر قبل الإسـلام إذ رثاؤهـا لأخويها كـان قبل الإسلام منهـا ومن قومها، وخفـاف بن ندبة صاحب رايـة بنى سليم يوم حنين كان مع أخيها معـاوية يوم قتل وكـان مقتله قبل مقتل صخـر. وكانت الخنســاء من جميلات النســاء و إياهـا عنى دريد بن الصمة (وقتل يوم حنين كافرا) حيث قال:

مــــا ان رأيـت ولا سمعـت بــــه   كـــاليـــوم طـــالي أينـق جـــرب
متبـــــذلا تبـــــدو محاسنـــــه   يضـع الهنـــــاء مـــــواضع النقـب

وكان رآهـا تطلى إبلا لها جـربا فخطبهـا ولذلك قصـة والعباس بن مـرداس الصحابي الشاعـر ابنها، رضي اللـه عنها وعنـه وعن خفاف وأسفـا على دريد إذ لم يكتـب له كما كتب لهم من نعمة الإسلام، وكأنما أصيب بسهم من إعراض الخنســاء عنه وهجائها أو تعريضها به.

وأرتنـــا فيـــه غـــوامض فضـل   رقـــــــة من زلالها وصفـــــــاء
إنما تجتلى الــــوجـــوه إذا مـــا   جليـت عن مـــرآتها الأصـــــداء
ســـور منـــه أشبهـت صـــورا منـــ   ـــا ومثـل النظـــائر النظـــراء

أى كما صورنا في أحسن تقويم فكذلك سوره. ثم ههنا إشارة إلى أن سورة وصورة لهما جمع متشابه فتقول سور بضم مشبع وصور كذلك وبه فسر "فإذا نفخ في الصور" بعض أهل التفسير. والنظير يشبهه النظير ثم سور القرآن فيها الروح والوحي، كما نحن في صورنا الحياة والروح. والأقاويل التي يتباهي بها الناس والتي رام أهل مكة أن يضاهوا بها القرآن فقد كانت كالتماثيل وليست في التماثيل حياة ولا روح. وأقاويل كل من رام مضاهاتها من بعد كذلك، فلا يخدعنك مظهر بلاغة من بليغ

والأقاويل عندهم كالتماثيـ ـل فلا يوهمنك الخطباء

أي لا تتوهم أن لكلامهم روحا لمجرد تفيهقهم به. ثم ذكر ما فتح الله به على المسلمين من العلوم والتبحر فيها من طريق درس القرآن وجمعه والمحافظة عليه:

كم أبانت آياته من علوم عن حروف أبان عنها الهجاء
فهى كالحب والنوى أعجب الزر اع منه سنابل وزكاء

إذ هي الأصل الذي تفرعت منه كل معارف المسلمين ومعارف من أخذوا منهم وقلدوهم من بعد.
في البردة تناول البوصيرى هذه المعاني التي ذكرها ههنا من معجزة القرآن تناولا مختلفا.
وهذا من نادر ما يتفق من الإجادة لشاعر واحد في الغرض الواحد، قال رحمه الله:
دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم

وبراعة البوصيري من محاسنها أنه لا يتملكه القصد إلى النظم السردى التعدادي كما قد يقع لكثيرين آخرين. فهو كما قال هنا يذكر من المعجزات ويترك إذ هي در يزينها نظمها ولا يشينها نثرها

فما تطاول آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

قوله محدثة من قوله تعالى: «مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون» [الأنبياء] أي هم قريبو عهد بها. وقوله قديمة بعد محدثة بليغ، وذلك أن «محدثة» تدل

على جدة التذكير لهم وقـديمة تدل على حقيقة وصفهـا أنها منزلة من عند اللـه القديم الأول فهي قديمـة وهذا قوله «صفـة الموصوف بالقدم» . وهـذه عقيدتنا وقول المعتـزلة بخلق القرآن من أخطائهم .

لم تقترن بـــزمـــان وهي تخبرنـــا عن المعـــاد وعن عـــاد وعن إرم

فـالمعاد وعـاد وإرم كل ذلك أزمنـة ، وقولـه لم تقترن بزمـان هـو حجة أهل الـدين على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأنه لم يـوجده الخالق من العدم وأُتوا من جهة اعتقادهم اتصال الزمان بالخلق والخالق وقد وضح الغزالي رحمه الله في تهافت الفلاسفة أن الزمان شيء نسبي له وجـود بالنسبة إلينـا وما نفهمه مـن حركة الفلك وأبعـاده . وما أشك أن كلمة النسبى والنسبية خلصت إلى مفهـومها العصري من أصل يمت إلى الغزالي ، وكم من أمر في العلوم الحديثة ادعى اليهـود السبق إليه ومن نقب عسى أن يجد أنهم اغترفوه من بحار العلوم الإسـلامية والعجب لبرتراند رسل في كتـابه عن تأريخ الفلسفة حيث تنقص الغزالي من دون حق معـرفة بقدره . ولم يخل ما قـاله . على ما يزعمـه لنفسه من التحررمن روح تعصب ديني فتأمل .

دامت لـــدينـا ففـاقـت كل معجـزة مـن النبيين إذ جـــاءت ولم تــــدم

وقد حصر قوم إعجـاز القرآن في نظمه ، والقرآن كلـه معجز وبحره لاغَوْرَ لـه . وفيه من قيم العدل والنور المبين ماليس في شيء غيره .

مـــاحـوربت قـط إلا عـاد من حـــرب أعـــدى الأعـــادي إليهـــا ملقي السلم
ردت بـــلاغتهـــا دعـــوى معـــارضهـــا رد الغيـــــور يــــــد الجاني عـن الحرم

أي بقوة وبلا تفتير ردا رادعا على الفور.

لها معـــان كمـــوج البحـــر فى مـــدد وفـــوق جـــوهـــره في الحســن والقيم
قـــرت بها عين قـــاريها فقلت لـــــه لقــد ظفــرت بحبل اللـــه فـــاعتصم
إن تتلهـــا خيفــة من حـــر نـــار لظى أطفـــات حـــر لظى من وردهـــا الشبم

أى من مائهـاذى البرد المطفىء للحر، ومن شرابها السائغ العذب اللـذيذ إذ الماء البارد على العطش وحره من النعيم .

كأنها الحوض تبيض الوجوه به ... من العصاة وقد جاءوه كالحمم

أى حين تسود وجوههم من الذنوب ويترددون فى النار من عبور السراط ثم تدركهم رحمة المولى فيخرجـون من النار ويغمسون في الحوض فـالقرآن فى هـذه الدنيا حـوض غاسل لسواد المكروه من المعاصى والذنوب وكآبات العمر.

وكالصراط وكالميزان معدلة ... فالقسط من غيرها في الناس لم يقم

قـال تعـالى : «إن هـذا القـرءان يهدى للتي هـي أقـوم ويبشر المؤمنين الـذين يعملـون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا» .

لا تعجبن لحسود راح ينكرها ... تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم

يدلك على ذلك حرص الأوربيين أيام نهضتهم على تـرجمة علوم القرآن وقد سبق التنبيه على أن وليم بدويل من مستشرقي الانجليز في أوائل القـرن السابع عشر قد نقل معاني القرآن لقومه . [1]

قـد تنكر العين ضـوء الشمس من رمـد ... وينكـــــر الفـم طعـم الماء من سقـم

وهذا من أبيات الحكمة وقد ولده من كلام أبي الطيب ـ قال :

وإذا خفيت على الغبي فعاذر ... ألا تراني مقلة عمياء

وقال : ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

وقال : بذى الغباوة من إنشادها ضرر ... كما تضر رياح الورد بالجعل

ونعود بعد إلى أبيات الهمزية ـ
بعد أن فصل ما فصله عن معجزة القرآن خلص إلى أمر أهل الكتاب . قوله

---

(١) راجع ترجمته في الأعلام للزركلي.

وإذا البينات لم تغن شيئا

مهد لـذكرهم لأنهم بغـوا من بعد ما جـاءتهم البينات، ورد ذكـر ذلك في القرآن في غير مـوضع ـ مثلا في سورة يـونس : «ولقد بـوأنا بنى اسراءيل مبـوأ صدق ورزقنـاهم من الطيبـات فما اختلفوا حتى جـآءهم العلم . . . . الآية» وفي سـورة الجاثية : وءاتينـاهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم . . . . الآية» .
ومهد لذلك بذكر عناد مشركي قريش ومن إليهم ـ قال :

فهى كـالحب والنـوى أعجب الـز	راع منـه سنـابـل وزكـاء
فأطـالـوا فيـه التردد والـريـ	ـب فقـالـوا سحـر وقـالـوا افتراء
وإذا البينـات لم تغـن شيئـا	فـالتماس الهدى بهن عنـاء
وإذا ضلـت العقـول على علـ	ـم فماذا تقـولـه النصحـاء

فسر قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» بأن المغضوب عليهم اليهود وبأن الضالين النصارى، وقد بدأ بهم الإمام البوصيرى ههنا :ـ

قوم عيسى عاملتم قوم موسى بالذى عاملتكم الحنفاء

ومن ههنا حمى البوصيرى بحماسة روح الجهاد .

صـدقـوا كتبكم وكـذبتـم كتـ	ـبهم إن ذا لبئـس البـواء
لـو جحدنـا جحـودكم لاستـوينـا	أو للحق بـالضـلال استـواء
مـالكم إخـوة الكتـاب أنـاسـا	ليس يـرعى للحق منكم إخـاء
يحسـد الأول الأخير ومـازا	ل كـذا المحـدثـون والقـدمـاء

وهذا من أبيات الحكمة، عميق الدلالة .
ثم فرع مـن هذه الحكمة نظـرات ضمنها إشـارات علمية وكـان رحمه الله غـزير العلم حـاضر المذاكرة لـه . وهو في إشـاراته مـن حيث المذهب الفني أشبه بأبي تمام منـه بأبي الطيب، لأن الغالب على طريقة أبي الطيـب ألا يشير أو يكون خفي الإيماء جدا فكأنه

لا إيماء فيه مثل قوله :

تخالف النـــاس حتـى لا اتفـــاق لهم … إلا على شجـب والخلـف في الشجـب
فقيـل تخلـص نفـس المرء ســـــالمة … وقيــل تشرك جســـم المرء في العطـب

ونحو: فإن يكن المهدي من بان هدية … فهذا والا فالهدى ذا فما المهدى

وقلما تكون إشارته بارزة نحو قوله :

أشمت الخلـف بـــالشراة عـــداهـــا … وشفـــا رب فـــارس من إيـــاد
وتـــولى بنى اليـــزيـــدي بـــالبصـــ … ـــرة حتـى تمزقـــوا في البـــلاد
وإذا كـــان في الأنـــابيب طيش … وقـع الخلـف في رؤوس الصعـــاد

وإشارات أبي تمام معروفةمن مذهبه نحو :

فإذا ابـن كـــافـــرة يسر بكفـــره … وجـــدا كـــوجـــد فـــرزدق بنـــوار
وإذا تـــذكـــره بكى فكـأنــــه … كعب زمـــان بكى أبـــا المغـــوار

واتبعه ابو العلاء وأكثر من ذلك ، وأجوده ما في سقط الزند نحو:

واني تيممت العراق لغير ما … تيممه غيلان عند بلال

ولم يكن غيـلان من مشـاهير المداحين وإنما كـان مفتنـا في تصـويـر الجمال وفي أساليب الاستعارة والتشبيـه وقد مر بعض الحديث عن ذلك وإنما أخـذ أبو العلاء من قول حبيب :

ما ربع مية معمورا يطيف به … غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

وكان لحبيب بغيلان ولع وله منه في مذهبه أخذ كثير.

أشار البوصيري أول شيء إلا أمر ابني آدم عليه السـلام ثم إلى أبناء يعقوب عليه السلام :

قد علمتم بظلم قابيل هابيـ ـل ومظلوم الأخوة الأتقياء

بنقل كسرة الهمزة إلى لام الإخوة ويشير إلى آية المائدة «إنما يتقبل الله من المتقين»

وسمعتم بكيد أبناء يعقو ب أخاهم وكلهم صلحاء

إذ ركبوا ما ركبوا من الظلم وهم أحداث وقد هموا بقتل أخيهم فنهاهم كبيرهم فيما رووا في تفسير «قال قائل منهم . . . . الآية» وعند من ذكر ذلك أنه روبيل. وقد، اعترفوا بالخطأ واستغفر لهم يوسف واستغفر لهم أبوهم عليهم السلام. وأشار بقوله «وسمعتم بكيد إلخ» إلى الآية : «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» [سورة يوسف]

حين ألقوه في غيابة جب ورموه بالإفك وهو براء

ولو قلت في "غيابات" جب لاستقام الوزن وجاء بها البرعي في قوله :

فإن أنست غيابات الفؤاد بهم فهم أحباب قلبي يا غيابات

وغيابات قراءة نافع في السورة وقال رموه يعني امرأة العزيز وقومها معها قال تعالى : «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين». ويجوز أن يكون نسب الرمي إلى إخوته لأنهم تسببوا فيه بفعلهم إذ ألقوه في غيابة الجب أو الإفك أنهم : «قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» [يعنون يوسف] «فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون».

فتأسوا بمن مضى إذ ظلمتم فالتأسي للنفس فيه عزاء
أتراكم وفيتم حين خانوا أم تراكم أحسنتم إذ أساءوا

أي اعتبروا يأيها الذين أوتوا الكتاب بما تتلون من مواعظه، هل تفعلون كفعل قابيل وقد تعلمون أنه قد ظلم، أم تفعلون كفعل إخوة يوسف وقد تعلمون أنهم قد أساءوا قبل أن يستغفر لهم، فهل ترون أنكم أوفياء وأنكم لم ترتكبوا سوءا؟

بل تمادت على التجاهل آبا ء تقفت آثارها الأبناء

أي آباؤهم الذين لم يؤمنوا حين دعاهم داعي الهدى للإيمان.

بينتــه تـــوراتهم والأنـــاجيــــــل وهم في جحــــودهم شركـــــاء

أي اليهود والنصـارى يجحدون نبوة محمد صلى اللـه عليه وسلم وقد بينتـه التوراة والأناجيل ومـا جاء البوصيري بـالجمع خطئا أو وهما، فهـو يعلم أن خبر عيسى عليه السـلام وما وصى بـه بني اسرائيل ممـا أوحى الله إليـه تعـددت رواياتـه، وقد اعتمـد النصارى الملكانيون ومن حـولهم أربعة أناجيل هي متى ومرقس ويوحنـا ولوقا وأنكروا انجيل برنابا وفيه أن المسيح لم يصلب وقد أنكرت اليهود الأناجيل كلها ولهم كتاب عن المسيح الذي ينتظرونه ينكره النصارى فتأمل.

إن تقـــولـــوا مـــا بينتــــه فما زا لــت بها عن عيـــــونهم غشـــــواء

أي هذه الإنكارة منهم لا تزول بها الغشاوة التي على أبصارهم

أو تقـــولـــوا قـــد بينتــــه فما للـــــأذن عما تقــــولــــه صماء

هذا يقال لـه في المنطق قياس الإحراج، إذ لا بد من أحد الأمـرين. وهم يقولون إن ثم بيـان نبي منقذ من عنـد اللـه يأتي، قال ذلـك أنبياء بني اسرائيل وعيسى عليـه السلام، فما قالـه موسى عليه السلام ومن بعـده وما قاله إبراهيـم عليه السلام من قبل تأولوه عيسى وإن كان لا ينطبق عليـه، وما قاله عيسى لم يتأولـوه محمدا ولكن التمسوا له وجهـا لا يخرجه عن عـودة عيسى، ويأبى رين الأهـواء إلا أن تطغى غاشيـة صدئه فتعمى لها القلـوب. وصلى الله على أنبيـائه الأبـرار فما البشارة التي بشروا بها عن نبينـا صلى الله عليه وسلم بباطل.

عـــــرفـــــوه وأنكـــــروه وظلما كتمتــــه الشهـــــادة الشهـــــداء
أو نـــور الإلــــه تطفئـــه الأفـــــواه وهـــو الـــذي بـــه يستضـــاء
أو لا ينكــــــــــــرون مـن طحنتهـم بـــرحـــاهـــا عـن أمـــره الهيجـــاء
وكســـاهم ثـوب الصغـــار وقـد طلـــــت دمـــــاء منهم وصينـت دمـــاء

أما طحن الهيجاء لهم فما كان من هلاك يهود وإجلائهم وما كان من هزيمة الروم وجلائهم وأمـا الصغار فما كتب الله عليهم من الجزيـة. قال تعالى: «قاتلـوا الذين لا

يؤمنون باللـه ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسـوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهـم صاغرون» .

كيف يهدي الإلـــه منهم قلـــوبـــا   حشـــوهـــا مـن حبيبـــه البغضــــاء

وصدق رحمه الله . ثم أخذ في محاجـة أهل الكتاب ، وسبق أن استشهدنا ببعض ما يلي من قبل .

خبرونـا أهل الكتـابين من أيـن أتـاكم تثليثكم والبَـداءُ

وذلك أن اليهود تزعم أن اللـه بدا له في كذا وندم على كذا ، سبحـانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

مـــا أتى بـــالعقيـــدتين كتـــاب   واعتقـــاد لا نص فيـــه ادعـــاء

هـذا أصل ، وهو أن العقـائد عن وحي فما قيل واعتقد ولم يكن ورد بـه نص من وحي أو كتاب منزل فهو دعوى باطل .

والـدعـــاوى مـــا لم تقيمـــوا عليهـــا   بينـــــات أبنـــاؤهـــا أدعيـــاء
ليت شعـــري ذكـــر الثـلاثـــة والـــوا   حـــــد نقص في عـــــدكـم أم نماء

أي أنقص أم نماء ، حذف الهمزة لظهور المعنى وعليه قول ابن أبي ربيعة :

ثـم قـــالـــوا تحبهـــا قلـت بهرا   عـــــــدد النجـم والحصـى والتراب

وزعم بعضهم أن عـدد النجم ليس بكثير إنما هو بضعـة آلاف . ولعمري لـو قد قال ألفا مكان بهرا لكان عددا كثيرا .

كيف وحـدتمو إلها نفى التـوحيـد عنـه الآبـاء والأبنـاء

والحجة قائمة بالرغم من قولهم ثلاثة في واحد . وزعم ابن عربي في بعض ما زعم أن أول العـدد الثلاثـة فأوشك رحمه اللـه أن يزل . أتي من المقـدمـة الخامسة في كتـاب

الشهرستاني وقد أحجم الناس عن شرحها . والذي فيها خلاصته أن الأعداد أجناس وتبويب للأمور لا حقائق في ذواتها ويؤيد ما ذهب إليه أشياء في معادلات الرياضيات لا يمكن تأويلها إلا على هذا الوجه . وفي كتاب الشهرستاني في المقدمة المذكورة وفي ترجمة إبراهيم النظام أشياء من باب الرياضيات وعلوم الآليات مذهلة وتفصيل شرحها واجب وعسى أن تكون فيه غير ما ذكرنا مواضع يوقف عندها عدد .

أإلـــه مـــركـب مـــا سمعنـــا   بـإلـــه لـــــذاتـــه أجـــزاء

الأب والابن والروح القدس وأضيف إلى هؤلاء بآخرة الأم العذراء، وفي الطبعة الأولى للقاموس المنجد في شرح العذراء أنها أم الإله المتجسد فتأمل .

ألكم منهم نصيب من الملـــــــ   ـــك فهـــلا تميـــز الأنصبـــاء
أتــــراهـم لحاجــــة واضطـــرار   خلطـــوهـــا ومـــا بغـى الخلطـــاء

في هذين البيتين مع الإشارة القرآنية ـ إذ يشير إلى قوله تعالى : «وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» . ـ مع ذلك أنفاس من بيئة حياة الريف المصري فإن الطين يورث ويختصم عليه وفيه قضايا الإفراز التي بغيرها يطول اشتباه الأمور وتضيع الحقوق للغالب من بغي الخلطاء بعضهم على بعض .

أهـــو الـــراكـب الحمار فيـــا عجـــ   ـــز إلــــه يمســــه الإعيـــاء

إذ لو صح أنه إله لبطل أن يمسه تعب وأن يحتاج إلى ركوب الحمار، ولا يمكن أن يعتذر لذلك أو يفسر بأنه على وجه الهداية، إذ لما أراد الله أن يتجلى بألوهيته للبشر نزل بينهم في صورة بشر، إذ هو قادر سبحانه على أن يرسل إليهم بشرا رسولا. ثم أن يحمل الحمار إلها مشكل، إلا أن نزعم حلول الإله في الحمار تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وبهذا حجة البوصيري :

أم جميع على الحمار لقـــد جـل حمار بجمعهم مشـــاء

أي الثلاثة

أم سـواهم هـو الإلـه فما نسبـة عيسى إليـه والانتماء

أي أنه لا بد من تقدير إله مدبر غير عيسى والثالوث الذي معه، إذ من كان إله الكون ومدبره في اللحظة التي مات فيها يسوع وهذا اسم عيسى عندهم؟ إذن لا بد أنه للكون إلـه دبره في تلك اللحظة. وإذ هـو غير يسوع، فما نسبة يسوع ومـا انتماؤه إليه؟ براءة لسيدنا عيسى عليه السلام مما يصفونه به، قال تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قـال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

وقد جـاء البوصيري بالحجـة التي أدلى بها ههنا بتفصيل وتوضيح أكثـر في لاميته المنصوبة من الكامل التي أولها:

جـاء المسيح مـن الإلـه رسـولا ... فـأبى أقـل العـالمين عقـولا

وسنذكر منها بعد يسير إن شاء الله؛ ثم يقول البوصيري رحمه الله:ـ

أم أردتم بها الصفـات فلم خصـ ... ـصت ثـلاث بـوصفـه وثنـاء
أم هـو ابن للـه مـا شـاركتـه ... في معـاني البنـوة الأنبيـاء

أي هذا التثليث لا يمكن التعبير عنه بأنه صفـات إذ صفات الله عز وجل أكثر من ذلك وليست هي بذاته فيضاف إليهـا ما أضفتم من معاني التركيب والحلول. ومن حمل البنوة على معنى المجاز لزمه أن يعمم فيجعل كل الناس بنين لله سبحانه وتعالى، فالزعم بمجازية منفردة مخصصة به وحده باطل.

قتلتـه اليهـود فيما زعمتم ... ولأمـواتكم بـه إحيـاء

هذا ما وضحه أبو الطيب حيث قال:

ويستنصران الـذي يعبـدان ... وعنـدهما أنـه قـد صلب
ليـدفـع مـا نـابـه عنهما ... فيـا للـرجـال لهذا العجب

وأخذه المعري فقال :

وقـــد زعم النصـــارى أن عيسى تــــوختـــه اليهـــود ليصلبـــوه
ومـــا أبهوا وقـــد جعلـــوه ربـــا لكيـــلا ينقصـــوه ويجدبـــوه

أي وما فطنوا ليتجنبوا نسبته إلى مـا يعيبه وينقص من قدره بهذا الذي زعموه من قتله وصلبه. وفي الطبعة المصورة حديثا من اللزوميات :

وقـــد أبهوا وقـــد جعلـــوه ربـــا لكيـــلا ينقصـــوه ويجدبـــوه

وهذا تحريف كأن الذي دسه أراد أن يبرر به عقيدة النصارى، وليس هذا التغيير بمغير في المعنى من شيء إذ يصير المعنى عليـه وقـد فطنـوا ليجنبوه العيب والنقص بـالـذي نسبـوه إليه من القتل والصلب فجعلـوه ربا، كأن دعـوى الربـوبية تستر هـذا العيب وليست بساترته. فتأمل.

قتلتـــــه اليهـــــود فيما زعمتـم ولأمـــــواتكم بـــــه إحيـــــاء
إن قـــولا أطلقتمـــوه على اللـــــــه تعـــالى ذكـــرا لقـــول هـــراء

وهذا فصل ختم به الهجوم على النصارى ثم أخذ في مناقشة اليهود

مثل مـــا قـــالت اليهـــود وكل لـــزمتـــه مقـــالـــة شنعـــاء
إذ هم استقـــرئوا البـــداء وكم سـا ق وبـــالا إليهـم استقـــراء
وأراهم لم يجعلـــوا الـــواحـــد القهـــــهار في الخلق فـــاعـــلا مـــا يشـــاء

مثلا في الأصحاح السادس من سفر التكوين من عند أوله كما في الترجمة التى أصدرتها دار الكتاب المقدس طبعة كوريا سنـة ١٩٧٦ ص ١٠ ـ ١١ : «وحدث لما ابتدأ الناس يكثـرون على الأرض وولد لهم بنـات، أن أبناء اللـه رأوا بنـات الناس أنهن حسنـات. فاتخذوا لأنفسهم نساء مـن كل ما اختاروا. فقال الرب لا يـدين روحي في الإنسان إلى الأبد لـزَيغانه هـو بشر وتكون أيامـه مئة وعشرين سنة. كـان في الأرض طغاة في تلك الأيام و بعد ذلك أيضا إذ دخل بنو اللـه على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم.

ورأى الرب أن شر الإنسـان قد كثر في الأرض وأن كل تصـور أفكار قلبه إنما هـو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن

وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.»
والشاهد أن لله بنين كآلهة اليونان الوثنيين. وأنه كان في الأرض طغاة كما يبدو ليسوا في طاعة الله ولعلهم بل هو الظاهر أنهم ليسوا من خلقه. ثم حزن الله وندمه لأنه عمل الإنسان ـ فهذا أمر بدائى وثنى كما ترى.

جوزوا النسخ مثلما جوزوا	المسخ عليهم لو أنهم فقهاء
هو إلا أن يرفع الحكم بالحك	م وخلق فيه وأمر سواء
ولحكم من الزمان انتهاء	ولحكم من الزمان ابتداء
فسلوهم أكان في مسخهم نس	خ لآيات الله أم إنشاء

أى إذ رووا جواز المسخ كمسخ الحية فمشت على بطنها بعد أن «كانت أجمل حيوانات البرية التى عملها الرب» [الأصحاح ٣] ـ فإذا كان المسخ جائزا فإن النسخ جائز وهم ينكرون علينا النسخ وما النسخ إلا رفع حكم بحكم آخر. فهو نسخ أمر بأمر آخر من تصريف الله. كما أن المسخ رفع هيئة وخلق بخلق آخر. سلوهم هل المسخ الذى أوقعه الله تعالى أهو نسخ لآيات الله التى سبقت بصنعه ما صنع أم إنشاء جديد أنشأه؟ أيما القولين قالوه ألزموا به قبول النسخ. قوله هو إلا أى هو سواء إلا إلخ كما مر التفصيل.

أو ما حرم الإله نكاح الـ	أخت بعد التحليل فهو الزناء

أى إن كان الذي سبق من نكاح الأخوات على عهد آدم ومن بعد قبل التحريم حلالا فالتحريم نسخ وان لم يكن حلالا فقد كان زناء وهذا محال إلا أن يقوله زنديق، وينسب إلى المعرى، وما أشبه أن يكون افتراء عليه؛ أنه قال فيما قاله من شعر «وان جميع الناس من طينة الزنا»

لا تكذب إن اليهود وقد زا	غوا عن الحق معشر لؤماء

قوله: وقد زاغوا عن الحق يعنى نقضهم ميثاقهم، وجهلاء اليهود يحسبون أن الأمر عنصرية أو قبلية وأن الله كأنه رأس قبيلتهم، وكلام أنبيائهم يدل على خلاف هذا، لأن الله معهم ما داموا على الميثاق. قال تعالى: « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم» وقال تعالى: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم»

جحـــدوا المصطفـى وآمن بـــالطـــا غـــوت قـــوم هم عنـــدهم شرفـــاء

وذلك أن حيى بن أخطب وصحبه فضلوا لقريش شركهم على الإسلام والتوحيد « ذلك بأنهم قالوا ليس علينـا فى الأميين سبيل» ـ قال تعالى: «ألم تر إلى الـذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلا»

قتلـــوا الأنبيـــاء واتخذوا العجـــ ـــــل ألا إنهم هم السفهـــــاء

انظر إلى الاقتباس القرآني ويسره

وسفيـــه من ســـاءه المن والسلـــ ـــوى وأرضـــاه الفـــوم والقثـــاء

نهج البوصيرى نهج الحارث في الخصومة وإحكام الجدل، إلا أنه لم يجعله كسلم يصعد على درجه إلى مـا يقول، أو مغترفا يأخـذ منه بـاحتيال وتوليـد. بل على اقتدائه بمنهج الحارث الجدلى خالفه في أمر هام، وهو أنه آثـر الهجوم على الدفاع. وقد أخذ الجاحظ على الحارث فرط دفاعه حتى كأن قومه لا ينتصفون من تغلب. وما أرى إلا أن الحارث تعمد هذا ليكون الملك إلى جانب قومـه، وهذا أدخل في باب الدهاء، ولئن صح خبر قتل عمـرو بن كلثـوم عمرو بن هنـد، فإن الحارث يكـون قـد انتصف لقومـه في مجال السيـاسـة والكيـد بـالذى قـالـه. وقـد كـانت بكـر هي التى أجـارت آل ملك الحيرة وانتصفت من فارس في يوم ذي قار وإنما آثـر البوصيرى منهج الهجوم ونفسه لأن ذلك كان أشبه بموقف فروسيته البيانية المجاهدة.

فى البردة سلك نهجا غنائيا في نقد النصـارى وفي تفضيل الإسلام والتنويه بفضل رسول الله صلى اللـه عليه وسلـم والمنهج الذى في الهمـزية خطابـى محتدم. والغنـاء بعد لا ينفصم عن الشعر لما فيه من الإيقاع وهذا أمر قـد قدمنا ذكره، كما قد سبق الاستشهاد بجانب من أبيات البردة المشار إليها هنا وهى قوله رحمه الله:

محمـــد سيـــد الكـــونين والثقليـــ ـــن والفـريقين من عـــرب ومن عجم

نبينـــا الآمـــر النـــاهـي فـــلا أحـــد أبـــــر فى قـــــول لا منـــــه ولا نعم

هـــو الحبيب الـذى تـــرجي شفـاعتـــه لكل هــــول من الأهـــــوال مقتحم

دعـــا إلى اللـــه فـــالمستمسكـــون بـــه مستمسكــــــون بحبل غير منفصـم

كان أهل الاعتقـاد فى بركة البردة المبـاركة لا يشكـون أنك إذا أنشدت هذا البيت ثـلاثا وأنت تريد عبور النيل، لم يفتك المركب ولو في أيام الفيضان.

فـــاق النبيين في خلـق وفي خلـق ولم يـــدانـــوه في علم وفي كـــرم
وكلهم مـن رســـول اللـــه ملتمس غـرفـا من البحـر أو رشفـا من الـديم

اللفظ هنا رشيق لمزاوجتـه قولـه «غرفا مـن البحر» بقولـه « رشفا من الـديم»، والغرف ينـاسب البحر وأهل النيل يعـرفون ذلك والـرشف ينـاسب الديم عقـلا ولكن قل من يعترض المزن يرشف من قطراته ـ على أن المعنى الذى رامـه الشاعر من المناسبة والعموم حسن، وليس الرشف من الديم بأبعد من قول ذي الرمة:

فيها الضفادع والحيتان تصطخب

ومن قول زهير:

على الجذوع يخفن الغم والغرقا

عند من أخذ عليهما ذلك ولا نقول به.

وواقفـــون لـديـــه عنــد حــدهم من نقطـة العلم أو من شكلـة الحكم

لا يخفى حسن الاستخدام في النقطة والشكلة

فهـــو الـــذى تم معنـــاه وصـــورتـــه ثم اصطفـــاه حبيبـــا بـــارىء النسم

بنى البوصيرى هذا التفضيل على مـا تقدم ذكره من قبل من حديث الشفـاعة يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وعلى ما وعـده الله عز وجل« مقامـا محمودا »وعلى حديث ابن حنبل رضى الله عنـه المروي بسنده إلى عرباض رضى اللـه عنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

منـــزه عـن شريـك في محاسنـــــه فجـــوهـــر الحسن فيـــه غير منقسم

إذ هو حسن خَلْقٍ وخُلُقٍ

دع مـــا ادعتـــه النصـــارى فى نبيهم واحكم بما شئت مـدحـا فيـه واحتكم

لما قـال منـزه عن شريك خشى أن يظن بـه الغلـو غير الحق وإنما عنى شركـة الأشبـاه والنظائر من البشر مثله، فدفع كل شبهة بقوله« دع ما ادعته النصارى»، ومع أن ههنا خفي جدل وخصومة لمذهب النصارى بقوله دع إلخ، فيه مع ذلك انصراف إلى التغنى والإعراض عن قصـد المجادلة، أيضا ذلك يستفـاد من قوله: دع إلخ كما يستفـاد منه نفى كل شبهة أو إشعار بتأليه وقدسية فوق ما ينبغى أن يكون للبشر.

وانسب إلى ذاتـــه مـــا شئت من شرف وانسب إلى قـــدره مـا شئـت من عظم
فإن فضـل رســـول اللـــه ليس لـــه حـــد فيعـــرب عنـــه نـــاطـق بفم

لــو نــاسبـت قــدره آيــاتـــه عظـما أحيـا اسمـه حين يـدعى دارس الـرمم

لا ريب أن آياتـه ناسبت قـدره، وحسبنا معجزة القـرآن إلا أن المعني الذي قصـد إليه حسن، إذ يلمح فيـه معني أنه لا ينبغي أن يعـد إحياء الموتى درجـة ميز بها غيره عليـه صلى الله عليه وسلم. أما زعمنا المنـاسبة فإن معجزة كل نبي، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، تشابـه ما برز فيه أهل زمانه، فموسى عليـه السلام قهر أهل السحر وعيسي عليه السلام أعجز الأطباء وكان أهل زمانه برعوا في الطب ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى البلغاء اللـد فبهرهم وقهـرهم. على أن مراد البوصيري أن منـاسبة معجـزاته كانـت على أقدار من أرسل إليهم وقـدره صلي الله عليـه وسلم فوق كل مقـدار. والله تعالي أعلم.

أعيـا الـوري فهم معنـاه فليس يـرى في القــرب والبعــد منــه غير منفحم

كــالشمس تظهــر للعينين من بعــد صغيرة وتكـل الطــــرف مـن أمـم

أي من قرب

وكيف يــدرك في الــدنيــا حقيقتــه قــوم نيـام تسلــوا عنــه بــالحلم

هل أراد رحمه الله بهذا قـول من كانوا يذكـرون رؤيته صلى الله عليه وسلم ويبـاهون بها على طريق التصوف؟

المعني أن حقيقة الـرسول صلى اللـه عليه وسلم في خلقـه العظيم ومقامـه الجسيم وما خبأ الله له من الشفاعة وما أعطاه في أم الكتاب من المجد وما أشرب القلوب من محبته وألـزم أهل اليقين من التزام شرعـه وصدق الإيمان بما أنـزل إليـه ـ فهـذا لا بد معـه من التقوى والعلم الذي يعلمه الله بها من يتقيه، وذلك لا يدرك في منام ولا بأحلام ـ على أن الرؤيا الصـادقة جزء من أربعين جزءًامن النبـوة، وليست الرؤيا الصادقـة من باب محض أحلام المنام، فأحسب أن هذا قد يدخل فى مراده رحمه الله، والله أعلم.

فمبلـغ العلم فيــــه أنــــه بشر وأنــــه خير خلق اللـــــه كلهـم

هـذا بيت القصيد، ومحتـو على حجة على القـائلين بألوهيـة عيسي عليه السـلام وبأن عـزيرا ابـن الله تعـالى اللـه عن ذلك. ثم أخـذ رحمه الله من بعـد في رجعـة إلى معنى الشفاعة والمقام المحمود ثم إلى تغن خالص محض عذب.

وكل آي أتي الـــرسـل الكــــرام بها فـإنما اتصلـت مـن نــــــــوره بهم

هذا في معنى البشارة ويلابسه معني عالم الذر وما سطر في أم الكتاب

فإنــه شمـس فضل هم كـــواكبهــا يظهــرن أنــوارهــا للنـاس في الظلم

هل أراد رحمه الله بهذا قول من كانوا يذكرون رؤيته صلى الله عليه وسلم ويباهون بها على طريق التصوف؟
المعني أن حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم في خلقه العظيم ومقامه الجسيم وما خبأ الله له من الشفاعة وما أعطاه في أم الكتاب من المجد وما أشرب القلوب من محبته وألزم أهل اليقين من التزام شرعه وصدق الإيمان بما أنزل إليه ـ فهذا لا بد معه من التقوى والعلم الذي يعلمه الله بها من يتقيه، وذلك لا يدرك في منام ولا بأحلام ـ على أن الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءًامن النبوة، وليست الرؤيا الصادقة من باب محض أحلام المنام، فأحسب أن هذا قد يدخل فى مراده رحمه الله، والله أعلم.

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

هذا بيت القصيد، ومحتو على حجة على القائلين بألوهية عيسي عليه السلام وبأن عزيرا ابن الله تعالى الله عن ذلك. ثم أخذ رحمه الله من بعد في رجعة إلى معنى الشفاعة والمقام المحمود ثم إلى تغن خالص محض عذب.

وكل آي أتي الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

هذا في معنى البشارة ويلابسه معني عالم الذر وما سطر في أم الكتاب

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

كان المسلمون يعلمون من أمر الهيئة كثيرا وعنه أخذ الآخذون ممن يدعي لهم السبق في هذا المجال مثال كوبر نكس البولندى

أكرم بخلق نبي زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف ... والبحر في كرم والدهر في همم

وهذا التقسيم جيد، إلا أن قوله والدهر في همم دون الأقسام الثلاثة التي قبله وأتي فيه والله أعلم من جهة النظر إلى أبي الطيبٰ فى نحو قوله

تجمعت في فؤاده همم ... ملء فؤاد الزمان إحداها

فعلى هذا المعني يمكن توجيه قوله. والزهر المترف والبدر ذو الشرف والبحر الغيداق كل أولئك من طبيعة النيل، ولك أن تقول فالدهر اختلاف الفتيين (أي الليل و النهار) وذلك أيضا من طبيعة النيل لعل الذى جاء به هو الوجه الجيد، ووجوه القول أحيانا مما تشتبه وتلتبس ومهما يكن فهذا التقسيم المليح خاتمة حسنة لهذا الفصل من

قوله فانتقل منه إلى وصف مجلسه عليه الصلاة والسلام ثم حديثه ثم ذكر قبره الشريف فجعل وفاتـه صلى الله عليـه وسلم مدخـلا لذكر مـولده ومـا كان معـه من معجزات وإرهاصات

كأنـــه وهـــو فـــرد في جـــلالتـــه — في عسكـــر حين تلقـــاه وفي حشم
كأنما اللـــؤلـــؤ المكنـــون في صـــدف — من معـــدني منطـق منـــه ومبتسم
لا طيب يعـــدل تـــربـــا ضم أعظمـــه — طـــوبى لمنتشـق منـــه وملتـــم

وإنما أوردنا أبيات البردة هذه بمعرض الحديث عن أسلوبه في الجدل، ولا تتم لنا صورة واضحة عن مقدرة البوصيرى في هذا الباب إن لم نشر ولو قليلا إلى لاميته.

جـــاء المسيح مـن الإلـــه رســـولا — فـأبى أقـل العـــالمين عقـــولا

وهى من روائع هذا الحرف، ينبغى أن يجعل لها مكان مع:

مـــا بـــال دفك بـــالفـــراش مـــذيـــلا

ومع:

في الخد أن عـــزم الخليـط رحيـــلا

وفيها مع الرصانه التى وهبها اللـه البوصيري رحمه الله نفسه الطويل من غير ضعف أو إسفاف، وذلك أمـر قصر عنه مقدرة على بن العبـاس على رسوخ قدمه فى البـلاغة ولم يتهيأ إلا قليلا لابن دراج وبعض فحـول أندلس. وأبياتها نيف وتسعون ومـائتان. ولنا إلى أمر هذا الطول عودة إن شاء اللـه. وإذ نحن بصدد الحديث عن البوصيري ومكانه بين مداح الرسـول صلى الله عليه وسلم، ولايتسع مكان هـذا الفصل من هذا الكتاب لإيفاء الحديث عنـه، فعسي أن يحسن ذكر شيء منها، هـو من باب ما تقـدم من أمر احتجاجه للإسلام ودفعه دعاوى أهل الكتاب خاصة وأهل الكفر عامة.

وقـد ألف بعض فضـلاء العصر من مسلمـي الهنـد وبـاكستـان وغيرهما ومن مسلمي العرب فصولا حسنة في هذا المعني. ولعله لو انتبه منهم منتبه إلى هذه القصيدة أن يجد فيها كنـوزا وروائع. ولا بد لإنصافها من إيرادهـا كلها مع الإشارات والشروح الـوافية وذلك ما لا نستطيعه في هذا الموضع. ولم تشتهر هـذه القصيدة اشتهار البردة والهمزية لما تضمنته من علـوم أهل الكتاب، فكان بعض العلماء ربما نفـروا من ذلك لما عندهم من أن كتب أهل الكتب شـاملها التحـريف وأن ينقبض عنها المسلم أفضل. والـذى مضي عليـه الإمـام شرف الـدين أدخل في بـاب البحث والتحقيق. ومـا أشك أن من تناولوا الموضوعات التى طـرقها من مستشرقي أهل الكتاب ومن إليهـم لم يخلوا من قصد الرد عليه ومن حاق الانتفاع بما أورده. وفضلاء المسلمين وعلماؤهم أولى بأن يغترفوا من

هـذا البحـر الخضم العجـاج . ونكتفي في هـذا الموضع بإيـراد أمثلـة من منهج هـذه القصيدة ومحاسن أدائها ومعارفها ثم نعود بعد إلى مـا كنا فيه من أبيات الهمزية إن شاء الله تعالي :

بدأها بمجاهـرة النصاري بالخصومة ، وقد سبق التنبيـه على أن ذلك كان زمان حروب الصليب فمما نختاره مما قال في ذلك من عند أولها :ـ

جــاء المسيح مـن الإلــه رســولا — فـأبى أقـل العـالمين عقـولا
قـوم رأوا بشرا كـريما فـادعـوا — من جهلهـم للـه فيـه حلـولا
أسمعتـم أن الإلــه لحاجــة — يتنـاول المشروب والمأكـولا
ويمســه الألم الـذي لم يستطع — صرفـا لـه عنـه ولا تحويـلا
يـا ليـت شعـري حين مـات بـزعمهم — من كـان بـالتـدبير عنـه كفيـلا

إن قالوا دبره أبوه فقد جزئوا الإله وقالوا بألوهية غيره

هل كـان هـذا الكـون دبـر نفسـه — من بعـده أم آثـر التعطيـلا

التعطيل هو عدم الإله وهو مذهب الملاحدة

شهـد الـزبـور بحفظـه ونجـاتـه — أفتجعلـون دليلـه مـدخـولا
أيكـون مـن حفظ الإلـه مضيعـا — أو مـن أشيـد بنصره مخذولا
ومضـى بحمل صليبـه مستسلما — للمـوت مكتـوف اليـدين ذليـلا

يشير بقـولـه « أيكون مـن حفظ الإله مضيعـا » إلى مـزامير داود فمنهـا (١٨) رقم ٥٠ «الصـانع رحمة لمسيحـه لداود ونسلـه إلى الأبد» في النص الانجليـزي نص نسخة الملك جيمز ... and showeth mercy to his anointed ففسروا المسيح من مسـح الملك بـالزيت وكـان المسيح عليـه السلام من نسـل داود والمسيح في النص المتقدم هـو داود نفسه عليه السلام وفي ٢٠ رقم ٦ : "الآن عـرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل أما نحن فاسم الرب الهنا نذكر" . ومعني المسيح كما في الطبري الممسوح بـالدهن ، هذا من بعض ما فسروا بـه المسيح في آيـات القـرآن . أيضا في النص الانجليـزى وهـو أدق وأقـدم من الترجمة المتقدمة Now know that the Lord anointed; he will hear him from his holy heaven with the saving strength of his right hand. Some trust in

chariots, and some in horses: but remember the name of the Lord our God.

ضل النصـــارى في المسيح واقسمـــوا لا يهتـــدون إلى الـــرشـــاد سبيـــلا

ثم اليهود يقول فيهم:

والعـــابـــدون العجـل قـــد فتنـــوا بـــه ودوا اتخاذ المرسلين عجـــــــــولا
فـإذا أتت بشرى إليهـم كـــــذبـــوا بهوي النفـــوس وقتلـــوا تقتيـــلا
أبنـــــاء حيـــــات ألم تـــــر أنهم يجدون تـــريـــاق السمـــوم قتـــولا

وترياق سم الكفر هو الإسلام وهو القرآن وقـد أبوه إباء. وقوله أبناء حيات من كلمات سيدنا يحيى عليه السلام. والنص الذي اطلع عليه البوصيري من الانجيل أجود عربية من النص العصري وفي هذا في انجيل متى ٣ رقم ٧ والقصـة عن يوحنا المعمـدان وهو سيدنا يحيى صلـوات الله عليه «فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصـدوقيين يأتون إلى معموديتـة قال لهم يا أولاد الأفـاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي.» وفي نص انجيل الملك جيمز But when he saw many of the Pharisees and Saducees come to his baptism, he said unto them, O generation of vipers, who hath warned you to flee from the wrath to come?

وقوله أبناء حيات سب لهم لما سبق من فسـاد الحية ولا تلد الحية إلا حية في معنى الشر والسموم. ورهط الفريسيين والصدوقيين من متحذلقي يهود بمظهر العبادة وقد شحنوا نفاقا

وكفـــاهمو أن مثلـــوا معبـــودهم سبحـــانـــه بعبـــاده تمثيـــلا

ثم أخذ يضرب الأمثلـة لذلك كما ضرب الأمثلة مـن قبل في أمر النصارى، وقـد أوردنا نماذج من قوله وهو أكثر تفصيلا وأشمل وأدل على تبحر وعظيم اطلاع:

وبأنهم دخلـــوا لـــه في قبـــة إذ أزمعـــوا نحـو الشـآم رحيـــلا

يشير إلى سفر الخروج ٣٣ رقم ٧ «وأخذ موسى الخيمة ونصبهـا له خارج المحلة ودعاها خيمـة الاجتماع» — الضمير له يعـود على الخالق سبحانـه وتعالى عن ذلك علـوا كبيرا والعرب تسمى الخيمة قبة ـ قال النابغة:

أصـــم أم يسمـــع رب القبـــــــــــــــــة
يـــــا أوهـب النـــــاس لعنس صلبـــــة
ضرابـــــــة بـــــالمشفـــــــر الأذبـــــة

يشير بهذا إلى اسمه اسرائيل أنه من صراعه إيل وهذا الذي صنع فيه المثال ابستين تمثاله الذي سماه يعقوب والملاك Jacob and the Angel وفي التكوين ٣٢ رقم ٢٤ إلى ٢٩ :ـ «فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له ما اسمك فقال يعقوب، فقال لا يدعي اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله وقدرت. وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنئيل قائلا لأني نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسي. وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه إلخ» والشاهد قول الخبر: "لأنك جاهدت مع الله وقدرت" وهذا في الترجمة أغمض مما ذكر البوصيري أنه صارع ربه ورمى به، والذي جاء به البوصيري هو عينه الذي في النص الانجليزي ـ رقم ٢٨

And he said, Thy name shall be called no more Jacob, but Israel: for as a prince hast thou power with God and with men, and hast prevailed -

أي من حيث كونك أميرا لك قوة مع الله ومع الناس ـ أي تقوى على الناس وكذلك تقوى على الله وهذا شرح للرمز أن الذي صارعه يمثل الإله والبشر معا وقوله hast prevailed أي تغلبت وهذا هو المعنى الذي جاء به البوصيري

والذي يدل على أن الذي صارعه هو ربه قوله فدعا يعقوب المكان فنئيل ــ أي وجه الله.

وبأنه من أجل آدم وابنه ضرب اليدين ندامة وذهولا
وبدا له قوم نوح وانثنى أسفا يعض بنانه مذهولا

وقد مر الحديث في البداء ـ ثم ذكر بعض ما حرفه اليهود على أنبيائهم:

لم ينتهوا عن قذف داؤد ولا لوط فكيف بقذفهم روبيلا

إذ زعموا أن داود أرسل زوج الجميلة لميدان القتال حتى قتل وكان خالفه إلى زوجته وهي عندهم أم سليمان وأن سليمان هكذا لغير رشدة (صموئيل الثاني ١١ ــ وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثى فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة........»

وتمضي القصة فيرسل داود زوج المرأة في وجه الحرب الشديدة حتى مات وكان هذا قصده فتأمل (انظر ص ٤٦٦ ـ ٤٦٩) من رقم ٢ إلى رقم ١٧ .
وأما قذفهم لوطا فزعمهم أنه أحبل بنتيه وهو ثمل، أحبل الكبرى ثم أحبل الصغرى وذلك أنهما ائتمرتا وخافتا أن ينقطع نسل أبيهما وذلك بعد هلاك قوم لوط وخراب دورهم ـ «التكوين ١٩ رقم ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ وهو آخر الاصحاح التاسع عشر ـ من ذلك فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . . . . إلى قوله . . . وقامت الصغيرة واضطجعت معه إلخ»
وأما قذف روبيل وهو كبير أبناء يعقوب عليه السلام فزعموا أنه فسق بسرية أبيه وهي له أي لأبيه أم ولد ولدت له دانا ونفتالى وكانت قد وهبتها له فيما زعموا راحيل لما ولدت أختها ليا ولم تلد هي (تكوين ــ ٣٠ (الثلاثون رقم ٤ إلى ٨) . هذا وخبر بلهة وقذف روبيل في الخامس والثلاثين من التكوين رقم ٢٢ حيث قال وحدث إذ كان اسرائيل ساكنا في تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع اسرائيل .
ولولا أن البوصيري أشار إلى هذا القذف لنزهنا الطرس عنه إذ هذا من الذي لا يجوز ذكره في حق الانبياء عليهم السلام وهو مما حرف به القوم كتابهم فخلطوا أساطير الأولين بأنباء من لا شك فيهم أنهم أولو عصمة .
وليا وراحيل ابنتا لابان تزوجهما يعقوب، عندهم أنه تزوج ليا أولا ولم تكن حسنة وكان يحب راحيل فخدعه أبوها ثم تزوج عليها راحيل وهي أم سيدنا يوسف عليه السلام فيوسف وروبيل ابنا خالة . وزعموا أن راحيل كانت عقيما حتى ولدت أختها ليا أربعة أبطن وهي عقيم وجاريتها بلهة بطنين وهي عقيم والذي ذكره الزمخشري أن يعقوب عليه السلام صارت إليه راحيل بعد موت ليا وهذا أشبه بسياق القصة وبحق نبي الله يعقوب وبنيه عليهم السلام وقد أشار البوصيري إلى هذا الخلط والتحريف في قوله :

لــــــووا بغير الحق ألسنـــــــة بما	قـــالــــوه في ليـــــا وفي راحيــــلا
وجنـــوا على هـــارون بـــالعجل الــذي	نسبـــوا لـــه تصـــويـــره تضليـــلا

وعندنا أن صاحب العجل هو السامري وعندهم أن هرون جمع حليهم وقذفها في النار فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار أو كما قالوا ـ انظر الأصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج Exodus من ١ — إلى ٦ فما بعد، ومن ذلك (رقم ٣ ــ ص ١٤٠) «فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر إلخ»

وقد نفى القرآن هذه الفرية عن سيدنا هارون عليه السلام. في سورة طه: «قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا. ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . . . . الآيات»

وكذلك في سورة الأعراف: «وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين. قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين.»

ظنوا بربهم الظنون ورسله ... ورموا إناثا بالأذى وفحولا
ومن الغبينة أن يجازى إفكهم ... صدقى ولسنا فى الكلام شكولا

أي لسنا أشباها

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكر الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفىء القنديلا
تخبركم التوراة أن قد بشرت ... قدما بأحمد أم إسماعيلا

يشير إلى مقال التوراة «التكوين ٢١ ـ ص ١٧/ ٢١ فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر».

وفي سفر التكوين أيضا في الأصحاح السادس عشر رقم ١١/ ١٢ «وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا. وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع أخوته يسكن».

ووردت مباركته وختانه في الأصحاح ١٧ رقم ٢٠ و٢٢.

ودعته وحش الناس كل ندية ... وعلى الجميع له الأيادي الطولى
طوبى لموسى حين بشر باسمه ... ولسامع من قوله ما قيلا
وجبال فاران الرواسي إنها ... نالت من الدنيا به التفضيلا

وحش الناس لسكناه الصحراء وذلك بمشهد من إخوته كما في الترجمة الانجليزية And he shall dwell in the presence of all his brethren. وكل ندية أي في كل مجلس يختلفون معه ويختلف معهم ويقاتله الناس ويقاتلهـم وزعم النبهاني رحمه الله أن هذا مذكور في كل مجلس تقرأ فيه التوراة وليس بوجه قوي . وبشارة موسى عليه السلام في سفر التثنية ١٨ في رقم ١٤ ـ ٢٢ «ويقيـم لك الرب نبيا مـن وسطك من إخوتك مثلي لـه تسمعون حسب كل مـا طلبت من الـرب إلهك في حـوريب يوم الاجتماع قـائلا لا أعـود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئـلا أموت قال لي الرب قد أحسنوا في مـا تكلموا أقيم لهم نبيـا من وسط إخـوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمـه فيكلمهم بكل ما أوصيه به إلخ» في النص الانجليزي from the midst of thee, of thy brethren, like unto me; ثم مرة أخـرى في رقم ١٨ I will raise them up a Prophet from among their brethren. وعند البـوصيري أن هذا المبشر به ينبغي أن يكـون من أصل إبراهيم لا من اسرائيل ـ قال رحمه الله :

من مثـل مـوسى قـد أقيم لأهلـه	من بين إخـوتهم سـواه رسـولا
أو أن إخـوتهم بني العيص الـذي	نقلـت بكـارتـه لإسرائيـلا

باع العيص (عيسو) بكارته (بكوريته) لأخيه يعقوب بخبز وطبيخ عدس (التكوين ٢٥ رقم ٢٤) «فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية» .
وأما حـرمان العيص من البركة فكان بسبب أن أبـاه كان يحبه وأمه كـانت تحب يعقوب وكان كما قـالت القصة التـي ذكروها قـد عمي اسحق أو ضعف بصره فجـاءه يعقوب بصفة العيص وذلك بتدبير أمه رفقـة ـ (الأصحاح السابع والعشرون والخبر كما في هذا الأصحاح ذو أحـزان) ـ فباركـه أبوه وحرم مـن البركة العيص انظر رقم ٢٨ ـــ : «فقال عيسـو لأبيه ألك بـركة واحـدة فقط يا أبي بـاركني أنـا أيضا يـا أبي ورفع صوتـه وبكى إلخ» .
وجبال فاران بين علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب في بيـانها اختلاف وأوضح الوجوه أنها المراد بها جبال موحشـة لمطابقة هذا للفظ فـرا وهو الموصوفة به الـوحشية والذي في خبر اسمعيل ، فإن كان ذلك كذلك فمن قال إنها جبال مكـة لم يباعد لقوله تعالى على لسان سيدنـا إبراهيم الخليل عليه السلام : «ربنـا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي

زرع عند بيتك المحرم» وزعم البكري أن فاران معدن حديد ببلاد بني سليم وأنشد

متى كـــان للقينين قين طميـــة	وقين بلي معـــدنـــان بفـــاران

وفران بوزن سحاب في أنساب بلي، وقيل فرعـون موسى عليه السلام كان من بلي. وفي خبر اسماعيل في التوراة أنـه وأمه عـاشا ببريـة فاران فتأمل. هـذا، وتفاصيل مـا ذكره البـوصيري من كلام أهل الكتـابين كثيرة عنـده، دقيقة معـرفتـه بها، وإنما هذا الـذي أوردناه لمع ونتف وأمثلة.

ومن جيد مديحه في هذه اللامية:

إن أنكــــــــروا فضـل النبي فـإنما	ألقـــوا على ضـوء النهـــار ســـدولا
واسمـع كـــــــلامهـم ولا تجعـل على	مـــا حـــرفـوا مـن كتبهم تعـويـــلا
لـــــولا استحـــــالتهم لما ألفيتنـي	لك بـــالــدليل على الغـريـم محيـلا

وصدق.

ومجاملة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسـن ذلك هو الواجب في حقنا وحقهم، ولكنـه في المبشرين بغى وفـرط طعـون في عصرنـا هـذا لاتقل عما كـان لأسـلافهم من أصحـاب محاكم التفتيش، أولئك بسطـوة عذابهم، وهـؤلاء بتـزيد أقـلامهم وضروب أساليب دعايتهم ودعاواهم.

والذي ذكره البوصيري من تحريف كتبهم هو مـا عليه اعتقادنا فيهم. ومن المعاصرين في زماننا من يلتمس لكثير ممـا جاءوا به التخريجات على وجه من وجـوه علوم العمران والاجتماع وغير ذلك، كأن يقـال إن قصـة العيـص ويعقـوب رمـز لأن أهل الحواضر والنعمة أكثر كيدا ومكرا من أهل الشدة والبـداوة. وليس هذا بمخرجها من أنها محرفة وليست بصفة حق لنبي الله يعقوب عليه السلام. ومسألة بكارة العيص مشكلة لأنهم لم يـذكـروا بين إسمعيل واسحق بكـارة وكان اسمعيـل هو البكـر. ، إلا أن يقـال إنهما كليهما بكـران بـالنسبـة إلى أميهما. وأبنـاء يعقـوب لم يكن لأكبرهم فضل على يـوسف وأخيه وإيثار أبيه لهما دليل على نفي أحقية البكارة. فتكون البكارة شيئا دب تحريفه إلى اليهود من الأمـم التي خالطوهـا، وليس في أصل عرفهم أو عبـادتهم، كما دبت إليهم عبادة العجل، من آبيس، والأصنام التي زعموهـا لراحيل، وحسنا صنع الإمام شرف الدين البوصيري إذ نصح ألا نعول على ما حرفـوا وما أولوا في هذا المجال. ولكن نعول على القرآن والحديث. قال تعالى: «ومـا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى». وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم غضب حين رأى مع عمر رضي الله عنه

صحيفة من التوراة وللعلماء في هذه المسألة خلاف وأقوال وقول البوصيري: «لولا استحالتهم» يفيد الجواز في باب مقارعة الحجة بالحجة. قال الشيخ عبدالحي الكتاني في التراتيب الادارية[1] «وأما النهي عن قراءتها وإن صرح به الفقهاء فليس على إطلاقه لوقوعه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من الصحابة من غير إنكار فهو مقيد بمن لم يميز بين المنسوخ والمخرج منها إلخ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ الجزء الثاني):

أو قد جهلت من الحديث رواية ... أو قد نسيت من الكتاب نزولا
فاعدل إلى مدح النبي محمد ... قولا غدا عن غيره معدولا

فإذا حصلت على الهدى بكتابه ... لا تبغ بعد لغيره تحصيلا

كأنه حذف جواب إذا واستأنف كلاما جديدا، ولك أن تقول حذف الفاء والأول أظهر ـ أي فذاك، وقوله: أو قد جهلت إلخ يشير إلى ما قدمنا ذكره من خبر النهي وما إليه:ـ

إن كنت تنكر معجزات محمد ... يوما فكن عما جهلت سؤولا
ما زال يرقى في مواهب ربه ... وينال فضلا من لدنه جزيلا
بث الفضائل في الوجود فمن يزد ... فضلا يزده بفضله تفضيلا
فاسمع شمائله التي ذكرى لها ... قد كاد تحسبه العقول شمولا
إني لأورد ذكره لتعطشي ... فإخال أني قد وردت النيلا

استعمل أورد هنا استعمالا استخداميا كما يقال في البديع أي أجعل ذكره يرد وأجعل نفسي ترد ذكره كورود الإبل الماء ـ ثم انظر إلى ذكره النيل وحبه له وقوله إن ذلك فرع من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنيل كما في الحديث من الجنة نابع ومن رأى خشونة الصحراء التي تكتنف نواحي جانبيه تيقن من ذلك

والنيل يذكرني كريم بنانه ... فأطيل من شوقي له التقبيلا
الله أعطى المصطفى خلقا على ... حب الإله وخوفه مجبولا
أتقنت من إخلاص ودي مدحه ... وأخذت منه لبابه المنخولا
إني امرؤ قلبي يحب محمدا ... ويلوم فيه لائما وعذولا
أأحبه وأمل من ذكرى له ... ليس المحب لمن يحب ملولا

---

(١) راجع أيضا نفسه ١/ ٢٠٣ حديث الأمر بتعلم كتاب يهود ونفسه ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٣٢ وان عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه كان يقرأ التوراة ونقل الكتاني عن الحافظ بن حجر قوله ان كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم وهذا باب للحجة والأقوال فيه طول.

ولأزمين لـــه الفجـــاج بضمـــر | كـــالنبل سبقـــا والقسى نحـــولا
مـن كل داميــــة الأيــــاطـل زدتها | عنقـــا إذا كلفتهـــا التمهيـــلا
حتى أضـم بطيبـــة الشمل الـــذي | أنضى إليهـــا العـــرمس الشمليـــلا

العرمس الشمليـل الناقة القـوية السريعـة، جاء أبـو الطيب بالعرامـس جمع العرمس وبالشملال صيغة أخرى للشمليل

وإذا تعسرت الأمـــــور فإنني | راج لها بمحمـــــد تسهيـــــلا

صلى الله عليه وسلم تسليما

فـــاجعل لنـــا اللهـم جـاه محمـــد | فـــرطـــا تبلغنـــا بـــه المأمـــولا
واجعل صـــلاتك ديمـــة منهلـــة | لم تلـف دون ضريحه تهليـــــــــلا

هذا من قـول كعب رضي الله عنـه«وما لهم عن حيـاض الموت تهليل»أي تأخر ـ أي تصل الى ضريحه صلى الله عليه وسلم لا يثنيها عنه شيء

مـــا هـزت القضب النسيـم ورجعت | ورقـــاء في غصن الاراك هـــديـــلا

عني ما هز النسيم القضب بالنصب وهذا جـائز في العربية وفي المطبوعة بنصب القضب وإسكـان الضـاد ويجوز على تأويل النسيـم بـالـريح فيكسبـه ذلك تـأنيثـا وأستبعده، والذي صنع من رفع القضب مذهب فصاحة وهو أشبه بأسره ورصانته ومنه قوله تعالى : «وءاتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة» .

وللبـوصيري من فحل الشعر وطنـانـه في مدح الـرسول روائع ليس الى استكثـار الشواهد منها هنا من سبيل . ونذكر منها على وجه التمثيل لاميته التي على وزن "بانت سعـــاد" ولم يجعـل لها فـــاتحة نسيـب وإنما افتتحهـــا بـــالتأمـل والمواعظ .

إلى متى أنـت بـــاللـــذات مشغـــول | وأنت عن كـل مـــا قـدمـت مسئـــول
في كل يـــوم تـــرجى أن تتـــوب غـــدا | وعقــد عـزمـك بـالتســويف محلــول
أمـــا يـــــرى لك فيها سر مـن عمل | يـــومـــا نشـــاط وعما ســاء تكسيل
فجـــرد العـــزم إن الموت صـــارمــــه | مجرد بيــــد الآمـــــال مسلـــــول

وبائيته الوافرية التي افتتحها بالمديح مباشرة :

بمـــدح المصطفى تحيـــا القلـــوب | وتغتفـــر الخطـــايـــا والـــذنـــوب
وأرجـــو أن أعيش بـــه سعيـــدا | وألقـــاه وليس على حـــوب
نبي كـــامـل الأوصـــاف تمت | محاسنـــه فقيـل لـــه الحبيب

وفيها :

بـدت للنـاس منـه شمـوس علم ... طـوالع مـا تـزول ومـا تغيب
وألهمنـا بـه التقـوى فشقت ... لنـا عما أكنتـه الغيـوب
خـلائقـه مـواهـب دون كسب ... وشتـان المواهب والكسـوب
مهـذبـة بنـور اللـه ليست ... كـأخـلاق يهذبها اللبيب
وآداب النبـوة معجـزات ... فكيف ينـالها الـرجل الأديب

وبائيته التي استهلها بذكر الموعظة والندم من الكامل :

وافـاك بـالـذنب العظيم المذنب ... خجـلا يعنف نفسـه ويـؤنب
لم لا يشـوب دمـوعـه بـدمـائه ... ذو شيبـة عـوراتها مـا تخضب
لعبت بـه الـدنيـا ولـولا جهلـه ... مـا كـان في الـدنيـا يخوض ويلعب
لـزم التقلب في معـاصي ربـه ... إذبـات في نعمائه يتقلـب
يستغفـر اللـه الـذنـوب وقلبـه ... شرهـا على أمثـالها يتـوثب

تأمل هذا الكلام الصافي الصادق النابع من القلب

يفـري جـوارحه على شهـواتـه ... فكأنـه فيها استبـاح مكلب

إذ المكلب مباح له الصيد بما علمه وذكر اسم الله عليه

أضحى بمعترك المنـايـا لاهيـا ... فكـأن معترك المنـايـا ملعب
ضـاقت مـذاهبـه عليـه فما لـه ... إلا الى حـرم بطيبـة مهـرب
متقطـع الاسبـاب مـن أعمالـه ... لكنـه بـرجـائه متسبب
وقفت بجـاه المصطفى آمـالـه ... فكأنـه بـذنـوبـه يتقـرب
وبـدا لـه أن الـوقـوف ببـابـه ... بـاب لغفـران الـذنـوب مجرب
صلى عليـه اللـه إن مطـامعي ... في جـوده قـد غـار منهـا أشعب

في شعـر البـوصيري رحمه اللـه كثير من خفـة الـروح ونـادرة الـذكـاء المصريـة المعدن، وذلك أمر الإشارة إليه تفي إن شاء الله .

لم لا يغـار وقـد رآني دونـه ... أدركت مـن خير الـورى مـا أطلب
مـاذا أخـاف إذا وقفت ببـابـه ... وصحـائفي سـود ورأسي أشيب
والمصطفى الماحي الـذي يمحـو الـذي ... يحصي الـرقيب على المسيء ويكتب
صلى عليـه اللـه إن صـلاتـه ... فـرض على كل الأنـام مـرتب
مـا حن مشتـاق إلى أوطـانـه ... مثلي وراح بـوصفهـا يتشبب

رحم الله البوصيري فإن شعره جزل ،

ونعود إلى بعض ما كنا فيه من الهمزية: وقد أفاض البوصيري في أمر اليهود وما كان بينهم وبين المنافقين والأحزاب من حلف

خدعوا بالمنافقين وهل ينفق إلا على السفيه الشقاء
وأطمأنوا بقول الأحزاب إخوانهم إننا لكم أولياء
حالفوهم وخالفوهم ولم أدر لماذا تخالف الحلفاء
أسلموهم لأول الحشر لا ميـ ـعادهم صادق ولا الإيلاء

هؤلاء بنو النضير

سكن الرعب والخراب قلوبا وبيوتا منهم نعاها الجلاء

ثم صار إلى ذكر بني قريظة وما كان من مساندتهم للأحزاب في غزوة الخندق

وبيوم الأحزاب إذ زاغت الأبـ ـصار فيهم وضلت الآراء
وتعدوا إلى النبي حدودا كان فيها عليهم العدواء

أي كان فيها عليهم المركب الخشن بضم العين وفتح الدال وكان فيها ما عداهم أن ينالوا منه

ونهتهم وما انتهت عنه قوم فأبيد الأمار والنهاء

كعب بن أسد وحيي بن أخطب ولفهم. وقد تناول العقاد أمر بن قريظة بسداد عظيم وأحسبه وفي القول فيه بأجود مما جاء به هيكل في حياة محمد، جزيا كلاهما خيرا، وذلك أن العقاد لم يدافع بما وقع من خيانة بني قريظة وغدرهم ،ولكن نبه وتنبه إلى أن القوم حكموا سعد بن معاذ رضي الله عنه، وما فعلوا ذلك إلا وهم واثقون بأنه سيرجع في أمرهم إلى عادة حلف الجاهلية ولو لم يرجع إلى ذلك ، فإنه لن يبلغ ان يحكم بها حكمه وإنما جهده أن يقسو عليهم فيحكم بجلائهم مثلا، وكانوا على ثقة من أمرهم لغرورهم واستجهالهم أهل المدينة أن سعدا رضي الله عنه لم يكن له علم بما عليه قانون التوراة في هذا الباب . غاب عنهم لأمر كان مفعولا، أن سعدا رضي الله عنه عميق الايمان ، وأنه مأمور إذ حكم بما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم إذ قال تبارك وتعالى «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بأياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.» فما كان لسعد رضي

الله عنـه إلا ان يحكم بما أنزل الله : «أفحكم الجاهلية يبغـون؟» «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله».

وتعـاطـوا في أحمد منكـر القـو ... ل ونطـق الأراذل العـــوراء

أي قبيح القول

كل رجس يـــزيـــده الخلق السـو ... ء سفـاهـــا والملــة العــوجــاء
فـانظـروا كيف كـان عـاقبـة القـو ... م ومـــا ســاق للبـــذي البـــذاء

ثم افتن في باب من البـديع استحسنه أبـو منصور في شعر أبي الطيب، أن التشبيـه فيه من جنس صناعته مثل :

دون التعـانق نـاحلين كشكلتي ... نصـب أدقهما وضـم الشـــــاكـل
ونحو: إذا كـان ما تنويـه فعلا مضـارعا ... مضـى قبل أن تلقـى عليـــه الجوازم

وهو عند أبي الطيب كثير ـ وللبوصيري منه بدائع مثل قوله في البردة يذكر المعراج :

سريت مـن حـــرم ليــــلا الى حـــرم ... كما سرى البـــدر في داج من الظلـم
وبت تـــرقى إلى ان نلـت منـزلـــة ... من قـاب قـــوسين لم تـدرك ولم تـرم
وقـــــدمتك جميـع الأنبيـــــاء بها ... والـرسـل تقـديم مخدوم على خـــدم
وأنـت تخترق السبع الطبـــــاق بهم ... في مـــوكب كنت فيــه صـاحب العلم

يذكر هنا صعود جبريل عليه السلام به يستفتح فيلقى الأنبياء نبيا بعد نبي في سماء بعد سماء، وعندنـا أن تغني المسلمين بالبردة كان لـه عظيم الأثر في محاكـاتها لا من جانب شعراء المسلمين وحـدهم ولكن من جـانب شعراء النصـارى كدانتي في قصتـه الإلهية وكان بين ميـلاد دانتي(١٢٦٥م) والبوصيري (٦٠٨هــ) أكثر من نصف قـرن، وذلك لأمر الأخذ والمحاكاة تمهيد كاف .

حتـى اذا لم تــــــدع شـأوا لمستبـق ... من الــــدنـــو ولا مـــرقـى لمستنم
خفضت كل مقـــام بـــالإضـافـة إذ ... نـــوديت بـــالـرفع مثل المفـــرد العلم

وهذا موضع استشهادنا .

و قال حيث ذكر الجهاد و فعل الصحابة رضوان الله عنهم :

هم الجبـــال فسل عنهم مُصـــادمَهم ... مــــاذا رأى منهم في كـل مُصْطَـــدَم
و سل حُنينـا و سل بـدرا و سل أحـدا ... فصـــول حتف لهم أدهى مـن الــوخم
المُصـدرى البيض حمرا بعـدمـا وردت ... من العــــدا كل مســـود مـن اللمم
و الكـــاتبين بسمـــر الخط مـــا تـــركت ... أقـــلامهم حـــرف جسـم غير منعجم
كأنهم في ظهــــور الخيل نبت ربـــا ... من شـــدة الحزم لا من شـــدة الحُزم

أخذ هذا فأحسن الأخذ و أخفاه من أبى الطيب حيث قال :

فكأنما نتجت قيـــامـــا تحتهم و كـأنما ولـــدوا على صهـــواتها

كأن الخيل ربا و هم نباتها يرف عليها ، و المجانسة سهلة حيث جاء بها لا يكاد السامع يتنبه إلى أنه ملابستها صنعة وحذق

طـارت قلـوب العـدا من بأسهم فـرقـا فما تفـــــرق بين البَهْـم و البُهَـم

البهم صغـار المعزى بفتح فسكـون و البهم بضم ففتح جمع بهمـة بضم فسكون و تـاء مربوطة بعد الميم و هو الشجاع الذي لا يدرى قرنه من أين يأتيه

و من تكـن بـرســول اللـه نصرتـه إن تلقـه الأسـد في آجـامهـا تجم

أي يصيبها الوجوم . و هذا البيت يقولون من أنشده أمن مما يخاف ، و لو لقيه الأسد .

و لـن تـــرى مـن ولى غير منتصر بـــه ولا مـن عـــدو غير منقصم
أحـل أمتـــه في حـــرز ملتــــه كـــالليث حل مـع الأشبـــال في أجم
كم جـدلـت كلمات اللــه من جـدل فيــه و كم خصم البرهـــان من خصم

و جاء بالبرهان من بعد :

كفـــاك بـــالعلم في الأمـي معجـــزة في الجاهليـــــة و التـأديب في اليتـم
خـــدمتـــه بمـــديح أستقيـل بــــه ذنـوب عمـر مضى في الشعـر و الخدم

بكسر الخاء و فتح الـدال أي خدمـات الناس من ذوي الجاه و أشبـاه ذلك و لك فتح الخاء و يكون كأنه ينظر إلى قول أبي الطيب :

بكل منصلـت مـــازال منتظـــري حتى أدلـت لـــه مـن دولـــة الخدم

ولا تستبعدن هذا

خـــدمتــــه بمـــديح استقيـل بـــه ذنـوب عمـر مضى فى الشعـر و الخدم

وشعـر البوصيرى في غير المديح النبـوي لايبلغ شيئـا من جـودته فيـه فسبحـان الموفق القدير، من يهد الله فهو المهتدي .

إذ قلـــداني مـــا تخشى عـــواقبـــه كـأنني بهما هــــــدي مـن النعـم

أي الشعر و خـدمة هـؤلاء قلداني ذنـوبا فصـارت لي كقلائد الإبل التي تقلـد القلائد وتساق لتنحر هديا إلا أنهما يقدمانني هديا للشيطان ـ تأمل هذا الافتنان

أطعـت غي الصبـــا في الحالتين فما حصلت إلا على الآثـــام و النـــدم

فيـــــا خســـــــارة نفس في تجارتها		لم تشتر الـــديـن بـــالــدنيـــا و لم تسم

و من يبع آجــلا منـــه بعـــاجلـــه		يبـن لــــــه الغبـن في بيع و في سلـم

إن آت ذنبـــا فما عهـــدي بمنتقض		مــــــن النبـــــي و لاحبلي بمنصرم

فـإن لي ذمــــــة منــــــه بتسميتي		محمــدا و هــو أوفي الخلق بـــالــذمم

إذ هو محمد بن محمـد بن سعيد بن حماد الأبوصيري أو البوصيري و هذه أشبـه إذ قريته بوصير و أصلها أبوصير و هـو عربي مغربي أمه من صعيد مصر ـ و نعـود إلى ما كنا فيه من الهمزيـة حيث ذكرنـا استعماله ما هـو من جنس صناعـة الأدب و الكتابـة في باب التصوير و البيان :

فانظروا كيف كان عاقبة القوم و ما ساق للبذي البذاء

و جد السب فيه سما و لم يدر إذ الميم في مواضع باء

أي قد تقلب الميم باء لتقـارب المخرج إذ هما شفويان فوجـدوا السب الذي سبوه النبي صلى الله عليه وسلم قد انقلبت باؤه سما فقتلهم. و انظر إلى قوله«في مواضع» إلى دقته و رشاقته

كـــان من فيــــه قتلــــه بيـــديـــه		فهـــو من ســـوء فعلـــه الـــزبـــاء

أي لأن السب خرج من فيه وهو سم فقتله فكأنـه قد أخذ سما فمصه كما فعلت الزباء وقد مر خبرها ، و هذا كمذهب أبي تمام في الإشارة .

صرعت قــــومــــه حبـــائل بغي		مــدهـــا المكـــر منهم و الـــدهـــاء

فـأتتهـم خيـل إلى الحرب تختـــــــا		ل وللخيـل في الـــوغـي خيـــلاء

قصـــدت فيهم القنـــا فقـــوافى الطــ		ـــعن منهـــا مـــا شـــانها إيطـــاء

أي كسرت فيهم القنا من جعل القنا قصدا فهو قصيد أي متكسر، قال أبو الطيب :

يطأن مـن الأبطـــــال مـن لا حملنـــه		و من قصــــد المران مــــا لا يقــــوم

فـالخيل إذ وطئت هـذا القنا القصيـد فهـذا الإيطـاء لا يشينه كما الإيطاء يشين قـوافي الشعـر. و قصدت الخيل فيهم القنـا أي نظمته كما ينظم الشعـر طعنا سلكي و طعنـا مخلوجا متتابعا قاتلا فمنظـومات الطعن فيهم لا يشينها أن تتشابه كما يشين ذلك قوافي الشعر. فهنا كما ترى تورية و استخدام .

و قوله فأتتهم خيل . . . البيت ، كأن صياغته تنظر إلى قول أبي الطيب :

فـأتتهم خـــــوارق الأرض مـــــا تحـ		ـــــمل إلا الحديـــد و الأبطـــــالا

خـــافيـــات الألـــوان قـــد نسج النقـــ		ـــع عليهـــا بـــراقعـــا و جـــلالا

ثم إن البوصيري رحمه الله ذكر فتح مكة وعفو النبي صلى الله عليه وسلم :

و أثـــارت بأرض مكـــة نقعـــا ظن أن الغـــدو منهـــا عشـــاء

أحجمت عنـده الحجـون و أكـدى عنـد إعطـائه القليل كـــداء

قال النبهاني ما معنـاه أنه هو كداء بضم الكاف كأن الشاعر مـد المقصور قال رحمه الله أحجمت كفت و أمسكت، وعنده عند غبار الحرب، والحجون الجبل المطل على مقبرة مكة المشرفة و هـو كداء بالفتح والمد و منه دخل النبى صلى اللـه عليه وسلم يوم الفتح وأكدى قل خيره و كدى بـالضم والقصر ويمد كما هنا موضع بأسفـل مكة ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه ووقع فيه حرب قليل مع أوباش مكة.

قلت هذا الوجه الـذي ذكره لا بأس به. وعندى أنه لم يرد بـالحجون إلا مكة و الحجون جبل مكة فأنثه لمعناها و كداء بالفتح والمد هو الذي ذكره حسان رضي الله عنه:

عـــدمتم خيلنـــا إن لم تـــروهـــا تثير النقع مـــوعـدهـــا كـداء

و قد ذكر البوصيري النقع[1]ولا حاجة به إلى قصر الممـدود وعنى بكداء مكة كل ذلك، من إطلاق الجزء على الكل. أى أحجمت مكة فلم تقاتل لاستسلام أبي سفيان وسائر السادة وأعطت مـن القتال قليلا ثم تـركته يشير إلى يـوم الخندمـة، حيث جمع صفوان وعكرمة جمعا قال الراجز:

إنـك لـــو رأيـت يـــوم الخَنْـــدَمـــة
إذ فـــر صفـــوان وفـــر عكـــرمـــة
ولحقتنـــا بـــالسيـــوف المسلمـــة
لهم نهيـت خلفنـــا و زمـــزمـــة
يضربـن كـل هـــامـــة و جمجمـــة
لم تنطقـي في اللـــوم أدنـى كلمـــة

و يشير إلى قوله تعالى: «و أعطى قليلا و أكدى» أي صار كالحجر لاعطاء عنده

أحجمت عنـده الحجـون و أكـدى عنـد إعطـائهـا القليـل كـداء

أي خلا من كل مقاومـة وهو الموضع الذي دخل منه رسول اللـه صلى الله عليه وسلم

ودهت أوجهـــا بها وبيـــوتـــا مل منهـــا الإكفـاء و الإقـــواء

إكفاء القدور و إقواء الديار أي خلوها وألغز بالإكفاء والإقواء والبيوت إذ ذلك كله من ألفاظ الشعر

فـــدعـــوا أحلم البريـــة والعفـــــو جـــواب الحليـم والإغضـــاء

---

(١) ذكره النقع ينظر إلى قول حسان وقول أبي الطيب معا والله أعلم.

نـاشـدوه القـربى التـي من قـريش قطعتهـا الترات والشحنـاء
فعفـا عفـو قـادر لم ينغصـ ـه عليهم بما مضى إغـراء
وإذا كـان القطـع والـوصـل للـ ـه تسـاوى التقـريـب والإقصـاء

ثم أخذ بعـد في باب من المدح من أسنى مـا قال وأجـوده، جمع فيه بعـد طريق الجدل والوصف والقصص والخطـابه، طرقا من عـذب الغناء ورنانه واستخفه الطـرب فركب النـاقـة وعـدد المنـازل إلى دار الحبيب وهـذا لشعـراء العـرب منهـج، حتى في اللغـة الدارجة، وقد اتبعه المتنبي في مقصورة خـروجه من مصر «ألا كل ما شية الخيزلى» ومن قبل صنع ذلك أبـو نواس حين قصـد الخصيب بمصر في «أجارة بيتينـا أبوك غيـور» - وهنـا شاعـر مصري مغربي مسلم حنيف يفـر إلى الله وإلى الحبيب لا من خـوف ملك ولكن لخوف الملك الجبار، ورجاء إيفاء طاعة الدين حقها، ويقصد لا صاحب جاه من جـاه الدنيـا كـالخصيب، ولكن صـاحب جـاه الآخرة، الماحى الشفيـع عليه الصـلاة والسلام:

وسـواء عليـه فيما أتـاه مـن سـواه الملام والإطـراء
ولـو أن انتقـامـه لهوى النفـ ـس لـدامت قطيعـة وجفـاء
قـام للـه في الأمـور فأرضى الـ ـله منـه تبـايـن ووفـاء
فعلـه كلـه جميل وهـل ينضـ ـح إلا بما حـواه الإنـاء
أطـرب السـامعين ذكـر عـلاه يـا لـراح مـالـت بها النـدمـاء

ثم أخذ في قري غناء مطرب:

النبي الأمي أعلم من أسند عنه الرواة والحكماء

هذا كقوله في البردة «كفاك بالعلم في الأمي معجزة البيت»

وعـدتني ازديـاره العـام وجنـا ء ومنت بـوعـدهـا الـوجنـاء
أفـلا أنطـوى لها في اقتضـائيـ ـه لتطـوى مـا بيننـا الفـلاء

أي الصحارى جمع فلاة. أنطوى أي أطوى نفسي على طية بكسر الطاء أي نية يعنى نية الحج. أي أفلا أصدق النية والعزم في اقتضائي لها أن توفي بوعدها لكي توفيه فتطوى ما بيننا الصحارى

بألـوف البطحـاء يجفلهـا النيـ ـل وقـد شف جـوفهـا الأظماء

بناقة تألف بطحاء مكة وتجفل عن النيل ولو طالت أظماؤها جمع ظمء بكسر الظاء وهو مدة ما بين الشرابين لـلإبل. وفي الناقة كناية عـن نفسه، إذ حركة شوق الطـاعة بالحج وزيارة الحبيب، ثم جعل يعد المنازل، وقـد قصد مكة أولا، ليحرم من الميقات ويحج ثم بعد ذلك قصد طيبة لزيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وحرمه الشريف.

فأقضت على مبـــاركهـــا بـــر كتهـــا فـــالبـــويب فـــالخضراء
فـــالقبـــاب التي تليهـــا فبئـــر النخـل والـركب قـــائلـون رواء
وغـــدت أيلـــة وحقـل وقـــر خلفهـــا فـــالمغـــارة الفيحـــاء

ثم عـد المنازل . فـذكر النبهـاني أن العارف الصـاوى رحمهما الله ذكَـر في حاشيتـه على الهمزية أن النـاظم ترك منازل خمسة قبل الحوراء . قلت ومـا أرب الناظم أن يسرد المنازل نظما وإنما تغنى بها كما كـان الشعراء يتغنـون بمعاهـد الـديار ومنـازل الأحبة لا يعنـون بذلك سردا جغرافيا . ولو عد البوصيري عشرة منازل أو أربعين أو ثلاثين أو عشرين ثم قال من بعد كما قال بعد ذكره ما ذكر منها :

هـــذه عـــدة المنـــازل لا مـــا عـــد فيـــه السماك والعـــواء

لاستقام له المعنى واللفظ والسيـاق ، إذ ليس قصده المطابقة بين عدد منـازل القمر وما يعد من أسماء منازل الحج كما ليس قصده أن يذكر سردا منظوما بكل منازل الحج ولقد تنقص وتزيـد بحسب نوع السير وحتى على تقـدير ألا تزيـد ولا تنقص ، إذ قصده كما قدمنا الطرب والذكر بنغم التغني بهذه المنازل ولقد قال مما يشهد بصحة ذلك :

أطـرب السـامعين ذكـر عــلاه يـا لـراحٍ مـالت بها النـدمـاء

ومناسبة قوله :

هـــذه عـــدة المنـــازل لامـــا عـــد فيـه السماك والعـــواء

ليست في مطابقة عدد ما ذكره لعدة منازل القمر. ولكنها كامنة في حقيقة تنبيهه على أنه يذكرها للشوق والحب وطربا بها كما كان يفعل فحول الشعراء الأولون ، وقد ترك الشعراء ذلك أو كادوا منذ ماتت القصيدة المادحة الدنيوية القديمة . وقد ترنم أبو الطيب طربا بـذكر نجـاته من كـافور فعـدد المنازل إلى العـراق تعداد تـرنم لا سرد . وقد كـان عصر البوصيرى وعصـور كثيرة قبله وبعده إلى يومنـا هذا لها ولع بالطوالع والنظـر في النجوم وطلب معرفة الحظ ومخبوء الغيوب من طريقها ، ليس قول البوصيرى رحمه الله :

هـــذه عـــدة المنـــازل لامـــا عـــد فيـــه السماك والعـــواء

يخلو من النقد لهذا الولع الخاطىء
فمن أخذ عليـه حذف خمسة مـواضع أو نحو ذلك فقد ضيق من فسحـة معناه الكبير الواسع

ثم يقول رحمه الله:

فكأني بها أرحل من مكة شمسا سماؤها البيداء
موضع البيت مهبط الوحي مأوى الر سل حيث الأنوار حيث البهاء
حيث فرض الطواف والسعي والحلـ ق ورمي الجمار والإهداء
حبذا حبذا معاهد منها لم يغير آياتهن البلاء

البلى بكسر الباء والبلاء مقصور وممدود لغتان صحيحتان. وهذا البيت يقوي ما ذكرناه من قصده إلى الترنم كالقدماء، فقال حبذا هذه الديار والمعاهد ولكنها على قدمها معمورة لم يغيرها البلى، وكان القدماء يتغنون على الذكرى بديار كانت مأهولة ثم أقوت وأقفرت بعد عهد الأحباب. ولذلك أخذ الخليل على الآخر قوله الذي ذكره ابن قتيبة في مقدمته:

أنبت تفاحا و إجاصا

لأن التفاح والإجاص إنما يكونان في البساتين ومع التعهد بالسقي في المكان الآهل وليس كقول من قال:

أنبت قيصوما وجثجاثا

لأن هذه نباتات برية إنما تنبت بعد خلو الدار من أهلها

حرم آمن وبيت حرام ومقام فيه المقام تلاء

المقام معا مفتوحة الميم أو الثانية مضمومتها أو الأولى مضمومتها أو كلتاهما مضمومتها. فعلى الأول فالمقام مقام إبراهيم والقيام فيه جوار وذمة في حرم الله. وعلى الثاني فالمقام مكان الإقامة (اسم مكان رباعي) والمقام بمعنى القيام أو بمعنى مقام إبراهيم أي موضع قيامه والصلاة فيه جوار وذمة عند الله. وعلى الوجه الثالث فالمقام مكان الإقامة (رباعي) والإقامة فيه (مصدر ميمي رباعي) جوار وتلاء بمعنى الجوار ووزن سحاب

فقضينا بها مناسك لا يحـ ـمد إلا في فعلهن القضاء

لأن قضاء الصلاة مثلا يكون بعد فوات وقتها وقضاء الدين من هذا المعنى وإن حمد هو فإن الدين ليس في ذاته بمحمود ولذلك قال الشاعر:

يلومونني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

فلو كان في ذاته أمرا حميدا ما كان قومه ليلوموه فيه

ورمينـــا بها الفجـاج إلى طيـــــ ـــبة والسير بـــالمطـــايـــا رمـــاء

لأن النـاقـة كـالقـــوس وتـرفع رقبتهـا في السير كأنها قـوس وتـــرمي بنفسهـا الفجـاج

فأصبنـا عن قـــوسهـا غـــرض القــر ب ونعـم الخبيئـــة الكـــــومـــــاء
فـــرأينـــا أرض الحبيب يغض الطـــر ف منهـــا الضيـــــاء والـــــلألاء
فكأن البيـــــداء مـن حيث قـــابـــ ـــــلت العين روضــــة غنــــاء

قولـه نعم الخبيئة أي الذخر. والكـوماء مخصوص نعم وليست صفـة للخبيئة والكوماء عنى بها ناقته.

وكـأن البقــــاع زرت عليهـــــا طـــــرفيهـــــا مــــلاءة حمراء
وكـأن الأرجـــــاء تنشر نشر الـــــ ـــمسك فيهـــا الجنـوب والجربيـــاء
أي نـــــور وأي نـــــور شهـــدنـــا يـــوم أبـــدت لنـــا القبـــاب قبـــاء
قـــر منهـــا دمعـي وفـــر اصطبـــارى فـــدمـــوعي سيـل وصبري جفـــاء

لأن السيل يحتمل زبدا رابيـا "فأما الزبد" كما قـال تعالى في الكتاب العزيـز «فيذهب جفاء» وهنا صار الدمع هو النافع والصبر جفاء فتأمل

فترى الـركب طـائرين من الشـو ق إلى طيبـــة لهم ضـــوضـــاء

هـذه أخذهـا من الحارث وحول معنـاهـا من السخريـة عند الحارث إلى معنى النشـوة والحب ههنا

وكأن الـــزوار مـــا مسـت البأ ســـاء منهـم خلقـــا ولا الضراء

يعني بأساء السفر وذلك من عون الله وتوفيقه

ثم يجيء هذا المدح والانفعال بالعاطفة الرائع وينـاسب ما قدمه من أن الشوق قد طار به وكأنه مـا مسه فتور ولا إعياء وقـد نظم ما نظم مما يكل عن مثله الفحـول، وما زالت أنفاسه لهن حرارة واندفاع وصدق ولإيقاعه رنين وزجل وترجيع:

فحططنـــا الـــرحـــال حيث يحط الـــــ ـــــوزر عنـــا وتـــرفـع الحوبـــاء
وقـــرأنـــا الســلام أكــرم خلـق اللـــ ـــــه من حيـث يسمع الا قـــــراء
وذهلنـــــا عنـــــد اللقــــاء وكم أذ هــل صبـــــا مـن الحبيب لقـــــاء

تقول قرأ عليه السلام وأقرأه إياه أي أبلغه ثلاثي ورباعي ذكره الفيروزابادي وذلك مما يحسن التنبيه عليه لما يقع فيه من النسيان والـوهم وقوله ذهلنا والبيت التالي من جيد وصف زيارة الحبيب عليه الصلاة والسلام.

ووجمنـــا مـن المهـــابـــة حتـى   لا كـــــلام منـــا ولا إيماء
ورجعنـــا وللقلـــوب التفـــاتـــا   ت إليــــه وللجســـوم انثنـــاء

ثم صار إلى خطابه صلى الله عليه وسلم :

يـا أبـا القـاسم الـذي ضمن أقسـا   مي عليــــه مـــدح لـــه وثنـــاء

أقسام جمع قسم بالتحريك

بـــالعلـــوم التي عليـك من اللـــ   ـــه بـــلا كـــاتـب لها إمـــلاء
ومسير الصبـــا بنصرك شهـــرا   فكأن الصبـــا لـــديك رخـــاء

هي الريح التي سخرت لسيدنا سليمان عليه السلام غدوها شهر ورواحها شهر

وعلي لما تفلــت بعينيـــــــــــــــــ   ـــه وكلتـــاهما معـــا رمـــداء
فغــدا نـــاظـــرا بعيني عقـــاب   في غـــزاة لها العقـــاب لـــواء

وهي خيبر

وبريحانتين طيبهما منك الذي أودعتهما الزهراء

هي فاطمة رضي الله عنها

كنـت تـــــــــؤويهما إليـك كما آ   وت مـن الخط نقطتيهـــا اليـــاء

لأن النقطتين تحتها وفي كنفها معـا عند ما تكون متطرفة، وهـذا من الباب الذي ذكرناه آنفا ونظر في ذكر السبطين والياء إلى قول أبي الطيب :

وكـــان ابنـــا عـــدو كـــاثـــراه   لـــه يـــائي حـــروف أنيسيـــان

وهو نظر خفي من باب الحذو اللامح

من شهيـــدين ليـس ينسيني الطغـــــ ـــــف مصـــابيهما ولا كـــربـــلاء
آل بيـت النبـــي إن فـــــــؤادي ليـس يسليـــــه عنكم التـأســـــاء

أي التأسي والتعزية

آل بيت النبي طبتم فطـــاب الـــــ ـــــمدح لي فيكم وطـــاب الثنـــاء
أنـــا حســـان مــدحكم فإذا نحـــ ـــــت عليكـم فإنني الخنســـــاء
ســـدتم النــاس بـــالتقي وســـواكم ســـودتـــه البيضـــاء والصفـــراء

والبوصيري هنا متبع قولنا صلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم فذكر الآل ثم صار إلى الأصحاب فبدأ بالخلفاء ثم العشرة الكرام مع مدح مجمل ومفصل

وبأصحـــابـك الــذيـن هم بعـــ ـــــدك فينـــا الهداة والأوصيـــــاء
أغنيـــاء نـــزاهـــة فقـــراء علماء أئمـــــــة أمـــــــراء
رضي اللـــه عنهـم ورضـــوا عنـــ ـــــه فـأني يخطـــو إليهـم خطـــاء
مـــا لموسى ولا لعيسى حـــواريـــ ـــــون في فضلهـم ولا نقبـــاء
بأبي بكـــر الـــذي صح للنـــا س بـــه في حيـــاتك الاقتـــداء
وأبي حفص الـــذي أظهـــر اللـــ ـــه بـه الـديـن فـارعـوى الـرقبـاء
وابن عفـــان ذي الأيـــادي التي طـــا ل إلى المصطفى بها الإســــــداء
وعلي صنـــــو النبي ومـن ديـــ ـــــن فـــؤادي وداده والـــولاء
وبـــاقي أصحـــابـك المظهـــر التر تيـب فينـــا تفضيلهـم والـــبولاء

ثم ذكرهم طلحة والزبير وسعدا وسعيدا وعبدالرحمن بن عوف وأبا عبيدة ثم ذكر عمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمن في ذكـره الزبير ابنه عبدالله وزوجه أسماء رضي الله عنهم أجمعين.

وبـــــــــأم السبطين زوج علي وبنيهـــا ومن حـــوتـــه العبـــاء
وبـأزواجك اللـــــواتي تشرفـــــ ـــــن بأن صـــانهن منك بنـــاء
الأمـــــان الأمـــــان إن فـــؤادي من ذنـــــوب أتيتهـن هـــــواء

هذا جواب القسم

قــد تمسكـت من ودادك بـــالحبــــ ـــل الــذي استمسكـت بـه الشفعــاء
وأبي اللــــــه أن يمسنـي الســــو ء بحـــــال ولي إليـك التجــــــاء
قــد رجــونــاك لـــلأمــور التي أبـــ ـــــردها في فـــؤادنـــا رمضــــاء
وأتينــــا إليك أنضــــــاء فقــــر حملتنـــا إلى الغنـي أنضـــــاء

أي ضعاف من الفقر إلى الغفران تحملنا إلى الغني بنيل شفاعتك إبل أنضاء

وانطـوت في الصــدور حـاجـات نفس مـــالها عن نـــدى يـــديك انطـــواء
فأغثنـــا يـــا من هـــو الغـوث والغيـــ ـــث إذا أجهـــد الـــورى الـــلأواء
اللأواء : الشدة
يـــــارحيما بـــــالمؤمنين إذا مـــــا ذهلت عـن أبنـــائهـــا الـــرحماء
يـــا شفيعـــا في المذنبين إذا أشـــــ ــــفق من خـــوف ذنبــــه البرآء

كأنه يشير بهذا إلى نبي الله عيسى عليه السلام إذ لا يعتذر بذنب، «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها».
جد لعاص وما سواي هو العاصي ولكن تنكري استحياء
تأمل هذه الرقة مع لمحة الذكاء في العبارة
وتداركه بالعناية مادا م له بالذمام منك ذماء
الذماء بوزن السحاب
أخـــــرتـــــه الأعمال والمال عما قـــدم الصــــالحون والأغنيــــاء
كل يـــوم ذنـــوبـــه صـــاعـــدات وعليهـــا أنفـــاســـه صعـــداء
أي يتأوه
ألف البطنـــــة المبطئـــــة السيـــــ ـــر بـــدار بها البطـــان بطـــاء
كنت في نـــومـــة الشبـــاب فما استيـــ ـــقظت إلا ولمتـي شمطــــــاء
أي خالط سوادها بياض الشيب
وتماديـت أقتفي أثـــــر القـــــو م فطـــالت مســـافـــة واقتفــــاء
صـــاح لا تأس إن ضعفـت عن الطـــا عـــة واستـأثــرت بها الأقـــويـــاء
إن للـــــــه رحمة وأحق النـــــــ ــــاس منـــه بـــالـــرحمة الضعفـــاء
فـــابق في العـــرج عنـــد منقلب الـــذو د ففي العـــود تسبـق العـــرجـــاء

الذود هنا مصدر، قال تعالي: «ووجد من دونهم امرأتين تذودان» أي عندما تذاد الـواردات راجعة فإن العـرج التي كانت أواخـر تكـون أوائل فتلفى العرجـاء سابقـة. (ويجوز أن يكـون الذود الجماعـة من الإبل على بعـد في المعنى عسير) وهـذا يقولـه على التمني وعلله من بعد:

وبحـب النبي فــابغ رضي اللـــــه ففي حبـه الــرضــاء والحبــاء
يــانبي الهدى استغـــاثــة ملهــو ف أضرت بحـــالـــه الحوبـــاء

ما أرى إلا أنه عني الحاجة فتكون الحوباء كالحوبة ولا تزال في دارجتنا هذه الثانية بهذا المعنى، والحوباء النفس فلعل المعنى شهوات النفس هنا والله أعلم.

هذه علتي وأنت طبيبي ليس يخفى عليك في القلب داء

هذا يصحح المعنى الثاني أن الحوباء النفس فتأمله.

ومـن الفــــوز أن أبثـك شكـــــوى هي شكـــوى إليـك وهي اقتضـــاء
ضمنتهـــا مـــدائح مستطــــاب فيـك منهـــا المديـح والإصغـــاء

يعني إنشاد المديح والإصغاء إليه

وأعلم أصلحك اللـه أن رنات المديـح هي التي كانت سببـا في معـرفة الأجيـال القريبة من عصرنـا هذا أوزان الشعر الرصين لغلبة الألسن الـدارجة، ولأن أكثر أوزان شعرها يعتمد مواضع الإشباع (ما يسمى النبر الآن) مع المقاطع والغناء. والعروض لا يفي بتعليم نغم الشعر، ولذلك كان العلماء في العصـور القريبة من عصرنا ربما عمدوا إلى تثبيته في أذهان الطلبة من طريق نغم المديح كالذي صنع النبهاني من نظمه البحور نحو:

علمـت اللــــه ليـس لــــه مثيـل وأن محمـــــدا نعـم الـــرســـول
مفــــاعلــــة مفــــاعلــــة فعــــول بــــوافـــر هــــديـــه اتضـح السبيل

وما عرف شوقي وحافظ وجيلهما والبارودي من قبل أنغام الشعر إلا من طريق ما تعلموه من سماع نغـم المديح النبوي، ومن أجل هذا سـاغت لهم مجاراة البردة. وصنع حافظ عمريته على نهج البرعي رحمه الله في:

بـانـت عن العـدوة القصـــوى بـواديها

وشوقى همْزيته على غرار:

مــــــا آذنتـــــــه ببينهـــــــا أسماء

للشهاب.

وقد نـاب الإلقاء العصرى عن نغم المديح حينا، قالـوا وكان حافظ جيد الإلقـاء وهو ليس بمنهج عربي الأصل فيما أرجح ولكن أخذ من طـريقة الافرنج التي يقال لها Dec-lamation وهي طـريقة خطـابية تشخيصيـة. وقد كـان يخالط الإلقاء عنـد على بك الجارم رحمه الله ترجيع نغم ونشوة غناء.

وقـد ذهب الإلقاء وعلى أيـامه ــ أعني على أيام الإلقـاء الخطابي وبـالرغم من حـرص المجودين على تجويده ــ جعلت المعرفة بنغم القصيد تقل، والطرب لها يضعف.

وسبب الإقبـال على ما يسمي بـالتفعيلة والشعـر الذي يقـال له غير العمـودي [وهذا اصطلاح فاسد إلا أن يرجع إلى قول قدامـة انه لا مشاحة في الاسماء وزعم برنارد شو في بعض ما زعم أن من شاء أن يسمي منزلـه الذي يسكن فيه بالبرلمان فعل ذلك ولم يعبه عليه أحد] أن ذهاب المديح إلا من بقايا حلقـات الأذكار، وهذه لا يرتادها المعاصرون إمـا عن ضعف دين وإما عن فـرط تشـدد فيه وإمـا عن جهل تام وعـدم سماع بشىء اسمه الأذكـار أو المديح النبوي، أي ذلـك كان، هذا الـذهاب من المديح ذهـب مرة واحدة بمعرفـة نغم الشعر وإيقاعه. فالشعـر الحر والتفعيلى ليس منشؤه من ثورة على الأوزان العـربية عن معـرفة، ولكن عن ثـورة عن جهل ومن جهل شيئا عـاداه، وعن حاجة إلى التنغيم والإيقاع من دون معرفة سبيـل إليه غير تقليد أوروبا. حتى لو دخلوا جحر ضب خرب.

قال رحمه الله:

ضمنتهـــــا مـــــدائح مستطـــــــاب فيـك منهـــــا المديـح والإصغـــــــاء
قلما حـــــــــاولت مـــــــديحك إلا ســـــــاعـــــــدتها ميم ودال وحــــــاء

هذا نظـر فيه إلى لاميـة أبي الطيب في أبي شجاع، وقـد نبه هـو نفسه رحمه اللـه إلى هذا النظر حيث قال في البيت التالي:

حـــق لى فيك أن أسـاجـل قـومـا سلمت منهمـــو لـــدلـوى الـــدلاء

فهنا أيضـا يقوى مـا نقول به من انتقـال المدح من قصيدة مـدح الملوك وذوي الجاه إلى المدح النبوي فقد أسلمت دلاؤهم فيه إلى صاحب دلوه

إن لى غيرة وقـــــــــــد زاحمتنـــى   فى معــــاني مـــديحك الشعـــراء

يعني شعراء الدنيا كأبي الطيب الذي أشار قبل إلى قول :

تملك الحمـــد حتى مـــا لمفتخـــر   فى الحمـــد حـــاء ولا ميم ولا دال

ثم يقول رحمه الله :

ولقلبـي فيـك الغلـــــــــو وأنـى   للســـاني فى مـــدحك الغلـــواء

أى لا يصح ذلك شرعـا كما فعل أتبـاع المسيح عليه السـلام وأهل الكتـاب الأول ، أو لقلبي غلـو فى حبك أكبر من أن يقدر على البيـان عنه لسـاني وهذا المعني الثـاني أشبه ويقويه ما يلي ، وهو بيت جيد بالغ الجودة :

فأثـب خـــاطـــرا يلـــذ لـــه مـــد   حـك علما بـأنـــــه الـــــــلألاء

أي مدحي لألاء الدر الذى هو فضائلك. وأصل هذا المعني من أبي الطيب

هنيئـــا لك الـــدر الـــذى لي لفظـــه   فـإنك معطيـــــه وإني نــــــاظـم

فنحو هذا من المعاني هو ما زعم البوصيرى أنه غار منه

حـــاك مـن صنعـة القـريـض بـرودا   لـك لم تحك وشيهــــا صنعـــــاء
أعجـز الـدر نظمـه فـاستـوت فيـــ   ـــه اليــــدان الصنـــاع والخرقـــاء

وهذا البيت يشهد لما ذكرنا من نظره رحمه الله إلى أبي الطيب

فـــارضـــه أفصح امـــرىء نطق الضـــا   دفقـــــامت تغـــار منهـــا الظـــاء

والضاد والظاء حرفان في العربية كل منهما مستقل بنفسه متميز ونطق الظاء غير مشكل إشكـال نطق الضاد فبيـان الضاد في النطق الفصيح حتـى لا يشتبه أمـرها بـالظاء مما أغارها إذ النبي صلي الله عليه وسلم سيـد الفصحاء ، ونطق الضاد عنده لفصاحته لا يختلط بالظاء. وقد مر الحديث عن مقال صاحب المقامات. في هذا الباب.

أبـــذكـــر الآيـــات أوفيك مـــدحـــا   أين منـى وأين منهـــا الـــوفـــاء

يعني المعجـزات والعـلامـات كتظليل الغمام وتسبيح الحصى والبشـارات التي سبقت يدلك على ذلك قوله من بعد:

أم أمـــــاري بهن قـــــوم نبـي   ســـاء مـــا ظنـــه بي الأغبيـــاء

إذ قصدى إظهار الحجة لا المماراة المنهي عنها

ولـك الأمـــــة التي غبطتهـــــا   بـك لما أتيتهـــــا الأنبيـــــاء

هـذا من إحسان البـوصيرى إذ هو قـد ذكر الآل والأصحـاب والندم والتـوبة ورجـاء الشفاعـة ومت بمدحـه النبي صلي الله عليـه وسلم إلى رجائه من ذلـك ـ ثم ذكـر أمة الإسلام وعزتها بما خصها الله به من رشد وعناية وأن رسولنا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وهي خاتمة الرسالات ذات التوحيد الباهر المنير.

لم نخف بعـــدك الضـــلال وفينـــا   وارثـــو هـــدى نـــورك العلماء

وهو منهم إن شاء الله.

ثم يقول رحمه الله:

ليس مـن غـــايـــة لـــوصفك أبغيـــ   ـــهاوللقول غـــايـــة وانتهـــاء
لم أطل فى تعـــداد مـــدحـك نطقى   ومـــرادي بـــذلك استقصـــاء
غير أني ظمآن وجـــــد ومـــــالى   بقليـل مـن الـــورود ارتـــواء

وكأنه هنا يعلق على شكوى ابن الرومي إذ قال:

وإذا امـــرؤ مـــدح امـــرأ لنـــوالـــه   وأطـــال فيـــه فقـــد أطـــال هجـــاءه
لـــو لم يقـــدر فيـــه بعـــد المستقى   عنـــد الـــورود لما أطـــال رشـــاءه

هذا في مـدح ملوك الـدنيا وعند طـالبي زهرتها. ثم كأنـه بقوله لم أطـل من أجل قصد للاستقصاء يظهـر عين المعني الذي لاح لنا من طريقته إذ قلنـا إنه يقصد إلى التغني لا السرد واستقصاء الأخبـار ومن أجل هذا ما أخذنـا على من أخذ عليه أنه إذ ذكـر ثمانية وعشرين منزلا وشبهها بمنازل القمر أنه حذف خمسة لو ذكرها ما تمت المطابقة إذ منازل القمـر ثمانية وعشرون. ولقـد أباح النقـاد للشعراء ألا يلتـزموا بتـواتر أحـداث التأريخ ولأرسطوطاليس الفيلسوف نظريته المعـروفة في الواقع والمحتمل. فكيف نلزمهم بالسرد

والاستقصاء وهذا عمل ناظمي العلوم وما أشبه.

ولقد عجب ابن الأثير فى آخر المثل السائر من شهنامة وأن العرب لا تطيل جر الأخبار والحكايات كما تصنع العجم. وقد اعتذر الشيخ عبدالحي الكتاني رحمه الله في التراتيب الإدارية عن هذا بما طوله المطولون من نظم السيرة، والحق أن العرب قد طولت الأراجيز كما في ذات الأمثال لأبي العتاهية وكنظم كليلة ودمنة لأبان بن عبد الحميد. ولكن لم يكن عندها جر الأخبار والحكايات كما نبه على ذلك ابن رشيق بداخل حقا في حيز الشعر. لأن الشعر إنما وضع للغناء والترنم.

وقد أطال المحدثون مدح الملوك وأولى الجاه يبتغون احتلاب أخلاف الدر البكىء. على أن هذا من صنيعهم كأنما أراده المولى عز وجل تمهيدا وتمحيصا وتوطئة لهذا الإبداع الذي جاء به مداح الرسول عليه الصلاة والسلام من بعد وخاصة البوصيري. وذلك أن اطالة ابن الرومي ومن نحا نحوه كمهيار وغيره روضت القوافي والمعاني على أساليب المدح ومحاولات الإطراب بالبديع والافتنان في الصياغات البيانية. فلما جاء المحبون مادحو خير الورى صلوات الله عليه وسلامه، أصابوا المادة الخصبة من طرق القول ومناحيه، ووفقهم توفيق الله سبحانه وتعالى بما وهبوا من ملكة القريض والغناء والمقدرة على الإطراب وبما ضمنته قلوبهم من نشوات إلى أن يفتنوا في الإطالة ويتيسر لهم مع ذلك أن يجيدوا بلا إعياء ولا كلال ولا ملال. ومن شاء أن يوازن بين صنيع البوصيرى هنا وفي طواله وصنيع المجيدين من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ملحميات أصحاب الملاحم من يونان مثلا ودرامياتهم فعل، فأبيات الهمزية ثلثمائة وستة وسبعون والبيت العربي يساوى سطرين من شعر يونان على أقل تقدير، قياسا على ما نقل إلينا من ترجمة دقيقة، فهذه نحو من ثمانمائة وليست أبيات بعض الدرامة والملاحم بزائدة على ذلك بكثير.

غير أنا لا نعد «الهمزية» والبردة وإلى متى أنت" وجاء المسيح" من باب الملاحم، إذ هن من باب قصيد العرب، وهو فنهم الذى امتازوا به وخصوا. وقد رأيت أنه لا شعر سواه بالغا مبلغه عند الجاحظ وهدك من ناقد.

ولله در البوصيرى إذ لخص معنى الإطراب والطرب والنشوة والإخلاص بصدق الشعر في قوله:

غير أني ظمآن وجد وما لى ... بقليل من الورود ارتواء

ثم ختم بالصلاة والسلام على خير الأنام:

فســــلام عليك تترى مـن اللــــــ ـــــــه وتبقـى بــــه لك البـأواء

أى الفخـر. لاحظت في مواضـع أن البوصيرى كأنـه آخـذ بقراءة أبي عمـرو رحمه الله . وقد كانت بمصر كثيرة . ومثله كان بالقراءات عالما . وتترَى هنا على قراءة أبي عمرو منونة على الأرجح إذ السلام مذكر. أى فسلام عليك متتابعا . وأبو عمرو ينون فى آية «قد أفلح المؤمنون» «ثم أرسلنا رسلنا تترى» أى وترا أي متتابعين متواترين وصارت الواو تاء وهـــو مـــذهب للعـــرب فى القلـب وقـــرأ ابـن كثير وهـــو شيخ أبـى عمـــرو كـذلك . وضبط«تترى» في الهمـزية المطبـوعـة التى رجعنـا إليهـا بلا تنـوين والسيـاق بالتنوين أظهـر وأقوى عندنا ومن لم ينـون حمل تترى على المرات أى سلام عليك مرات تترى أى متتابعـات أو متتابعة متواتـرة . وعلى ما مضى عليه أبـو عبيدة فى تأويل تترى أنها فعل فليس هنا إلا الأخذ بقراءة أبى عمرو والله تعالى أعلم .

وســــلام عليـك منـك فما غيـــــ ـــــرك منـــه لـك الســـلام كفـــاء
وســــلام من كـل مـــا خلق اللـــ ـــه لتحيـــا بـــذكـــرك الأمـــلاء

جمع ملأ كجبل وهي من كلمات معلقة الحارث

وصلاة كالمسك تحمله مني شمال إليك أو نكباء

وأصاب صفة الريح هنا إذ ريح الشمال تحمله من مصر وكذلك النكباء أي التي فيها انحراف .

وثنــاء قــدمــت بين يــدي نجـــ ـــواي إذ لم يكن لــدى ثـــراء

وهذا الذى قدمه ثراء أي ثراء

مــا أقــام الصـلاة من عبـداللـــ ـــه وقـــامت بـــربها الأشيـــاء

وهذا آخـر بيت فى الهمزية وقد حـرصنا على اتصال أبيـاتها إلى حيث كان الجدل ومخاصمة أهل الكتـاب ، ثم اختصرنا واخترنا ؛ إذ ذلك يخرج بنا إلى بـاب من شرح وقد أحسن القيام به غيرنا فمن شاء الاستزادة منه رجع إلى ما جودوه فى هذا الباب .

وإحسان البوصيرى الذى ينبغى أن ينبه إليه وعليه كثير. وله قصيدة دالية نظمها سنـة ٦٥٥هـ سماهـا تقديس الحرم من تـدنيس الضرم ، يـذكر فيهـا نار الحجـاز التى

ظهرت بالمدينة وأوردها النبهانى فى أول قافية الدال وقدم لها مطلعها :

إلهى على كل الأمــور لـك الحمــد فليـس لما أوليـت مـن نعم حـــد
لك الأمــر من قبل الــزمــان وبعــده ومــا لك قبـل كــالــزمــان ولا بعــد

وهذا هو المعنى الذى فصله الغزالى رحمه الله من قبل في تهافت الفلاسفة ووسمه بالنسبية .

وحكمك مـاض فى الخلائق نـافـذ إذ شئت أمــرا ليس من كـونــه بـد

جملة ليس صفة لأمر

تضل وتهدى مـن تشــاء من الــورى ومــا بيــد الإنســان غي ولا رشــد
دعـوا معشر الضــلال عنـا حـديثكم فــلا خطأ منــه يجاب ولا عمــد

ونقول بعد : «وما محاسن شيء كله حسن »
ونختم الحديث عن البوصيرى بهذه الأبيات التى هي أول بردته .

أمن تــذكــر جيران بــذي سلم مــزجت دمعـا جـرى من مقلـة بــدم
أم هبت الــريح من تلقــاء كــاظمــة وأومــض البرق فى الظلماء مــن إضــم
فما لعينيك إن قلـت اكففــا همتــا ومــــا لقلبـك ان قلت استفـق يهم
أيحســب الصــب أن الحب منكتــم مــا بين منسجم منــه ومضطــرم

فالمنسجم ما يترقرق من الدمع والمضطرم ما في الفؤاد من لواعج .

لــولا الهوى لم تـرق دمعــا على طلل ولا أرقت لــذكــر البــان والعلم
فكيف تنكــر حبـا بعــد مـا شهــدت بــه عليك عــدول الــدمـع والسقم

فهذان شاهدان ، وكأن العدول في محاكم المسلمين وعند قضاتهم أشبه بمن يسمون الآن بـالموثقين . وأحسب أن «فشر» المؤرخ ذكــر أن من ضمن مـا أفـادتـه أوربـا من الترك العثمانيين التسـامح الـديني وضروبـا من أعمال الحضـارة وفنـونها أحسبهـا ذكـر فيهـا القـوانين ، و إنما هي من الفقه كما لا يخفى . ومكـان الأتـراك في الحضارة لا ينكـر. و إنما أضر بهم الضعف الذي اعتراهم في القرن الماضي حتى زالت الخلافـة وخرج عليها من

خرج وخانها من خان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأثبت الـــوجـــد خطى عبرة وضنى — مثل البهـــار على خـــديك والعنم
نعم سرى طيـف من أهـــوى فـأرقنى — والحب يعترض اللـــذات بـــالألم
يـالائمى في الهوى العـــذري معـذرة — منـي إليـك ولـــو أنصفـت لم تلـم
عـــدتك حـــالي لا سرى بمستتر — عن الـــوشـــاة ولا دائي بمنحسم
محضتني النصـح لكن لست أسمعـــه — إن المحـب عن العـــذال فى صمـم
إنى اتهمـت نصيح الشيب فى عـــذل — والشيب أبعـــد فى نصـح عن التهـم

إذ هو نذير قرب الأجل

فإن أمـــارتى بـالسـوء مـــا اتعظت — من جهلهـــا بنـذيـر الشيب والهرم

انظر إلى انسياب الخروج ههنا

ولا أعـدت من الفعل الجميل قـرى — ضيـف ألم بـــرأسى غير محتشـم

هذا من قصيدة أبي الطيب ضمنه

لـــو كنت أعلـم أنى مـــا أوقـــره — كتمت سرا بـدا لى منـــه بـالكتم

وهو مما يصبغ به الشيب ويسوده

من لى بـــرد جماح مـن غـــوايتهـــا — كما يـــرد جماح الخيل بـــاللجـم
فـلا تـرم بـالمعـاصى كسر شهـوتها — إن الطعـــام يقـوى شهـــوة النهم
والنفس كـالطفل إن تهملـه شب على — حب الـــرضـــاع وإن تفطمـــه ينفطم

وهذا نهج عزيز وذهب إبريز. والبردة كما قال ابن المعتز عن تائية دعبل ولا موازنة أشهر من الشمس، ومثلها باهرة .

فإن فضل رســول اللـه ليس لـه — حـد فيعـــرب عنـه نـــاطق بفم

وفى آخرها يقول وقد صدق إذ لم يجد في شعر كما أجاد فى مدحه صلى الله عليه وسلم

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه	وجدته لخلاصى خير ملتزم
ولن يفوت الغنى منه يدا تربت	إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم

وهذا نفس من المغرب والأندلس

ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت	يدا زهير بما أثنى على هرم
يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم
يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت	إن الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربى حين يقسمها	تأتى على حسب العصيان في القسم
يا رب واجعل رجائى غير منعكس	لديك واجعل حسابى غير منخرم

وقد كان فى عمل الحساب دهرا رحمه الله فعبارة منخرم من عمل المحاسبين واصطلاحهم.

والطف بعبدك فى الدارين إن له	صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم
وائذن لسحب صلاة منك دائمة	على النبي بمنهل ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا	وأطرب العيس حادى العيس بالنغم

والمادحون المترنمون بالبردة جعلوا صلاتها:

يارب صل وسلم دائما أبدا	على حبيبك خير الخلق كلهم

وكسر الهاء والميم مذهب أبى عمرو في القراءة وفى هذا الحرف وجوه ذكرها ابن جنى كلها في المحتسب.

والمادحون المترنمون بالبردة يضيفون إلى آخرها:

وهذه بردة المختار قد ختمت	يا حسن مبتدأ منها ومختتم

فى أبيات يذكرون بها عددها مع طلب المغفرة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورحم الله الإمام أبا عبدالله محمد بن محمد بن سعيد البوصيرى ونفعنا ببيانه وصدقه وبركته وهذا الشعر الدر النفيس الذي هو من مفاخر العربية وحضارتها ومما حفظت وتحفظ به المعجزة إن شاء الله تعالى.

وقد يحلو الحديث في المديح ويود المفيض فيه ألا يغادر من كبار شعرائه أحدا كابن الجنان الأندلسي وابن نباته المصري والشهاب محمود ولم نظفر بخبر ابن أبي الخصال الأندلسي إلا بآخرة. وقد قام بعض فضلاء المغاربة بالتنويه بأمره بدرسه منذ زمان قريب فوفاه بذلك بعض حقه إن شاء الله تعالى فى هذا الباب. وقد أورد صاحب المجموعة النبهانية للشهاب محمود أمثلة كثيرة طيبة. ونكتفى هنا بأبيات من همزيته التى جاراها شوقى.

ما آذنته ببينها أسماء ... فنقول ثاو مل منه ثواء

لكنه ذكر الحمى فتقاسمت ... أحشاءه الأشجان والبرحاء

متوقد الزفرات تطفىء وجده ... إلمامة بلوى الحمى لا الماء

وكأن شوقيا نظر إلى ههنا فى الهمزية المفتوحة التى رثى بها عمر المختار حيث قال:

إن البطولة أن تموت من الظما ... ليس البطولة أن تعب الماءَ

وبيت الشهاب فيه صناعة حسنة: إلمامة ــ بلوى الحما ـ لا الماء جعلنا الحمى بألف للتنبيه على الشبه بينها وبين الماء.

أضحى لقا فى الحى ليس يقيمه ... إلا اللقاء وما هناك لقاء

يهوى الملام لذكرهم وهو الذى ... يشجيه فهو دواؤه والداء

هذا أخذه من أبي الطيب «أأحبه وأحب فيه ملامة» البيت

ويروقه حر الهواجر في السرى ... نحو الحمى فلهيبها أنداء

وإذا جرى ذكر العقيق جرى له ... دمع حكاه إذ الدموع دماء

وهنا مدخل الخروج إلى المديح لأن العقيق بالمدينة حرسها الله:

يا حبذا وادي العقيق وحبذا ... بقبا ظلال الدوح والأفياء

ومسارح بين النخيل تأرجت ... منها بعرف نسيمها الأرجاء

فكأنما في كل أرض بالحمى ... مغنى غنى أو روضة غناء

لا يرتوي صادى الهوى إلا إذا ... لحظته منها عينها الزرقاء

العين الزرقاء بالمدينة وهنا تورية بزرقاء اليمامة وبالعين الباصرة كما لاحظ النبهانى رحمه الله فى هامشه.

وإذا بـــدا بـــاب المصلى بـــان من 		تلك القبـــاب أشعـــة وضيـــاء

ثم يقول:

طـــوبى لمن أضحـى بطيبـــة داره 		ولـــه بها الإصبـــاح والإمســـاء
دار الهدى والمنـــزل الـــرحب الـــذي 		كـــانت بـــه تتنـــزل الأنبـــاء
ومقـــام خير العـــالمين بأسرهـم 		عنـــد الإلـــه ومن لـــه الإسراء
هل بـالنهـار وقـد جـلا ظلم الـدجى 		للنـــاظـــرين إذا رأوه خفـــاء
ذو المعجـزات البـاهـرات تميـزت 		عن أن يميـــز وصفهـــا الإحصـــاء
يـا قـاصـدا مـا ليس يـدرك حصره 		من وصفـــه مـــا لا ينـــال عنـــاء
فـاتت مـدائحـه القصـائد فـاقتصـد 		يغنيـــك عـــن تصريحك الإيماء
هل يبلغ الشعـــراء شيئـا؟ قـــد أتت 		بصفـــاتـــه الأحـــزاب والشعـــراء

قوله قد أتت مستأنف وليس بصفة لقوله شيئا فتأمله، إذ لا يريد أن يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شيء وصفته الأحزاب والشعراء وإنما يريد أن الشعراء لا يبلغون من شيء فى نعته، وفي الاستفهام معنى النفى.

الأمـــر أعظـم أن يحاط بكنهـــه 		مـــا ذاك ممـــا تبلغ البلغـــاء
صلى عليـه اللـــه مـا سرت الصبـا 		فـوق الـربـا وتـلاقت الأنـواء

ولكن الشهاب رحمه الله دون الثلاثة الذين ذكرنا فى حاق رنين إيقاع المدح النبوي ودون الوتري وليس له رقة ابن الخطيب، إلا أنه فصيح العبارة قوى نفس الخطابة وله صناعة أحيانا محكمة والله تعالى أعلم.

هذا وقد جمعت المجموعـة النبهانية كثيرا من جياد النبويات وهى عمـل يدل على توفر وإتقان وصحبه توفيق من المولى سبحانه وسداد. غير أنه اعتمد سوى ما اشتهر من أمر البرعي رحمه الله على شعراء الـديار الشامية والمصريـة والعراق ومن جمع منهم صاحب النفح والأزهار. وقد صدق إذ ذكر ما معناه أن مديح النبي صلى الله عليه وسلم فى كل عصر وفى كل قطر من أقطار الإسـلام وعصوره وقد نظرت فلم أجد في المجموعـة نونية كنت لى بها عهد وهي من أولها:

إن لمع البرق مـــن خيـــف منـــى 		جـــدد الـــوجـــد وهـــاج الحزنـــا
كلما طـــرز أثـــواب الـــدجى 		لمعـــه أحـــرم عينـى الـــوسنـــا

وهي لشاعر يمنى محسن.

وقد شارك فى المديح النبوى كل المسلمين ولمحسنيهم في ذلك إحسان ولعل الشيخ النبهاني رحمه الله لو وقع له من جياد ذلك شيء سوى ما ظفر به لنشره وينبغى أن ننبه في هذا الموضع إلى معادن فصاحة وتجويد بالمغرب الأقصى في هذا المجال. وقد كان في بلاد شنقيط علم وتبحر فى العربية وعلومها وأسانيد رجالها وحفظ متقن. وقد كان لمحمود بن التلاميد الشنقيطى أثر كبير علي رواد جيل النهضة بمصر كالشيخ حسين المرصفى صاحب الوسيلة التى قد صارت بعد لدى أهل الأدب إلى ما قدروا عليه من أبوابه وسيلة، حتى إن أصحاب الأفلام ما خلوا فى عصور تلت النهضة الأولى من انتفاع بها، كقصة البراق، التي أخرجتها السينما وكانت بطلتها السيدة بهيجة حافظ رحمها الله وكانت تتغنى ويتغنى لها بالأبيات التى أوردها صاحب الوسيلة:

ليت للبراق عينا فترى ... ما ألاقى من عذاب وعنا
حبسونى عذبونى ضربوا ... موضع العفة منى بالعصا

أو شيئا من هذا القبيل وليراجع.

وكان فى شنقيط من محسنى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهد قريب جماعة وأورد الأستاذ محمد الحافظ بن أكاه له في رسالة من رسالات الطلبة بفاس (رقم التسجيل ٧٨ـ/ ٢١٠٠) للعام الجامعي (١) ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ أمثلة حسنة من هذا الباب، نشير هنا إلى بعض مطالعها كبائية محمد والنان بن المعلى:

أعين متى ما ترق فاضت غروبها ... ونفس إذا انساحت توالت كروبها
أراح عليها الليل عازب همها ... فكادت تباريح الهموم تذيبها

وفى المدح النبوي منها:

رسول الإله المستضاء بنوره ... عليه صلاة الله ينفح طيبها
خلاصة فهر بدرها وذكاؤها ... وفارسها يوم الوغى وخطيبها

وكلامية ابن المختار:

سقت شآبيب غيث رائح هطل ... ديار علوة لو هجت الهوائج لى
وصانها من يماني الوشى ما نسجت ... صناع وسميها الدلوي والحمل
حتى ترى ورباها بعد ما عريت ... تهتز من حلل من روضها الخضل

وخرج من المقدمة بقوله:

دع ذا وشمر لما ترجى عواقبه ... وما به تبلغ الأقصى من الأمل

---

(١) قدمت تحت اشراف صاحب الكتاب وأوصى بأن تنشر لجودتها في بابها وندرته من حيث المادة وعلاجها معا.

ثم يقول :

محمـــد سيـــد الكـــونين سيـــد من ... مشى على الأرض مـن حـــاف ومنتعل
محمـــد سيـــد الهاديـن سيـــد من ... جـابت بـه البيــد قـود الأينق الـذلل

وهذا من نفس البردة والروى والبحر للشقراطيسية.
وكنونية أحمد بن محمد سالم

أتـــــذرى عينـــــه فضض الجمان ... غـــرامـــا من تـــذكــــره المغـــاني
مغـــــان بـــــالعقيق إلى المنقـى ... إلى أحـــد تـــذكـــرهـــا شجـــاني
ومن تـــذكـــار منـــزلـــة بسلع ... إلى الجما تعـــاني مـــا تعـــاني
فهل عـــزم يصـــول على التـــواني ... وهل بعـــد التبـــاعـــد من تـــدان
وهـل أغـــدو بكـــور الطير رحلى ... على وجنـــاء دوسرة هجـــان

أى هل أبكر كما يبكر الطير عند وقت بكوره.

تبـــذ العيس لاحقـــة كـــلاهـــا ... وتطـــوي البيـــد مسنفـــة اللبـــان
تـــرى بعـــد الـــدؤوب كأخـــدري ... بيمئـــــود أرن على أتـــــان

فهذا نمط الأوائل كما ترى ثم يقول فى المديح النبوي :

ومـــا ذو لبـــدتين ببطن تـــرج ... أبـــو شبلين مقـــروح الجنـــان
كصـــولتـــــه، ولافيـح الجوابي ... تشـابـــه مـا لـــديـــه مـن الجفـان
ولا بـــــدر التمام إذا تبــــدى ... بضـــاحى البـــدر ليلـة إضحيـــان
ولا شمـــس الظهيرة فى دجـــن ... تحاكـى وجنتيـــــه ولا تـــــداني
مـــلاحـــة خـــده لما رأتها ... لـــدى إسرائه حـــور الجنـــان
صنعن كما صنعـن نســـا زليخـــا ... لـــرؤيـــة يـــوسف البهج الحســـان
دنـــــا فى ذلك المسرى دنـــــوا ... من الـــرحمن مـــا يـــدنـــوه دانى
وذاك القـــرب تقـــريب اصطفـــاء ... وليس مـن المســـافـــة والمكـــان

ثم يقول :

بجاه المصطفى ادعوك ياذالـ ... ـعطايا والحنان والامتنان

بنقل حركة الهمزة

وجـــد لي بـــالهدى وامنن بتـــوب ... وكفـــر من ذنـــوبي مـــا دهـــاني
وحطنـــا واكفنـــا شر الأعـــادي ... جميعـــا واضربـن ســـور الأمـــان

وقد علق محمد الحافظ في ما كتب على هـذه النونية بقوله: «كلمة سلسـة عذبة الموسيقا سهلة الألفاظ ـ تقريبا ـ واضحة الأفكار ذات انسجام واسترسال في مثل قوله:

بجـاهِ المصطفـى ادعــوك يــا ذا الـــ ... ــعطايا والحنـانِ والامتنـان.ا.هـــ

وقلت وكان حق هذه الكلمة أن تكون لها صلاة ولعلها لها كأن يقول على طريقة مداح الشيخ عبدالرحيم البرعي رحمه الله:

عليك صلاة خالقنا وغيث ... من التسليم يهمى كل آن

وقد تـأثر غرب إفـريقية بعلـم المغرب وشنقيط، ففي بـلاد هوسـا وسنغال شعـر نبوي فصيح حسن مثل كلمة الشيخ على حرازم الكشناوي:

قطــوف ريــاض الحب للصب دانيــة ... وفي قلبــه نــار من الــوجــد حـاميــة
زبـــانيـــة التهيـــام تعتـــاد دفعـــه ... وليس يطيق الصـب دفع الـــزبـــانيــة
ومـــاذاك الا مـن محبـــة خـــدلـــة ... عــروب بخنــداة من البيض غــانيــة
بدت لى بـدو الشمس فى رونق الضحى ... فما بقيت لى مـن جبـــالي بـــاقيـــة
فقلت لها والقلـب عـــاث بـــه الهوى ... أشـــاميــة أم أنـت ليلى الحجــازيـــة

خفف ياء النسب

فقالت أنا داء القلوب وبرؤها ... إذا شربت منى كؤوسا سلافية

بالتخفيف أو كئوس سلافية بالإضافة وفي الطبع خطأ كثير وأحسب كئوس سلافيه بياء المتكلم وهاء السكت وإضافة كئوس إلى سلافيه بلا تنوين هو الصواب هنا:

ومن لم يمـت حيـــا فـــذلـك لم يعش ... بنـــا عيشـــة في جنـة الحب راضيـــة
فقلت وأعطتنـى كتـــابـــا من الهوى ... فيـــا ليتني لم أوت منهـــا كتـــابيـــه
قوله فيا ليتني مقولُ القول المتقدم
فـــولت بـــآمـــالي وصرت معـــذبـــا ... بأنـــواع آلام من الهجـــر نـــاريـــه

أي ناري بأنـواع آلام الهجر، بإضـافة نار إلى يـاء المتكلم بعدهـا هاء السكت، ولك أن تجعل الياء نسبية مخففـة صفة لآلام وما تقدم أصح وأجـود. ثم انتقل من هذا النسيب الوجداني إلى المديح النبوي :

ولم يبق لى إلا شفـــاعـــة شـــافع   مقـــامـــاتـــه في حضرة اللـــه راقيـــة
دعـــانـــا لتـــوحيـــد الإلـــه وبـــره   بأوضـح آيـــات من اللـــه بـــاديـــة

وهذه الأبيـات مع كلمات أخر للشيخ حرازم وغيره في مجموعـة الفيض الهامع في تراجم أهل السر الجامع لأبي بكر عتيق ابن العالم خضر الكشني التجاني[1]. كشنا الآن في بلاد دولة نيجريا في القسم الشمالى. من طريق الإسـلام والقرآن وعلوم الدين والشعر النبوي فصـاحـة جمة في سـائر بـلاد الإسلام. وقـد جعل بحـر الفصـاحـة ينحسر عن أكثـر المعاصرين من الجيل المسلم الحديث إلا ما بقى من ذلك عند أهل المحافظة، وعند من جعلوا يفطنـون بآخرة إلى أهمية التمسك بـالأصول وألا نتيه وراء السراب، والله بـرحمته وعونه وجوده يوفقنا ويهدينا إن شاء إلى الصواب.

لعل هذا الفصل عن الأغراض قد طال شيئا. ولكنا رأينا أن باب المديح النبوي خاصة كأنه مغفـول عنه إلا ما قـدمنا ذكره من عمل الدكتـور زكي مبارك رحمه الله وعطـر ثراه وجعل الجنة متقلبـه ومثواه، فنسأل الله أن يكـون لهذا الذي قدمنـاه نفع وقبول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حاشية : مما أخذ على البوصيري قوله :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

كأن آخذه عليه ينكر منه هذا التوسل. ولو فطن لعلم أن الحادث العمم إنما هو موقف يـوم القيامـة والغـرق في العـرق، إذ لا نعلم حادثـا عمما سـواه وسـوى الطوفـان على الحقيقة، والطـوفان قد مر. وسيـاق القصيدة، لذكره زلاتـه التى يخشى بسببها الهلاك ويـرجو النجـاة من سوء عـاقبتهـا بالشفـاعـة بعد هـذا البيت مباشرة، يبين أن مـراده بالحادث العمم يوم القيامة لا حادث سواه وذلك قوله :

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت   إن الكبـــائر في الغفـــران كـــاللمم

وهنا أيضـا إشارة إلى آيـة تنزيل «قل يا عبـادي الذين أسرفـوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم» فهذا يقوى ما قدمنا من أن

(1) طبع مصر، القاهرة، المطبعة المنيرية سنة ١٣٧٦هـ

مراده بالحادث العمم يوم القيامة. وفي الحديث مايفيد أنه صلى الله عليه وسلم هو الملاذ في ذلك اليوم حين يقول كل امرىء نفسي نفسي، قال تعالى: «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» فيعتذر كل من ترجي شفاعته إلا من أنزل الله سبحانه وتعالى فيه «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» - قال المفسرون كما تقدم إن عسى هنا واجبة. (وحتى على تقدير أن عسى احتمالية أو رجائية غير واجبة وذلك ما لا يقول به أحد ولانقول به. حتى على هذا الوجه البعيد فإن ههنا استثناء من آية النحل «يوم تأتي كل نفس الآية» لأن الله جل شأنه يقول «عسى أن يبعثك» فهذا البعث هو يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، فاستثناؤه صلى الله عليه وسلم حق حتى على هذا الوجه على وذلك ظاهر والحمد لله. وفي الحديث الصحيح مايفيد أنه صلى الله عليه وسلم هو الذي يقوم المقام المحمود يوم القيامة وذلك اليوم هو المعنى كما تقدم بالحادث العمم. وإنما أتي الآخذ على البوصيري ما أخذه من جهة حصر معنى الحادث العمم في معنى النازلة التي تنزل بالمرء، وهذه تكون كالعامة إن كانت بلاء شمل عددا كبيرا من الناس كما يحدث من الأوبئة والزلازل مثلا. ولكن العمومية هنا نسبية ليست مطلقة. وقد تنزل النازلة بالمرء وحده فيسميها حادثا عمما على سبيل المبالغة. وكل ذلك ليس له مثل معنى عمومية الهول يوم الحساب وهو المراد من البوصيري هنا ويناسب ما تلا البيت من ذكره الزلة كما يناسب ما بدأ به البردة من شكوى التقصير والندم كقوله:

وما تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

وعزل البيت عما تقدمه وتلاه وحمل معناه على المجاز دون الحقيقة بقصد الطعن على صاحبه وهو يتقرب إلى ربه بتوقير نبيه صلى الله عليه وسلم وتعزيره، من الخطأ والله هو العليم بالسرائر وما تخفى الصدور وهو الموفق للصواب.

العنصر الرابع وهو نَفَس الشاعر

مرادنا من قولنا « نفس الشاعر» بفتح النون والفاء هذا الروح الذي يربط بين أول القصيدة وآخرها، وبين مطالع الأبيات ومقاطعها، وبين البيت والبيت، وبين مجموعات الأبيات التي تكون معا في معنى أو دلالة واحدة أو متقاربة ومجموعات الأبيات التي تلي أو تكون قد تقدمت في معنى آخر. وقالوا هذا الشاعر طويل النفس إذا طالت القصيدة وكانت أبياتها وقوافيها تنثال عليه انثيالا. وقولنا «هذا الروح»أردنا به التنبيه على أن أمر نفس الشاعر فيه خفاء، إذ أمر الروح فيه خفاء. الوزن، الإيقاع، القافية، الأغراض، الألفاظ، المعاني، التشبيه والاستعارة وما

أشبهها، كل أولئك أمور واضحات ولسن بمنفصلات عن نفس الشاعر ولا هو بمنفصل عنهن. وليس شيء من خصال الشعر بمنفصل بعضه عن كله، إذ الشعر كل واحد فيما يكون منه قصائد طوالا أو قطعا قصارا أو غير ذلك. وإنما نعمد إلى تمييز عناصره ومكوناته بعضها عن بعض بقصد الدرس وإمعان النظر، كما ذكرنا من قبل. ومع خفاء أمر نفس الشاعر من حيث إنه روح من حيوية رابطة محركة مؤثرة معبرة معا، قد نقدر على استبانة دلائل منه وعلامات ينبئن عنه. من ذلك مثلا قول زياد :-

فعد عما مضى إذ لا ارتجاع له   وانم القتود على عيرانة أجد

فهذا ربط به بين ما تلا من نعت الناقة والطريق وما تقدم من نعت الأطلال.
وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني   فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم   ونجا برأس طمرة ولجام

فهذا خروج تخلص به من النسيب إلى ذكر خبر بدر وهزيمة قريش، وفهم الحارث بن هشام مراده فلم يأت بمقدمة من نسيب، ولكنه قال :

الله يعلم ما تركت قتالهم   حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم   في مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أني إن أقاتل واحدا   أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم   طمعا لهم بعقاب يوم مرصد

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها   إلا العتاق النجيبات المراسيل

فخرج من النسيب إلى الرحلة.
ثم خرج من الرحلة إلى الاعتذار ومن الاعتذار وإعلان التوبة إلى صريح المدح - وقال أبو الطيب وهو يخرج من النسيب بذلك إلى المدح :-

لقيت بدرب القلة الفجر لقية   شفت كمدي والصبح فيه قتيل
ويوما كأن الحسن فيه علامة   بعثت بها والشمس منك رسول
وما قبل سيف الدولة اثار عاشق   ولا طلبت عند الظلام ذحول

ولكنـــــه يأتي بكـل غـــريبـــة ... تـــــروع على استغـــــرابها وتهول
رمى الــدرب بـالجرد الجيـاد إلى العـدا ... ومــا علمــوا أن السهـــام خيــول
شــوائل تشــوال العقــارب بــالقنــا ... لها مــــرح من تحتــــه وصهيـل

فاستعان أبو الطيب بذكر فضل سيف الدولة عليه أنه أتاح له أن يلقى الحبيب بدرب القلة فجعل ذكر ذلك الفضل سبيلا يخرج به إلى المدح. وهذا من رشيق تخلص أبي الطيب وأملئه بالعاطفة وحديث القلب. لعل أبا الطيب ما لقى بدرب القلة إلا تذكرا قويا لجمال الحبيب إذ طلعت الشمس في رونق من حسن الفجر كأنه علامة ممن أحب. وهذا المعنى على براعته وخفائه مولد من قول الأنصاري:

تبدت لنا كـالشمس خلف غمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

أم لعل أبا الطيب إنما رأى طيفا عند تعريس المسافر؟
واعلم أيها القارىء الكريم أن من علامات نفس الشاعر ودلائله أشياء نذكر منها فيما يلي إن شاء الله :ـ

أولا : التسلسل

وهو ضربان، ما كان في ضوء فكرة واضحة وما جىء به على سياق عادة الشعراء ـ ومرادنا بالتسلسل أن يتتابع الكلام تتابع عقد السلسلة، آخر ما تقدم منه منوط بما يليه، فمن أظهر ما يجيء من الضرب الأول ما تكون عليه صياغة كثير من القطع والقصائد القصار. فمن أمثلة القطع، قول قيس بن زهير:

تعلـم أن خير النــــــاس ميت ... على جفـــــر الهبـــاءة لا يـــريم
ولـــــولا ظلمــــه لظللت أبكـي ... عليـــه الـــدهــــر مــا طلع النجـــوم
ولكـن الفتـى حمل بـن بـــــــدر ... بغـى والبغي مــــرتعـــه وخيم
أظـن الحلـم دل عليَّ قــــــومـي ... وقـــد يستجهـل الـــرجل الحليم
ومــارست الـرجــال ومــارسـوني ... فمعـــــــــوج علي ومستقيـم

وأمر القطع واسع
ومن أمثلة القصيدات القصار، قول تأبط شرا يصف نجاته من هذيل على نحو شبيه بما نراه اليوم في مغامرات رعاة البقر، وكان تأبط شرا مما يتزيد في أحاديثه عن نفسه،

وشيء من ذلك كان لدهاة العرب مذهبا، يخيفون به الناس ـ قال:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا ... به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول ... إذا سد منه منخر جاش منخر

أخذ هذه الصورة من اندفاع مسايل الماء في مخارم الجبال، فإن سد منخر جاش منخر، ومن شاء جعله مأخوذا من تجربة الزكام، وينبغي أن يكون الموصوف هنا منخرا ضخما، والوجه الأول أولى وأشبه.

أقول للحيان وقد صفرت لهم ... وطابي ويومي ضيق الجحر معور

أي وقد هلكت أو كدت ويومي ضيق ومقاتلي بادية ـ قال امرؤ القيس:

وأفلتهن علباء جريضا ... ولو أدركنه صفر الوطاب

أي قتلناه ـ قال صاحب القاموس وصفرت وطابه أي مات أو قتل، وهو الوجه الذي ينبغي أن يفسر به هذا البيت.
قالوا وكانت مع تأبط شرا أوعية مملوءة عسلا فزعموا أنه قال للحيان إنه يضن عليهم بعسله ولهم أن يأسروه فإن شاءوا منوا وإن شاءوا قتلوا ولن يجمع لهم أن يأخذوه ويأخذوا عسله، فأراق العسل، وفسر بعضهم قوله صفرت لهم وطابي أي خلت وطابي من العسل ووطاب بكسر الواو وطاء مهملة بعدها ألف فباء جمع وطب بفتح فسكون وهو سقاء يكون فيه اللبن. وهذا وجه في التفسير والأول أجود، لأنه إنما أراق العسل بعد أن تظاهر بالاستسلام ويومه ضيق الجحر معور أي ظاهر عورة المقاتل.

هما خطتا إما إسار ومنة ... وإما دم والقتل بالحر أجدر

أي خطتان، حذف نون المثنى تخفيفا، وإسار مرفوعة الراء ولك أن تجعل إسارا مضافة فتكون مجرورة وكذلك منة وعليه فيكون حذف نون «خطتا» من أجل الإضافة والفصل بين المتضايفين بإما كأنه لا فصل لظهور المعنى.

وأخرى أصادي النفس عنها وإنها ... لمورد حزم إن فعلت ومصدر

أي وخطة ثالثةأصادي نفسي عنها، أراودها عنها، وهي أن أريق العسل وانزلق عليه ـ فهذا يقوي مـا ذهبنا إليه آنفا أن مـراده من قوله: وقد صفـرت لهم وطابي، أي كأن قد صفرت، كأن قد مت وقتلوني لضيق يومي وقلة ناصري وإعوار مقاتلي

فرشت لها صدري فـزل عن الصفا ... بـه جـؤجـؤ عبل ومتن مخصر

هذه هي المغامـرة «السينمائية» ـ وكان الخبر الممتع ينوب مكـان ما ننهمك فيه الآن من معاينات الصور والتشخيص والأفلام.

فخـالط سهل الأرض لم يكـدح الصفـا ... بـه كدحـة والموت خـزيان ينظـر

تجسيد الموت هنـا وإعطاؤه مشـاعر الآدمي وصفاتـه جد بـارع. والخزي إنما كان لبني لحيـان. وكانـوا هم من رسل الموت و أسبابـه. وصفـة البطولـة كما ترى في نعت هـذا الجؤجؤ أي الصـدر العبل والمتن الضـامـر وانزلاق هذا الفتى الخفيف انـزلاقا مـاهرا لم يكدح الحجر به كدحة.

فـأبـت إلى فهم ولم أك آئبـــــا ... وكم مثلهـا فـارقتهـا وهي تصفـر

أي وهي خـالية ليس بها من صـافر وإنما تصفـر بها الريح، وكأن ههنـا سخريـة وردا للكلام على قـوله من قبل «وقد صفرت لهم وطـابي» ـ صفر الأولى من باب فـرح وهذه من باب ضرب.

ومن أمثلة التسلسل في القصار من القصـائد، حائية جبيهاء وقـد مر خبرها وهي التي أولها:

امـولي بني تيـم ألست مـؤديـا ... منيحتنـــا فيما تــؤدي المنـــائح

ثم استمر في وصف المنيحة إلى آخر القصيدة وهي اثنا عشر بيتا.

ورائية الحارث بن وعلة الجرمي

فــدى لكما رجلي أمي وخــالتي ... غـداة الكـلاب إذ تحز الــدوابـر

وهي أحد عشر بيتا. وذلك من القطع قريب فلا تعجب أن يتلئب فيه تسلسل الكلام على سهولة في ذلك ويسر.

ويـائية عبـد يغـوث أدخل في القصيـد إذ هي عشرون بيتا والتسلسـل فيها جلى. بـدأ بالنهي عن اللوم أن يلومه أحد حيث أخذ أسيرا:

ألا لا تلـومـاني كفى اللـوم مـابيـا ... ومـا لكما في اللـوم خير ولا ليـا
ألم تعلما أن الملامـة نفعهـا ... قليل ومـا لـومي أخي من شماليـا

أي ليس اللـوم من سجياتي. ومـا أحسب المخاطبين إلا شيئـا واحدا جرده مـن نفسه وجعله صاحبين ـ وقد فسر بشار هذا من مذهب الأوائل كما قدمنا حيث قال:

أيها السـاقيـان صبـا شرابي ... واسقيـاني من ريـق بيضـاء رود

وهذا ما لا يكون إلا على معنى التجريد الذي قدمناه.
ثم خاطب الحارث من حال أسره راكبا أي راكب يبلغ عنه قومه. وبعد أن نهى عن أن يلام هـو، أنحى باللائمة على قـومه إذ أسلموه، ففسر مـا كان من قبل عماه من سبب نهيه عن الملامة، إذ لا خير فيها، إذ يظهر بعـد التمحيص خطأ قومه الذين أسلموه لا خطؤه هو ـ فتأمل.

فيـا راكبـا إمـا عـرضـت فبلغن ... نـدامـاى من نجـران أن لا تـلاقيـا
أبـا كـرب والأيهمين كليهما ... وقيسـا بـأعلى حضرمـوت اليمانيـا
جـزى الله قـومي بـالكـلاب مـلامـة ... صريحهـم والآخـريـن المواليـا
ولـو شئت نجتني من الخيـل نهدة ... تـرى خلفهـا الحو الجيـاد تـواليـا

وهذا ما صنعه الحارث بن وعلة إذ فر

ولكنني أحمي ذمـار أبيكـم ... وكـان الـرماح يختطفن المحـاميـا

وقد اختطف أسيرا وشد وثاقه:

أقـول وقـد شـدوا لسـاني بنسعـة ... أمعشر تيم أطلقـوا لي لسـانيـا
أمعشر تيم قـد ملكتم فأسجحـوا ... فإن أخـاكم لم يكن من بـوائيـا

أي أنا أشرف شرفـا من أخيكم الذي تريـدون قتلي بواء به والبـواء في الثأر أن يقتل امرؤ بمن يساويه. قال ابن الأنباري في شرحه البواء السواء قال أحمد أي لم يكن أخوكم نظيرا لي فأكون بـواء له. ـ أحمد هو أحمد بن عبيـد بن ناصح من شيوخ أبي محمـد القاسم بن بشـار الانباري صـاحب الشرح ورواه عنه ابنـه أبـوبكر محمـد بن القاسم رحمهم اللـه

فإن تقتلـوني تقتلـوا بي سيـدا ... وإن تطلقـوني تحربـوني بماليـا

وكأنه أحس إجماعهم على قتله فأخذ في البكاء على نفسه

أحقــا عبــاد اللــه أن لست ســامعــا نشيــد الــرعــاء المعـــزبين المتــاليــا
وتضحك منــي شيخـــة عبشميــــة كـأن لم تــــرى قبلى أسيرا يمانيـــــا
كأنه قـال لم ترأ بسكون الراء وهمزة مفتوحـة، وحذف حرف العلة ثم ألقـى فتحة الهمزة على الراء نقلا فصارت ترى ـ قال الشارح ويروي كأن لم ترأ قبلي أسيرا. قال الفراء أبقى من الهمزة خلفـا والرواية هي الأولى وقلت وغير ظاهـر مراد الفراء إلا على الوجـه الذي قدمناه أولا والله أعلم

وظل نســاء الحي حــولي ركــدا يــراودن مني مــا تـريـد نســائيـا

من الأنس والمفاكهة ونشيد الشعر

وقـد علمت عــرسي مليكـة أنني أنـا الليث معـديـا علي وعـاديـا

هذا مساوق لما تقـدمه. أي نسائي يعلمن غنائي وبلائي فحـديثهن إلى عن إكرام وأما أنتن فما أنا إلا أسير أسيف مهين بينكن فكيف ترمن مني مـا ترومه نسائي. ولعل اسم عرسه لم يكن مليكة ولكنه جعل هذا اسما لها كناية عن مكانها في قلبه

وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ ـمطي وأمضى حيث لا حي مــاضيـا

أراد حيث لا ماضيا وكره الصفة بلا موصوف وهو المذهب الفصيح

وأنحــر للشرب الكــرام مطيتي وأصـــدع بين القينتين ردائيـــا

فنحر امرىء القيس مطيته لعذارى دارة جلجل كان على هذا الوجه، وبعيد أن ينتحل نحو هذا منتحل إذ هو منتزع من عرف حي

وكنت إذا ما الخيل شمصهـا القنا لبيقــا بتصريف القنــاة بنــانيـا

شمصها أي طعنها وآذاها وطردها كل مطرد

وعــاديــة ســوم الجراد وزعتهــا بكفي وقــد أنحـوا إلى العــواليـا

أي رب محاربين منتشرين انتشار الجراد أقبلوا مشرعين إلى الرماح رددتهم بكفي

كـأني لم أركــب جـــــــوادا ولم أقـل لخيلي كـــرى نفسي عن رجـــاليــــا
ولم أسبإ الـــــزق الــــروي ولم أقـل لأيســار صـدق أعظمـوا ضــوء نــاريـا
وهذان كبيتي امرىء القيس:

كأني لم أركب جـواداً للـذة ولم أتبطن كـاعبـاً ذات خلخـال
ولم أسبإ الـزق الـروي ولم أقل لخيلي كـرى كـرة بعـد إجفـال

قال صاحب عيار الشعر (ص ١٤٦): "هكذا الرواية وهما بيتان حسنان ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل وأدخل في استواء النسج فكان يروى:

كأني لم أركب جـواداً ولم أقل لخيلي كـرى كـرة بعـد إجفـال
ولم أسبإ الـزق الـروي للـذة ولم أتبطن كـاعبـاً ذات خلخـال

وقد بين أبو الطيب المتنبي فساد هذا الرأي، وانتصر للرواية التي رويت عن امرىء القيس بقول فصل ذكره راوو أخباره في شرح قصيدته

على قـدر أهل العزم تأتي العـزائم وتأتي على قـدر الكرام المكـارم

عند قوله

وقفت ومـا في الموت شك لـواقف كأنـك في جفن الـردى وهـو نـائم
تمر بك الأبطـال كلمى هـزيمـة ووجهك وضـاح وثغـرك بـاسم

ومن المتوسطات الطول ذوات التسلسل الواضح مع شيء من مراعاة عادة الشعر في البدء بمعنى نسيبي كلمة تأبط شرا:

يـاعيد مـا لك من شوق وإيـراق ومـر طيف على الأهـوال طـراق

فقد خلص من الطيف وهو يخاطبه إلى ذكر نجاته من بجيلة وذلك حيث قال:

إني إذا خلـة ضنت بنـائلهـا وأمسكت بضعيف الـوصل أحذاق
نجوت منها نجـائي من بجيلة إذ ألقيت ليلـة خبت الـرهط أرواقي

ثم خرج من هذا إلى صفة الخلة التي يؤثرها والصديق الذي يرى أن يعول عليه. ثم عاد إلى ذكر مأثرة من مآثر نفسه، كما نجا من بجيلة عدوا على بساط الأرض، صعد مرقبة يرصد من فوقها الأعداء

وقنـة كسنـان الـرمح بـارزة ضحيانـة في شهور الصيف محراق

وجعل صفة نفسه وليس على قدمه إلا شرثة يوقى البنان بها متصلة بصفة صاحبه الذي قال في صفته

كـالحقف حدأه النـامون قلت لـه ذو ثلتين وذو بهم وأربـاق

لتلبد شعره وكأنه أطباق رمل ندي لبدها الصاعدون عليها . ومن دقيق براعة اتصال بيان الشاعر ههنا أنه خلص من صفة رأس صاحبه الكثيف الشعر المتلبد شعره إلى صفة رأس الجبل الذي صعده وكأن قمته سنان رمح متلهب في حر شمس الصيف وكأن نعامته قزع متفرقات في مقابلة ما تقدم من صفة لبدة الشعر الكثيف ثم انتقل من صفة رأس الجبل ورأس صاحبه إلى صفة عدوه وقدميه هو وهذه النعل الخلق الشرثة الشبيهة بنعامة قنة الجبل المحراق الضحيانة ـ

ثم عاد إلى خطاب صاحبة الطيف وجعلها عذالة خذالة . ومع اتصال الكلام هنا عنصر من تداعي المعاني إذ النعل من ألفاظ تطلق على الزوجة ألغز بها الحريري في إحدى المقامات ويذكر مع ذلك الوطء ـ فما يخلو أن شبه العذالة الشرسة بالشرثة الخلق ـ وقد تعلم قول رؤبة من بعد :

يأوي إلى سفعاء كالثوب الخلق

ومن القصار المتصلات التسلسل نونية المرار في النخل :

وكائن من فتى سوء تراه   يعلك هجمة سودا وجونا

وقد ذكرناها في باب الصفات وفيها اثنا عشر بيتا

ومن ذوات التسلسل مع توسط دالية عمرو بن معد يكرب الحماسية :

ليس الجمال بمئزر   فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن   ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا   بغة وعداء علندى

وفيها خمسة عشر بيتا ، والكلام فيها آخذ بعضه برقاب بعض

نهدا وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا

يعني فرسه وسيفه الصمصامة

وعلمت أني يوم ذاك منازل كعبا ونهدا

ونهد اسم قبيلة هنا رده على نهد الذي هو فرسه ، ثم وصف عدوه بكمال الاستعداد

قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا

فالحلق الدروع والقد التروس أو كساء يدرع به من جلد

كل امرىء يجرى إلى   يوم الهياج بما استعدا

ومن عند هذا الموضع صار إلى ذكر صفة القتال ، وكيف أن خوف النساء وأخذهن في

الهرب خشاة السبى لما رأين من تخاذل رجالهن أمام هؤلاء المتنمرين قد أثار حفيظته

لما رأيـت نسـاءنـا | يفحصن بـالمعـزاء شـدا
وبـدت لميس كـأنها | بـدر السماء إذا تبـدى
وبـدت محاسنهـا التي | تخفى وكـان الأمـر جـدا

إذ كشفت عن ساقها وهي تعدو، فإما أن تحمى وإما أن تسبى ـ لما كان ذلك:

نـازلـت كبشهـم ولم | أر من نـزال الكبش بـدا

إذ لو لم ينازله لأخذ النعجة

هـم ينـذرون دمـى وأنـذ | ر إن لقيت بـأن أشـدا

ولا بد في الحرب من مصاب وفجيعة وإن تبع ذلك النصر

كـم مـن أخ لي صـالـح | بـوأتـه بيـدى لحدا

ويجوز أن يكون المراد ههنا رب من هو صالح أن يكون لى أخا لاكتمال صفات الشجاعة والنجدة فيـه، اضطرني واجب منازلتـه أن أقتله فأبوئه بقتليـه لحدا ـ وهذا يشبـه سياق الحديث وقوله من بعد:

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاى زندا

وقوله ولا يرد بكاى يشعر أن الذي بوأه لحدا أخ لـه من قومه قتله الأعداء كما قد قتل هو منهم وهذا هو المعنى الـذي قلنا به من قبل :ـ قوله لا يـرد بكاي زندا أي لا يجدي ولا يحرك شيئا ـ الزند هـو زند الذراع وحـركته طبيعيـة يسيرة لا تتطلب كبير جهد، فحتى نحو هذا اليسير لا يصنعه البكاء، يشير بذلك إلى عدم جدواه
وقصيدة الأخنس بن شهاب :

لابنـة حطـان بن عـوف منـازل | كما رقش العنـوان في الـرق كـاتب

من سبعة وعشرين بيتا وتبدأ بالنسيب إلا أنه نسيب في طريق الرحلة التي عليهاموضوع القصيدة وهو ذكر الجد والتشمير والفخر بذلك، وإنما وقف الشاعر على المنازل وهو في طريق تشميره وجـده وإنما هي وقفة ذكـرى مشعرة بـانصراف عن ذلك الماضي واقبال على أمر الرجـولة والحزم الذي قد أخـذ الآن بأسبابه ،وقفة الأخنس هنـا ليست كوقفة امريء القيس في :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

إن هذه وقفة حنين وقلب حـزين ـ قال الأخنس ، والقصيدة مفضلية حماسية ، حذف منها أبو تمام أبيات ديار القبائل وإنما بنى أمره على الاختيار لا على محض الرواية :

لابنــة حطــان بن عــوف منــازل كما رقش العنــوان في الــرق كــاتب

هذا أول القصيدة عند المفضل وروى أبو تمام قبله بيتا وجاء به ثانيا هكذا :

فمن يك أمسى في بــلاد مقــامــه يســائل أطــلالا بها لا تجاوب
فــلابنــة حطــان بن قيس منــازل كما نمق العنــوان في الــرق كــاتب

وكأن هذا المطلع ينكر البدء بذكر الطلل ثم يرجع إلى ذلك كصنيع عنترة ، فإن صح هذا الذي نراه ، فلعله مما يكون أبو تمام قد آثر به هذه الرواية ، غير أنه لا ريب أن رواية ما روى عن المفضل أجدر أن يعول عليها

هذا وبعد الوقفة قليلا ، رجع الأخنس إلى مذهب ما أخذ به من الجد والحزم . وإنما وقف لقضاء حق الذكرى وتوديع عهدها ، وداعا كل الوداع :

ظللت بها أعــرى وأشعــر سخنــة كما اعتــاد محمــومــا بخيبر صــالب

وهذا من جيد أوصاف الحمى ، وكان الأستاذ التجاني الماحي رحمه الله مما ينشد هذا البيت ويقرنه بقول عبدة بن الطبيب

رس كـــرس أخي الحمـى إذا غبرت يــومــا تأوبــه منهــا عقــابيل

ويقول إن ذلك من أدق ما وصفت به حمى الورد وهي التي يقال لها الآن الملاريا ويقرن بذلك أبيات المتنبي من قصيدته الميمية المشهورة

وزائرتي كــأن بها حيـــــــــاء فليس تـــــزور إلا في الظــــلام

ومما يحسن أن نستطرد به هنا ما عيب به قوله :

اذا مــــا فـــــارقتني غسلتني كأنــــا عــــاكفـــان على حــــرام

إذ الغسل واجب على كل حال . ومقال أبي الطيب جيد محكم لأنه جعلها زائرة في الظلام ، فلا يكون وصلها إلا حراما

ثم يقول الأخنس وهذا البيت متقدم في رواية ما اختاره حبيب :

تظل بها ربـــد النعــــام كـأنها　　　إمــاء تــزجي بــالعشي حــواطب

والنعامة هوجاء، فعدل عن تشبيه النعام بـإماء صاحبته في الزمان الذي تصرم إلى صفة ناقته الهوجاء وصفة ما كان عليه من أمر الصرامة والحزم:

خليــلاي هــوجــاء النجــاء شملــة　　　وذو شطب لا يجتــويــه المصــاحب
وقـد عشـت دهـرا والغـواة صحــابتي　　　أولئك خلصـــاني الــذين أصــاحب
رفيقـــا لمن أعيـــا وقلـــد حبلـــه　　　وحــاذر جــراه الصــديق الأقــارب

فهذا زمان صعلكته وشراسته، ثم لما انجلت عنه عماية الشباب أقبل على ما أقبل عليه

فأديت عنـي مـا استعـرت من الصبـا　　　وللمال عنـــدي الآن راع وكــــاسب

ثم أخذ في تعداد ديار القبائل ، ليخلص مـن ذلك إلى ذكر قومه أنهم بارض صحصح لا يحميها حجاز جبال أو سيف بحر ـ وذلك قوله بعد تسعة أبيات هي مرجع في معرفة كثير من حال مواضع القبائل على زمان الجاهلية:

ونحن أنـــاس لا حجـــاز بأرضنـــا　　　مع الغيث مــا نلقى ومن هــو غــالب

ثم اخذ في باب الفخر بقومه ومنعتهم . ولا شك أن القصيدة أبياتها متصلة وأن المقدمة النسيبية ملتحمة بما بعدها أشد التحام.

هذا ومن المتوسطات في موضوع واحد متصلة أجزاؤه كلمة السموءل:

إذا المرء لم يــدنس من اللــؤم عـرضــه　　　فكـل رداء يـــرتــــديـــه جميـل

وفيها اثنان وعشرون بيتـا وهي مشهورة والنفس الاسرائيلي فيها قوى ـــ من ذلك قوله:

وإنــا لقــوم مــا نــرى القتـل سبــه　　　إذا مــارأتـــه عــامــر وسلــول

فهذا كأنه يطعن به في العرب.

وقوله:

ونحنكــر إن شئنــا على النــاس قــولهم　　　ولا ينكـــرون القـــول حين نقـــول

وهذا مما يفعلونه

وقوله: تعيرنـــا أنـــا قليل عـــديـــدنـــا　　　فقلـت لها إن الكـــــــرام قليـل
ومــا ضرنــا أنـا قليل وجــارنـــا　　　عــزيـــز وجـــار الأكثـــريـن ذليل

ومن هذا الضرب المتوسط نونية العدواني إن لم نعد نسيبها
ومن ذوات التسلسل مع الطول عينية متمم وهي من مشهور الشعر وقد استشهدنا منها بابيات عدد والشعر الجيد مما يعذب على التكرار . والقصيدة كلها متسلسلة الأبيات في ضوء فكرة واحدة هي الفجيعة بأخيه مالك . وفيها واحد وخمسون بيتا . من البيت الأول إلى العاشر عدد متمم فضائل أخيه . أول ما بدأ به أنه كما قال :

لعمري وما دهري بتأبين هالك ... ولا جزع مما أصاب فأوجعا

فنفى أن يكون مراده محض التأبين أو أنه جزع مع أن المصاب موجع ، ولكن الفقيد قد كان امرأ ذا فضائل يعظم فقده من أجل فقد نظيرهن عند غيره من بعده .

لقد كفن المنهال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

وقد عجل إلى ذكر المنهال لينوه بفضيلة ما اسدى من يد الوفاء حيث كفن مالكا ولم يخش أن يؤخذ عليه ما أبدى من المروءة . ثم أخذ متمم أولا في تعداد الجانب السلبي من مآثر أخيه ـ فتى غير مبطان ـ ولا برما وقابل ذلك بجانبه الإيجابي وما يناقضه عند غيره ـ لبيبا خصيبا ـ يهتز للندى

ويوما اذا ما كظك الخصم إن يكن ... نصيرك منهم لا تكن أنت أضيعا
وإن تلقه في الشرب لا تلق فاحشا ... على الكأس ذا قاذورة متزبعا

ذو القاذورة هوالذي يترفع عن الناس والمتزبع البخيل السيء الخلق وقالوا ذو القاذورة المتزبع هو الذي فيه فحش وسوء خلق

وإن ضرس الغزو الرجال رأيته ... أخا الحرب صدقا في اللقاء سميدعا
وما كان وقافا اذا الخيل اجحمت ... ولا طائشا عند اللقاء مدفعا

ولا بكهام بزة عن عدوه ... إذا هو لاقي حاسرا أو مدرعا

أجحمت بتقديم الجيم أي جبنت . بزه سلاحه . كهام ، كليل غير قاطع ، مثل هذا خليق أن تبكيه البواكي وذلك لانه سيحس فقده ، زمان الشتاء وعند اجتماع الشرب وفي ساحة الحرب و إذا طرق الضيف و إذا عز فداء الأسير وللأرامل والأيتام وعندما يدعى إلى الميسر

إذا جرد القوم القداح واوقدت ... لهم نار ايسار كفى من تضجعا

أي أتم العدد واحتمل ما يكون في ذلك من خسارة وغرم

وان شهد الأيسار لم يلف مالك على الفـــرث يحمي اللحـم أن يتمزعا

وعل شيئا من ذلك كان يصنعه كثير ممن يشهدون الميسر من أهل البخل أو الحرص.
واذ هكذا سيحس فقـد مالك فلماذا يصبر هو ـ أليس مثل هذا الفقيد مما تنفطـر معه الأفئدة ويستعذب الجزع؟
ثم أليس هو بأولى الناس ألا يصبر على فقده من بعده ؟

أبي الصبر آيـــــات أراهـــــــا وأنني أرى كل حبـل بعـــد حبلـك اقطعـــا
وأنـي متى مــــا أدع بـــــاسمك لا تجب وكنت جــديـــرا أن تجيب وتسمعـــا

أخذ من عند البيت السابع عشر الى الثاني والعشرين في حديث فجعه هو خاصة:

وعشنـا بخير في الحيـاة وقبلنـا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

ههنا نفس "أيني" يروم سبيل الحكمة والعزاء

فلما تفـــرقنـــا كـأني ومـــالكـــا لطـــول اجتماع لم نبت ليلـــة معـــا
وكنـــا كنـــدمـــاني جـــذيمـــة حقبـــة من الـــدهـر حتى قيـل لن يتصـدعـــا
فـإن تكـن الأيـــام فـــرقـن بيننـــا فقــد بــان محمــودا أخي حين ودعـــا

شبه حالهما بندماني جذيمة لأن هذا كـان ملكا وأصاب نديميه بنزوة غضب من نزوات الملـوك. فشبه متمم أمـرخـالد بـذلك . ثم تأمل أيها القـاريء الكـريم أنه في الأبيـات المتقـدمات تنـاول أمر المصـاب من جوانبـه التي تعم العشيرة، ثم جعل يخصص حتى صار إلى نفسه وما فجع به من فراقـه بعد طول المودة والاجتماع . ثم بعد أن استوثق من أنه قـد قرر عنـدك فضائل مـالك وعظيم فقده قـرن ذلك بتصريح موجـز جمع فيه بين الحزن والاعتزاز .

فقد بان محمودا أخي حين ودعا

هـو أخي وهو محمـود ـ نعم إنـه قـد بان وقـد فارق وفـارقنـاه ـ وانفـرط عقد البكـاء :

أقـول وقـد طـار السنا في ربـابـه وغيث يسـح الماء حتى تـريعـــا

بكى الشاعر واسترجع بعد الزفـرات ثم جعل يحيى أخاه بتحية الوداع وهي السقيا تعم البلاد وتخص المكان القفر الموحش الذي هو تربته

سقى اللـه أرضا حلها قبر مـالك ذهاب الغوادي المدجنـات فأمرعا

ثم يقول

فــواللـــه مــا أسقي البــلاد لحبهــا ... ولكننـى أسقـي الحبيب المودعـــــا
تحيتـــه منى وإن كـــان نـــائيـــا ... وأمسى تــرابــا فــوقــه الأرض بلقعــا

ولو كـانت القصيدة انتهت ههنا لكان في ذلك بـلاغ بليغ، ولكن الشعر ربما انبثق من الشعور دفعات.

وقد بلغ الشاعر بفكرة الأسى على مالك من حيث فقد الرجل العظيم الذي كانه مبلغ ما صار به إلى أن يحزن عليه ويعتز بذكراه.

ولكن بقي بعــد ذلك مـا يعقب الحزن والاعتــزاز من عـواقب الفقــد التي تعظم بها الفجيعـة، فقـدان النصير، وتضعضع الجاه والـوجـاهـة وانجـراح الفـؤاد أمـام تـوالي النوائب، ولقاء الشماتة والتجلد للأعداء والحساد، وتعذر الثأر والقصاص وهلم جرا

تقـول ابنــة العمـري مـــالك بعــد مـا ... أراك حـــديثـا نــاعم البــال أفــرعــا
فقلت لها طـــــول الأســى إذ سألتنـي ... ولــوعـة حــزن تترك الــوجـه أسفعـا
وفقـــــد بني أم تـــداعـــوا فلم أكن ... خــــلافهم أن أستكين وأضرعــــا
ولكنني أمضــى على ذاك مقــــدمـــا ... إذا بعض مـن يلقى الحروب تكعكعــا

هنا كرر ما قدمه في أول بيت حيث قال:

. . . . . ولا جزع مما أصاب فأوجعا

ولكنه هنـاك أجمل وهنا أخـذ في نوع من التفصيل ـ ثم زاد تفصيـلا يوضح مـا أجمله في جواب صاحبته حيث قال لها:

فقلت لها طول الأسى إذ سألتي

وكأن قد توهمها تسأله عن طول الأسى هذا أن يزيدها فيه بيانا فقال:

وغيرنى مــا غــال قيســا ومـــالكــا ... وعمـــرا وجـــزءا بـــالمشقــر ألمعــا
ومــاغـــال نــدمـــاني يــزيــد وليتني ... تمليتــــه بـــــالأهل والمال أجمعـــا

فذكر كما ترى فجائع مرت به قبل مقتل مـالك، فكان مقتله مما نكأ قرحها وجدد الحزن وزادت به حال الضعف وتضعضع منزلة الحي.

وإني وإن هـــازلتنى قـــد أصـــابنى ... من البث مـــا يبكى الحزين المفجعـــا
ولست إذا مـــا الـدهـر أحـدث نكبـة ... ورزءا بـــزوار القـــرائب أخضعـــا

في هذا البيت السادس والثـلاثين أدخل الشاعر عنصرا جديـدا زاد به في تتابع تسلسل فكرة الفجيعة ــ وهو هؤلاء القرائب الذين أفـادوا منزلة وجاها بعـد هلاك مالك. ولن

يقترب هو منهم أو يبدى خضوعا لهم ـ ويلتفت في سياق هذا الحديث إلى امـرأته مرة أخرى :

قعيـدك ألا تسمعيني مـلامـة ... ولاتنكئي قـرح الفـؤاد فييجعـا

ثم كأنه يعتذر عن بعض التقصير إذ يقول من بعد :

فقصرك إني قد شهـدت فلم أجد ... بكفي عنهم للمنيـة مـدفعـا

إنما هو القدر ودول الأيام

ومما ينبه عليه ذكـر متمم لابنة العمرى وحديثه إليها والكلمـة مرثية كما ترى . والحق أن ذكر النسـاء في باب الـرثاء ليس بشاذ وإن يك الاستهـلال به على المألـوف من مذهب ظاهر حنين النسيب نادرا كقول دريد :

أرث جديد الحبل من أم معبد

وقد تعلـم أن النساء كن هن النـائحات ، فقد يخاطبـن في أول الرثاء بهذا المعنـى كقول كعب بن مالك في رثاء سيد الشهداء :

صفيـة قـومي ولا تعجـزى ... وبكـى النسـاء على حمزة

وقد يذكر الشاعر النوائح للإخبار بإدراك الثأر كقول الربيع بن زياد

من كـان مسرورا بمقتل مـالك ... فليأت نسـوتنـا بـوجـه نهار

يجد النسـاء سـوافـرا يبكينـه ... يلطمـن أوجههن بـالأسحـار

وقد يذكر الشـاعر النساء لينبه على أن الفجيعة قد صرمت عهـده منهن وأبدلته بطلب أنسهن حزنا وبكاء ـ وإلى هذا المعنى أو قريب منه ذهب الذى رثى قتلى بدر فقال :

ألمت بـالتحيـة أم بكـر ... فحيـوا أم بكـر بـالسـلام

ألا يـا أم بكـر لا تكـري ... على الكـأس بعـد أخـى هشـام

وقال الحماسى :

أرابع مهـلا بعـض هـذا وأجملى ... ففى اليـأس نـاه والعـزاء جميل

ورابعة هذه امـرأته وأم ابنه الذى مات وجعلهـا هي الجازعة ثم أقر من بعد بجـزعه هو أيضا

فإن الـذي تبكين قـد حـال دونـه ... تـراب وزوراء المقـام دحـول

نحـاه للحـد زبـرقـان وحـارث ... وفي الأرض لـلأقـوام قبلك غـول

وأي فتـى واروه ثمـت أقبلـت ... أكفهـم تحثـى الثـري وتهيـل

وظلـت بي الأرض الفضـــــاء كـأنها   تصعـــــــد بي أركـــــانها وتجول

فهذا شاهد بالجزع، وقريب في الدلالة من قول المرقش :

صحـا قلبـه عنهـا على أن ذكـرة   إذا خطـرت دارت به الأرض قـائما

وما أجود قول امرىء القيس في تائيته : " غشيت ديار الحي بالبكرات " حيث قال :

ظللت ردائي فـوق رأسي قـاعـدا   أعـد الحصى مـا تنقضى حسراتي

وقال ابن قيس الرقيات وذكر النوائح :

تبكـى لهم أسماء معـــولـــة   وتقـــول سلمـى وافجيعتيـــه

وقال الهذلي :

فليس كعهـد الـدار يـا أم مـالك   ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وهذا في كلمة رثاء والمعنى قريب مما ذهب إليه متمـم بن نويرة وهو سابق له لأن أبيات هذا الرثاء قيلت بعد حنين وقبل زمان الردة .

وقد جعل الشنفرى مكان خطاب أم مالك وابنة العمرى وما أشبه خطابه للضبع حيث قال :

لاتقـــبروني إن قبـــري محـــرم   عليكم ولكـن أبشرى أم عـــامـــر
إذا احتملـوا رأسي وفي الـرأس أكثـرى   وغـــودر عنـــد الملتقـى ثم ســائرى
هنـــالـك لا أرجـــو حيـــاة تسرني   سجيس الليـــالي مبســلا بـــالجرائر

هذا .

ثم إن متمما يعود فيقرر أنه متجلد ويتبع ذلك معاني من الحزن وجراح الفؤاد

فـلا فـرحا إن كنـت يومـا بغبطـة   ولا جـزعـا ممـا أصـاب فأوجعـا

أما قوله " ولا جزعا مما أصاب فأوجعا " فقد مر من قبل ودلالته معلومة ولكن ما مراده من قوله «فلا فرحا إن كنت يوما بغبطة» ــ أين مكان الغبطة هنا ؟ أتراه يرد مقالته هذه على ما كان قال من قبل :

أراك حديثا ناعم البال أفرعا

وذلك في زمان مضى قبل عهد الفجائع ؟

لا ريب أن هذا الكلام مردود على قوله :

. . . . بزوار القرائب أخضعا

هؤلاء القرائب هم الذين بغبطة هذا اليوم، هم الفرحون. وهم لعل منهم الشامت ـ هذا مما يجدد الحزن، وانصرف متمم إلى وصف أحزانه، وجاء بهذا التشبيه:

ومـا وجْـد اظـآر ثـلاث روائم أصبن مجرا من حـوار ومصرعـا

والحوار هو الصغير من الإبل، وروائم جمع رائمـة ومنه قولنا أم رءوم أي تـرأم ولدها أي ترحمه وتحنو عليه يصف نوقا ثلاثا أصبن صغيرهن قد ذبح وجر

يـذكـرن ذا البث الحزين ببثـه إذا حنت الأولى سجعن لها معـا
إذا شـارف منهـن قـامت فـرجعت حنينـا فأبكى شجـوهـا البرك أجمعـا
بأوجـد منى يـوم قـام بمالك منـاد بصير بـالفـراق فأسمعـا

التشبيه مألوف، كثير في المراثى ومعاني الأسى والحنين ـ قالت الخنساء

ومـا عجـول على بـوٍّ تطيف بـه لها حنينـان إعـلان وإسرار
تـرتع مـا رتعت حتى إذا ادكـرت فـإنما هـي إقبـال وإدبـار
يـومـا بـأوجع منى حين فـارقني صخـر وللـدهـر إحـلاء وإمـرار

وقد جعلت الخنساء المشبه به ذات البو، فشبهت حال حزنها على بوها بحال حزنها هي على صخر.

وفـائدة مثل هـذا النوع من التشبيـه أنـه يحمل مع معنى الحزن معنى العـزاء لأن الحزين لا يفطن إلى صـورة حزين آخـر فيوازن نفسـه بـه إلا وقد ابتعـد هو بنفسـه عن ملابسة الحزن كل الملابسة بحيث يقدر أن يتأمله من مسافة بعده ثم يصفه. ومن أجل ذلك لم يلزم في مثل هذا الضرب من التشبيه أن يكـون مبتكرا ولكن أن يكون مألوفا، إذ الإلف يجري مجرى التذكير والعظة.

ومع التعزي يكـون شيء من التسلي ويؤوب الجلـد ويفطن المرء لما حوله ممـا كان شغله عنه وجع الحزن وذهول الجزع ـ

بأوجـد منى يـوم قـام بمالك منـاد بصير بـالفـراق فأسمعـا

تأمل لفظ «بصير» الـذي وصف به المنادي وهـو السميع المسمع. ثم مع هـذا المنادي القادم بمعنى مالك وهـو يعلم مرارة وقع الفجيعة على من ستقع به، أخبـار أخرى مما يسوء ـــ هي أخبار هذا المحل ـــ قالوا هو رجل مـر بمالك قتيلا فلم يواره وقـالوا أعطي

المحل سلب مالك ففرح به وأقبل راجعا. ولعل الذي جاء بمنعي مالك ورفع صوته به وخبر بمقتله هو هذا المحل، يدل على ذلك قول متمم

بمشمته إذ صادف الحتف مالكا ومشهده ما قد رأى ثم ضيعا
أأثرت هدما باليا وسوية وجئت بها تعدو بريدا مقزعا

فهذا الرجل قد حضر مقتل مالك وأظهر شماتة وأخذ سلبه ثم جاء كأنه صاحب البريد يحمل أخبار الشؤم والمساءة

فلا تفرحن يوما بنفسك إنني أرى الموت وقاعا على من تشجعا

واجعل هذا الشامت الذي جاء به قبيل آخر القصيدة بمنزلة مقابلة للمنهال الذي بادر بذكره بعد أول بيت ـ وشتان ما بين الرجلين

لعلك يوما أن تلم ملمة عليك من اللاتي يدعنك أجدعا

هذا كالدعاء عليه

نعيت امرأ لو كان لحمك عنده لآواه مجموعا له أو ممزعا

وهذا كالشتم

فلا يهنيء الواشين مقتل مالك فقد آب شانيه إيابا فودعا

أي أما شانيه فقد آب وأما هو فقد ودع، وهذه خاتمة مشعرة بالحسرة والتجلد للأيام معا. وحسبنا هذا القدر في التمثيل للتسلسل المطرد في ضوء فكرة واحدة. وكثير مثله مما يرد في قصائد الوصايا والحكم

هذا والضرب الثاني من ضروب التسلسل مما جيء به على سياق عادة الشعراء من أجود أمثلته بائية علقمة

طحا بك قلب في الحسان طروب

وهذا الضرب والذي قبله قد يتداخلان كما قد تدخل فيهما ضروب كثيرة مما سنذكر من بعد ومما قد لا يتسع المجال لذكره. ولن نفتأ نكرر للقاريء الكريم ما قدمناه من أن الشعر كل واحد جميع وإنما نجزئه من أجل الدرس.

وقد جعلنا بائية الأخنس وقافية تأبط شرا من الضرب الأول، لأن البداية النسيبية الإلماع فيهما غير خارجة حقا عن حيز التسلسل الذي بعدها وإنما هي إلماع وإيماء ليس غير، فوجب حمل الأقل على الأكثر، وهو الفكرة المنتظمة لسائر بيان الشاعر.

ومكان مراعاة عادة الشعراء في بائيـة علقمة أنه بناها على نسيب ورحلة وخلوص إلى الممدوح، وهو الـذي سماه ابن رشيق المبدأ والخروج والنهاية. ومكـان التسلسل أنه جعل الأبيات آخذا بعضها برقاب بعض في حيـز كل من هذه الأقسام الثلاثة ثم ربط بين أطراف ذلك وأوساطه ربطا محكما. فجاء الكلام كلا واحدا تام الصياغة والترتيب،

في القصيدة سبعـة وثلاثـون بيتا، وهذا فـوق التوسط وأقـرب إلى الطول إذ ذات الأربعين بيتا مما تعد طويلة.

الأبيات العشرة الأول في النسيب. والمطلع مشعر بأنفاس من غرض الشاعر. وقد كنـا تعـرضنـا لبسط في هـذا المعنى من قبل. وقـد تصرمت فيها بيننـا وعهـود الشعـراء الأقدمين مئـات من السنين. وقد اختلفت حال النـاس بعد الإسلام عما كـانت عليه قبل الإسلام اختلافا كبيرا. وعلى أيام الفتنة عما كانت عليه قبلها. وفي زمن معاوية عما كانت عليه أيام الراشدين. وفي زمان المروانية عما كانت عليه من قبل. وهكذا إلى يومنا هذا. ولقـد كان القدمـاء من جاهليين و إسلاميين إلى قـريب من زمان أبي الطيب إذا افتتح الشاعـر كلامـه أحسوا بأنفـاس غرضه ووجهـة سبيل مقاصـده. ولقد كـانوا في الجاهليـة لطول إلفهم الشعـر يعرفـون مـا لكل مطلع من دلالة، ومـا لكل نسيب من مكنـونـات الـرمـز. ونحن إذ نحـاول فهم مقـالهم في هـذا الصـدد نستعين بـالحدس والترجيح فينبغى التسليم بأن القدماء كانوا يعلمـون كثيرا مما لعله قد أغلق عن علمنا بابه، فيجب علينا من أجل ذلك أن نتواضع.

قوله:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشبـاب عصر حان مشيب

مشعر بأن قلبه يكلفه أمـرا ذا بعد ومشقة، وكذلك ما كان هو قد عـزم عليه من الوفادة في قصة أخيه شأس قـد كان أمرا ذا بعد ومشقة. وقد خلع من تهيبـه لقاء ملك غسان بعض الوصف على محبوبته

محجبـة مـا يستطـاع كـلامهـا على بـابها من أن تـزار رقيب

ولعل القارىء الكريم يذكر وقفتنا من قبل عند قول مزرد بن ضرار أخي الشماخ:

صحا القلب عن سلمى ومل العواذل

أنه منبىء عن بعض أمره.

وقول زهير:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو

فيه إشعار بتقدم سنه وأنه رجل جد وذلك ابتداء حسن في معرض الصلح بعد حرب داحس.

وقوله:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

فيه أيضا الإشعار بالجد. وأي جد، إذ المدح كان مجال التزيد والكذب، وقد عرف زهير بالصدق فيه وبالحكمة ـ فكأنه بمثل هذا المطلع يقرع الأسماع أن تصيخ لما سيقول مما ليس من سبيل الباطل ولا منحاه ـ قال الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء بعد أن أورد الأبيات الثلاثة التي تلى هذا البيت

وأقصرت عما تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله

وقال العذارى إنما أنت عمنا ... وكان الشباب كالخليط نزايله

فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتى ... وإلا سواد الرأس والشيب شامله

«فهو هنا يفسر إعراضه عن اللذة وإقصاره عن اللهو وإقباله على الجد».

وقال بشامة بن الغدير وهو خال زهير وأستاذه الذي علمه الشعر

هجرت أمامة هجرا طويلا ... وحملك النأى عبئا ثقيلا

وحملت منها على نايها ... خيالا يوافي ونيلا قليلا

فأشعر بأمر لا يخلو مما يكره.

قال المسيب بن علس:

أرحلت من سلمى بغير متاع ... قبل العطاس ورعتها بوداع

قبل العطاس أي بخلس قبل أن تستبين العواطس وهي ما يراه المرء مما يكره فيتشاءم به

من غير مقلية وإن حبالها ... ليست بأرمام ولا أقطاع

فدل بهذا المطلع أن رحيله من أجل حاجة يلتمسها، مكسب من مال أو جاه. والمسيب خال الأعشى ومنه تعلم صنعة التكسب بالشعر.

ثم يقول علقمة يثنى على هذه التى طحا قلبه إليها طربا بعد أن شاب لداته:ـ

إذا غاب عنهـا البعل لم تفش سره　　　وتـرضى إياب البعل حين يـؤوب

وهذا أخذه الشنفرى حيث قال :

إذا هـــو أمسى آب قــرة عينـــه　　　مئـاب السعيـد لم يسل أين ظلت

وقد فصل ما أجمله علقمة ـ ثم يقول علقمة

فــلا تعـــدلى بينى وبين مغمــر　　　سقتك روايــا المزن حين تصـوب

الدعـاء لها بالسقيا مشعر بـالبعد. وقوله فـلا تعدلى، فيه رجعة إلى معنى طـربه عصر حان مشيب، فإن يكن الشباب قد فاته، فقـد فاتت معه عجلته وطيشه وقلة تجاربه، فلا ينبغي أن يخدعهـا منظر من هو أشب منه ولكنـه مغمر لا تجربة عنده يكـون معها صلاحها و إسعادها. وفي مثل هذا التقرب نوع من كناية ـ كأنه يخاطب الملك ويقول له إن يكن أخي قـد حاربك فهـو غِرٌّ غير مجرب، وهـأنذا أشفع بتجـربتي ومديحي فيـه عندك ـ وكرر السقيا إمعانا في التقرب والتحبب

سقـــاك يمان ذو حبـي وعـــارض　　　تـــروح بـه جنح العشى جنـــوب

ومع ذلك البعد ـ

ومـا أنـت أم مـا ذكـرهــا ربعيـة　　　يخط لها من ثـــرمـــــداء قليب

فهذا أول انصرافة عن ليلى التي شط وليها وعدت عنها العوادي. ليست هي من قومك الأدنين ولن تراها حتى تموت، هـذا على معنى أن القليب هو القبر. وأظهر من ذلك أن ثرمـداء هذه مكان نـاء وأنها مقيمة به عنـد قليب تشرب منه. وكان العـرب أهل آبار، لولاها لهلكوا. ثم أتبع هذه الانصرافة عنها لبعـدها وعداوة قومها أو بعد علاقتهم وأنها في حجاب ورقيب، انصرافـة عن النساء عامـة، ورجوعا إلى مـا ينبغي لمثل من هو في سنه من اتباع الرشاد :

فإن تسـألـــوني بـــالنســـاء فـإنني　　　بصير بـأدواء النســــــــاء طبيـب

إذا شـــاب رأس المرء أو قـل مـــالــه　　　فليـس لـــــــه في ودهـن نصيـب

يـــردن ثـــراء المال حيث علمنـــه　　　وشرخ الشبـــاب عنـــدهـن عجيب

وقد أعلمنا من قبل أن شبابه قد ولى وأنه حان عصر مشيبه، وأنبأ هنا من جانب إشارة خفية أن لا مال عنده ـ فعلام التصابي؟

فدعها . . . . .

إلى ها هنا ينتهي النسيب، وقد فتح به مجال القول بما ضمنه فيه من كناية وإيحاء، ـ ولكن ماذا يصنع وقد أقلقه قلبه الطروب بها أقلق، فلا بد عند الانصراف من وجه ينصرف إليه ويقبل على الانصراف إليه قلبه.

فدعها وسل الهم عنك بجسرة ... كهمك فيها بالرداف خبيب

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي ... لكلكلها والقصريين وجيب

جاء في هذين البيتين بالرحلة ووسيلتها وهي راحلته التي معناها متضمن بعض معاني نفسه وهمه ـ يدلك على ذلك قوله:

كهمك فيها بالرداف خبيب

ولم يكن معه عليها رديف على الأرجح، ولكن ظاهر المعنى المبالغة، أي هي تقوى على الخبب بالردف، ثم إذ هي كهو وكهمه فكأنه ردف لها ـ فعلى هذا الرداف بها قوة بلا ريب.

ومع الرحلة ووسيلتها جاء فيهما أيضا بالغرض الذي من أجله ارتحل. وتأمل قوة صلة قوله: «أعملت ناقتي» مع قوله: «فيها بالرداف خبيب» والخبيب اعتمالها، ومع قوله «كهمك» وقوله «أعملت ناقتي» كالتفسير لهذا اللفظ الموجز.

ثم هو هنا قد خلص من مقدمة نسيبه ذات الطرب والكناية والسقيا والفكاهة والأسى والحكمة ـ كل أولئك معا ـ إلى هذا البيان الصريح الواضح الشافي الذي هتك به أستار ما كان قدمه قبل من خوف وتهيب عند قوله:

محجبة ما يستطاع كلامها ... على بابها من أن تزار رقيب

لا ريب أن مثل هذه المواجهة المبينة قد قرعت سمع الحارث الملك أيما قرع.

بعد هذه المواجهة رجع علقمة إلى الناقة التي زعم أنه أعملها، وفي هذا استئناف للتهيب، واعتذار للملك بإيجاب بعض الحق عليه إذ يذكر ما لقيه وما لقيته راحلته من مشقة. ولعلمه أنه امرؤ ناء من بلد ناء ووافد من قبل دار خصوم حاربوا الحارث وانتصر عليهم متشفعا في أمر أخيه الذي كان مع عدوه ملك الحيرة وقد أسر ـ لعلمه جميع هذا احتاج إلى تقرير لإيجاب الحق بقصد الملك والمشقة التي تكلفها بعد تقرير، ليؤكد مراده تأكيدا لا يدع عند الملك موضعا لأدنى شك في صدق نيته إذ عقد العزم على قصده:

إليك أبيت اللعن كان وجيفها بمشتبهات هولهن مهيب

كما أنت مهيب

هـــداني إليك الفـــرقـــدان ولا حب لـــه فـــوق أصـــواء المتـــان علـــوب

بها جيف الحسرى فـأمـا عظــامهـــا فبيض وأمـــا جلـــدهـــا فصليب

تأمل هذه الوحشة والمناظر المفزعة والضياع بين الأماريت

تراد على دمن الحياض فإن تعف فإن المندى رحلة فركوب

ويروى ترادى أي تدارى وهي رواية كتاب سيبـويه استشهد به في باب حتى قال «لم يجعل ركـوبـه الآن ورحلتـه فيما مضى، ولم يجعل الـدخـول الآن وسيره فيما مضى، ولكن الآخر متصل بالأول، ولم يقع واحد دون الآخر.» ــ قوله السير والدخول يشير به إلى اتصال السير بالدخول في نحو سرت فأدخلهـا. والمندى مصدر ميمي وهو التندية وذلك أن تشرب الإبل قليـلا ثم ترعى قليـلا ثم ترد فتشرب. يقـول إنها تراد على المياه المتغيرة ذات الدمن من بقـايا الحياض فإن عافت فليس لها بعـد ذلك مرعى ولا شراب ولكن الركوب والسير.

ومن تأمل هنا أحس كأن هـا هنا نوعا من كنـاية، جعل فيه الشاعـر راحلته رمزا رمز به لنفسه، أنـه حمل نفسه على أن يرد هذا المورد، فإن عافـه فلا يجد شيئا. والعرب تسمي الحقد والضغينةدمنة. وتتحدث عن حيـاض المنايا ـ وفي شعر منسوب إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وقيل هو مما صح له:

حياض المنايا تقطر الموت والدما

وقال كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

فقوله «دمن الحياض» مع الدلالة الظاهرة على الماء وبقايا الروث في الحوض فيه معنى ما كان من حـرب وعداوة وأحقاد وضغائن تركها ذلك وهـو قد أقدم ليشرب من أسآرها موقنا أنه إن لم يفعل فليس بعد ذلك إلا الهلاك.

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب

ثم ليس هو غريبا فقط ولكنه شاعر يعرف كيف يمدح ويفضل سيدا على سيد:

وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي وقبلك ربتني فضعت ربوب

أي أنت الآن سيدي. وكان لي سادة قبلك فأضاعوني.

وقبلك ربى قوم ملكا فأضاعوه وغودر قتيلا في بعض الجنود. وربتك بنو كعب ابن عوف فقد نصروك وانتصروا بك.

فأدت بنو كعب بن عوف ربيبها وغودر في بعض الجنود ربيب

قدمنا تفسير هذا البيت من أجل التنبيه على جانب اللعب اللفظي، حيث صار الشاعر من بعد ذكره "ربتني" بمعنى كانت لي أربابا وسادتني إلى ذكره الربيب المشتق من ربب وربى التي للتربية لا للربوبية والسيادة.

ولا يخفى أن هذا داخل في تسلسل كلام الشاعر واتصال أواخره بأوائل ما يليهن ـ ثم في ذكر الشاعر بني كعب بن عوف التفاتة ذات أهمية بالغة، إذ عسى بذلك أن يكونوا عونا له في الأمر الذي قدم من أجله أو على أقل تقدير، أن يأمن جانبهم فلا يحذروا الملك منه أو يضعفوا من شأنه عنده.

وأخذ في المدح وصفة الحرب، فأبدع مع الإيجاز، إبداعا عزيز النظير ـ وذلك قوله:

فوالله لولا فارس الجون منهم لآبوا خزايا والإياب حبيب

فارس الجون هو الحارث ـ خصه بعد أن مدح قومه وجنده وفضله عليهم، وذلك ما ينبغي في مثل ذلك المقام، ثم لم ينس قومه أن يمدحهم بأنهم لم ينهزموا من جبن ولكن قد صدمهم فارس الجون، ولولاه لانتصروا وآب خصومهم خزايا يحمدون النجاة إن وجدوا سبيلها.

تقدمه حتى تغيب حجوله وأنت لبيض الدارعين ضروب
مظاهر سربالي حديد عليهما عقيلا سيوف مخذم ورسوب
فقاتلتهم حتى اتقوك بكبشهم وقد حان من شمس النهار غروب

فدل على أن القتال استمر النهار كله وما فضه إلا إقدام الحارث وانبراء ملك الحيرة له فقتله قبيل الغروب، فكانت الهزيمة وذلك كان يوم عين أباغ ـ وبعد أن صور هذه الصورة الباهرة للحارث، أتم صفة القتال بتصوير ساحته كلها وما كان فيها من عراك:

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب
وقاتل من غسان أهل حفاظها وهنب وقاس جالدت وشبيب

قالوا إن أم المؤمنين عـائشة رضي الله عنها تمثلت بهذا البيـت لما رأت مجتلد القوم حـولها يوم الجمل، ولله ما كـان أعظم تلك من فتنة. ولا ريب أن الـذين ثبتوا حـول الجمل صنعوا ذلك لعلمهم أن صـاحبته زوج رسول الله صلى اللـه عليه وسلم وأنها أم المؤمنين ـ فعنـه صلى الله عليه وسلم لا عن ذات شخصها كـانوا يقاتلون. هـذا مكان الفتنة واشتباه الأمـر على الناس. ليقضي الله أمرا كان مفعـولا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم تجيء من بعـد الصورة الفنية الـرائعة لمشهـد القتال بما فيهـا من الحركة والهول والمخافة والأحزان.

كأن رجال الأوس تحت لبانه وما جمعت جل معا وعتيب

هذا يصف به إشراف فارس الجون و إحداق جنده الراجلين به، كأنهم تحت لبان هذا الحصان المشرف كلهم أجمعين.

ثم مناظر الحرب وغبارها وأصوات المنايا فيها من فارس مجدل وفرس عقير

رغا فوقهم سقب السماء فداحض بشكته لم يستلب وسليب

أي هدرت عليهم رعود الحرب وهوت صـواعق الأقدار. وسقب السماء فالسقب هو البعير الصغير وههنـا إشارة إلى خبر فصيل ثمود وذلـك أنهم لما عقروا الناقـة صعد الفصيل ورغا ثلاثا ــ فكان هلاكهم بعد ثلاثة أيـام. فسقب السماء هنا علم للكارثة ـ قال الشارح قال الرستمي قال يعقـوب ضرب ثمود لهم مثلا أي هلكوا أي نزل بهم من الشؤم ما نزل بأولئك.

كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

أي ما أفلت فلم تصبـه الصواعق لم يقدر إلا على الدبيب من هـول الصواعق ولم يستطع أن يطير.

فلم ينـج إلا شطبـــة بلجـــامهـــا وإلا طمـــــر كـــــالقنـــــاة نجيب

وإلا كمـي ذو حفـــــاظ كـأنـــــه بما ابتل مـن حـــد الظبـــات خضيب

هذا الكمي هو فارس الجون. فتمت صورة القتـال. وعاد بنا إلى مشهد إشراف الفارس المنتصر الذي قد كان بدأ به.

وكما أوجب عليه من قبل حق الرحلة حيث قال :

فـلا تحرمني نـائلا عـن جنـابـة فإني امـرؤ وسط القبـاب غـريب

أوجب الآن عليه حق ما أحسن من الثناء عليه

وأنت الـذي آثـاره في عـدوه من البـؤس والنعمـى لهن نـدوب
وفي كل حـى قـد خبطـت بنعمـة فحق لشـأس من نـداك ذنـوب

قال الضبي شأس أخو علقمة. والذنوب النصيب. وقال أبو عبيدة فلما سمع الحارث قولـه «فحق لشأس من نداك ذنـوب» ـ قال أذنبـة وأذنبة ثم أمـر بإطلاق شأس وجميع أسرى بني تميم.

ومـا مثلـه في النـاس إلا أسيره مـدان ولا دان لـذاك قـريب

وهذا حسن اختتام كما لا يخفى.

وكما رأيت اتصال المعاني وتسلسلها مع براعة التأتي، وجودة التمهيد لفكرة تلي، وجودة رد الكلام على فكرة تقدمت. وسير التسلسل كله في إطار مـا قدمنا لك ذكره من عادة الشعراء أن يبدئوا بالنسيب ثم يرتحلوا ثم يخلصوا بعد ذلك إلى المدح وغيره من الأغراض ـ وغرض الشاعر الأكبر لم يذكره علقمة إلا في آخر بيتي القصيدة ـ ولو وقف بالقصيدة عند قوله :

فحق لشأس من نداك ذنوب

لكان ذلك اختتـاما خطـابيا بالغـا. ولعله كـان الختام، إلا أن الملك لما قـال : وأذنبة، استوجب من الشـاعر مزيـدا من الثناء وتـوضيح مراده من هذا الـذنوب أي النصيب بفتح الذال وأصل معناه الدلو ـ فقال علقمة من أجل ذلك :

وما مثله في الناس إلا أسيره مدان . . . .

إذ هو يكرم الأسير على أن الأسير لا يمكن أن يكون مثله، ولا يمكن لأحد أن يدانيه أو يقرب من منزلة فضله وجوده ومجده :

ولا دان لذاك قريب

ولا يخفى أن ههنا استراحة من انفعال النفس الخطابي ونهاية طيبة.

ومثال آخر من أمثلة التسلسل الجاري على سياق عادة الشعراء كلمة النابغة :

يـا دار ميـة بـالعليـاء فـالسنـد أقوت وطـال عليها سـالف الأمد

وقد يذكر القارىء الكريم وقفتنا من قبل عند هـذا المطلع وقولنا إنه«لأمر ما مثلا اختار النابغة اسمى العلياء والسند في مستهل المطلع ثم زعم أن ذلك قد أقوى ومر عليه زمن بعيد، ولأمر ما وقف عند الدار أُصَيْلا لأ بعد أن مضى الضحا والظهر والعصر جميعا ثم لم يجد جوابا ولم يلق في الدار أحدا إلخ»

بنى النابغـة قصيدتـه على أجزاء عـادة الشعراء من نسيب ورحلة وخـروج من ذلك إلى الغرض.

وضمن كل جزء ألوانا من عادة الشعراء فنعت معالم الدار في مقدمة النسيب، ومع أنه جعل عمودها الطلل الموحش، لم يأل أن ضمن ذلك ذكرى عهـد كان معمورا وكانت الوليدة فيه تعمل

ردت عليـــه أقـــاصيـــه ولبــــده	ضرب الــوليـدة بــالمسحــاة في الثأد
خلـت سبيل أتي كـــــان يحبســـه	ورفعتــــه إلى السجفين فــالنضـــد
أضحت خلاء وأضحى أهلهـا احتملوا	أخنى عليهـا الــذي أخنى على لبـد

وتأمل السجفين هنا، وقد تعلم قوله من قبل في المتجردة

قـــامـت تـــراءى بين سجفـي كلـــة	كـالشمـس يـوم طلـوعهـا بـالأسعـد

فهل الوليدة كناية عن المتجردة؟

وقوله بعد هذا:

فعـــــد عما مضـى إذ لا ارتجاع لـــــه	وانم القتــــود على عيرانــــة أجــد

ليس منقطعا عما قبله بل متصل به، إذ قد أخنى على المكان ما أخنى على لبد من الفناء فلا معنى لإطـالة الوقوف عنده، ذلك زمـان مضى فعد عنه وأقبل على زمـان جديد.

نظر النابغة بلا ريب إلى طريقة الانقطاع المتصل الذي جاء به علقمة حيث قال:

فــــدعهـــا وسـل الهم عنك بجسرة	كهمك فيهـــا بـــالــــرداف خبيب

ورب قـائل ان هـذا سبيل مطـروق من مذاهـب شعر العـرب، وهـو كـذلك، إلا أن الشعـراء ينظر بعضهـم إلى بعض في الدقـائق من صـور وطـريقة لفـظ وإيقاع وأنـواع أسلـوب. و إضراب علقمة بعـد أن وفى بابـا حقـه من القول فأصبح الانصراف عنـه لازما، وهكذا صنع النابغة وعلقمة سابق فقد اتبعه. ثم جانس علقمة بين الهم وهمك

في قولـه«كهمك فيهـا» ــ ولم يخل النـابغة من روح مجانسـة خفيـة ــ أو قل مقـابلـة ـ بين«رفعتـه إلى السجفين»وبين«وانم القتـود على عيرانـة» ــ ثم أقبل على صفـة النـاقـة فقال :

مقـذوفـة بـدخيس النحض بـازلها   لـه صريف القعـو بـالمسـد

والقعو البكـرة . والبئر تكون عنـد الحاضر فصلة هـذا المعنى بالوليـدة ومقام الحيّ كما ترى .

ثم لما أخذ النابغة في وصف الناقة والرّحلة ضمن ذلك ما اعتادَه الشعراء من الاسْتطرادِ إلى نعت الوحش . وصنيعه هنا كصنيع علقمة حيث قال :

ونـاجيـة أفنى ركيب ضلـوعهـا   وحـاركهـا تهجـر فـدءوب
وتصبـح عـن غـب السرى وكـأنها   مـولعـة تخشى القنيـص شبـوب
تعفـق بـالأرطى لها وأرادهـا   رجـال فبـذت نبلهم وكليـب

إلا أن علقمة جعل المشبه به بقرة وجعله النابغة ثـورا ، وتأمل اختيار النابغة ألفاظه وما يخالط ذلك من روح معاني الغرض الذي هو بسبيله :

كأن رحلى وقـد زال النهـار بنـا   بـذى الجليـل على مستأنـس وحـد

والمستأنس الـوحد هو الثـور الوحشى الـذي أحس أو توجس نبأة من الإنـس فخاف والجليل الثمام وذو الجليل مـوضع أو مكان ما فيـه هذا الجليل فأشـار إليه بما فيـه وهو مقبل على أمر جليل وهو وحد ومستأنس

وقـد اختصر علقمة الـوصف لأن أربـه صفة انخـراط سيره وجـده وتشميره حتى يبلغ الحارث الـوهاب . ولكن النـابغة قصـد إلى معنى من الكنـاية وهـو في طريق المعتـذر المتهيب المؤمل الحذر إلى النعمان ـ هـو هذا الثور المستأنس الـوحد . والوشـاة هم هؤلاء الكلاب ، وقد انتصر عليهم :

شك الفـريصـة بـالمدرى فأنفـذهـا   شك المبيطـر إذ يشفـى من العضـد
كأنـه خـارجـا مـن جنب صفحتـه   سفـود شرب نسـوه عنـد مفتأد
فظل يعجـم أعلى الـروق منقبضـا   في حـالك اللـون صـدق غير ذي أود

الـذي ظل يعجم أعلى الروق هـو الكلب ضمـران . وتأمل إلى تضـوره هنا . «حـالك اللون» هو قرن الثور الأسود المستقيم كالسنان . غير ذي أود أي ليس به اعوجاج . وقد

قلنا من قبل في أخريات حديثنا عن الأوصاف: «ولكأن الكلب المتضور في دالية النابغة هو أحد هؤلاء الوشاة»

لما رأى واشق إقعــاص صــاحبـه ... ولا سبيـل إلى عقـل ولا قـــود
قــالت لـه النفس إني لا أرى طمعـا ... وإن مــولاك لم يسلم ولم يصــد

واشق هـذا كلب آخر وواش آخر. ولئـن صح الخبر الذي ذكروه أن المنخـل اليشكرى كان يختلف إلى المتجردة، وأنه غار من وصف النابغة لها وكاده عند النعمان، ثم إن أمره هو قد عرفه النعمان من بعد فحبسه ووكل به عكبا فعذبه ورووا أنه قال:

يطـــوف بي عكب في معـــد ، ويضرب بـــالصملـــة في قفيـــا

وقتله آخـر الأمر ــ لئن صح هـذا الخبر فضمران المتضور المقتـول هو المنخـل، والروق الذي شك الفريصة فأنفـذها هو شعر النابغة. وواشق هذا واش آخـر آثر السلامة لما رأى هلاك ضمران.

فتلـك تبلغنـى النعمان إن لـــه ... فضـــلا على النـاس في الأدنين والبعــد

رجع إلى ما كان فيه من أمر الرحلة والنـاقة وجعل ذلك خاتمة لهذا الجزء الذي أطال فيه ووفاه حق القول فيه. ثم إنه لم يترك اتباع علقمة والنظر الشديد إليه ـ فكما طريقة قوله فعد عما مضى إلخ كطريقة قول علقمة«فدعها وسل الهم عنك إلخ»
كذلك قوله هنا«فتلك تبلغني النعمان إلخ» طريقته مثل طريقة قول علقمة:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي ... لكلكلهـــا والقصريين وجيـب

وعجز بيت علقمة تتميم لمعنى قوله«أعملت ناقتى» فوصف حال إعمالها من اضطراب كلكلها ووجيب أضلاعها القصري. وسائر بيت النـابغة من عند آخر الصدر إلى آخر عجزه تتميم وتفسير للمعنى المتضمن في قوله«فتلك تبلغني النعمان» إذ هو لم يتبع اسم النعمان وصفـا يمدحـه به ويغنـي عن الشرح كما فعل علقمة حيث قـال: «إلى الحارث الوهاب» ـ فهـذا التفسير المصدر بإن وفيها ما نعلم من دلالة التوكيد، هـو بمنزلة قول الحارث الوهاب، وبنظر إليه ومحاكاة خفية له.

ثم بسط النابغة هذا المعنى. وليس أمره كأمر علقمة، فعلقمة قد كان غريبا وافدا، فاهتم بأن يقرع السمع بأنه وافد من بعيد وآمل عظيم الأمل معا. أما النابغة فقد كان ذا قرب وسابق مودة وخدمة للنعمان، فحاجته إلى استئناف تجديد القربى إليه وطلب الزلفى عنده تستلزم أن يسمعه ما يطرب له من حسن الثناء، وأن يضمن ثناءه روح ما يتلمسه عنده من عفو وعطاء وجاه ـ فقال بعد تأكيده أن له فضلا على الناس في الأدنين والبعد :ـ

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ... ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن إنى قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد
الا لمثلك أو من أنت سابقة ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد

قوله إلا سليمان ـ يجرى مجرى المبالغة، إذ ملك سليمان كان يضرب به المثل لما كان له ولوزيره آصف بن برخيا من الأسرار ومعرفة الاسم الأعظم والمقدرة على تخييس الجن وتسخيرها. ولئن صح أن النعمان قد كانت أمه من يهود، فعن عمد يكون النابغة قد أشار إلى ملك سليمان لما يعلم من حسن موقع ذلك عند النعمان. وقوله «ومن عصاك نعاقبه» يتضمن تبرئة نفسه كما يتضمن التعريض بالوشاة والإشارة إلى ما حل بالمنخل من النكال. وقوله ولا تقعد على ضمد أى على حقد، ولكن انتقم ولا يخلو النابغة من أن يكون قصد إلى معنى الضماد وهو أن يكون للمرأة خليلان أى ولا تقعد على أن يكون لك في أمرك منازع أو شريك. والعاصى منازع وطالب للمشاركة في سلطان من يعصيه ـــ وأرى هذا المعنى أقرب، ثم فيه من التعريض بأمر المنخل ما فيه. والضمد بسكون الميم كالضماد معنى والفتح كثيرا ما يعاقب السكون.

ومما ينبىء باستقامة المعنى على ما تأولناه من أن المراد ولا تقعد على عصيان عاص ينازع في السلطان ويروم أن يشارك فيه، قوله من بعد:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه

وليس لسليمان مثل. ومن يكون سابقا هو له، فهو وزير وعون كآصف بن برخيا. وما أرى إلا أن النابغة عنى المتجردة إذ هى القريبة من النعمان كقرب وزارة آصف من سليمان. أم هل يا ترى عنى النابغة نفسه؟ أم عنى الأمرين معا؟

عسى ذلك أن يناسب قوله من بعد:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمـــــــد

والثمد بالتحريك الماء القليل وفي دارجتنا "التمد" بصيرورة الثاء تاء، وزعموا أن محمد أحمد المهدى رحمه الله سأله أصحاب الطرق ما يصنعون بطرقهم إن تبعوه فقال لهم ما معناه وبعض لفظه «من كانت له تمده وجاءه البحر الكبير فماذا يصنع ؟»

وفتاة الحي هي زرقاء اليمامة وذكرنا من خبرها. وهذا معطوف على قول الإله قبل: " قم في البرية فاحددها " «وخيس الجن» ، أفعال الأمر ـ أى واحكم بنظر ثاقب بعيد كما صنعت زرقاء اليمامة إذ قالت حين رأت الحمام وقد عرفت عدته :

ليت الحمام ليــــــه
إلى حمامتيــــــــه
ونصفـــه قـــديــه
تـم الحمام ميــــــه

فحسبـــوه فألفــــوه كما حسبت تسعـــا وتسعين لم تنقص ولم تـــزد

أى تسعا وتسعين بعد إضافة النصف إذ كان عدد الحمام ستا وستين فبإضافة حمامتها يصير مائة، ولعل الرواية الصحيحة «ستا وستين لم تنقص ولم تزد» ولكن هكذا هو في النصوص «تسعا وتسعين» والدلالة واضحة على كل حال.

أم ليس في ذكر فتاة الحي ههنا ظلالا من الـوليدة ذات المسحاة في الثأد، ومن مية التي في المطلع، ومن مية التي في:

أمن آل مية رائح أو مغتدى

وهي المتجردة.

ومهما يكن من شيء فعقد الكلام متصل إذ قد رجع النابغة إلى ما بدأ بـه حيث قال: أعطى لفارهة حلو توابعها» ، إذ سياق الكلام هكذا.

ولا أرى فـاعـلا في النـاس يشبهــه ولا أحـاشـى من الأقـوام مـن أحـد
أعطى لفــارهــة حلــو تــوابعهـا مـن المواهب لا تعطـى على نكـــد

ففصل بين مفعـول الرؤيـة الأول ومفعولها الثاني بتقـديم مـا استثناه وهـو سليمان عليه السلام وما قصه من أمر الاله، وأقحم فتاة الحي لسببين، للإشارة الخفية إلى المتجردة، وللإلماع بأنه مظلوم، وأن على النعمان أن يحكم فيـه هوالحكم المنصف المبني على صدق النظر، وإذ جريرته ما كان فيه من وشاية من وشى به إما في أمر قصيدة المتجردة وإما في ما زعمـوه أنه هجاه وقال: «وارث الصـائغ الجبان الجهولا » يعـرض بأمه سلمى بنت

الصائغ اليهودية، فمناسبة خبر سليمان وفتاة الحي لذلك ظاهرة.
ثم زاد النابغة سيده مدحا:

الـــواهـب المائة الأبكـــار زينهـــا ... سعـــدان تـــوضح في أوبـارهـــا اللبـــد
والســـاحبـات ذيـــول المرط فنقهـــا ... بـــرد الهواجـــر كـــالغـــزلان بـــالجرد
والخيل تمزع غـــــربـــا في أعنتهـــا ... كـالطير تنجو مـن الشؤبـوب ذى البرد

أى يهب الإبل والخيل والجوارى، وقوله الساحبات ذيول المرط من قول امرىء القيس:

خـــرجت بها أمشـى تجر وراءنـــا ... على أثـــرينـا ذيل مـــرط مـــرحل

فنقها أى جعلهن جواري منعمات.
وذكر الطير الناجية مناسب لما تقدم من صفته الحمام وقوله:

يحفـــه جـــانبـــا نيق وتتبعـــه ... مثل الزجاجـة لم تكحل من الرمد

مثل الزجاجة يريد صفاءها وأنها شفافة وأنها كالمرآة أى عينها.

والأدم قـد خيست فتـلا مرافقهـا ... مشـــدودة بـــرحـــال الحيرة الجدد

الأدم إبل وهي البيض هنا، وميزها من المائة الأبكار، إذ المائة الأبكار مال يقتنى، للبن وللنتاج ولـذلك جعلها أبكارا لتطـول مدة الانتفاع بها ويكثـر ما تلد. أمـا هذه الأدم فـرواحل وهي الإبل الصهب الموثوق بقـوتهن على السير وجودتهن ركـائب. وإذ أثمل النعمان بها أحسن من الثناء على سخائه، ثم في ذلك ما يناسب تأميله، أردف بالحلف والتبري، وأشرب حلفه وهو يروم أن يجعله موجـزا قارعا للسمع، نوع تفصيل ملائم لما تقـدم من تفصيلـه في صفـة الدار وفي صفـة الثـور، وفي خبر سليمان وخبر فتـاة الحي منسجم التجاوب مع ذلك كله:

فـلا لعمـــر الـذي قـــد زرتـه حججـــا ... ومـــا هـــريق على الأنصـــاب من جسـد
والمؤمن العـــائذات الطير يمسحهـــا ... ركبـــان مكـــة بين الغيل والسنـــد

تأمل ذكر الطير والعياذ والأمن

مـا إن أتيت بشىء أنـت تكـرهـه ... إذن فـلا رفعت سـوطى إلى يـدى

إذن فاقتلنى فلا أرجع أحث ناقتى إلى ديارى بسوطى، إن كنت حقا تعتقد أني جئت بشيء تكرهه، إنما وصفت كما أمرتني وأما الهجاء فهو قول افتراه على من تعلم، وهو لك حاسد، ولفضلك جاحد.

إذن فعاقبني ربي معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالفند

لم يكتف النابغة بقوله «إذن فلا رفعت سوطي إلى يدى» وهو الموت، ولكن جاوزه إلى ما يكون أشد من عقاب المولى الذي يعلم السرائر، وذلك ما لن يكون، كما لن يأتي بالحسد والفند أحد وتقر عينه بأن يرى النابغة حل به عقاب الله، لأن هذا الآتى بالحسد والفند هو نفسه قد حل به عقاب الله.

هذا لأبرأ من قول قذفت به طارت نوافذه حرا على كبدى

ثم مضى في تبرئة نفسه، وعاد إلى مدح النابغة فشبهه هذا التشبيه الرائع بالفرات:

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أواذيه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد
أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

وهذا البيت بارع ـ إن شاء النعمان حمله على أن النابغة قدم إليه على خوف منه لما سمع بوعيده. وإن شاء جعله اعتذارا عن ابتعاده عنه ولجوئه إلى الغساسنة. وقد علم النابغة أنه قد بلغ ما أراد من استلال سخيمة النعمان بهذا القول الصافي والعتاب النبيل والاعتذار المشرق

هذا الثناء فإن تسمع لقائله فما عرضت أبيت اللعن بالصفد

والصفد أى العطاء دليل القبول، فقد عرض به كما ترى. وتأمل مكان هذا البيت، أليس كمكان بيت علقمة:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

ثم جاء ببيت الختام يرتاح به كما صنع علقمة :

هـا إن تا عـذرة إن لا تكن نفعت فإن صـاحبهـا قـد تـاه في البلـد

وهو يعلم أنه لم يته ولكن بلغ النعمان وأبلغه
وحسبنا هنا هذان الشاهـدان في التسلسل على حسب سياق عادة الشعراء في القصائد ذوات الطول.
وقولنـا عادة الشعراء مأخـوذ من عبارة الجاحظ إذ أشار إلى أن الشعـراء تجعل الكلاب تقتل الثـور في الرثـاء ومـا أشبه وتجعـل الثور يقتلهـا في المدح ومـا أشبه، وقـد سبقت الإشارة إلى هذا القول من قبل، وعن الجاحظ أخذه ابن رشيق وهدك من ناقد.
ونحيل القارىء بعد على قصائد أخر فيها مثل هذا التسلسل أو قريب منه، منهن مثلا لامية عبدة بن الطبيب :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول

على ما في آخرها من مشابهة ميمية علقمة
وقصيدتا بشر الميميـة الوافرية وأختهـا الرائية وكلتاهما مفضليـة وقد اختصر الأجزاء في الميمية حتى كأن قـد وثب من جزء إلى جزء والتسلسـل مع ذلك لا يخفى، وقد اكتفى بحـركة الحرب في الانبـاء عن الـرحلـة في الرائيـة، وأطـال شيئا في مقـدمـة النسيب، ومـذهب بشر في كلتا القصيـدتين يشبهه كثيرا مـذهب أصحـاب النقائض ومـذهب جرير والفرزدق من بعد.
ودالية ربيعة بن مقروم المادحة الطنانة :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا

من ذوات التسلسل وقد مر عنها الحديث
وليقس ما لم يقل.

ثانيا : التدرج

التدرج ضرب من التسلسل إلا أن الانحدار درجة درجة أو الإصعاد درجة درجة أظهر فيه من اتصال آخـر حلقة من الكلام بما يليها. ونعيد ما قلنـاه مرارا قبل من أن الشعر تتـداخل اصنافـه، وكما قد رأيت من تـداخل صنفي التسلسل، كذلك يـدخل فيهما التدرج إن عن لشاعر إيراد ما يقوله عليه عفوا أو عن تعمد.
والتدرج منه محض ومنه ما يساق على طـريقة عادة الشعراء فمن أمثلة التدرج المحض كلمة سلامة بن جندل :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب

واعتمادنا على رواية المفضل. وروى بعضهم لها مقدمة نسيب، وما كان أغناه عن ذلك، وأدخل بعضهم بعد ثالث أبياتها هذه الأبيات

وللشباب إذا دامت بشاشته ود القلوب من البيض الخراعيب
إنا إذا غربت شمس أو ارتفعت وفي مباركها بزل المصاعيب
قد يسعد الجار والضيف الغريب بنا والسائلون ونغلي ميسر النيب
وعندنا قينة بيضاء ناعمة مثل المهاة من الحور الخراعيب
تجرى السواك على غر مفلجة لم يغرها دنس تحت الجلابيب
دع ذا وقل لبني سعد لفضلهم مدحا يسير به غادي الأراكيب

وفي هذه الأبيات الستة قواف خمس على وزن المفاعيل وما بمجراها وزنا من صيغة منتهى الجموع والمتأمل لرواية المفضل التي رواها القاسم بن محمد بن بشار غير واجد فيها ما يشبه هذه الكثرة من هذه الصيغة. وقد تكررت الخراعيب كما ترى، وإن يك ذلك في نفسه ليس بعيب كبير، إذ كان الإيطاء مما يرد عند القدماء إذا كان المعنى الجيد يقتضيه مع تجويد النغم.
والأبيات الستة بعد قلقة الموضع في هذه البائية الجيدة تتابع الايقاع واتساق المعاني. وغير بعيد أن يكون المغنون أدخلوا هذه الأبيات. وهي لشاعر آخر.
تدرج هذه البائية على هذا النحو:
بدأ ببكاء الشباب:

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب

لاحظ أنه استعار قوله «شأو غير مطلوب» من أمر الخيل والسباق، ولذلك في القصيدة من بعد مكان ظاهر، وهذا وحده عندي مما يبطل رواية من صدر هذه القصيدة بنسيب سوى هذا الذي بكى به سلامة الشباب ـ ثم مضى في تصوير هذا الشأو الذي لا يطلب ولا يدرك:

ولي حثيثا وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض اليعاقيب

أي لو كان يدركه ركض اليعاقيب لحاولنا أن ندركه. قالوا اليعاقيب أي الطير، واليعقوب ذكر الحجل، والوجه عندي والله أعلم ما قاله عمارة، أحسبه عمارة بن

عقيل بن بلال بن جرير الشاعر، إن اليعاقيب هنا الخيل ذوات العقب بفتح فكسر، وهو الجرى بعد الجري، ذلك بأن الركض إنما يقال للخيل لا للطير إلا أن يسمى اندفاع الطير ركضا على التشبيه. ولك في الركض أن ترفع وأن تنصب والنصب رواية أبي عمرو أحسبه الشيباني، أي لركضنا ركض اليعاقيب.

أودي الشباب الذي مجد عواقبه فيه نلذ ولا لذات للشيب

ههنا درجة ـ أن الذي يجيء بعد الشباب الجاه والمال والتجارب وهذا الذي سماه المجد مما يشمل الجاه والمال والتجارب وقد يزيد ولكن لا لذات هناك، وما طعم العيش بلا لذاذة. ولك في لذات في تائها الكسر والفتح، وأحسب أن أبا الطيب قد نظر إلى هذا البيت إذ قال:

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقد ركب نفس البحر والروي
ثم يقول:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

أي المجد الذي هو عواقب الشباب، هو هذا ـ جد المجالس وجد التشمير للحرب والحرب إنما كانت يحشها الشباب، ولكن الشيوخ مدبروها ورؤساؤها باعثهم إليها الحزم والجد والعرف والواجب. وقد يجد الشباب في عنفها لذة ـ ثم معها الغنيمة والسبي
ولكن سلامة ههنا يؤكد معنى الجد ويلح عليه:
ويوم سير إلى الأعداء تأويب
التنبيه ههنا على قوله تأويب وفيه دلالة على اتصال السير إذ التأويب سير يوم إلى الليل، ثم يكون في الليل السري
هذا في طلب الأعداء. ثم بعد الغزوة الرجوع، وقد أخذ الكلال وما تصنع الحرب من الخيل والرواحل والرجال مأخذها.

وكرنا خيلنا أدراجها رجعا كس السنابك من بدء وتعقيب

وههنا درجة ـ
انتقل من بكاء الشباب إلى صفة حال المجد
وانتقل من السير إلى العود بالخيل وقد تثلمت سنابكها ـ وتأمل الكافات والسين والراء والجيم وانظر أي مبلغ يبلغه الافتنان في بيان هذه اللغة ورنات إيقاعها

والعاديات أسابي الدماء بها	كأن أعناقها أنصاب ترجيب
من كل حت إذا ما ابتل ملبده	صافي الأديم أسيل الخد يعبوب

فانتقل كما ترى إلى نعت الخيل، وحبه لها بين، وكذلك حبه لهذه الأنصاب التي تعظم وتنحر لها وتذبح الضحيات. وجعل بعضهم سلامة من شعراء النصرانية وهذا من قوله يكذبه، وقد فطن إلى ذلك المستشرق البارع ليال ونبه عليه كما ذكرنا لك من قبل، الحت السريع واليعبوب الجواد الواسع الجري كأنه عباب وكأنه بحر وأسابي الدماء طرائقه الواحد إسباءة وقالوا الأسابي ألوان الدم وقريب منها الأساهي بهاء بعدها ياء مشددة وهذه لا واحد لها وجاء بها سلامة في كلمته هذه وقريب منهما الأساوي بلا تشديد، منقوص وهي الدفعات وكأنها جمع لإسوة وجاء بها سلامة أيضا.
ثم أخذ سلامة في نعت الخيل وكان بها عالما، جعل ذكر الجد ثم ذكر السير ثم ذكر الرجوع والعاديات كل ذلك درجات إلى نعتها ـ وقد مر بك قوله أنها رجعت أدراجها فكأن زعمنا أنه تدرج فيه بعض النظر إلى هذا اللفظ ـ

ليس بأسفي ولا أقني ولا سغل	يعطي دواء قفي السكن مربوب
في كل قائمة منه إذا اندفعت	منه أساو كفرع الدلو أثعوب
كأنه يرفئي نام عن غنم	مستنفر في سواد الليل مذؤوب
يرقى الدسيع إلى هادله بتع	في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب

جعله العنق كمداك العروس وقد وصفه من قبل كأنه أحد الأنصاب المرجبة، ولم ينس ذلك لمكان الخضاب في هذا البيت يقوي معنى ما قدمناه من أن هذا مقال عربي مشرك تقربه الأنصاب إلى ربه زلفى لا مقال نصراني ـ وكان العرب ـ حتى في جاهليتهم لا يخلون من نظر نافر عن النصرانية وبعض ازدراء يدلك على ذلك قول جابر بن حني:

وقد زعمت بهراء أن رماحنا	رماح نصارى لا تخوض إلى الدم

وما كانت لتقوله بهراء وحدها.

وقد مر شرح الأبيات المتقدمة إذ قد استشهدنا بها في باب الأوصاف من الأغراض عند. ذكر الخيل

تظـاهـر الني فيـه فهـو محتفل   يعطي أساهي من جـري وتقريب

وقد انتقد الأصمعي قول أبي ذؤيب :

قصر الصبـوح لها فشرج لحمهـا   بـالنى فهى تثـوخ فيهـا الإصبع

وما ذكروا أنه عاب هذا البيت من قول سلامة . وما أشبه أن يكون سبب ذلك أن سلامة لما ذكر الني أي الشحم ذكر معه الرياضة والتضمير الذي يذهب به وهو قوله :

يعطي أساهي من جري وتقريب

ولم يذكر أبو ذؤيب شيئا من ذلك وقال زهير:

غزت سمانـا فآبـت ضمرا خـدجا   من بعـد ما جنبـوهـا بـدنا عققـا

فذكر مع السمن التضمير

من أجل هذا ما زعم الأصمعي أن أبا ذؤيـب لم يكن له علم بالخيل ، وربما تحامل عليه إذ له فيما قـال زهير وسلامـة عاذر وان لم يحترس كما احترسـا . وأخطأ ليـال إذ أخذ على سلامة قوله «تظاهر النى» وإنما أتى من مقال أبي سعيد في أبى ذؤيب والأمرانلا سواء.

ثم يقول سلامة :

كم من فقير بإذن اللـه قـد جبرت   وذى غنى بـــوأتـــه دار محروب

فهذه درجـة صار منهـا إلى خبر الحرب ووصفها ثم إلى الفخـر، «وبإذن الله» ليـس مما يقـولــه النصـارى . وكـانـت العـرب قبل الإسـلام تقـولـه إذ كـانــوا مع الشرك أهل توحيد، وخاصة عند الشدة، والحرب شـدة، وقد استفتح أبو جهل يوم بدر فحاق بهم ما كانـوا به يستهزئون، وقد جاء وصف الحرب مـن بعد فقال سلامة يـذكر الخيل فهذا متصل بما قبله ثم يذكر الحرب فهذا درجة لما بعده :

ممـا تقـدم في الهيجـا إذا كـرهت   عند الطعـان وتنجى كل مكروب

وفي هذا أيضا كالرجعة إلى قوله :

والعاديات أسابي الدماء بها

ثم أخذ في الفخر، فهذا زعمنا أنه تدرج

همت معـــد بنـــا هما فنهنههـــا   عنـــا طعـــان وضرب غير تـــذبيب
بـــالمشرفي ومصقـــول أسنتهـــا   صم العـــوامل صـــدقـــات الأنـــابيب
يجلـــو أسنتهـــا فتيـــان عـــاديـــة   لامقـــرفين ولا ســـود جعـــابيب

وقولـه «عاديـة» فيه رجع من صوت "والعـاديات" ــ وقوله «فتيـان عاديـة» فيه معنى الشباب إذ الفتـوة مع الشباب . وكما الآن هو محارب «قـديم» [كما يقال الآن في زمـاننا هـذا] لقد كـان من قبل محاربا فتى ، فهـو يحرك قلوب الفتيـان بما يقص عليهم من نبأ أيامه اللاتى مضين .

ولعمرى ما أنصف إذ قال :

ولا لذات للشيب

والجاحظ أدق منه إذ ذكـر أن الحديث من لذات أهل السن أو لا لذة لهم سـواه ، وهذا الذى أقبل عليه سلامة من حر القول ومنخوله أيما لذة ـ

تأمل تجاوب أصوات الألفاظ وألـوان التكرار ـ تكرار الطعان وهـاءات نهنهها ـ همت ـ هما ـ صم ـ صـدقات ـ مصقول ــ وتكراره أسنتها في مصقول أسنتهـا وفي يجلو أسنتها وهي بقريب من معناها .

ثم انظر إلى قوله : لا مقرفين ولا سود جعابيب

وكان حرص العرب على الأنساب كالجنون بأمرها ، وكان السود فيهم غير قليل ، وذلك أن عنصرا من السود لهم أصل في جزيرة العرب ، وصلة الحبشة باليمن قديمة .

وقال كعب :

إذا عرد السود التنابيل

وقال النابغة :

ليست من السود أعقابا

وقال الأخطل :ـ

فإن نرض عـن حمران بكر بن وائل فليس لنـــا ســـودانها بصـــديق

فلم يرض لا عن الحمران ولا عن السودان كما ترى

وقال جرير: أراب سواد لونكم أرابا

وقال عقيل بن علفة :

رددت صحيفـــة القـــرشى لما أبـت أعـــراقـــه إلا احمرارا

وقال الفرزدق يهجو ابراهيم بن عربي والى اليمامة وكان أسود يلبس ثيابا بيضا

تــرى منبر العبــد اللئيـم كأنــه ثــلاثــة غـربـان عليـه وقــوع

يعنى وجهه وكفيه . ونحو من هذا هجي به المغيرة بن شعبة ، قال الشاعر فيه :

فقل جعل يستن في لبن محض

وقال أبو عرار يعتذر عن سواد ابنه :

وإن عـــرارا إن يكـن غير واضح　　فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

وقال الفضل بن العباس اللهبى :

وأنــــا الأخضر من يعـــــرفني　　أخضر الجلـدة من لـــون العـرب

ففر من السواد وجعله خضرة

وولشدة عصبية العرب من كان منهم أسود عد عروبة نسبه بياضا، وعلى ذلك قول عنترة :

إني امــرؤ من خير عبس منصبــا　　شطـرى وأحمي سـائرى بـالمنصل

وقـال عبـدالـرحمن بن عـوف وهـو من المبشريـن ومن أهل الشـورى لبـلال وهـو من المهاجرين السابقين الأولين رضى الله عنهم أجمعين في يوم بدر يا ابن السوداء، وما قال ذلك إلا عن مودة لـه بلا ريب، وذلك حين رغبـه أمية بن خلف في الفـداء، وكان من صنـاديد أهل الكفـر، فأبى اللـه أن ينجـو ـ وكـان بنـو جمح رهط أمية خضرا ــ أصل سوادهم من عرق هندى كما في لامية أبي طالب :

بنـــو أمــة محبـــوبـــة هنـــدكيـــة　　بنـــو جمح عبيـد قيس بن عـــاقل

وقد نسبهم أبو طالب هنا إلى سفاح من أصل رق .

ولعصبية العرب في الأنساب والألوان وكثـرة مطاعنها بعضهم في بعض حذرهم الدين من أمر الجاهليـة ونهاهم عن دعواهـا وقال تعالى : « يأيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبـا وقبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند اللـه أتقاكم إن اللـه عليم خبير» .

وما قطع كتاب من كتب الحكمة والدين منزل من السماء أو من عمل الفلاسفة فيما بين افلاطن واكويناس وروسو وماركس بمثل مـا قطع به القرآن في هذه الآية من الحجرات وفي آية فاطر « ألم تـر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا بـه ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جـدد بيض وحمر مختلف ألـوانها وغرابيب سـود ومن الناس والـدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن اللـه عزيز غفور. » ـ فالنبات والحيوان والجماد والنـاس أصلهم كلهم هذه الأرض وهم سـواسية في الأصول سـواسية فيما يتفرع منهن من الألوان .

هذا وقول سلامة بن جندل :

لا مقرفين ولا سود جعابيب

كأنه يعيب بـالأول ربيعة لمدانـاتهم الفرس والروم وبـالثاني أهل اليمن وتهامـة لمداناتهم بلاد السودان .

ثم استمر في تكرار السين وأسنة والسن

سوى الثقاف قناها فهي محكمة قليلة الزيغ في سن وتركيب
زرقا أسنتها حمرا مثقفة أطرافهن مقيل لليعاسيب

اختلفوا في تأويل اليعاسيب والظاهر أنهم يقتلون بها الرؤساء ويرفعون رؤوسهم ويعسوب القوم سيدهم، ولا يغب عنا الإلغاز الخفي بين اليعاسيب وبين الرماح العواسل أي التي تعسل أي تهتز

وتأمل القاف : قناها ـ الثقاف ـ قليلة ـ زرقا ـ مثقفة ـ مقيل

كأنها بأكف القوم إذ لحقوا مواتح البير أو أشطان مطلوب

قوله " أشطان مطلوب " تخصيص بعد تعميم أي كأنهن حبال الآبار ـ لا بل حبال هذه البئر التي تعلم

كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم يشقى بأرماحنا غير التكاذيب

بعد أن أمتع بصفة الخيل، أمتعنا بصفة القتال، وبعد أن كان الكلام عاما : « يجلو أسنتها فتيان عادية »جعله أخص فدلنا على أنه هو الذي ثقف القناة بين آخرين مثله من قومهم ثقفوا قناهم ثم أشرعوه إذ قاتلوا به ثم لحقوا العدو وقتلوا الرؤساء وكأن أرماحهم أشطان مطلوب

ونستفيد التخصيص من قوله في آخر الصفة

كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم يشقى بأرماحنا غير التكاذيب

فهذه نون الجمع المتكلم وهو منهم بل هو شاعرهم الناطق بلسان حالهم، ثم نعلم أنه كان مشاركا في القتال ومجده كل المشاركة بقوله :

إني وجدت بني سعد يفضلهم كل شهاب على الاعداء مشبوب

وإنما وجد ذلك عن تجربة . وكشف عن أن الذين تحدث بلسانهم هم بنو سعد فأنت ترى كيف هذا التدرج الذي تدرج به هذا الفارس المحارب "القديم" من بكاء الشباب في قوله : «أودى الشباب » وادعاء "أن لا لذات للشيب » الى قصة خبر بلائه أيام شبابه وتلذذه بذلك وطربه إلى مآثر قومه ومجدهم الذي هو من بناته، ثم لما أقر هذا المعنى عند سامعيه، خلص إلى الفخر ببني تميم ثم ببني سعد قومه ثم جعل الفخر بضمير المتكلم الجمعي، كنا وكنا ونحن الآن كذا كذا

إني وجدت بني سعد يفضلهم كل شهاب على الأعداء مشبوب
إلى تميم حماة العز نسبتهم وكل ذي حسب في الناس منسوب

أي كل ذي حسب منسوب في بني تميم وهم الناس كل الناس

قـوم إذا صرحت كحل بيـوتهم   عز الذليل ومأوي كل قرضوب

القرضوب الفقير

ينجيهم من دواهي الشر إن أزمت   صبر عليهـا وقبص غير محسـوب

القبص بكسر القاف العدد الكثير الدثر. غير محسوب أي لا يعد من كثرته

كنـا نحل إذا هبت شـآميـة   بكـل واد حطيـب الجوف مجدوب

مجدوب أي مذموم ، يخافه الناس لخصبه إذ لا يكثر فيه الحطب إلا وهو خصيب، وهذا كما لا يخفي من اللعب اللفظي أن يكون حطيبا مجدوبـا والجدب لا يكون معه خصب من حطب أو مرعى. وإنما تعمدوا مكان الحطب لكثرتهم يـوقدون ويطبخون ويقاتلون بشوكتهم عما حازوه فمنعوه

وتأمل كيف تدرج الى قوله كنا بعد أن كان الكلام إخبارا عن قوم هم عز الذليل ومأوى الفقير ففسر العز بالقوة على منع أنفسهم . وفسر الإيواء بما في الحطيب من الدلالة على الطعام والطبخ والكرم .

ثم أعطانا صورة هذا الوادي الحطيب الجوف بعد أن أقـاموا به يحمونه ويكرمون نزيلهم باغي قرى الضيف عندهم فيه

شيب المبارك مـدروس مدافعه   هـابي المراغ قليل الـودق موظـوب

أي بعد أن أقام بـه الناس يحتطبون ويرعـون ويقاتلون خلا من كل نبـات فمباركه غبر شيب موظـوبات تتـابع عليهن الوطء والـدياس. وفسر بعضهم شيب المبـارك بالثلج والتفسير قول أبي عمـرو أحسبه الشيبـاني أنه ليس بها كـلأ فهي بيض، قـال أغبر لبعد أهله، لا من الصقيع لأن الصقيع معه بلل فلا يكون جدبا .

كنـا إذا مـا أتانـا صـارخ فـزع   كـان الصراخ لـه قـرع الظنـابيب

وهذا كما هـو فخر، هو أيضا تنبيـه على فضيلة النجدة وحث عليها، «الفـارس الماجد القديم» بذلك جدير . قرع الظنابيب أي التشمير والظنبوب عظم الساق

وشـد كـور على وجناء نـاجيـة   وشـد سرج على جـرداء سرحـوب

هـذه حـال نهوض الى الحرب، يمتطون الإبل ويجنبـون الخيل، ثم في الكـلام رجعـة إلى اصـداء من صوت الـوصف والتفصيل والنشوة إلى ذلـك مما مـر من حديثـه من قبل ـ

ولاحظ تتابع الجيم ـ وجناء ـ ناجية ـ سرج ـ جرداء ـ ثم تجيء السين والحاء من بعد ولا ينسى الكاف، ولا الخاء ولا الظاء والصاد للسين أخت :

يقـــال محبسهـــا أدنى لمرتعهـــا   وإن تعـــادى ببكء كل محلـــوب
حتى تـــركنـــا ومـــا تثني ظعـــائننـــا   يأخـــذن بين ســـواد الخط فـــاللـــوب

ما يخشين من أحد . هكذا كنا فمثلنا فكونوا .

ومما تدرج فيه على سياق عادة الشعراء نونية العبدي

أفـــاطـم قبل بينـك متعيني   ومنعك مـا سـألت كأن تبيني

وقد مر عنها الحديث ولكن ننبه هاهنـا على هذا الجانب من إحكامها ووحدتها وربطها ــ وذلك أن الشاعـر جعل النسيب ثلاث درجـات أخراهن خـروج إلى الرحلـة وجعل الرحلـة ثلاث درجات أخراهن خـروج إلى عمرو، وجعل خاتمة الكلام ثـلاث درجات أخراهن الحكمة وهي التي من أجلها قال مـا قال ، وقد كان المثقب حكيما، وكانت في عبدالقيس على بعدها ومقاربتها فـارس والهند والنبط فصاحة، ومن الله عليهم أنهم لم يكونوا من أهل الـردة . لفضيلة الجارود العبدي رضي الله عنه وحزمـه. وهو الذي قال الشاعر في أحد الذين من ذريته :

يـــــاحكم بـن المنـــــذر بـن الجارود
سرادق المجـــــد عليـك ممـــــدود

والشطر الأول من شواهد الكتاب في باب ما يكون الاسم والصفة فيه بمنزلة اسم واحد ينضم فيه قبل الحرف المرفوع حرف وينكسر فيه الحرف المجرور الذي ينضم قبل المرفوع وينفتح فيـه قبل المنصـوب ذلك الحرف وهـو ابنم وامرؤ ــ قلت وهـذا من بـارع تمثيل صاحب الكتاب وأستاذه الخليل إذ هذا مذهبه قالوا إن الراجز من بني الحرماز أحسب أن قائل ذلك أبو عمر الجرمي رحمه الله .

أما درجات النسيب الثـلاث فأن منع فاطمة كبينها فقد بانت فهي ظعينـة فهذه درجة ثم وصف الظعينة في الظعائن معها مع ما يخالط ذلك من غزل ، فهذه درجة. ثم التنبيه على أن الذي بان ليس هو فاطمة بمنعها ما منعت ولكن هو الشاعر بكبريائه وصدوده عمن صد عنه وعزمه رحلة التسلي :

فقلت لبعضهـن وشـــد رحلي   لهاجـــــرة نصبت لها جبيـني

فهذا خروج إلى الرحلة كما ترى

ثم يقول في البيت التاسع عشر

فسل الهم عنك بـذات لـوث　　　عـذافـرة كمطـرقـة القيـون

هذه ناقته ـ وأقبل على صفة حركتها الهوجاء المستمرة الشديدة الإيجاف وهي ما زالت في أوائل نشاطها وهـذه أولي مراحل سيره، وقد بدأه عند الهاجرة لانخـراطه وجده ووصل التأويب بالسرى.

بصـادقـة الـوجيف كـأن هـرا　　　يبـاريها ويأخـذ بـالـوضين

كسـاهـا تـامكـا قـردا عليهـا　　　سـوادي الـرضيخ مـع اللجين

إذا قلقـت أشـد لها سنـافـا　　　أمـام الـزور مـن قلق الـوضين

لاحظ تكرار الوضين وهـو هنا ترنم مقصود. وإنما قلق الـوضين لاستمرار هذا الضرب من السير أياما، فضمرت فاحتاج هو إلى أن يشد الوضين باكثر مما شده من قبل

ومن ضمن وصف هذا السير الشديد وصف استراحات التعريس القصار

كأن مـواقع الثفنـات منهـا　　　معـرس بـاكـرات الـورد جـون

أي مواقع القطـا البواكر لـورود الماء، وكلما رحلها بعد هـذه الاستراحة القصيرة تنفست الصعداء، نفسا حارا يكاد يقطع الحزام ـ ثم مضت وبها نشاطها

تصـك الحالبين بمشفتر　　　لـه صـوت أبـح من الـرنين

المشفتر المتفرق يعني ما يتطاير من الحصى، تطيره أخفافها

كأن نفـي مـا تنفى يـداهـا　　　قـذاف غـريبـة بيـدي معين

تسـد بـدائم الخطـران جثل　　　خـوايـة فـرج مقـلات دهين

المقـلات التـي لا يعيش لها ولـد، فأنبأنـا بطـول السير، وأنها ألقـت جنينـا بالصحراء. والدهين التي لا لبن لها

وتسمع للـذبـاب إذا تغنى　　　كتغـريـد الحمام على الـوكـون

قالوا الذباب هنا حد نابها اذا صرفت بأنيابها أي صوتت ـ فهذا نهاية الدرجة الأولى من الرحلة

ثم الدرجة التي تلي صفة استراحـة الناقة بعد هذا الكد، وقد عـاد بخياله يصف حالها قبل الرحلة وهي فارهة كأنها سفينة:

فألقيت الـزمـام لها فنـامت كعـادتها مـن السـدف المبين

فهذا يدلنـا على أنه قد استراح من قبل مرات عند هـذا السدف المبين ، وإنما عني آخر الليل عندما يبدو أول ضوء الفجر

كأن منـاخهـا ملقى لجام على معـزائهـا وعلى الـوجين

وملقى اللجـام ضيق منبيء عن حـال ضمـور والمعـزاء الأرض ذات الحصى والـوجين الأرض الغليظة

كأن الكـور والأنسـاع منهـا على قـرواء مـاهـرة دهين

هذه صفتهـا في أول الرحلـة ، إذ لا يمكنه التعريس بأكثـر من ان يلقي لها الزمـام ، وما زالت بها قوة ، فهذه الصفة تتضمن معنى الإعجاب والرضا

يشق الماء جـؤجـؤهـا ويعلـو غـوارب كل ذي حـدب بطين

هذه صفة السفينة التي شبه بها ناقته

غـدت قـوداء منشقـا نسـاهـا تجاسر بـالنخـاع وبـالـوتين

هذا يدلنا عن أن في الوصف رجعة الى حالها قبل الضمور. وكأنه اذ قال : «غدت قوداء منشقا الخ» قـد قال : «كـانت قوداء سمينـة منشقا نساهـا أي منفلقة لحمتـا فخذيها فيبدو النسا بينهما من سمنهما »

ثم تجيء الـدرجـة الثالثـة ، وفيهـا رجعـة إلى تفسير ما ذكـره من قبل من تنفس نـاقتـه الصعداء .

ـ وقد خلص هنا إلى مناجاة الناقة وجعل حاله وحالها شيئا واحدا :

إذا مـا قمت أرحلهـا بليـل تـأوه آهـة الـرجل الحزيـن
تقـول إذا درأت لها وضينـي أهـذا دينـه أبـدا وديني
أكـل الـدهـر حل وارتحال أمـا يبقى علي أمـا يقيني
فـأبقى بـاطلي والجد منهـا كـدكـان الـدرابنـة المطين

أي كدكة البوابين ، وذلك أنها تكون قد تأكلت من جـوانبها ، وهذه الصفة تدلنا على أن قوله من قبل :

كأن الكـور والأنسـاع منهـا على قـرواء مـاهـرة دهين

إنما هو رجعة بخياله إلى حالها الأولى . والدهين هنا من صفة السفينة أنها مدهونة بالقار وهي تجاوب قوله من قبل : «خواية فرج مقلات دهين»

وكأن عنترة قد أخذ من قول المثقب هذا حيث قال:

وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وقد زاد فى المعنى كما ترى

فهذه درجات الرحلة الثلاث ـ ثم يقول:

فرحت بها تعارض مسبطرا على صحصحاحه وعلى المتون

إلى عمرو ومن عمرو أتتنى أخي النجدات والحلم الرصين

فهذه درجة ـ وهي تجاوب ما تقدم من نشاط ناقته أول ما وصفها، ثم الدرجة الثانية تقابل مناجاته الناقة ومناجاة الناقة له، كما فيها أصداء حديثه لفاطمة:

فإما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غثى أو سمينى

وإلا فاطرحنى واتخذنى عدوا أتقيك وتتقينى

فهذا كقوله: فإني لو تخالفني شمالي إلخ

ثم الدرجة الثالثة، وهي كما قدمنا ذكره من قبل ذروة القصيدة وغاية مقاصدها من الحكمة

ـ عندما قال لفاطمة «كذلك أجتوي من يجتويني» وعندما قال لها:

لعلك إن صرمت الحبل بعدي كذاك أكون مصحبتى قروني

كان له مفر إلى الناقة وبها إلى عمرو

وقد ملت الناقة وبرمت، وإنما الناقة هي نفس الشاعر، (بسكون الفاء هنا)

وذلك أن من تهلك ناقته بالصحراء يهلك هو أيضا.

وقد تغير عمرو عن حاله أو يخشى هو أن يكون قد تغير وإذن فماذا يصنع:

وما أدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى

أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

من تأمل هذا علم أن الشر لا بد بالغ ما يبتغيه، والخير إنما هو أعاليل، والمرء يفر، يطلب الخير ـ ثم إن أسباب المنايا، إنهن لبالمرصاد، هذه مأساة الحياة

هذا والقارىء الكريم واجد بعد في الشعر أمثلة كثيرة مما سيق على منهج النسيب فالرحلة ومما لم يسق على ذلك والشاعر يتدرج به تدرجا من معنى إلى معنى ـ نضرب أمثلة على ذلك مشيرين إليها من غير تفصيل لامية العرب، فإن الشاعر يورد المعانى بها درجة بعد درجة وخطوة بعد خطوة على أن فيها مواضع مما تتعقد فيه عناصر الربط

من تداعي المعاني إلى المقابلة ـ غير أن الذي ذكرنا أظهر. ولامية تأبط شرا:

إن بـــالشعب الــــذي دون سلــع ... لقتيــــــلا دمـــــه مـــــا يطــل

جيـدة الترتيب. بدأ بـذكـر القتيل. ثم صفة ابـن الأخت، يعنى نفسه الـذي سيطلب الثأر. ثم وقع خبر مقتل خالـه عليـه. ثم صفـة هـذا الخال القتيل. ثم صفـة العـدو والقتال. ثم غضبات الثائر وإدراك الثأر وشراب الخمر

صليت مني هــــذيـل بخـــرق ... لايمـل الشر حتـى يملـــــــوا

ينهـل الصعــــدة حتى إذا مـــا ... نهلـت كــــان لها منـــــه عـل

حلت الخمـــر وكـــانـت حــرامـــا ... وبــــــلأى مـــــا ألمت تحل

فـــاسقنيهـــا يـــا ســواد بن عمـــرو ... إن جسمـي بعــــد خــــالي لخل

ثم استراحة الخاتمة:

تضحـك الضبـع لقتلى هــــــذيـل ... وتـــــرى الــــذئب لها يستهـل

وعتــــاق الطير تغـــدو بطـــانـــا ... تتخطـــــــــاهـم فما تستقــل

كلتا اللاميتين ـ لامية العـرب ولامية الثأر مشكوك في صحتهما، أنهما صنعهما الرواة. ولا ريب أنهما مع ذلك جيدتـان. ولا يصح أن يقال إنهما صنعهما خلف الأحمر، فعلى جودة شعره، لا يبلغ جودة هاتين اللاميتين. ولئن صحت مقـالة من قال بانتحالهما وهي على الأرجح صحيحة لتـواترها عن لاميـة تأبط شرا ولأن الشك في لامية العـرب منقول عن القـالى وهـــو حجـة وثقـة، فينبغـى أن يكـون المنتحل أو المنتحلـون مـن رواة العـرب وقصاصهم أهل البلاغة والبراعة والخيال ـ ثم ينبغي أن يكون لما انتحلوه أصل من رواية صحيحة.

ومن الكلام المتصل المتدرج ميمية المخبل:

ذكـــر الـربـــاب وذكـرهـــا سقـم ... فصبـــا وليس لمن صبـــا حلـم

ذكر الخيال والـدار ومعالمها والمحبوبـة إذ كانت بها وهي كالبردية ووجههـا كالصحيفة النقية وهي كالدرة ـ وأخذ الشاعر في شيء من صفة الغوص والغواص

ولقــــد تحل بها الــــربــــاب لها ... سلـف يفل عـــــدوهـــــا فخـم

بـــــرديــــــة سبق النعيـم بها ... أقـــــرانها وغـــــلابها عظـم

ويروى «وغلا بها جسم» وهـو قريب منه في المعنى إلا أن «غلا بها عظـم» أجود لما فيه من الدلالـة على حسن التغذية بسبب مـا ذكره من أن تنعمها في الصغـر جعلها تسبق أقرانها في النماء

وتـريك وجهـا كـالصحيفـة لا ظمآن مختلـــج ولا جهـــم

والتشبيه بـالصحيفة منتزع من عهد العـرب بالتجارة التي كـانت بلادهم معبرا لها، إلى ديار الفرس والروم ومصر والهند والحبشة

كعقيلـــة الـــدر استضـــاء بها محراب عـرش عـزيـزهـا العجم

وهذا من باب المعرفة بأحوال الأمم وأخبارها

أغلى بها ثمنـــا وجـــاء بها شخت العظــام كـأنــه سهم

وهذه الصفة غير التي ذكر المسيب حيث جعله كما قال:

فـانصـب أسقف رأســه لبـــد كسرت ربـــاعيتـــاه للصبر

هذا طويل كما ترى

بلبـــانــه زيـت وأخــرجهـــا من ذي غــوارب وسطــه اللخم

واللخم بضم اللام ضرب من دواب البحر ولعله كان يأكل الناس أو يؤذيهم ثم أعطى الـربـاب صفـة أخـرى فجعلهـا كبيضـة الـدعص وإلى صفتـه الظليم نظـر عبـد بن الحسحاس في أبياته اليائية "وما بيضة بات الظليم يحفها إلخ" قال المخبل وهي أبيات جياد:

أو بيضـة الـدعص التي وضعت في الأرض ليس لمسهـــا حجـم

أي ملساء

سبقت قـــرائنهـــا وأدفأهـــا قـــرد الجنـــاح كـأنـــه هـــدم

أي هذه الحسناء سبقت قرائنها بالنماء وحسن الغـذاء واكتمال البهجة والرواء ـ يكرر ما قدمه حين جعلها بردية سبق النعيم بها أقـرانها ـ ويعنى أيضا أن البيضة سبقت قرائنها أنها بكر، قال الشارح والشعراء تصف ذلك وأورد بيـت امرىء القيس كبكر المقاناة إلخ ـ وأحب إلي أن يكون سبقت قرائنها يعـود على الفتاة وأدفأها يعود إلى البيضة، وإلى هذا الوجه ذهب أحمد بن عبيد بن ناصح

ويضمهـــا دون الجنــــاح ودفـــه وتحفهـــن قـــــــــــــوادم قتـــم

لم تعتـــــذر منهـــا مـــــدافع ذي ضـــــال ولا عقـب ولا الـــــزخـم

قرد الجناح أي كثيفـه ريشه متراكم والهدم الثوب أي كأن جناحيـه ثوب. قتم أي فيهن غبرة وهو من ألوان ريش النعـام. وقوله لم تعتذر منها أي لم تقل ما تعتذر بـه عن معرفة

عهدها فما زالت آثارها باقية بمدافع ذي ضال وبذي عقب وبالزخم موضع بالزاي المعجمة المضمومة أو بالراء المهملة المفتوحة وما أشبه أن يكون اسما على مواضع إن كان بالزاي المضمومة لما في ذلك من رائحة الجمع

وذكر ريش النعام دعا إلى ذكر شعر الفتاة وهذا من باب تداعي المعاني :

وتضل مـــدراهـــا المواشط في   جعـــد أغـم كأنـــه كـــرم

فأفادنا هذا الشاعر في ميميته هذه معرفة بالصحيفة والدرة وبمحراب عرش العجم وبالكرم وهو بدوي جاهل كما يظن بعض الجهلاء فتأمل.

ثم انتقل الشاعر إلى التسلي بالرحلة ووصف الناقة والطريق وجعل لذلك نحوا من ثلاثة عشر بيتا وليس ذلك بالعدد القليل، فمن أنكر على طرفة إطالته فإن داليته أكثر من ضعف ميمية المخبل في عدد أبياتها، فلا ينبغي أن ينكر عليه أن يجيء بضعف عدد أبيات المخبل في صفة الناقة أو يزيد

ثم بعد صفة الناقة والطريق يقول المخبل :

وتقـــول عـــاذلتى وليس لها   بغـــد ولا مـــا بعـــده علـم

إن الثـــراء هـــو الخلـــود وإن   المرء يكـــرب يـــومـــه العـــدم

وهذه في التدرج وثبة

وكون الشاعر قد ذكر الرباب وهي لم تعف اثارها وهو مسافر ذو دأب يفيد أنه بسبيل جد وكسب ــ وأن عذل المرأة له أن ماله قليل من بعض مادفعه إلى هذا السفر وإذن فالرباب هي العاذلة أو ذلك رمز لها ـ

ثم يصير الشاعر إلى الحكمة وهي الدرجة العليا والغاية التي بلغتها به هذه الوثبة

إنى وجدك ما تخلدنى   مائة يطير عفاؤها أدم

والمائة من الإبل مال دثر وقد تعلم أن الزكاة من الإبل نفسها تجب في خمس وعشرين فالمائة أربعة أمثال ذلك

ولئن بنيت لي المشقر في   هضب تقصر دونه العصم

وكان من سادتهم من كذلك يبنون

لتنقبـن عنـي المنيـــــــــة إن ... اللـــــه ليس كحكمـــــه حكـم
إني وجـــدت الأمـــر أرشـــده ... تقـــــوى الإلـــــه وشره الإثـم

لاعدم المال يأيتها الرباب
ومن أجل عذل الرباب وما تكلفه من الكلف التي هي على خلاف مايرى من الحكمة كان قوله
أولا:

ذكر الرباب وذكرها سقم ... وصبا وليس لمن صبا حلم

وتشبه هذه الميمية في مساوقتها أول الأمر لعادة الشعراء ثم وثبتها إلى أمر من الحكمة ثم ذلك قوى ارتباط المعنى والرمز بها كان استهل به لامية بشامة بن الغدير خال زهير وهي من المفضليات العاشرة، وقد مر عنها بعض الحديث ولا بأس برجعة وبعض تفصيل

هجـرت أمـامـة هجـرا طـويـلا ... وحملـك النأي عبئـــا ثقيـــلا
وحملـت منهـــــا على نـأيها ... خيـــالا يـــوافي ونيـــلا قليـــلا
ونظـــــــرة ذي شجـن وامـق ... إذا مـــا الـركـــائب جـاوزن ميـــلا

من هذه البداية تحس أن ههنا عاطفة ذات عقد ألوان ـ هجر ونأي ومقة وذكرى ـ شوب من كبر المغاضب وأسف المحب وشكـه في صواب مايعزم عليـه ويتكلفه من "واقع" أمر الحياة وقوله« هجرت أمامة هجـرا طويلا» يلفت، إذ المألوف أن تكون المحبوبة هي الهاجرة.
ونسيب هذه القصيدة من أرق النسيب وأدقه
وتأمل بعد كيف تـدرج من ذكر الخيال إلى ذكر لقـاء لم يكن بخيال ـ قصة ممـا كان من أمره وأمرها ـ ثم أعاد الخيال ذلك كما يعيده أو يسبق به

أتتنا تسائل ما بثنا ... فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا

هـذا تفسير للهجر الطـويل كما ترى ــ بدأ الشـاعر من حيث انتهى علقمـة وغيره من الشعراء حيث يئسوا وقالوا دعها.

هو قـد وصل مرحلة اليأس فهي التي يبـدأ بها . ثم كما يفعل بعض أصحاب القصص الآن إذ يرجعون بك إلى أشياء مضت من منطلق هو الآن، رجع بنا بشامة إلى ما كان من المقدمات والأحوال التـي صارت به إلى اليأس ـ أتتنا تسائل عن أمـرنا ما بثنا؟ فماذا كما كان يقـول الدكتـور زكي مبارك رحمه الله، ولا أعلم من أهل العصر مـن الجيل السابق من كان يتناول الشعر بسحر بيان بعد الدكتور طه حسين كمثل سحر بيانه ـ أتتنا :

. . . . . .   فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا
وقلت لها . . . . . .

تأمل صيرورتـه إلى قلـت بضمير المتكلم الـواحـد بعـد أن كـان جمعـا، وفي هـذا من الخصوصية والمناجاة . . .

وقلت لها كنت قد تعلمين مذ ثوى الركب عنا غفولا

فهذا من أسباب اليأس كما ترى .

قال أحـد الشيرازيين أحسبه سعدي الشيرازي ما معنـاه إنك إذا رأيت صديقك يجلس عند عدوك فاعلم أن وداده قد انتهى واهجره . . .

وما كان لها من عذر غير الدموع :

فبادرتاها بمستعجل   من الدمع ينضح خدا أسيلا

مسكين الشـاعر، لايملك إلا أن يتصبـاه ــ يتصبى جـانبا من قلبـه هـذا الخد الأسيل ينضحه دمع الطرف الكحيل ـ دمع اعتذار ليس بعاذرها حقا وليس بمرضيه حقا

ومـــا كـــان أكثـــر مـــانـــولت   من القـــول إلا صفـــاحـــا وقيـــلا
وعـــــذرتها أن كـل امـــــرىء   معـــــد لـــــه كـل يـــوم شكـــولا

فدموعها إذن دموع عزم على وداع، وتقبل افتراق

كأن النوى لم تكن أصقبت   ولم تأت قوم أديم حلولا

أي كأننا لم نكن خليلين وكانت لنا حـال وآل وبيننا ود ووصال. قال أحمد بن عبيد بن ناصح قوم أديم أي مجتمعـون، أمرهم، واحد مجتمع فيهم أديم واحد، فعـزهم الدهر.
قلت أى غلبهم الدهر.
وإذن فهذه هي المأساة، قد تبدلت به آخر ــ هي إذن الهاجرة، ولابد له إذن من هجرها الهجر الطويل، إذ ليس إلى غير ذلك من سبيل

فقربت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا

ينبغي أن تكون هكذا وأن تكثر صفات قوتها لكي يتسلى من هذه المأساة

مداخلة الخلق مضبورة اذا أخذ الخافقات المقيلا

وهكذا مضى في نعت الناقة، وصف سنامها كيف اكتنز وما كان من مرعاها وخنزوانتها إذ تسير إذ ما عودت غير الإكرام

لها قرد تامك نيه تزل الولية عنه زليلا

يعنى السنام والولية شيء يجعل تحت الرحل يقى ظهر الدابة من مباشرة الخشب

تطِرد أطراف عام خصيب ولم يشل عبد إليها فصيلا

لم يشل لم يناد ولم يدع فصيلا ليرضع منها صونا لها

توقر شازرة طرفها إذا ما ثنيت اليها الجديلا

فهذه خنزوانتها.
وما خلت صفة هـذه القلوص من كبرياء صاحبته التي أحدرت دمـوعها ثم لم تهبه إلا إعراضا ومقالا كإعراض...
..... إلا صفاحا وقيلا

ثم وصف عينها ـ وفيها أيضا من حال تلك التي بكت ثم أعرضت لأنها عين تمتحن وتراقب كعين من يفيض قداح الميسر

بعين كعين مفيض القداح　　　إذا ما أراغ يريد الحويلا

أراغ أراد، الحويل، الاحتيال
ثم وصف الأذن والصدر ثم مرت، وصار بعد إلى الإشعار بالجد والتشمير

وحادرة كنفيها المسيح　　　تنضح أو بر شثأ عليلا

هذه أذنها يسيل منها العرق على وبرها ـ والصورة منتزعة من مبادرة الدموع التي مرت. والأوبر هنا في مقابلة الخد الأسيل، فيالذلك، كما ترى، من بديل:

وصدر لها مهيع كالخليف　　　تخال بأن عليه شليلا

زعم الأصمعي أن بشامة أخطأ. قال الشارح قال الأصمعي: قد أخطأ في هذه الصفة لأن من صفة النجائب قلة الوبر والانجراد، وإنما توصف بكثرة الوبر الإبل السائمة ولا توصف بالوبر نجيبة عتيقة كريمة.
قلت أصاب الجاحظ إذ أخذ على اللغويين ما أخذ. وللأصمعي من هذه مشابه، إذ قد مر عليك مثلا ما أخذه على المرار حيث قال في صفة النخل:

كأن فروعها في كل ريح　　　جوار بالذوائب ينتصينا

ولولا أن الأوائل تعقبوا أبا سعيد للزمنا أن نتهيب مكانه، قال الشارح قال أحمد: غير الأصمعي يقول لم يخطىء الشاعر الوصف لأنه لم يرد الوبر وإنما أراد أن جلد صدرها يموج من سعته، فلذلك قال شليلا، وهو كساء أملس ولم يرد الشاعر الوبر، إنما أراد سعة الصدر ولو أراد الوبر لقال: تخال بأن عليه خميلا، فالشاعر قد أجاد والمتأول عليه أنه أخطأ الوصف هو أخطأ وهذا مستحب في وصف الإبل والخيل، حتى كأن عليه شليلا أى كساء يضطرب من سعته. وقال غيره المهيع الواسع الإبط والخليف طريق في المنحنى. قال كاتب هذه الأسطر غيره هنا لا يعنى غير أحمد أو غير الأصمعي ولكن يرد ذلك الى قوله في أول الشرح المهيع الواسع والخليف الطريق ـ (وانظر الشرح الكبير ص ٨٤)

وما أجود ما قال أحمد بن عبيد بن ناصح . وغير الأصمعي حيث قاله لا أحسبه ما عنى به إلا نفسه .

ثم لم يزل الشاعر يقرو بتصويره الناقة أثر ما صور به أمامة التي هجرته وهجرها هجرا طويلا كما زعم ـ وهذا الصدر المتموج كأن عليه شليلا هو صدرها إذ تنخج ببكاء الوداع الهاجر. وهذه الأماكن التى مر هو عليها ومرت ناقته عليها هى أيضا مواضع مرور الظعينة إذ كما هو هاجر هي هاجرة وكما هو مودع هي مودعة .

فمرت على كشب غدوة — وحاذت بجنب أريك أصيلا
تـوطأ أغلظ حزانه — كوطء القوي العزيز الذليلا

وهذا التشبيه يوقف عنده .

الصفة للناقة ولأمامة أيضا. وهي العزيز وهو المسكين الذليل . ولا معنى لوصف وطء الناقة هذه الصفة إن لم يرم الشاعر الى الرمز والإيحاء وأن يضمن هذه الصفة معنى هذا الهجر الطويل والصفاح والقيل .

ثم استمر يصف سير الناقة بعد أن فصل ما فصله في صفة أعضاء منها :

إذا أقبلت قلت مذعورة — من الرمد تلحق هيقا ذمولا

من الرمد أي من النعام ـ وهذا مع انه من صفة إقبال سير الناقة مردود من جهة تجاوب أصداء المعاني على قوله آنفا :

أتتنا تسائل ما بثنا — فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا
وقلت لها كنت قد تعلميـ — ـن منذ ثوى الركب عنا غفولا

فهذا فيه معنى المذعورة الجفول

وإن أدبرت قلت مشحونة — أطاع لها الريح قلعا جفولا

فقد جاء بالجفول من صفة النعامة وهو هنا يشبه الناقة بالسفينة ـ وهكذا كان إدبار أمامة إذ أدبرت عنه وإذ أعرضت إعراضا .

وإن أعرضت راء فيها البصير مالا يكلفه أن يفيلا

أي مالا يخطىء معه أنه إعراض .

وإعراض الناقة هنا أن تريك جانبها . والبصير إذا أرته جانبها فنظر علم نجابتها ،

فهذا ظاهر المعنى، وهو مردود أيضا على ما تقدم من قوله:

صفاحا وقيلا

إذا الشعر ذو خفايا وألوان - ثم فصل صفات النجابة وهي أيضا من شواهد الإعراض

يـــدا سرحـــا مـــائرا ضبعهـــا تســـوم وتقـــدم رجـــلا زجـــولا

أى رجــــــــلا تضرح الحصى

وعـــوجـــا تنـــاطحن تحت المطـــا وتهدي بهن مشـــاشـــا كهـــولا

العوج الأضلاع. تناطحن دخل بعضهن في بعض. مشاشا عنى بها رؤوس العظام المركبة فيها الضلوع. كهولا. من قولهم اكتهل النبات، أى رؤوس عظام فيهن قوة وارتفاع ومن تأمل هذه الصفة وجد فيها عودا على قوله:

وصــــــدر لها مهيع كـــــالخليف تخال بـأن عليــــــــه شليــــــــلا

والتناطح فيه حركة أشبه بحركة الشليل الأملس المتموج منها بمحض التداخل إلا أن يكون في هذا التداخل معنى التموج كما يدخل الموج بعضه في بعض وكذلك حركة الضلوع في الصدر القوي الجيد.

وصفة المرأة التي ذكرها من هذا غير بعيد.

ثم استمر في صفة مشى هذه الناقة، وتشبيهاته لا تنى تحمل معاني من الرمز:

تعــــــز المطى جماع الطـــــــريق إذ أدلج القـــوم ليـــــلا طـــويـــــلا

أى تغلب الإبل الأخرى وتسبقها على الطريق. وهنا رجعه الى قوله من قبل:

تـــــوطأ أغلظ حــــــزانــــــه كـوطء القـوي العـزيـز الـذليـلا

ولو نستعير ورقة من كتاب جون كيري John Carey صاحب كتاب النقد المعاصر عن الشاعر جون دون John Donne لذكرنا القارىء أن الوطء والجماع كلاهما يجيء بمعنى المباضعة. والجماع الطريق هنا أى معظمه.

كــأن يــــــــــــديها إذا أرقلــت وقـــد جـرن ثم اهتــدين السبيـــلا

أى الإبل وأشربهن معنى النساء بهذا الإضمار

يـــدا عـــائم خـــر في غمـــرة قـــد ادركـــه الموت إلا قليـــلا

تلقى حركة الهمزة على الدال.

هنا وصف جيد بارع من حيث حاق تصوير الحركة، إذ الشاعر إنها التقط حركة اليدين والرجلين وفيهما عند إسراع الناقة اضطراب، فتشبيه ذلـك بحركة العائم المجد وقد كاد يغلبه موج أو تيار فبدا من ضرب يديه ورجليه إلحاح منازعة ذات إسراع مفرط مذعور، تشبيه دقيق. على أن حـال الناقة حين تجد وتنـدفع أبعد شيء عن حال الغـريق. وما خلا الشاعـر من تضمين وصفه إيحاء بما كان قاله من قبل من معنى الفـراق على كراهة ذلك وعلى يأس من صلاح الحال، ومن معنى سيقـوله من بعد عن قومه والـذين كانوا لهم جيرانا وحلفاء من قبل والمشعر بالإيحاء قوله:

قد أدركه الموت إلا قليلا

إذ قوله «يـدا عائم خر في غمرة» واف بالصفـة المرادة، ولكن هذه الزيادة مع تـوكيدها وتقويتها لمراده من التشبيه أدل على مكنون من الإيحاء.

ثم في الغمرة شبه من معنى العبرة، وذلك حيث قال:

. فبـــادرتـــاهـــا بمستعجـل من الـــدمع ينضح خـــدا أسيـــلا

ثم من هذه الغمرة تجيء وثبة الشاعر الى معاني الحكمة التي ختم بها قصيدته والتي هي أربه وضالته التي ينشد.

ومع الوثبة شيء من تداعي المعاني وقوة دلالة الرمز.

وقد يـذكر القارىء الحكيم أن الشـاعر إنما رأى في أول القصيـدة من أمامة بعـد هجره إياها الطويل خيالا.

وحملـت منهـــــا على نـأيها خيـــالا يـوافي ونيـــلا قليـــلا

حتى هذا الخيال لا يزوده ما يزعم الشعراء أنهم يتزودونه. قال عمرو بن قميئة

نأتـك أمـــامـــة إلا ســـؤالا وإلا خيـــالا يـــوافي خيـــالا
خيـــــال يخيل لى نيلهـــــا ولـــو قـــدرت لم تخيل خيـــالا

ولكأن بشامة تعمد الى أن يشير الى مقال ابن قميئة هذا حيث قال:

هجرت أمامة هجرا طويلا

فأمـامة كما تـرى هي نفس العلم الـذي جـاء بـه عمرو بن قميئـة من قبل ، وكـان من أصحاب امرىء القيس ، مشهورا من شعراء العرب .
وعند عمرو بن قميئة هي الهاجرة .
وذكر الشعراء تنويل الخيال كثير ومن أشهره قول ابن الخطيم :

مـا تمنعي يقظى فقـد تـؤتينـه ... في النـوم غير مصرد محسـوب

وأخذ هذا المعرى فقال :

تسىء بنـا يقظى فأمـا إذا سرت ... رقـادا فإحسـان إلينـا و إجمال

وقال أبو الطيب ، فجعل نفسه ذا عفاف حتى مع الخيال ، وكأنه ينظر الى قول اليشكري «من حبيب خفر فيه قدع» فقال :

يـرد يـدا عن ثـوبها وهـو قـادر ... ويعصي الهوي في طيفها وهو راقد

والمبالغة في هذا القول . وهو بعد جيد بالغ . ·
وحول الخيال بشامة في تذكره النظرة حيث قال :

ونظـــرة ذي شجـن وامـق ... إذا مـا الـركـائب جـاوزن ميـلا

ثم جعل الأمر قصة بعض ما كان .
ثم هاهنـا رجع فجعل القصة طيف خيـال كما بدأت . وعدل من الـرمز وهو أمـامة الى معان من المرموز له . وهذا يناسب عودته فجعله القصة أحلاما وللأحلام تأويل . هاهنا الوثبـة . والذي يـدلك على أنه جعل مـا كان قصة ورمـزا ، مرة أخـرى خيالا وأول ذلك الخيال قوله .

وخبرت قـــومـي ولم ألقهـم ... أجـدوا على ذي شـويس حلـولا
فـإمـــا هلكـت ولم آتهم ... فـأبلغ أمـــاثـل سهم رسـولا
بـأن قــومكم خيروا خصلتين ... كلتـاهما جعلـوهـا عـدولا
خـزي الحيـاة وحـرب الصـديق ... وكـلا أراه طعـامـا وبيـلا
فـإن لم يكـن غير إحـــداهما ... فسيروا الى الموت سيرا جميـلا
ولا تقعـــدوا وبكـم منـــة ... كفى بـالحوادث للمـرء غـولا

وحشـــوا الحروب إذا أوقـــدت ... رمـاحـا طـوالا وخيـلا فحـولا
ومن نسج داود مـوضـونـة ... تـرى للقـواضـب فيهـا صليـلا
فـإنكم وعطـاء الـرهـان ... إذا جـرت الحرب جـلا جليـلا
كثـوب ابـن بيض وقـاهـم بـه ... فسـد على السـالكين السبيـلا

وهو الجزء الختامي وذروة مقاصد الشاعر.

قوله ولم ألقهم ولم آتهم يقوى مزعمنا أن هاهنا رجعة الى الطيف، لأن القصة التى قصها من قبل يقول فيها « أتتنا تسائل ما بثنا » فهذا إن يكن طيفا، وهو كذلك، فإنه لا إتيان ولا لقاء، ولكن حلم، وقوله: « أجدوا على ذي شويس حلولا » فيه أنفاس من قوله:

فقلت لها كنت قد تعلمين منذ ثوى الركب عنا غفولا

فلم يكن لها اعتذار إلا الدموع، وقوله: « أتتنـا تسائل ما بثنا » يشبه « وخبرت قومي ولم آتهم البيت » لأنه في هذا الـذي جعله خيالا قال: « قـد عزمنا الرحيـلا » فهؤلاء الذين قـال بلسانهم "قـد عزمنـا" هم قـومه. وذو شـويس مـوضع بعينه، جبل في ديـار بني مـرة، قـال ذلك البكـري في معجم مـا استعجم وضبطـه بشين معجمـة بعـدهـا واو مفتوحه، فياء ساكنة فسين مهملة على صيغة التصغير كأنه تصغير شأس خففت همزته والشاس الخشن، وضبطـه ياقوت بفتح فكسر بوزن كـريم وظريف، ويجوز أن بعضهم كـان ينطقه هكـذا، أو أن ذلك كـان النطق على زمانـه. وفي ذكـر شـويس كنايـة عن الصلابـة والخشونة وعن الاعتصـام والمأوى معا إذ هـو جبل، ويجوز أن يكون في ذلك شيء من الإيماء الى الحصين بن الحمام من سادات بنـي مرة، لما استوثق بينـه وبين قوم بشامـة من حلف. وقـوله "فأبلغ أمـاثل سهم رسولا" كقـوله « أتتنـا تسائل مـا بثنا » - الشبه في إرسـال الرسول فإنـه في معنى إتيانها تسائل كما أن من معنى مـا بثنا أي شيء بثثناه إن شئت، وأي شيء حالنا. وقوله: « قد عـزمنا الرحيلا» فقد أرسل الى قومه وعزم أن يلحق بهم وذلك قوله: « فإما هلكت ولم آتهم» فما يمنعه من الإتيان إلا أن يهلك.

وقوله: « خزي الحياة وحرب الصديق» في معنى ما بث أمامة وبثته إذ قال لها كنت "عنا غفولا" فبكت ولم تصنع إليه كبير شيء فلم يجد بدا من الهجر.

وقوله: "فسيروا الى الموت سيرا جميلا"

تأويل ما تقدم من قوله: « هجرت أمامة هجرا طويلا»

وقوله: « وكل أراه طعاما وبيلا» وإن شئت وكلا بالنصب تأويل ما تقدم من قوله:

وحملـت منهـــا على نـأيها ... خيـالا يـوافي وعبئـا ثقيـلا
ونظـــرة ذي شجـن وامـق ... إذا مـا الـركـائب جـاوزن ميـلا

فهذا مع الحرمـان طعام وبيل، والهجر طعام وبيل، فإن لم يكن بـد من إحدي الخطتين فالهجر منه ومنها:

ومــا كــان أكثــر مــا زودت | من النيل إلا صفــاحــا وقيــلا

إي إعراضا وكلاما ـ مغالطة أو نحو ذلك.
وإذن فهي الحرب. ولا بـد لـذلك من عـدتـه، رمـاحـا طوالا، وخيـلا جيـادا ودروعـا وسيوفـا. ومن أكمل عدتـه وأبدى الحزم هيب جـانبه ـ ثم نصحهم أن يلزمـوا جانب العـدل حتى لا يجر البغـي عليهم وبـالا، وهـذا متضمـن في زعمـه أن الخطتين اللتين خيروا؛

...... كلتاهما جعلوها عدولا

أى جورا وعدولا عن الحق. فأنتم ياقوم فلا تعدلـوا عن الحق فالبـغي مرتعه وخـيم. هــذا الــروح هــو نفســه الــذي نجــده عنــد ابن أختــه:

فـلا تكتمن اللـه مـا في نفـوسكم | ليخفي ومهما يكتـم اللـــه يعلم

فهذا قولنا من قبل إن بشامـة أستاذ زهير، وذلك أقرب من أن نقول إن زهيرا من المدرسة الأوسية، وإن يك أوس تزوج أمه وهو قد روى منه، ذلك بأن أصل أخذه وتلمذته هو بشامة وعلى هذا قول الرواة
وقوله:

فـإنكم وعطــاء الــرهــان | إذا جــرت الحرب جــلا جليــلا
كثــوب ابـن بيض وقــاهـم بــه | فســد على الســالكين السبيــلا

تقـوية لما تقـدم من معنى الاستعـداد ولزوم جـانب الجد والحزم مع تجنب البغي والجل كساء الجواد، فجعل مد الحرب غبارها وشرهـا جلا جليلا، فإذا حدث هذا فإن الحلف الـذي عقدتموه مع الحصين بن الحمام المري والـرهـان الذي أعطـاكمـوه، قالـوا رهنهم ابنه، عدة لكم جسيمة لمكان الحصين ومكان بني مرة في غطفان، فهذا كثوب ابن بيض الذي جعله وقـاية له من شر لقهان. وضرب بشامة ذلك مثلا. وزهير كخـاله مما يضرب الأمثال.
وهذا اختتام حسن.

وعينية المسيب بن علس

أرحلت من سلمى بغير متاع

انتقال الشاعر فيها من النسيب وصفة الطريق كأنه اقتضاب وإنما هو وثبة درجتها متضمنة في صفة السير الذي بدأه من عند أول النسيب إذ زعم أن سلمى من قلبه بمكان وحباله لم تنقطع، فالرحيل إذن من أجل هذا المديح.

فلأهدين مع الرياح قصيدة　　منى مغلغلة إلى القعقاع

جعلها مع الرياح لركوبه وتغنيه وورود المياه بهذه المدحة العصماء

ترد المياه فلا تزال غريبة　　في القوم بين تمثل وسماع

هذه مقدمة. ثم تدرج منها إلى المدح نفسه:

وإذا الملوك تدافعت أركانها　　أفضلت فوق أكفهم بذراع

وإذا تهيج الريح من صرادها　　ثلجا ينيخ النيب بالجعجاع

أحللت بيتك بالجميع وبعضهم　　متفرق ليحل بالأوزاع

ولأنت أجود من خليج مفعم　　متراكم الآذي ذي دفاع

وكأن بلق الخيل في حافاته　　يرمي بهن دوالي الزراع

هذا البيت مع طربه صورة مذهلة ــ ومع ذكره الخيل خطر له ذكر الحرب، وهذا من باب تداعي المعاني

ولأنت أشجع في الأعادي كلها　.　من مخدر ليث معيد وقاع

ونصير بعد إلى ذكر تداعي المعاني:

ثالثا: تداعي المعاني

حق هذا كان أن نذكره قبل التسلسل وقبل التدرج إذ هو في مادة ربط أول القصيدة بما يليه إلى آخرها أصل أصيل. ويداخله الرمز والإيحاء والتدرج والتسلسل. ولكنا أخرناه عنهما لأن أمرهما كأنه أبين من أمرهَ. وإنما نصل إلى درك ما كان وراء قول الشاعر من تداعي المعاني بالحدس وبالتفكر وبالتخمين كثيرا.

وبعض التداعي عفوي الانسياب آخذ ما يسبق منه بما يلي، متجاوبة أطرافه متساوقة تساوقا واضحا جليا. على ذلك قصيدة امريء القيس " قفا نبك من ذكرى

حبيب ومنزل " ــ ما من فصل منهـا إلا هو مفض إلى ما بعـده، ودعاء المعنى أخـاه له إصبع تشير، وقـد مـر تفصيلنـا ذلك في هـذا الجزء وفي الجزء الثـالث في بـاب الجمال ومقاييسه، فأغنى ذلك عن أن نعيده هاهنا.

وفي تداعي المعاني عنـد طرفة قلق واندفاع دفعات دفعـات. وحركة القلق تنتظم قصيدته من عند أولها إلى آخرها مع نوع من شدة وعنف:

يجور بها الملاح طورا ويهتدي

كما قسم الترب المفايل باليـد

يـنـفـض المـرد. . .

تناول أطراف البرير وترتدي

تخـلـل حـر الرمـل. . . . .

لأمـضـي الهـم. . . . .

بعوجاء مِرْ قالٍ تروح وتغتدي

نـصـأتـهـا. . .

تباري عتاقا ناجيات وأتبعت   وظيفا وظيفا فوق مور معبد

جنوح دفاق. . . . .

بعيدة وخد الرجل موارة اليد

واروع نباض. . . . .

وجاشت إليه النفس. . . . .

خب آل الأمعز. . . . .

فذالت كما ذالت وليدة مجلس   ترى ربها أذيال سحل ممدد

وهلم جرا. . . . . وقد قال يصف نفسه:

خشاش كرأس الحية المتوقد

فهذا في القلق شاهد.

وعكس ذلك حـركة السأم والأنـاة التي تنتظم ميميـة زهير من عند الظعـائن إلى صحيحـات المال الطالعـات بمخـرم ورحى الحرب الثقيلـة الطحون والشيء بـالشيء يذكر.

الوقفة عند الطلل أذكرت بحدوج المالكية. ودعا ذلك ذكر الحي والفتاة التي كما قال:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن　　مظاهر سمطى لؤلؤ بزبرجد

فاللؤلؤ ثناياها والزبرجد لثاتها وشفتاها .

ثم ذكره الشمس أشعره حرها :ـ

وإني لأمضي الهم عند احتضاره　　بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

ونعلم أن المرقال دعا إليها ذكره الشمس لقوله من بعد :

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت　　وقد خب آل الأمعز المتوقد

وإنما خب وتوقد من توهج الشمس عليه ـ هذه الشمس التي إياتها قد سقت تلك الثنايا اللامعات العذاب .

ثم إذ ذالت الناقة وشبهها بفتاة الشرب دعا ذلك ذكر فتوته هو :

ولست بحلال التلاع مخافة　　ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وأبيات القصيدة المشهورات الغر من وصف القينة إلى

وما زال تشرابي الخمور ولذتي

إلى :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى　　وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي　　فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى　　وجدك لم أحفل متى قام عودي

الأبيات ـ

ثم بعد إذ أثبت على نفسه ما حقا يصح لمن يهمه أمره أن يلومه عليه قال : "يلوم ولا أدري علام يلومني" ، فقص قصته مع قرط بن معبد ومع ابن عمه مالك

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة　　على المرء من وقع الحسام المهند

ثم دعت الشكوى غضبا :

أنا الرجل الضرب

وإذا بهذا الرجل الضرب يعقر عقيلة مال شيخ الحي ، أبيه أو عمه

فظل الإماء يمتللن حوارها　　ويسعى علينا بالسديف المسرهد

فإن مت فانعيني بما أنا أهله　　وشقى علي الجيب يابنة معبد

وكأنما أرته بصيرة فؤاده أن جرائر طيشه سترديه قتيلا

وختم القصيدة بشراسة المقاتل وسفاهة صاحب نار الميسر وإن كانت من مآثر الجاهلية وانتظار الموت ونعى نفسه إلى نفسه وإلى الحي من عدو وصديق:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

ومن تداعي المعاني الذي تحتاج في تتبعه إلى إعمال الفكر ميمية علقمة

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

وكثير من الاستطراد والرجعة إلى ما تقدم من قول يدخل في باب تداعي المعاني، وفي ما فصلناه من متقدم الأمثلة ما يفي ويغني عن إعادته إن شاء الله تعالى

وقد تتداعي المعاني في حيز إطار عادة الشعراء من طلل ونسيب وما هو محور من ذلك أو مقاربه.

وقد يقدم الشاعر ويؤخر مفتننا في ذلك، فيغلب ما يمليه عليه تداعي المعاني على ما هو مألوف من ترتيب الرحلة بعد النسيب والأغراض بعد الرحلة.

من أمثلة ذلك كلمة المرار:

لا حبذا أنت ياصنعاء من بلد ولا شعوب هوى مني ولا نقم
ولن أحب بلادا قد رأيت بها عنسا ولا بلدا حلت به قدم
إذا سقى الله أرضا صوب غادية فلا سقاهن إلا النار تضطرم

وانتقل من هذا على سبيل المقابلة وهي من عوامل الربط كما سيلي ذكره إن شاء الله إلى مدح وادي أشي بديار نجد والفتيان الذين به:

وحبذا حين تمسي الريح باردة وادي أشي وفتيان به هضم

ثم مضى في مدح هؤلاء الفتيان الهضم أي كل منهم هضوم للمال بكرمه وإن شئت فقل هضيم أي ضامر غير مترهل إذ فعل لكلتا الصيغتين جمع

الواسعون إذا ما جر غيرهم على العشيرة والكافون ما جرموا
والمطعمون إذا هبت شآمية وباكر الحي من صرادها صرم

أي من سحابها البارد قطع ـ ثم كرر هذا المعنى وقرره وأكده :

وشتـوة فللـوا أنيـاب لـزبتهـا عنهم إذا كلحـت أنيـابها الأزم

أي الأوازم أي العاضة

حتى انجلى حدها عنهم وجارهم بنجـوة من حـذار الشر معتصم

هذا كرمهم ثم أخذ في ذكر نجدتهم وفروسيتهم

وهم إذا الخيل حـالـوا في كواثبهـا فـوارس الخيل لا ميـل ولا قـزم

وهذا كأنه أخذه من قول سلامة :

لا مقرفين ولا سود جعابيب

وقاسه عليه .

لم ألق بعـدهم حيـا فـأخبرهم إلا يـزيـدهم حبـا الى هم

وهذا البيت مما يستشهد به النحاة أراد يزيدونني . وعـرض هاهنا بالعودة إلى ما كان فيه من ذم أهل صنعاء ولعمري ما أنصفهم وما أنصف صنعاء ومضى في مدح أقوامه :

كم فيهم من فتـى حلـو شمائلـه جم الـرمـاد إذا مـا أخمد البرم

وعني بـالبرم البخيل وأصله الـذي لا يشهد الميسر وكـانت نـار الميسر مما تـوقد لمنفعـة الضعاف

تحب زوجـات أقـوام حـلائلـه إذا الأنوف امترى مكنـونها الشبم

إي إذا كان البرد وزكامه . ونظر في هذا المعنى إلى قول متمم :

ولا بـرمـا تهدي النسـاء لعرسـه إذا القشع من حس الشتاء تقعقعا

ثم مضى على هذا النهج

تـرى الأرامل والهلاك تتبعـه يستـن منـه عليهم وابـل رذم

ثم وصف جفان هذا الفتى الذي جعله صورة لفتيان وادي أشي الهضم

تـرى الجفـان مـن الشيـزي مكللـة قـدامـه زانها التشريف والكـرم

ينـوبها النـــاس أفـــواجـــا إذا نهلـــوا　　علـــوا كما عـل بعـــد النهلـــة النعم

ثم قفز به تداعي المعـاني من تذكر الفتيان وكرمهم الى تذكـر الفتيات وفتاة بعينها منهن زاره طيفها ـ
زيارة طيفها هي التي أثـارت في نفسه بغض الاغتراب فذم صنعاء ومـا حولها وتمنى لو يعود ـ بدأ بـذكر الفتيان للموازنة بينهم وبين ما كـره من صنعاء، وكان أنسب أن يبدأ بذكر الرجال .
ثم كأن أمر الطعام والجفـان صحبه تداعي المعاني الذي جر إلى ذكـر النساء ثم إلى ذكر امرأة منهن بعينها . ثم إلى أن جـاء بما شأنه أن يكون مقدمة نسيبية في مـوضع الرحلة، لأن الطيف يزور مع الرقاد، وهو قد نزل لتعريس الفجر هنا فطرقه الخيال ـ

زارت رويقة شعثا بعـد ما هجعوا　　لـدى نواحـل في أرساغهـا الخدم

النواحل هي الـرواحل وقد كـدها السير. والشعث عنى بـه أشعث واحدا هـو نفسه، ولكنه جاء بالجمع ليناسب ما كان فيه من قصة فتيانه الكـرام الذين بوادي أشي . فقد صاروا الآن معه في السفر. ولا يكون هذا الفتى الكريم ذو الجفان المكللة، الذي تحب زوجات أقوام حلائله إلا إياه هو

وقمت للـــزور مـرتـــاعـــا فأرقني　　فقلت أهي سرت أم عـــادني حلم

هذا يبين بـه قوة طروق الطيف وحيويـة ما رأى من شخصه ـ ثم انتقل الى تصـوير من باب أوصاف الغزل، جعله في مقابلة ما كان من وصف الفتى الهمام الكريم :

وكـــان عهـــدي بها والمشي يبهظهـــا　　من القـــريب ومنهـــا النـــوم والسأم
وبـــالتكـــاليف تأتي بيت جـــارتها　　تمشى الهوينـى ومـا يبـــدو لها قـــدم

وهـذا جمع بـه بين صفـة صـاحبـة الأعشى، وصفـة مـا ينبغـي أن تكـون عليـه المرأة المحتشمة، وهذا من جهة الوصف لخلقها وشيمتها فيه من الجمع بين المتباينين، المشي المتأنث حتى إنه ليبهظها والتحفظ الذي يسبغ الستر حتى على القدم، كما بين جمعه في الرائية :

عجب خـــولـــة إذ تنكـــرني　　أم رأت خـولـة شيخـا قـــد كبر

بين صفتي البادنة والهيفاء
ثم يقول، وكأنه جعله رمزا لنجد وللفتيان معا، واستمرارا في ذم صنعاء:

روبق إني وما حج الحجيج له   وما أهل بجنبي نخلة الحرم
لم ينسني ذكركم مذ لم ألاقكم   عيش سلوت به عنكم ولا قدم
ولم تشاركك عندي بعد غانية   لا والذي أصبحت عندي له نعم

وهذه مناجاة رقيقة وشكوى من روح عفيف ذي صدق في المودة. ثم فيها من جهة الصنعة رد لعهده من صاحبته على مثل حال الوفاء التي ذكر في حديثه عن أصحابه الفتيان حيث قال:ـ

لم ألق بعدهم حيا فأخبرهم   إلا يزيدهم حبا إلى هم

وصدقه في صبابته وقسمه لرويقة أنه لم تشاركه في حبه لها غانية بعد إذ نأى، دعا إلى تمنى العودة ــ فبدأ بذكر الشقراء يجعلها في مقابلة صنعاء ثم عدد مواضع بعدها مما يحب:

ياليت شعري عن جنبي مكشحة   وحيث تبنى من الحناءة الأطم

مكشحة موضع باليمامة والأطم الواحد والجمع الآطام وأطوم وأحسبه هنا أراد الأطوم ثم أزال الإشباع وكانوا مما يفعلون ذلك، ويدلك على هذا تأنيثه الفعل: «وحيث تبنى» والأطم المفرد مذكر. وأراد التنبيه إلى آطام جنبي مكشحة من اللبن والرمل، ولكن أبنية صنعاء من الحجر. فهو يحن الى حيث «تبنى الأطم» لا من الحجر، وتلك دياره.

ياليت شعري عن جنبي مكشحة   وحيث تبنى من الحناءة الأطم
عن الأشاءة هل حالت مخارمها   وهل تغير من آرامها إرم
وجنة ما يذم الدهر حاضرها   جبارها بالندى والحمل محتزم
الجبار طوال النخيل
فيها عقائل أمثال الدمى خرد   لم يغذهن شقا عيش ولا يتم

فجعل الأشاءة في مقابلة أشي وأنث وجعل جنتها فيها عقائل حسان كما في جنان الفردوس. وهؤلاء العقائل في مقابلة ما بدأ به من ذكر الفتيان. ثم انتقل الى ذكر

أزواجهن. ثم إلى ذكر الخيل والفتوة، وجعل نفسه قائد كبة الخيل. ولم يخل ههنا من نظر الى إبل علقمة التي

يهدي بها أكلف الخدين مختبر　　من الجمال كثير اللحم عيثوم

وذلك قوله بعد أن قال فيها عقائل، البيت المتقدم ذكره :ـ

يتنابهن كرام ما يذمهم　　جار غريب ولا يؤذي لهم حشم

كما ذم هو صنعاء وشعوب ونقما

مخدمون ثقال في مجالسهم　　وفي الرحال إذا صاحبتهم خدم

فدل على أنهم أو على أن منهم معه في الرحال ـ فدعاه ذلك إلى أن يتمنى مزيدا من الأوبة إلى دياره، وكما تمنى رويقة من قبل وبين لها بقاءه على العهد، حن هنا الى صاحب له من فتيان دياره :

بل ليت شعري متى أغدو تعارضني　　جرداء سابحة أو سابح قدم

نحو الأميلح أو سمنان مبتكرا　　بفتية فيهم المرار والحكم

أما المرار فالشاعر والحكم هو هذا الصاحب الذي تمناه وجعله في الرجال مقابلا لرويقة في النساء، وقد أحسن اختيار الأسماء.

ليست عليهم إذا يغدون أردية　　إلا جياد قسي النبع واللجم

وكأنه يعيب ما رأى من أردية في صنعاء

من غير عدم ولكن من تبذلهم　　للصيد حين يصيح القانص اللحم

قوله «من غير عدم» احتراس كما ترى. وقد قال عبدة بن الطبيب وهو تميمي :

لما وردنا رفعنا ظل أردية　　وفار باللحم للقوم المراجيل

وأخذ عبدة من قول امرىء القيس في البائية

فيفزعون إلى جرد مسومة　　أفنى دوابرهن الركض والأكم

يرضخن صم الحصى في كل هاجرة　　كما تطاير عن مرضاخه العجم

يغدو أمامهم في كل مربأة　　طلاع أنجدة في كشحه هضم

فهذا عنى بـه نفسه وقـوله في كشحـه هضم يقوى تفسيرنـا قوله هضـم أنه جمع لهضيم الكشح، فهذا الرجل الضامر صدى من ذلك الفحل العيثوم الذي في ميمية علقمة :
والإشـارة الى مأثـور القول وتضمينـه والإيماء إليـه كل ذلك ممـا يدخل في بـاب الـربط ويكـون مع تسلسل الكـلام وتدرجـه كما يكـون مع تداعي المعـاني ــ قـول بشامـة بن الغدير: «جلا جليلا» دعا فكرة «ثوب بن بيض» وهو إشارة وضرب مثل
وقول زهير في المعلقة :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله   رجـال بنـوه من قـريش وجـرهم

دعا قوله من بعد :

ألا أبلغ الأحـــلاف عني رســـالـــة   وذبيـــــان هـل أقسمتـم كل مقسـم
فـــلا تكتمـن اللـــه مـــا في نفـــوسكم   ليخفـى ومهما يكتـم اللــــــه يعلـم

أي يكتم من الله سبحانه وتعالى .

رابعا ، المقابلة

وقد تكـون فرعـا من تداعي المعاني، كما قـد تكون مقـدمة له، ومن المقـابلة مـا دلالته التباين، فالمباين يقابل مباينه، ومنهـا ما يدل على تشابه، فيكون من باب إلحاق الأمر بما يشبهه ويكون من هذه الجهة موازنا له .
فمن بـاب إلحاق الأمـر بما يشبهه أبيـات حصين بن ضمضم في معلقـة زهير، فانـه لما قال :
«هل أقسمتم كل مقسم فلا تكتمن الله إلخ» ألحق بهذا كتمان حصين ما عزم عليه من الخروج
وقول عنترة :

وكأنما التفتـت بجيـــد جـــدايـــة   رشـأ من الغـــــزلان حــــر أرثـم
نبئت عمـــرا غير شـــاكـــر نعمتي   والكفـــــر مخبثـــــة لنفس المنعـم

فها هنـا تداعي معـان، إذ وجد عنـد الغانيـة التي يصف إسماحا ومنـالة فهـو لذلك شاكر. ولكن عمرا جاحد. عمرو هذا إما أبـوه وإما عمه وإما صديق، وهو هنا يذكر منه نكرانا وجحودا، ويحذر من عواقب ذلك .
وألحق بعمرو هذا حنقـه في آخر القصيدة على ابني ضمضم. والراجـح انهما كانا ذوي شر عارم، فقـد ترى ذكر زهير حصينا منهما، وقـد يكون حصين هذا نفسه هـو الذي شتم عنترة، فنكره عنترة بذكر أخيه معه، وكـأن عنترة يقول أما عمرو فبكفره نعمتي قد خبث نفسي، وأما ابنـا ضمضم حصين وأخوه فقـد قتلت أباهما وكمثل مصرعـه مخبوء لهما عندي لو يجسران فألقاهما .

المقابلة التي تساوق تداعي المعاني وينبعث منها وتنبعث منه مع الموازنة، وحذو الشيء بعد الشيء على مماثل ذي مماثلة ما لـه من قبله أو من بعده، هي أكبر ما عليـه الربط والوحـدة في معلقة طرفة. وقـد نبهنا الى أن حركة الحدوج المهتـزة اهتزازا شديدا ــ رمز انفعال الشـاعر ذي الحيـوية الشـديدة ــ تنتظم الكلمة من عنـد«يجور بها الملاح طورا ويهتدي» الى«تناول أطـراف البرير وترتدي» ـ ينفض المرد ــ أتلع نهاض ـ اروع نباض ـ جس الندامى ــ سامي واسط الكور رأسهـا وعامت بضبعيها ــ كرأس الحية المتوقـد ـ كسيد الغضا ـ رجعت في صوتها ـ خب آل الأمعز

كهـــاة ذات خيـف جـــلالـــة عقيلـة شيخ كـالـوبيل يلنـدد

. . . . ذلول بأجماع الرجال ملهد. . . .

وما أشبه من تتابع الصفات ومن ضروب التقسيم

صهـابيـة العثنون مـؤجـدة القـرا بعيـدة وخـد الـرجل مـوارة اليـد

هذا. . .

وعينية أبي ذؤيب صار فيها بعد الدمعة الحارة، من حيث ذكروا عن عمر رضي الله عنه قوله عنه إنه سلا إلى درجات من طلب العزاء وكل صورة فيها مقابلة وموازنة ومشابه مما قبلها.

أول شيء صورة الحمار الوحشي وآتنه وهؤلاء يصيبهن القدر بسهامه عند الورود في لحظة مأساة حاسمة:

فأبـــدهن حتـــوفهن فهـــارب بـــذمـــائه أو بـــارك متجعجع

والصورة على جودتها تنظر الى قول علقمة:

رغا فوقهم سقب السماء فداحض بشكتــــــه لم يستلب وسليـب

فالداحض هو هذا البارك المتجعجع

ثم صور أبو ذؤيب صراعا أشد ـ الثور والكلاب والصائد ذا الأسهم:

فبـــدا لــــه رب الكـــلاب بكفـــه بيـض رهــــاب ريشهـن مقـــــزع

فـــرمـى لينقـــذ فـــرهـــا فهـــوى لـــه سهم فـــأنفـــذ طـــرتيـــه المنـــزع

فكبـــا كما يكبـــو فنيق تـــارز بـــالخبت إلا أنـــه هـــو أبـــرع

وهذه الصورة الجيدة، هي أيضا من قول علقمة: فداحض بشكته إلخ

ثم خاتمة القصيدة صراع فارسين مدججين بالسلاح ـ وهذه كما ترى درجة أعلى وأعنف

من درجات القتال. والقدر في جميع ذلك بالمرصاد. وفي الحمار والثور كما في الفارسين كليهما من الحمية والثقة وحسن البلاء

متحـــامين المجـــد كـل واثق ببـــلائه واليـــوم يـــوم أشنع

ومن عجيب الشعر ميمية المرقش الأكبر. والمرقش جاهلي قديم.
وكأن الرواة لم يظفـروا بكل أبيات هـذه القصيدة. ولم يوفهـا الشراح حقها من الشرح.
وروى عن أبي عكرمة بعـض خبر هذه القصيدة أنها رثي بها الشاعر ابـن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك ثم قال في شرح البيت:
ثعلب ضراب القوانس بالسيف وهادي القوم إذ أظلم
ثعلب اسم رجل ولم يرد ثعلبة. فتأمل هذا الاختلاف.
وقال الأستاذان أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ عبد السلام محمد هارون في تحقيقهما المختصر من تحقيق المستشرق ليـال لشرح ابن الانبـاري الكبير وهي من نـادر الشعـر الذي بـدىء فيه الـرثاء بالغـزل. قلت ومن تأمل القصيدة وجـد أنها فيها الـرثاء وغير الرثـاء، وليست هي حقا بمـرثية وإنما الذي ذكـر في البدء خبر من خبرهـا. وقد رأيت اضطراب الشـارح في ثعلبة وثعلـب ولولا رواية رواهـا ما وقـع هذا الاضطـراب إذ أمر الترخيم أول ما يتبادر إليك في مثل هذا الموضع. وقال في شرح البيت:

إن يغضبـوا يغضـب لـذاك كما ينسل مـن خـــرشـــائه الأرقم

الخرشاء جلـد الحية والأرقم الحية قـال أبو جعفر. يغضب يعني الـرئيس الممدوح غيره قشر كل شيء خرشاؤه. قال وكل منتفخ أجوف فيه خروق فهو خرشاء.
قلت فعلى هذا التفسير الثاني: كما ينسل من خرشائه الأرقم أي كما ينسل الأرقم ـ والمراد بالتشبيه غير واضح إلا أن يقال هو كالأرقم عنده السم والنكاية إذا غضب فسار ولكن سورة الحية وانسلاله ليس أمرا واحدا.
وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ عبدالسلام محمد هارون يغضب يعني الممدوح. وهذا كما ترى مخالف لما تقدم من أن القصيدة مرثية.
ومن تأمل سياق أبيات القصيدة الى قوله:

والـــوالـــدات يستفـــدن غنى ثــم على المقـــــدار مـن يعقـم

وهو البيت السابع عشر، وجد أن الكلام محكم الترابط، وإن تلك الأبيات الستة الأوائل نسيبا، والثلاثة التاليات رثاء، وسائر ما بقي حكمة وعزاء.
وقف الشاعر بمكان قفر. دار كانت دار أحباء فأقفرت منهم.

هل بـــالـــديـــار أن تجيب صمم	لـــو كـــان رسم نـــاطقـــا كلم
الـــدار قفـــر والـــرســـوم كما	رقش في ظهـــــــر الأديم قلـم
ديـــــــار أسماء التي تبلـت	قلبي فعيني مـــاؤهـــا يسجـم
أضحـت خـــلاء نبتهـــا ثئـــد	نـــور فيهـــا زهـــوه واعتـم

ثئد أي ند وهذا أدل على خلائه إذ لوكان به أهل ونعم وشاء لكان قد بدا ذلك فيه.
صورة النبات والزهر هنا خبر عن أمر واقع، لا وقفة مع سحر الطبيعة. إلا أن الطبيعة أبت إلا أن تفرض على الشاعر الإحساس بجمالها

نور فيها زهوه واعتم

وفطن أبوتمام، وكـان على الشعر مطلعا وبه خبيرا، أن هـاهنا تأملة للجمال فقـال بيته الجيد:

حتى تعمم صلع هـامـات الربـا	من نـــوره وتـأزر الأهضـــام

ثم انتقل المرقش الى التذكر، فتذكر الحبيبة والظعائن اللاتى كن معها وحزن لذلك:

بل هـل شجتك الظعـن بـــاكـــرة	كـــأنهن النخـــل مـــن ملهـــم
النشر مسك والـــوجـــوه دنـــا	نير وأطـــــــراف الأكـف عنـم

وصدق ابن المعتز ان البـديع لم يبدأ ببشار ومسلم. ولو أصاب صاحب المقـامات هذا البيت لعده مغنما.
قوله هل شجتك، هو المشعر بالحزن
قد كرره في قوله:

لم يشج قلبي ملحوادث إلا صاحبي المتروك في تغلم

أي كأن قال شجتنى ذكـرى الحبيبة والظعائن عند هـذا المكان المعتم بالنـوار المقفر من الأحباب.
لا بل شجتنى ذكـرى أمض وأوجع ـ صـاحبي المتروك في تغلم قتيلا، ولعلـه إنما وقف بتغلم.
وأتبع ذكر ثعلب بيتا واحدا ينعته به كما من قبل أتبع ذكر الظعائن بيتا واحدا ينعتها به:

ثعلب ضراب القوانس بالسيف وهادى القوم اذ أظلم

فمكـان النشر، لأن الغـانيـات إنما هن تـراء وعبير، اسم ثعلب علم واضح يـدل على شخص رجل شهم واضح. ومكان "أطـراف الأكف عنم» قولـه: "ضراب القوانس بالسيف." وجعل مكان "الوجوه دنانير" باشراقها وحسنها: "هادى القوم إذ أظلم"

اذ الهداية نور. فهنا مقابلة وموازنة كما ترى.

ثم كرر معنى الحزن:

فاذهب فدى لك ابن عمك لا يخلد الا شابة وأدم

قالوا هما جبلان. ثم اخذ في باب من الحكمة والتعزى:

لـــو كـــان حى نـــاجيـــا لنجـــا مـــن يـــــومـــــه المزلم الأعصـم

في بــــاذخـــــات مـــن عمايـــــة أو يــــــرفعـــــــه دون السماء خيـم

خيم اسم جبل بعينه

من دونـــه بيض الأنـــوق وفـــو قـــــه طـــــويل المنكبين أشـم

الأنوق الرخمة قالوا لا تبيض الا في أبعد ما تقدر عليه من الأمكنة ـ أي هذا الجبل بعيد العلو. وانما ضرب المزلم الأعصم وهو الوعل الذي مسكنه في الجبل البعيد مثلا لصاحبه المتروك في تغلم، أنه كان مثل ذلك الوعل في الامتناع ومأمولا له طول البقاء

يرقاه حيث شاء منه واما تنسه منية يهرم

أي إن أنسأته المنايا فلم تعـاجله، عمر العمر الطويل، ولكنها مما تعـاجله أحيانا كما عاجلت هذا الصاحب المتروك قتيلا في ذلك المكان الموحش.

فغاله ريب الحوادث حتى زل عن أرياده فحطم

أى حتى زل عن ارياد الجبل فتحطم

ثم ختم التعزى بقوله:

ليس على طُول الحياة ندم

هذامتصل بقوله: «واما تنسه منية يهرم» فقصارى طول العيش الهرم، وإذن فلا ينبغى أن يندم المرء على فوت طول الحياة ــ إذ وراء المرء هذا الضعف الذى مع طول العمر ثم الموت.

ليس على طـــــول الحيــــــاة نـــــدم ومـــن وراء المرء مـــــــــــــا يعلـــم

يهلـك والـــــــــــد ويخلـف مــــــــو لــــــــــــــــود وكـل ذي أب ييتـــم

والـــــوالـــــدات يستفـــــدن غنى ثـــم على المقــــــــــــدار مـن يعقـم

أى يجدن ما يسد حـاجتهن الى الولد إذ يلدن، هذا غنـاهن، إذ ليس يلزم أن يكون مع الولد غنى المال، ويصحح ما نذهب إليه رواية من روى يستفدن غناء بفتح الغين، ثم من النساء من لا يلدن، بقدر مما قضى عليهن

بعد هذا يأخذ الشاعر في قرى آخر. ولو كان قوله:

مـــا ذنبنـــا في أن غـــزا ملك   من آل جفنـــة حـــازم مـــرغم

من قصيدة أخـرى، لصح القول بأن الأبيـات السبعة عشر الأولى قصيـدة رثاء. وهل يصح أن يقال هما قصيدتان منفصلتان ضمهما الرواة معا لمجرد تشابه الروي والوزن ؟ ولقد قطع ابن قتيبة بأن هذه الميمية ليست بأهل أن تختـار. واختيار الأشياخ قبل زمانه لها عمن اختاروها من أشياخهم يدفع ما ذهب إليه كل مدفع.
وآخر القصيدة فيه أنفاس الحزن والتفكر والحكمة كأولها وذلك قوله:

لسنـــا كـأقـــوام مطـــاعمهم   كسب الخنـــا ونهكـــة المحـــرم

مع كون هذا فخـرا فإنه مداخلته أنفاس حزينـة تتأسف على كسب الخنا هذا وتتأسف على نهكة المحرم

إن يخصبـــوا يعيـــوا بخصبهم   أو يجدبـــوا فهـم بـــــه ألأم

وهـاهنا مـرارة وهجاء. ولا ريب أنـه عنى بني تغلب. والمشعـر لنا بـالحزن أن هاهنـا خطيئة وندما

عـــام تـــرى الطير دواخل في   بيـــوت قـــوم معهـم تـــرتم

هل أكلوا الرمم أو أكلوا من لحم ميت ؟

ويخرج الدخان من خلل الستر كلون الكودن الأصحم

الكودن ردىء من الخيل فجعل الـدخان يتسرب بطيئا كمشية هذا الكـودن الذي ليس بعربي

حتى إذا ما الأرض زينها النبت وجن روضها وأكم

فهـذه هي الصورة التي وصفهـا حين وجد الـديـار خلت من أهلها مع عمـوم الخضرة والنوار لها ـ فهذا الجزء من القصيدة مرتبط بالذي تقدم.

ذاقوا ندامة فلو أكلوا الخطبان لم يوجد له علقم

فهم قـد بغوا فأوحشت الـديار وذهبت النعمـة وقتل الفتيان وجـاءت الثارات مكـان عيش الائتلاف. والراجح أنه يشير هنا الى ماكان من إسراف المهلهل وتجاوزه مقدار ما يوجبه القصاص

لكنننـــا قـــوم أهـــاب بنـــا   في قـــومنـــا عفـــافـــة وكـــرم
أمـــوالنـــا نقى النفـــوس بها   من كـل مـــا يـــدني إليــه الـــذم

هذا في الفداء. ولكنا نقاتل إذا لزم الحفاظ. ولكن الشاعر يتذكر عهد القتال هنا بمثل

تذكره للظعائن ولصاحبه المتروك في تغلم

لا يبعد الله التلبب والغارات إذ قال الخميس نعم

والخميس هنا جيش الملك الممدوح

والعـــدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنـــادى العم

قوله بين المجلسين أي بين مجلس ومجلس وذلك في المشاهد العامة وعند حلول الأضياف في أمر جامع والشباب هم الذين يخدمون ويعدون بين المجلسين ـ

يأتي الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

أي تحل الدواهي ، دواهي الشيب والضعف بين الشباب ومن قيل له كن حكما فإنما يقال له ذلك بعد ذهاب شبابه ، فلا تغبط أخاك أن يصير حكما فقد فقد الشباب الذي هو أغلى وأجل قدرا .

هل صار المرقش حكما وهل يبكي شبابه هنا ـ

هذا أدنى ما يستفاد من قوله :

لا يبعـــد اللـــه التلبب والـــ ـــغارات إذ قـــال الخميس نعم

والعـــــدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنـــــادى العم

يـأتي الشبـــاب الأقـــورين ولا تغبط أخـــاك أن يقـــال حكم

وبقيت الأبيات من قوله :

مـــا ذنبنـــا في أن غـــزا ملك من آل جفنـــة حـــازم مـــرغم

الى قوله: لسنـــا كـأقـــوام مطاعمهم كسب الخنـــا ونهكـــة المحـــرم

ولا أشك أنه ههنا يشير الى ما اشار إليه الحارث من بعد ـ [إذ قصة الحارث وعمرو بن هند وعمرو بن كلثوم كل ذلك كان بعد زمان المرقش وإن كانت بعض قصص الرواة وأخبارهم تكاد تجعل من هؤلاء أبطالا ابديين لما تداخلهم من عناصر الأساطير] حيث قال :

كتكاليف قومنا إذ غزا المنذر هل نحن لابن هند رعاء

ما أصابوا من تغلبي فمطلول عليه إذا أصيب العفاء

فهذا يكذب الجاحظ أن الحارث لم ينتصف من تغلب أم قال لم يكد :

إذ أحل العلياء قبة ميسون فأدنى ديارها العوصاء

تأمل كيف جاء بعنصر مما يقع في النسيب ههنا وذلك قوله فأدنى ديارها العوصاء ـ وما يخلو قوله العوصاء من كنين معنى

فتأوت لـــه قـــراضبـــة من كـل حـي كـأنهم ألقـــــاء

كأنهم عقبان

فهـدا هم بـالأسـودين وأمـر الـ ـــله بلـغ تشقى بـه الأشقيـاء

فقوله «فتأوت له قراضبة» هو عينه قول المرقش حيث قال :

«حارب واستعوى قراضبة»

وهـذا الغـازي من ملـوك جفنـة فعل الأفـاعيل فلـم يكن من تغلب لملـوك الحيرة من نصر، ولكن نصرتهم بنـو يشكـر وبنـو بكـر رهط المرقش ورهط الحارث ـ وانظـر بعـد الأبيات وشرح الشراح لكلامي الشاعرين . قال المرقش : -

مـــا ذنبنـــا في أن غـــزا ملـك من آل جفنــة حـــازم مـــرغم

مقـــابل بين العـــواتك والغلـــ ـــــف لا نكس ولا تـــوءم

العـواتك من الأزد والغلف من كنـدة قـالوا عنـي غلفاء وسلمـة عمي امـرىء القيس فالغلف بتشديـد اللام وفتحها من ولداه والعواتك جمع عاتكـة من أسماء النساء اللاتي ولدنه وبنو جفنة فرع من الأزد

حـارب واستعـوى قـراضبـة ليـس لهم ممـــا يحاز نعم

فيحوزون ما ينهبون

بيض مصـــاليت وجـــوههم ليست ميـــاه بحـــارهـم بعمم

أي هذه صفتهم بيض منجردون كـالصقور وجوههم حديـدة صلته غير أنهم سباريت مجدبون ليست لهم بحار ذوات مياه تعم كملوك الحيرة وما يجندون من جنود، فمظهرهم انصـلات ومخبرهم جـوع وشراسـة وشر وشره ـ وروى بعضهم بغمم بـالغين المعجمـة وضمتين أو ضم وفتح فمن روى بالمعجمة وضمة وفتحـة فهو جمع غمة وهو من الكثرة وهـــو في معنى من روى بـــالمهملـــة وضمتين قـال الشـــارح ومن رواه بـــالعين فقـــد هجاهم . يعني بالعين المهملة .

ومن روى بالمعجمـة وضمتين فهو جمع غميم قال الشارح "يقـال ماء غميم إذا لم يكن ظاهرا" . ا . هـ وهذا ينبغي أن يكـون مدحـا ولا يعقل أن يمـدح الشاعـر القضاربـة السباريت أن وجوههم مشرقة إلا على وجه بعيد أن يكون أراد التأكيد والمبالغة في معنى انصلاتهم وشجاعتهم وتوقد قلوبهم ووجوههم للحرب كقول الهذلي في تأبط شرا :

وإذا نظـــرت إلى أسرة وجهـــه بـــرقت كبرق العـــارض المتهلل

ويجوز أن يكون عنى به على هذا الوجه مدح ملك الحيرة ومن معه .

وأقرب إلى الصواب رواية العين المهملة وأن ذلك هجاء، ثم أتبعه صفة ملك الحيرة، أن

هؤلاء جاءوا بيضا مصاليت أهل شر، عقبان نهب وقتال، فانقض عليهم ملك الحيرة ومعه جيشه الكثيف وناصروه من رهط المرقش

فانقض مثل الصقر يقدمه جيش كغلان الشريف لهم

أي ضخم كثير

إن يغضبوا يغضب لذاك كما ينسل من خرشائه الأرقم

ويجوز أن يكون هذا في وصف ملك جفنة الغازي ومعه جيش قراضيبه الذين هداهم بالأسودين أي التمر والماء ليكونوا أحرص على الحرب والنهب وقيل في الأسودين غير هذا.

وعلى الوجهين فالقصيدة خطاب مديح للملك ضمنه الشاعر أسى على ذهاب الشباب وتذكرا لابن عمه القتيل وللثارات والإحنة بين قومه وقوم المهلهل. وألحق الحكمة بمعنى الحزن والتأمل في ما صارت إليه حال ابني وائل بعد أن بغى بعضهم على بعض. وكأن قد وقف بالذي قاله عند الملك موقف الحكم، فهذا قوله:

يأتي الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

والأقورين ملحق بجمع المذكر السالم أي الدواهي

وتأمله في ميمية المرقش هذه ترينا أن جوهر موضوعها يدور حول خصومات حرب البسوس وما كانت تلجىء إليه ملابساتها من التهادن والاحتكام والغدر والتربص وما إلى ذلك من حين إلى حين

ومما يشعر بمعنى الأسى والأسف على فوت الشباب قوله:

لا يبعد الله التلبب والغارات إذ قال الخميس نعم

نعم أي إبل نغير عليها ونسوقها

والعدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنادى العم

وقد نظر زهير بن أبي سلمى في معلقته:

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم

وقد قابل بين صفة الظعائن التي في أول القصيدة، وبين ذكره الحرب الذي جاء به بعد قسمه. وقد أضمر ذكر الرحلة إذ وقوفه حيث وقف دلنا على أنه مرتحل، وهو المذهب، يدلك مثلا قول عنترة.

فــوقفت فيهـــا نــاقتـي وكأنها فــدن لأقضى حــاجـة المتلــوم

ثم قسمه بالبيت يـدل على أن رحلته كانت إلى البيت، وكانت عهـود الصلح وما أشبه تعقد عند الموسم.

وقوله:

فلما وردن الماء زرقـــا جمامـــه وضعـــن عصي الحاضر المتخيـم

وهذا مشعر بالأمن والرفه، يوازنه ويناسبه ما قاله من بعد:

وقـد قلتما إن ندرك السلم واسعـا بمال ومعــروف من القـــول نسلم

وقوله:

رعـوا ظمـأهم حتى إذا تم أوردوا غمارا تفـرى بـالســلاح وبـالـدم

فهذه غير قوله: «وردن الماء زرقا جمامه»

فقضـوا منـايـا بينهم ثم أصـدروا إلى كـــلأ مستـــوبل متـــوخم

وقد جمع زهير في طريقة ربطه بين ضروب من التـدرج وتداعي المعاني والمقابلات وغير ذلك، لقـوته في منهج القـريض وافتنـانه ومن نظــره إلى المرقش، تفكره في أمـر المنـايا ـ قال المرقش

يرقاه حيث شاء منه وإما تنسه منية يهرم

فهذا قول زهير من بعد

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

وفي زهير أسف كنين على هؤلاء الذين أصيبـوا في تلك الحروب. وهو ممن أنسأته الأيام فهرم وسئم ووقف مـوقف من يقال له حكم ويغبط ولو فطـن الفاطن لوجب ألا يغبط:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

وحذا زهير أمـر حصين على غزوة الملك الذي غـزا في ميمية المرقش وذلك حيث قال:

لعمري لنعم الحي جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

ولم يستغو حصين أحدا ولكنه قال أن سيفعل ذلك:

فشد ولم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

وقال: سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجم

وقوله «أم قشعم» فيه معنى الصقر، لأن القشعم من نعوت النسور وهو في ميمية

عنترة .

وقد تعلم قول المرقش

فانقض مثل الصقر يقدمه جيش كغلان الشريف لهم

لهم بكسر اللام وفتح الهاء وميم مشددة أي يلتهم ما أمامه من كثافته .

هذا ومن عجيب أمثلة المقابلة آخر لامية عبدة بن الطبيب التي في المفضليات (السادسة والعشرون) فقد نسب ووصف السير وافتن في صفة قتال الثور والكلاب .

ولي وصرعن في حيث التبسن بـه	مضرجات بأجراح ومقتول
كأنه بعدما جد النجاء به	سيف جلا متنه الأصناع مصقول
مستقبل الريح يهفو وهو مبترك	لسانه عن شمال الشدق معدول

ثم انتقل إلى شريح من صفة القنيص وفتوة زمان الجاهلية وصفة السير إلى القادسية أما صفة القنيص فقوله :

لما وردنا رفعنا ظل أردية	وفار باللحم للقوم المراجيل
ثمت قمنا إلى جرد مسومة	أعرافهن لأيدينا مناديل

فهذا كقول امريء القيس :

تمش بأعراف الجياد أكفنا إذ نحن قمنا من شواء مضهب

مضهب أي مشوي على عجل لم ينضج كل النضج وفي بائية امريء القيس صفة الاستظلال حيث طنبوا لثيابهم وجعلوا الدروع الماذية أوتادا .

وفي صفة السير إلى القادسية ذكره المراجيل ، فهذه كثيرة ، أكثر مما يكون مع أهل القنيص . وصفة اللحم حيث قال :

وردا وأشقر لم ينهئه طابخه ما غير الغلي منه فهو مأكول

فهذا ليس بشواء مضهب ولكن لحم في قدور كثيرة . والاكتفاء بتغيير الغلي اللحم يدل على صناعة مع إغذاذ في السير لا يمكن مثله من أناه تجويد إنهاء الطهاة طهيهم . وفي خبر القادسية فيما ذكره الطبري أن جند سعد رضي الله عنه كانت أزوادهم من الحبوب وافرة ولكنهم قرموا إلى اللحم فاستاقوا من ماشية السواد . فهذا يناسب صفة الطبخ الذي لم ينهئه طابخه والمراجيل كما ههنا .

وقوله :

ومنهل آجن في جمه بعـر ... مما تسوق إليه الريح مجلول
كأنه في دلاء القوم إذ نهزوا ... حم على ودك في القدر مجمول

أي مذاب. فهذا من نعوت الفتوة وليس من نعت السير إلى القادسية إذ لا ينبيء عن تمام الاستعداد للحرب، وإنما جازف خالد حيث أجتاز بادية الشأم ففاجأ الروم على غير توقع منهم لمقدمه. وسيذكر عبدة في صفة سير الجيش أنهم كان معهم الماء وذلك قوله:

ثم ارتحلنا.....

وقوله ثم منبيء عن تراخي الزمان، أي هذا غير ذلك الارتحال إلى الماء الآجن الذي في جمه بعر:

ثم ارتحلنا على عيس مخدمة ... يزجي رواكعها مرن وتنعيل
يدلحن بالماء في وفر مخربة ... منها حقائب ركبان ومعدول

فهذه صفة جمع كبير

نرجو فواضل رب سيبه حسن ... وكل خير لديه فهو مقبول
رب حبانا بأموال مخولة ... وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

وحق هذا أن يكون خاتمة، إلا أن في كلام الشاعر بقية، وقد أشعر بذلك عند البداية حيث قال

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة في دار مجاورة ... أهل المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية ... منهم فوارس لاعزل ولا ميل

فهؤلاء جند سعد وجيش عمر رضي الله عنهما

ومقدمة القصيدة فيها خلط بين ذلك وبين شيء من سابق أمر عبدة فيه فتك وجاهلية. وكأن خولة كما هي حبيبة هي أيضا رمز عن جميع ما تولى من الشباب وجنونه وبقلبه إلى بعض ذلك حنين وهذا من ازدواجية دلالة الرمز شبيه بسعاد كعب. سعاد كعب رمز لضلال اتباع قريش، فيها فجع وولع ـ وكأن المطلع «بانت سعاد»

ينظر إلى مطلع النابغة وصاحبته «إحدى بلى» التي أرادت غوايته وهو حاج، ورمز أيضا للنجاة بالوفود إلى الرسـول صلى الله عليه وسلم ونيل عفوه ورضاه وكأن المطلع "بانت سعاد" ينظـر إلى مطلع ربيعة بن مقـروم «بانت سعـاد فأمسى القلب معمـودا» وهذه القصيدة كالمجاراة لكعب في الوزن. والروي:

فخـامـر القلب من تـرجيع ذكـرتها ... رس لطيـف ورهن منـك مكبـــول
رس كـــرس أخي الحمـى إذا غبرت ... يـــومــا تأوبــه منهــا عقـــابيل
ولـــلأحبـــة أيـــام تــذكـــرهـــا ... وللنـــوى قبـل يـــوم البين تأويـل

هذا قريب في المعنى من مقال بشامة

أتتنـــا تســـائل مـــا بثنـــا ... فقلنـا لها قــد عـزمنـا الـرحيـلا
وقلنـــا لها كنـت قـــد تعلميـــــ ... ـــن منـذ ثـوى الـركب عنـا غفـولا

الأبيات . . . . . ثم يقول عبدة :ـ

إن التي ضربت بيتا مهاجرة ... بكوفة الجند غالت ودها غول

فخويلة بالمدائن يقارع قومها العجم وخولـة بكوفة الجند. فهل خويلة كناية عن الشاعر نفسه على مذهب عمرو بن قميئة حيث قال:

قد سألتني بنت عمرو عن الـ ... أرض التي تنكر أعلامها

وأراد نفسه بقوله بنت عمرو كما سبق ذكر ذلك؟

وخولة التي بكوفة الجند كل ما كان من شباب وعرام وهوى . . .

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ... إن الصبابة بعد الشيب تضليل

وصدق، لو يصح عزم امريء على ذلك

ثم مضى ما شاء في صفـة جد السير وضروب استطراد الوصف المتفـرع عنه ـ ثم صرنا إلى حيث قال:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

فزعمنا أنه خـاتمة لولا ما يشوش عليه من ظلال المقـدمة ـ زعم الفيروز آبادي أن شوش وتشـوش لحن ولحن الجوهري حيث ذكر ذلك في مادة "شيش" وفي اللسـان ما يفيد أن أصل هـذا القول من الأزهـري، والإجماع منعقد على صحـة ما نقلـه الجوهري وفوق كل ذي علم عليم ـ

من أجل تشويش المقدمة والرس الذي كرس أخي الحمى :

. . . . . . إذا غبرت   يوما تأوبه منها عقابيل

عاد الشاعر إلى ذكر بعض ما كان على عهد السفه والشباب ـ وناسب قوله تأوبه أن يقول كما قال :

وقـد غـدوت وقـرن الشمس منفتق   ودونـه مـن سـواد الليل تجليـل
الى التجـار فأعـداني بلـذتـه   رخـو الإزار كصدر السيف مشمـول

ثم وصف مجلس الخمر ـ وقد حال دون ذلك الإسلام والتحريم وعمر بن الخطاب ـ إلا أن يكون أصاب بعض اللمم فأسنده الى زمان مضى ، وذلك ما يتبادر الى الوهم من قوله

حتى اتكأنـا على فـرش يـزينهـا   مـن جيـد الـرقم أزواج تهاويـل
فيهـا الـدجـاج وفيهـا الأسـد مخدرة   من كـل شيء يـرى فيهـا تماثيل
في كعبـة شـادهـا بـان وزينهـا   فيهـا ذبـال يضيء الليل مفتـول
لنـا أصيص كجـذم الحوض هـدمـه   وطء العـراك لـديـه الـزق مغلـول
والكـوب أزهـر معصـوب بقلتـه   فـوق السيـاع مـن الـريحان إكليل

وهذا من صفة علقمة بن عبدة التي في آخر ميميته [1] .

مبرد بمـزاج الماء بينهما   حب كعجـوز حمار الـوحش مبـزول
والكـوب مـلآن طـاف فـوقـه زبـد   وطـابـق الكبش في السفـود مخلـول

وما زادت لذاذات ترف العصر على هذا ـ أعنى عصرنـا هذا الذي يوسم باسم حضارة أوروبا .

يسعى بـه منصـف عجـلان منتطق   فـوق الخوان وفي الصـاع التـوابيل
ثم اصطبحت كميتـا قـرقفـا أنفـا   من طيـب الـراح واللـذات تعليل
صرفـا مـزاجـا وأحيـانـا يعللنـا   شعـر كمـذهبـة السمان محمـول
تـذرى حـواشيـه جيـداء آنسـة   في صـوتها لسماع الشرب تـرتيل
تغـدو علينـا تلهينـا ونصفـدهـا   تلقى البرود عليهـا والسرابيل

ونبئت أنهم لا يزالون يصنعون كهذا الصنيع ببلاد المكسيك ، فذلك يكون من عقابيل

---

(١) علقمة بن عبدة بفتح الباء وعبدة بن الطبيب بسكونها

رس الجاهلية مما حمله العرب الى الأندلس ولا يخفى أن الشاعر عند قوله :

تغـدو علينـا تلهينـا ونصفـدهـا   تلقـى البرود عليهـــا والسرابيـل

قد وفي الكلام حقه وهذه خاتمة حق خاتمة .

وقولنـا إن الظن أن الشاعر أصاب لما ممـا يوقعه ذكـره الفرش وذكره الدجـاج وقد سبق قوله :

أهل المدائن فيها الديك والفيل

غير أن هذه أشياء من نعمة الحواضر، ولا سيما حواضر العجم ، كان يتلذذ بذكرها أهل الجاهلية ويزعمون أنهم شربوا من خمر العجم والروم الغالية .

وهل ألحق عبدة هـذه الابيات بلاميتـه وكان قـالها في الجاهلية؟ عسى ذلك . غير أنني أميل الى ما قدمت ذكره أن القصيدة اللامية هذه كل واحد وأن هذه الخاتمة أوجبها عليه أول كلامه .

ومن المقابلة ما يخالطه نوع من المفاجأة . هذه المفاجأة بما تدخله من تحول من المباين الى ما يبـاينه تكـون هي في ذاتها علاقـة ربط قوي . ومـن أقوى أمثلة هـذا الضرب صنيع الشنفرى في التائية ، وذلك حيث وصف المرأة ذات الحياء .

كـأن لها في الأرض نسيـا تقصـه   على أمهـــا وإن تكلمـك تبلـت

ثم بعد أبياتـه الروائع المفعمات بالعاطفـة ، وقد فصلنا عنها حـديثا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، قال :

فـدقت وجلـت واسبكـرت وأكملت   فلـو جن إنسـان من الحسـن جنت
فبتنـا كأن البيـت حجـر فـوقنـا   بـريحانـة ريحت عشـاء وطلت
بـريحانـة من بطن حليـة نـورت   لها أرج مـا حـولها غير مسنـت

المسنت المجدب ، والأرج المسنت لا يكون إلا أرج الرمم مما يقتله الجوع والعطش وتحلق فوقه الطير.

بعد هذا

وبـا ضعـة حمر القسى بعثتهـا   ومـن يغـز يغنم مـرة ويشمـت

ثم وصف الغزوة ومشيه إليها

خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا هيهات أنشأت سربتى
أمشي على أين الغزاة وبعدها يقربنى منها رواحي وغدوتى
أمشى على الأرض التي لن تضرني لأنكى قوما أو أصادف حمتى

كل هذا شتان ما بينه وبين الريحان وأرج الحبيبة الذي حجر به البيت.
هذا الانتقال المفاجيء شبيه بما سماه أرسطو طاليس في حديثه عن المأساة في شعر اليونان بالتحول Peri peteia . ولا ريب أن الشنفرى تحول وحولنا معه من حال نعمة ولذة الى حال شدة شرسة. وقد صنع هذا لا متشتت الفكر، منساقا مع نظم الأبيات المفردة كما يظن من لا يتعمق فهم الشعر العربي ولا يتذوقه، ولكن متعمدا إلحاق أمر بأمر، وربط لاحق بسابق، وإحداث عنصر من الموازنة والمقابلةبين متباينين جمعتهما تجربته وبيانه وكوصفه للفتاة ذات الخفر وتبلت إن تكلمك وصف أم العيال، وهي صاحبة تأبط شرا، فخلع عليه من صفات الفتوة، ما جعله بإزاء ما ذكره وفصله من صفات الفتاة وفضائل أنثاها.

أم العيال: إذا أطعمتهم أوْتحت وأقلت
وأميمة: [وازن بين أم العيال مكبرا وأميمة مصغرا]

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها إذا الهدية قلت

قال «قلت» عن أمية «وأقلت »عن أم العيال ـ في «أقلت » هذه الثانية صدى ومجاوبة لقلت تلك الأولى المنبئة عن الجود حتى عندما تقل الهدية.
أم العيال: مصعلكة لا يقصر الستر دونها
وأميمة: لا سقوطا قناعها
أم العيال: تجول كعير العانة المتلفت
أميمة: ولا بذات تلفت
أم العيال: ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت
أى من البيات وهو الغزو ليلا
أميمة: تبيت بعيد النوم. . . .

تحل بمنجاة من اللوم بيتها. . .)
إذا هو أمسى (أي بعلها) آب قرة عينه

أى آب مآبا سعيدا أو الى قرة عينه فنزع الخافض
وقد جمع بين التجربتين معا في خاتمة القصيدة عند حديثه غن نفسه ــ حديث سلوى عن نعمة العيش التي زلت كما قال في أول القصيدة :

فواكبدا على أميمة بعدما طمعت فهبها نعمة العيش زلت
لو الى السلوان سبيل
ألا لا تعدني إن تشكيت خلتى شفاني بأعلى ذي البريقين عدوتي
وإني لحلو إن أريدت حلاوتى ومر إذا نفس العزوف استمرت
أبي لما آبى سريع مباءتي الى كل نفس تنتحى في مسرتى

ولكن النفس التي تنتحى في مسرته وهي أميمة ، قد بانت ، فأبدل منها نفسا أخرى يعزها إعزازا ولكنها لا تنتحى في مسرته كل الانتحاء

تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ونحن جياع أي آل تألت

واعلم أصلحك الله أيها القارىء الكريم أنه من باب هذا التحول ما مر بك من نحو قول علقمة بن عبدة

بل كل قوم وإن عزوا وإن كثروا

وقوله :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم

بل غير بعيد من هذا الباب قولهم دع ذا ، ودعها ، وعد عن كذا وكذا والإقبال على الجد بعد النسيب ، ولكنا كما تقدم نبهنا الى عناصر أخرى من الربط في جميع ذلك من تدرج وتداعي معاني وتفرع لاحق عن سابق ومفارقة أمر ثم الرجوع إليه كما نبه الى ذلك ابن رشيق في حديثه عن التخلص وقد مر في أول هذا الجزء .
وقولنا إن عنصر المفاجأة عند الشنفري وما أشبهه من الشعر مثل التحول الذي قاله أرسطو طاليس ليس ببعيد . وجواهر مذاهب البشرية تتقارب بل هي أمر واحد وسابحة في فلك واحد . وإنما يقع الاختلاف في الأشكال . والمثال الذي ضربه أرسطو طاليس للتحول منه خبر أوديب . ومما يحسن ذكره في هذا الباب أن أوديب استنزل اللعنة على من قتل أباه وغشي أمه وقضى بعذاب أليم . فما كان ذلك الملعون المعذب آخر الأمر إلا إياه هو نفسه ولعمرك إن قول النابغة :

مـا جئـت من سيء مما رميت بـه إذن فـلا رفعت سـوطي الى يـدي
إذن فعـاقبنى ربي معـاقبـة قـرت بها عين من يـأتيك بـالفنـد

من قبيل استنزال اللعنات الذي صنعه أوديب. فقط كـان النابغة بريئا. وكان أوديب غير بريء، وغير جلد الفؤاد على الإثم.
ومما يـذكر في هـذا المعراض أن قتل الأب وغشيـان الأم مما يسمـونه عقـدة أوديب ليس ذلك بأمر انفردت به آداب اليونان، فمثله دائر في خرافات الأمم.
مما نختم به هذا الفصل مما يجري مجرى المقابلة قول أبي كبير الهذلي

أزهير هل عـن شيبـة مـن معـدل أم لا سبيـل الى الشبـاب الأول
أم لا سبيـل الى الشبـاب وذكـره أشهـى إلى من الـرحيق السلسل

فقد أسف على فوات الشبـاب هنا. ثم تمثل هذا الذي أسف عليـه في هذا الفتى الذي رغب أن يتزوج أمه ثم خـافه وأحس فيه قوة الشبـاب المباين كل المباينة لما كـان فيه هو من إقبال على ضعف المشيب وانهيار قواه وذلك قوله:

ولقـد سريت على الظـلام بمغشم جلـد من الفتيـان غير مثقـل
ممن حملـن بـه وهن عـواقـد حبـك النطـاق فشب غير مهبـل
ومبرإ مـن كـل غبر حيضـة وفسـاد مـرضعـة وداء مغيل
حملـت بـه في ليلـة مـزءودة كـرهـا وعقـد نطـاقهـا لم يحلل
هذه أمنية تمناها أبو كبير من أم تابط شرا التى لم يستطع إليها سبيلا
فأتـت بـه حـوش الفـؤاد مبطنـا سهـدا إذا مـا نـام ليـل الهوجل
فإذا نبـذت لـه العصـاة رأيتـه ينـزو لـوقعتهـا طمـور الأخيل
وإذا يهب مـن المنـام رأيتـه كـرتـوب كعب السـاق ليس بـزمل
أى ليس بضعيف ولكن إذا نهض من المنام نهض قائما

مـا إن يمـس الأرض إلا منكـب منـه وحـرف السـاق طي المحمل

أى هو مطوى طيا لضموره وقوة جسمه وذلك لاكتمال شبابه

وإذا رميت بـه الفجـاج رأيتـه يهوي مخارمهـا هـوي الأجـدل
وإذا نظـرت الى أسرة وجهـه بـرقـت كبرق العـارض المتهلل

صعب الكـــريهة لا يـــرام جنـابـــه ماضي العـزيمـة كـالحسـام المقصل
يحمي الصعـــاب إذا تكـون كـــريهة وإذا هـم نـــزلـــوا فمأوى العيـل

ود أبو كبير لو هكذا كان هو.

وفي الأبيات بعـد دقائق من معرفـة العرب بـالتربية ورعايـة الصغار في أطوار الطفـولة الأولى كقـولـه ومبرإ من كل غبر حيضـة أي بقايـا الحيضـة. وداء مغيل أي إن أمـه لم ترضعـه غيلا أي على حمل وذلك فيما زعمـوا يضعف الناشىء، وأن المرأة إذ غشيت في حـال خوف أو غضبت، كـان ذلك أنجب للنسل. قالـوا وكان تأبط شرا امـرأ قصيرا وذلك قول قيس بن العيزارة:

فأكـــرم ببـــز جـــر شعل على الحصى ووقـــر بـــز مـــا هنـــالك ضـــائع

شعل هو تأبط شرا. فإن صدق فهذه الصفة التي وصف بها أبو كبير تأبط شرا - « وإذا رميت به الفجاج إلخ » تؤيد ما ذكره، وكأنه كرة تنزو إذ يهوي المخارم أو كما قال:

يهوى مخارمهـــا هـــوى الأجـــدل

أي الصقر.

خامسا التخلص:

كل ماكنـا فيه تخلص، غير أنـا نخص في هذا الفصل تحت هـذا العنوان مسـائل منها الخروج وهو كثير. فقولهم «دع ذا» «وعد عن ذا» خـروج. وقد بينا أن كثيرا من «دع ذا» و «عد عن ذا» له صلة تسلسلية أو تدرجية أو قوة صلة ما بما تقدمه وما يجيء بعده من ذلك ما سبق به الاستشهاد من قول النابغة مثلا:

فعـــد عما مضى إذ لا ارتجاع لـــه وانم القتـــود على عيرانـــة أجـــد

ونحو قول علقمه:

فـــدعهـــا وســـل الهم عنك بجسرة كهمـك فيهـــا بـــالـــرداف خبيب

ونحو

فـلأهـــدين مع الـــريـــاح قصيـــدة مني مغلغلـــــة الى القعقـــــاع

قال ابن رشيق وقد ذكرنا بعض كـلامه في اول الكتاب ومن المستحسن أن نورده كله هنا إذ اعتمدنا عليـه في بعض ما نقول، وفصلنا من ذلك مـواضع، فيما تقدم، وقد نلحق بعضه شيئا من التعليق من بعد إن شاء الله (١).

وأما الخروج فهـو عندهم شبيه بـالاستطراد وليس بـه، لأن الخروج إنما هو أن تخرج من

(١) العمدة تحقيق الشيخ محيى الدين عبدالحميد رحمه الله ج ١ ص ٢٣٤ـ ٢٣٨

نسيب الى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه كقول حبيب في المدح

صب الفـراق علينـا، صـب من كثب عليـه إسحـاق يـوم الـروع منتقما
سيف الإمـام الـذى سمتـه هيبتـه لما تخرم أهـل الأرض مخترمـا

ثم تمادى في المدح إلى آخر القصيدة.
وكقول أبي عبادة البحتري:

سقيت ربـاك بكل نـوء عـاجل من وبلـه حقـا لها معلـومـا
ولـو أنني أعطيت فيهـن المنى لسقيتهـن بكـف إبـراهيما

وأكثر الناس استعمالا لهذا الفن أبـو الطيب، فإنه ما يكاد يفلت لـه ولا يشذ عنه حتى ربما قبح سقوطه فيه نحو قوله:

هـا فـانظـرى أو فظنى بى تـرى حـرقـا من لم يـذق طـرفـا منهـا فقـد وألا
عـل الأمير يـرى ذلى فيشفـع لى إلى التي تـركتني في الهوى مثـلا

فقد تمنى أن يكون له الأمير قوادا ـ وليس هذا من قول أبي نواس

سأشكـو إلى الفضل بن يحيى بن خالـد هـوانـا لعل الفضل يجمع بيننـا

في شيء، لأن أبا نواس قال "يجمع بيننا" ثم اتبع ذلك ذكر المال والسخاء به فقال:

أمير رأيت المال في نقماته مهينا ذليل النفس بالضيم موقنا

(في الأصل في نعماته وينكسر به البيت ولايستقيم المعنى وهو خطأ إمـا من الطابع وإما من الناسخ).
فكأنه أشار إلى جمعه بينهما بالمال خاصة، يفضل عليه ويجزل عطيته فيتزوجها أو يتسرى بها، وأبو الطيب قال: «يشفع لى» والشفـاعة رغبة وسؤال ثم أتبع بيته بما هـو مقو لمعناه في القيادة فقال:

أيقنت أن سعيدا طالب بدمي لما بصرت بـه بـالـرمح معتقـلا

فـدل على أنـه يشفع فإن أجيب إلى مسـاعدة أبي الطيب فـذاك، وإلا رجع إلى القهـر والذي يشاكل قول أبي نواس قوله:

أحب التي في البـدر منها مشـابه وأشكو إلى من لايصـاب له شكل

فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن أبي نواس.
ومما سقط فيه ـ وإن كان مليح الظاهر ـ قوله يخاطب امرأة نسب بها:

لـــو أن فنـــا خسر صبحكم وبـــرزت وحـدك عـاقـه الغـزل
وتفـــرقـت عنــه كتــائبــه إن المـــلاح خـــوادع قتـــل
مـــا كنت فـــاعلـــة وضيفكم ملـك الملـــوك وشـأنـك البخـل
أتمنعين قـــــرى فتفتضحي أم تبـــذلين لـــه الـــذي يسـل
بـل لا يحل بحيـث حـل بـــه بخـل «ولا جـــــور» ولا وجـل

فحتم علي (فنا خسرو) بأن الغـزل يعوقـه، وأن كتائبه تتفـرق عنه، وجعلـه يسأل هذه المرأة وتشكك هل تمنعه أم تبذل لـه، ثم أوجب أن البخل لا يحل بحيث حل، فأوقعه تحت الـزنى أو قارب ذلك، ولعل هـذا كـان اقتراحا من فنـا خسرو، وإلا فما يجب أن يقابل من هـو ملك الملوك بمثل هذا، ومـا أسرع ما انحط أبو الطيب، بينـا هو يسأل الأمير أن يشفع الى عشيقته صار يشفع للأمير عندها.»
قلت مـا يخلو ابن رشيق في جميع هـذا من خلط بين أدب البـلاط، ما ينبغي أن يكـون عليه، وبين مذاهب الشعـراء في الخيال والافتنان. وليس مذهب أبي الطيـب في أبياته بجد مختلف عن مـذهب أبي نواس، فمن أعـان بالمال شفع. والطلب بـدم المقتول أو من هو في حكم المقتول من ذلك غير بعيد. وحديثه عن فنا خسرو نهايته السؤال:

أتمنعين قرى فتفتضحي البيت

ثم قـوله بل لا يحل إنما هو خـروج وليس بقيادة كما زعـم ابن رشيق ليرضي صاحبـه أبا الحسن والله أعلم أي ذلك كان، ثم نرجع بالحديث إلى بقية كلام ابن رشيق:
«والاستطراد أن يبني الشاعر كـلاما كثيرا على لفظـة من غير ذلك النوع يقطـع عليها الكلام وهي مراده دون جميع مـا تقدم، ويعود إلى كلامـه الأول وكأنما عثر بتلك اللفظة عن غير قصد ولا اعتقـاد نية، وجل ما يأتي تشبيهـا وسيرد عليك في بابه مبينـا إن شاء الله تعالى. ومن الناس من يسمى الخروج تخلصا وتوسلا وينشدون أبياتا منها:

إذا مـــا اتقـى اللــه الفتى وأطـــاعــه فليس بـــه بأس ولـــو كـــان من جـــرم
ولـو أن جـرمـا أطعمـوا شحـم جفـرة لبـــاتـوا بطـانـا يضرطـون من الشحم

وأولى الشعـر بأن يسمى تخلصا مـا تخلص فيه الشـاعر من معنى الى معنى ثم عـاد الى

الأول» إلى آخر ما قاله مما تقدم ذكره في أول هذا الجزء حيث استشهد بشيء من عينية النابغة. ثم قال: «ثم اطرد له ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة، وهو مع ما أشرت إليه غير خاف إن شاء الله تعالى.

«وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب، ثم يرجع إلى مدح كما فعل أبو تمام وإن أتى بمدحه الذي تمادى فيه منقطعا، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة:

ظلمتك ظالمة البريء ظلوم	والظلم من ذي قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت	منها طلول باللوي ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى	أجل وأن أبا الحسين كريم
مازلت عن سنن الوداد ولا غدت	نفسي على إلف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك:

لمحمد بن الهيثم بن شبابة	مجد إلى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الإلمام

وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله «دع ذا» و «عد عن ذا» ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بإن المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه. فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله «دع ذا» و «عد عن ذا» ونحو ذلك سمى طفرا وانقطاعا وكان البحتري كثيرا ما يأتي به، نحو قوله:

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى	لكن قلبي بالرجاء موكل
إن الرعية لم تزل في سيرة	عمرية مذ ساسها المتوكل

ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة «الى فلان قصدت» و «حتى نزلت بفناء فلان» وما شاكل ذلك» ا. هـ.

كما اهتم ابن قتيبة بقصيدة المدح كذلك اهتم ابن رشيق، وقد بسطنا القول في أهمية قصيدة المدح حتى كسدت سوقه وكان كسادها ببلاد المغرب والأندلس متأخرا في الزمان عما أصابها بالمشرق.

وقد ترى أن ابن رشيق فطن إلى أنه قد يكون لعد عن ذا ودع ذا وما أشبه اتصال بما قبله، وما سماه التخلص هو نص في معنى اتحاد القصيدة وتشابك أجزائها كما تقدم ذكره أول شيء. وقوله وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب، عنى به الإلمام والخروج والنفي ما أحسبه إلا قد أراد به التقليل إذ قد مر بنا قول حسان:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

وقد اتبع أبو الطيب طريقة حسان حذوك النعل بالنعل حيث قال:

ولو كنت في أسر غير الهوى ... ضمنت ضمان أبي وائل
فدى نفسه بضمان النضار ... وأعطى صدور القنا الذابل

وصدق ابن رشيق ان أبا الطيب كان يكثر من هذا الضرب الذي صار يسمى حسن التخلص وأولى به اسم الخروج كقوله:

يودعننا والبين فينا كأنه ... قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق
قواض مواض نسج داود عندها ... إذا دخلت فيه كنسج الخدرنق

أي العنكبوت.

وكصنيع أبي تمام في ظلمتك ظالمة البرىء ظلوم صنع في:

أقبلتها غرر الجياد كأنها ... أيدي بني عمران في جبهاتها

ثم قال:

سقيت منابتها التي سقت الورى ... بندي أبي أيوب خير نباتها

ووقف أبو منصور الثعالبي عند هذه التائية وقفة طيبة، وكان بشعر أبي الطيب عارفا وله محبا وللشعر ذواقة وناقدا وقد بينا ما نراه من تقديمه في باب النقد وإنكار من زعم أنه سطحي في كتابنا (مع أبي الطيب) وفي كتابنا (التماسة عزاء) وليس لعمري بسطحي من كتب الفصول التي كتب عن أبي الطيب والبديع والشريف الرضي وأبي فراس وأصحاب الصاحب، وهذا باب واسع ليس هنا مكانه.

ومن اساءات أبي الطيب في مسلكه سبيل حسن التخلص فصاربه الى نوع من الاحالة:

أحبك أو يقولوا جر نمل ثبيرا وابن إبراهيم ريعا

غير أن أبا الطيب كما كان يسلك هذا الباب، كان يسلك غيره من أبواب الربط وله في ذلك افتنان أي افتنان. والمذهب الذي ذكره ابن رشيق للنابغة في العينية كثيرات أمثاله عند أبي الطيب. ومن أجود ما جاء له في هذا ميميته.

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وهي من روائع الشعر العربي كله وفيها أبيات صفة الحمى وفيها قوله الذي ختم به:

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

أبو الطيب عالم وحده.
ويشبه مذهب حسان وإن لم يخرج كخروجه لصلة كلامه صلة أوثق أوس بن غلفاء حيث بدأ بفخر ثم خلص منه إلى هجاء رجل بعينه وأصاب قومه وذلك قوله:

جلبنا الخيل من جنبي أريك الى أجلى الى ضلع الرخام
بكل منفق الجرذان مجر شديد الأسر للأعداء حام

أي يخرج الجرذان من نافقائها أي أجحارها لكثرة خيله وشدة وقع حوافرها.

أصبنا من أصبنا ثم فئنا على أهل الشريف الى شمام
وجدنا من يقود يزيد منهم ضعاف الأمر غير ذوى نظام

ثم انصرف الى هجاء يزيد، وهذا على شبهه بخروج حسان أقل احتيالا منه لأن نفس الفخر وثيق الصلة بنفس الهجاء.

سادسا، المخاطبة

وهى ضرب من الاحتيال على الربط وحفظ الوحدة كان كثيرا عند القدماء وما نص عليه ابن رشيق نصا، غير أنه يدخل في مقاله «ما تخلص فيه الشاعر من معنى الى معنى ثم عاد الى الأول وأخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه».
فمن أمثلته ما صنعه عمرو بن كلثوم في المعلقة حيث خاطب بدءا فقال:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ثم قال:

قفى قبل التفرق يا ظعينا

فجعل الساقية ظعينة وكل امرأة ظعينة، ولكنه أراد بها الكناية عن الأعداء لما قدمنا ذكره من غزلهم بنساء العدو، ثم لما ضمنه من معنى الفراق هنا.

ثم قال: قفى نسألك هل أحدثت صرما لوشك البين أم خنت الأمينا

بيوم كريهة إلخ

ثم كما قال ابن رشيق رجع الى الغزل إلى قوله:

تذكرت الصبا واشتقت لما رأيت حمولها أصلا حدينا

فقد وقع الفراق وقومها أعداء. وعاد الشاعر الى الخطاب ولكنه خاطب رجلا هذه المرة:

أبا هند فلا تعجل علينا

وقد مهد لخطاب أبي هند بقوله:

فأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا

وهي أسيافه وأسياف قومه. هذا قريب من الخروج الذي تقدم ذكره. وأبو هند كأنه أبو الظعينة التي فارقت. وغير خاف أنه أراد به عمرو بن هند فجعله أباها كما ترى ثم قد صرح باسمه فيما بعد:

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

ثم خلص الى الفخر وتحدى بني بكر وبني الطماح والناس جميعا، ومعلقة عنترة مرتبة على تسلسل وتدرج وتداعي معان كل اولئك معا في إطار عادة الشعراء. إلا أنه جعل من الخطاب وسيلة قوية توسل بها الى الربط.

خاطب دار عبلة أولا. ثم صار الى ذكر عبلة نفسها

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتثلم

وعاد الى الطلل على النحو الذي نبه عليه ابن رشيق في «حييت من طلل» ثم الى عبلة «علقتها عرضا» ـ ثم خاطبها

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلم

ثم انصرف الى حمولة أهلها بعين عبد يحسن الحلاب والصر. وان شئت جعلت هذا من عقدته بخزي لونه وهو قول يقول بـه بعض أهل العصر يريدون أن يضاهئوا به الفرنجة الامريكيين وغيرهم أنه للعرب زنوج كما للفرنجة زنوج استعبدوهم. وفي بعض المعاجم في تعريف السودان أنهم عبيـد العرب. وكان الجاحظ رحمه الله سليل عبـد أسود كان جمالا لعمرو بن قلع الناسىء ـ أي من القوم الذين قال قائلهم

ونحن النـــاسئـون على معـــد شهـــور الحل نجعلهـا حـــرامـــا

ولعله كان من البجاة أو ممن اختطفه البجاة من بلاد السودان أو الحبشة فبيع بتهامة.
وكان الجاحظ ممـا يأنس بالزنج وأخبارهـم كحديثه عن الفاشكـار الذي لم يكن يحسن الفشكرة أحد مثله، أحسبها تصفيف أعواد القمـح بعد حصاده ورسالته عن السودان وفضلهم، وحكايتـه عن شيخ عظيم جهير الصوت يستقصي الإعراب وقـد ولده رجل من أهل الشورى وكان ــ كما قال أبوعثمان ـ بقرب عبد أسـود دقيق العظم دميم الوجه ورآني أكبره فقال حين نهض ورأى عظما: يـا أبا عثمان لا واللـه لا يساوي ذلك العظم البالي، بصرت عيني بـه في الحمام وتناول قطعة من فخار فـأعطاها رجلا وقـال له حك ظهري، أفتظن هذا يا أبا عثمان يفلح أبدا.
وأغلب الظن أن أبا عثمان قـد ظن أنه لا يفلح ولـولا ذلك ما سـاق الخبر. وليحذر من يخوض في أمر عنترة. وقد جاء الأثر بإكبار النبي صلى الله عليه وسلم أمره واستحسانه شعره إن صحت روايته، أن يكون ممن عسى ألا يفلح أبدا أو لا يساوي ذلك العظم.
وقد كـانت في عنترة سماحة خلق وكـرم نفس وكبرياء ثقـة بما عنده من بـلاء لا كبرياء است في الماء وأنف في السماء.
وكان عنده التعريض والتهكم بما كان يطعن به فيه من دونه، فإن يك هذا عقدة نقصه فذاك ـ مثل قوله:

كالعبد ذى الفرو الطويل الأصلم

ومثل قوله: سودا كخافية الغراب الأسحم

ومثل قوله: ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفـــوارس ويك عنتر أقـــدم

ولو كان بنفسه سقم نقص ما قـال هذا، وقد يسخر كما ترى بهؤلاء القائلين ويك عنتر أقدم. وزعم بعضهم وأظنه صاحب الموشح أن عنترة كان ممن خام ثم أقدم لقوله:

اذ يتقـــون بي الأسنـــة لم أخم عنهـــا ولكنى تضـــايق مقـــدمي

وكان الرجل ذا علم بالحرب وخبر أنه كـان يضرب الجبان لينخلع قلب الشجاع يشهد

بهذا ثم وصف عنترة ثغرها

إذ تستبيك بـــذى غـــروب واضح عـــذب مقبلـــه لـــذيـــذ المطعم

وكـأن فـأرة تـــاجـــر البيت

أو روضــــة أنفـــا . . .

وبعد أبيات الروضة والذباب المترنم .

وهل تعصب أبو عثمان لابن عمة آبائه إذ زعم أن صفتـه الذباب من التشبيهات العقم التي لا تستطاع ؟

وإذ هي :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية . . .

التفت عنترة إلى نفسه ، فهذا أول مجيئه بالغرض الذي من أجله سيقت القصيدة ، وهو خروج خفي إذ هو تمهيد دقيق رشيق . . . .

وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

وحشيتي سرج على عبل الشـوى نهد مـــراكلـــه نبيل المحـــزم

والمرأة مما تشبه بالمهرة .

والصفات التي خلعها عنترة على مهره بعضها منتزع من صفات الفتاة ـ عبل الشوى ، وتوصف الفتاة بامتلاء العضد والساق وحسنهما .

نهد ـ وذلك ظاهر

نهد مراكله أي سام على جوافر وقوائم صـلاب . وإن تك عبلة الموصوفة هنا ما هي إلا سمية التي قال فيها :

أمن سمية دمع العين تذريف

الأبيات الفائية التي طرب لها أبو العـلاء في غفرانه (٣٢٥) ومع ذلك أدخله النار وقال «لقـد شق على دخـول مثلك النار» وصـار بـه تـداعي المعاني إلى أن يـورد بيتـا زعم أن سيبويه كان ينشده بكسر الهمزة كقولهم مغيرة بكسر الميم وهو

إحب لحبهـــا الســـودان حتى إحب لحبهـــا ســـود الكـــلاب

وليس البيت في نصـوص الكتـاب التي بأيدينـا ، ولكن فيهـا المغيرة بكسر الميم ومنتن ولعل ما بأيدينا من الكتاب نقصت منه مواضع فمثلا البيت :

أتيت مهـــاجـــرين فعلمـــوني ثـــلاثـــة أحـــرف متشـــابهات

وخطـــوا لي أبـــا جـــاد وقـــالـــوا تعلم سعفصـــا وقـــريشيـــات

مذكور في الهوامش كأنه في شرح الأعلم للشواهد وليس في نص الكتاب، ولعل الأعلم أن يكون استشهد به، وهذا بعد باب آخر ونعود إلى ما كنا فيه.

وقد ذكروا أن سمية أغرت به أباه فضربـه ـ فكأن قد رقت له وتجللته تحول بين أبيه وبينه إذ ضربه أبوه، وذلك قوله:

تجللتنـي إذ أهـــوى العصـــا قبلي كـأنها رشـأ في البيـت مطـــــروف

العبـــد عبـــدكـم والمال مـــالكم فهل عـــذابك عني اليـــوم مصروف

وقوله «رشأ في البيت» يشبه قول علقمة:

كأنها رشأ في البيت ملزوم

ومن علقمة أخذه. وكأنه نظر أيضا إلى هذا التشبيه إذ وصف أمه فقال:

وأنـــا ابن ســـوداء الجبين كأنها ضبع تـــرعـــرع في رسوم المنـــزل

إن كانت أمك يا هذا رشأ

السـاق منهـا مثل سـاق نعـامـة والشعـر منهـا مثل حب الفلفل

يعني امتلاء ساقها وغلظه.

وقوله «نبيل المحزم» يفيد ضمور مهره وضمور عبلته أيضا.

على أنه من تمام أدبه لم يمض في صفة حصانه ولكن رجع إلى أمر محبوبته:

هل تبلغني دارها شدنية

وهذا قـولنا أنه في تـداعي معانيـه وأخذ كلامـه بعضه برقـاب بعض التزم بإطـار عادة الشعراء من نسيب فناقة ـ

ثم بعد أن بعدت وتمنى أن تبلغه دارها

خطـــارة غب السري زيـــافـــة تطس الإكـام بـوخـد خف ميثم

وشبه الناقة بالظليم

صعل يعـود بـذي العشيرة بيضـه كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

وذكر جدهـا وجنونها في السير ثم بروكها وكأن صـدرها ناي له هـزيم ـ وهذا من أجمل الشعر

بـركت على جنـب الـرداع كأنما بـركـت على قصب أجش مهضم

إنما عنى صوت هزيم صدرها

بعد هذا عاد إلى المحبوبة فخاطبها،

أثنـى علي بما علمـت فـإننـي سمـح مخالطتـي إذا لم أظلـم

وجعل ذلك ذريعـة لمزيد من الـدفـاع والحديث عن نفسـه والفخر الكـريم النبيل مع اعتدال وأناة وتدبر كتدبره إذ قال:

. . . لم أخـــــــــم عنهـا ولكني تضـايق مقـدمي

قال:

ولقـد شربـت من المدامـة بعـدمـا ركـد الهواجـر بـالمشـوف المعلم

بـزجـاجـة صفـراء ذات أسرة قـرنت بأزهـر في الشمال مفـدم

فـإذا شربـت فـإنني مستهلـك مـالي وعـرضي وافـر لم يكلم

وإذا صحـوت فما أقصر عـن نـدى وكما علمـت شمائلي وتكـرمي

ومن ها هنا أخـذ يتقرب إلى عبلة. وقد ذكرنا في غير هذا الكتـاب أن شكسبير قد تأثر بسيرة عنترة ومقاله في قصيدتـه هذه حيث صاغ ما صاغـه على لسان القائد الذي سماه أوتيلـو (وترجمهـا بعضهم عطيل وقد تكـون من عطـاء الله وقـد تكون محرفـة من اسم عنترة) إذ زعم في دفاعه عن نفسـه أنه إنما سحر الفتاة بحديثه عن شجـاعة نفسه وعن مغامـراته. ولا تستبعد أن يكون شكسبير سمع في المجـالس ممن كان له علم بالعـربية وآدابها. وقد ذكرنا أن بيـدويل وهو على زمان شكسبير كان بالعربيـة عالما ولا ريب أنه كـان من علماء الملك جيمس الأول الـذين صـدر عنهم نص الكتـاب المقـدس الموثق عندهم. ومن قبل كما ألمعنـا كان لشوسير بـالعربية صلة وثيقـة إذ قد سفر إلى إسبـانيا وكانت الأنـدلس لم تزل لها بقية صالحة على زمـانه، وقد ذكرنـا أيضا كتابته رسـالة عن الأسطرلاب ما كان ليقدم مثله على مثلها من غير علم بـالعربية، وقد تقدمه بزمان غير طويل من بني وطنـه أحد أكابـر علماء القسيسين بالعربيـة وهو روجر بيكـون في القرن الثـالث عشر الميـلادي، ومن قبلـه في القـرن الثاني عشر الميـلادي «أد يـلارد البـاثي» الانجليـزي Adelard of Bath وهو معاصر لأبيلار الذي عشـق ايليويز وهذا فرنسي. وإنما نكرر هذا القول الذي ذكرنـاه من قبل لأن في زماننا هذا لن ننفك نحتاج إلى تأكيد الحجة حتى يعيها الغافل والمتغافل وبالله التوفيق.

ثم انظر إليه كيف بعد قوله «وإذا صحوت» وما زال في معراض الفخر ببلائه في الحرب

المراد به التقرب إليها، جعل لها مكانا بمخاطبتها خطابا خفيا حيث قال:

وحليل غـانيـة تـركت مجدلا تمكـو فـريصتـه كشـدق الأعلم

أي رب حليل غانية مثلهـا ـ بل هي عنده أجمل الغواني وأحبـه. ولذلك فهو حقيق ألا يخيم عن حمايتها بما وهبه الله من شجاعة وغيرة وصبر ونصر.
قوله «كشدق الأعلم» من قبيل قوله «كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم» قالوا كان يقال له عنترة الفلحـاء وما أرى ذلك قيل إلا لأن شفته قد كـانت غليظة. قـال أبو الطيب يذكر كافورا:

وأسـود مشفـره نصفـه يقـال لـه أنت بـدر الـدجى

وأوصاف السـودان ـ في ألف ليلة ـ قـريبة من هذا، حتى إن بعضهم يـوشك أن يكون مفترشا بعض شفته.

سبقت يـداي لـه بعـاجل طعنـة ورشـاش نـافـذة كلـون العنـدم

هذه هي الصورة الأولى ـ ثم قوله تمكو فريصته الصورة الثانية وفيها أنفاس أسف. كان حليل غانيـة محبوبة، والآن مجدل لجراحـاته بالـدم وذماء الموت صفير. قولـه بعاجل طعنة ورشاش نافذة جعلهما معا أمرا واحدا. وهذا أجود من قول قيس بن الخطيم:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفـذ لـولا الشعـاع أضـاءهـا

وإنما قصد إلى تصـوير الغيظ وحقـد طلب الثائر. أمـا عنترة فصور محض لقـاء فارس وفارس

متحـامين المجـد كـل واثق ببـلائه واليـوم يـوم أشنع

إلا أن أحدهما يقال لـه الفلحاء ويقال له الأعلم، فلتعلمن أينـا الفلحاء وأينا الأعلم.
ظاهر هذا الحقد ولكن باطنه لمتأمل الصورة أسف وحزن وتفكر في مصائر الأيام. لعله هو أن يكون، لـو لم تعجل يده بسابق الخبرة المقتول، وإذن لكـانت فريصته هي التي تمكو ـ
وليصرف الحلوة التي خاطبها أتبع ذلك قوله يخاطبها:

هـلا سألت الخيل يـا بنـة مـالك إن كنت جـاهلـة بما لم تعلمي

أنا أيضـا لقيت بلاء الحرب وأوجاعها فليس دهري القساوة وإنما هو الحفـاظ وصدق القتال وليس ينجي من الغمرات شيء غيره.

إذ لا أزال على رحالة سابح نهد تعاوره الكماة مكلم

لاحظ الربط بين خطابها مع الإعجاب بهذا المهر ـ سابح نهد ـ ثم هذا العطف عليه والكناية به عن نفسه : «تعاوره الكماة مكلم» ثم بين سبب هذا التكليم، أنه يعرض نفسه للطعان وللسهام وهي منايا تخطىء وتصيب ومن تعرض لها فقد أهدف

طورا يجرد للطعان وتارة يأوي إلى حصد القسي عرمرم
يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

أي في أيضا مع كمال الفروسية ضربا وطعنا كمال آدابها، وفي ذكر العفاف تزكية لنفسه عندها، أنه حين ترك حليل الغانية مجدلا عف فلم يروعها، إذ كان إنما يدافع عن حوزته وعن حريمه أيضا وهو القائل :

أنا الهجين عنترة

كل امرىء يحمي حره

أي فرجه وعنى بذلك أمرأته ونساءه :

أسوده وأحمره

والشعرات الواردات مشفره

وهذه لغة مكشوفة خشنة تناسب دفعه الظلم عن نفسه لما أراده أبوه أن يكر ولم يعده أن يحرره، ولكل مقام مقال. ثم جاء بعد صورة حليل الغانية بصورتين تدرج فيهما من هذه الصورة الأولى من بئيس إلى أباس منه إلى أشد من ذلك ـ فالثانية قوله :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم

بل هو متحد قتول، فلهذا كره الكماة جانبه، والكماة جمع كمي وهو الشجاع المقاتل الذي قد كمى كل ضعف فلا يدري قرنه أين يصيبه. كمي يكمي(باب ضرب) أي ستر ومنه قولهم كمي شهادته أي سترها، وفي دارجة أهل المغرب يكمى أي يدخن التبغ لإدخاله دخانه في صدره كالشيء المكتوم[1]

جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

فهذه الطعنة عاجلة نافذة إلا أنها دون مفاجأة الأولى التي كان نفاذها وانفجار الدم منها كأنهما شيء واحد حدث كله في وقت واحد، وقد بين عنترة ما صحب هذه الطعنة على عجلتها ونفاذها من جهد خبير بالقتال متمرس به :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

---

(١)أو لأن أوائل المدخنين كانوا لايجاهرون بذلك ويخفونه عمن يحترمونه أو يتهيبونه

وفي قولـه« ليس الكريم على القنا بمحـرم» من نفس الأسف والتفكر في مصـائر الحياة قريب مما في قوله :

تمكو فريصته كشدق الأعلم

وقد فصل صورة هذا الأسف وروح المأساة في قوله من بعد :

فتركتـه جـزر السبـاع ينشنـه　　　يقضمن حسن بنـانـه والمعصم

وذلك أنه كان مدججا فما بدا له منـه إلا هذا البنان والمعصم بحسنهما ، وما كان لذلك من غناء له إذ عاجله هو بطعنة من مثقفه ذي الكعوب المقوم .

والصـورة الثـالثـة لمقـاتل متمـرس شرس جـريء بصير بـالحرب واثق بنفسـه عظيم الخنزوانة ، وقد احتاج عنترة الى رمحه وسيفه معا ليقهره :

أول شيء كأن لم ير منـه إلا هذه الدرع السابغـة والهيئة المهولة الشخص ، وكأنـه شجرة من شجر السرح .

والمبارزة التي يصفها عنترة كأنها مبارزة راجلين لا فارسين على جواديهما وكان هذا المبارز معلما وكنى عن جودة تصريفه القناة والسيف بقوله :

ربـذ يـداه بـالقـداح إذا شتـا　　　هتـاك غـايـات التجار ملـوم

أشرب صفتـه إذ يلعب الميسر وإذ يسبأ الخمر لـونـا من حركـة أداة الحرب ومن الطعن ومشك السابغة التي هتك فروجها حتى أصاب مقتله

لما رآني قـد نـزلت أريـده　　　أبـدى نـواجـذه لغير تبسم

عهـدي بـه مـد النهـار كأنما　　　خضب البنـان ورأسـه بـالعظلم

فالبنان الذي كان يصرف به السلاح والقداح والرأس الذي عليه الخوذة تبرق وقد كشر هو عن أنياب قـد سال الدم عليهما وجمد وهو جسـد ميت الآن . طعنه أولا فهذا هتك فروج الدرع ولما أحدث به ذلك اضطرابا علاه بالسيف القاطع فشق هامته أو كما قال :ـ

فطعنتـه بـالـرمح ثم علـوتـه　　　بمهنـد صـافي الحديـدة مخذم

ثم ها هو ذا قتيلا

بطل كـأن ثيـابـه في سرحـة　　　يحذى نعـال السبت ليس بتـوأم

قولـه يحذى نعال السبت يفيد به إكفـاءه عن سرجه حتى كأن قد ارتفعت قدمـاه وتدلى سائر جسده ، كان كسرحة قائمة وهو الآن كأعجاز نخل منقعر

وتأمل قوله بعد هذا مباشرة وأغلب الظن أن هذا الترتيب صحيح :

يا شـاة مـا قنص لمن حلـت لـه حـــرمـت علي وليتهـــا لم تحرم

هو الآن في حومة الحرب .
ومما يشجعه على الإقدام أن يكون لقلب هذه المحبوبة فارس أحلامها .
لا يزعم عنترة بعد قهره هذا المعلم البئيس الباسل الذي بارزه أنه سبى ظعينته فقد سبق قوله«أعف عند المغنم». فانصرف كما ترى الى نداء عبلة بحسرة بعدها . ثم أتبع ذلك وصفه الموجز لمغامـرة غرامية تناسب ذكر عبلة وتناسب ما قـدمه من انتصار وتنزل من بعده مكانا مناسبا له ، وكأن ذلك هو المغنم وهو الجائزة .
قد ذكرنا من قبل أن ورود هذا النموذج الموجـز في ميمية عنترة يصحح ما قدمناه من أن موضـوع المغامرة الغـرامية قد كان من أنماط النسيب معـروفا . وعليه مـا رووه من كلام امرىء القيس ومن ساروا على نهجه من بعد . ومن هؤلاء بلا شك عمر بن أبي ربيعة

يــا شـــاة مـــا قنص لمن حلت لـــه حـــــرمـت علي وليتهـــــا لم تحرم
فبعثت جـــاريـتي فقلت لها اذهبي فتحسسي أخبـــارهـــا لي واعلمي
قـــالـت رأيت من الأعـــادي غـــرة والشـــاة ممكنــــة لمن هـــو مـــرتمى
وكأنما التفتـت بجيـــد جـــدايـــة رشـإ من الغــــزلان حـــــر أرثـم

قوله وكأنما التفتت بجيد جداية اختصار لخبر اللقاء وينظر إلى مقال امرىء القيس

فسرت بها أمشي تجر وراءنـــا على أثـــرينـــا ذيل مـــرط مـــرفل
تصـــد وتبـــدي عن أسيـل إلخ

حسن هذه الحسنـاء جائزة ومغنم وشكر لهذا الصنيع الـذي قدمه من نزولـه يبارز حماة الحقائق ومـن يكره نزالـه من الأبطال ويـرهب ولكن عمرا ـ وكنى بعمرو عـن عمه أو قبيلته أو أحد رجالها أو عن عدو له ممن يحسـده وهو أسود على هذه الفعال البيض فلو قدر على طمسها لفعل

نبئت عمــرا غير شـاكــر نعمتي والكفـــر مخبثـــة لنفس المنعم

صدق

ولقد حفظـت وصاة عمى بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

لكريهة الحرب . وقـوله ولقد حفظت وصـاة عمى ، إن رددته على عمرو علي أنـه عمه ، فكأنه يقول قـد حفظت وصاته ، ومع ذلك لم يشكر بلائي . وأقـرب من هذا أن يكون

عمرو إما شخصا بعينه و إما كناية تعم ثم قوله ولقد حفظت وصاة عمى مردود على خطابه المحبوبة وهي إما ابنة عمه كما يزعم أصحاب السير والأخبار والأساطير و إما جعلها ابنة عمه على عرف العرب إذ الحسناء التي تراد لتكون زوجة ــ سواء أكان ذلك مرادا بالقوة أم بالفعل ــ يقال لها «ابنة عمى»، ثم مضى عنترة إذ عاد الى خطابها يقص قصة شجاعته و إقدامه. وقد رأينا درجاته الثلاث مع الأقران الثلاثة. ثم الآن قد حمي الوطيس وجاءت ساعة الصبر وثبات الأقدام والمعرفه بالحرب متى يكون الإقدام ومتى يكون التوقف والتربص وانتظار فرص الهجوم.

علقمة صور لنا المعركة في عين اباغ ـ تلك التي قتل فيها ملك الحيرة وأسر أخوه شأس في جماعة بني تميم ـ بتصوير رسام كأنما يضع مشاهد هيجاء المعركة وأهوالها كلها على لوحة بخياله المهيمن وبقوله الناصع المبين.

أما عنترة قد نقلنا معه الى وسط المعمعة لنشاركه في احساسه وانفعالات نفسه وليعلمنا مما علمه واختبره بعض علم القتال ـ ثم لنتذكر أن هذا الخطاب موجه الى ابنة هذا العم الذي قد حفظ وصاته ليكسب عطفها ومحبتها:

في حومة الحرب التي لا تشتكى غمراتها الأبطال غير تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي

يتقون به الأسنة لأنه قائدهم المتقدم أمامهم.

ثم هو الآن سيدهم. ومن شأن السيد أن يحمى عبده لأن العبد مال. العبد لا يحسن الكر ولكن يحسب الحلاب والصر.

ثم زعم بعضهم أن عنترة أقر ببعض الإحجام والجبن إذ قال «لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي» وأولى أن يقال إن هذا يقص علينا به خبر قول أبيه له «كر». وكأنه عندما يتقدم حين يحمي الوطيس يسمع هذا الصوت: «كر وأنت حر». ولكنه ليس بأهوج يكر ليكون درقة غيره من الأسنة، ولكن ليكون رأس سنانهم الطاعن في نحور العدو.

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

تضايق مقدمي. أي تضايقت فرصات الإقدام. ثم هاهم هؤلاء مقدمون يحرض بعضهم بعضا. ورأت عينه اللاقطة مكامن ضعفهم.

لأمر ما كانت العرب في مقامات حروبها أيام الفتوح الأولى مما تقص قصص عنتره وتتناشد شعره.

يـدعـون عنتر والـرمـاح كأنها أشطـان بئـر في لبـان الأدهم

هؤلاء هم قـومه كما سيقص علينا خبرهم من بعـد. وذلك أن منهم من كان يتعجل في نفسه الى القتال. وكان دأب العرب المراماة قبل الاشتباك. فكان لذع السهام والرماح مما يهيج الى اندفاعات الإقدام. وكان عنترة بثباته وخبرته وصبره لا يقدم متهورا. فكان ريثـه ربما قلق له من يستعجلـون الهجوم فيصيحـون به يحضـونه: «ويك عنتر أقـدم» وكأنما ضمن هذا منهم مقالة «أي شيء تنتظر أيها العبد؟»

وعلى العبد اعتمادهم، وفي قلوبهم حب له وإكبار.

قالـوا كان عمار بن يـاسر رضي الله عنه في صفين يطعن بـزج القناة في ظهـر هاشم بن عتبة بن أبي وقاص يقول له: تقـدم يا أعور؟ وكان هاشم من أهل الحروب ذا علم بهن وكان عمار رضي الله عنه لا يجهل ذلك من أمره بل قـد كان منه على ثقة. فكان هاشم لا يتحرك لتحضيض عمار وطعنه بالزج في ظهره ولكن يتريث ليجد فرصة الإقدام حتى إذا وجدها اندفع بالراية يرقل ـ ومن أجل ذلك سموه المرقال ـ وهو يرتجز.

أعـور يبغـى أهلـه محلا
قـد عـالج الحيـاة حتى مـلا
يتلهـم بـذي الكعـوب تـلا
لا بـد أن يفـل أو يفـلا

ومن صبر عنترة أنـه كان لا ينـدفع والقوم يحضـونـه والرمـاح مشرعة والسهـام تخطيء وتصيب حتى إذا كان وقت الإقـدام وحانت فـرصته كر وهـو على بصيرة من أمره وعلى ثقة:

مـا زلـت أرميهم بثغـرة نحـره ولبـانـه حتى تسربـل بـالـدم
فـازور من وقع القنـا بلبـانـه وشكـا الى بعبرة وتحمحـم
لـو كـان يـدري مـا المحـاورة اشتكي ولكـان لـو علـم الكـلام مكلمي

وبعد هذه المناجـاة والرحمة لمهره رجع بنا الى قوله من قبل: «يـدعون عنتر والرماح كأنها البيت» وذلك قوله:

ولقـد شفـى نفسي وأبـرأ سقمهـا قيل الفـوارس ويك عنتر أقـدم

فويك عنتر تفسير ورجعة الى «يدعون عنتر» وقد يظن بعض أهل العصر أن قوله «ولقد

شفى نفسي وأبرأ سقمها» منبىء عن عقدة نقص ولو قد كان ذلك حقيقة أمره لكتمه ولم يصرح بشيء منه. وإنما شفى نفسه ثقته وإحساسه آن إذ دعوه بأنهم يكبرون قدره ومنهم محبون له.

والخيل تقتحم الخبار عوابسا   من بين شيظمة وأجرد شيظم

الخبار مالان واسترخي من الأرض. وقد يكون عنترة هنا يصف مكان خبار أي أرضا ذات لين واسترخاء حيث وقعت المعركة. ويجوز أن تكون تلك الأرض لانت واسترخت لجري الخيل عليها أو لتصبب العرق والدم. والوجه الأول أولى وأقرب في المعني. وكما ترى قدم عنترة ذكر الخيل مجتمعة للدلالة على أنه أقدم وقال لهم الآن كروا فكروا جماعة معا، والخيل مراد بها الأفراس والفرسان جميعا وكلهم بهم عبوس. ثم أخلص عجز البيت كله للتنبيه على الخيل مفردات من بين شيظمة وأجرد شيظم أى طويل قوي الجسم فتيه وهي صفة توصف بها الخيل والإبل والناس وقد مر بك قول الشاعر يخاطب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

يعقلهن أجرد شيظمي

وما أحسبه عني بأجرد شيظم إلا حصانه، إذ هو الذي بدأ الكر، والأجرد القليل الشعر وقوله أجرد شيظم يدل على أن الشيظمة هي أيضا جرداء

ومما يحسن ذكره هنا بيت بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

فقد قدم ذكر مثار النقع، أي ما أثير من الغبار. ولو قد كان فارسا حقا لبدأ بالخيل التي أثارته كقول عنترة ههنا وكقول أبي الطيب من بعد:

تثير على سلمية مسبطرا   تناكر تحته لولا الشعار

(على أن أبا الطيب قد نظر اليه وأخذ منه في هذا البيت كما قد نظر الى عنتره أيضا والى دبيب عقبان النابغة حيث قال بعد هذا البيت:

غبارا تعثر العقبان فيه   كأن الجو وعث أو خبار

وهذا من مبالغاته)

وأحسب أن أبا تمام كأنما قد عمد في نفسه الى أن يفسر قول بشار، حيث قال:

من لم يقد فيطير في خيشومه   رهج الخميس فلن يقود خميسا

والأعمي يحس الغبار حين يثور بخيشومه ثم بسائر ما عنده من حاسة اللمس وعندنا أن أبا تمام قد أخذ قوله «فيطير في خيشومه رهج الخميس» أخذا خفيا من بشار، فهذا مزعمنا أنه انما فسره بهذا الأخذ ووضح بعض كنائن معناه.

وكثير ممن يتعاطون النقد وعلوم البلاغة ربما استشهدوا ببيت بشار على إحسانه الذي ضاهي به البصيرين. وبيان البيت بيان ضرير لمن تأمله للذي قدمنا من قوله بادئا «كأن مثار النقع» ولأنه أيضا لا يقصد الى الجانب الأبصاري في قوله:

ليل تهاوى كواكبه

كما يقصد إلى الجانب الأسطوري. أي كأن أراد أن يقول: كأن مثار النقع يعيد على الناس يوم حليمة الذي هو ليس بسر - قالوا ثار النقع حتى بدت الكواكب. وكان بشار مما يذكر الناس بأنه من أولى الضرر، وألا ينتظروا منه أن يقول كما يقول ذو بصر، مثلا قوله.

يا عين أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقوله: وإنا لا نراك فألمسينا

وقوله في إحدي الرائيتين: ألصق بي لحية له خشنت ... ذات نصال كأنها الأبر

وفيها: قولي لها بقة لها ظفر ... إن كان في البق ماله ظفر

فهذا كله من حاسة اللمس لا البصر

وفي الرائية الأخرى:

أمتى بدد هذا لعبي ... ووشاحي حله حتى انتشر

فهذا من قري إشارته الى يوم حليمة، إذ يشير هنا الى قول امرىء القيس:

وهي إذ ذاك عليها مئزر ... ولها بيت جوار من لعب

فجعل مكان المئزر وشاحا وإنما كنت الجارية به كما لا يخفى.

ونرجع بعد الى وصف عنترة البصير بعينه وقلبه معا:

والخيل تقتحم الخبار عوابسا ... ما بين شيظمة وأجرد شيظم

ذلل ركابي حيث كنت مشايعي ... قلبي وأحفزه بأمر مبرم

وهذا كأنه خاتمة - غير أنه ما زالت في نفسه بقية وهذه البقية قوية المناسبة لقوله «ذلل ركابي» وذلك قوله

ولقـد خشيـت بأن أمـوت ولم تـدر للحـرب دائرة على ابني ضمضـم
الشـاتمي عـرضي ولم اشتمهما والنـاذريـن إذا لم القهما دمـى
إن يفعـلا فلقـد تـركت أبـاهما جـزر السبـاع وكل نسر قشعـم

قد رووا قبل هذا ثلاثة أبيات : فيهن تصريح بـرجعة الى خطاب المحبوبة . على أن قوله «ولقد خشيت» منبىء عن أنه يخاطبهـا ، وليس بحديث منه الى نفسه فقـوله «مشايعى قلبى »يمنع ذلك ، لأن حديث النفس في هذا الموضع مشعر بضعف ليس في عنترة ولا في قصيدته هذه وكأن الذين رووا الأبيات الثلاثة بعد بيت «بأمر مبرم» وهى :

إنى عـداني أن أزورك فـاعلمـى مـا قـد علمت وبعض مـا لم تعلمى
حـالـت رمـاح ابنى بغيـض دونكم وزوت جـواني الحرب مـن لم يجرم
ولقـد كـررت المهـر يـدمى نحـره حتى اتقتنـى الخيل بـابني حـذيم

ولقد خشيت . . . . .
(والذي علمته غيرة أهلها والذي لم تعلمه أمر القتال)
كأن الذين رووا هذه الأبيات الثلاثة تأولوا ولقد خشيت على خطاب النفس فعمدوا الى رواية هـذه الأبيات ليكون كل ذلك خطابـا . ومن تأمل وجد قوله : مـا قد علمت إلخ كأنه تكرار لقولـه : «هلا سألت الخيل يا بنة مالك» قـوله : «وزوت جواني الحرب» كأنه من قول زهير:

تعفى الكلـوم بـالمئين فـأصبحت ينجمهـا مـن ليس فيهـا بمجـرم

ولقد كررت المهر، تكـرارا لما وصف به مهره ، وفي الصياغة تكرار لقـوله : ولقد حفظت ولقد خشيت .
هذا ومن المخاطبة مذهب الحارث في همزيته المعلقة . وفيه مشابه من مذهب عمرو بن كلثوم في النونيـة . غير أنه لم يتدرج من مخاطبة الظعينـة الى مخاطبة الخصوم ، بل خلص الى ذلك بعد النسيب خلوصا مباشرا :

أيها النـاطق المرقش عنـا عنـد عمـرو وهل لـذاك بقـاء
وقد كرره من بعد فقال :
أيها النـاطق المبلغ عنـا عنـد عمـرو وهل لـذاك انتهـاء

وفي القصيدة بعد أمثال :

إن نبشتم . . . أو نقشتم . . . . أو سكتم . . . .

وهلم جرا .

وعينية الحادرة نسيج وحدها في اعتمادها على شيء من ظاهر احتيال المخاطبة وباطن من استمرار صورة الثغر الحلو المبتسم الذي هو مخاطبه مع ما يلابس ذلك من معاني الشوق والحب ، وقد سبق منا التنبيه الى بعض ذلك في الجزء الثالث في باب الإيحاء بالتجارب الذاتية . أما احتيال المخاطبة فتكراره اسم المحبوبة عندما صار من النسيب الى الفخر ـ قال في البيت التاسع :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة البيت

وقال في السادس عشر:

فسمى ما يدريك أن رب فتية البيت

ورب بتخفيف الباء وتشديدها يخل بالوزن والتخفيف والتشديد كلاهما قرأوا به في قوله تعالى : "ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين" التخفيف قراءة عاصم ونافع وأبي جعفر وسائر القراء على التثقيل .

وقريب من احتيال الحادرة هذا صنيع ثعلبة بن صعير في قصيدته ،

هل عند عمرة من بتات مسافر ذي حاجة متروح أو باكر

وهي الرابعة والعشرون في المفضليات . البتات المتاع والزاد وما أشبه وهذا البيت مضمن خطاب عمرة إذ لم يجد لديها شيئا فانصرف عاتبا .

سئم الإقامة بعد طول ثوائه وقضى لبانته فليس بناظر

أي ليس بمنتظر

لعدات ذي أرب ولا لمواعد خلف ولو حلفت بأسحم مائر

وعدتك ثمت أخلفت موعودها ولعل ما منعتك ليس بضائر

مسكين ! !

وأرى الغواني لا يدوم وصالها أبدا لذي عسر ولا مياسر

كأنه ينقض قول علقمة كله هنا وإنما دعاه الى نقضه بهذا التعميم ما مني به الآن من مزاج سوداوي

وإذا خليلك لم يدم لك وصله فاقطع لبانته بحرف ضامر

وهذا يشبه كلام لبيد، فإن كـان سابقا له فقد أخذ لبيد منه وإن كـانا متعاصرين فالله أعلم أيها أخذ من صاحبه، ولكن قول لبيد:

حتى إذا ألقـت يــدا في كــافــر وأجن عــورات الثغــور ظـلامهــا

أحسبه أخذه مـن بيان القرآن إذ سورة صاد مكيـة وفيها قوله تعـالى: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بـالحجاب» وكان لبيد يفد الى مكـة في أيام ما قبل الهجرة. وموضع الأخذ هنـا الإضمار البحث اعتمادا على علم السامع بمرجع الضمير.
ويبقى لفظ «كافر» متنازعا بين لبيد وثعلبة أيهما سبق إليه وهو عند ثعلبة:
فتـذكـرا ثقـلا رثيـدا بعـد مـا ألقت ذكــاء يمينهــا في كــافــر

وغير ثعلبة اسم عمرته فصيرها سمية عند قوله:

أسمى مــا يــدريـك أن رب فتيـــة بيض الــوجــوه ذوي نــدى ومـآثــر
حسنى الفكــاهــة مــا تــذم لحامهم سبطي الأكف وفي الحروب مســاعــر
بــاكــرتهم بسبــاء جــون ذراع قبل الصبـــاح وقبل لغـــو الطـــائر

وهـذا أدنى الى وقت الشروق من قول لبيـد «بـادرت حاجتهـا الدجـاج البيت» وجعل ثعلبة هذا مدخلا الى الفخر. ورب كما ترى عنده مخففة الباء.
وقد ضمن فخره قوله:

ولــرب واضحـــة الجبين غـــريـــرة مثل المهـــاة تـــروق عين النـــاظـــر
قـــد بت ألعبهـــا وأقصرهمهـــا حتى بـــدا وضح الصبـــاح الجاشر

أى ذو الإشراق والسطـوع قال الشـارح الجشر تباشير الصبـاح ـ الجشر بفتح فسكـون مصدر جشر. فالواضحة الجبين هي عمرة نفسها أو أخرى يغايظها بها على نحو قريب من نمط امرىء القيس إذ قال "فمثلك حبلى" في مغايظته لعنيزة صاحبة الغبيط.
وقول ثعلبة في آخر القصيدة

ولرب خصم جاهدين ذوى شذى

ليس (مع ما فيه من فخر) ببعيد المناسبة لما كان فيه من مخاصمة عمرة.
ومذهب لبيد في المعلقة في خطابه نوار قـريب من طريقة ثعلبة والحادرة في مذهب هذا

الاحتيال الرابط ـ قال في أوائل القصيدة:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت ... وتقطعت أسبابها ورمامها

ثم قال بعد أن وصف ناقته بما وصفها:

أو لم تكن تدري نوار بأنني ... وصال عقد حبائل جذامها

ثم قال:

بل أنت لا تدرين كم من ليلة ... طلق لذيذ لهوها وندامها

ثم مضى في فخره ـ فقوله: "وغداة ريح" وقوله: «ولقد حميت» وقوله: «وجزور أيسار» كل ذلك وما هو بمجراه داخل في مخاطبته لنوار حيث قال «بل أنت لا تدرين» ومردود عليه. هذا. وأما المعاني والصور الباطنة الرابطة بين أول كلام الحادرة وآخره فهي جمال سمية وحديث الشاعر إلى شخصها الجميل وهذا الجيد الواضح وهذه المقلة الحوراء المغرورقة حينا بعد حين ـ حقا أو توهم الشاعر ذلك ـ بدمعات الوداع، وهذا الثغر المبتسم الحلو، الذي كأنما ابتسامته من حلاوتها قبلة

وتزودت عيني غداة لقيتها ... بلوى البنينة نظرة لم تقلع

وإنما نظر إلى هذا التصدف الذي يجلو عليه المحاسن وذلك قوله من بعد:

وتصدفت حتى استبتك بواضح ... صلت كمنتصب الغزال الأتلع
وبمقلتي حوراء تحسب طرفها ... وسنان حرة مستهل الأدمع
وإذا تنازعك الحديث رأيتها ... حسنا تبسمها لذيذ المكرع

فقد ود تقبيله هنا كما ترى وكأن قد قبله

وقول "تنازعك" الحديث مفيدنا أنه كان بينهما فيه أخذ وعطاء وقد استراح الشاعر من قوة الشعور التي تضمنها قوله «وإذا تنازعك الحديث» وما قبله من نعت إلى التشبيه ووصف الطبيعة. وقد يبدو أول وهلة أن الشاعر قد استطرد بتشبيه الثغر إلى وصف الطبيعة كما قدمنا أن الشعراء مما يفعلونه. ولكن مزيدا من النظر في نعته يدل على المعنى الذي أوردناه أخيرا ههنا أنه طلب بعض الاستراحة الوجدانية. وقد ضمن صفة الثغر المترقرق بصفائه وحلاوته هذه الصفات التي نعت بها الغدير والسارية والغلل المتقطع في أصول الخروع. وذلك قوله:

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها ـ لذيذ المكرع

ثم وصف لذيذ المكرع هذا بصفاء قطرات السارية ثم جعل ذلك غديرا لمائه مع الصفاء لون أسجر فهذا هو اللمى

بغريض سارية أدرته الصبا من ماء أسجر طيب المستنقع

فطيب المستنقع شاهدة بالصفاء. والسجرة حمرة إلى الكدرة وهو لون الماء بعد أن ينهل على الأرض ويستن ليكون جداول وغدرانا. وأسجر هنا أي ماء غدير أسجر. ومن نون الماء ونقل همزة الأسجر كان ذلك له وجها والوجه الأول عليه رواية الديوان. ويفيدنا أن الوجه الثاني رواية أيضا قول الشارح ويقال لماء السماء قبل أن يصفو أسجر (ص٥٤ شرح الأنباري الكبير س١١ ـ ١٢) فإن تك أسجر صفة لماء فلا بد من تنوين ونقل وعلى هذا الوجه ضبط طبعة دار المعارف بتعليقات العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ الجليل عبدالسلام محمد هرون (سنة ١٣٦١هـ ص٤٢ س٦)

ظلم البطاح له انهلال حريصة فصفا النطاف له بعيد المقلع

أي بعد الإقلاع والحريصة سحابة. والضمير في له يعود على ماء أسجر في رواية من نون الماء وجعل أسجر صفة له، وأشبه أن يكون عائدا على الغدير في رواية من لم ينون، أي من ماء غدير أسجر سبب سجرة لونه أن البطاح انهلت عليها سحابة حريصة فقشرت من أعاليها فهذا ظلمها لها إذ هي لاتمسك الماء فانحدر وفيه كدرة ثم أقلعت السماء فاجتمع الماء صافيا وفيه السجرة كهذا الثغر الصافي ذي اللمى

لعب السيول به فأصبح ماؤه غللا تقطع في أصول الخروع

أي في أصول النبات الغض الخضرة. وصفة هذا الماء الغلل المترقرق كأنما هي صفة لهذا الذي هو لذيذ المكرع ـ ثغرها المبتسم.

ثم يقول ـ وهذا يؤكد لك معنى الاستراحة الوجدانية، وأنه ما زال ينظر إلى الثغر ويخاطب ذات ابتسامته الشائقة:

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في مجمع

ثم يمضي في الفخر حتى يقول:

ومحل مجد لا يسرح أهله يوم الإقامة والحلول لمرتع
بسبيل ثغر لا يسرح أهله سقم يشار لقاؤه بالإصبع

لقاؤه بكسر اللام ورفع الهمزة أو نصبها فمن نصب جعلها بمعنى إليه ومن رفع لم

يبعد من هـذا المعنى، وقد كـرر لا يسرح أهله. وكأن ذكر الثغـر لفته بنـوع من تداعي المعاني إلى هذا الثغر اللذيذ الذي يحدثه فقال:

فسمي ما يدريك أن رب فتية — باكرت لذتهم بأدهم مترع

وكأن هذه الصورة منتزعة من ثغرها الألمي المترع اللـذيذ المكرع ـ وقد رووا في قوله من «ماء أسجر طيب المستنقع»: «ببزيل أسجـر إلخ» فجعلوه دن خمر، ولعل الشاعر قال هكذا أول الأمر ثم عدل عنه.

ومضى الحادرة يذكـر لذته بـالشراب مع صحبه ـ وجـاء مع الأدكن المترع بصفة العيون ولكنهـا ليست بمقلتي صاحبته ذات الطرف الـوسنان، الحرة مستهل الأدمع ـ إنها عيون صحبه التي احمرت من ثمل الخمر.

هذه الخمر كدم الغزال ويـروي كدم الذبيح. وفي هذا التشبيه شيء مستكن من معنى الغزال الأتلع الـذي هو حبيبته الحسناء البكـر التي بكرت مفارقة ومـا متعته إلا نظرة.

ههنا، عندما ينتقـل الحادرة إلى تصوير نداماه وسكرهم ورفـاقه في شدة السفر، شيء من عناصر التحول والمقابلة وقد استشهدنا من قبل على ذلك بصنيع الشنفري في التائية حيث قابل بين صفات المحبوبة وصفة رفيقه «وأم عيال قد شهدت إلخ».

قوله: متبطحين على الكنيف كأنهم — يبكون حول جنازة لم ترفع

فيه ذرء أنفاس من قوله:

ظلم البطاح له انهلال حريصة

هـذا الذرء تحسـه في لفظتي متبطحين والبطـاح وفي البكاء وفي انهلال الحريصـة والجنازة هنا الدن الذي شربوه. والأسجر في رواية من روى ببزيل أسجر هو الدن

وقوله من بعد يصف الأشعث

ولدى أشعث باسط ليمينه — قسما لقد أنضجت لم يتورع

صورة فيها مشابه من أم عيال الشنفري ومقابلة لقوله:

وإذا تنازعك الحديث رأيتها — حسنا تبسمها لذيذ المكرع

ثم ما جاء بعد من ذكر السفر

ومسهـــدين من الكـــلال بعثتهم — بعـــد الكـــلال إلى ســـواهـم ظلع
أودي السفـــار بـــرمهـــا فتخـــالها — هيما مقطعـــــة حبـــــال الأذرع
تخد الفيـــافي بـــالـرحـــال وكلهـــا — تخدي بمنخـــرق القميـص سميـــدع

فهذه في مقابلة الظعائن التي كل منها تسير بحسناء تتصدف بواضح صلت كمنتصب الغزال الأتلع

وقوله من بعد:

ومطية حملت رحل مطية   حرج تنم من العثار بدعدع

رجع به إلى مشقات السفر وقوله ومطية خطاب إذ كأنه قد قال: فسمى ما يدريك أن رب مطية هكذا شأنها صنعت بها كذا وكذا.

ثم جعل آخر شيء صفته نفسه في السفر حيث أناخ وعرس وتوسد ساعده القوي وهجع هجعة كموتة فلما نهض وجد أن ساعده قد خدر حتى كأن قد بان، غير أنها كانت هجعة قصيرة لم يتقلب فيها عن حال توسده فلهذا خدر ساعده، وناقته لم تترك إلا أثر ثفناتها، كأن موضع كل ثفنة من ثفناتها الخمس أفحوص قطاة.

ومناخ غير تئية عرسته   قمن من الحدثان نابي المضجع
عرسته ووساد رأسي ساعد   خاظي البضيع عروقه لم تدسع

أي لم تمتليء وتنتفخ كما تفعل عروق من جاوز الشباب وشاخ

فرفعت عنه وهو أحمر قاتر   قد بان مني غير أن لم يقطع

في قوله قد بان مني نوع من أصداء بكور سمية وبينها مع علاقة قلبية بها. والحمرة من ألوان هوادج الظعائن.

فترى بحيث توكأت ثفناتها   أثرا كمفتحص القطا للمهجع
وتقي إذا مست مناسمها الحصى   وجعا وإن تزجر به ترفع

ثم رجع إلى الخطاب:

ومتاع ذعلبة تخب براكب   ماض بشيعته وغير مشيع

كأنه بهذا يصف حال نفسه وحالها، إذ قد كان هو مسافر مع رفقته الشعث في شيعة وأما الآن إذ مضت فهو متروك وحده ليمضي وحده، أم ذكراها وهذا الثغر المبتسم له شيعة بعدها؟.

ولقد ردنا الى ما بدأ بها إذ قال: «بكرت سمية بكرةفتمتع» بمقاله هنا «ومتاع ذعلبة» - والذعلبة الناقة السريعة. وإن كانت قلوصا شابة فذلك أسرع لها. وقد يعلم القاريء الكريم اصلحه الله أن العرب ربما كنت بالقلوص عن المرأة - فصلة متاع ذعلبة، على هذا بقوله «بكرت سمية بكرة فتمتع» واضحة إن شاء الله. وهل نظر ثعلبة بن صعير

في قوله : «هل عند عمرة من بتات مسافر » الى قول الحادرة في مقطع كلامه هذا فجعله هو مطلعا؟ أم هذا الضرب من القول كثير وروده في الشعر ومنه كما تعلم قول المسيب :
«أرحلت من سلمى بغير متاع »
وأخذ الشعراء بعضهم عن بعض طريق ركوب .
وأمثلة الخطاب المجعول واسطة للربط بعد كثيرة . ومنها سوي ما تقدم جيمية شبيب ابن البرصاء في المفضليات :

ألم تــر أن الحي فــرق بينهم — نوى يوم صحراء الغميم خلوج
نوى شطنتهم عن نوانا وهيجت — لنا طربا إن الخطوب تهيج

وفيها مما يجري مجرى الخطاب :

لعمر ابنة العمري ما آنا بالذي — له أن تنوب النائبات ضجيج
وقد علمت أم الصبيين أنني — الى الضيف قوام السنات خروج
وأني لأغلى اللحم نيئا وإنني — لمن يهين اللحم وهو نضيج
إذا المرضع العوجاء بالليل عزها — على ثديها ذو ودعتين لهوج

هذا البيت جيد وفيه انطباع من تجربة حقيقية صادقة . هذه المرأة العوجاء أي النحيلة السيئة الغذاء ـ قال الهذلي :

ويأوي الى نسوة عطل — وعوج مراضيع مثل السعالي

وهذا الطفل ذو الودعتين الجائع الذي يروم ثديها وليس فيه ما يسد رمق جوعه .
وفي هذه القصيدة بيت ذكر فيه دمشق والأرز إذ وصف ناقته فقال :

لها ربذات بالنجاء كأنها — دعائم أرز بينهن فروج

وقريبة من هذه الجيمية في منهج الخطابة ، وهي أسبق منها زمانا بلا ريب لأن صاحبها عمرو بن الأهتم أقدم زمانا من شبيب البرصاء قافية هذا التي أولها :

ألا طرقت أسماء وهي طروق — وزارت علي أن الخيال يشوق

وقد جاء بالخطاب في أولها ثم ساق الكلام عليه :

ذريني فان البخل يا أم هيثم — لصالح أخلاق الرجال سروق
ذريني وحطي في هواي فإنني — على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

ثم ذكر الضيف وخروجه اليه . وقد كان عمرو بن الأهتم من سادة بني تميم وخطبائهم ووفد الى النبي صلى الله عليه وسلم وله مع الزبرقان بن بدر في ذلك خبر . وكأن شبيبا نظر اليه في الذي خاطب به امرأته وافتخر به من قرى الأضياف وهو قوله :

وإني كـــــريم ذو عيـــــال تهمني ... نـــوائب يغشى رزؤهـــا وحقـــوق
ومستنبح بعــــد الهدوء دعــوتــــه ... وقــد حـان من نجـم الشتـاء خفــوق
يعـــالج عـــرنينـــا من الليل بـــاردا ... تلف ريـــاح ثـــوبـــه وبـــروق
تـــألـــق في عين مـــن المزن وادق ... لـــه هيـدب داني السحـــاب دفـوق
اضفت فلـم أفحش عليـــه ولم أقـل ... لأحــــرمـــه إن المكـــان مضيق

ومذهب المخاطبة كثير

وعند الإفرنج في قصصهم مذهب شبيه بهذا الـذي أوردنا من إدارة الوحدة والربط على حيلة من المخـاطبة كيـاسمية ويـا نوار ويـا بنة مـالك وما أشبه أحسـب أن أصله من قصص ألف ليلـة وجحـا ونحـوهما مـن الأسـاطير وهـو الـذي يقـال لـه Picaresque (بيكارسك)وهو مـا يجعل أمر وحدته منوطا بمغـامرات شخص بعينه وإن لم يكن بين المغامرات نفسها رابط يربط بينها غير هذا الشخص المغامر ـ من ذلك« دون كيهوتي أو كيشوت» ويرى بعضهم أن هذا أصله من تحريف اسم جحا وذكر أبو حيان التوحيدي في بعض ما كتب أنـه كان من الكوفة على زمـان بني أمية ، وقصة «توم جـونز »للروائي الانجليزي « فيلـدنج» وما اشبـه . وقد أنكر ارسطـو طاليس صحـة الوحـدة على هذا الوجه في المأساة وعاب من جعل قوام مأساته أخبار هرقل البطل وقال برأيه المعروف في تشبيه وحدة المأساة بوحدة الكائن الحي وهو ما يقال له الوحدة العضوية . ثم استعمل هذا اللفظ على غير وجهه ، والله الموفق للصواب .

سابعا ، الاقتضاب

قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة :

فلما وردن الماء زرقـــا جمامـــــه ... وضعـــن عصي الحاضر المتخيـــم
ظهـــرن من الســـوبـــان ثم جـزعنـه ... على كـــل قينـــي قشيـــب ومفـــأم
فأقسمت بـالبيت الـذي طـاف حـولـه ... رجـال بنـوه من قـــريش وجـــرهم
يمينـــا لنعـم السيـــدان وجـــدتما ... على كـل حـــــال من سحيـل ومبرم

فهذا اقتضاب ، وسوغه أنه متضمن لمعنى الرحلة إذ قوله :

وقفت بها من بعـد عشرين حجة ... فلأيـا عرفت الـدار بعد تـوهم

يدل على ذلك ، ثم استمر في الرحلة حتى بلغ البيت فأقسم . وقد ذكرنا من قبل أن زهيرا قد جاء من بعد بعناصر من التسلسل والمقابلة وسوى ذلك مما هو عناصر للوحدة والربط في هذه القصيدة العظيمة الشأن

وقال زهير بعد النسيب ووصف الحديقة والناقة المقتلة والسائق والقابل والضفادع

يخرجن من شربات ماؤها طحل — على الجذوع يخفن الغم والغرقا

قال :

بل اذكرن خير قيس كلها حسبا — وخيرها نائلا وخيرها خلقا

وهذا اقتضاب مضمن إضرابا عن ذكر الحبيبة وتسليا عنها وإقبالاً على جد من الأمر، وهو المذهب الذي بسطه علقمة في البائية ، وخشنه لبيد في قوله :

فاقطع لبانة من تعرض وصله — ولشر واصل خلة صرامها

وقد سبق التنبيه منا أن مثال دع ذا وأمثال :

فعد عن ذكرها إذ لا ارتجاع له

مع أن ظاهره اقتضاب ، هو حقا موصول بما قبله وما بعده وأولى المذاهب عندي وأحقها بأن يسمى اقتضابا ما كان يقع في المفاخرات والنقائض وأشعار القبائل إذ فجاءة الانتقال فيه من النسيب الى القتال أمر طبيعي يدلك على ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها قمر السماء اذا تبدي
نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقال سعد بن مالك من كلمته على نفس الوزن وكلتا الكلمتين في الحماسة :

كشفت لهم عن ساقها — وبدا من الشر الصراح

يعني الحرب :

فالهم بيضات الخدور هناك لا النعم المراح

من ذلك مثلا قول بشر بن أبي خازم الأسدي وهي التاسعة والستون في المفضليات :

لولا تسلي الهم عنك بجسرة — عيرانة مثل الفنيق المكدم

زيـافـة بـالـرحل صـادقـة السرى   خطــــــارة تهص الحصى بمثلم
ســائل تميما في الحروب وعـــامـــرا   وهـل المجــــــرب مثل مـن لم يعلـم

ومن عند هذا البيت أقبل على المقاتلة بالبيـان والفخر، وكان قد حمس نفسه له ببيضاء العوارض التي سمعت قيل الوشاة وهو بها شديد الغرام:

دار لبيضـــاء العـــوارض طفلــة   مهضـــومـة الكشحين ريـــا المعصم
سمعت بنــا قِيل الــوشــاة فأصبحت   صرمت حبـــالـك في الخليط المشئـم
فظللت من فـــرط الصبــابـة والهوى   طـــرفـــا فـــؤادك مثـل فعل الأيهم

الأيهم هو الجمل المغتلم هذا مراد بشر لا أشك فيه.
قول الشارح والأيهم المدكُوك الفؤاد الذي لا يَفْهم شيئا كالحَجَرِ الأَيْهم والصَّخْرةِ اليهماء وهي الملساء والأيهمان السيل والجمل المغتلم. قلت والجمل المغتلم يخرج كركـرته وترى شاهـد الحزن والصبابـة عليه ويمتنع عن الطعام والشراب. وفسروا قـوله طـرف الفؤاد بكسر الراء وفتح الطاء أي استطرف حزنا أي أحسه جديدا.
وميمية بشر هذه جيدة ولكن ميمية عنترة أخملتها.
ومن ذلك قول الأعشى:

ودع هـريـرة إن الـركـب مـرتحل   وهل تطيق وداعـــا أيها الـــرجل

ثم وصف هريرة فأبدع ما شاء، من متبرجة خلوب، بالألباب لعوب:

هـــركـــولـــة فنـق درم مـــرافقهـــا   كأن أخمصهـــا بـــالشـــوك منتعل
إذا تقـــوم يضـــوع المسك أصـــورة   والـــزنبق الـــورد مـن أردانها خضل

ثم أخذ في وصـف الروضة، وكأنـه بذكـر المسك والروضـة يؤم سبيل عنترة ـ وليس له جد عنترة في الوصف وإخلاصه له، ولكن لكلامه حلاوة:ـ

مـا روضـــة من ريـــاض الحزن معشبـة   خضراء جـــاد عليهـــا مسبـل هطل
يضـاحك الشمس منهـــا كـوكب شرق   مـــــــؤزر بعميـم النبـت مكتهـل
يـــومـــا بأطيب منهـــا نشر رائحـــة   ولا بأحسـن منهـــا إذ دنـــا الأصل

ثم أخذ الأعشى في قري من اللهو والمفاكهة:

علقتهـــا عـــرضـــا وعلقت رجـــلا   غيري وعلق أخـرى غيرهـــا الـــرجل

وعلقتــــه فتـــــاة مـــــا يحاولها ومـن بنـي عمهـــــا ميت بها وهـل
وعلقتني أخيرى مـــا تـــلائمني فـــاجتمع الحب حـب كلـــه تبل

من قولهم متبول بحبها أي كله عشق مفـرط والتبل بفتح فسكون ذهاب العقل وهو ما تفعله المرأة بالرجل إذا هام بحبها

فكلنـا مغـرم يهذي بصــاحبـه نـــاء ودان ومخبـــول ومختبل

وعلى هذا النمط جاء شكسبير الشـاعر الانجليزي بمناظـر من مسرحيته التي سماها: "A MIDSUMMAR NIGHTS DREAM" أي «حلم منتصف ليلـة من ليـالي الصيف» وكثرة المشابـه بين ضروب من أقاويل شكسبير وأصناف من شعر العـرب تنبىء أنه قد قرأ من ذلك أو سمعه ممن قرأه كمعاصره بدويل الذي ترجم معاني القرآن مثلا.
ومنهج الأعشى في فكاهته لمن تأمله تمثيلي الروح.
ثم يصير الأعشى الى نوع مـن معاتبة هـريرة. وهـا هنا توطئـة خفية لما سيأخـذ فيه من عتاب ووعيد جاد من بعد:

صـــدت هـــريـــرة عنـــا مـــا تكلمنـــا جهـــلا بأم خليـــد حبل مـن تصل
ألأن رأت رجـــــلا أعشى أضر بـــــه ريب المنـــون ودهـــر مفنـــد خبل
قـــالت هـــريـــرة لما جئت زائرهـــا ويلي عليـك وويلي منك يـــــا رجـل

هذا البيت من الفكـاهة ذروة. وهو مضمن ذكـرى، لأن هريرة صدت عنـه الآن وهو أعشى أضربه ريـب الدهر. ولقـد مر زمـان كان إذا زارها قـالت ويلي عليك من أهلي وويلي منك ستفضحني. وكأن الـذكرى المضمنـة إنما هي محض احتيال شعـري وإنما جاء زائرهـا الآن فراعها ـ كما راع بشـار من بعد، وما أحسبه إلا قـد تأثر الأعشى، إذ قال:

وإنا لا نراكِ فألمسينا

فراعته بأكثر مما راعها. وليست لبشار على جودة شعره خفة روح أبي بصير.

إمـا تــرينـا حفـاة لا نعـــال لنـا إنـــا كـــذلك مـــا نحفى وننتعل

فهذا يدلك أنه زائرهـا الآن وخلع نعليه لكيلا يكون لوقع أقدامـه صوت فهذا من مكر زوار النساء ـ وقد ألح على أن الأمر كله ذكرى بقوله بعد:

وقـد أخـالـس رب البيت غفلتـه وقـــد يحاذر مني ثم مـــا يئل

أي ما ينجو

وقــد أقــود الصبــا يــومــا فيتبعني ‏ ‏ ‏ ‏ وقــد يصــاحبني ذو الشرة الغــزل

وقــد غــدوت الى الحانــوت يتبعني ‏ ‏ ‏ ‏ شــاو مشل شلــول شلشل شــول

وزعم ابن قتيبة أن هـذا مما تأخر لفظه ومعناه وأخطأ على حذقه بـلا ريب وذلك أنه لم يكن لمثله في فقهه وورعه أن يهش الى شيء من أمر الشراب ولهوه ـ والبيت من المفردات الجياد. ثم أخذ الأعشى في صفة مجلس الخمر والأنس، وأخـذ من علقمة أخـذا، وكـلام علقمة تخالطـه من الـذكرى أحـزان مع جـودة الوصـف و إتقان نغم القـريض وصفائه. وكلام الأعشى فيه الجذل، وتحس فيه حـركة الطرب والحيوية وأنس المجلس الثمل وخفـة حـركـة السـاقي ورنين الصنج والغنـاء وحـلاوة الفتيـات الـراقصـات الغزلات:

في فتيــة كسيــوف الهند قــد علمــوا ‏ ‏ ‏ ‏ أن هـــــالــك كل مـن يحفى وينتعـل

نــازعتهم قضب الــريحان متكئــا ‏ ‏ ‏ ‏ وقهـــــوة مـــزة راووقهـــــا خضل

لا يستفيقــــون منهــا وهي راهنـــة ‏ ‏ ‏ ‏ إلا بهات وإن علــــوا وإن نهلــــوا

يسعى بها ذو زجــاجــات لــه نطف ‏ ‏ ‏ ‏ مقلـص أسفل السربــــــال معتمـل

فها هنا حركة وحيوية

والحركة أهدأ في وصف علقمة ساقيه:

ظلت تــرقـرق في النــاجـود يصفقهــا ‏ ‏ ‏ ‏ وليــد أعجم بـــالكتــان مفــدوم

علقمة هنا ينظر الى لـون الخمر وبريقها وجودتها ونظافـة هذا الأعجم وتجويده عمله ـ ولكن الأعشى يصـور السعـى الحثيث، والأقـراط التي تتـذبـذب بـه وهـذا الاعتمال والتقليص ـــ الأعشى يرتقب مجيء الكأس ليعبهـا عبا وينهمك مع صخبهـا وحيويـة مجلسها. أمـا علقمة فهو ينظـر بعين بصيرة الذكرى الى متعـة ذاقها وقد ذهبت أيـامها وبقيت لـذاذة ذلك في النفس والأسى على ذهـابه ومـا تغيرت بـه الـدنيا من حـال الى حال.

ومستجيب تخال الصنج يسمعــه ‏ ‏ ‏ ‏ إذا تــرجع فيـــه القينــة الفضل

وهل هـذه القينة الفضل هي هـريـرة مع الذي حـاول أن يضفيـه على هريـرة من سيما الحرائر وأسلوبهن إذ قال:

كـأن مشيتهـــا من بيت جــــارتها ... مـــر السحـــابـة لا ريـث ولا عجل
ليست كمـن يكـــره الجيران طلعتهـــا ... ولا تـــــراهـــــا لسر الجار تختـل

ولكنها كما ترى زوارة فهذا أشبه بأن تكون هي قينة. ثم يقول:

والسـاحبـات ذيـول الـريط آونـة ... والرافـلات على أعجازهـا العجل

تفسير أبي عبيـدة أن العجل هي المزادات بكسر العين وفتـح الجيم أشبـه أي أكفـالهن ضخمات ويتبرجن بها. وللأصمعـي تفسير آخر أنهن كانت بـأيديهن المزادات يخدمن بها من يسقينهن وهو وجه بعيد. وقد ذكر الأعشى الساقي فما كانت الساحبات تسقيه أصحابـه وإنما كن يغنينهم ويرقصن يـدلك على ذلك قولـه من قبل: «إذا ترجـع فيه القينة الفضل» وهؤلاء السـاحبات والرافلات من متـاع ما كانوا يلهـون به. ودليل آخر قوله بعد هذا البيت وهو في معنى ما ذهب إليه أبو عبيدة:

من كل ذلك يـوم قـد لهوت بـه ... وفي التجارب طول اللهـو والغزل

هذا البيت ولا سيما عجـزه جيد. أي اللهو والغزل من التجـارب التي تكسب الحكمة وهو معنى عميق الغور.
وإذ ذكر أن اللهو من التجارب ساغ له أن يجيء بعده بما يقابله، على النحو الذي رأينا في تائية الشنفرى وفي عينية الحادرة، بل بمذهب الشنفرى أشبه:
وبلـدة مثل ظهـر الترس مـوحشـة ... للجن بـالليـل في حـافـاتها زجل
لا يتنمى لها بـالقيظ يـركبهـا ... إلا الـذين لهم فيما أتـوا مهـل
والمهل التجارب، فهذا دليل الربط بما تقدم فيه بين جلي أيما جلاء ويقوى ما قلنا به من قبل.

جــاوزتها بطليـح جسرة سرح ... في مـرفقيهـا إذا استعـرضتهـا فتل

هذا في صفـة الناقة الفتيـة القوية جعلهـا في مقابلة القينـة الفضل وفي مقابلة الهركـولة الفنق. ثم من التجارب شيم البرق من أجل الصيد ومن أجل أن يراد للمرعى. وههنا أيضا مقـابلة إذ الغيث وعارضـه تحول مما كـان فيه من فلاة كظهـر الترس أي ملساء لا نبت بها إلا عزيف الجنان في ليلها ولهبان القيظ في نهارها:
بل هل تـرى عـارضـا قـد بت أرمقـه ... كأنما البرق في حـافـاتـه شعل
لـه رداف وجـوز مفأم عمـل ... منطـق بسجـال الماء معتمـل
ثم رجع الى اللهو الأول الـذي كان فيه على نحـو قريب مما نبـه عليه ابن رشيق إذ تمثل بأبيات النابغة العينية.

لم يلهني اللهـو عنـه حين أرقبـه ... ولا اللـذاذة مـن كأس ولا شغل

يعني شغلا بغزل النساء. وزعم بعض المفسرين أن الشغل الذي في قوله تعالى: «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون» هو فض الأبكار. وبيت الأعشى هذا توطئة لما سيئول إليه قوله من بعد من أمر الجد والوعيد الذي كالهجاء والخصومة.

فقلت للشرب في درنـا وقـد ثملـوا ... شيمـوا وكيف يشيم الشـارب الثمل
قـالـوا نهار فبطن الخال جـادهما ... فـالعسجديـة فـالأبلاء فـالـرجل
فـالسفح يجري فخنـزيـر فبرقتـه ... حتى تـدافع منـه الـربـو فـالحبل

الربو والحبل موضعان.

حتـى تحمل منـه الماء تكلفـة ... روض القطـا فكثيب الغينـة السهل
يسقي ديـارا لها أصبحت غـرضـا ... زورا تجانف عنهـا القـود والـرمل

لها أي لهريرة. زورا جمع زوراء أي بعيدة ـ أي أصبحت ديارها بعيدة لاتبلغها الإبل ولا الخيل وقوله غرضا أي غرضا للأمطار أو غرضا لمن يهواها وهو الشاعر. وقد جمع الأعشى هنا بين نشوة الثمل ونشوة رؤية البرق ونشوة ذكرى الحبيبة، فاسحنفر بذلك الى مواجهة قرن وقتاله:ـ

أبلغ يـزيـد بني شيبـان مألكـة ... أبـا ثبيت أمـا تنفك تأتكـل
ألست منتهيـا عن نحت أثلتنـا ... ولست ضـائرهـا مـا أطت الإبل
كنـاطح صخـرة يـومـا ليفلقهـا ... فلم يضرهـا وأوهى قـرنـه الـوعل

فهذا اقتضاب كما ترى.

ويروى "كناطح صخرة يوما ليوهنها" وهو أشد ملاءمة لقوله أوهى في عجز البيت.

والاقتضاب هنا قريب المعادن من اقتضاب بشر بن أبي خازم، مع ما صاحبه من عناصر المقابلة والعود الى ما كان قد سبق ذكره.

وقال بشر بن أبي خازم في مفضليته (٩٦) التي أولها:

عفت مـن سليمى رامـة فكثيبهـا ... وشطت بها عنك النـوى وشعـوبها
وغيرهـا مـا غير النـاس قبلهـا ... فبـانت وحـاجـات الفـؤاد تصيبهـا

ثم ذكر الفراق والدموع ثم قال:

رأتني كأفحـوص القطـاة ذؤابتي ... ومـا مسهـا من منعم يستثيبهـا

فقوله "وما مسها من منعم" قريب مما سماه ابن رشيق بالخروج، وهو نحو قول أبي الطيب:

مـرت بنـا بين سربيهـا فقلت لها ... من أين جـانس هـذا الشـادن العـربا
فاستضحكت ثـم قالت كالمغيـث يرى ... ليث الشرى وهـو مـن عجل اذا انتسبا

فهذا احتيال احتال به أبو الطيب فخرج الى مدح المغيث.

وقال بشر إنها رأت رأسي لا شعر به أملس كأفحوص القطاة، وليس ذلك لأن منعها من علي فجز ناصيتي إني من معشر أولى قتال.

أجبنا بنـي سعد بن ضبـة اذ دعوا ... ولله مـولى دعـوة لا يجيبهـا

فهذا اقتضاب مـع الخروج الذي صار به الشاعـر إليه. إذ الغزل ونشوتـه قد وطأت الى ذكر القتال وتحدى الشاعر لبنى سعد بن ضبة.

ولو رجعت الى قول حسان بن ثابت:

إن كنت كـاذبـة الـذي حـدثتني ... فنجـوت منجى الحارث بـن هشـام
تـرك الأحبـة أن يقـاتل دونهم ... ونجـا بـرأس طمـرة ولجام

فههنا مع احتياله بـالخروج الذي خرجه نوع "من اقتضاب" هيأ لـه الغزل قبله، إذ هو خصومة وقتال.

وعلى هـذا الـوجـه يصح زعـم ابن رشيق أن العـرب الأولين لم يكن شعـراؤهم يستعملـون الخروج كـاستعمال أبي الطيب وأبي تمام والمحـدثين لـه، لأن هـؤلاء كـانـوا يخرجون بـه كل الخروج، أما مـا جاء منه في كـلام القدماء كما عند حسان فلـه اتصال معنوي ما، على النحو الذي ذكرنـاه منه. أو على تضمين خطاب للمحبوبة بما سيأتى كما صنع الحادرة بقـوله «فسمي» ولبيـد بقولـه: «بل أنت لا تـدرين» وما أشبـه. ومن أوضح هذا مثالا قول عبد المسيح بن عسلة العبدي:

ألا يـا اسلمي على الحوادث فـاطما ... فـإن تسـأليـني تسـألي بي عـالما
غـدونـا إليهم والسيـوف عصينـا ... بـأيماننـا نفلي بهن الجماجما
لعمـري لأشبعنـا ضبـاع عنيـزة ... الى الحول منهـا والنسـور القشـاعما

الاقتضاب عند المحدثين

الذي سماه ابن رشيق خـروجا أكثـر ما يقال لـه في شعر المحـدثين التخلص ومما مدح به أبو الطيب حسن التخلص كبيت المغيث وكقوله:

حـال متى علم ابن منصـور بها ... جـاء الـزمـان الى منهـا تـائبـا

وكقول حبيب :

يجاهد الشوق حينا ثم ترجعه مجاهدات القوافي في أبي دلفا

وقوله :

وعاذل هاج لى باللوم مأربة باتت عليها هموم النفس تصطخب
لما أطال ارتجال العذل قلت له الحزم يثني خطوب الدهر لاالخطب

ولا ريب أن القارىء أصلحه الله قد فطن الى جناس خطوب وخطب والى مناسبة الخطب لقوله قبل لـ" لما أطال ارتجال العذل "

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف محمد بن أبي مروان والنوب
لى من أبي جعفر آخية سبب ان تبق يطلب انٌ معروفي السبب

على أن في تخلص حبيب هذا أنفاسا من روح اتصال المعاني الذي نجده عند القدماء ومذهب القدماء عنده كثير كقوله :

لست من العيس أو أكلفها وخدا يداوي المريض من وصبه
الى المصفى مجدا أبي الحسن انصعـ ـن انصياع الكدري في قربه

فهذا كما ترى من باب الرحلة بعد النسيب وبكاء الديار وأول هذه القصيدة :

إن بكاء في الدار من أربه فشايعا مغرما على طربه

والخطاب لعينيه وتخلص الى وصف المزن وكان به كلفا :

وكقوله :

إليك جزعنا مغرب الملك كلما هبطنا ملا صلت عليك سباسبه

فهذا كقول علقمة : إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتى

وكقوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب

إلى أن قال بعد وصف جده في السير:

إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد تقطع ما بيني وبين النوائب

ويقابل التخلص الاقتضاب، وهو الخروج فجأة من النسيب إلى المدح بلا تقديم وهو الذي ذكر ابن رشيق أن من اسمائه البتر والكسع والقطع وضرب له مثلا عند القدماء دع ذا وعد عن ذا واستشهد له من كلام المحدثين بقول البحتري :

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجاء موكل

إن الـــرعيـــة لم تـــزل في سيرة عمـريــة مـذ سـاسهـا المتــوكل

وقد استشهدنا له من قبل بقوله:

إني وإن جـــانبـت بعض بطـــالتي وتـــوهم الـــواشـــون أني مقصر
ليروقني سحــــر العيـــون المجتلى ويشــــــوقني ورد الخدود الأحمر
اللـــه مكن للخليفـــة جعفـــر ملكـــا يحسنـــه الخليفـــة جعفـــر

وقـد حـاكى البحتري في هذا مـن مذهبـه وهـو عنـده كثير أستـاذه أبا تمام إذ لـه منـه قصائد، كقوله:

أذكت عليك شهـاب نـار في الحشـا بـالعـذل وهنـا أخـت آل شهـاب
عـــذلا شبيهـــا بـــالجنـــون كأنها قــرأت بـه الـورهـاء صـدر كتـاب
أومـــا رأت بـردى من نسج الصبـــا ورأت خضـاب اللـه وهـو خضـابي
لا جـود في الأقـــوام يعلم مـــا عـدا جـــودا حليفـــا في بني عتـــاب
متـدفقـا صقلـــوا بـه أحســـابهم إن السماحـــة صيقـل الأحســـاب

وكقوله يخاطب الشيب في نسيب قصيدة له في أبي سعيد الثغري:

كل داء يـــرجى الـــدواء لـــه إلا الفظيعين ميتـــــة ومشيبـــــا
يـــا نسيب الثغـــام ذنبك أبقـى حسنـــاتي عنـد الحســان ذنـوبـا
ولئن عبـن مـــا رأيـن لقـــد أنـــ ـــكرن مستنكـــرا وعبـن معيبـــا
أو تصــدعن عـن قلى لكفى بـالشــ ـــيب بيني وبينهـم حسيبـــا
لـــو رأى اللـــه أن للشيب فضـــلا جـــاورتـــه الأبـرار في الخلـد شيبـا
كل يـــوم تبـــدى صروف الليـــالي خلقـــا من أبي سعيـــد رغيبـــا

غير أن أبا تمام لم يشتهر بـالاقتضاب شهرة أبي عبادة علي كثـرته عنده وجودتـه وأنفاس الصلابة فيه العربية في أسره. وأحسب أن من أسباب ذلك جودة احتيالات خروجه - أو كما قلنا قبل - حسن تخلصه كالأمثلة التي أوردنا وكقوله:

لقـد أنست مســاوىء كل دهـر محاســن أحمد بـــن أبي دؤاد

وإن كان قد سبق هذا ما هو كالاقتضاب في قوله:

وأعين ربـــرب كحلت بسحـــــر وأجســــاد تضمخ بــــالجســــاد
بـــــزهــــر والحذاق وآل بـــرد ورت في كـل صــــالحة زنــــادي

ثم مدح هؤلاء وتخلص إلى ابن أبي دؤاد.

وكأن أبا الطيب نظر إلى هذا المذهب حين مدح بني عمران بعد ذكره الخيل ثم تخلص إلى أبي أيوب فقال :

سقيت منابتها التي سقت الورى … بندى أبي أيوب خير نباتها

إلا أنه سلك سبيل التخلص في الموضعين .

وليس أصل اقتضاب البحتري من اقتضاب الأوائل في قصائد المدح ، وإن يك استاذه فيه أبو تمام مما ينظر إلى هؤلاء ، وكأن أكثر اقتضابه إضراب عن ذكر الرحلة . وليس كذلك صنيع البحتري الذي إنما هو من النسيب وثب مفاجىء .

مثلا ، قول أبي تمام في أول البائية

لو أن دهرا رد رجع جواب … أو كف من شأويه طول عتاب

لعذلته في دمنتين بأمرة … ممحوتين لزينب ورباب

فدل هذا على أنه وقف عند الدمنتين وهو في طريقه إلى الممدوح ، ثم قد ذكر عذل امرأته التي جعل " أخت آل شهاب " كنية لها ، ثم قال :

لا جود في الأقوام يعلم ما خلا … جودا حليفا في بني عتاب

فهذا كالرد على العاذلة .

وشبيه بهذا قوله وأشعر فيه أنه مرتحل :

لله ليلتنا وكانت ليلة … ذخرت لنا بين اللوى والشربب

قالت وقد أعلقت كفي كفها … حلا وما كل الحلال بطيب

فسره التبريزي بقوله قد جمعت هذا الذي أحلت لي من نفسها أنه حلال وأنه طيب مستلذ ، وهو وجه غير أنه ضعيف . والظاهر من المعنى أنها قالت له تحلل مما عزمت عليه من الرحلة . فقولها هذا ما كان أطيبه ، وفي هامش طبعة الديوان قال ابن المستوفي فأما إذ لم يقل حلا طيبا أوهم أن ما بذلته من الحلال غير طيب . ولا نعلم أما بذلت له حلال هو أم غير حلال ، وإنما هي إلمامة ليلة ألمها بهذه الحسناء ، ويجوز أن ذلك كان متعة استحلها ثم أخذ في سبيل الرحلة ، وكلا كلامي أبي زكريا وابن المستوفي غير واف

فنعمت من شمس إذا حجبت بدت … من نورها فكأنها لم تحجب

وإذا رنت خلت الظباء ولدنها … ربعية واسترضعت في الربرب

قالوا إذا رنت الغزالة نصت جيدها والربرب بقر الوحش وعيونهن واسعات فجمع لها جيد الظبية وحلاوتها وعيون المها .

إنسية إن حصلت أنسابها … جنية الأبوين ما لم تنسب

أي جمالها خارق وهذا ولده من قول الشنفري:

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت   فلو جن إنسان من الحسن جنت

ثم أشعر بارتحاله ومروره على مدينة الزباء الخربة، على شاطىء الفرات، وقالوا إنها من بقايا مدينة الزباء صاحبة الخبر.

قال أبو تمام:

قد قلت للزباء لما أصبحت   في حد ناب للزمان ومخلب
لمدينة عجماء قد أمسى البلى   فيها خطيبا باللسان المعرب
فكأنها سكن الفناء عراصها   أو صال فيها الدهر صولة مغضب
لكن بنو طوق وطوق قبلهم   شادوا المعالي بالثناء الأغلب

فهذا اقتضاب، وله صلة بما قبله. وقد فسر أبو تمام الزباء فقال لمدينة عجماء ثم أبي إلا طباقا فجاء باللسان المعرب وهو بلا ريب لسانه هو وإن كان الظاهر يفيد لسان حال البلى أنه مبين فكأنه معرب ـ غير أن قوله باللسان المعرب أدل على لسان معرب بعينه وهو لسانه الذي ترجم به عن لسان حال البلى.

اقتضاب البحتري محض مفاجىء كل المفاجأة مبتور منقطع الصلة ـ إلا النغم وإيحاءاته ـ بما قبله، كقوله المتقدم الذي استشهدنا به، وكقوله:

وربت ليلة قد بت أسقى   بعينيها وكفيها المداما
قضينا الليل لثما واعتناقا   وأفنيناه ضما والتزاما
خلافة جعفر عدل وأمن   وحلم لم يزل يسع الأناما

مقدمة البحتري قبل اقتضابه إنما هي ترنم يتهيأ به لاندفاع إلى المديح. وهذا من صنيعه شبيه بصنيع جرير في الهجاء ـ مثلا:

بان الخليط غداة الجناب   ولم تقض نفسك أوطارها
فلا تكثروا طول شك الخلاج   وشدوا على العيس أكوارها
سأرمي بها قاتمات الفجاج   ونهجر هندا وزوارها
ألاقبح الله يوم الزبير   بلاء القيون وأخبارها
تركتم لسعد زمام الزبير   وعقر الفتاة وتجرارها

أحسبه «رمام الزبير» بالمهملة لأن ابن جرموز قاتله من بني سعد رهط الأحنف والفتاة جعثن أخت الفرزدق.

ومثال آخر وهو أشهر :ـ

يـا أم نـاجيـة السـلام عليكم ... قبل الـرواح وقبل لـوم العـذل
وإذا غـدوت فـلازمتـك تحيـة ... سبقت سروح الشـاحجـات الحجل

أي سبقت كل شـؤم فغدوت على أيمن طـائر والشـاحجات هي الغـربان وحجـلانها مشيتها التي قيل أراد الغراب بها محاكاة الطاووس فلـم يستطع ولا عاد الى ما كان عليه من مشية الطير

لـو كنت أعلـم أن آخـر عهـدكم ... يـوم الـرحيل فعلت مـا لم أفعل
أو كنت أرهـب وشك بين عـاجـل ... لقنعـت أو لسـألت مـا لم أسأل
أعـددت للشعـراء سما نـاقعـا ... فسقيـت آخـرهـم بكـأس الأول
لما وضعـت على الفـرزدق ميسمى ... وضغـا البعيث جـدعت أنف الأخطل

ومثال ثالث :

فسقـاك حيث حللت غير فقيـدة ... هـزج الـرواح وديمـة لاتقلع
فلقـد يطـاع بنـا الشفيع لـديكمـو ... ونطيـع فيك مـودة مـن يشفـع
هل تـذكـرين زمـاننـا بعنيـزة ... والأبـرقين وذاك مـا لايـرجع
إن الأعـادي قـد لقـوا لي هضبـة ... تنبى معـاولهم إذا مـا تقـرع
مـا كنت أقـذف من عشيرة ظـالم ... إلا تـركـت صفـاهـم يتصـدع
أعـددت للشعـراء كـأسـا مـرة ... عنـدي مخالطهـا السهام المنقـع
هـلا نهاهـم تسعـة قتلتهـم ... أو أربعـون حـدوتهم فـاستجمعـوا

وكأن هذا على اقتضـابه جرى فيـه جرير على مـذهب المخاطبة الـذي في عينية الحادرة وجعل بلاءه في الهجاء من باب بلاء الفرسان في الحروب ومثال رابع :

وقـد أقصرت عن طلب الغـواني ... وقـد آذن حبلى بـانصرام
إذا حـدثتهن هـزئن منى ... ولا يغشين رحلي في المنـام
لقـد نـزل الفـرزدق دار سعـد ... ليـالي لايعـف ولايحامـي

وهذا خبر جعثن والاقتضاب هنا وثبة ظاهرة .

ومثال خامس :

لقـد نـادى أميرك بـابتكـار ... ولم يلـووا عليـك ولم تـزارى
وقـد رفع الظعـائن يـوم رهبى ... بـروح من فـؤادك مستطـار

رفع الظعائن أي مضين مسرعات في سيرهن مفارقات وقد ذهبن بقلبك في هوادجهن

ذكــرتك بــالجمــوم ويــوم مــروا على مـــران راجعني ادّكــــارِي
وتيـم يفخــــــرون وضرب تيـم كضرب الــزيـف بــار على التجــار

ومضى في الهجاء
ومن عجيب أمر البحتري أنـه فيما ذكروا كان يميل الى تقديم الفـرزدق. وربما يكون قد تأثر بفرط ثناء الجاحظ الحسن عليه ـ قال الجاحظ في الجزء الثالث من الحيوان: «وإن

أحببت أن تـروي من قصـار القصـائد شعرا لم يسمع بمثلـه فـالتمس ذلك في قصـار قصائد الفـرزدق فإنك لم تجد شاعرا قـط يجمع بين التجويد في القصـار والطوال غيره، وقد قيل للكميت إن الناس يزعمون أنك لاتقـدر على القصار قال من قال الطوال فهو على القصـار أقـدر. هـذا الكـلام يخرج في ظـاهـر الـرأي والظن ولم نجـد ذلك عنـد التحصيل على ما قال.» ا. هـ[ص٩٨]
وذكروا أن أبـا نواس هم بأن يكتني بأبي فراس وهي كنيـة الفرزدق. وما يخلـو الأمر من تعصب أهل البصرة لشاعرهم.
على أن بشـارا قد كـان بصريـا وكـان ميله الى جـريـر وكذلك كـان ميل مـروان بن أبي حفصة، وهـذا بعد باب واسع والخلاف فيـه قديم وكان البحتري في أسلـوبه أدنى الى جريـر. وفي هذا الاقتضـاب هو آخـذ منه بـلا ريب. وسـوغ الاقتضاب لجريـر أن له مشابه في شعر الأيام والخصومات في أشعار القـدماء. ثم قد كان هو صاحب نقائض وما كان أمـر مهاجاته من يهاجيه ولا مهـاجاتهم له كل ذلك بذي خفـاء. فكان تغنيه بالغـزل بين يدي هجائه وتـرنمه بذكـر الديار والنسيب من ضرب الحماسـة على النحو الذي هو معـروف من مذهب العرب من الارتجاز وذكر النساء قبل المناجـزة وبازائها.
وقد ارتجزوا في جهاد الفتوح بمثل قولهم:

يـــا ليتنـي ألقـــاك في الطـــراد عنـــد التحـــام الجحفل الــورّاد

تمشين في حليتك الورّاد

وقال المختار الثقفي:

قـــد علمـت بيضــاء صفـــراء الطلل أني غـــداة الـــروع مقـــدام بطل

فزعموا أنه سأله أحد من كان يقاتل معه أين الملائكة يا أبا إسحاق أو «ما هذا معناه» فقال له قاتل عن حسبك أو ما هذا معناه، وكأن السائل أنكر على المختار ذكر النساء كما يفعل غيره من العرب ممن ليست لهم مثل دعواه أن الملائكة كانوا يعينونه.

ومن قديم ما رووا من رجز الأبطال قول ربيعة:

جررن أطراف الذيول واربعن
فعل حييات كأن لم تفزعن
إن تمنع اليوم نساء تمنعن

حتى الخوارج وهم ما هم في التشدد قد تغنوا بالغزل في جد حروبهم التي إنما كانت جهادا للكفرة على ما كانوا يعتقدونه ـ قال قطري بن الفجاءة:

فواكبدا من غير جوع ولا ظما	وواكبدا من حب أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم

مقدمات البحتري أشبه بالتقاسيم الموسيقية التي تسبق لحن المغني وعمود غنائه. وفيها ما ذكرنا من أنها تهيئة كان يهيىء بها نفسه لاندفاع المديح. وقد كان البحتري نديما. فالذي صنع بأدب المنادمة أشبه وفيه أدخل.

ومن أمثلة اقتضابه مما هو عميق في هذا المجال كلمته المشهورة:

لي حبيب قد لج في الهجر جدا	وأعاد الصدود منه وأبدى
ذو فنون يريك في كل يوم	خلقا من جفائه مستجدا
يتأبى منعا وينعم إسعا	فا ويدنو وصلا ويبعد صدا
أغتدي راضيا وقد بت غضبا	ن وأمسي مولى وأصبح عبدا
وبنفسي أفدى على كل حال	شادنا لو يمس بالحسن أعدى
مر بي خاليا فأطمع في الوصـ	ـل وعرضت بالسلام فردا
وثنى خده الى على خو	ف فقبلت جلنارا وورا
سيدي أنت ما تعرضت ظلما	فأجازي به ولا خنت عهدا
رق لي من مدامع ليس ترقا	وارث لي من جوانح ليس تهدا
حاش لله أنت أفتن ألفا	ظا وأحلى شكلا وأحسن قدا
خلق الله جعفرا قيم الديـ	ـن سدادا وقيم الدين رشدا

فهنا الوثبة المديحية كما ترى

أكـــرم النـــاس شيمـــة وأتم النـــــاس خلقـا وأكثــر النـاس رفـدا
ملك حصنت عـــزيمتـــه الملـــــك فأضحت لــه مغـاثـا وردا
وهلم جرا

وقـال في الضاديـة التي من الخفيف وإياهـا كما ذكرنـا من قبل جاري شـوقي في بضية أنس الوجود :

أيها العـاتب الـذي ليس يـرضى نم هنيئـا فلست أطعم غمضـا
إن لي من هـواك وجـدا قـد استهـــلك نـومي ومضجعـا قـد أقضـا
فجفـوني في عبرة ليس تـرقـا وفـؤادي في لـوعـة مـا تقضى
يـاقليل الإنصـاف كـم أقتضى عنـــدك وعـدا إنجـازه ليس يقضى
فأجـزني بـالـوصل إن كـان أجـرا وأثبني بـالحب إن كـان قـرضـا
بـأبي شـادن تعلـق قلبـي بجفـون فـواتـر اللحظ مـرضى
غـرني حبـه فـأصبحت أبـدي منـه بعضـا وأكتـم النـاس بعضـا
لست أنسـاه بـاديـا من قـريب يتثنى تثني الغصـن غضـا
وأعتـذاري إليـه حتـى تجافي لي عـن بعض مـا أتيت وأغضـى
واعتـلاقي تفـاح خـديـه تقبيـــلا ولثما طـورا وشما وعضـا

ثم جاءت الوثبة وغير خاف أن هذا لها موضع :

أيها الـراغب الـذي طلب الجو د فأبلى كـوم المطـايـا وأنضى
رد حيـاض الإمـام تلق نـوالا يسع الـراغبين طـولا وعـرضـا
فهنـاك العطـاء جـزلا لمن را م جـزيل العطـاء والجود محضـا

ومع الوثبـة هنا شيء من تداعي المعـاني لاحق بأدب المنادمة، وهو صلـة ما بين جود الحبيب من الود وجود الإمام مما به ينال الجاه والمعاش والسعادة.
ومن أمثلة اقتضابه الحسنة قوله في صفة البركة :

قـد أطـرق الغـادة البيضـاء مقتـدرا على الشبـاب فتصبيني وأصبيهـا
في ليلـة مـا ينـال الصبـح آخـرهـا علقت بـالـراح أسقـاهـا وأسقيهـا

عـاطيتها غضـة الأطـراف مـرهفـة شربت مـن يـدهـا خمرا ومن فيهـا
يـا من رأي البركـة الحسنـاء رؤيتهـا والآنسـات إذا لاحت مغـانيهـا

وقـد جاء بـوثبـة الاقتضاب هنـا بعـد ذكره التقبيـل ـ واحتفظ بشيء من معـاني الغزل:

يحسبهـا أنها في فضـل رتبتهـا تعـد واحـدة والبحـر ثـانيهـا
مـا بـال دجلـة كـالغيري تنـافسهـا في الحسن طـورا وأطـوارا تبـاهيهـا

وقد يـرى قاريء هذا الشعر وسـامعه والمتغني به اتصال بيت «يـا من رأي البركة الحسناء» بـالبيت تاليـه فهذا مـدان للتضمين وليس به وفيـه رد مفحم لمن قال مكـابرا باستقلال مفردات الأبيات في قصيد العرب.

وقال البحتري في كلمته التي أولها

أكنـت معنفي يـوم الـرحيـل وقـد جـدت دمـوعي في الهمـول
عشيـة لا الفـراق أفـاء عـزمي إلي ولا اللقـاء شفـى غليلي

ثم يقول:

طـربت بـذي الأراك وشـوقتني طـوالع من سنـا بـرق كليل
وذكـرنيك والـذكـرى عنـاء مشـابـه فيـك بينـة الشكـول
نسيـم الـروض في ريـح شمال وصـوب المزن في راح شمـول
عـذيـري من عـذول فيـك يلحى على ألا عـذيـر مـن عـذول
تجرمـت السنـون ولا سبيـل إليـك وأنـت واضحـة السبيـل
وقـد حـاولت أن تخد المطـايـا إلى حـي على حلـب حلـول
ولـو أني ملكت إليـك عـزمـي وصلت النـص منهـا بـالـذميل
فـأولى للمهـارى مـن فـلاة عـريض جـوزهـا وسرى طـويل

فهذا في المحبوبـة وسير اللحاق بها ـ ثم وثب إلى مديح الفتح وكأنـه اقتدى شيئا في هذا بكعب بن زهير، إذ المحبوبة كالرمز عند كعب وهي هنا كذلك:

زكت بالفتح أحدان المساعي وأوضح دارس الكرم المحيل

ووضوح السبيل علاقة كما ترى.

ومما هو اقتضاب محض قوله:

لا تكـــذبن فما الصبـــا بمخلـف		فينـــا ولا زمن الصبـــا بمعـــاد
وأرى الشبـاب على غضـــارة حسنـه		وجمالـــه عـــددا مـن الأعـــداد
إن الخلافـــــــة أحمدت مـن أحمد		شيما ينيـــــــــف بها على الإحماد
ملـك تحييـــه الملـــوك ودونــــه		سيما التقـى وتحيـــة الـــزهـــاد

وفي إحدى متوكلياته وفيهن تجويد منادمته:

أصبــابـــة بـــرســـوم رامـــة بعـــدمـــا		عـــرفت معـــالمهـــا الصبـــا والشمأل
وسألت من لا يستجيب فكنت في اســـ		ـــــتخباره كمجيب مـن لا يسـأل
اليـــوم أطلـع للخـــلافـــة سعــــدهـــا		وأضـــاء فيهـــا بـــدرهـــا المتهلل
لبست جـــلالـــة جعفـــر فكأنها		سحــــر يجللــــه النهـــار المقبل

هذا من قصيدتـه التي أولها «لولا تعنفني لقلت المنزل» ـ وأبيـات السيرة العمرية في اللامية الأخرى: «قل للسحاب إذا حـدته الشمأل» وهي أجود. والبيت الذي رواه ابن رشيق ليس في الديوان المطبوع (دار صادر) وابن رشيق أوثق إن شاء الله.

وللبحتري مذهب الرحلة ومذاهب من المقابلة والرجوع إلى ما تقدم وقد يكون منه الخروج ـ [حسن التخلص] ـ الحسن أحيانا كقوله:

حنت ركـــابي بـــالعـــراق وشـــاقهـــا		في نـــاجـــر بـــرد الشـــآم وريفـــه
ومـــدافع الســـاجـــور حيث تقـــابلت		في ضفتيـــه تـــلاعـــه وكهـــوفـــه
ويهيجنـي أن لا يـــــزال يـــــزورني		منهـــا خيـــال مـــا يغـب مطيفـــه
وشفـــاء مـــا تحت الضلـــوع من الجوى		سير يشـق على الهدان وجيفـــــه
إن لم يـــــريثنـــا الجواز عن التـي		نهوى ويمنعنـــا النفـــوذ رفيفـــه
أو نـــائل الفتـح بن خـــاقـــان الـــذي		للمكـــرمـــات تليـــده وطـــريفـــه

وأحسب أن هذا علي استقامته دون جودة مفاجأة اقتضابه ومما أحسبه لم يستقم له قوله في كلمته العذبة النسيب التي أولها:

كم بالكثيب من اعتراض كثيب

قال:

فلـــربما لبيت داعيـــة الصبـــا وعصيـت من عـــذل ومـن تأنيـب
يعشى عـن المجـد الغبـي ولن تـــرى في ســــؤدد أربـــا لغير أريـب
والأرض تخرج في الـوهـاد وفي الـربـا عمم النبـــات وجـل ذلك يـــوبي

نظم هـذا البيت نظما فبعضـه من أبي تمام من قـوله «حتى تعمم صلـع هامـات الـربى» وبعضه من الحديث: «إن ممـا ينبت الربيـع ما يقتل حبطـا أو يلم» ـ ثم جـاء بحسن التخلص الذي ليس بحسن

وإذا أبو الفضل استعار سجية للمكرمات فمن أبي يعقوب

ولعل القافية استهواه شيطانها، إذ مثلها عند مسلم بن الوليد إذ يقول:

يأيها الـــرجـل المثمـــر مـــالـــه وهـــو المسلب عـرضـه المسلـــوب
خل المكـارم قـــد كفـاك مـراسهـا سعــــدانها وسليلـــــه يعقـــوب

وللبحتري مما لم يذهب فيه مـذهب الاقتضاب ولكن مذهب التخلص الرشيقي كما في عينية النـابغة وداليته «يـا دار مية بـالعلياء فالسنـد» كلمات جياد. ولا يخفى أن النابغـة في أدب المنادمة زعيم، فلا غـرو أن اقتدى به البحتري وهو نـديم مثله. فمن هذه الكلمات عينيته في المتوكل الفخمة النفس والروى:

منى النفس من أسماء لو يستطيعها

ومن تلك قافيته في الفتح:

حلفت لها بـــاللــــه يـــوم التفـــرق وبـــالـــوجـــد من قلبـي بها المتعلق
وبـــالعهـد مـــا البـذل القليل بضـــائع لـــدي ولا العهـــد القـديـم بمخلق

أى ببال

وأبثثتهـــا شكـــوى أبـــانت عن الجوى ودمعـــا متى يشهـــد ببث يصـــدق
وإني لأخشـــــاهـــــا علي إذا نـأت وأخشى عليهـــا الكـــاشحين وأتقى
وإنى وإن ضنـت على بـــودهـــا . . . لأرتـــــاح منهـــا للخيـــال المؤرق
(أحسبه بوعدها) . . .
يعـــز على الـــواشين لـــو يعلمـــونها ليـــال لنـــا تـــزدان فيهـــا ونلتقى

هذا يقوى ما ذهبنا إليه أن الصواب بوعدها، إذ هذا البيت الذي يذكر لقاءها وازديانها شاهد ود.

ثم يقول في الطيف:

فكم غلة للشوق أطفأت حرها بطيف متى يطرق دجى الليل يطرق

الأولى رباعية من إسبال الليل أستاره وهيمنته كأنه مطرق والثانية ثلاثية من طروق الطارق. وهذا الطيف يطرقه إذا أطرق الليل.

أضم عليه جفن عيني تعلقا به عند إجلاء النعاس المرنق

هذا البيت جيد في وصف أول الإفاقة من النوم.

ثم يقول:

إذا شئت ألا تعذل الدهر عاشقا على كمد من لوعة الحب فاعشق
وكنت متى أبعد عن الخل اكتئب له ومتى أظعن عن الدار اشتق

فهذا فيه رجعة الى التفرق الذي بدأ بذكره

تلفت من عليا دمشق ودوننا للبنان هضب كالغمام المعلق
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ذممت مقامي بين بصرى وجلق

وهذه دياره ولكن ثم جاهه وسادته ومنادمته ونداماه

الى معقلي عزي وداري إقامتي وقصد التفاتي بالهوى وتشوقي

فرجع الى معنى الهوى كما ترى

مقاصير ملك أقبلت بوجوهها على منظر من عرض دجلة مونق
كأن الرياض الحويكسين حولها أفانين من أفواف وشي ملفق

هذه الكافات والفاءات نمط نابغي

إذا الريح هزت نورهن تضوعت روائحه من فار مسك مفتق

ثم جاء دور القاف في نغم الجرس النابغي

كأن القباب البيض والشمس طلقة　　تضـاحكها أنصـاف بيض مفلق

ومع القـاف الضاد والفـاء وصدى من الكـاف التي مرت من قبل وفي هـذا البيت على كونه في نعت قصور بغداد أطياف من مناظـر ثلج لبنان، الذي قال من قبل إنه كالغمام المعلق.

ومـن شرفــــات في السماء كـأنها　　قـــوادم بيضـــان الحمام المحلـق
ربـاع من الفتح بن خـاقـان لم تـزل　　غنى لعـديـم أو فكـاكـا لمرهق
فـلا العـائذ الـلاجي إليهـا بمسلم　　ولا الطـالب المحتـاج منهـا بمخفق

وقريب من طريق هذه القافية في التسلسل وجـودة أخذ الكلام بعضه برقاب بعض مع احتفاظ كنين بعناصر الوثب التي في الاقتضاب وأشياء من عادة الشعراء لاميته:ـ

عهـد لعلـوة بـاللـوى قـد أشكـلا　　مـا كـان أحسن مبتـداه وأجملا

قال في انتقاله من النسيب الى الخمر الى صفة القصر:ـ

بتنـا ولى قمـران وجـه مسـاعـدي　　والبـدر إذ وافى التمام وأكمـلا
لاحت تبـاشير الخريـف وأعـرضت　　قطع الغمام وشـارفت أن تهطـلا
فترو مـن شعبـــان إن وراءه　　شهـرا يمانعنـا الـرحيق السلسـلا
أحسن بـدجلـة منظـرا ومحيا　　والغـرد في أكنـاف دجلـة منـزلا

ثم وصفه واتلأب به القول من بعد الى مدح المتوكل

بـدع لبـدع في السماحـة مـا تـرى　　مـن أمـره إلا عجيبـا مجذلا

ونختم هذا الفصل بالإشارة الى ميميته:

ألا هل أتـاهـا بـالمغيب سـلامى　　وهل خبرت وجـدى بها وغـرامي
وهـل علمـت أني ضنيـت وأنها　　شفـائي مـن داء الضنى وسقـامي

فقد تخلص فيها من شكوى الحب ورقة النسيب الى بعض التفتي يجعله وسيلة الى ذكر الكأس

فليس الـذي حللتـه بمحلـل ... وليس الـذي حـرمتـه بحـرام
وإنـي لأبـنـاء على كـل لائم ... عليـك وعصـاء لكـل مـلام
وكنت إذا حـدثت نفسي بسلـوة ... خلعت عـذاري أو فضضت لجامي
وأسبلـت أثـوابي لكـل عظيمـة ... وشمـرت عن أخـرى لكل غـرام

فهذا تفت منه، أي عمل بـالفتوة وخلص منه الى ذكر المنـادمة ومجلس الأنس واللذات والصيد

هل العيش إلا مـاء كـرم مصفقٌ ... يـرقـرقـه في الكـأس مـاء غمام
وعـود بنـان حين سـاعـد شـدوه ... على نغـم الألحان نـاي زنـام
أبى يـومنـا بـالـزو إلا تحسنـا ... لنـا بسماع طيب ومـدام

الزو اسم سفينة عملها المتوكل للنزهة. وشبهها البحتري بالجبل ومن العجب لصانعي هوامش طبعـة الديوان أنهم فسروا الـزو (هامش ٣ ص١٦ من ج١ ـ طبعـة دار صادر ببيروت) بأنه جبل ولـو رجعوا الى القاموس لـوجدوا أنه سفينة وقـد ذكر بيت البحتري والجبل لا يقاد بزمام كما سيأتي ولكن تقاد السفينة.
ثم تجيء أبيات من بـديع ما جاء في صفة الصيـد بالبزاة ـ جمع البـازي ـ وذلك من لهو الملوك وندماهم ومن يجرى هذا المجرى من أهل الثراء والأمراء:

غنينـا على قصر يسير بفتيـة ... قعـود على أرجـائه وقيـام

فهذا القصر السائر هو الزو والفتية القعود فيه والقيام هم النوتيون والخدم الألى فيه

تظل البـزاة البيض تخطف حـولنـا ... جثـاجيء طير في السماء سـوامى
تحدر بـالـدراج من كل شـاهق ... مخضبـة أظفـارهن دوامي

مخضبة مرفوعـة، صفة لموصوف محذوف معلوم هو البزاة، جعلهـا كأن عليها خضابا ثم فسر هذا الخضاب بأنه الدم الذي على أظفارها من صيدها الدراج وهو من الطير الجيد أكله. وأخذ البحترى صفة بزاته المخضوبة من قول أبي زبيد «طيرا عكوفا كزور العرس» لأن زور العرس عليهن الخضاب، وقد مر البيت الـذي منه هذه القطعة في باب القوافي

في أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب.

فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسماحة طام

فالماء ماء القاطول عند دجلة وهو الذي ذكره في المرثية «محل على القاطول أخلق داثره». والبحر المتدفق بالسماحة الطامى بها هو الخليفة المتوكل.

ولا جبلا كالزو يوقف تارة وينقاد إما قدته بزمام

فهذه صفة سفينة والسفينة تشبه بالجبل، قال تعالى: «وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام» أي كالجبال والجواري السفائن.

لقد جمع الله المحاسن كلها لأبيض من آل النبي همام
يطيف بطلق الوجه لا متجهم علينا ولا نزر العطاء جهام
يحببه عند الرعية أنه يذب عن أطرافها ويحامى
وأن له عطفا عليها ورقة وفضل أياد بالعطاء جسام

ثم يمضي في المدح بأسلوب النديم البلاطي المحب لسيده المخلص له السعيد (على حد ما ذكره ابن خلدون من بعد) بملقه وخدمته:

لقد لجأ الإسلام من سيف جعفر الى صارم في النائبات حسام
يسد به الثغر المخوف انثلامه وإن رامه الأعداء كل مرام
إليك أمين الله مالت قلوبنا بإخلاص نزاع إليك هيام

قوله "أمين الله" مراده منه أمير المؤمنين وأمينه بذلك فيهم. ومع هذا أصداء "من أبي نواس، وقد كان البحترى شديد المحاكاة له و النظر إليه في أدب المنادمة، كما أنهما كليهما كانا شديدي التأثر لشيخ الندماء نابغة بني ذبيان وكبيرهم على مر الزمان، إذ ليس منهم من عريت له امرأة سيده المفتون بها حتي يصفها متجردة فتأمل. وإكثار أبي نواس من صفات الخمر يحث على قرنه بالأعشى، وقد فطن الناقد اللبناني مارون عبود الى تأثر الأعشي بالنابغة إلا أنه غلا في ذلك إذ جعله مجترا وقد عرضنا لهذه المسألة من قبل.

إليك أمين الله مالت قلوبنا بإخلاص نزاع إليك هيام
نصلي وإتمام الصلاة اعتقادنا بأنك عند الله خير إمام

وكأن قد خشي أبو عبادة أن ينسب في هذا الى كذب ونفاق فقال :

حلفت بمـن أدعـــوه ربــا ومن لـــه   صـــلاتي ونسكي خـالصـا وصيـامي

وهنا نفس قرآني وانظر آخر الأنعام : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي " الآية

لقــد حطت دين اللــه خير حياطــة   وقمت بـأمـــر اللـــه خير قيـــام

يشير بهذا الى أخـذ المتوكل بقـول أهل السنـة و إبطـاله مـا كـان عليه مـن قبله الـواثق والمعتصم والمأمون من حمل النـاس على القول بخلق القرآن ــ فيحمل قولـه«بأنك عند الله خير إمام» على هذا الوجه والله تعالي أعلم .

فصل فيما يقع من تشابه أشكال القصائد

كان حق هذا الفصل أن يـذكر مع التوطئة التى جعلناهـا للحديث عن العنصر الرابع من عناصر وحـدة القصيدة وهو الذي سمينـاه بنفس الشاعر بتحريك النـون والفاء . ولعله لا بأس بذكـره في هذا الوضع استدراكا لما فات ثم فيها تقـدم أمثلة كثيرة مما نأمل أن يكون أعون على توضيح مرادنا في هذا الباب .

أشرنا في أول حديثنا عن المطالع والمقـاطع الى ما تقدم من معالجة لبعض ذلك في الجزء الثالث حيث استشهدنا في البـاب الرابع منه بقول النابغة «يا دار مية بـالعلياء فالسند» ومطالع تشبهـه . وقد ذكـرنا في الجزء الثـالث أيضا أمثلة أخـري مما تتشـابه فيـه طرائق الشعراء نحو:

صحـا القلب عن سلمي وأقصر باطلـه
صحـا القلب عن سلمي ومل العـواذل
إن الخليط أجـــد البين فـــانفـــرقـــا
بـــان الخليـط ولم يأووا لمن تـــركـــوا
بـانـت سعـاد فأمسى القلـب معمـودا

ونحو المرأة المغاضبة كما عند الجميح في قوله :

أمست أمـامـة صمتـا مـا تكلمنـا

وقصيدتي عبيد بن الأبرص وأبيات القرشي التي منها قوله :

سالتـــاني الطـــلاق إذ رأتـــانى   قل مـــالي قـــد جئتماني بنكـــر

أو تسألاني كما جاء في النص الذي أوردناه أي تسألانني وحذف النون لغة وعليه قراءة نافع في بعض ما قرأ به و رواية الكتاب في باب الهمز "سالتاني" ونبه على أنه من تخفيف الهمزة وهي لغة قريش لا على لغة من قال سال يسال كخاف يخاف قال رحمه الله "وبلغنا أن سلت (١) تسال لغة" وفي خبر ابن هرمة أنه لما قيل له إن قريشا لا تهمز قال إنه يجيء بقصيدة كلها على الهمز وذلك قوله :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها

فهذا يلحق بما تقدم ذكره من صناعة ابن هرمة وبديعه وأن البديع والصناعة ديدن في العربية قديم لا من حيث وقوع ذلك على قلة وعفوا فحسب ولكن من حيث العمد والقصد إليه أيضا .

وننبه هنا كما نبهنا من قبل على أن سامعي الشعر القديم على زمانه وعلى أزمان قرون الإسلام الأولى كانوا يعلمون كثيرا مما نجهله نحن علم قلب جليا لا يحتاج الى بسط وتفسير فكان بيان مغامض اللفظ والمعني أكثر ما يهتمون به ثم بعد ذلك لا يخفي عليهم مذهب الوحدة والجودة في أغراضه ومقاصده وألوان إيحائه ودلالات موسيقاه ورنات لفظه وطبيعة أسره وأنواع الديباجة وما يلحق بذلك مما يوصف بأنه ماء الشعر ورونقه .

على أننا قد بقيت فينا بقية من ذلك العلم القلبي فعلينا ألا نضيعها . بعض هذه البقية في الدارجة الأصيلة التي لم تفسدها بعد شوائب أجهزة الإعلام ــ وإن شئت فقل الإجهال العصري ، التى مما تدخل بتلفيقاتها ودخيلها أصنافا من اللين والهجنةعلى أصالتها ومتانة أسرها . وسائر هذه البقية في القرآن وعلوم العربية وميراث آدابها .

واعلم أيها القارىء الكريم أصلحك الله أن القصائد السبع الطوال المعلقات وملحقاتها الثلاث اللاتى يكملنها عشرا قد ضمن أهم أصول أشكال القصيد العربي والفروع الكبر المتفرعة عنهن وسائر الشعر بعد ذلك يمكن رده الى هذه وقد سبقت منا الإشارة الى ذلك ، ونقصد ههنا الى بعض التفصيل .

في السبع شكلان كل منهما أصل ، "قفا نبك" وقد أجمعوا على تقديمها وعلى أن الشعراء تأثروا مذهب صاحبها في كثير مما نظموه ، وكلمتا عمرو بن كلثوم والحارث اليشكري . وقد قيل في كلمة عمرو بن كلثوم :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم

---

(١) بكسر السين من سلت بوزن خفت وليست لغة قريش .

وقيل في همزية الحارث إنـه ارتجلها وأنشدها الملك وبينه وبين الملـك سبعة ستر إذ كان أبرص يكره دنوه، فطرب له حتى أزال الحجب كلها وأجلسه معه في سريره. والخبر كأنه أسطوري المبـالغة. وما أشك بعـد أن له أصلا لاتفاق الـرواية عليه. وكلتـا القصيدتين شكل واحد عند التأمل.

وفي العشر شكل واحد أصل وهو في قصيدة النابغة:

يـا دار ميـــة بـالعليـاء فـــالسنـد

وقصيدة الأعشى:

ودع هـــريـــرة إن الـــركب مـــرتحل

وقصيـدة عبيـد شكلها مـن قرى شكل "قفـا نبك" كما ذكـرنـا من قبل ولكن غـرابـة وزنها، وصاحبها شاعر فحل، مما حث على روايتها كما رويت ميمية المرقش:

هل بـــالـــديـــار أن تجيـب صمم

وكما اختيرت كلمة سلمى بن ربيعة

إن شواء ونشوة   وخبب البازل الأمون

وقد سبق الحديث عن هـذا الجانب في معرض الحديث عن الأوزان في الجزء الأول وفي هذا الجزء أيضا

قفا نبك، مخصرة الشكل. نقول هذا على وجه التشبيه. وذلك أن لها وسطا كأنه في مجاله ضيق وهو يفصل بين جزئها الأعلى وهو أولها وجـزئها الأسفل وهو آخرها. وهذا الجزء الأوسط يذهب مذهب التأمـل والتفكر والحكمة، وما قبله ذكـريات ووصف وأشجان فؤاد وكذلك ما بعده وهو قوله.

وليل كمـوج البحـر أرخى سـدولـه   على بـأنـــواع الهمـــوم ليبتلي
فقلـت لـــه لما تمطى بصلبـــه   وأردف أعجـــازا ونـــاء بكلكـل
ألا أيها الليـل الطـــويل الا انجـل   بصبح ومـــا الإصبـــاح منك بـأمثل

فيـــالك مـن ليل كأن نجـــومـــه بكل مغـــار الفتـل شــدت بيــذبل
كأن الثـــريـــا علقـت في مصـــامهـــا بأمـــراس كتـــان الى صم جنـــدل
وقـــربـــة أقـــوام جعلت عصـــامهـــا على كـــاهل مني ذلـــول مـــرحل
وواد كجـــوف العير قفـــر قطعتـــه بـــه الـــذئب يعـوى كـــالخليع المعيل
فقلت لـــــه لما عـــوى إن شـأننـــا قليـــل الغنـــى إن كنـــت لما تمول
كـــلانـــا إذا مـــا نـــال شيئـــا أفـــاتـــه ومن يحترث حـــرثـي وحـــرثك يهزل

وكقفا نبك كلمة علقمة الميمية وخصرها قوله :

بل كـل قـــوم وإن عـــزوا وان كثـــروا عـــريفهم بـأثـــافي الشر مـــرجـــوم
والحمـــــد لا يشترى إلا لـــــه ثمـن ممـــا يضن بـــه الأقـــوام معلـــوم
والجود نـــــافيـــــة للمال مهلكـــة والبخل بـــاق لأهليـــه ومـــذمـــوم
والمال صـــوف قـــرار يلعبـــون بـــه على نقـــادتـــه واف ومجلـــوم
ومطعم الغنـم يـــوم الغنـم مطعمـــه أنى تـــوجـــه والمحـــروم محروم
والجهل ذو عـــرض لا يستراد لـــه والحلم آونـــة في النـــاس معـــدوم
ومن تعـرض للغـربـــان يـزجـرهـــا على ســـلامتـــه لابـــد مشئـــوم
وكل حصن وان طـــالت ســـلامتـــه على دعـــائمـــه لابـــد مهـــدوم

وما قبل هـذا صبابـات وصفات وما بعـده صفات وصبـابات وامـرؤ القيس أحذق إذ احتفظ بلـون من الوصف وجعل الحكمـة تأملا . وذهب علقمـة مذهب المثل فبـدت أبيات الحكمة لغير من يتأملها كا لمقحمة ، وليس كذلك إذ النعامة وظليمها تصوير لما تمناه من ناجية تلحقه بما فارقه من نعيم وهو الأترجة وما الأترجة رمز له ، ولذلك صح له من بعد أن يقول .

قـــد أشهـــد الشرب فيهم مـــزهـــر رنم والقـــوم تصرعهم صهبـــاء خـــرطـــوم

وتخصير بائية عبيد بن الأبرص قوله :

فكـل ذي نعمـــــة مخلـــوسهـــــا وكـل ذي أمـل مكـــــــــــذوب
وكـــل ذي إبـل مـــــــــــوروث وكـل ذي سلـب مسلـــــــــوب
وكـل ذي غيبـــــة يئـــــوب وغـــــائب الموت لا يئـــــوب
أعـــــاقـــــر مثـل ذات رحـم أو غـــــــانـم مثـل مـن يخيـب

من يسأل الناس يحرموه — وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير — والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك — علام ما أخفت القلوب
أفلح بما شئت فقد — يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب
لايعظ الناس من لم يعـ — ـظ الدهر ولا ينفع التلبيب
إلا سجيات ما القلوب — وكم يصيرن شانئا حبيب
ساعد بأرض إن كنت فيها — ولا تقل إنني غريب
قد يوصل النازح النائي وقد — يقطع ذو السهمة القريب
والمرء ما عاش في تكذيب — طول الحياة له تعذيب

فهذا تخصير بطين إذ عدد الأبيات قبله مثله وهو في ذكر الدار وصبابات الحنين غير أن عبيدا من حذقه ضمنه من معاني الأسى والحكمة والعظة التي في هذه الأبيات وما بعد ذكريات وأوصاف ولكن مطل عليها شبح الأسى وطيف الموت. وقد انتهت القصيدة بمصرع الثعلب لا نجاته ولكنه شبه فرسه بالعقاب. فهل كنى بالثعلب عن امرىء القيس وحجر وملك آل الحارث الكندي؟

وبانت سعاد، سيدة المدائح النبوية، مخصرة بأبيات الحكمة والتأمل إذ قال:

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم — إنك يا بن أبي سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله — لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكمو — فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته — يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدني — والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا — والعذر عند رسول الله مقبول

وما قبل هذه الأبيات نسيب ورحلة وصفات وما بعدها مدح مداخله وصف وفخامة تشبيه وبسط حجة.

وقد حاكى كعب منهج أبيه في كلمته:

إن الخليط أجد البين فانفرقا — وعلق القلب من أسماء ما علقا

وقد ذهب زهير بخصر هذه القصيدة مرة واحدة كما لو أسبغ عليها ثوب الذي قال، من شعراء الغزل:

أبت الـــروادف والثـــدي لقمصهـــا	مــس البطـــــون وأن تمس ظهـــــورا
وإذا الـــريـــاح مع العشي تنـــاوحت	نبهن حـــاســـدة وهجن غيـــورا

وانما ذهب بخصر هـذا الشكل مـذهبـه في الاقتضـاب، فكأن ذلك منـه مبـالغـة في التخصير. وقصيدة طرفة المعلقة ذات تخصير ولكن فيها غضبة الشاب ونخوته وحماسته فمن أجل ذلك جاء فيها بصفة الرحلة والنـاقة، وذلك أن خولة ظعنت فهو يتسلى عن بينها بالسفر:

وإني لأمضي الهم عنـــد احتضـــاره	بعـــوجـــاء مـــرقـــال تـــروح وتغتـــدى

ولا يخبرنا طرفة أنه يريد بينا عنهـا كما بانت منه، ولا أنه يريد لحاقا. ولكن في فؤاده هما لا يعلم وجه تسل منه غير هذه العوجاء المرقال. وهي ناقته الفتية مثله. حتى سفره لا ترى له غاية. وإنما هو قلق ورواح واغتداء.

أحلت عليهـــا بـــالقطيع فأجـــذمت	وقـــد خـب آل الأمعـــز المتـــوقـــد

ولكن الى أين؟

مكان التخصير في هذه الداليـة التي لم ير لبيد شيئا يفوق شعره مـن الشعر بعد امرىء القيس غيرها هو قوله:

ومـــا زال تشرابي الخمـــور ولـــذتي	وبيعى وإنفـــاقـى طـــريفى ومتلـــدي
الى أن تحامتنـي العشيرة كلهـــــا	وأفـــــردت إفـــراد البعير المعبـــد
رأيـت بنـي غبراء لا ينكـــــرونني	ولا أهل هـــاذاك الطـــراف الممـــدد
ألا أيهذا الـــلائمي أحضر الـــوغي	وأن أشهـــد اللـــذات هل أنت مخلـــدي
فـــإن كنـــت لا تسطيـع دفـع منيتـي	فـــدعني أبـــادرهـــا بما ملكت يـــدي
ولـــولا ثـــلاث هن من عيشـــة الفتى	وجـــدك لم أحفـــل متى قـــام عـــودي
فمنهن سبقـى العـــاذلات بشربـــة	كميت متى مـــا تعل بـــالماء تـــزبـــد
وكـــرى إذا نـــادى المضـــاف محنبـــا	كسيـــد الغضـى نبهتـــه المتـــورد
وتقصير يـوم الـدجن والـدجن معجب	ببهكنـــة تحت الطـــراف المعمـــد
كأن البريـن والـــدمـــاليـج علقت	على عشر أو خـــــروع لم يخضـــد

من هنا أخذ الأعشى قوله:

تسمع للحلي وســـواســـا إذا انصرفت	كما استعـــــان بـــريـح عشرق زجل

فجعله انصرافا وعند طرفة هو إقبال أو إقبال وانصراف حملا على قوله تروح وتغتدى ويجوز ويهتدى وتناول أطراف البرير وترتدى.

كريم يروى نفسه في حياته ستعلم ان متنا غدا اينا الصدى
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكا لطول المرخي وثنياه باليد

ثم رجع إلى معنى اللوم وهو من الهم الذي أثاره مع بين خولة وما خولة كناية عنه ثم استمر في القصيدة. وهذه الأبيات تأمل وحكمة منفعلة ومداخلها معنى ما كان فيه من غضب الشباب ونخوته ونشوته وشيء من وصف الفتاة التي فيها كشبابه وحيوية حركته: غزالة تنفض المرد، قلوص تروح وتغتدى وتذيل، وشجرة لأغصانها حفيف، أراكة ذات برير، عشر وخروع لم يخضد.

هذه الأبيات الستة عشر فاصل واصل بين ما تقدم من وصف ونسيب وما خلا من نغمة فخر ونظرة تأمل وروح حكمة وفيه بعد حرارة العاطفة حتى في نعت الناقة الدقيق. كما فيه هذا الوصف الحي لمجلس الطرب وقينته:

ندامای بیض کالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد

ومن وصف طرفة ولد الأعشى هريرته ومجلس شرابه فتأمل ــ وبين ما تلا من عراك وخصومة وشكوى ولوم مر واعتزاز بالنفس وافتخار وحكمة تتخلل ذلك وتداخله، ومن مشهور قوله في الملامة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وأحسب أن مقالة الجاحظ المشهورة التي أولها: «ليس جهد البلاء مد الأعناق وانتظار وقع السيف» ولدها من قول طرفة هذا وهي له كالشرح.

ومن مشهور فخره:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

ومن مشهور المثل السائر قوله في آخر القصيدة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تمثل ببعضه .
وفي هذا القسم الثاني من القصيدة وصف عقره ناقة شيخه العزيزة الكوماء ليشتوي منها أصحابه ومجلس شرابه . وقد ترى امرأ القيس عقر مطيته لفتيات يوم دارة جلجل ، فأغناه ذلك عن نعت الرحلة وعن نعت الناقة أيضا وأتاح له وصف الغبيط ومغامرته .
وقد جاء بوصف لهو الصيد وقديره وشواء في آخر القصيدة يقابل به ما تقدم به في أولها من فعله وفعل الفتيات إذ «يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل . »
والكهاة ذات الخيف الجلالة التي ذكرها طرفة في آخر قصيدته مقابلة للعوجاء المرقال التي في أولها . وقد أعلمنا أن الكهاة التي عقرها ليست له ولكنها :

عقيلة شيخ كالوبيل يلندد

ولعل العوجاء المرقال التي راح بها واغتدى هي أيضاً ليست له . وصحاب الميسر في آخر قصيده ، في مقابلة مجلس الندامي الذي مر قبل التخصير.
شكل قصيدة طرفة هو هكذا في جملته والتحوير الذي افتن به لاءم به أغراضه وروح انفعاله ونفس بيانه .
ومعلقة زهير نمط عزيز. وليس بنمط أصل في المدح ، إذ النمط القديم هو بائية علقمة :ـ

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

هي أقدم من :ـ

يا دار مية بالعلياء فالسند

ولكنهم لم يذكروا علقمة في أصحاب المعلقات وإن عد من الفحول وأصحاب السموط . ولو قد كانت بائيته هذه في السبع أو العشر الطوال ما عدونا النص عليها أن شكلها هي هو الأصل مكان ما ذكرنا به كلمتى النابغة والأعشى . لعلهم لم يذكروا علقمة في أصحاب المعلقات لكيلا يضاهوا به امرأ القيس . وإنما ذكروا عبيدا لغرابة وزن قصيدته واشتهارها .

أما قولنا إن معلقة زهير نمط عزيز، فإن بيانها ومعانيها وانسانيتها كل ذلك في الذروة ، ثم ، وهو مقصدنا ههنا ، في شكلها افتنان عظيم جدا . حذف الرحلة .

وأضرب عن ذكر الناقة المعتملة. وجاء بإبل الظعائن وإبل العقل والمفاداة، وكل ذلك جمال منظر ومخبر، لدلالته على السخاء والمعروف والسلم، ثم أشار بالناقة المعقورة الى شؤم الحرب، وهي ناقة ثمود، وبالرحى الى ما توقعه من أضرار. وإذ جعل الإبل جمالا وسلاما لم يجيء بذكرها تصريحا في الدلالة على قبح الحرب وشرورها ولكن اكتفى بالتلميح، فلم يذكر ناقة ثمود نفسها ولكن عاقرها:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وقد شبه الحرب في اللقاح والنتاج بالإبل ولكنه أسند الفعل إليها وجعلها من البشر إذ نتجها غلمانا وإنما تنتج الإبل السقاب. وما يخلو زهير إذ أضرب عن صفة الناقة المعتملة وأشار بها أشار به الى العقر من نظر خفي الى قول امرىء القيس:

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فواعجبا من كورها المتحمل

من حيث إنه احتيال بياني.

وقد كان مكان الحكمة، لو اتبع زهير شكل التخصير (كما سميناه وإنما هو اسم على التشبيه ولا مشاحة في الأسماء كما قال قدامة) بعد قوله

ظهرن من السوبان ثم جزعنه على كل قيني قشيب ومفأم

وإذا لكان قال بعده

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

الى قوله:

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وان الفتى بعد السفاهة يحلم

وكان قوله:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

يجيء بعد قوله:

فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه صحيحات مال طالعات بمخرم
لحي حلال يعصم الناس أمرهم إذا طرقت إحدى الليالى بمعظم
كرام فلا ذو الضغن يدرك تبله ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم

ولكن زهيرا تصرف في الشكل المخصر، فجعل تخصيره تذييلا، وجاء بأبيات الحكمة آخر شيء، وقوله "سألنا فأعطيتم البيت" في رواية من رواه، وقد مر حديثنا عن ذلك، مقطع للقصيدة حسن.

وهذا الذي نقول به من جعل زهير التخصير تذييلا وتصرفه الذي تصرفه لا نبنيه على محض التخمين، ولكن لدينا ما يشهد بأن مثل هذا الصنيع والتصرف جائز. انظر قصيدتى ربيعة بن مقروم الضبي الثامنة والتاسعة والثلاثين في ترتيب المفضليات.

أمن آل هند عرفت الرسوما ... بجمران قفرا أبت أن تريما

و:

ألا صرمت مودتك الرواع ... وجد البين منها والوداع

وشعر ربيعة هذا ناصع واضح جميل.

الميمية مخصرة لاريب فيها وهي خمسة وأربعون بيتا في رواية المفضليات والتخصير فيها بعد نهاية وصف الآتن وفحلها إذ رماها الصائد فأخطأ ونجت بأحث ما تقدر عليه من النجاء، وذلك قوله:

وإن تسأليني فإني امرؤ ... أهين اللئيم وأحبو الكريما

وأبني المعالي بالمكرمات ... وأرضى الخليل وأروي النديما

ويحمد بذلي له معتف ... إذا ذم من يعتفيه اللئيما

وأجزى القروض وفاء بها ... ببؤسى بئيسى ونعمى نعيما

فهذا ظاهره فخر وباطنه حكمة إذ هذا الذي ذكره كله من الفضائل، وكانوا يتمدحون بسباء الخمر وإرواء الندامى، ويجوز أن يكون الإرواء بغير الخمر كاللبن والعسل والوجه أن يؤخذ هذا الكلام على عمومه فلا يخص به شراب دون شراب إلا أنه في الخمر أظهر.

ثم أقبل ربيعة على مآثر قومه وصفة الشجاعة والسلاح وذكر أيام قومه أو كما قال:

ولكن أذكر آلاءنا ... حديثا وما كان منا قديما

ودار هوان أنفنا المقام ... بها فحللنا محلا كريما

إذا كان بعضهم للهوان ... خليط صفاء وأما رؤوما

تأمل جودة هذا البيت ونقاءه:

وثغر مخوف أقمنا به ... يهاب به غيرنا أن يقيما

جعلنا السيوف به والرماح ... معاقلنا والحديد النظيما

يعني الدروع لأن حديدها منظوم نظما:-

وجردا يقربن دون العيال ... خلال البيوت يلكن الشكيما

تعـــــود في الحرب أن لا بـــــراح إذا كلمت لا تشكـي الكلـــومـــا

وهذا الفخـر الذي فخـر به لقومـه، مع ما فيه من ذكـر الفضائل ، ليس لـه دخول في الحكمة كـدخول الابيات الأربعة التخصيريـة التي مرت ، ومن أدلة هذا الـذي نذهب اليه قوله :

اذا كـــان بعضهـم للهـــوان خليط صفـــاء وأمـــا رؤومـــا

فهذا تعريض والتعريض ألصق بالفخـر منه بالحكمة . وإن يك نفس الحكمة من كل ذلك قد يستفاد : .

العينية مـذيلة . قسمهـا الأول كمثل قسم الميمية الأوسط الـذي هو تخصيرهـا من عند البيت الرابع الى الثامن ، خمسة أبيات ، هو قوله :

فقـــد أصل الخليل و إن نـــآني وغب عـــداوتي كـــلأ جـــداع

أي وبيء :

وأحفظ بـــالمغيبـــة أمـــر قـــومي فـــلا يســـدي لـــدي ولا يضـــاع

ويسعـــــــد بي الضريـك اذا اعتراني ويكـــره جـــانبي البطـل الشجـــاع

ويـأبى الـــــذم لي أني كـــــريـم وأن محلي القبـل اليفـــــــاع

وأني في بنـى بكـــــر بـن سعـــــد اذا تمت زوافـــــرهم أطـــــاع

فهذا مما ظاهره فخر وباطنه الحكمة وهو من سنخ ما قاله في الميمية ، وقبل هذه الأبيات ثلاثة هن في معنى ما وطأ به لتخصير ميميته من المخاطبة والمساءلة حيث قال :

وإن تسـأليني فـإني امـــــرؤ أهين اللئيم وأحبـــو الكـــريما

ثم الأبيات الثلاثة من بعد، وهنا يقول :

ألا صرمت مـودتـك الـرواع وجـد البين منهـــا والـــوداع

وهذا هو المطلع ثم المساءلة والجواب في قوله :

وقـــــالت إنـــــه شيخ كبير فلج بها ـــــ ولم تـــرع ـــــ امتنـــاع

فإمـــــا أمس قـــــد راجعـت حلمي ولاح علي مـن شيـب قنـــــــاع

فقـــــد أصل الخليـل و إن نـــــآني وغب عـــــداوتي كـــــلأ جـــــداع

فهذا في معنى وإن تسأليني .

ولو قد لزم ترتيب شكل المخصرة لكان قوله :

وملمـــوم جـــوانبهـــا رداح تـزجـي بـالـرمـاح لها شعـاع

بعد قوله : «وقالت إنه شيخ كبير » وهو البيت الثاني ويجري الكلام مجرى المخاطبة الذي في ميمية عنترة وعينية الحادرة ويأتي التخصير من عند قوله «فإما أمس قد راجعت حلمي» الى«وأني في بني بكر بن سعد» ثم يجيء القسم الثاني من قوله : «وماء آجن» الى آخر القصيدة . وانما نزعم أن هذا قسم ثان من شكل أصله تخصيري لما فيه من الرجعة الى ذكرى الشباب . فهو بمنزلة .

وقد أغتدى والطير في وكناتها

وبمنزلة :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم

وهاتان شكلهما أصل كما تقدم .

فإن صح هذا الذي نراه من تصرف ربيعة بن مقروم ، فاجعل لزهير تصرفا شبيها به ، ولا ريب ان جودة الشكل قد زيدت زيادة بينة بهذا التصرف . إذ موقع الحكمة في آخر معلقة زهير رائع . وموقع الفخر الحكيم في أول عينية ربيعة أيضا قوي رائع نبيل .

ومن القصائد المخصرات تخصيرا شديد الضمور لامية عبدة بن الطبيب :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول

وهي طويلة من نيف وثمانين بيتا وتخصيرها أبيات عشرة هن قوله ، وذلك من البيت التاسع بعد أربعين الى السادس والخمسين .

لما وردنا رفعنا ظل أردية ... وفار باللحم للقوم المراجيل

وردا وأشقر لم ينهئه طابخه ... ما غير الغلي منه فهو مأكول

ثمت قمنا الى جرد مسومة ... أعرافهن لأيدينا مناديل

ثم ارتحلنا على عيس مخدمة ... يزجي رواكعها مرن وتنعيل

يدلحن بالماء في وفر مخربة ... منها حقائب ركبان ومعدول

الوفر بضم الواو وسكون الفاء جمع وفراء وهي قربة الماء . مخربة لها خرب جمع خربة وهي أذن القربة ، كأنهم شبهوها بالآذان التي تكون فيها ثقوب الأقراط قال ذو الرمة :

كأنه حبشي يقتفى أثرا ... أو من معاشر في آذانها الخرب

يعني الحبش والسودان إذ كانوا يثقبون آذانهم .

نرجو فواضل رب سيبه حسن ... وكل خير لديه فهو مقبول

رب حبانا بأموال مخولة ... وكل شيء حباه الله تخويل

والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

والأبيات الأوائل من هذه في وصف السير ، ولكنه سير الى الجهاد فاتصالها بما صار إليه من معنى الحكمة والتحامها به جاعلها جزءا لا ينفصل عنه فتأمل . هذا ومن باب

التصرف أن يجتزيء الشاعر ببعض الشكل، فيعلم سامعوه أنها هذا حذو قصيدة كذا من عند قول شاعرها كذا. مثلا كلمة عمرو بن الأهتم:

ألا طرقت أسماء وهي طروق   وزارت على أن الخيال يشوق

يوشك أن يكون حذاها على بعض دالية طرفة، ولا سيما قوله:

وقمت الى البرك الهواجد فاتقت   مقاحيد كوم كالمجادل روق

البرك جماعة الإبل. مقاحيد كوم عظام الأسنمة. المجادل القصور. روق: خيار

بأدماء مرباع النتاج كأنها   إذا عرضت دون العشار فنيق

أي وقت نفسها منه بهذه الادماء أي البيضاء الكريمة التي كأنها فحل لا أنثى من عظمها ـ الفنيق الفحل. اي كانت هذه أول ما واجهه من الإبل فعقرها ونحرها لضيوفه جازراه.

بضربة ساق أو بنجلاء ثرة   لها من أمام المنكبين فتيق
وقام إليها الجازران فأوفدا   يطيران عنها الجلد وهي تفوق
فجر إلينا ضرعها وسنامها   وأزهر يحبو للقيام عتيق
بقير جلا بالسيف عنه غشاءه   أخ باخاء الصالحين رفيق
فبات لنا منها وللضيف موهنا   شواء سمين زاهق وغبوق

كانوا يستحسنون الضرع وروي كبدها وسنامها والأزهر ولدها الذي في بطنها، عتيق أي كريم، أخ يعني نفسه لكرمه ونحره هذه النفيسة وما في بطنها، وفسر بعضهم الأزهر بالدن وجعله يحبو لامتلائه ويجوز هذا التفسير على بعد، لأن السياق ونموذج طرفة المحذو عليه هذا القول يقتضي المعنى السابق.

وبات له دون الصبا وهي قرة   لحاف ومصقول الكساء رفيق

أي لحاف يرقد عليه وكساء يتدثر به.

وكل كريم يتقي الذم بالقري   وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تضيق
نمتني عروق من زرارة في العلى   ومن فدكي والأشد عروق
مكارم يجعلن الفتى في أرومة   يفاع وبعض الوالدين دقيق

أرومة بضم الهمزة وفتحها والضم لغة الشاعر
فهذا من مقال عمرو بن الأهتم إنما حذاه على قول طرفة

وبـرك هجـود قـد أثـارت مخافتي ... بـــواديها أمشى بعضـب مجرد

من عند هذا البيت الى آخر القصيدة. وقد عذلـت عمرو بن الأهتم امرأته وعذل طرفة عمه.

وخلص طرفـة من قولـه الذي بدأ بـه الى الفخر والحكمـة وكذلك صنع عمـرو وميمية المخبل:

ذكـر الـربـاب وذكـرهـا سقم ... فصبـــا وليس لمن صبـــا حلم

مما جعل تخصيره تذييلا. ذلك بأن النسيب ينتهي بعد وصفه الدار ونعته الرباب بأنها

بـــــرديـــــة سبق النعيم بها ... أقــــرانها وغـــــلا بها عظـم
وتـــريك وجهـــا كـــالصحيفـــة لا ... ظمآن مختلـــــج ولا جهـــــم
كعقيلـــــة الـــدر استضــــاء بها ... محراب عـــرش عظيمهـــا العجم
أغلي بها ثمنــــا وجـــــاء بها ... شخـت العظـــام كأنـــه سهـم
بلبـــانـــه زيـت وأخـــرجهـــا ... من ذي غـــوارب وسطـــه اللخـم

وأنها كبيضة الدعص

وتضـل مـــدراهـــا المواشـط في ... جعـــد أغم كـأنـــه كـــرم
هـــلا تسلي حـــاجـــة علقت ... علق القـــرينـــة حبلهـــاجـــذم

فدلك على أنه قـد تقطعت أسبابها أو يخشى أن تتقطع فهو يتوسل إليها تـوسلا مخالطه يأس ـ وههنا محل التخصير، من حكمة وما أشبه مما تداخله الحكمة أو ينبىء عنها. ثم يجيء ذكر الدهر الذي مضى وكـان أسعد وأرفه، وصحة النفس والوصل والعيش كل ذلك فيه أتم:

ومعبـــد قلق المجـــاز كبـــا ... ري الصنـــاع إكـــامـــه درم
للقـــاربـــات من القطـــا نقـــر ... في حـــافتيـــه كأنها الـــرقم
عـــارضتـــه ملث الظـــلام بمـــذ ... عـــان العشي كـأنها قـــرم

أي كأنها فحل ــ وقلما تذكـر الشعراء غير النـاقـة إلا أن منهم من ذكر البعير كـالمنخل

وكربيعة ابن مقروم في العينية التي مر ذكرها قبل وهو قوله:

وماء آجن الجمات قفر تعقم في جوانبه السباع
وردت وقد تهورت الثريا وتحت وليتي وهم وساع
جلال مائر الضبعين يخدى على يسرات ملزوز سراع

غير أن المخبل وصل تذكره الماضي بما كان من نسيبه ونعته وجعل الحكمة ذيلا وتبع في ذلك مذهب زهير وقد شهد المخبل الإسلام فهو من المخضرمين فهذا زعمنا أنه حاكي زهيرا وأبيات حكمته هن قوله:

وتقول عاذلتي وليس لها بغد ولا ما بعده علم

فهذا فيه أنفاس صلة بقوله «هلا تسلى حاجة علقت». ومما يجعلون المحبوبة سائلة وعاذلة وهازئة وقد مرت من ذلك أمثلة:

إن الثراء هو الخلود وإ ن المرء يكرب يومه العدم
إني وجدك ما تخلدني مائة يطير عفاؤها أدم

والمائة من الإبل مال دثر. عفاؤها وبرها وكنى بقوله يطير عفاؤها عن سمنها.

ولئن بنيت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم
لتنقبن عنى المنية إن الله ليس كحكمه حكم
إني وجدت الأمر أرشده تقوى الإله وشره الإثم

وآخر هذه القصيدة فيه روح من الإسلام مع الحكمة التي ترى.
وكلمة الأسود بن يعفر الدالية المليحة:

نام الخلي وما أحس رقادي والهم محتضر لدي وسادي

تحذو حذو معلقة امرىء القيس، ولكن من عند ذكر الليل الى آخر القصيدة، وهذا من الأسود بن يعفر حذق عظيم، إذ قد فقد بصره فهو في ليل، ومع الليل الهم والأحزان وطلب العزاء. وقد جعل أول قصيدته كله لذلك. ثم أردفه ذكر ملذات مضت وختم بالحصان ونشوة الرحلة. وكأن بعضهم لم ترضه هذه النهاية فجعل آخر القصيدة قوله:

فإذا وذلك لامهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

ولعل الأسود قاله ثم أضرب عنه والشعراء مما يفعلون ذلك، والقصيدة بدونه أجود وأتم إذ هو لا يعدو أن يكون صوتا أجوف، وقد سبق ما هو أعمق منه وأوقع.

أما القسم المنبىء عن الهم والليل فقوله بعد البيت الأول:

من غير ما سقم ولكن شفني ... هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبا لك أنني ... ضربت على الأرض بالأسداد

فهذا مع الهم وبعده حزن

لا أهتدي فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبين أرض مراد

ثم غلبه الحزن فأخذ في ذكر الموت على الطريقة القبرية الكفنية التي عند الممزق، ذرء منها:

ولقد علمت سوى الذي نبأتني ... أن السبيل سبيل ذي الأعواد
إن المنية والحتوف كلاهما ... يوفي المخارم يرقبان سوادي
لن يرضيا مني وفاء رهينة ... من دون نفسي طارفي وتلادي

ثم أخذ في التأسي:

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد

لا يعني بآل محرق ملوك الحيرة ولكن ملوكا من غسان

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرضا تخيرها لـدار أبيهم ... كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطواد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوما يصير الى بلى ونفاد

أهل الخورنق إلخ عنى بهم إيادا، والخورنق موضع، والسدير النخل، وسنداد بكسر السين وروى فتحها نهر، وكل هذه مواضع، وأنقرة من بلاد الشام لايعني بلدة الأناضول الرومية وكعب بن مامة صاحب الكرم المشهور، وابن أم دؤاد هو أبو دؤاد الشاعر، كلاهما من إياد ـ ثم مضى يتأسى :ـ

في آل غـرف لــو بغيت لي الأسى　　　لــوجـدت فيهـم أسـوة العــداد

آل غرف من قومه بني تميم قيل هو زيد مناة نفسه وقيل أحد ابناء ابنائه فمن قال ذلك جعل زيدا المذكور في البيت التـالي من هذه السلالة وإلا فهو زيـد مناة ـ الأسى بضم الهمزة وكسرها جمع أسوة بضمها وكسرها وهي مـا يتأسى به وما يقتدى به وقرىء بكسر الهمزة وضمهـا في القرآن والعـداد بضم العين وفتحها فالضـم جمع والفتح مفرد أي من يعد ما يتأسى به

مــا بعـد زيــد في فتــاة فـرقــوا　　　قتــلا وأسرا بعــد حسن تــآدي

أي فرقـوا بسبب فتاة أبوا تزويجهـا كما أراد المنذر بن ماء السماء فغزاهم وفـرقهم والتآدي حسن الحال

فتخيروا الأرض الفضـاء لعــزهم　　　ويــزيـد رافـدهم على الـرفــاد

أي وكـانـوا قد تخيروا الأرض الفضـاء قبل أن يقع بهم هـذا الخطب فهـذا آخـر التأسي ويقابله في النموذج الذي حذا على مثاله وهو«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» قوله:

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته

في رواية من روى أبيـات الذئب لامرىء القيس وهـو الذي عليه الرواة غير مـا طعن به الأصمعي ومن لم يروها فإنه يقابله منه قوله:

ألا أيها الليل الطويل ألاا نجل

وما يلحق به من ذكر الأمراس والثريا.

وبعد هذا ذكر الشباب وما تصرم من سعادة العيش ولذاته من عند قوله: «وقد أغتدي والطير في وكنـاتها»الى وصف الخيل والصيـد وشيـم البرق والصـوار والسيل الى آخــر القصيدة ـ وكذلك هاهنا أخذ الأسـود بن يعفر في ذكر لذات الماضي اللاتي قد انقضين يحزن بذلك ويتسلى معا، وهو من عند قوله:

إمــا تــريني قــد كبرت وغــاضني　　　مــانيل مـن بصري ومن أجــلادى

وعصيت أصحـاب الصبـابـة والصبـا　　　وأطعـت عـــاذلتـي ولان قيـــادى

فلقــد أروح الى التجــار مــرجــلاً　　　مـــذلا بمالي لينـــا أجيـــادي

ثم يمضى في الذكريات. وقوله مرجلا عنى به شبابه إذ سواد الشعر ووفوره إنما يكون في

ميعة الشباب ويعجبني قوله «لينا أجيادي » إذ يبس العنق وتغضنه من شواهد تقدم السن. وجعله أجياداً لترائيه به، يريه من جميع جوانبه وما حوله مما هو به مزدان.

ولقد لهوت وللشباب لذاذة بسلافة مزجت بماء غوادي
من خمر ذى نطف أغن منطق وافى بها لدراهم الإسجاد

قالوا في الإسجاد أقوالا وأدناها أي ليكسب دراهم موسمه. قالوا كانت على الدراهم صور يكفرون لها ويسجدون وهي دراهم الأكاسرة وهذا تفسير الأصمعي. وقالوا الإسجاد عنى به النصارى، أسجدتهم جزيتهم، وإنما يصح هذا المعنى إن كانوا يدفعون جزية للفرس أو لملوك الحيرة في الجاهلية أو جعل ما كان عليهم من ضريبة بمنزلة الجزية وعن أحمد بن عبيد ابن ناصح فيما روى ابن الأنبارى الكبير الإسجاد أي التي جاء بها الخمار بعدما حال عليها الحول وهو وقت الجزية. وأحسب أن المراد بالجزية هنا الضريبة التي تؤدى للملوك.
ثم وصف الساقي هذا الذي عليه النطف أي الأقراط بفتح النون والطاء مفردها نطفة كشجرة، والنساء النواعم الحسان اللائي يتم بهن اللهو.

يسعى بها ذو تومتين مشمر قنأت أنامله من الفرصاد

أي من الخمر شبهها بالفرصاد وهو التوت لحمرتها والتومتان اللؤلؤتان

والبيض تمشى كالبدور وكالدمي ونواعم يمشين بالأرفاد

قالوا أراد بالأرداف وذلك لهزهن أردافهن تبرجا.

والبيض يرمين القلوب كأنها أدحي بين صريمة وجماد

يعني كأنهن بيضات نعام من حسنهن محفوظات بين صريمة أي رمل وجماد أي مواضع غلاظ جمع جمد بضم الجيم والميم وجيم جماد مكسورة أو مفتوحة بمعنى الجماد المعروف أي بين رمل وأرض جماد

ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد
ينطقن مخفوض الحديث تهامسا فبلغن ما حاولن غير تنادى

وهذا من حلو الكلام ورقيقه. ثم أخذ في وصف ما راد من الأرض ونعت الحصان الذي راد به، وذكر الصيد من بعد:

ولقد غدوت لعازب، متناذر أحوى المذانب مونق الرواد

فهذا قريب من قول امرىء القيس " وقد أغتدى والطير إلخ "

جـادت سـواريـه وآزر نبتـه نفأ مـن الصفـراء والـزبـاد

قطع نبات من هذين النوعين

بـالجو فـالأمـرات حـول مغـامـر فبضـارج فقصيمـة الطـراد

وضارج ورد في شيم امرىء القيس البرق

بمشهـر عتـد جهيـز شـده قيـد الأوابـد والـرهـان جـواد

وقيد الأوابد من امـرىء القيس كما ترى . عتد : أي قادر على الجرى هنـا ، أي عنده عدة الجري كما فسره الشارح .

يشـوى لنـا الـوحـد المدل بحضره بشريج بين الشـد والإيـراد

أي بمزيج من هذين الضربين مـن الجري والحضر بضم الحاء العدو بفتح فسكون . ثم ختم قصيدته بـذكر الناقة وهو ينـاسب ما قدمه من الخمـر والنساء والصيد ، فبقى أن يذكر الصبابة والعشق واتباع الظعينة المعشوقة ولا يخفى أن هؤلاء اللاتى يمشين بالأرفاد إنما هن قيان وبغـايا . وذكـر الظعينة في هـذا الموضع كأنما استدرك بـه ما فـاته من أول نموذجـه ، وهو ما قـدمه امـرؤ القيس قبل ذكره الليل من حكـايات الصبابـة والشوق والدموع والغـزل ويوم دارة جلجل وخدر عنيزة . ولم يحتج امـرؤ القيس الي اللحاق فقد عقر مطيته وبعير صاحبته .

ولقـد تلـوت الظـاعنين بجسرة أجـد مهـاجـرة السقـاب جماد

أي قـوية وورود الفتح في جيم جماد هنـا يـرجح أنها مكسورتها في «أدحي بين صريمـة وجماد»

عيرانـة سـد الـربيع خصـاصهـا مـا يستبين بها مقيل قـراد

وأحسب أن هذا هو آخر القصيـدة ـ لا البيت الملحق به « فإذا وذلك » ولا يصلح على التفسير الذي فسرناه . وفي النفس شيء من البيت الآخر

أين الـذين بنـوا فطـال بنـاؤهم وتمتعـوا بـالأهـل والأولاد

وهو بعد « نـزلوا بأنقرة »وموضعـه ناب هناك ، وعجز البيت ذو ضعف مـا ـ أحسبه في قوله « بالأهل والأولاد » فتأمله .

ومما يجري مجرى التذييل الذي عند المخبل وجارى به زهيرا وأصله الشكل المخصر عينية

مالك بن نويرة :

صرمت زنيبــة حبـل من لا يقطع حبل الخليل ولــلأمـــانــة تفجع

ويروى ولا الأمانة يفجع أي وحبل من لا يخون الأمانة . والقصيدة مروية لمتمم بن نويرة وذكروا عن أحمد بن عبيـد بن ناصح أن بعض الـرواة يرويها لمالك . وعنـدي أن مذهب أسلوبها كأنه أقل حرقة تفجع من مذهب متمم في رثاء أخيه ، إن كان قوله :

أفبعـد من ولـدت نسيبـة أشتكى زو المنيـــة أو أرى أتـــوجـع

ممـا يستعـان به على نسبـة الكلمـة الى متمم ، لقـول متمم في عينيتـه المنصوبـة الـروي المشهورة :

وفقــد بني أم تتــالـــوا فلم أكن خــلافهم أن أستكين وأخضعــا

ولم يفسروا لنا بيت متمم هذا تفسيرا شافيا . وينبغى أن يكون قد مات له من الإخوة من أمه وأبيه قبل مـالك ، مع الألى فصل ذكرهم من بعد ممن ذكـرت لنا أسماؤهم ومقاتلهم وهو قوله :

وغيرنى مـا غـال قيســا ومـالكـا وعمــرا وجـزءا بـــالمشقـر ألمعـــا

أي الذين معا

ومـا غـال نـدمـاني يـزيـد وليتني تمليتـــه بـــالمال والأهل أجمعـــا

قالوا كان يزيد ابن عمه وقد خبرنا أنه ندمانه . فهذا يدل على أنه كانهما معا .
ونسيبة أم مالك ومتمم ، والبيت ليست ضربة لازم أن يكـون قاله متمم ، فمالك كأخيه يبكي على من هلك من شقيق وشقيقـة . ونسبـة البيت احتجـاجـا بـه ، على أنـه لمتمم توشك أن تفيـد أن نسيبة لم تلد مع متمم إلا مـالكا وكأن متمما يريد أن يقـول " أفبعد مالك" بقولـه "أفبعد من ولدت نسيبة» وكأنـه يريده وحده بقـوله « وفقد بني أم إلخ» فيكون هو وحده بنى الأم ـ وهذا بعيد .
وفي القصيدة بعد أشياء ، ليست بدليل قـاطع ، ولكنها من ضرب ما يحدس به ، توشك أن تنبيء بأن الكلمـة لمالك لا لمتمم . منها أن متمما زيـد في شعره ، وهـذا قد ذكـره ابن سلام ، وأن العلماء أخرجوا ما زيد . فهذا مما أخرجه بعضهم . هذه واحدة .

وثنتان مما يقع مثلهما عند الشعراء تهجس قلوبهم بالمعيتها عن بعض ما وراء الغيوب ـ أولاهما قوله : وللأمانة تفجع ــ أو ــ ولا الأمانة يفجع . فقد أؤتمن مالك على مال الصدقات فخان . والثانية ذكره الموت وتوقعه له وعجزه عن الدفاع عن نفسه . ولقد نظر بعين كشف إذ قال :

قال :

ولقــد غبطت بها ألافي حقبــة ولقــد يمــر على يــوم أشنع

فضمير الغبطة هنا المتكلم المفرد وفي عينية متمم جاء بنفس المعنى ولكن المتكلم فيه جمع :

وعشنــا بخير في الحيــاة وقبلنــا أصـاب المنايـا رهط كسرى وتبعـا

فهذا يشمله وأخاه . وكان مصدر خيره من أخيه ولذلك قال :

ولست إذا ما الدهـر أحدث نكبة ورزءا بــزوار القــرائب أخضعــا

فخص نفسه بالرزء من بعده .

والحزم بعد أن يوقف عندما وقف عنده قديما فنقول إن هذه العينية المرفوعة رويت لمتمم بن نويرة ورواها بعض الرواة لأخيه مالـك . ونميل الى هذا الوجه الثاني والله تعالى أعلم .

آخر القسم الأول من هذه القصيدة في البيت الثاني عشر ـ وقـد بدأ بذكر صرم صاحبته له ، وأتبع ذلك بمكافأة له من مذهب لبيد في معلقته

فــاقطع لبــانــة من تعــرض وصلــه ولشر واصـل خلـــة صرامهــــا
واحب المجــامل بــالجزيـل وصرمــه بـــاق إذا ظلعـت وزاغ قـــوامهـــا

ثم تسلى بناقة عنس جعلها رمزا لمضـائه وزماعه . وأتبع ذلك تشبيهها لها بحمار الوحش كما صنع لبيد وقد شاركه في بعض اللفظ والصفات فكأنه نظر إليه وقد اشتهر أمر لبيد بالشعر في الجاهلية قبل زمان الهجرة .

صرمـت زنيبـــة حبـل من لايقطـع حبل الخليـل ولـــلأمــــانـــة تفجع
ولقــد حــرصت على قليـل متــاعهــا يـــوم الــرحيل فــدمعهــا المستنفع

هذا كأنه من قول بشامة ـ و«وما كان أكثر ما زودت البيت . »

جـذي حبـالك يـا زنيب فإنني قـد استبـد بـوصل من هـو أقطع

قالوا أي قاطع وهذا ما ذهب إليه الشارح وروى قولا عن أبي عمرو «هو الشيباني» أي أقطع مني وروى بصرم وهذا واضح على مذهب لبيد. ولو جاز القياس في هذا الموضع ما امتنع عندي أن يقاس بوصل مـن هو أقطع على قول الآخر: ولا بذات تقلت أي لا توصف بهذا فيقال تقلت، فهو حكاية. وعليه فمن هو أقطع من شأنه أن يكون لسان حـاله: «أقطع» أي أنـا أقطع وأبـدأ الصرم وما هـو بهذا المعنى. وهـذا في جملة معنـاه مقـارب لقول امـرىء القيس لعنيـزة: «فمثلك حبلى البيت» أي إن تتمنعي فرب كـذا وكذا قد استطعت وصلهـا. وأنت إن تجذي حبلى يا زنيبة فقد انفـرد لنفسي بوصل من يزعم أنـه قاطع عسير المنال وهل يقـوى هذا الوجـه قوله زنيبـة فهي موازنة وزنـا لعنيزة والمعنى كما ترى، على هـذا التأويل، وعلى الشرح الذي شرحـوا أيضا. ويقويـه أيضا البيت الذي إذ يـدل على صحة رواية «استبـد بوصل من هـو أقطع» لا «بصرم من هو أقطع» ويناسب المعنى الذي ذكرناه:

ولقد قطعت الـوصل يوم خـلاجه وأخـوءالصريمـة في الأمـور المزمع

وعند لبيد «ونجح صريمة إبرامها» فهذا قريب منه

بمجـــــــدة عنـس كـأن سراتها فـــدن تطيف بـــه النبيـط مــــرفع
قـــاظـت أثـــال الى الملا وتـــربعت بـــالحزن عـــازبـــة تسـن وتـــودع

تسن وتودع مثل مثل به واستعارة، أي هي عـدة لمثل هذه المهمة من السفر كما السيف عدة للحـرب يسن ويحفظ فهي مثله تسن بحسن الرعـاية ثم تصان فـلا تبتذل في غير وقت الحاجة حقا. والأماكن التي ذكر الشاعـر أن ناقته قاظتها أي قضت القيظ ـ زمن الحر ـ بها والربيع هي من جياد مراعي الإبل. قـال الشارح، قال حنيف الحناتم وكان آبل الناس أي من أحسن الناس قياما على الإبل وكان أحد بني ثعلبة بن عكابة: «من قاظ الشرف وتربع الحزن وتشتى الصمان فقد أصاب المرعى.»

حتى إذا لقحت وعـولي فـوقهـا قـــرد يهم بـــه الغـــراب الموقع

أي لا يقدر الغراب أن يقع عليه لامتلائه وانملاسه، هكذا شرحه القاسم بن محمد بن بشار الأنباري أبو محمد، ثم قال، وهذا كقول الراعي:

بنيت مـــرافقهن فـوق مـزلـة لا يستطيع بها القـــراد مقيـــلا

قلت فينبغي أن يكون صواب عجز البيت:

يهم بها القراد الموقع

والقاف قد تنقط النقطة الفوقية الواحدة كما في الخط المغربي فإن كان الناسخ قد اعتاد ذلك فربما وهم إذ خط حينا آخر بالحرف المشرقي والباء قد تحرف من الدال. ولا معنى لموقع الغراب على سنام صحيح ممتلىء وإنما تقع الغربان على الجروح أو ما تتوهم أنه جروح. قال علقمة:

عقلا ورقما تظل الطير تخطفه كأنه من دم الأجواف مدموم

ولا فائدة في ذكر ابن الانباري للقراد إن كان الذي في الشعر الغراب، وقد اتبع بيت الراعي قوله: «يقول فمغرز المرافق ليس به ضاغط ولا ناكت ولا حاز ولا عيب فآباطهن ملس لا يثبت بها القراد لانملاسها أي لا يجد ما يقيل فيه يزل عن موضعه لملاسته وامتلائه، وكقول امرىء القيس

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل

وكقول الكلابي:

دلنظ يزل القطر عن صهواته هو الليث في الجهازة المتحرد

الدلنظ السمين قال أبو عمرو إنما هو الدلنظي وهو القصير السمين. ا. هـ.» - قلت فكل هذا قريب من قريب وليس فيه ذكر للغراب لماذا يخشى أن يزل، وإنما ينقر بمنقاره النقرة بعد النقرة فليس هو بقراد يريد أن يلصق ولا بقطر لا يمسكه مبتل وبر.

ثم يقول في ناقته العنس:

قربتها للرحل لما اعتادني سفر أهم به وأمر مجمع
فكأنها بعد الكلالة والسرى علج تقاليه قذور ملمع

هنا التشبيه بالحمار والقذور أتانه - قذور أي نفور قال الأنباري والقذور الظريفة الحسناء سميت بذلك لأنها كثيرة التقذر للأشياء - قلت هذا في النساء. أما هذه الأتان فهي مستعصية على فحلها لأنها وسقت وأشرق ضرعها للحمل.

يحتازها عن جحشها وتكفه عن نفسها إن اليتيم مدفع

اليتيم هو الجحش قالوا وحمار الوحش غيور يطرد عن إناثه جحاشها وربما كدم مذاكيرها.

ويظل مرتبئا عليها جاذلا في رأس مرقبة ولأيا يرتع

أي يرتفع على الاماكن العالية ليرى أثم صائد أو ما يكره، ولا يرعى إلا بعد لأي لفرط شفقته على أتانه وغيرته عليها.

حتى يهيجها عشية خمسها ... للورد جأب خلفها متترع

الجأب هو الحمار الغليظ. متترع: متسرع

يعدو تبادره المخارم سمحج ... كالدلو خان رشاؤها المتقطع

السمحج الأتان الطويلة على الأرض، شبه سرعة مضيها في المخارم وهي الطرق الجبلية واحدها مخرم، بالدلو التي انقطع رشاؤها أي حبلها وأخذ هذا من قول زهير:

يشج بها الأماعز فهي تهوي ... هوي الدلو أسلمها الرشاء

وبيت زهير أوضح وأجود، إذ مالك أو متمم جعل الأتان مبادرة من تلقاء نفسها وزهير جعله متسلطا عليها يدفعها دفعا فتهوى هويا من سرعتها. ثم قول زهير: «أسلمها الرشاء» فيه فجاءة السقوط. وفي مقال مالك نوع من ريث:

حتى إذا وردا عيونا فوقها ... غاب طوال نابت ومصرع
لاقى على جنب الشريعة لاطئا ... صفوان في ناموسه يتطلع
فرمى فأخطأها وصادف سهمه ... حجرا ففلل والنضي مجزع
أهوى ليحمي فرجها إذ أدبرت ... زجلا كما يحمي النجيد المشرع
فتصك صكا بالسنابك نحره ... وبجندل صم ولا تتورع
لا شيء يأتوه أتوه لما علا ... فوق القطاة ورأسه مستتلع

أي علا برأسه وراءها فوق ردفها وهما مغذان هربا.
قوله «غاب طوال نابت ومصرع» كقول لبيد:

محفوفة وسط اليراع يظلها ... منه مصرع غابة وقيامها

وقد جعل لبيد القيام قافية وذلك في باب الفأل أجود وجعل مالك المصرع قافية فتأمل. وكذلك قوله وصادف سهمه حجرا - وقد تم المعنى عند إخطاء الرامي فأبي إلا أن يتكسر النصل ويبقى النضي أي القدح الذي لا نصل فيه. وقد لقي مالك بسهمه من خالد حجرا بئيسا.
ثم يجيء القسم الثاني من المذيل وهو في الأصل ثالث وفيه ذكر القنيص والفتوة وصفة الحصان

ولقـد غـدوت على القنيـص وصـاحبي نهد مـــراكلـــه مسح جـــرشـع
ضـــافي السبيب كـأن غصن أبــاءة ريــان ينفضهـــا إذا مـا يقـــدع
قالوا وكان لمالك جمة حسنة وكان يسمى الجفول. فحصانه كالرمز لنفسه:

تئـق إذا أرسلتـــه متقــــاذف طماح أشراف إذا مــــا ينـــزع

تئق أي ممتلىء حيوية وحدة

وكأنـه فـوت الجوالب جـانئـا رئم تضـايفـه كـلاب أخضع

الجوالب أصحـاب الصيـاح والجلبـة في الـرهـان، يشـوشـون بـذلـك على الفـرس السابق. جانئا منحنيا لأن الفرس لما صيح به خضع عنقه ومر مسرعا. رئم: غزال. قالوا قال الأصمعي كـان هذا الـوصف يرد من قـوله وينسب فيـه إلى الغلط لأن خير جري الذكور الاشتراف وخير جري الإناث الخضوع. وقد أحسن الشارح الرد على الأصمعي إذ قـال: وإنما أراد أنـه خضع ليعتمد في الجري كما يعتمـد الظبي. قلت إن كـان هـذا الشعر قاله مـالك فقد كان أعلم بالخيل وأدرب بأمرها من الأصمعي. والوجـه ما قاله الشـارح. تضـايفـه الكـلاب أي تأخـذ بجـانبيـه فيخضع الغـزال عنقـه ثم ينخـرط جريا. فهؤلاء الجوالب بمنزلة الكلاب.

فلــه ضريب الشـول إلا سـؤره والجل فهـــو مـــربـب لا يخلع

قوله إلا سؤره ينبئنا به أنه يعطى الحليب أولا، فلا يشرب أحد من أهل البيت إلا بعد أن يأخذ الفرس كفايته:

فإذا نـــراهن كـــان أول ســـابق يختـــال فـــارســـه إذا مـــا يــدفع
بل رب يـــوم قـــد حبسنـــا سبقـــه نعطي ونعمـــر في الصـــديـق وننفع
ثم أتبع هذا ذكر سباء الخمر وكرر لفظ السبق ومعناه يترنم بذلك

ولقــــد سبقت العـــاذلات بشربـــة ريـــــــا وراووقـــي عظيـم مترع
جفن من الغـــربيب خـــالص لـــونـه كـــدم الـــذبيح إذا يشـن مشعشع
ألهو بها يـــومـــا وألهي فتيـــة عـن بثهم إذا ألبســـوا وتقنعـــوا

وروى أبلسوا وتقنعوا

ويـوقف شيئا عنـد هذا البيت. ونتسـاءل هل نظمت هـذه القصيدة عنـد شروعهم في الردة. وإلا فما معنى الإلبـاس والتقنع. قال الشارح: «أي من شـدة همهم كأن لهم منه لبـاسـا وقنـاعـا» ــ وأبلسـو أي وجموا من الهم. وأبسلـوا روايـة قـال أي " أسلمـوا

بجرائرهم " . وإنما يكون الهم الذي معه الإبلاس والإبسال والتقنع عند توقع الأمر الخطير المفظع . وكان أمر جيوش أبي بكر رضى الله عنه لأهل الردة مفظعا . ورووا مما كان أهل الردة يتناشدونه :

آلا يا اصبحاني قبل جيش أبي بكر   لعل منايانا قريب ولا ندري

وقد جاء بعد بيت الإلباس والتقنع بذكر الموت والتفكر في مصاير الأيام والبشر. وقد استهل التفكر بنوع مظلم كليل امرىء القيس قبري المعدن كأبيات الممزق، حزين روح الإقدام كأبيات ضبع الشنفرى ـ وأول ما استهل به ذكر الضبع ونبشها عن جيف الموتى ، وتأمل بعد قوله الذي جعله تذييلا حكميا ذا عبرة وأحزان :

يا لهف من عرفاء ذات فليلة   جاءت إلي على ثلاث تخمع
ظلت تراصدني وتنظر حولها   ويريبها رمق وأنى مطمع

فقد جعل نفسه هنا قتيلا لاجنازة تنبش من قبر ـ قاتل حتى أثبتته الجراح والضبع تراقبه حتى إذ مات أكلته . هكذا توهم نهايته وما باعد .

ظلت تراصدني وتنظر حولها   ويريبها رمق وأني مطمع
وتظل تنشطني وتلحم أجريا   وسط العرين وليس حي يدفع
لو كان سيفي باليمين ضربتها   عني ولم أوكل وجنبي الأضيع

هل نظم مالك هذا الشعر وهو أسير خالد رضي الله عنه ؟

ولا أشك أن البحتري إلى هنا نظر إذ قال

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي   درى الفاتك العجلان كيف أبادره

وقد ذكروا كيف كان هلعه واختباؤه

ولقد ضربت به فتسقط ضربتي   أيدى الكماة كأنهن الخروع
ذاك الضياع فإن حززت بمدية   كفي وقولي محسن ما يصنع

ولا يصنع ذلك إلا نادم ـ فهل ندم على أنه استأسر ؟

ولعل هذا هو آخر القصيدة والأبيات التي أوهمت أنها لمتمم هي لمتمم وهن الثلاثة الأواخر:

ولقد غبطت بها ألاقي حقبة   ولقد يمر علي يوم أشنع

ويكون المعنى ولقد غبطت لما يكفيني مالك ولقد مر علي يوم مصرعه وهو شنيع

أفبعـد من ولـدت نسيبـة أشتكي زو المنيـة أو أرى أتـوجـع
ولقـد علمت ولا محالـة أنني للحـادثـات فهل تـريني أجـزع

فهذا يشبه بعض ما في عينية الرثاء.

هذا وشكل قصيدتي عمرو والحارث أنها خطبتان جمهوريتـان. ومخاطبة الظعينة فرع من ذلك. وكذلك مخاطبة واحد في عتاب أو خصومة أو ما أشبه. وقد عجل عمرو والحارث كلاهما بنسيبهما إلى موضوع خطابتهما. بل نسيبهما منذ البداية جلي أنـه توطئة وتمهيد واستجـلاب للأسماع لا نغم صبابة. وعنـد عمرو بدء بالخمـر ودلالة ذلك على إدراك الثأر والانتصار. وبـداية الحارث بظعينة آذنت وقد ملها. والغـالـب على الشعراء إذا أرادوا معنى الصبـابة ولـو رمـزا أن يزعمـوا أن الـرحيل فـاجأهم لا أنهم أوذنوا بـه ـ والإيذان بالرحيل تصريح بالمصارمـة. ثم عمرو والحارث كلاهما يخلصان آخر الأمر إلى الفخر ومواجهة "الجماهير" ـ قال عمرو:

وقـد علـم القبـائل من معـد إذا قبـب بأبطحهـا بنينـا

والقبائل مخاطبة ههنا.

وقال الحارث

هل علمتـم أيـام ينتهب النـا س غـوارا لكل حي عـواء

ثم مضى يعدد المآثر ويفصح بالحجج. مـذهب الحارث وعمرو كليهما [وهو كما قدمنا شكل خطابي واحد] فيـه هو نضج أسلوب المهلهل ومناقضيـه. ويذكر عن الأصمعي أنه قال لو كانت للمهلهل ست قصائد مثل:

أليلتنا بذي حسم أنيرى

لعده في الفحول. وحسب المهلهل أنه شرع لمن بعـده مسلك التطويل في أشعار الفخر القبلي والثأر. وإنما كـانـت أبيـاتـا. فإن يكـن المهلهل قـد سبق إلى التطـويل في هـذا الباب، فحظه على الأقل أنه جـوده وأحكمه حتى صلح لأن يتناقل ويروى. ولا ريب أن القصاص قد نحلوه هو وخصومه ما نحلوا.

وفي الـذي وصل إلينا من الشعـر القـديم كلمات عدة تنتهج منهج الحارث وعمـرو في لهوجـة النسيـب وصرف العنـايـة إلى المواجهـة الجهيرة التي تخطب جمهـورا بمفـاخـر جمهور. من ذلك مثلا قصيدة الحصين بن الحمام المرى

جـزي اللـه أفنـاء العشيرة كلهـا بـدارة مـوضـوع عقـوقـا ومأثما

وقصيدة الخصفي التي يرد عليه بها

من مبلغ سعـد بن ذبيـان مألكـا وسعـد بن ذبيـان الـذي قـد تختما

وكثير مما يطول ويقصر في هذا المجال يجري مجرى هاتين الكلمتين من ذلك مثلا نونية العدواني سواء اعتددت بنسيبها أم لم تفعل. وما نسيبها إلا خمسة أبيات ثم ما بعد ذلك منافرة وخصام وربما بلغ به تعريض الهجاء مثل قوله:

عني إليك فما أمي بـــراعيـــة ترعى المخاض وما رأيي بمغبون

كأنه يعرض به أن أمه أمة.

ولم يرو المفضل فيما أسند إليه عن أبي عكرمة غير ثمانية عشر بيتا لا نسيب بين يديها وروي غيره ستة وثلاثين بيتا فزاد على الثمانية عشر ثلاثة عشر ثم أبيات النسيب، والنون حرف ذلول ركوب، ولعله قد زيد في نونية ذي الأصبع كما قد زيد في نونية عمروبن كلثوم وقيل بلغوا بها ألفا، ولعله لو كان في عدوان عدد كما في تغلب، قد بلغ بها بعض ذلك.

وعينية ذى الاصبع الأبيات العشرة التي أولها

إنكما صـــاحبي لن تـــدعـــا لـــومي ومهما أضع فلن تسعـــا

وروي ومهما أضق و«تسعا» تسوغها، والمعنى متقارب.

قوامها مذهب الخطبة كنونيته غير أنه أدخل فيها عنصر تأنيث عند قوله في سابع أبياتها:

إمـــا تـــرى شكتى رميح أبي سعد فقد أحمل السلاح معـــا

وهذا من أسلوب تذكر الشباب. وما أرى إلا أن ذا الاصبع عمد الى ضرب من السخريةوالتهكم بهذين السفيهين اللذين خاطبهما. وقد جعل بعض كلامهما كأنه كلام أنثى حيث قال:

إنكما مـــن سفـــــــــاه رأيكما لاتجنبـــان السفـــاه والقـــذعـــا
إلا بـأن تكـــــذبـــــا على ولم أملك بـأن تكـــذبـــا وأن تلعـــا
لـن تعقـــــلا جفـــــرة على ولم أوذ نـــــــديما ولم أنل طبعـــــــا

أي أنتما تؤذيان النديم وتنالان الطبع وهو اتساخ العرض.

إن تـــــزعما أنني كبرت فلـم ألف بخيـلا نكســـا ولا ورعـــا

أي فقد كبرت ولكن سلا ما تأريخي، إني لم أكن نكسا ولا ضعيفا جبانا وزعمهما أنه كبر هذا كلام الأنثى، كقول الآخر:

على مـــا أنها هـــزئت وقـــالت هنـــون أجـن منشأ ذا قـــريـب
فـإن أكبر فـإني في لـــــــداتي وعصر جنـــــوب مقتبـل قشيـب

وقال الآخر:

أمـا تـريني قـد بليت وغـاضني مـا نيل من بصري ومن أجـلادي

فلما جعلهما ذوي حديث أنثى هنا، عاد فزعم أنه إنما يخاطب أنثى حيث قال:

إمـــا تـــرى شكتـي رميح أبي سعـد فقـد أحمل السـلاح معـا

وليس أسلوب الأعشى في «ودع هريـرة» من شكل أسلوب الخطبة الشعريـة الذي عند عمرو والحارث. ولكنـه كما قلنا من قبـل من معدن شكل مـدحة النابغـة، وإنما خلع أبواب الغـزل والرحلة والشراب عن سمت جـد الوصف الى هزل من الفكـاهة ليجعل ذلك توطئة لتوبيخ يزيد بني شيبان والطنز به مع التهديد والوعيد.

وما أنصف ابن قتيبـة العجاج حيث أخذ عليه زعمه أن من يحسـن البناء لا يعجز عن الهدم، يجعل المدح بناء والهجاء هدما، فـزعم ابن قتيبة أن العجاج أخطأ وأن المدح بناء والهجاء بنـاء، نعم بناء من حيث إنه لابـد فيه من صنـاعة وحذق وتجويـد. ولكنه من حيث منهج القـول وشكله سلب لما يـوجبه المدح. فهـذا الجانب من أمره هـدم، وكأن هذا هو مراد العجاج. ومن أدل الشواهد على ذلك مثلا قول الفرزدق:

إن الـــذي سمك السماء بنى لنـــا بيتـــا دعـــائمـــه أعـــز وأطـــول
بيتـــــا زرارة محتـب بفنـــــائه ومجاشـع وأبـــو الفـــوارس نهشـل

فنقضه جرير بقوله:

أخـــزى الـــذي سمك السماء مجاشعـــا وبنى بنـــاءك بـــالحضيض الأسفل
بيتـــــا يحمم قينكـم بفنـــــائه دنس مقـــاعـــده خبيـث المدخل

والذي صنعه الأعشى لمن تأمله ينـزل بخفة هزله منزلة النقض بالنسبـة الى وقار النابغة وحسن أدب علقمة.

ولمزرد بن ضرار أخي الشماخ دالية طويلة في المفضليات مطلعها

ألا يـالقـوم والسفاهـة كـاسمهـا أعائدتى من حب سلمى عوائدى

تهدد فيهـا رجـلا يقـال لـه زرعـة بن ثـوب. وقص الشـارح خبر هـذه القصيـدة قـال (١ : ١٢٨) «قـال أحمد أخبرنـا محمـد بن عمـرو بن أبي عمـرو الشيبـاني إمـلاء علينـا قـال: كـان أهل بيت من بني ثعلبـة بن سعـد بن ذبيـان جـاوروا في بني عبـدالله بن

غطفان، فذهب رجل من بني عبـدالله الى غلام من الثعلبيين يقال له خالـد وهو أحد بني رزام بن مازن بن ثعلبـة بن سعد بن ذبيـان، وللثعلبي إبل كرام جلـة حسان، فلم يزل يخدع الثعلبي حتى اشترى الإبل منـه بغنم. فرجع الغلام الى أبويـه فأخبرهما فقالا هلكت واللـه وأهلكتنـا. ثم إن أبـا الغـلام ركب الى مـزرد فقص عليـه القصـة فأخبره بالخبر. فقال مزرد أنا ضامن لك إبلك أن ترد عليك بأعيانها، ثم أنشأ يقول:

ألا قل لعبـدالله والجهل كـاسمه أعائدتي من حب سلمى عوائدي

قال أحمد فهذا كان سبب قول مزرد لهذه القصيدة. ا. هـ.»

فتأمل قوة الشعر. وقد جاوز مزرد التوبيخ الى الهجاء المقذع. ولذلك استعدي ابن ثوب عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاعتـذر إليه. ويوشك السياق أن يدل على أن ابن ثوب إما رد الإبل و إما أرضى أهل الغـلام. و إلا فما كان مزرد ليعتذر إن كان ذلك البيع كما قصوا خبره قد كان غبنا، والله أعلم.

وقد جمع مـزرد بين مذهب تهكم الأعشى وخطابة ذي الأصبع. وأصل ذلك كما قـدمنا أسلوب الخطبة الشعرية الذي عند الحارث وعند عمرو بن كلثوم ـ قال مزرد:

أزرع بن ثـوب إن جـارات بيتكم هـزلن وألهاك ارتغـاء الـرغـائد

الرغائد أي عيش الخصب، فزعم أن الغلام المخدوع ابن جارات زرعة بن ثوب

وأصبح جـارات ابن ثـوب بـواشما من الشر يشـويهن شي القـدائد
تـركت ابن ثـوب وهـو لا ستر دونـه ولـو شئت غنتنى بثـوب ولائدى

فهذا مما جاوز به إلى تناول الأعراض، إذ أقبل على ثوب نفسه بعد أن فرغ من ذم ابنه

صقعت ابن ثـوب صقعـة لا حجى لها يـولـول منهـا كـل آس وعـائد
فـردوا لقـاح الثعلبي أداؤهـا أعـف وأتقى مـن أذى غير واحـد

ثم قال:

فيـا آل ثـوب إنما ذود خـالـد كنـار اللظى لا خير في ذود خالـد

وفي سيـاق الشرح مـا يـدل على أن مـزردا كـان يـزيـد في هـذه القصيـدة حينـا بعـد حين، يتغنى بالشر الذي أخذ في مسالكه من محض القول ولاذعه.

ومن هذا الباب قصائد عدة في المفضليات ـ مثلا همزية عوف بن الأحوص (٣٥) ومع مرارته فيها كان أعف لسانا من المزرد. وكأن مذهب المزرد كان من باب التهيئة والتمهيد لما جاء بعد من إقذاع الفرزدق وجرير. وأول همزية عوف بن الأحوص:

هـدمت الحيـاض فلم يغـادر   لحوض مـن نصـائبـه إزاء

وهو فاتحة نسيب منبئة بغضب قريب مما صنع الحارث إذ قال :

آذنتنـا ببينهـا أسماء   رب ثـاو يمل منـه الثـواء

وفيها يقول :

فإنـك والحكـومـة يـا بـن كلب   علي وأن تكفنني سـواء

خـذوا دأبـا بها أثـأيت فيكـم   فليس لكـم على دأب عـلاء

ودأب هذا ابنه . فقد سلك سبيلا من الإنصاف أسد مما فعل مزرد من بعد :

وليس لسـوقـة فضل علينـا   وفي أشيـاعكم لكـم بـواء

ومـا إن خلتكـم مـن آل نصر   ملـوكـا والملـوك لهم غـلاء

ولكـن نلـت مجد أب وخـال   وكـان إليهما ينمى العـلاء

فهذا تهكم ، أي أبوك وأمك ليسا من الملوك ولكن سـوقة كسائر الناس وإنما يفخر المرء في النسب بأبويه .

أبـوك بجيـد والمرء كعـب   فلم تظلـم بأخـذك مـا تشـاء

أى فقد ظلمت لأنه ليس واحد من هذين بملك وإنما أنتم سوقة أو كما قال :

ولكـن معشر مـن جـذم قيس   عقـولهم الأبـاعـر والـرعـاء

أى أنتم تدفع لكم الـدية ، الإبل ورعاؤهـا ، فلم تطلبون القصاص ، وفوق مـا أنتم له أهل . والأمثلة فى هـذا الباب كثيرة . وبعض ما جـاء فيه خطاب المرأة سنخـه من هذا الباب ككلمة أبي قيس بن الأسلت :

قـالـت ولم تقصـد لقيل الخنـي   مهـلا فقـد أبلغت أسماعـى

وكلمتـا سلمـة بن الخرشب وعـامـر بن الطفيل (السـادسـة والسـابعـة بعـد المائة من المفضليات) وقد يداخل جميع ذلك نفس من هجاء .

ومن بين الطـوال السبع قصيدتـا عنترة ولبيد فـرعان معـا من مذهب المدحـة النابغيـة الشكل ونقيضتها الأعشوية ، وعنترة أسبق من هذين كليهما ، وإنما مقصدنا التنبيه على معادن الأشكـال ، ولا نزعم أن عنترة قـد أخذ من هـذين ، بل قد نـرى أن الأعشى فى

روضته كأنما نظر إليه وأخذ منه .

وعلى تشابه شكلى «عفت الديار» و«هل غادر الشعراء» بينهما فرق نلفت النظر منه إلى أمرين ، أولهما أن لبيدا يبدأ بعفاء الديار مقدما عليه راضيا عن قوله ، وعنترة يبدأ بالتساؤل عن قيمة سؤال الديار وكأنه حائر كيف يبدأ . فقربنا عنترة إلى نفسه بهذه البداية الصادقة التساؤل . ولكن لبيدا آثر أن يكون فخما وفي ذلك بعد ما .

وثانيهما أن صاحبة لبيد ، وقد سماها نوار ومعنى نوار النفور أو ذات الصد والتمنع ، قد صارمته وصارمها . وليست كذلك صاحبة عنترة التى رحلت فجاءة :

ما راعني إلا حمولة أهلها	وسط الديار تسف حب الخمخم

فهو يريد أن يلحق بها . خطاب لبيد لصاحبته فيه شدة . صاحبته رمز خصومة . ولكن صاحبة عنترة حبيبة يريد أن يتودد إليها . حبيبة سواء أكانت هي أنثى بشرا هو عاشقها أم شيئا آخر جعلها رمزا له .

وقد خلص لبيد آخر أمره إلى فخر من فخر خطب القبائل :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل	منا لزاز عظيمة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها	ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى	سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم	ولكل قوم سنة وإمامها

وقد خلص عنترة إلى وصف ملحمى رائع وحماسة فارس نبيل .

نفس الخطابة أجهر شيئا عند لبيد . ونفس التغنى أعمق عند عنترة . وفي ترتيب السبع الطوال الذي في شرح ابن الأنباري الصغير معلقة عنترة رابعة بعد معلقة زهير . ولعل هذا أجدر بها من أن تجعل تالية لنون عمرو بن كلثوم . والسبع بعد كلهن روائع جياد . وكذلك الثلاث المتماتهن عشرا .

هذا وطرائق الأشكال الثلاثة اللاتى نعدهن أصولا قد خلط الشعراء بينها . وقد نبهنا من قبل إلى جعل سحيم وعمرو آخر قصائدهما في نعت الناقة وكذلك فعل الفرزدق في الرائية التى ذكر فيها زيادا فجعل ذكره زيادا مكان التخصير . وقد جعل أسلوب الخطبة يواجه بها شخص واحد أو جمهور يغلب ، وكان ما يدعو إلى هذا الوجه من القول من أحوال العصر وفتنه كثيرا . وقد تعلم خبر كعب بن معدان الأشقرى إذ وفد علي الحجاج من قبل المهلب بن أبى صفرة بخبر النصر على الخوارج فأنشده :

يا حفص إنى عداني دونك السفر	وقد سهرت فآذى جفني السهر

فقال لـه الحجاج: أشـاعر أم خطيب فـزعم لـه الأشقرى أنه هما معـا، وكذلـك كان وكـانت قصيدتـه. وقد سبق الاستشهـاد بأبيات منهـا في معرض الحديث عن البحـر البسيط. وهي تنظـر في جملتها من حيث نفس الشكل، على اختـلاف ما في تفـاصيل الغرض، الى كلمة لقيط الإيادي:

يـا دار عمـرة مـن محتلهـا الجرعـا　　　أهـدت لي الهم والآلام والـوجعـا

وكأن الحجاج أشـار الى هذا من طرف خفي إذ تمثل في حسن ثنـائه على المهلب بأبيات منها:

وقلـدوا أمـركم للـه دركم　　　رحب الـذراع بأمـر الحرب مضطلعـا
مـا زال يحلب هـذا الـدهـر أشطـره　　　يكـون متبعـا طـورا ومتبعـا
حتى استمـرت على شـزر مـريـرتـه　　　مستحكم الـرأى لا قحما ولا ضرعـا

ولا ريب أن أبا تمام أخذ من هاهنا في قوله:

من لم يقـد فيطير في خيشـومـه　　　رهج الخميس فلن يقـود خميسـا

إلا أنه أشربـه ما ذكرنا من تفسير قـول بشار «كأن مثار النقع» فأعطى مثـار النقع هذه "أبعادا" كما يقال بلغة أبناء الآن.
وقد ذكروا أن بشارا كان فيما كانـه خطيبا، ونفس الخطيب في فخماته جهير. وقد وصفه صاحب الأغاني بجهارة الإنشاد وأنـه به يروع القلوب. وأحسب أن ميميته التى قيل إن أصل أولها كان هكذا:

أبـا جعفـر مـا طيـب عيش بـدائم　　　ومـا سـالم عما قليـل بسـالم

قد كانت أطول بكثير مما بلغنا، إذ قرنوها بميميات الفرزدق وجرير وهذه كانت طوالا.
وقد كان أبو تمام خطيب فؤاد وقلم مع مقدرة له فائقة على طرب الإيقاع والإطراب به.
وحسْبك شاهدا:
السيف أصدق أنباء من الكتب
فقد جمع فيها بين متانة النظم، ووحـدة الغرض، وجهارة صوت الخطيب، ورنين غناء الشاعر وموسيقاه. ومن قدمه بها على أبي الطيب فعسى ألا يكون بعيدا من الصواب.
وقد رتبها ترتيبا بالغ البراعة. بدأ بمدح السيف وثني بالسخرية من المنجمين وأقاويلهم وأباطيلهم واندفع بعد الى ذكر الفتح الجليل:

السيف أصدق أنباء من الكتب | في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في | متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة | بين الخميسين لا في السبعة الشهب

هذا الغزل بالسيف والرمح جعله أبو تمام مكان النسيب. وما أشك أن أبا الطيب قد لبث دهرا يود لو أن هذا كان قد ادخر له حتى يقوله هو ـ وقد حاوله في قوله:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لى | المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به | فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائى ما أشرت به | فإن غفلت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته | أجاب كل سؤال عن هل بلم

وهذا شعر جيد. وأصله من حيث هو بيان من هناك.

وقال أبو الطيب:

محب كنى بالبيض عن مرهفاته | وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وقال: وكان أطيب من سيفى مضاجعة | أشباه رونقه الغيد الأماليد

فكل هذا من بائية أبي تمام. وليس أبو الطيب وحده أخذ منه، فقد أصاب ابن الأثير إذ قال فيه إنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان.

ثم بعد هذا النسيب الحربي الحماسي، وقد ترى ما مهد به لذكر النجوم، وما زال أهل الحروب، حتى زماننا هذا يلجئون إلى استخبارها يريدون أن يهتكوا بذلك حجاب الغيوب، قال:

أين الرواية بل أين النجوم وما | صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة | ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

النبع شجر صلب والغرب رخو. قال التبريزي يقول هذه الأحاديث ليست بقوية ولا ضعيفة أي هي غير شيء

عجائبا زعموا الأيام مجفلة | عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة | إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة | ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة | ما دار في فلك منها وفي قطب

لــو بينت قط أمــرا قبل مــوقعــه لم تخف مـا حل بـالأوثـان والصلب

ذكر التبريزي أن «مرتبة» تروى بتشديد التاء مفتوحة وهو عنده ضعيف ومكسورة وهو الوجه القوي عنده، وأن «ما كان منقلبا الخ» بدل من «مرتبة» وليس مفعولا وهو قول أبي العلاء ذكره المحقق في الهامش نقلا عن ابن المستوفي وذكر رد ابن المستوفي على أبي العلاء والذي رآه أبو العلاء كأنه نطق به عن لسان أبي تمام. وقوله ما كان منقلبا أو غير منقلب فعند المنجمين أن الأبراج ثلاثة أقسام قسم منقلب ولا يعول عليه فيما زعم التبريزي في تحقيق الأخبار إذ وردت وقت طالعه وما سوى المنقلب فهو غير المنقلب وهو ما يقولون له الثابت وهذا يعول عليه عندهم فيما ذكره التبريزي وذو الجسدين، وينبغي أن يكون هذا لا يعول عليه. والمنقلبة هي ما تمثل الأمزجة الأربعة وهي الحمل والسرطان والميزان والجدي والأمزجة هي الدم والصفراء والبلغم والسوداء والثوابت تمثل العناصر الأربعة ويقال للمنقلبة بالانجليزية cardinals وللثوابت fixed ولذوات الجسدين mutables يقضون بالأمر عنها الخ.

نظر أبو العلاء الى مقال أبي تمام هذا وولد منه كلمته الميمية:

لــو كــان لي أمــر يطــاوع لم يشن ظهــر الطــريق يــد الحيــاة منجم
يــولي بأن الجن تطــرق بيتــه ولــه يــدين فصيحهــا والأعجم
وقفت بــه الـــورهــاء وهـي كأنها عنـد الــوقـوف على عــرين تهجم
ويقـول مـا اسمك واسم أمـك إنني بـالظن عما في الغيـوب أتـرجم

وقول أبي تمام «ما دار في فلك»أي في طريق دائر، «وفي قطب» قال التبريزي القطب كل ما ثبت فدار عليه شيء وفي السماء قطب الشمال وقطب الجنوب. مراد أبي تمام أن الذي يحكمون به على النجوم ويستنبطونه منها، لا حقيقة له، ولم يدر منها في فلك ولا في قطب. ما هنا نافية، قوله الأوثان، فقد كان من المشركين عبدة الشعري وغيرها من النجوم فلو كانت تخبر شيئا لخبرتهم بما سيكون من غلبة الإسلام عليهم. وما حل بالصلب جمع صليب فهو فتح عمورية.

ثم أخذ أبو تمام في بيان أمر الفتح ـ إذ آخر كلامه يقود إليه:

فتح الفتــوح تعــالى أن يحيط بــه نظم من الشعــر أو نثـر مـن الخطب
فتـح تفتح أبــواب السماء لــه وتبرز الأرض في أثــوابها القشب

وقد كان أبـو تمام وصافا للطبيعة، وهـذه الصورة منتزعة من نعمـة الغيث وبهجة نبت الربيع، وقد استمر بصورة النعمة الربيعية فأتبع أثواب الأرض القشب المنى الحفل أي الممتلئات الضروع كالنعم التي رتعت فدرت ضروعها ولكنها حلبها عسل وهذا مبالغة في معنى النعمة.

يـا يـوم وقعـة عمـوريـة انصرفت عنك المنى حفلا معسـولة الحلب

تأمل هذا التجسيد للمنى، أي الآمال ـ أي قد تحققت فهذا احتفال ضروعها.

أبقيت جـد بني الإسـلام في صعـد والمشركين ودار الشرك في صبـب
أم لهم لـو رجـوا أن تفتـدي جعلـوا فـداءهـا كـل أم بـرة وأب

فجعل عموريـة أما مفداة ـ وقد خلص الى ذكـر قوتها وامتناعها في تأكيـد معنى عظمة الفتح الذي ذكره. ثم انتقل من صورة الأم المفداة إلى صورة البكر العزيزة التي لا تنال. وكلا المعنيين لو تأملتـه راجع إلى قوله «بالأوثـان والصلب» إذ عند النصارى ضرب من تأليـه للعذراء أم المسيح سـلام الله عليها فأخذ أبـو تمام قولـه «أم لهم» من معنى الأم المقدسـة، وأخذ معنى البكـر العزيـزة من معنى العـذراء المقدسة، عمـد الى ذلك او تداعت به المعاني.

وبرزة الـوجه قد أعيت ريـاضتها كسرى وصـدت صدودا عن أبي كـرب

هو تبع ملك اليمن

بكـر فما افترعتهـا كف حـادثـة ولا تـرقت إليهـا همة النـوب
من عهـد إسكنـدر أو قبل ذلك قـد شـابت نـواصي الليـالي وهي لم تشب

قال شكسبير في صفة كيلوبترة

Age canmot wither her, nor custome stale
Her infinite variety, other women cloy
The appetites they feed, but she makes hungry
Where most she satisfies

وترجمة هذا على وجه التقريب كما ترجمناه في كتابنا التماسة عزاء بين الشعراء

فـلا العمـر مبليهـا ولا عـادة اللقـا بها من مجاليهـا الصنـوف تضيع
سـواهـا من النسوان يتخمـن بـالجدا وأقـوى إذا مـا أشبعتك تجيع

ولا أستبعد بل أرجح أن يكـون شكسبير قد نمى إليه علـم ما عن هذا الـوصف الذي

وصفه أبو تمام لعمورية فرتب عليه ما رتبه فأجاد من نعته لكليوبتره. وقد ذكر ناقدوه (وهو كذلك) أنه أخذ من صفة «بلوتارك» كليوبترة والسطر الأول وأول الذي يليه شبه صياغة أبي تمام فيهما شديد فتأمله. وقد مر بك عتق صلة الاستشراق الانجليزي منذ زمان أديلارد الباثي Adelard of Bath (القرن الثاني عشر) وروجر بيكون (القرن الثالث عشر) وشوسر (القرن الرابع عشر) وبدويل معاصر شكسبير ممن نعلم وغير هؤلاء ممن لا نعلم.

ثم يقول أبو تمام:

حتى إذا مخض اللــــه السنين لها مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

وقد ذكرنا هذا البيت من قبل وما ضمنه أبو تمام من إشارة الى بخيلة حميد بن ثور - «وزبدة الحقب» هذه هي الفتح وهو خلافا لما استقراه أهل الصلب من نجومهم كربة سوداء

أتتهم الكـــربـــة الســـوداء ســـادرة منها وكـــان اسمها فـراجــة الكـرب
جـــرى لها الفــأل نحســا يـــوم انقــرة إذغـودرت وحشة الســاحات والـرحب
لما رأت أختهـــا بـــالأمس قـــد خـــربت كـــان الخراب لها أعـــدى من الجرب
كم بين حيطـــانها من فـــارس بطل قـــاني الـــذوائب مـن آنى دم سرب
بسنـــــة السيــف والخطى مـن دمـــــه لا سنـــة الـــدين والإســـلام مختضب

الرحب بكسر الراء جمع رحبة بفتح الراء والحاء وتسكن زعم التبريزي أنها رحاب ثم خففت والذي أنشده بفتح الراء والحاء كشجر جمع شجرة وهذا أوضح والذي ذكره التبريزي رواه قال والأصل أن يقال رحاب بالألف فحذفت لأنها حرف لين كما قالوا ثلل في جمع ثلة والأصل ثلال وذكر صاحب القاموس في جمع ثلة المفتوحة الثاء أنها كبدر (أي جمع بدرة) وسلال. فهذا كقول التبريزي ولكنه في جمع رحبة بفتح الحاء وسكونها والراء مفتوحة ذكر صيغتي رحب ورحبات مع رحاب المكسورة الراء وذكر التسكين فيهما مع الفتح ولم يذكر كسر الراء من رحب ولا يحتج به على التبريزي. وروى التبريزي «بسنة السيف والحناء من دمه» والذي أثبتنا هو الذي اختاره البارودي وهو مروي واستحسنه التبريزي قال: «وبعضهم ينشد«بسنة السيف والخطى من دمه» وهو أجود في صحة المقابلة لأنه يقابل الدين والإسلام بشيئين ليسا في الحقيقة مختلفين، إذ كانا من آلة الحرب، وهو في الرواية الأخرى يقابل الدين والإسلام بالسيف

والحنـاء وليس الحناء مـن جنس السيف . ويجوز رفع الحناء وخفضـه فإذ خفض كـان قوله «من دمه» في موضع الحال . ا . هـ» ـ قلت ورواية «بسنة السيف والحناء من دمه» جيدة ، وههنا تـورية واستخدام معا . أي هذه سنـة السيف أن يخضب ولا حناء له إلا الـدم ، فالحنـاء من دم هـذا البطل ولك وجهـا الخفض والـرفع اللذيـن ذكرهما وسنـة السيف أيضا حد السيف وطـريقته الماضية القاطعة . فهـذا موضع الاستخدام ، إذ دل لفظ سنة السيف هنـا على معنيين حده ومذهبـه الذي يسير عليه وموضع تـورية لما في معنى السنة عنـدنا معشر المسلمين ، فالسيف اتبع السنة وجعل الحنـاء من دمه ، لأن الصحابة كـانوا يخضبون الشيب بالحنـاء قال التبريزي : لأن الصحابة والتـابعين كانوا يرون من السنة أن يخضبوا شعورهـم بالحناء والكتم وما يجري مجراهما من نبات الأرض ، ويكرهون الخضاب بالسواد ويؤثرون الحمرة إلخ ما قاله ا . هـ» .

ثم أخذ أبو تمام في صفة ما وقع بعمـورية من تخريب وتحريق ، وهذا متمم لما صوره من قبل من هذا القتال بين حيطانها وهذا الدم الآني القاني السرب .

لقـــد تـــركت أمير المؤمنين بها ... للنار يومـا ذليل الصخر والخشب

وتلى بعـد هـذا صـورة مفزعـة من صـور الخراب والحريق وشريح مـا بين زهـو منتصر وانكسارة منهزم وشكر مؤمن ويأس كافر

غـادرت فيهـا بهيـم الليل وهـو ضحى ... يشلـــه وسطهـــا صبح مـن اللهب
حتى كأن جـــلابيب الـــدجى رغبت ... عن لـــونها أو كـأن الشمس لم تغب
ضـــوء مـن النـــار والظلماء عـــاكفـة ... وظلمـة من دخـان في ضحى شحب

عين هذه الاختلاطة من الألوان جاء بها زاهية مشرقة مفرحة في قوله :

تـريـا نهارا مشمسـا قـد شـابـه ... زهـــر الـربـا فكأنما هـو مقمـر

تأمل كيف جعل الضحى شحبا بالـدخان وظلمته ومقمرا بدريـابالزهر ونعومـة ألوانه وظلاله .

فـالشمـس طـالعـة من ذا وقـد أفلت ... والشمـس واجبـــة مـن ذا ولم تجب
تصرح الـــدهـــر تصريح الغمام لها ... عن يـوم هيجـاء منهـا طـاهـر جنب

فـالغمام ظل ولأبي تمام ولع بصفـة المزن والسحـائب ، بعضـه من طـول نظـره في شعـر العرب ، وبعضه من تجربته البداوة وعيشها ـ وهو بعد القائل :

ديمـــة سمحـــة القيـــاد سكـــوب مستغـــيث بها الثـــرى المكـــروب
لـــو سعـت بقعـــة لإعظـــام نعمى لسعى نحـــوهـــا المكـــان الجديب
لـــذ شـــؤبـــوبها وطـــاب فلـــو تســـ ـــطيع قـــامت فعـــانقتهـــا القلـــوب
فهـي مـــاء يجري ومـــاء يليـــه وعـــزال تنشـــا وأخـــرى تـــذوب
كشف الـــروض رأســـه واستسر الـــ ـــمحل منهـــا كما استسر المريب
أيها الغيـث حيهـــلا بمغـــدا ك وعنـــد السرى وحين تـــؤوب

شدد الطائي لام حيهلا كأنه وقف ثم وصل على نية الوقف وروى بعضهم «حي أهلا» وكأنهم يصلحون به قول حبيب وما جاء بـه حبيب أجود وكأن طريقه في فصيح الكلام واسع وكأن ظاهـر قول سيبويه يفيـده، قال في باب الوقف في أواخـر الكلم المتحرك: «وأمـا التضعيف فقولك هـذا خالـد وهو يجعل وهـذا فرج حـدثنا بـذلك الخليل عن العرب. ومن ثم قالت العـرب في الشعر في القوافي سبسبا يريـد السبسب وعيهل يريد العيهل، لأن التضعيف لما كان في كلامهم في الوقف أتبعـوه الياء في الوصل والواو على ذلك كما يلحقـون الواو واليـاء في القوافي فيما لا يـدخِله يـاء ولا واو في الكلام وأجـروا الألف مجراها لأنها شريكتها في القوافي ويمد بها في غير مـوضع التنوين ويلحقونها في غير التنوين» ـ يعني ألف الإطـلاق نحو أقلي اللوم عاذل والعتابا ـ «فألحقوها بهما فيما ينون في الكلام وجعلت سبسب كأنـه مما لا تلحقه الألف في النصب إذا وقفت» يعني أنك إذا وقفت ولم تضعف قلـت رأيت سبسبـا، فإذا ضعفـت قلت رأيت سبسب ولم تلحقها الألف التي تلحقها في النصب حين لا تضعيف، فإذا جئت بها قافية صنعت بها صنيع سبسبا في رأيت سبسبا» مع التضعيف. قال سيبويه:
قال رجل من بني أسد: ـ

ببازل يهاء أو عيهل

وقال رؤبة:

لقـــد خشيت أن أرى جـــدبـــا في عـــامنـــا ذا بعـــدمـــا أخصبـــا

أراد جدبا وقال رؤبة:

بدء يحب الخلق الأضخما

فعلوا هـذا إذ كان من كلامهم أن يضاعفـوا فإن كان الحرف الذي قبل الآخر سـاكنا لم يضاعفوا نحو عمرو وزيد إلخ. ا. هـ» قلت لم يقيد سيبويه عبارته «إذ كان من كلامهم أن يضـاعفـوا» كما قيـدهـا من قبل حيث قـال لأن التضعيف لما كـان من كـلامهم في

الوقف، فهل اكتفى بقوله هذا أن يكرره وجعل عبارته هذه الثانية مردودة عليه أو أراد العموم هذه المرة وأن التضعيف مما يقع في كلام العرب لا يخص به قبيلة دون قبيلة؟ ثم إن سيبويه يقول في أوائل كتابه «ومن العرب من يثقل الكلمة إذ وقف عليها ولا يثقلها في الوصل نحو سبسبا وكلكلا لأنهم قد يثقلونه في الوقف فأثبتوه في الوصل كما أثبتوا الحذف في قوله لنفسه مقنعا وإنما حذفه في الوقف قال رؤبة: ـ

ضخم يحب الخلق الأضخما

تروى بكسر الهمزة وفتحها وقال بعضهم «الضخما بكسر الضاد. ا. هـ» فهذا فيه ما ترى من عموم في الشعر لا يخص به القوافي ولكن الذي استشهد به قافية. وقال في باب الوقف «وقد استعملوا في شيء من هذا الألف في الوقف كما استعملوا الهاء لأن الهاء أقرب المخارج الى الألف وهي شبيهة بها فمن ذلك قول العرب حيهلا فإذا وصلوا قالواحيهل بعمر وإن شئت قلت حيهل كما تقول بحكمك.» وقال في موضع آخر «وحدثني من أثق به أنه سمع عربيا يقول أعطني أبيضه والحق الهاء كما ألحقها في هنة وهو يريد هن.» قلت فعلى قوله الأول يجوز أن تلحق الألف بعد حيهل المشددة للام من أجل الوقف كأنه قال حيهل مشددة كما قال أبيض مشددة وألحقها هاء ثم أبدل مكانها ألفا. وأما التنوين فعلى التنكير، إذ قرأت حيهلا بمغداك منونا حيهلا. فتأمل هذا التخريج.

فهذا ما حثنا على القول بأن طريق «حيهلا بمغداك» بالتشديد كأنه واسع في العربية.

وكأن في كلام التبريزي شيئا من هذا المعنى حيث قال: «ويجوز أن يكون الطائي سمعها مشددة في شيء من شعر العرب ولو كانت قافية لجرت مجرى قوله: «كأن مهواها من الكلكل» ثم قال التبريزي «ومن روى حي أهلا فهذه كلمة مرفوضة إلا أن يجعل حي في معنى هلم وينصب أهلا بفعل مضمر ويجوز أن تكسر الياء في معنى التحية أي حي أهلا حاضرين بمغداك» ـ قلت فهذا يبين فضل مقال حبيب على قول من راموا إصلاحه.

والعرب قد تجرى الوصل مجرى الوقف فتصل بما تقف به وعليه رواية بيت امرىء القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب　　إثما من الله ولا واغل

لا بل عليه إلحاق الألف سبسبا وأخصبا إذ هو ترنم، والشعر كله ترنم.

هذا ولما ذكر أبو تمام الغمام في قوله «تصرح الدهر تصريح الغمام لها» وجاء بطاهر

وجنب، خرج من صفة ما كان وصفه من الدمار والنار الى صفة نشوة النصر وما يصنعه أهل الفتح من الإباحة:

لم تطلع الشمس فيهم يوم ذاك على　　　بـان بأهل ولم تغـرب على عـزب

فهذه إباحة، قتل وسباء. فالباني على أهله قتل وأخذت امرأته. والغازي العزب بات وله صاحبة فليس بعزب. وزعم بعض المعاصرين أن بائية أبي تمام كلها مدارها على الجنس. وصدق ابن قتيبة قبل دهر «فرويد» بأن الجنس كل ضارب فيه بسهم وآخذ منه بنصيب حلال أو حرام. ولكن ليس معنى ذلك أن نلتمس الجنس فنجده في كل مقال. وتشبيه أبي تمام لعمورية بالبرزة المستعصية والبكر المطلوبة بأشد الطلب قريب جميل. وصفته ما وقع من تحريق وتقتيل وسباء عمل شاعر متقن، وقد انتبه ونبهنا الى الجانب غير الحسن من ذلك، مما ينبىء بدقة إحساسه المرهف كل إرهاف وإنسانية نفسه مع التزامه بهذا التغني الواضح القوي الجهير بنصر الخلافة والإسلام والعرب وذلك قوله:

ما ربع مية معمورا يطيف به　　　غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

يعنى أبو تمام أنه معمور بحسن نعت غيلان له، إذ لم يكن حقا معمورا لما وقف غيلان عنده في مثل قوله:

وقفت على ربع لمية ناقتي　　　فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه　　　تكلمني أحجاره وملاعبه

فقد جعله غيلان هنا معمورا بالذكرى، وكقوله:

خليلي عوجا من صدور الرواحل　　　بجمهور حزوي فابكيا في المنازلَ
لعل انهمال الدمع يعقب راحة　　　من الوجد أو يشفي نجى البلابل

و قوله:

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة　　　فماء الهوى يرفض أو يترقرق

ثم أكثر ما يصفه غيلان وأكثر ما يصف الشعراء الربوع حين تبدل من أهلها أصناف الوحش وتصير رياضا ومراتع، فهذا لها حسن وعمران، وقد نعلم شغف حبيب

بالـرياض. فقولـه: معمورا يطيف به غيـلان، منبيء بأن عمرانـه من إطافة غيـلان به وغيلان هو ذو الرمة. أما ربع عمورية فخرب. وهو أبهى ربا من ربع مية علي ما فيه من خراب، لهذا النصر، وهـذه الاستباحـة التي هي جـزاء المجاهـد المنتصر في هذه الـدنيا "ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون"

ولا الخدود وإن أدمين من خجـل　　　أشهى الى نـاظر من خـدها الترب

هذا البيت نفيس حقا.
ربعها الخرب فيه هـذا السباء وهؤلاء المستباحات وخدودهن النـواعم يتفطرن خجلا ذا انكسار.
وهذه المدينـة التي افتتحت، هي أيضا بكر، ولكن خـدها ضارع تـرب، إذ كانت ذات كبرياء وأنف شـامخ. هذا الإذلال لها والتتريب مـدعاة للحزن. قـول الشاعر «خـدها الترب» مشعرنا بأساه لهذه الذلة بعد العز.
ولا شيء أعظم من نشوة الانتصار عليهـا بعد ما كان لها من طـول استعصاء وامتناع ـ هذه الخدود المتفطـرات خجلا اشتهيت بنشـوة الظفر، فهـذا الخد الترب أشهى الى نظر المنتصر المستبيح من هذه الخدود المدميهن الخجل.
والمنظر بعد فظيع سمج.
والنصر يجعل هذه السماجة الفظيعة أمرا عظيم الجمال:
هنا إنسانية أبي تمام الضخمة ودقة إحساسه المرهف.
فأمر هذه القصيدة ليس كله أو عموده شبق جنسي فروئدي، فتأمل.

سماجــــة غنيت منـــا العيـــون بها　　　عن كل حسـن بـدا أو منظـــر عجب
وحسن منقلـب تبـــدو عـــواقبـــه　　　جـــاءت بشـاشتـــه عن ســـوء منقلب

أخذ هذا أبو الطيب ـ أخذه كله بنظر شديد الى ما ذكره حبيب من نصر واستباحة:

فلم ينـج إلا من حماهــــا مـن الظبى　　　لمى شفتيهـــا والثـــدى النـــواهـــد
تبكي عليهن البطـــاريق في الـــدجى　　　وهن لـــدينـــا ملقيـــات كـــواســـد
بـــذا قضت الأيـــام مـــا بين أهلهـــا　　　مصـــائب قـــوم عنـــد قـــوم فـــوائد

فهذا عين مقـال أبي تمام أن حسن منقلب المنتصرين جاءت بشاشته بعـد سوء المنقلب

الذي حل بالمنهزمين .
ومن ثم أخذ أبـو تمام في تعليل أسباب النصر وأن الخليفة بما حباه الله مـن تأييده كان هو السبب فيه .

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت   لـه العـواقب بين السمـر والقضب

هذا مردود على قـوله «حتى إذا مخض الله السنين لها» أي هذا النصر قـد كمنت عواقبه عصورا طـويلة بين السيـوف والرمـاح . حتى اختارهـا المعتصم بالله وداهم بها العدو فقهره.
وما خلا أبو تمام من نظر قوي الى طريقة علقمة في بائيته حيث قال :

فـوالله لـولا فـارس الجون منهم   لآبـوا خـزايـا والإيـاب حبيب

فجعله هو سبب النصر. ويـوشك الصولى أن يكون قد تنبه أو نبه الى هـذا الوجه حيث قال في البيت التالى :

ومطعـم النصر لم تكهم أسنتـــه   يـومـا ولا حجبت عن روح محتجب

أن أول من قال بهذا علقمة بن عبدةِ فقـال ومطعم النصر يوم النصر إلخ ـ قلت ورواية علقمة المعروفة : «ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه البيـت» ـ وما أشك ـ والله أعلم ـ أن حبيبا تعمد الإشارة اليه ولوى قـوله «ومطعم النصر» منه . قال في هامش شرح التبريزي [دار المعارف تحقيق د . محمد عبده عزام . الطبعـة الرابعة ص٥٨ هامش٥ من ج١] وله رواية أخرى في لـ : ومطعم الغنم يوم الغنم . قلـت هذه الرواية لا نعلم غيرها . وليس في الشرح الكبير سواها ولا في طبعة مطبعة المعارف ١٣٦١هـ ص٢٠١

لم يغـز قـومـا ولم ينهـد الى بلـد   إلا تقـدمـه جيش من الـرعب
لـو لم يقـد جحفـلا يـوم الـوغى لغـدا   من نفسـه وحـدهـا في جحفل لجب
هذا من المبالغة ، ويبرره أن المعتصم كان مشغولا بالجيوش ، فتركه كانوا إذا رأى عرضهم كأنها هم امتداد لنفسـه . وقد كان يخيل لنـا أن هذا خبر وليس بمبالغـة وأن المعتصم به أشجع من عنترة الـذي ليس كسيرتـه الحربية مـن سيرة . ثم ثبت عندنـا بعـد أن عنترة أعظم شأنا في باب الشجاعة الفردية البطولة .

رمى بك اللـه بـرجيهـا فهـدمهـا   ولـو رمى بـك غير اللـه لم تصب

ويروى لم يصب بالياء والتاء أجود وأراد الإشارة الى آية الأنفال أي أنت إنما خرجت غضبا لله ولو كنت خرجت لغير ذلك ما انتصرت وما يكون لك أن تخرج لغير ذلك، إذ أنت خليفة الله، كل أمرك في الله ولله.

من بعد ما أشبوها واثقين بها — والله مفتاح باب المعقل الأشب

أشبوها أي حصنوها حتى صارت كالشجر الملتف [هذا لفظ التبريزي ولعله من أبي العلاء] بما حولها من كثرة السلاح. ومن شاء جعل هذا المعنى جنسيا

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدد — للسارحين وليس الورد من كثب

هذه فكرة الروم، وخلفائهم الإفرنج عن العرب والمسلمين، أنهم بدو يطلبون المرعى وموارد الماء،

أمانيا سلبتهم نجح هاجسها — ظبي السيوف وأطراف القنا السلب

خفف الأماني، والسلب أى الطوال جمع سلب بفتح فكسر

إن الحمامين من بيض ومن سمر — دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

هذا تهكم بهم من أبي تمام إذ قالوا لا مرتع ولا ورد ــ فقال بلى، فالمرتع والورد سيوفنا ورماحنا. منايا هن الدلاء التى نصيب بها الحياة ـ حياة المرتع (العشب) والمورد (الماء) ـ وهيأ هذا من مقاله ما سيجيء به بعد من خبر المرأة التى قالت وامعتصماه وهم يظنون أن لا معتصم لها من أجل أنه لا مرتع صددا أى قريبا له ولا ورد من كثب أى من قريب.

لبيت صوتا زبطريا هرقت به — كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

لما جعله ولي أمر الدين جعل لا لذة له إلا الأهل، ولا خمر له إلا إغفاءة النوم. فنفض إغفاءة النوم وترك الحلائل من أجل الغيرة والنجدة. وعسى بعض هذا أن خيل به لمن خيل له أن فكرة الجنس هي الغالبة على أبي تمام في هذه البائية، وإنما قصد أبو تمام إلى معنى قول الآخر:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم — دون النساء ولو باتت بأطهار

وقول الآخر:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه　　حصان عليها عقد در يزينها

وذكر كأس الكرى لأن عادة العرب أن تترك الخمر إذ غزت وقد أراق الربيع بن زياد زقاق خمره لما بلغه مقتل مالك بن زهير وحرم النساء وقال :

أفبعد مقتل مالك بن زهير　　ترجو النساء عواقب الأطهار

فجعل كأس المعتصم التي أراق كأس كراه كما تقدم ذكره . وأحسبه أخذ تصيير الكرى كأسا من قول تأبط شرا :

فاحتسوا أنفاس نوم فلما　　هوموا رعتهم فاشمعلوا

ولا يلام على أخذ وهو بعد صاحب ديوان الحماسة .

قالوا ــ وهو الذي في شرح التبريزي : زبطري منسوب إلى زبطرة وهي بلد فتحه الروم فبلغ المعتصم فيما قيل ان امرأة قالت في ذلك اليوم وامعتصماه فنقل إليه ذلك الحديث وفي يده قدح يريد أن يشرب ما فيه فوضعه وأمر بأن يحفظ فلما رجع من فتح عمورية شرب . » ا . هـ

عداك حر الثغور المستضامة عن　　برد الثغور وعن سلسالها الحصب

أجبته معلنا بالسيف منصلتا　　ولو أجبت بغير السيف لم تجب

أي أجبت الصوت الزبطري

حتى تركت عمود الشرك منعفرا　　ولم تعرج على الأوتاد والطنب

أي قصدت مدينة الكفر المستعصية فعفرت خدها وهو المعنى الذي كان فيه من خراب عمورية فعاد إلى صفة الحرب ، وبعد أن وصف حال المعتصم وصف حال عدوه ، وجعل هذا في مقابلة ذلك .

لما رأى الحرب رأى العين توفلس　　والحرب مشتقة المعنى من الحرب

فهذا تفسير اقتصادي للحرب والمعنى قديم ويدعي السبق فيه لكارل ماركس وسبقه في طريقة تأويل بعض أحداث التأريخ في ضوئه لا في نفس المعنى وقد زعم «برتراند رسل» في تأريخ الفلسفة الغربية أن افلاطن سبق ماركس ولكن المعنى أقدم من ذلك لمن تأمله .

غدا يصرف بالأموال جريتها　　فعزه البحر ذو التيار والحدب

هيهات زعزعت الأرض الوقور به　　عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

فالغزو للاكتساب قديم واضح الأمر. ولكن الغزو للاحتساب، هو الذي ينبعث من روح الإيمان والدين. ومن أجل ذلك لبى المعتصم الصوت الزبطري وهراق كأس الكرى، هذه التي حاولت أساطير الأخبار أن تجعلها كأس نبيذ ـ وترجع بروحها الإسلامي إلى روح جاهلي كروح الربيع بن زياد. والمعتصم بالله لم يكن أديبا ناقدا كأبيه الرشيد ولا فلسفيا جدليا كأخيه المأمون، ولكنه كان جنديا أمه تركية، أقرب إلى سذاجة صدق العقيدة مما تصوره هذه الأسطورة، والله أعلم.

لم ينفق الذهب المربي بكثرته   على الحصى وبه فقر إلى الذهب

أي إن المعتصم ما كان ليقبل رشوة مال من توفلس الذي أراد أن يدرأ خطر الحرب بعطاء الجزية، ذلك بأن المعتصم صاحب دولة غنية، ما أنفق ما أنفق من ذهب لكي يرشى بمثله ولكن ليصول لدينه وينتقم ممن غضوا من قدره

إن الأسود أسود الغاب همتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وهذا كان رأي بلال والأنصار رضي الله عنهم في أمية بن خلف.

ولى وقد ألجم الخطى منطقه   بسكتة تحتها الأحشاء في صخب

هذا البيت غاية في جودة التعبير. وجعل الصخب في مقابلة السكتة. وأخذ المعنى فأجاد الأخذ من قول عمرو بن معد يكرب، وقد اختاره هو في حماسته،

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم   نطقت ولكن الرماح أجرت

فقد صخبت أحشاء عمرو ههنا بأسف شديد مع زعمه أن الخطى ألجمه لفرار قومه وهزيمتهم. ولم يعن أبو تمام بالصخب وجيب القلب وحده كما يفهم من شرح التبريزي ولكنه عنى الخوف وهواجس الأسف والحزن. وقوله من بعد يؤيد قولنا هذا:

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى   يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلا بيفاع الأرض يشرفه   من خفة الخوف لا من خفة الطرب

قال أبو زكرياء: «المعنى أن هذا الرجل يعلو ما ارتفع من الأرض لينظر إلى الطرق هل فيها من يتبعه. ا. هـ». وقوله من خفة الطرب يشير إلى نحو قول توبة:

وأشرف بالقور اليفاع لعلني   أرى نار ليلى أو يراني بصيرها

وفيه أيضا إشارة إلى إشراف حمار الوحش، إذ في فعله خفة طرب إذ هو مع حلائله:

بأحزة الثلبوت يربأ فوقها قفر المراقب خوفها آرامها

ويدلك أنه ما خلا من إشارة إلى حمار الوحش ذكره الظليم من بعد، وهذه معان يدعو بعضها بعضا والقاريء الكريم يعلم صلة بينها:

إن يعد من حرها عدو الظليم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

من حطب هذا الجاحم أعداء الله الذين انكبوا فيه. وعاد أبو تمام إلى ما بدأ به من السخرية. وقد كان سخر بالنجوم والكوكب الغربي ذي الذنب. فآن أن يسخر بالرواية وزخرفها وما قيل إنها - أي عمورية - لا تفتح قبل نضج التين والعنب. ومما ينبه إليه ها هنا أن قوله "عدو الظليم" فيه وحي رجعة إلى قوله في أول القصيدة: «زعموا الأيام مجفلة» والإجفال للنعام. وقد أجفلوا هم. فتأمل.

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

يارب حوباء لما اجتث دابرهم طابت ولو ضمخت بالمسك لم تطب

هذا قريب من قوله ما ربع مية وساجة غنيت. أي طابت النفس بسرور النصر وذلك أطيب من المسك. وذكر المسك لقولهم ما كان الطيب إلا المسك برفع المسك وهو من كلمات الكتاب فأحسبه يشير إلى ذلك.

والحرب قائمة في مأزق لجج تجثو الكماة به صغرا على الركب

صغرا أي تصاغرا لكي يقدروا على المأزق اللجج ولعل الرواية الصحيحة لحج بحاء مهملة مكسورة وجيم معجمة وشرح التبريزي يدل على ذلك إذ لحج بالحاء المهملة والجيم من باب فرح هي المناسبة لشرحه إذ شرح فقال: لحج في الشيء إذا نشب فيه فلم يخلص وقد يقال مكان لحج أي ضيق - كل ذلك في الطبع (ص٧١) بجيمين وفي مادة لحج في القاموس لحج السيف كفرح نشب في الغمد ومكان لحج ككتف والملاحج المضايق. قلت كل ذلك بحاء مهملة قبل الجيم وليس شيء في مادة اللجاج بمطابق ما وقع في شرح التبريزي من تحريف طابع أو ناسخ وأحسب رواية مختارات البارودي لحج بحاء مهملة فجيم وهو الصواب. صغرا بضم الصاد بعدها غين معجمة ساكنة مصدر صغر ككرم. والصورة مأخوذة من صفات أيام صفين وأبو تمام كان أعلم بذلك من حاق الممارسة للحروب.

كم نيل تحت سناها من سنا قمر وتحت عارضها من عارض شنب

كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدرة العذراء من سبب

رجعة أبي تمام هنا إلى ما كان ذكره من بان بأهل وعزب، إجمال بعد تفصيل. بدء هذا الإجمال قوله تسعون ألفا إذ رجع به إلى روح مطلعه ثم أتبع ذلك روح صفته للحرب والفتح والحريق والاستباحة ثم يختم بمدح وحكمة تقرع الأسماع وتبقى في القلوب. وقوله إلى المخدرة العذراء ـ عنى عمورية، ثم ما في عمورية من عذارى سبين فافترعن.

كم أحرزت قضب الهندي مصلتة | تهتز من قضب تهتز في كثب
بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت | أحق بالبيض أبدانا من الحجب

هذا لعب لفظي معنوي مرقص. البيض السيوف. والبيض أبدانا: نساء الروم وحجب السيوف أغمادها. وحجب النساء معروفة. فهذه البيض إذا سلت، صارت هي أحق بالروميات من خدورهن.

وهذا كله ثمرة الفتح والنصر المبين.

خليفة الله جازي الله سعيك عن | جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها | تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم | موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها | وبين أيام بدر أقرب النسب

كما بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب النسب ـ هذا متضمن

أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم | صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

فقد سمى أبو تمام بلاد الروم الرجل المريض. ثم رد الافرنج هذا الاسم على المسلمين من بعد فسموا تركيا رجل اوروبا المريض. "وتلك الأيام نداولها بين الناس" «ولله غيب السموات والارض وإليه يرجع الأمر كله.»

وزعم التبريزي أنه يقال «إنما يقال لملوك الروم بنو الأصفر لأن حبشيا كان غلب على بلادهم فنكح فيهم فولد له أولاد يخالط بياضهم صفرة من سواده فازدادوا بذلك حسنا.» ـ ا. هـ. قلت أبى العرب أيام عزهم إلا أن يجعلوا الحبش الذين غلبوهم على اليمن، غلبوا الروم أيضا. ولا يعلم على وجه الحقيقة لماذا كانت تسمى العرب الروم بني الأصفر، ولكن يغلب على الظن ان المراد بذلك شعور رؤوسهم اذ كان يوستنيان ملك الروم ومن قبله روسا في أصولهم في شعورهم غير ما اعتادوه من لون السواد. ولذلك قالوا صهب السبال. كما قالوا زرق العيون. قال عبدالله بن سبرة يصف الرومي:

أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا

وليس قول حبيب «صفر الوجوه» بمبعد هذا الذي ذهبنا اليه من قصد الشعر، والصفرة والحمرة والصهبة كل ذلك في ألوان الشعر مباين لما يألف العرب ومقال حبيب الذي قاله اجتهاد منه وافتنان.

هذا، وقد جعل الدكتور طه حسين «ليالي بعد الظاعنين شكول» أميرة شعر أبي الطيب. وهي من الجياد الروائع. وليس مذهب أسلوبها كمذهب «السيف أصدق». وقد نبه الدكتور طه رحمه الله على أن أبا الطيب جاري فيها مجاراة استحسان لا محاكاة او معارضة كلمة السموأل الحماسية. ولله دره ناقدا متذوقا. فالسموأل يقول:

لنا جبل يحتله من نجيره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به	الى النجم فرع لا ينال طويل
تسيل علي حد الظبات نفوسنا	وليست على غير الظبات تسيل
صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا	إناث أطابت حملنا وفحول
وأيامنا مشهورة في عدونا	لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل غرب ومشرق	بها من قراع الدارعين فلول

وكلمة السموأل جرى فيها على مخاطبة امرأة من العرب كما يدل عليه السياق ومحل استشهادنا هذا الضمير الجهير «نا» واياه اتبع أبو الطيب إذ يقول:

تمل الحصون الشم طول نزالنا	فتلقي إلينا أهلها وتزول
وانا لنلقي الحادثات بانفس	كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسومنا	وتسلم أعراض لنا وعقول

وذكر العقول هنا وثبة من وثبات أبي الطيب ترفعه فوق المحاكاه البحتة. وفي هذه اللاميةضروب من المخاطبة ،آنا يخاطب سيف الدولة وآنا يجرد من نفسه آخر يخاطبه :

سوى وجع الحساد داو فإنه	إذا حل في قلب فليس يحول

وحينا يخاطب الدمستق. ولا ريب أن القصص الحربي عنتري الروح يخاطب به التي لقيها بدرب القلة أو زعم ذلك.

ليست " ليالي بعد الظاعنين شكول" من ضرب " السيف أصدق" في نوع شكلها. ليس صاحبها على جهارة صوته فيها بخطيب. ولكنه صائح وصادح.

القصيدة التي فيها منهج بائية حبيب ميميته. :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وهي فخمة جزلة. غير أن فرق ما بينها وبين بائية حبيب كفرق ما بين سيف الدولة والمعتصم.

وأفخم من «علي قدر أهل العزم تأتي العزائم» وأشد شبها ببائية حبيب واتباعا لها ميميته التي قيل إنها آخر ما أنشده سيف الدولة:

عقبى اليمين على عقبى الوغي ندم ... ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وهذا المطلع فيه نفس من مطلع البائية لما فيه ما بين اليمين والوغي من مقابلة غير بعيدة جدا من مقابلة ما بين السيف والكتب ـ وسرعان ما قال أبو الطيب بعد هذا المطلع بأبيات قلائل.

أين البطاريق والحلف الذي حلفوا ... بمفرق الملك والزعم الذي زعموا

فهذا فيه أنفاس:

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف منها ومن كذب

وقد أبدع أبو الطيب في تصوير حركة الجيش غير أن نموذج البائية أمامه ومن جيد صناعته فيها قوله:

فما تركن بها خلدا له بصر ... تحت التراب ولا بازا له قدم
ولا هزبرا له من درعه لبد ... ولا مهاة لها من شبهها حشم
ترمي على شفرات الباترات بهم ... مكامن الأرض والقيعان والأكم

فهذه صفة غارة وحركة. وكأن قول حبيب:

غدا يصرف بالأموال جريتها ... فعزه البحر ذو التيار والحدب

دعا أبا الطيب الى صفة حركة العبور. وقد جاء بصورة جيدة منها في اللامية إذ قال:

ورعن بنا قلب الفرات كأنما ... تخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابح ... سواء عليه غمرة ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه ... وأقبل رأس وحده وتليل

وهذا وصف مشاهد، عظيم حيوية الحركة. وقد ألم أبو الطيب بصورة النيران والحريق، ولكنه أشرب ذلك الحركة وسرعة مجاوزته، ولقد علم إبداع حبيب في هذا الباب، فاكتفي منه بأخذة خلس لا يزيدها:

تسـايـرهـا النيران في كـل مسلك بـه القـوم صرعى والـديـار طلـول

وفي الميمية أقـام شيئا يسيرا عنـد صفة العبور بـالسفن، كأنه يـريد بـذلك أن يربى على الأوصـاف التي في بائيـة أبي تمام وأعرض عن ذكـر النار إلا تلميحـا في معرض تشبيـه السيوف بها :

عبرت تقـدمهـم فيـه وفي بلـد سكـانـه رمم مسكـونها حمم

فهذه صفة الحريق ثم عدل عن ذلك فجعل السيوف هي النار :

وفي أكفهم النـار التي عبـدت قبل المجـوس الى ذا اليـوم تضطـرم
هنـديـة إن تصغـر معشرا صغـروا بحـدهـا أو تعظم معشرا عظمـوا

وقد أخذ أبو العلاء من هاهنا إذ قال :

ليست كنـار عـدي نـار عـاديـة بـاتت تشب على أيـدي مصاليتـا

ولا تلهينك الإشارة الى «يـاسليمي أوقدي النارا» عن أصل أخذه . ثم جـاء أبو الطيب بنعت سفن العبور ـ وكما قدمنا دعاه إليه تيار البحر وحدبه عند ابي تمام :

قـاسمتهـا تل بطـريق فكـان لها أبطـالها ولك الأطفـال والحرم
تلقى بهم زبـد التيـار مقـربـة علي جحـافلهـا من نضحـه رثم

الرثم بيـاض في شفاه الخيل وجحا فلهـا شفاهها المفرد جحفلة والمراد هنـا صفة سفينة بياض الماء حول مقدمها كأنه رثم حـول جحفلة فرس. وزبد التيار هذه صدى مباشر من «فعـزه البحر ذو التيار والحدب». وذكـروا عن أبي الطيب أنه كـان ينكر أن يكون يأخذ من المحدثين وأنه إنما كان يأخـذ من القدماء. فإن صحت هذه الرواية فما يكون عدا بها الكنـاية، إذ شعر أبي تمام مشحون بـالقدماء، لا يخلو مـن نظر في شعره من أن ينظر فيما يضمنه أو يشير إليه من شعرهم. ـــ ثم بعد قوله : تلقى بهم زبد التيار قوله :

دهـم فـوارسهـا ركـاب أبطنهـا مكـدودة وبقـوم لا بها الألم

يريد السفن، فالدهم من صفة الخيل وركوب الأبطن من نعت السفن.
وخاتمة هذه الميمية فيها صدى من خاتمة أبى تمام، وذلك قول أبى الطيب :

القـائم الملك الهادي الـذي شهـدت قيـامـه وهـداه العـرب والعجم
ابن المعفـر في نجـد فـوارسهـا بسيفـه ولـه كـوفـان والحرم

وهـذا قريب من قـول أبى تمام «خليفة اللـه جـازى الله سعيك عن إلخ» ـــ ثم

أضرب أبو الطيب عن هذا القري، وكأن قد أقر في نفسه بسبق أبي تمام في البائية :ـ

لا تطلبن كــــريما بعـــد رؤيتــــه　　إن الكــرام بأسخــاهـم يــدا ختمــوا
ولا تبــال بشعـــر بعــد شـــاعــره　　قــد أفســد القــول حتى أحمد الصمم

واستشهد بهذين البيتين ابن الأثير في المثل السائر ينبه بهما على فضله. وقد أشرنا في كلمتنا التى بعنوان «الى ليلاه الخجول» الى أخذ أندرو مارفيل ANDREW MARVELL من أبي تمام في مطلع قصيدته التي مدح بها زعيمه البريطاني Oliver Cromwell :[1]

Tis time to leave the Books in dust,

And oyl th'unused Armours rust.

So restless Cromwel could not cease

In the inglorious Arts of Peace

But through Adventrous war

Urged his active star.

لقـــــد آن أن ينبـــــــذ الكتـــــــاب إلى التراب
وأن يصقـل مـن الـــــدرع صــــــدأ الإهــــاب
ومــــا كـــان لكـــرومـــــويـل القلق الفــــؤاد
أن يكــــون إلى فنــــون دعـــــة السلم ذا إخــــلاد
ولكـن في مصــــــادمــــــة حـــومــــة القتـــــال
احتـث نجـم طــــــــالعـــــــه الفعــــــال

قالوا وكان كروميل عاكفا على درس وكتب ثم ترك ذلك وانبرى للحرب فكان ما كـان من ظفره ــ وهذا من استهـلال أندرو مـارفيل مأخوذ من استهـلال أبى تمام على الأرجح.

والشبه ظاهر.

وقال أندرو مارفيل فى آخر هذه الكلمة :

But thou the wars and Fortune's son

March indefatigably on:

(١) لم يورد النص الانجليزي في ليلاه الخجول (مصر ١٤٠٣) والتهجى هنا من ضرب قديم.

And for the last effect

Still keep thy sword erect

Besides the force it has to fright

The spiril's of the shady night

The same arts that did gain

A Pow'r must it maintain.

أمـــــا أنـت فـــــابـن الحروب والجد السعيــــــد
لاتنـــي في سيرك الشـــــــــــديــــــــــد
ولكـي يكــــون لك الأثـــــر البـــــالـغ الأخير
فــإن حســـــــــــامـك مصلـت شهير
إذ قـــــوتـــــه كما تخيـف أشبــــاح ظـل الظـــــلام
فإن الفنــون التي نيلت بها السطــوة بها أيضــا تستـــدام

هذه ترجمة تقريبية.

وعين هذا المعنى في ميمية أبى الطيب إذ يقول:

ألهى الممالك عـن فخـــر قفلـت بـــه — شرب المدامـــــة والأوتـــــار والنغـم
مقلـــدا فـــوق شكـــر اللـــه ذا شطب — لا تستـــــــدام بأمضـى منهما النعم

وكأن أبا الطيب رام بهذه الميمية أن يضاهى أبا تمام لا في المعاني فحسب وأن يربي عليه بـذكر السفن والعبـور أيضا، ولكن تعمد مع ذلك أن يقـارب بعدد أبيـاتها عدد أبيات «السيف أصدق» إذ هي نيف وستون بيتـا، وأبو الطيب أحرص على الإيجاز منه على الإطالة. وهذه الميمية [1] على جودتها لا تبلغ بين السيفيات مبلغ:-

وفـاؤكما كالـربع أشجـاه طاسمـه — بأن تسعـدا والدمع أشفـاه ساجمه

وهذه نفسه فيها كأن فيها قصدا إلى مجاراة بائية أبي تمام:

أهن عـوادي يـوسف وصـواحبـه — فعزمـا فقدما أدرك النجح طـالبه

إذا فيها شيء من مشابه تفخيمه. وقد نبـه الدكتور طه حسين رحمه الله على محاسنه بما لا مزيد عليه في هذا الموضع.

ومن أعجبها الى قوله في غزلها:

(١) سبق لنا أن قلنا وقد أوردنا من هذه الميمية في الجزء الثاني في باب التكرار ان عمل ابى تمام انما كان إعدادا لما سيأتي به (أبو الطيب) من روائع وهو كذلك.

سقـاك وحيـانـا بـك اللــه إنما على العيس نــور والخدور كمائمــه
إذا ظفـرت منك العيـون بنظـرة أثـاب بها معيـي المطي ورازمــه
حبيـب كأن الحسـن كــان يحبــه فـآثـره أو جـار في الحسن قـاسمـه
تحول رمـاح الخط دون سبـائه وتسبى لــه مـن كل حي كـرائمـه
ويضحى غبـار الخيل أدنى ستـوره وآخــرهـا نشر الكبـاء الملازمــه

وزعم بعض شراح شعـر أبي الطيب أن ههنـا من المبـالغة. وليس الأمـر على مـا توهمه.

هذه الصورة لمن تأملها منتزعة من حال ما كان عليه أهل الترف.

وقوله:

ومـا استغـربت عيني فـراقـا رأيتـه ومـا علمتنـى غير مـا القلب عـالمه
فــلا يتهمنى الكـاشحـون فـإننى رعيت الـردى حتى حلـت لى عـلاقمـه
مشب الـذى يبكى الشبـاب مشيبـه فكيف تـوقيـه وبـانيـه هـادمـه
وتكملـة العيش الصبـا وعقيبـه وغـائب لـون العـارضين وقـادمـه
ومـا خضب النـاس البيـاض لأنـه قبيح ولكـن أحسن الشعـر فـاحمه

ثم بعد هذا يجيء مدحه الجيد وفخره الرصين:

سلكت صروف الـدهـر حتى لقيتـه على ظهـر عـزم مـؤيـدات قـوائمـه
مهـالك لم تصحب بها الـذئب نفسـه ولا حملت فيهـا الغـراب قـوادمـه

لا يكثر أبو الطيب من الإشـارة إكثار أبي تمام ولا يظهرها إظهـاره. ولكنه يخفيها وكأنها وحي يلحن بـه. وجلي ههنـا أنـه يشير إلى نعت الشعراء الـذئب وإلى حـديث الجاحظ عن الطير والحيوان. شعر أبي الطيب لمن تأمله ملء بـالإشارة الخفية وهذا من معدن ميله إلى الإيجاز.

ثم إنه كان ينشد شعره فضلاء أذكياء، فإما فطنوا إلى مراده بما رزقوه من سعة الاطلاع، واما تفطنوا إليه من بعد فأدركوا مغامض معانيه مثلا قوله:

خف اللــه واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت ذابـت في الخدور العواتق

والرواية الأخرى(حاضت في الخدور العواتق) ولعلها هي الأولى وعيبت على أبي الطيب وما أشك أنه يشير إلى تفسير من فسر قوله تعالى(أكبرنه وقطعن أيديهن) بمعنى الحيض والله أعلم.

ومثلا قوله:ـ

أمنعمة بالعودة الظبية التي بغير ولي كان نائلها الوسمى

الوسمى المطر الأول والولي بعده ـ قال ابن الرومي ، وكان أبو الطيب من حملة ديوانه ورواته ، يصف روضة :ـ

شكرت نعمة الولي على الوسـ ـمى ثم العهاد بعد العهاد

وأشار إلى هذا المعنى في قوله

من يزره يزر سليمان في الملـ ـك جلالا ويوسفا في الجمال

وربيعا يضاحك الغيث فيه زهر الشكر من رياض المعالي

ورياض المعالي من أنفاس النسيم ونفحاته . ولا غرو فقد كان يحب البرية مع كثرة أسفاره . وهو بعد القائل

وكيف التذاذي بالأصائل والضحى إذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

والقائل

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

والقائل

رعى الله عيسا فارقتنا وفوقها مها كلها يولى بجفنيه خده

بواد به ما بالقلوب كأنه وقد رحلوا جيد تناثر عقده

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده

وحال كإحداهن رمت بلوغها ومن دونها غول الطريق وبعده

ثم يقول بعد بيت(مها لك لم تصحب إلخ) من الميمية ، وإنما استطردنا عن ذلك فطال الاستطراد قليلا :ـ

فأبصرت بدرا لا يرى البدر مثله وخاطبت بحرا لايرى العبر عائمه

عجبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذى طماطمه

وكنت إذا يممت أرضا بعيدة سريت فكنت السر والليل كاتمه

لقد سل سيف الدولة المجد معلما فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه

على عاتق الملك الأغر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه

وشعر أبي الطيب الجيد في سيف الدولة خاصة كثير مشهور. ولعل أميرة القصائد السيفيات كلهن ، وليست بأطولهن ، ميميته العتابية :

واحـــر قلبـــاه ممن قلبـــه شبم ومن لجسمي وحـــالي عنـده سقم

وهي خطابية جهيرة. غير أن شكلها لمن تأمله أقدم معدنا وجوهرا من خطابيات أبي تمام وبشار. إذ أبـو الطيب كما يغرف من بحر التجـارب وكما يحتوى محاسن حبيب والوليد وابن الرومي وينتهب منها ومن غيرهم من مفلقي المحدثين، يتجاوز هؤلاء على أخذه منهم و انتهابه، إلى شعـراء الجاهلية، بنظر شديد يجمع فيه بين الأصـالة المبدعة والحذو البارع المفتن

في هذه الميمية العكاظية ـ قالوا إنه أنشدها في محفل من العرب، وقال أبو منصور ما معنـاه أن أكثرهـا على جودتها يدخـل في باب إساءة الأدب بـالأدب ـ حـذو ما على شكل التخصير القديم. أي الشكل الذي يفصل الشاعر بين أول قسم منه وآخر قسم بالحكمـة أو ما يجرى مجراهـا. وقد ضربنـا أمثلة مـن تصرف الشعراء في هـذا الباب. منهن لامية كعب ابن زهير. وحـذو هذه اللاميـة في الشكل وفي معدن الوزن حـذا أبو الطيب. ولاغرو فهي اعتذار ضمنه التماس يتبرأ به كأنما هو عتاب رقيق:

لا تأخـــذني بأقـــوال الـــوشـــاة ولم أذنب وإن كثــــرت في الأقـــــاويل

لقـــد أقـــوم مقــامـــا لـــو يقـــوم بـــه أرى وأسمع مـــا لـــــو يسمـع الفيل

لظل يـــــرعـــــد إلا أن يكـــــون لـــــه من الـــرســـول بإذن اللـــه تنـــويل

حتى وضعـت يميني لا أنـــــازعهـــــا في كـف ذي نقمات قيلـــــــه القيـل

فلهـــــو أهيب عنـــــدي إذ أكلمـــــه وقيـل إنك منســــــوب ومسئـــــول

مـن ضيغم بضراء الأرض مسكنـــــــه من بطـن عثـــــر غيل دونـــــه غيـل

يغـــــدو فيلحـم ضرغـــــامين عيشهما لحم من القـــوم معقـــور خـــراديل

هل أراد بقوله«عيشهما» ههنا«خبزهما»؟في بعض اللغات السامية أن اللحم هو الخبز؟

إذا يســـــاور قـــــرنـــــا لا يحل لـــــه أن يترك القـــــرن إلا وهـــــو مجدول

منـــــه تظل سبـــــاع الجو خـــائفـــة ولا تمشـى بـــــواديـــــه الأراجيـل

ولا يـــــزال بـــــواديـــــه أخـــو ثقـــة مطـــرح البـــز والـــدرســـان[1] مأكول

حذا أبو الطيب على: «بـانت سعاد». وإنك لتحس عنده انفاس إيقـاعها وصدى من روح صياغتها. قال كعب:

---

(١) هو السلاح والدرسان: النياب.

لا تأخــذني بأقـوال الــوشـاة ولم أذنب وإن كثــرت في الأقــاويل

صدى من هذا في قول أبي الطيب :

يـا أعدل النـاس إلا في معـاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكـم

وقال كعب :

لقـد أقـوم مقـامـا لـو يقـوم بـه يـرى ويسمع ما لـو أسمع الفيل

لظل يرعد . . . . .

فأصداء من هذا وأنفاس من روحه في قول أبي الطيب :

أنـا الــذي نظـر الأعمى الى أدبي واسمعت كلماتي مـن بـــه صمم

صحبت في الفلوات الوحش . . . .

ثم أليس ثم صدى من قول كعب في بانت سعاد :

حتى وضعت يميني ما أنازعها . . . .

في قول أبي الطيب :ـ

قد زرته وسيوف الهند مغمدة . . . .

وقد ذكـر أبو الطيب الهيبـة في قوله : «واصطنعت لك المهـابة إلخ» وذكـر نيوب الليث وهوله في قوله : «إذا رأيت نيوب الليث بارزة» وأشار بل صور ضغمه حيث قال : «حتى أتته يد فراسة وفم» . وفي «بانت سعاد» نعت الهيبة وتصوير الضيغم الذي يغدو:

. . . فيلحم ضرغـايـن عيشهـا لحم مـن القـــــــوم . . . .

«بانت سعاد» كما ذكرنا من قبل مخصرة ، حذيت على نهج«إن الخليط أجد البين فانفرقا» وأصل جميع ذلك«قفـا نبك» « وهل مـا علمت ومـا استـودعت» وما أشبـه من كـلام القدماء قبل زهير. ومثل بانت سعاد ميمية أبي الطيب هذه ، هي أيضا مخصرة .

قسمها الأول أقام فيه الممدوح مقام المحبـوب ، فهو نسيبي السنخ . وقد نبه أبو منصور على حسن هذا المذهب من أبي الطيب ومحبوب أبي الطيب ، الذي هو ممدوحه ، جعل له مـن صفــــات سعــــاد كعـب مشــــابــــه . أليـس كعـب يقـــول :

أكــرم بها خلــة لـــو أنها صـــدقت مـوعـودهـا أو لـو أن النصـح مقبـول

لكنهـــا خلــة قـــد سيط من دمهـــا فجع وولـع وإخــــلاف وتبــــديل

فما تــدوم على حــال تكــون بها		كما تلــون في أثــوابها الغــول
ولا تمسك بـالــوعــد الــذي زعمت		إلا كما يمسك الماء الغــرابيـل

وقد قال أبو الطيب :

واحــر قلبــاه ممن قلبــه شبم		ومن لحالي وجسمي عنــده سقم

«سعاد» كعب قد بانت فهو يروم اللحاق بها وهي رمز السعادة والنجاة التي طلبها في نصر أمر الجاهلية ، فخانه ذلك الطلب ، فهو الآن يرومها عند الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومحبوب أبي الطيب لم يبن . وكأن قد اقترب بينه . قلب كعب متبول متيم مرهون مكبول

ولكن قلب أبي الطيب وحاله معا سقيمان .

مالي أكتم حبا قد برى جسدي . . . .

فهو حب صادق

وتدعي حب سيف الدولة الأمم

والدعاوى فيها الكذب . محبو سيف الدولة غير أبي الطيب فيهم فجع سعاد وولعها وإخلافها وتبديلها ـ وهب ما يدعونه حبا :

إن كــان يجمعنــا حب لغــرتــه		فليت أنــا بقــدر الحب نقتسم

الحب المدعى دعوى . والحب الذي قد برى الجسد وأسقم القلب والحال . هذه القسمة الضيزى فجع وولع . فقد لبس محبوب أبي الطيب من صفات محبوبة كعب هاهنا .

قــد زرتــه وسيــوف الهنــد مغمــدة		وقــد نظــرت إليــه والسيــوف دم
فكــان أحسن خلــق اللـــه كلهم		وكــان أحسن مــا في الأحسن الشيم

هذا مدح . والنسيب فيه ذكر الوجد وفيه التغزل بذكر المحاسن . وهكذا صنع كعب . إلا أن كعبا بعد المطلع قدم ذكر المحاسن :

ومــا سعــاد غــداة البين إذ رحلــوا		إلا أغن غضيض الطــرف مكحــول
هيفــاء مقبلــة عجــزاء مــدبــرة		لا يشتكي قصر منهــا ولا طــول

ثم بعد أن وصف ثغرها وشبهه بالراح

شجت بـذي شبم من مـاء محنيـة		صـاف بـأبطح أضحى وهــو مشمـول

صار إلى شكوى الوجد والإخلاف والتبديل .

وعكس أبو الطيب هذا الترتيب . وأبت "شبم" إلا أن تجيء في صدر المطلع منبئة بوحى خفى عن أخفى نظر أبي الطيب إلى "بانت سعاد" وتأثره بها عفوا أو عن عمد . وعند من يكون كأبي الطيب ـ ويحسن ههنا الاستشهاد بقوله :

كفاتك ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت وما للشمس أمثال

عند من يكون كأبي الطيب مما يجتمع التأثر العفوي مع العمد . إذ هو رحمه الله قد كان من الشاعرية في الذروة ، التي يذوب فيها قطر الصنعة ومعادنها في حديد الطبع فينشأ من ذلك فولاذ واحد عزيز عديم النظير.

ومضى أبو الطيب شوطا حسنا من المدح :

فوت العدو الذي يممته ظفر في طيه أسف في طيه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة ما لا تصنع البهم

وفصل أبو الطيب معنى المهابة كما ترى

ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها أن لا يواريهم أرض ولا علم
أكلما رمت جيشا فانثنى هربا تصرفت بك في آثاره الهمم
عليك هزمهم في كل معترك وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللمم

أي سوى الظفر الذي تحوزه السيوف الهندية ، يأيها السيف الصارم المجرب الذي لا ينبو.

كان أبو الطيب قد لمح تلميحا بشكواه التي أوردها مورد شكوى النسيب ثم صار منها إلى مدح مطرب كغزل النسيب ، فلما بلغ به أوجه ، رمى بأول أسهم العتاب :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

هذا البيت الثاني عشر هو أول تخصير القصيدة .

وقد يذكر القارىء الكريم موضع التخصير في "قفا نبك" أنه وصف الليل وشكواه وشكوى الزمان .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وأنه في ميمية علقمة حيث أبيات الحكمة التي في طيها أسف شديد :

بل كل قوم وإن عزوا وإن كثروا عريفهم بأثافي الشر مرجوم

وهنا هذه البطولة الفكرية التي جهر بها الشاعر جسور القلب لا يبالي، وسماها أبو منصور إساءة الأدب بالأدب[1]. ومع ذلك نص على هذه القصيدة أنها من المختار.

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

هم الظلم وأنا الأنوار - ومهدت هذه المقابلة لقوله من بعد «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي».

ولا يخفى أن قوله: «يا أعدل الناس إلا في معاملتي» بعد ما كان أطرب سيف الدولة به من المدح في قوله: «أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر» فيه المقابلة التي هي قريب مما سماه أرسطو طاليس بالتحول: (Peripety) في حديثه عن المسرح.

ويستوقفني هنا، لو يذكره القاريء الكريم، مقال شارلس ليال الذي أوردناه في أول هذا الجزء، حيث قال في بعض ما قاله عن شكل الشعر العربي القديم: «وأبعد من ذلك أن يقال مسرحي لأن الشخص الوحيد والمقياس الوحيد المعروفين للمتكلم هما نفسه ومثله الأعلى الذي يعتقده» ا. هـ. ليت شعري هل أحس "ليال" بوجود عنصر مسرحي في شعر العرب الذي اطلع عليه ثم أعياه أمر هذا العنصر إذ لم يجد فيه لا تعدد الشخصيات ولا محاكاة طبيعة أعمال الناس وأقوالهم على الحد الذي حده أرسطو في مسرحيات يونان وسير عليه من بعد في آداب الروم والفرنجة؟

يخطيء من يحسب أن "ليال" أراد بقوله هذا أن يصف شعر العرب بأنه غنائي بالمعنى الاصطلاحي عندهم، أي ذاتي محدود بذلك أن تكون له أبعاد تتخطى الذات إلى ما وراءها من آفاق الفكر والخيال. فقد احترس من أن يفهم عنه هذا الفهم بقوله «هما نفسه ومثله الأعلى» فجعل المثل الأعلى رديفا وصنواً وقرينا للنفس. في المسرحية يصير المثل الأعلى بطلا أو أبطالا وشخصيات بينهن حوار من أقوال وأفعال. وعند الشاعر العربي تبطل هذه المحاكاة ويصير الشاعر بخياله وانفعاله هو البطل والأبطال

---

(1) انظر كتابنا مع أبي الطيب طبع الخرطوم ١٩٦٨ م ومقالنا شاعرية المتنبي المناهل العدد ١٣.

والشخصيات جميع أولئك معا. وبطلان المحاكاة لا يجعل الشاعر غنائيا بالمعنى الاصطلاحي الآنف الذكر أي ذاتيا محدود المدى بالذات، فقد أخرجه تقمصه المثل الأعلى وما يحف به من حدود ضيق الذات. ومن أجل ذلك ما زعمت العرب أن للشاعر رئيا وقرينا. ومن أجل ذلك ما زعم أبو عمرو بن العلاء أن شعراء العرب في العرب بمنزلة أنبياء بني اسرائيل في بني اسرائيل. ومن أجل ذلك ما قال عمر رضي الله عنه إن الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه.

وقفنا هذه الوقفة التي كأنها هي استطراد وليست به، لنقرر معنى ما قدمناه من تشبيه نحو المقابلة التي في قول أبي الطيب «يا أعدل الناس إلخ» بعد مقاله «أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر» بالتحول المسرحي. ولا نزعم بعد أن هاهنا عنصرا مسرحيا إلا على سبيل التقريب والمجاز، على نحو ما يكون قد سبق منا من القول من قبل. ولكن الذي نقطع به أن العنصر البياني الذي اشتق منه النوع المسرحي، موجود في هذا الشعر وفي كثير من جياد القصائد عند القدماء والمحدثين الذين جاءوا بعدهم من شعراء بني العباس والعصور التي تلتهم. وليس قولنا العنصر البياني الذي اشتق منه النوع المسرحي بأمر من المغالطة اللفظية. فقد كفانا توضيح هذا الجانب من حيث معدنه ومعناه، الفيلسوف أرسطو طاليس إذ ذكر أن كلا المسرحية والملحمة محاكاة للطبيعة ـ تعتمد الملحمية على القصص وتعتمد المسرحية على محاكاة الأفعال ومواجهة الناس بها.

المواجهة مع ما يكون معها من ضروب التأثير بالحكمة والحماسة والفكاهة وحلو الكلام ومره، ذلك هو العنصر البياني الأصل. والتعبير المسرحي فرع، وقد عابه أفلاطون لما فيه من الاستتار والتمويه. وهذا بعد باب آخر.

وعند الشاعر العربي عنصر المواجهة صلتا، وقد فصلنا القول من قبل في أمر ما يجعله الشاعر درعا لمقاتل نفسه حين يجهر بالقول من عدوان الناس.

ولقد نعلم أن تلك الدرع على سبوغها كثيرا ما كانت تهتك أو تنتهك عن المقاتل. وحسبك شاهدا في الأولين طرفة. وفي الآخرين أبو الطيب. هذا الذي نحن في معرض الحديث عنه. وقد كادت هذه الميمية تقتله. ولعل شيئا من صداها لم يخل من مشاركة في مقتله. ولقد زعموا أن غلاما له قال له لما أراد الفرار ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قالوا فقال له ما معناه قتلتني قتلك الله وكر راجعا فقتل. فهذا الخبر أصح أم لم يصح فيه نوع من الدلالة على ما قدمنا.

ثم يقول أبو الطيب، وههنا عنصر البطولة ومقاربة روح النبوءة الذي جر عليه مقتله من بعد، والله تعالى أعلم:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي — وأسمعت كلماتي من به صمم

مناسبة هذا المعنى لقوله «الأنوار والظلم» من قبل لا تخفى

أنام ملء جفوني عن شواردها — ويسهر الخلق جراها ويختصم

وجاهل مده في جهله ضحكي — حتى أتته يد فراسة وفم

إذا نظرت نيوب الليث بارزة — فلا تظنن أن الليث يبتسم

ومهجة مهجتي من هم صاحبها — أدركتها بجواد ظهره حرم

رجلاه في الركض رجل واليدان يد — وفعله ما تريد الكف والقدم

هذا البيت صدره من قول امريء القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكأنه تفسير لقول أمريء القيس. وعجزه من قول امريء القيس:

وللساق ألهوب وللسوط درة — وللزجر منه وقع أخرج مهذب

وهذا الذي عابته أم جندب، وكانت هي المحكمة ولها حكمها مسمطا. وقد ذهب أبو الطيب إلى استجادة كلام امريء القيس. وكأنه في البائية «أغالب فيك الشوق» صغا شيئا إلى مذهب علقمة. ولو قد كانت أم جندب حكيمة لقالت أنتما كركبتي البعير. وأبي الناس إلا أن يحطوا مع امريء القيس أنها صبت إلى علقمة، فزعموا أن امريء القيس كان مفركا، وأن أم جندب قالت له إنك سريع الإراقة بطيء الإفاقة. وهذا مع ظاهر طعنه في امريء القيس كأنما هو فرع من مذمة النساء وجرى على مذهب من قال:

لا تركنن إلى النسا — ء ولا تثق بعهودهنه

فرضاؤهن وسخطهن — معلق بفروجهنه

وهذا القول ليس بمنصف إذ لو قطعنا بصدقه على جميع النساء لزم أيضا أن نقطع بصدقه على جميع الرجال.

هذا وفي قول أبي الطيب من بعد:

ومرهف سرت بين الجحفلين به — حتى ضربت وموج الموت يلتطم

أخذ من خبر أبي دجانة رضي الله عنه إذ تبختر بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكان رضي الله عنه من الأبطال وأبلى البلاء الحسن.

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والحق أن فروسية أبي الطيب كلها إنما كانت فروسية القرطاس والقلم. وينبغي أن يحمل كثير مما يفتخر به فارسا على هذا الوجه. وقد بسطنا جوانب من هذا المعنى في كلمتنا «شاعرية المتنبي».

صحبت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكم

وهذا معنى يدور كثيرا في شعر أبي الطيب، وقد غرفه من بحر تجربته إلا أن النقاد أبوا إلا أن يتهموه بالأخذ من الصعاليك ومحاكاتهم، في مثل قوله:

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل

ومثل قوله:

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها

ولا ريب قد حذا على نحو:

وقنـة كسنـان الـرمح بـارزة ضحيـانـة في شهـور الصيف محراق
بـادرت قنتهـا صحبى ومـا كسلـوا حتى نميـت إليهـا بعـد إشراق
بشرثـة خلق يـوقى البنـان بها شـددت فيهـا سريحا بعـد إطـراق

ونحو:

ويـوم من الشعـرى يـذوب لـوابـه أفـاعيـه في رمضـائه تتململ
نصبت لـه وجهي ولا كـن دونـه ولا ستر إلا الاتحمـي المرعبـل

وفي تـرجمة أبي منصور لـه مـا يفيـد أنه قضى فترة من عمـر شبـابـه صعلوكـا أو كالصعلوك، فقرا، وتجشم أسفار، وتوقع مكاره. وهو بعد القائل:

أجـارك يـا أسـد الفـراديس مكـرم فتسكـن نفسي أم مهـان فمسلـم
ورائي وقـدامى عـداة كثيرة أحـاذر من لص ومنك ومنهـم
فهل لـك في حلفى على مـا أريـده فـإني بأسبـاب المعيشـة أعلم
إذا لأتـاك الخير من كـل وجهـة وأثـريت ممـا تغنمين وأغنـم

فقد سمع زئير أسد الفراديس وأحست نفسه الخوف منها، ولكنه لما صار إلى قول الشعر مزج تجربته هـذه بالأخذ من كلام القتال الكلابي حيث قـال في صحبته النمر ما

قال ـ من ذلك :

فأغلبه في صنعة الزاد إنني　　أميط الأذى عنه وما إن يهلل

فقول أبي الطيب «فاني بأسباب المعيشة أعلم» من هاهنا .

وما خلا أبو الطيب ، في ذكر الفروسية والفخر بها ، من أخذه من عنترة وعنترة بيانه من الأصل البياني الأول ، الذي أسلوب الملاحم فرع منه ، وذلك أنه لا يقص علينا سيرة بطل آخر يحاكي أفعاله بقول يزينه ، ولكنه يقص سيرة نفسه علينا ، يمزج بين الغرف من بحر تجربتها ومن المثل الأعلى ، الذي هو حينا من لبه ـ كما قال :

ذلل ركابي حيث كنت مشايعي　　لبي وأحفزه بأمر مبرم

وحينا من وصاة عمه ـ كما قال :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى　　إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

وفي معنى عمه بعض الدلالة على ابنة عمه . وكأن العم كناية عن الحسب والشرف وابنة العم كناية عن المحبوبة ــ فالعم كما ترى هو الولي الذي يغار عليها ويشترط الشروط على من يلتمس الصهر عنده .

هذا وبعد أن قال أبو الطيب «صحبت في الفلوات الوحش مغتربا» أعلن عزمه على الرحلة والفراق :

يا من يعز علينا أن نفارقهم　　وجداننا كل شيء بعدكم عدم

هذا هو البيت الرابع والعشرون . وبيت «القور والأكم» قبله هو آخر تخصير القصيدة ، وهذا البيت أول قسمها الثالث . غير أننا نلفت نظر القارىء الكريم إلى تصرف تصرفه أبو الطيب في التخصير، هو من سنخ تخلصه في سائر أجزاء القصيدة . وذلك أنه وشح التخصير أو قل نطقه بأبيات كأنها خروج منه إلى القسم الثالث ، ولكنها ليست بخروج ، فطال بذلك التخصير بعض الطول للوصل الذي بينه وبين القسم الثالث وهو من عند قوله :

ومهجة مهجتي من هم صاحبها　　أدركتها بجواد ظهره حرم

إلى قوله :

صحبت في الفلوات الوحش . . .

وإنما زعمنا أن هذا نطاق لقوة الشبه بينه وبين ما يقع بحسب عادة الشعراء في القسم الثالث من الذكرى نحو: «وقد أغتدى والطير» في «قفا نبك» ونحو «قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم» في «هل ما علمت» . ولكنه ليس حقا مبدأ قسم ثالث ، إذ مبدأ القسم الثالث من عند «يامن يعز علينا» . وفيه عودة إلى ما بدأ به التخصير وهو قوله «يا أعدل الناس إلا في معاملتى» وقد فصل هنا ما أجمله هناك :

يــامن يعــز علينـــا أن نفـــارقهم   وجــدانـنــا كل شيء بعــدكم عــدم

فهذا إنذار طيه غضب. وقوله وجداننا إلخ يفهم منه أيضا معنى:
«وجدانكم كل شيء بعدنا عدم» والبيت التالى قوى الدلالة على ذلك:

مـــا كـــان أخلقنـــا منك بتكـــرمـــة   لـــو أن أمـــركم مـن أمـــرنـــا أمم

قيل رماه سيف الدولة بدواة لما قال هذا فقال:

إن كـــان سركم مـا قـــال حـــاسدنـــا   فما لجرح إذا أرضـــــــاكـم ألم

وهذا عين الألم. والبيت يحمل في نفســه طابع أنه جيء به على البـديهة لاتصال البيت بعده بالبيت الذي سبقه، وهو كالمعترض، فلذلك حسن موقعه:

وبيننـــا لـــو رعيتم ذاك معـــرفـــة   إن المعـــــارف في أهل النهـى ذمـم

ثم احتد أبو الطيب مرة أخرى. إذ مما أثار ذلـك ذكر الذمم، وإخفارها مما يغضب له ويثار

كم تطلبـــون لنـــا عيبـــا فيعجـــزكم   ويكـــره اللـــه مـــا تأتــون والكـــرم

العتب هنا شـديد مر. وأحسب أن هذا ما عنـاه أبو منصور إذ نعته بأنـه داخل في باب إساءة الأدب بالأدب (الأدب الأولى من قولك أديب شاعر ناثر راوية هلم جرا والأدب الثانية أى حسن السلوك والتهذيب أو العكس) وقد يعتذر لأبي الطيب أن هذا موضع التفا ت، فيكـون قولـه «كم تطلبون لنا عيبـا» أراد به عيابيـه عند الأمير. ويقـوي هذا الوجه بيـت الافتخار الذي يتلوه، إذ يحسن مـوقعه أنه أراد به مواجهـة أعدائه لاسيف الدولـة. وقد ذكـروا أن ابن خالـويه رمـاه بمفتاح فشجـه. فنتساءل: هل التفـت أبو الطيب التفات تعريض به أو أشار أو جاء بوحى في إنشاده بشيء من ذلك؟

مـــا أبعـد العيب والنقصـــان عن شرفي   أنـــا الثـــريـــا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الــذي عنـدى صـواعقــه   يـــزيلهن إلى مـن عنـــده الـــديم

فالغمام سيف الـدولة. ومن عنده الـديم ابن خالـويه وأبو فـراس ولفهم. وليت تفيد محض التمنى الأماني ضلال. فلم يبق لأبي الطيب إلا أن ينجو ويفارق:

أرى النـوى تقتضيني كل مـرحلـة   لا تستقل بها الـوخـادة الـرسم
لئن تـركن ضميرا عـن ميـامننـا   ليحـدثن لمن ودعتهـم نـدم

قالوا وكـان صاغه أولا: «ليحدثن لسيف الـدولة الندم» والكنايـة في هذا الموضع أجود من التصريح. ثم في «من ودعتهم» عموم يدخل فيه مع سيف الدولة من عسى أن لو شاء انتصر له.

إذا تـرحلـت عن قـوم وقـد قـدروا   ألا تفـارقهـم فـالـراحلـون هم

إذ هذا يكون رحيل فراق القلوب. وقد كشف هذا المعنى من بعد إذ قال:

شر البـلاد مكـان لا صـديق بـه   وشر مـا يكسب الإنسـان مـا يصم

كأن يبقى للكسب بحيث لا ود ولا صـديق. ومـا أسرع حينئـذ مـا يكـون أعـداؤه الى الطعن فيه والحط من قـدره. فتمكنهم مقاتله من حيث لا يحتسب ولا يقـدر على جنة أو انتصار.

ثم يجيء الغضب، أنفا من هذا الشر، ومن كسب يصم:

وشر مـا قنصتـه راحتي قنـص   شهب البـزاة سـواء فيـه والـرخم

هـذا قـريب من قـولـه «أن تحسب الشحم فيمن شحمـه ورم» لأن في ألـوان الـرخمات شهبة. وإنما صيدهن الرمم.

بأي لفـظ تقـول الشعـر زعنفـة   تجوز عنـدك لا عـرب ولا عجم

فقد سلم أبو الطيب هنا بأن للعجم شعرا. وما أرى دعاه الى هذا التسليم إلا قصده الى أن يجرد أعداءه من كل فضيلة يمت بها الى بيـان الشعر، ما عرفته العـرب وارتضته وهو الشعر، ومـا زعمت أمم العجم له من ضروب بيانها أنـه شعر. وقد كان كـان أبو نصر الفارابي عالما بفلسفـة يونان وشعرهـا، يدل على ذلك ما بسطه من قـول عن القافية في الموسيقا الكبير. ولا يستبعد أن يكون أبو الطيب قد لقيـه وأفاد منه علما. وقد ذكروا أنه كان كثير النظر في كتب الفلسفة: وهو بعد القائل:

من مبلـغ الأعــراب أني بعـــدهـــا　　　شـــاهـدت رسطــا ليس والإسكنـــدرا
ورأيت جـــاليـنــوس دارس كتبـــه　　　متفلسفـــا متبـــديـــا متحضرا

وزعم الحاتمى أنه أخذ كل حكمه من أرسطو طـاليس. وهذا باطل. فقد كان أخذ أبي الطيب من شعراء العـرب قدمائهم ومحدثيهم على رأس هؤلاء المحـدثين أبو تمام ثم ابن الـرومي والبحترى وأبو نـواس ومسلم وبشار ثم سـائر المحدثين من بعـد. وكان أبـو الطيب بدقائق أسرار الشعر عالما.
ثم ختم القصيدة بقوله:

هـــذا عتـــابك إلا أنـــه مقـــة　　　قـــد ضمـن الـــدر إلا أنـــه كلم

قوله مقة لا ريب يشير به الى قوله في شعر له في سيف الدولة من قبل إذ ألمت به علة:
وقد يؤذي من المقة الحبيب

أى إن كرهت بعضه فاذكر أنه إنما دعاني بـه اليه حبك. وقوله: «قد ضمن الدر» جعله في مقابلة «بأى لفظ تقول الشعر» ـ أى هذا الذي أجيء أنا به هو الدر. أما هؤلاء فليس لهم من لفظ الشعر إلا الآجر والبعـر وما أشبه. وبيت الختام فيـه عودة الى المعنى الذي استهل به. كما أن فيه إدلالة انتصار.
إن تلك ميمية أبي الطيب هذه من أصـل البيان الذي البيان المسرحي فرع منـه، وقد بينا مرادنا من هذا القول، فإن بائية حبيب من أصل البيان الذي البيان الملحمي فرع منه.
ولا نقول بمفاضلـة بين الأصول بنحو مما يقول بـه نقاد الافرنج من المفاضلـة بين ما هو عندنـا فروع من هـذه الأصول. على أن نقاد الافـرنج قد قـرنوا هـو ميروس بالمسرحيين وربما فضلوه عليهم. والى نحو هذا القول ذهب نقاد الطليان في دانتي بحسب ما ذكرته الموسوعه البريطانية في الباب الذي عقدته للشعر.
هذا ومن جياد أبي الطيب التي شكلها من ذوات التخصير:

حتـام نحن نســـارى النجم في الظلم　　　ومـــــا سراه على خـف ولا قــــــدم

وهي من فـرائده وقلائده، كما كـان يقول أبـو منصور فيما يـروم مدحـه من إحسانـه. وليست هذه القصيدة من حيث أغراضها حقا في رثاء فاتك ولكنها في التأمل والحكمة ورثاء فاتك جيء بـه على وجه العظة والاعتبار. كما أن هجاء كافـور جيء به في العينية التي رثى بها أبو الطيب فاتكا لا لأن هجاءه من غـرضها، ولكن لزيادة شعور التفجع

رثى بها أبو الطيب فاتكا لا لأن هجاءه من غرضها، ولكن لزيادة شعور التفجع من طريق المقابلة، وذلك قوله:

قبحا لوجهك يا زمان فإنه   وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك   ويعيش حاسده الخصي الأوكع
أيد مقطعة حوالي رأسه   وقفا يصيح بها الا من يصفع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته   وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة   وسلبت أطيب ريحة تتضوع

ثم رجع الى الرثاء

هذا، والقسم الأول من القصيدة من قوله: «حتام نحن نسارى النجم في الظلم» إلى قوله:

مكعومة بسياط القوم نضربها   عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

وقد زعم ابن رشيق أن أبا الطيب كان يعمد إلى التهيب بذكر الخيل ويؤثرها على الإبل.

وهذه القصيدة، والمقصورة

ألا كل ماشية الخيزلى

وغيرهما مما يشهد بأنه كما كان صاحب خيل كان أيضا كثير الرحلة بالإبل وصافا لها في شعره عارفا بأصناف جيادها، من ذلك ذكره إبل البجاة الصهب وهي من أسرع الإبل وهو قوله:

وكل نجاة بجاوية   خنوف وما بي حسن المشى
ولكنهن حبال النجاة   وكيد العداة وميط الأذى

أستهل أبو الطيب بذكر السرى. فليله ليس كليل النابغة في:

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وفي قوله:

كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا　　وهمين هما مستكنا وظاهرا

وليس كليل الراعي إذ قال :

ما بال دفك بالفراش مذيلا　　أقذى بعينك أم أردت رحيلا

على أنه قد أخذ من النابغة قصة مراعاة النجم، ومنه ومن الراعي ومن غيرهما كالأسود ابن يعفر في :

نام الخلي وما أحس رقادي

شكوى السهر وفقد الرقاد.

بداية أبي الطيب المضمرة نسيب، وأحبابه هؤلاء الملوك الذين هم شر فجعا وولعا من سعاد كعب بن زهير واكثر إخلافا وتبديلا.

وهو بعد القائل :

فراق ومن فارقت غير مذمم　　وأم ومن يممت خير ميمم

هذا يقوله بلسان الرجاء. ولكن هذه الميمية مخالطها الغضب والحزن وصرف الرجاء عمن كان ظنه موضعا للرجاء.

لذلك كانت بدايته المظهرة بالسرى والرحلة والدأب، فرارا من هذا الحب الكاسد الفاسد. بدايته كأنها بعد دموع كدموع علقمة ولكنها ليست بدموع شوق، ولكن دموع ملامة لنفسه على الذى سبق منه من الشوق. وبرحلة على عكس ما تمناه علقمة إذ قال :

هل تلحقني بأخرى الحي إذ شحطوا　　جلذية كأتان الضحل علكوم

إذ هي رحلة فراق وفرار

حتام نحن نساري النجم في الظلم　　وما سراه على خف ولا قدم

ولايحس بأجفان يحس بها　　فقد الرقاد غريب بات لم ينم

هذا المعنى نابغي مردود على بداية النسيب المضمرة، إذ ههنا هو بمصر ساهر يراعي النجم الذي في المطلع هو مرتحل يساريه. ولقائل أن يزعم أنه في البيت الأول بمصر

ومساراته فكرية مجازية وهذا الوجه يضعفه قوله من بعد :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ولا تسود بيض العذر واللمم

فهذا منبىء عن السفر. وقد شكا أبو الطيب وخط الشيب وجهه شكوى خفية حيث قال :

ومن هوى الصدق في نفسى وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

لم يخل أبو الطيب من عقدة كافورية في هذا البيت وفي قوله من بعد :

وكان حالهما في الحكم واحدة لو احكتمنا من الدنيا إلى حكم

ثم أخذ في السير. وبدأ ذلك بنوع من رثاء النفس. كأنه قد أحس ملالا من طول الدأب الذى لا نهاية له. وكأنه قد جعل الماء رمزا لهذا المعنى، وكأنه يرثى للماء من طول رحلته، آنا هو سائر في السحاب. وآنا آخر هو سائر في القرب على ظهور الإبل

ونترك الماء لاينفك من سفر ماسار في الغيم منه سار في الأدم

مكان الرمز في قوله(ونترك الماء لا ينفك من سفر) أي لولانا لكان قد استقر حيث يجد من الأرض قرارا.
ثم أحس أبو الطيب أنفاس النجاة والحرية المخالطة لهذا السير، فوجد لذلك هزة طرب أريحي ونشوة من انتصار:

لا أبغض العيس لكنى وقيت بها قلبي من الحزن أو جسمي من السقم
طردت من مصر أيديها بأرجلها حتى مرقن بنا من جوش والعلم
تبرى لهن نعام الدو مسرجة تعارض الجدل المرخاة باللجم

ههنا نفس من علقمة، إذ علكومه التي تمنى بها النجاة

كأنها خـــاضب زعـــر قـــوادمـــه أجني لــــه بـــاللـــوى شري وتنـــوم
يظل في الحنظـل الخطبـــان ينفقـــه ومـــا استطف مـن التنـــوم مخذوم
فـــوه كشـق العصـــا لأيـــا تبينـــه أسك مـــا يسمع الأصـوات مصلـــوم
حتى تـــذكـــر بيضـــات وهيجـــه يـــوم رذاذ عليـــه الـــريح مغيـــوم

ومن هذه الأبيات أصداء في قول أبي الطيب «مـاسار في الغيم منه» وفي قوله «تبرى لهن نعام الدو» عنى بها الإبل وقد قرنها بـالخيل من غير ما تفضيل للخيل عليها كما زعم له ابن رشيق وذلك في قـوله «تعـارض الجدل المرخـاة باللجم» ــ وقـوله من بعـد «تخدى الركاب» وسنعـود إن شاء الله إليه بـالتنبيه في موضعه فيـه أصداء من «يظل في الحنظل الخطبان الخ» وقوله من بعد:

في غلمـــة أخطـــروا أرواحهم ورضـــوا بما لقين رضـــا الأيســـار بـــالـــزلم
تبــــدو لنــــا كلما ألقــــوا عمائمهم عمائم خلقـت ســـودا بــــلا لثـم

يعني لمات الشباب الغدافي

بيض العـــوارض طعـانـون مـن لحقـوا من الفــــوارس شــــلالـــون للنعم
قـــد بلغـــوا بقنـــاهـــم فـــوق طـــاقتـــه وليـس يبلغ مــــــا فيهـم من الهمـم

قوله في "غلمة" يحمل أنفاسا من قول علقمة

وقد أصاحب فتيانا طعامهم خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

يدلك دلالة قوية على أبا أن أبا الطيب لم يغب عنـه قول علقمة إذ جعله نموذجا آيات بينة منهـا قوله «رضا الأيسـار بالزلم» وقبل بيت علقمـة هذا قوله «لـو ييسرون بخيل قد يسرت بها البيت» وقد قال علقمة بعد هذا البيت

وقـــد علـــوت قتـــود الـــرحل يسفعني يـــــوم تجيء بـــــه الجوزاء مسمـــــوم
حـــام كـأن أوار النـــار شـــاملـــه دون الثيـــاب ورأس المرء معمـــــوم

فقد ذكر أبو الطيب تسويد الشمس «بيض أوجهنا» ، المعنى الذى فيه العقدة الكافورية التي أشرنا إليها آنفا . ثم ذكر العمائم في قوله «تبدو لنا كلما ألقوا عمائهم» فدل على أنهم سافروا يقون أنفسهم بذلك من أوار الشمس كما قد صنع أصحاب علقمة.
ثم بما كان في نفسه من هوى الصدق وعادته نجد أبا الطيب ينبهنا أنه إنما اقتدى بعلقمة تلميحا كالتصريح وذلك قوله بعد هذا البيت «قد بلغوا بقناهم الخ» :

في الجاهليـــــــة إلا أن أنفسهـم   من طيبهـن بـــه في الأشهـــر الحرم

قوله «في الجاهلية» تنبيه وإشارة إلى وصف شعراء الجاهلية الموامي والمياه الأواجن وصحبة القفار. وما ذكره هو خاصة في هذه القصيدة يومىء بإصبع إلى ميمية علقمة

ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة   فعلموها صياح الطير في البهم

ناشوا هذه قرآنية من قوله تعالى «وأني لهم التناوش» بهمز الواو وترك الهمز. وقال الراجز:ـ

باتت تنوش الحوض نوشا من علا   نوشا به تقطع أجواز الفلا

وقوله فعلموها صياح الطير ينبئ عن تجربة وهو في قوله :

وملمومة سيفية ربعية   يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

واللقالق ضرب من الطير. وأصل المعنى من عنتره : «تمكو فريصته كشدق الاعلم»
والمكاء صفير وصلة الصفير بالطير لاتخفى

تخدي الركاب بنا بيضا مشافرها   خضرا فراسنها فى الرغل والينم
مكعومة بسياط القوم نضربها   عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

هذان البيتان نجد فيهما صدى من خطبان علقمة وتنومه الذى ينقف الظليم ما استطف منه وأبي سوط علقمة الذى ذكره في قوله : «تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة» وهذا قبل بيت الظليم ونعته ، إلا أن يكون له صدى منبىء عن أصل مكان الأخذ الذى أخذه أبو الطيب ـ وهو قوله«مكعومة بسياط القوم» وسائر البيت من قول حبيب :

أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

ثم يأتى بعد ذلك القسم الأوسط من القصيدة. وقد صنع فيه صنعا قريبا مما صنع في «واحر قلباه ممن قلبه شبم» وذلك أنه جاء بالتخصير المحض ثم وشحه قبل أن يصير إلى القسم الثالث من القصيدة الذى هو نهايتها وأوله «توهم القوم».
أول التخصير «وأين منبته». وأنزل رثاء فاتك منزلة العظة والاعتبار والحكمة:

وأين منبته من بعد منبته أبي شجاع قريع العرب والعجم
لافاتك آخر في مصر نقصده ولاله خلف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في شيم أمسى تشابهه الأموات في الرمم
عدمته وكأنى سرت أطلبه فما تزيدني الدنيا على العدم

هاهنا مرارة بالغة كأن قد عاد بها عودا قاتما إلى قوله من قبل:

ونترك الماء لا ينفك من سفر ما سار في الغيم منه سار فى الأدم

إلى مه والى من هذا السير وقد عدم فاتكا. وما أمامه إلا العدم وكأنما هو سائر بآماله إليه هل عند الدنيا زيادة على هذا العدم يبتغى أن تزيده إياها؟ فيم هذا العناء وإلام هذا السير؟
ومتصل بالسير ذكر الإبل. وفيه أنفاس من ذكريات الماضى ومن هاهنا مبدأ التوشيح والتنطيق:

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم

جاء ذكر الأصنام وتفسير رمزها أوضح في المقصورة حيث قال:

وقد ضل قوم بأصنامهم وأما بزق رياح فلا

ومراده بالاصنام هنا كافور وكثير غيره ممن قصدهم ولم يجد عندهم الا قليلا مما كان يأمله كأنه لا شىء. ولعله لا يخرج سيف الدولة كل الإخراج من نفحة هذا الذم. إلا أن قصده إلى كافور أوضح، لان عهده به كان أقرب، وأمله فيه كان أضخم لما كان يعتقده في نفسه من نقص فيه ربما ييسر له سبيل ذلك. فكانت خيبة ذلك الأمل شديدة مرارة الوقع.

حتى رجعت وأقلامى قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

وما كان مجد كافور بالسيف ولكن بالدهاء مع الذكاء

اكتب بنـا أبـدا بعـد الكتـاب بـه فإنما نحـن لـلأسيـاف كـالخدم
أسمعتنى ودوائى مـا أشرت بـه فـإن غفلت فـدائى قلـة الفهـم
من اقتضى بسـوى الهندي حـاجتـه أجـاب كـل سـؤال عن هـل بلم

فهذا آخر التخصير وماله من وشاح
وآخر القصيدة ذكريات وحكمة وعزاء وأسى واعتـذار عن هذا الدأب الـذي إنما هو عناء وضياع وقت في غير ما طائل :

تـوهم القـوم أن العجـز قـربنـا وفي التقـرب مـا يـدعـو إلى التهم

القوم هم كافـور وسائر الملوك ولعل القصد إلى سيف الدولة هنـا أظهر لأن دلالة ما يلى من الأبيات عليه أقوى :

ولم تـزل قلـة الإنصـاف قـاطعـة بين الـرجـال وإن كـانـوا ذوى رحم

هنا إشارة إلى بيت طرفة

فـلا زيـارة إلا أن تـزورهـم أيـد نشـأن مع المصقـولـة الخذم
من كل قـاضيـة بـالموت شفـرتـه مـا بين منتقـم منـه ومنتقـم
صنـا قـوائمهـا عنهـم فما وقعت مـواقع اللـؤم في الأيـدى ولا الكـزم

فسروا هذا البيت بأن المراد أنهم لم يسلبونا سيوفنا ، فقـد نجونا منهم وهي بأيدينا التى لا هى ذوات قصر ولا بـذوات لؤم . والكـزم قصر اليد . ومعنـاه هنا الجبن لأن الشجـاع يمضى قدما كما قال قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيـافنـا كـان وصلهـا خطـانـا إلى أعـدائنـا فنضـارب

وفي القاموس : «وككتف الرجل الهيبان» أي الهيوب والكزم بالتحريك البخل وقصر في الأنف والأصابع . وفي قول أبي الطيب معني القصر والبخل والجبن جميعا . وعندى أن قـوله صنـا قـوائمها كأن قـد قـال صناهـا عنهم ثم اعتـذر بأن ذلك لم يكن بسبب أن قوائمها وقعت من أيـدينا موقع لؤم وجبن . وأضرب أبـو الطيب عن ذكر السبب الذى من أجله صان سيوفه عن تضريب أعناق هؤلاء الملوك . وقد كان قال من قبل :

وجنبنى قـرب السـلاطين مقتهـا ومـا يقتضينى من جماجمهـا النسر

وقال :

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وكأن أبا الطيب بقوله: « صنا قوائمها عنهم» يتندم على تركه قتالهم واستبداله ذلك بالتقرب منهم فحسبوه عجزا «وفي التقرب ما يدعو إلى التهم» وكأنه يعتذر مع ذلك بأن ما ترك من قتلهم أو قتالهم إنما كان صيانة لهذه السيوف. فإلى متى هذه الصيانة؟ لاعجب إذن أن بادر أعداؤه فقتلوه مرجعه من عضد الدولة. فقد جمع من المال وبعد السمعة ما كان عسى أن يهيىء له سبيل الوثوب ــ على أنى أرجح أن هوس طلب السلطان الذي اتهمه به أبو منصور ما كان إلا أحلام شاعر وأن معاركه التى خاضها أو كان يبغى بعد أن يخوضها ما كانت إلا معارك هذا القريض. وصدق الله عز وجل: «يقولون ما لا يفعلون»

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم

برفع منظره أى ما بدا شاقا كريها فليهن أمره عندك إذ هذه الدنيا ما هي إلا حلم، ومن نصب منظره عمم المعنى، أى كل تراه فليهن عليك إذ حقائق هذه الدنيا كباطل الأحلام

ولا تشك إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ذكر الغربان مفردها وجمعها كثير عند أبي الطيب. وهنا لا يخلو من أن يكون فيه صدى من غربان علقمة التي هي طير في أول الميمية (عقلا ورقما تظل الطير تخطفه) وهي غربان سافرة في آخرها حيث قال: (ومن تعرض للغربان يزجرها البيت)

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

هذا المعني يتكرر عند أبي الطيب «إذا رأيت نيوب الليث» «ولما صار ود الناس خبا»

ولا تشك إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الأخبار والقسم

ثم تبلغ الحكمة ذروتها في قوله بعد، ويخالط ذلك نفس المأساة والغناء الحزين:ـ

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم
الدهر يعجب من حملى نوائبه وصبر نفسى على أحداثه الحطم

يقول شكسبير في كلمته المشهورة على لسان هامليت: (٣ـ ١ ـ س٥٦ ـ ٩٠)

To be or not to be: That is the question

ألبقاء أم اللابقاء ـ ذلك هو السؤال

فى السطر (٧٦) . . . ,Who would fardels bear....

من كان يحتمل هذه الأعباء[١]. . .

هل اطلع شكسبير على قول أبي الطيب: «الدهر يعجب من حملي نوائبه؟» أليست في حكمته في هذه القطعة من مشهور قوله أنفاس من أصداء حكمة أبي الطيب:

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

فيزعم بعض البلاغيين أن ها هنا إيجازا بالحذف أي فساءنا والمعنى يفسد بهذا التفسير، والصواب أن نأخذه كما أعطاه الشاعر، ومن أتبعه«فساءنا» تفسيرا له فقد حد من سعة آفاقه.

ما أشد تقلب قلوب البشر ولا سيما الشعراء. قد قال أبو الطيب في مقطوعة له نونية نظمها بمصر قبل نظمه هذه الميمية:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعنَاهم من شأنه ما عَنانا

وتولوا بغصَّة كلُّهم منـ ـه وإن سر بعضهم أحيانا

فهل أراد بقوله: «أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم» تفسير قوله من قبل«وإن سر بعضهم أحيانا» فهؤلاء البعض، إنما كان سرورهم على زمان شبابه وهو المرموز له بقوله«أحيانا»، أو رجع أبو الطيب عن ذلك القول بنسبة العناء والشر إلى زمانه هو؟ ها هنا تقلب قلب الشاعر. وذلك أن روح الميمية روح حزن وغضب وهجاء.

وقد صار من بكاء فاتك وهجاء حاسده الخصي الأوكع إلى الأسف على نفسه والعبرة بموت فاتك وهجاء الناس كلهم، فكلهم خصي أوكع ودهرهم هرم برم.

وما خلا أبو الطيب في اختتامه هذه الميمية الرائعة بالزمان الهرم من تأثر بأواخر أبيات ميمية علقمة حيث ذكر النوق الحسان ومعها صغارها تتزغم ووراءها فحل أكلف مختبر كثير اللحم.

---

(١) وأن ينوء باعباء الحياة لولا خوفه ما بعد الموت الى آخر ما قاله. وقد أدخل فيه من معنى قول أبى الطيب«فإن لثالث الحالين معنى». انظر ما يلي

فحل علقمة فتي قوي ضخم كالفيل أسود كالليل الظليل. ليس بأسود رهل خصي رخو مداهن ككافور وأشباه كافور ممن ليسوا بسود ولا خصيان ولكنهم ـ أوكما قال

كأن الأسود اللابي فيهم   غراب حوله رخم وبوم

رحم الله أبا الطيب. إنما كان شاعرا عظيم الخيال ضعيف المحال.
وقد كان ناقدا ذواقة مبينا عالما بمكان نفسه من ذلك كله عالما أيضا بأنه غير مصيب على مايحسنه من جزاء مكافىء له. وقد أحسن إذ يقول لسيف الدولة:

ومالي ثناء لا أراك مكانه   فهل لك نعمى لاتراني مكانها

وكأن قال «وكم لك من نعمى أنا أستحقها وعداي الذين سيتغلبون على آخر الأمر عندك لايرونني أهلا لذلك ولا مكانا له.»
وفي هذه النونية أبيات جياد في نعت بعض ما كان من زخارف وتصاوير على ما أهدى له سيف الدولة من ثياب الديباج:

ترينا صناع الروم فيها ملوكها   وتجلو علينا نفسها وقيانها
ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها   فصورت الأشياء إلا زمانها

وهذا من عجيب القول وبعيد أغواره إذ الزمان هنا عنده بعد من الأبعاد عجز الرسام أن يقيده أو يرمز له بقيد كما قد فعل بالأبعاد المكانية.

وما ادخرتها قدرة من مصور   سوى أنها ما أنطقت حيوانها

فهذا ينقل معنى حيوية ما صورته من حيوان إذ لم تدخر قدرة تصويرية إلا أتت بها إلا أن ينطق الحيوان. وما خلا أبو الطيب هنا من أخذ دقيق من قول ابي عبادة

يغتلي فيهم ارتيابي حتي   تتقراهم يداي بلمس

هذا
ومن أعجب شعر أبي الطيب ميميته:

ملومكما يجل عن الملام   ووقع فعاله فوق الكلام

وهي قصيدة عتابية، عاتب بها كافورا كما عاتب سيف الدولة «بواحر قلباه» من قبل، غير أنه رام فيها أن يكون ألبق، وأبعد عن تهمة إساءة الأدب بالأدب، فلم يكافح كافورا بخطاب. كلا ولم يقارب أن يكافحه بتلميح. ومع هذا فقد روى عنه أنه

قال«كنت إذا دخلت على كافور أنشده، يضحك إلي ويبش في وجهي حتى أنشدته هذين البيتين يعنى :

فلما صـــار ود النـــاس خبـــا	جـــزيت على ابتســـام بـــابتســـام
وصرت أشـك فيمـن اصطفيـــــه	لعلمـي أنـــــه بعض الأنـــــام

فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا. فعجبت من فطنته وذكائه.» قلت إن صحت هذه الرواية فإنها لاتدل على ذكاء كافور ولكن على غفلة أبي الطيب، إذ البيتان واضحا الدلالة على إرادته كافورا إن صح ما ذكره عنه أنه كان يضحك إليه ويبش في وجهه وبعيد عن أبي الطيب أن يكون في مثل هذا الموضع صاحب غفلة. وفي هذه القصيدة أشياء تعمد بها التعريض بالفراق. وأشياء أفلتت منه فيها تعريض بالهجاء. وينبه ها هنا على أن أبا الطيب لم يضمن شيئا من الهجاء في كلماته اللواتي أرادهن مدحا لكافور. ومن زعم ذلك له، ونسب في ذلك رواية عنه، فإن ذلك يناقض ما في هذا الخبر من إقراره بذكاء كافور. اللهم إلا أن يزعم زاعم أن أبا الطيب قد ضمن مدح كافور هجاء في طيه له، ولم يكن يخطر بباله أن كافورا من أجل سواده وأنه مع ذلك خصي له من الذكاء مايفطن به إلى ذلك، فلما تبين له أنه قد فطن له، عجب لذلك. فإقراره الذي أقره بالعجب لا باعتقاد وجود الذكاء.

هذه القصيدة محكمة اتصال المعاني والأبيات. وهي مع ذلك من الضرب المخصر. شأنها فيه شأن: «واحر قلباه» و«حتام نحن نسارى النجم في الظلم». وقد قدمنا أن أصل نظره في ذلك إلى«بانت سعاد» في«واحر قلباه» ثم سواها من الشعر القديم ونظره في«حتام نحن نسارى النجم» إلى ميمية علقمة أشد. ولعلنا لا نباعد إن زعمنا أن من بواعث تأثر أبي الطيب لامية كعب، سابقة تأثره بالتصوف. وفي بعض مدائح صباه ما هو من سنخ كلام المتصوفة كقوله:

يـأيها الملك المصفـى جـــوهـــــرا	من ذات ذي الملكـوت أسمى من سمى
نـــور تظـــاهـــر فيـك لاهـــوتيـــة	فتكـــاد تعلـم علم مـــا لـن يعلما
ويهم فيك إذا نطقـت فصـــاحـــة	مـن كـل عضـــــو منك أن يتكلما

أي النور اللاهوتي

أنـــا مبصر وأظن أنـى نـــائم	من كـــان يحلم بـــالالـــه فأحلما
كبر العيـــان على حتى إنـــــه	صـــار العيـــان من العيـــان تـــوهما

ومن سنخ المدائح النبوية قوله:

لقــــد حسنت بـك الأوقـــات حتى كأنـك في فم الــــدهـــر ابتســـام
وأعطيـت الــــــذي لم يعـط خلـق عليـك صـــلاة ربـك والســـلام

وإنما الذي لم يعط خلق ما أعطيه هو الرسـول عليه الصلاة والسلام، وأبو الطيب يعلم حديث الشفاعة ـ وفي هذه القصيدة قبل هذين البيتين مما معدنه ديني قوله

تحايـــده كأنـك ســـامـــري تصـافحـه يــد فيهـا جـذام

والضمير في تحايده يعـود على المال. والجذام مبالغـة، لأن السامـري أمره أن يقـول لا مساس نافراً من كل الناس.

إذا مـا العـالمون عـروك قـالـوا أفــدنـــا أيها الحبر الإمـــام

فلما جعله حبرا وإماما، قارب به النبوة فزعم أنه أعطى مالم يعطه الله خلقا غيره.
ويجوز لمن يعتذر لأبي الطيب أن يـزعم أنه لم يـرد ممدوحـه العجلى بهذا ولكنه التفت إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام وجعل ذلك ختام مسك. وهو جواز ذو بعد.
وقول أبي الطيب: «أنـا مبصر وأظن أني نائم» يستوقفني منه كسماع اصـداء منه في قول شكسبير.

Is this a dagger I see before me......

أهذا الذى أراه أمامى أخنجر هو. . . .
(انظر الفصل الثانى ـ المنظر الأول ص ٣٣ ـ ٤٠ من ماكبيث)
الكلمة التى يـزعم بها أنه يرى شبح الخنجـر الذى يريـد أن يرتكب به جـريمة الغدر «بدنكـان» الملك. وهذا بعد باب من البحث لا يتسع لـه مجال هذه الفصول.
ومـا أشك أن أخذ شكسبير من أبي الطيب خـاصـة ومن أبي تمام وشعراء آخـرين كثير وينبغي أن يدرس ويكشف عنه.
مثلا قال أبو الطيب:

كـــريم نفضت النـــاس لما رأيتــه كأنهم مـــا جـف من زاد قـــادم

وقال شكسبير

Time hath, my lord, a wallet at his back
Wherein he puts alms for oblivion,

(الفصل ٣ انظر س ١٤٥ ـ نزو يلس وكوسيدا)

«الدهر على ظهره خريطة، يضع فيها أزواد الصدقة لتنسى.»
ومما يشعر بالأخـذ هنا أن المكدى الذى يشبه شكسبير الزمان بـه ها هنا يضع ما يعطاه من صـدقات (وإنما ذلك الخبـز الجاف ونحوه) للنسيان. والسـائل لا ينسى ما تصـدق به عليـه ولا يدعـه للنسيان. إنما الـذى يطرح زاده من حقيبتـه وينفض ذلك نفضـا هو القـادم الواجـد القرى والضيـافة. وفي القطعـة الشكسبيرية مـا ينم بمعنى الضيافـة، إذ شبه الزمن فيما بعـد بصاحب الخان وهـذا كما تقدم باب مجال القـول فيه سوى هذا الموضع.
القسم الأول من القصيدة فيه، في أول بيت وهو المطلع:

ملـــــــــومكما يجل عـن الملام ووقع فعـــالـــه فـــوق الكـــلام

نفس نهاية للنسيب. والـلائمان هما صاحبـا امرىء القيس اللذان صـارا صحبا كثيرين فى قوله:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم

وهما صاحبا بشار اللذان قال لهما:

واسقيانى من ريق بيضاء رود

وهما صاحبا أبي نواس:

أيها الرائحان باللوم لوما

وهما الشاعر نفسه جرد من نفسه آخر فصـارا اثنين وثلاثة، يلومونه إذ وقف على الطلل ثم بعـد أن بكى واستبكـى لم يجد شفـاء إلا أن ينخـرط في السير. ومحبـوب أبي الطيب الذى وقف على طلله هـو الأمل الذي خاب عند كافـور كما خاب عند كثيرين ممن حسَّن الظن فيهم وعقد الرجاء عليهم من قبل:

ذراني والفــــــــلاة بـــــــلا دليـل ووجهـى والهجير بـــــــلا لثـــــام
فـإنى أستريـح بـــــذي وهــــــذا وأتعب بـــــالإنـــــاخـــــة والمقــــام
عيــــون رواحلي إن حـــــرت عينـى وكـل بغـــــام رازحـــــة بغـــــامـى

جعل نفسه ورواحله شيئا واحدا. وهـذا هو المعنى الذي في شعر الجاهليين جاء بـه أبو الطيب هـا هنا بـارزا مكشوفـا. وقولـه «إن حرت عينى» أي هن يهتـدين لأنهن يشممن الماء ويعرفن موارده فإذا حرت فتكفيني هداية عيونهن.
وقوله « وكل بغام رازحة» إنما أراد به الاشارة إلى قول العبدي!

إذا مـــا قمت أرحلهـــا بليل تأوه آهـــة الـــرجل الحزين

فآهتها بغامها وهو الرجل الحزين. وأما قول التبريزي: «وصوتها إذا احتجت إلى أن أصوت ليسمع الحي يقوم مقام صوتي، وإنما قال بغامي على الاستعارة» (شرح البرقوقى ٤/ ٢٧٣ ـ تصوير بيروت) ـ فوجه واضح والتبريزي أقرب إلى زمان أبى الطيب منا، وليس الذى قاله بمبعد معنى الإشارة الذي ذكرناه، وقد سبق منا القول إن أبا الطيب كان يخفي إشاراته ولايظهرها إظهار أبى تمام إلا ما قل من ذلك.

فقـــد أرد الميـــاه بغير هـــاد ســوى عـــدى لها بـــرق الغمام
يـــــذم لمهجتى ربى وسيفى إذا احتـاج الـوحيـد إلى الـذمـام
ولا أمسى لأهل البخل ضيفـــا وليس قـــرى ســوى مخ النعـــام

يعنى وليس من قرى يلفى إذ النعام لا مخ لـه. ومن روى مح النعام بالحاء يعنى بيض النعام فهى رواية على معنى الصعلكة، إذ ذكروا أن الشنفرى وأضرابه كانوا يخبأون الماء في بيض النعام ويعرفون كيف يهتدون إليه فيكره من يطاردهم اتباعهم. والمح «صفار» البيض وأطلقه ها هنا على البيض كله، وكذلك يقال فى ناحية «بحر أبيض» (أى النيل الأبيض) عندنا للبيض إذ يباع «المح المح» إلا أنهم يكسرون الميم.
وهذا البيت فيه مواجهة لكافور وتعريض به بالبخل، وقد كشف هذا المعنى في هجائه الصريح له من بعد. ثم يقول:

ولما صـــار ود النـــاس خبـــا جـــزيت على ابتســـام بـــابتســـام
وصرت أشك فيمن أصطفيــــــه لعلمى أنــــه بعض الأنـــــام
يحب العـــاقلـــون على التصـــافي وحب الجاهلين على الـــوســـام

أى أنت لست بحسن الوسام فأحبك من أجل ذلك، ولكنى إنما أحببتك رجاء التصافي بيننا، هذا هو المعنى المستكن، وتعمده أبو الطيب، وأراد به عتاب كافور فقارب توبيخه، على شدة ما احترس.
ثم جاء بالدواهي وكأن قد تعمد ذلك إذ قال من بعد:ـ

وآنـف مـن أخـي لأبي وأمـي إذا لم أجـــده من الكـــرام

ولم يكن له أخ من أب وأم. وإنما كان أقرب الناس إليه جدته التي فيها قوله:

ولـو لم تكـوني بنت أكـرم والـد لكان أباك الضخم كونك لى أما

وما يخلو قوله هذا من معنى فكيف بك أيها العبد الزنيم

أرى الأجـــداد تغلبهـــا كثيرا　　على الأولاد أخـــلاق اللئـــام

أي إذا لؤمت أخلاق الأولاد، وهذا كثير، غلب لؤمها شرف أنساب أجدادهم. هذا ظاهر المعنى. ولكن خطاب كافور به قد تشتم منه رائحة تفريع قول قائل، فكيف بالأمر إذ ساءت أخلاق الأولاد مع النسب الدنيء المجهول؟

ولست بقـــانع من كـل فضل　　بـأن أعـــزى الى جـــد همام

فأنا لا أهتم بالنسب ولا أفتخر به. وأنت لا نسب لك. وأنا قد اخترتك فاشكر لى هذا الاختيار

قـد اخترتـك الأمـلاك فـاختر لهم بنا　　حـديثـا وقـد حكمت رأيك فـاحكم
فأحسن وجـه في الـورى وجـه محسن　　وأيمـن كـف فيهـم كـف منعـم
وأشرفهـم مـن كــــان أشرف همة　　وأكبر إقـــدامـــا على كل معظـم

ثم يعود أبو الطيب بعد هذه الحكمة التى طيها ما ترى من هفوات الى التعريض بالفراق:

عجبت لمن لـــه قـــد وحـــد　　وينبـــو نبـوة القضم الكهـــام

هذا سيف الدولة، لذكر القد ولم يكن لكافور من قد، ولذكره الحد والحد للسيف الماضي. والقضم الكهام هو السيف الرديء، به تقليل من رداءة حديده، وكهام أى غير قاطع.

ومن يجد الطـــريـق الى المعـــالي　　فـلا يـــذر المطي بـــلا سنـام

هذا عنى به نفسه، إذ هو صاحب الأسفار. وفي هذا من قوله ما زعمنا من التعريض بالفراق والتهديد.

ولم أر في عيـوب النـــاس شيئـــا　　كنقص القـــادريـن على التمام

هذا عنى به كافورا، والدليل على ذلك قوله «في عيوب الناس» ومن قبل قد قال: «ولما صار ود الناس خبا» والرواية التي رووا سواء أصحت أم لم تصح تشهد بأن المعنى بالناس ثم هو كافور، فذلك ينساق على معناها أيضا في هذا البيت. ودليل آخر ما كان يتوهمه أبو الطيب في كافور من القدرة على أن يهبه ضيعة أو ولاية وأن يجعله

سيدا على مصر ثم على الناس جميعا ـ أليس يقول له :

لك الحيوان الراكب الخيل كله	وان كان بالنيران غير موسم

وهذا الذي يرى فرسان كافور وأجناده وعظماء دولته جميعا هم الحيوان الراكب الخيل ، ماذا عسى ان يكون رأيه في كافور نفسه؟

هذا آخر القسم الاول .

ويبدأ القسم الثاني من عند قوله : « أقمت بأرض مصر» . وهو من عزيز الحكمة جاء فيه بوصفه الباهر التأمل للحمى :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي	تخب بي الركاب ولا أمامي

هنا وثبة بيانية وثبها من عند قوله «ولم أر في عيوب الناس البيت» . إذ تقصير كافور عن التمام أنه خام دون الثقة به وتبليغه ما كان يؤمله منه أو بعضه من تنويل ضيعة أو ولاية . والذي سأله أبو الطيب ليس ببدع أن يعطاه شاعر فقد ولى أبو تمام بريد الموصل . فكأن أبا الطيب بهذه الوثبة يلفتنا الى ما آلت إليه حاله من السقم بعد ما كان له من تأميل عند قادر مستطيع تحقيقه ، ولكنه عجز عن ذلك ـ وهذا يا للأسف من عيوب طبيعة البشر .

ولعلك أيها القاريء الكريم قد ترى كيف صار ما كان أوجزه أبو الطيب في معاتبته سيف الدولة إذ قال :

واحر قلباه ممن قلبه شبم	ومن لجسمي وحالي عنده سقم

ههنا مفصلا مشروحا .

ضعف أبي الطيب وحسرته عند كافور، ذلك الذي أحوجه الى شرحه سقم جسمه وحاله ، شرحا مفصلا يستدر به عطف هذه القلوب القاسية .

وملني الفراش وكان جنبي	يمل لقاءه في كل عام

قليل عائدي . . . .

ولو كان أثير المكان عنددولة كافور لكان عواده قد كثروا

. . . . . سقم فؤادي . . . . .

هذا كأنه تكرار لقوله من قبل «واحر قلباه»

كثير حاسدي ، صعب مرامي

هنا انتفاضة مما سبق مما كأنه قد استكان به .

ولكن أبت الحمى إلا أن تضرعه :

عليل الجسم ممتنع القيـــام　　　شـديـد السكـر من غير المدام

هذا يدل على أنه هذي . وقد كانت قلة العواد بهذا له رحمة ، اذ لم يكن هذيان مثله ليسلم من معاني ما أخذ فيه بعد من مسالك الهجاء المقذع المر. قوله شديد السكر هو شاهد الهذيان ، وحمى الورد ـ وهي التي يقال لها الآن الملاريا ـ مما يكون معها الهذيان .

وزائرتي كـأن بها حيـــــــــــاء　　　فليس تـــــزور الا في الظـــــلام

بـــذلت لها المطـــارف والحشـــايـــا　　　فعـــافتهـــا وبـــاتت في عظـــامي

وكذا تفعل حمى الورد

يضيق الجلد عـن نفسي وعنها　　　فتـوسعـه بـأنـواع السقـام

من فتور وصداع وانقباض نفسي وصنوف أوجاع

إذا مـــا فـــارقتني غسلتني　　　كأنـــا عـــاكفـــان على حـــرام

انتقـده بعضهم بأن الحرام ليس بأخـص أن يغتسل منـه من الحلال وأحسن ابن الشجري الدفاع عنه إذ قال وإنما خص الحرام لأنـه جعلها زائرة غريبة ولم يجعلها زوجة ولا مملوكة . [انظر شرح البرقوقي ٤ ــ ٢٧٦/ ٢٧٧ ـ الهامش] قلت أفسد ابن الشجري احسانه شيئا بذكره الزوجة والمملوكة . وقد أعلمنا أبو الطيب أن زائرته هي الحمى بقوله كأن بها حيـاء ، ولا حياء لها اذ ليست ممـا يوصف بـذلك ولما صار الى ذكـر العرق وانها غسلته بـه ، رد ذلك الى معنى الزائرة ، ولا يكون الكـلام إلا كما قال : كأنا عـاكفان على حرام " ومفهـوم " أنها زائرة مجازية ليسـت بعاكفة معـه على شيء غير هذا السقـم الذي هذه صفته . فـذكر الزوجة والمملـوكة هنا لا معنى له . ونقـد من نقده بأن الحلال ليس بأخص من الحرام . تافه باطل .

كأن الصبح يطـردهـا فتجـري　　　مـدامعهـا بأربعـة سجـام

وهـذا تأكيد للمعنى التشبيهي المتقـدم ــ لما جعلها غـاسلـة له ، وذلك لامتنـاع قيامه ، جعلها باكية لفراقه وذلك لشدة شغفهـا به ، وقد تقدم قوله : «فعافتها وباتت في عظامي » . ولما جعل لها بكاء المحب الشديد الشغف ومن قبل قال : " كأنا عاكفان على حـرام " صح أن يصف نفسه على وجـه التشبيـه ، بحال المشتـاق ، وإن كان حقـا ليس بمشتاق ولكن مترقب أمر محتوم ليس منه من مفر .

أراقـب وقتهـــا مـن غير شـــوق　　　مـــراقبـــة المشـــوق المستهـــام

ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام

وكم ألقاه صدقه هو في الكرب العظام .

وقد ترى كيف مزج نعته الحمى بالحكمة ، بل نعته نفسه من الحكمة

وهذا آخر التخصير . ويبدأ القسم الثالث من بعد وأوله مخاطبة الحمى ، مع التزام مذهب الأوائل في جعلهم بداية هذا القسم بالذكرى وإتباع ذلك ما يناسبها من أغراض البيان كما رأيت من قول علقمة .

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرط

وقول امريء القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وما أشبه ذلك .

قال أبو الطيب :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام

عندي كل بنت هو موضع الذكرى ، وما جعله بمنزلة «قد أشهد»«وقد أغتدى»وهلم جرا

جرحت مجرحا لم يبق فيه مكان للسيوف وللسهام

وهنا موضع تمني الخلاص منها والشفاء والنجاة والانطلاق والحرية والفراق :

ألا ياليت شعر يدي أتمسي تصرف في عنان أو زمام

فقد سوى بين الخيل والإبل كما ترى ، ثم عول من بعد على الإبل ، خلافا لما زعم ابن رشيق من إيثاره الخيل :

وهل أرمي هواي براقصات محلاة المقاود باللغام

فربتما شفيت غليل صدري بسير أو قناة أو حسام

وضاقت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفدام

وفارقت الحبيب بلا وداع وودعت البلاد بلا سلام

يجوز أن يكون مراده بالحبيب معنى ما درج عليه من الكناية عن الممدوح بالمحبوب . ويجوز ـ والله تعالى أعلم ـ ان يكون له حبيب بحلب فارقه بلا وداع . وقوله بلا سلام : أي خائفا محاربا .

هذا وفي البائية «أغالب فيك الشوق »ما يفيد أنه ترك وراءه أسرة وأهلا :

أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب

وأستبعد أن يكون يعني هؤلاء . فمن زعم أنه أحب أمرأة بعينها بحلب من آل سيف الدولة فربما احتج بهذا البيت . وهذا أيضا مما استبعده .

وعسى بعضه أن يكون مرده الى روح " رومنسية " عصرنا الحديث .

يقول لي الطبيب أكلت شيئا وداؤك في شرابك والطعام

عاد إلى معنى "بنت الدهر" التي خاطبها قبل

وما في طبه أني جواد أضر بجسمه طول الجمام

ولعل أبا الطيب لو رأى عصرنا هذا الحديث أن يعجب لغلو الطب الآن في كراهية طول الجمام والنصح بالرياضة البدنية ولعجب من كثرة من يهرولون كل صباح من غير دواعي العجلة خوفا من أن يفاجئهم الموت إن لم يفعلوا ذلك .

وما في طبه أني جواد أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبر في السرايا ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى ولا هو في العليق ولا اللجام

لعل ابن رشيق أن يقول ـ لو أمكنه ذلك ـ إن مما يدل على إيثار أبي الطيب الخيل تشبيه نفسه بالجواد هاهنا ولم يشبهها ببكر أو فنيق . ويرد على مثل هذا أن التشبيه بالجواد في باب هذا المعنى الذي قصد إليه أصح .

وإذ قد وضحت لأبي الطيب أسباب علته وسقمه ، فإن ذلك أول سبيل الشفاء :

فإن أمرض فما مرض اصطباري وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

الأمل كل الأمل في البيت الأول . ومع الأمل انتفاضة العزم والتصميم . ولكن البيت الثاني فيه التأمل ومع التأمل الأسى واستشعار مأساة المصير ـ وقد صدق ما سلم من حمام الحمى إلا الى حمام مقتله بدير العاقول :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

ومعنى تشبيه الموت بالنوم مما يدور في الشعر ـ ومقال شكسبير على لسان هامليت (٣ ـ س ١ ـ س ٥٣ ـ ٦١)

To die: to sleep
No more; and by a sleep, to say we end
The heart ache....

« إنما الموت كالنوم ليس غير، أليس بالنوم تنتهي أوجاع القلب . »
لا يخلو من شبه بقول أبي الطيب هاهنا، وكثرة التشابه فيها نوع من الدلالة على أخذ المتأخر من المتقدم

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

أي القبر

فإن الثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وكونه مختلفا عن المنام هو ما أراده الشاعر الانجليزى شكسبير بقوله: «٣ـ ١ ـ س٦٥»
To sleep: perchance to dream:ay,there's the rub
« منام وربما أحلام، أمر ما هنالك . »
ومع أن مثل هذه المعاني مشترك بين البشر، مع ذلك لا نشك في أن شكسبير بلغه من علم آداب العربية في شعرها ونثرها وفي شعر أبي الطيب خاصة ما ولد منه كثيرا من محاسنه أو أخذه أخذا .
قول أبي الطيب " فإن لثالث الحالين معنى " ، ليس منشأه من فلسفه قلب زنديق أو نزعة إلحاد، ولكنه من باب الفطنة والحكمة والتأمل والموعظة الحسنة مع ما يلابسه من حزن الشك العميق . فقل هذا من قبيل النزغ الذي نزل فيه قول الله تعالى: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم» .
وقد جاء أبو الطيب بهذا المعنى الموجز جدا ههنا أكثر تفصيلا في قوله :
تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
أي الهلاك

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا وغايته أقامه الفكر بين العجز والتعب
وهذه الخاتمه أنسب للرثاء . وقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد   ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى   سوى معنى انتباهك والمنام

وقد أدخل شكسبير من معنى هذين البيتين مع قوله « الدهر يعجب من حملي نوائبه »(١) في كلمته: (هامليت ٣ ـ ١ س٧٦ ـ ٨٢)

Who would fardels bear,
To grunt and sweat under a weary life,
But that the dread of something after death,
The undiscover'd country from whose bourn
No traveller returns,puzzles the will,
And makes us rather bear those ills we have
Than fly to others that we know not of ?

من كان سيحتمل الأعباء
ويزحر ويعرق تحت نصب العيش
لولا المخافة من شيء يكون بعد الموت
الدار التى لم تكتشف ولا من حدودها
عاد مسافر، هي التي تحير الإرادة
وتجعلنا نؤثر ما عندنا من شرور
على أن نفر الى شرور أخرى لا نعلم أمرها .

ولا يخفى أن نظام الشعر الانجليزى المرسل أدنى بإطنابه الى نثر الرسائل والمقامات منه الى طريقة إيقاع جزالة شعر العرب ــ وهذا المعنى قد ذكرناه مرات من قبل، « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين »

فصل ملحق بما يقع من تشابه أشكال القصائد

سبق الحديث عن الرثاء وعن الوصايا . ورب قائل فلم لا نجد لذلك من مثال بين السبع الطوال والعشر الطوال . وقد يجاب عن هذا بأن العرب اكتفت في هذا الباب بما اشتهر من المراثي مثل كلمات الخنساء وجنوب وأعشى باهله وأوس بن حجر ومتمم . وفي الوصايا بمأثور ما جاء من ذلك في شعر ذي الأصبع وعبدة بن الطبيب ولامية عبد قيس بن خفاف البرجمي .

ومع ذلك يحسن أن ننبه ههنا على أن المعلقات قد جاءت فيهن أبيات من غرض الرثاء

---

(١) انظر حديثنا عنه من قبل والهامش أيضا

ومن غرض الوصايا أو مدانية لذلك.
في معلقة طرفة ذكر الموت ومعاني الرثاء مصرحا بهن في قوله:

إذا مت فـــاتبعيني بما أنـــا أهلـــه وشقي علي الحبيب يـــابنـــة معبـــد
ولا تجعليني كـــامـــرىء ليس همه كهمي ولا يغنـي غنـــائي ومشهـــدي
بطـــيء عـــن الجلى سريـــع إلى الخنـــى ذلـــول بـــأجماع الـــرجـــال مهلـــد

وله كما تعلم أبيات في الموت تجرى مجرى عظات الرثاء

أرى قبر نحـــام بخيـل بمالـــه كقبر غـــوى في البطـــالـــة مفسـد
تـــرى جثـــوتين من تـــراب عليهما صفـــائح صم مـن صفيح منضـــد
أرى الموت يعتـــام الكـــرام ويصطفى عقيلـــة مـــال الفـــاحش المتشـــدد
أرى العيش كنـــزا نـــاقصـــا كل ليلـــة ومـــا تنقص الأيـــام والـــدهـــر ينفـــد
لعمـــرك إن الموت مـــا أخطأ الفتى لكـــالطـــول المرخى وثنيـــاه بـــاليـــد

وفي كلمة عبيد عظات تجرى هذا المجرى، وقد ختمها بافتراس العقاب الثعلب ومع أن هذا جاء به على مذهب الشعراء في تشبيه فرسه بالعقاب، روحه في جملتها روح حزن، إذ إنما جاء به في معرض الذكرى وتوجس دنو الموت.
وكلمة زهير تجرى مـواضع الحكمة منها مجرى الـوصايـا. وليس يقدح في قولنـا هذا أن جعلنا الـوصايا في جملتها بـابا من معدن المراثى. فهـذا هو الأصل، إذ الوصية أكثـر ما تكـون عنـد الموت. ثم جرت الأسفـار ومـا أشبـه من أحوال المفـارقـة مجرى الموت. ثم صارت الـوصية من بـاب الحكمة ومن باب النصيحـة وكأنها أمر مستقل بنفسـه. وقد جعل أبو تمام وصية يزيد بن الحكم الكلابي:

يـــابـــدر والأمثـــال يضـــ ـــــربها لـــذي اللب الحكيـم

في باب الأدب وهو الثالث في ترتيب أبواب كتاب الحماسة.
والحق أن قول زهير

ألا أبلغ الأحـــلاف عني رســـالـــة وذبيـــان هـل أقسمتـم كل مقسـم
فـــلا تكتمـن اللـــه مـــا في نفـــوسكم ليخفـى ومهما يكتـم اللـــــه يعلـم
يـــؤخـر فيـــوضع في كتـــاب فيـدخـــر ليـــوم الحســـاب أو يعجـل فينقم
ومـــا الحرب إلا مـــا علمتم وذقتمـــو ومـــا هـــو عنهـــا بـــالحديث المرجم

إنما هو وصية وإن يك قد سماها رسالة.

وقد ذكر عنترة الوصية في قوله:

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

والحرب فيها مقاربة الموت.

ومما يدلك على ملابسة الموت للوصية قوله تعالى: (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت...) وقال تعالى: «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف..» وقال تعالى: «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله الآيات» وعند الوالد أنه أدنى إلى الموت من ابنه. وقوله تعالى: «يوصيكم الله في أولادكم...» والله حي لايموت ولكن أمر الفروض ملابس للموت وللميراث، وكذلك أمر الإنسان كله عند الله عز وجل: «ووصينا الانسان بوالديه إحسانا أو «حسنا» (قراءتان) «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون»... لعلكم تذكرون (بتشديد الذال وتخفيفها) لعلكم تتقون... آيات الأنعام.

وأدب الوصايا في العربية كثير. يوصي الآباء الأبناء، وسادة القوم عشائرهم والأمهات بناتهن وكذلك الآباء. وفي كتاب الأمالي من ذلك أمثلة جياد. والمتأمل لمسرحيات شكسبير واجد فيها وصايا كثيرة، مثل وصية يوليسيس لأخيل «ترويليس وكريسيدا ١ ـ ٣ ـ ٣» ومثل وصية بولونيوس لابنته (١ ـ ٣ ـ س١٢٠ ـ ١٢٤...) ولابنه (١ ـ ٣ص س٦٦ ـ ٨١) وهذه الوصية من مشهور كلامه ومما يختار ويحفظ وفيها مشابه قوية من بعض ما جاء في كلمة عبد قيس بن خفاف البرجمي وهي في المفضليات وأوردها صاحب اللسان كاملة وأحسب أن حبيبا لم يوردها في حماسته لشهرتها إذ ليس يخفي عن مثله مكانها:

أجبيل إن أباك كارب يومه فاذا دعيت إلى المكارم فاعجل

كارب يومه أي دنا، وهذا سبب الوصية. وقال بولونيوس Polonius وكان صاحب حجاب الملك ومن وزرائه يعظ ابنه ويوصيه وهو يودعه ما معناه «اذهب مع مباركتي لك وهذه الكلمات القلائل من وصيتي خطهن في قلبك خطا» (انظر هاملت الفصل الأول المنظر الثالث).

أوصيك إيصاء امريء لك ناصح طبن بريب الدهر غير مغفل

فهذا ونحوه مما يقع في كثير من كلام أهل الحكمة عند وصيتهم البنين ومن

بمنزلتهم ممن يهمهم أمره. وقول بولونيوس الذي قر بنا تعريبه آنفا

... There my blessing with thee!
And these few precepts in memory
Look thou character.

اللـــه فـــاتقـــه وأوف بنـــذره — وذا حلفـت ممـــاريـــا فتحلـل
والضيف أكـــرمـــه فـإن مبيتـــه — حـق ولاتـك لعنـــة للنـــزل
وأعلـم بـأن الضيـف مخبر أهلـــه — بمبيـت ليلتـــــه وإن لم يسـأل

وهذا من صميم أدب العرب، أعنى قرى الضيف ومبيته.

ودع القـــوارص للصـــديق وغيره — كيـــلا يـــروك من اللئـــام العـــزل
وصل المواصـل مـــا صفـــا لك وده — واحـــذر حبـــال الخائن المتبـــدل

وقد كشف ما تضمنه هذان البيتان من ثمين المعاني صالح بن عبدالقدوس حيث قال في موضع من بائيته الطويلة الزينبية :ـ

ودع الكـذوب فـلا يكن لـك صـاحبـا — إن الكـــذوب يشين حـــرا يصحب
واحـــذر مصـــاحبـــة اللئـــام فإنها — تعـدي كما يعـدي الصحيح الأجـرب
إن القلـــوب إذا تنـــافـــر ودهـــا — مثل الـزجـاجـة كسرهـا لا يشعب
إن العـــدو وإن تقـــادم عهـــده — فـالحقـد بـاق في الصـدور مغيب
يعطيك من طـرف اللســان حـلاوة — ويـــروغ منك كما يـــروغ الثعلـب

وقال أبو الطيب :

لا يخدعنـك من عـــدو دمعـــه — وارحم شبـابـك من عـــدو تـــرحم
لا يسلـم الشرف الـــرفيع مـن الأذى — حتى يـــراق على جـــوانبـــه الـــدم
يـــؤذى القليل مـن اللئـــام بطبعـــه — مـن لا يقـل كما يقـل ويلـــــؤم

أي أذاه للعدد الكثير على مقدار عظم لؤمه وجسامة خساسة قدره وقلته. أي كلما كان أقل والأم كان أذاه أكثر وأشد.

الظلـم من شيـم النفـــوس فـإن تجد — ذاعفـــة فلعلـــة لا يظلـم

والـــذل يظهـــر في الـــذليل مـــودة وأود منـــــــه لمن يـــــود الأرقـم
ومن العـــداوة مـــا ينـــالك نفعـــه ومن الصـــداقـــة مـــا يضر ويـــؤلم

فهذا جار مجرى النصيحة والوصية ـ وقال البرجمي ، وإنما ذكرنا أبيات أبي الطيب هذه لما فيها من معنى الصداقة ، وتناول أبي الطيب له كثير:ـ

واتـــرك محل الســـوء لا تحلل بـــه وإذا نبـــا بك منـــزل فتحـــول
دار الهوان لمن رآهـــــــــــا داره أفـــراحل عنهـــا كمـن لم يـــرحل

فكيف إذ ضرب الهوان بجـرانـه في كل دار. قـــال تعـالى جل مـن قـائل : «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا»
وقال عبد قيس :

وإذا هممت بأمر شر فاتئد وإذا هممت بأمر خير فافعل

قال الضبي ـ أي أبو عكرمة ـ هذا مأخوذ من قول لبيد :

واكـــذب النفس إذا حـــدثتهـــا إن صـــدق النفس يـــزرى بـــالأمل
غير أن لا تكـــذبنهـــا في التقـي واخـــزهـــا بـــالبر للـــه الأجل

قال الشارح واخزها يعني سسها يقال قد خزاه الله يخزوه قال الشاعر:
«ولا أنت دياني فتخزوني» ـ قلت يجوز أن يكون الضبي قال ما قال يريد به محض المشابهة ، وإلا فعبد قيس بن خفاف البرجمي من معاصري نابغة بني ذبيان وحاتم طي ولبيد بعد زمانهما ، إلا أن يقال قد طال عمر لبيد ، وليس ذلك بدافع ما تقدم .
وقال شكسبير على لسان بولونيوس بعد الفاتحة التي مضى ذكرها :

Give thy thoughts no tongue
Nor any unproportion'd thought his act
Be thou familiar ; but by no means vulgar ;
The friends thou hast and their adoption tried
Grapple them to thy soul with hoops of steel ;
But do not dull thy palm with entertainment
Of each new - hatch'd ; unfledg'd comrade. Beware,
Of entrance to quarrel, but being in
Bear't that th' opposed may beware of thee.
Give every man thy ear, but few thy voice ;
Take each man's censure, but reseve thy judgement.

ترجمة تقريبية

لا تعـط آراءك لسـانـا
ولا رأيـا غير محـص فعلـه
عليك بـالألفـة ، ولكن إيـاك والابتـذال
اصـدقـاؤك الـذين بلـوت مـودتهم
نطهم إلى نفسك بأطـواق من حـديـد
ولكن لا تكلن راحتك بـاستطـراف
كل حـديث انفـلاق الصحبـة عنـه أزعـر واحـذر
الـدخـول في الشر ولكن متى كنت فيـه
فـاثبت لـه ، لعل الخصم يخشـاك
أعط كل امـرىء سمعك ، وقليـلا منهم صـوتك
خـذ من كل حـديث خـلاصته ، واحتفظ بحكمك

لعل القارىء أحس شبهـا بين قول بولونيـوس شكسبير «ولا رأيا محصا فعله» ومـا مر من كلام عبد قيس «وإذا هممت بأمر شر فاتئد» ـ وانظر بعد قوله :

وإذا أتتك مـن العـدو قـوارص فـاقـرص كـذاك ولا تقـل لم أفعل

فهذا مشبه لقوله واحذر الدخول في الشر

وإذا افتقـرت فـلا تكن متخشعـا تـرجـو الفـواضل عنـد غير المفضل

وصاحب شكسبير ينـهى ابنـه أن يسلف أو أن يستـدين في قـول لـه مـن بعد
Neither a borrwer, nor a lender be

" لا تكن آخذ دين ولا مسلفه "

وكلام عبد قيس ذو عموم وكلام بولونيـوس أشبه بطبيعة الطبقة التى منها هو وابنه على زمان شكسبير.

وإذا لقيت القـوم فـاضرب فيهم حتى يـروك طـلاء أجـرب مهمل

هذا أشبه بقول صاحب شكسبير «ولكن متى كنت فيه فاثبت لعل الخصم يخشاك»

واستغن مـا أغنـاك ربك بـالغنى وإذا تصبك خصـاصـة فتجمل

أى استغن عن الناس إذا اغتنيت من غير تضييع غير للحقوق. وهذا البيت غير جد بعيد عن معنى النهي عن التسليف وعن الدين

واستأن حلمك في أمورك كلها   وإذا عزمت على الهوى فتوكل

وهذا مقارب لما نصح به بولونيوس من الإصغاء وتأجيل الحكم حتى يتبين أمره.

وإذا تشاجر في فؤادك مرة   أمران فاعمد للأعف الأجمل
وإذا لقيت الباهشين إلى الندى   غبرا أكفهم بقاع ممحل
فأعنهم وايسر بما يسروا به   وإذا هم نزلوا بضنك فانزل

وهذا من آداب مجتمع العرب. وفي كلمة شكسبير مما لم نذكره ما يقابله من آداب مجتمع الافرنج من هيئة الزي وإظهار يسار الحال من غير تباه بذلك.
هذا وليس الأرب من إيراد كلمة عبد قيس وما استشهدنا به من كلام شكسبير الموازنة في باب الأخذ والسرقات والتوليد وما يجرى هذا المجرى من تشابه ألوان البيان وخواطره.
وإن كان ذلك مما لا يخرج عن أربنا كل الخروج. ولكنا إذ نحن بمعرض الحديث عن أشكال القصيد أردنا أن نتساءل، هل لناقد أن يعد كلام شكسبير على لسان بولونيوسه هذا قطعة شعر غنائي؟ وظاهر أن الجواب نفي إذ هذه قطعة من مسرحية معروفة.
أفنسخ كلام بولونيوس هذا من حيث هو نصيحة وخطاب حكيم مختلف عن سنخ كلام عبد قيس، وما استشهدنا به من كلام صالح بن عبد القدوس وأبي الطيب؟ فلماذا يعد كلام هؤلاء غنائيا؟
الفرق في طريقة التناول. الشاعر العربي مكافحنا لا يحجبه حجاب.
وقد وضحنا القول وفصلناه من قبل أن هذه المكافحة ليست بالغناء (بمعناه النقدي الاصطلاحى الافرنجي) ولا ينبغي لها أن يلتبس أمرها بأمره. الأديب الأفرنجي والرومي واليوناني من قبل كل أولئك يستتر مستترهم وراء المسرحية ووراء الملحمة فلا يكافح مكافحة صارحة وقولهم غنائي (ليريك بالمعنى الاصطلاحي) لايعنون به الغناء والترنم وما هو من هذا الباب من الموسيقا. فهذا أبدا ملازم للشعر. وقد كانت مسرحيات يونان فيما ذكر تصحبها الموسيقا والغناء. ومسرحيات شكسبير فيها الخطب والأسجاع والمرسل المزدوج والقطع الرنانة الوزن من الأغاني. الشعر ـ كما قال سيبويه ـ وضع

للغنـاء والترنم. وهـو كما قال الفـارابي رئيس الهيئـة الموسيقيـة. من أجل ذلك الشعـر موزون. والقافية عندنا من الوزن طرف.
والإيقـاع والبيـان وضروب الأشكـال كل ذلك مـذاهب وأداء واللـه أعلم وهـو الموفق للصواب.
أسلوب المقالة: تمهيد» أولا:ـ
نبه الـدكتور طـه حسين رحمه الله في «من حـديث الشعـر والنثر» إلى أثـر الشعراء على الكتاب. كما قـد نبه على أثـر أساليب الشعـراء من قبل على أساليب الكتـاب، حتى صارت كثير من الأغراض التي إنما كانت للشعر يتنـاولها الكتاب. وقد عرضنا لجوانب من هذا كله في معرض الحديث عن الرومى.
وقد ذكرنا أن ابن الرومي قـد اتبع في الذي صنعه مذاهب أبي تمام كما اتبع أساليب أهل ضروب البيان من كتـاب وخطباء من قبل. وقـد ذكروا أن بشارا أبـا المحدثين قـد كان خطيبا متكلما كما قد كان شاعرا وراجزا.
والقـارىء أصلحه اللـه يذكـر مـا قلنا عن أطـوار قصيـدة المدح وما أشبههـا كيف لما كسدت أخـذ الشعراء في مسالك من النظم كالمقـامات والألغاز والأوصاف البـديعية الزخـارف، حتى نهضت قصيدة المدح النبوي فكـانت هي سيدة مجال الشعـر ـ إلى أن أحدقت بنا غوائل العصر الحديث من تفوق أروبا الحربي واستعمارها.
ثم جاء رواد النهضة فانعرجوا بما أفـادوه من أوزان المدائح النبوية إلى نظم جديد نظروا فيه إلى أحوال دنياهم، وجعلوا له نماذج من الشعـر القديم يجرونها على أساليب بلاغته وبيـانـه. وكـان أبـو الطيب المتنبى رأس مـا حـذوا عليـه أولا ذلك ظـاهـر في شعـر الطهطاوى. ثم صير من بعـد إلى الحذو على غيره: أبي تمام، وأبي عبادة والقـدماء من اسلاميين وجاهليين:
كانت المعلقات حينا من الدهر لا تدرس ولا تحفظ لأنها شعر يحرك القلوب ولكن لأنها من متون العلوم، شأنها في ذلك شأن ألفية ابن مـالك من حيث رفعة المنزلة العلمية.
وقد ألحقت البردة والهمزية وبانت سعـاد بهذا الضرب من الرفعة أيضا. إلا أن ثلاثتهن كان لهن مع ذلك حظ تغني المداح بهن والذاكرين، فكن بهذا في باب ما يراد له الشعر من تحريك القلوب أدخل.
كانت ديبـاجة الشعـراء الذين انحـرفوا بـالفصيح الموزون المقفي من طريقـه في المدحة النبويـة الى طريق دنيوي، أول الأمـر ضعيفة، ثم جعلت تـداخلها المتانـة. وكان من أسباب ذلك النظر المتذوق للشعر القديم. وقد سبق أن ذكرنا ما كان للشناقيط العلماء

خاصة من تأثير في هذا الباب.
ثم جاء محمود سامي البارودي.
ولا ريب أنه أصاب ملكة الإيقاع والوزن من المديح النبوي. ولكنه عكف علي الشعر القديم عكوف محب. وأتيح له من درس أساليب الجزالة ومن مختار بلاغات العربية حظ عظيم. ومختاراته تشهد بسعة اطلاعه وجودة نقده الشعر وتذوقه له. وقصيدة البارودي شكلها وديباجتها كل ذلك عربي نقي أصيل.
بردة البارودي التي جاري بها البوصيري ليست من جياده. ومن عجب الأمر لم تكن للبوصيري، وهو في الشعر قمة، جياد في ما نظمه للدنيا. فانظر كيف دار تأريخ الأدب دورة كان ناطقها عهد انتصار الإسلام على الصليبيين من لا يجيد حقا إلا في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام والدفاع عن الإسلام، وكان ناطقها عهد تغلب خلفاء الصليبيين على أبناء المسلمين من لا يجيد حقا في هذا الباب، ولكن في القريض الذي يجيش من قلب كقلب أبي الطيب ولسان من معادن النابغة وزهير وأمرىء القيس.

البارودى سيد "الرومانسية الحديثة" في الشعر العربي. الرومانسية اصطلاح أدبي عصري أخذناه من الافرنج. ومعناه الوجدانية أو وجدانية الاسلوب. وصدق "برتراندرسل" إذ زعم أن كل الشعر الجيد لا بد فيه من "الرومانسية" إذ كل الشعر الجيد قلبى الجوهر وجدانيه. غير أن الوجدانية الاصطلاحية ـ التي هي الرومانسية ـ يدخل فيها مع الوجدان نوع من التكلف له والغلو فيه والتواجد به. البارودى من كل ذلك بريء.

قال الدكتور محمد صبري السوربوني رحمه الله في كتاب له اسمه «أدب وتأريخ» (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ـ سنة ١٩٢٧ ص ١٩): «نشأ البارودي في بيت مجد مؤثل، هو ابن حسن بك حسني الذي كان من أمراء المدفعية ثم صار مديراً لدنقلة وبربر على عهد محمد علي باشا، ابن عبدالله بك الجركسي ينتهي نسبه الى المقام السيفي نوروز الأتابكي أخي برسباي قرا المحمدي. والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر واتخذوها وطنا وتوالدوا فيها فأصبحوا «مولدين» ـ روى صاحب الهلال أن البارودي كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه

بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في أنحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك. ولد صاحب الترجمة بسراي باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجرية وفي سنة ١٢٦٢ . توفي والده بناحية دنقلة وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين:

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي	طاح الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته	ويتقي بأسه الضرغامة العادي
مضى وخلفني في سن سابعة	لا يرهب الخصم إبراقي وإرعادي
فإن أكن عشت فردا بين آصرتي	فهأنا اليوم فرد بين أنداد

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسج نظمه في سن صغيرة، فما سر هذه القوة التي تجلت قبل الأوان في عصر مقفر من الشعر الجيد؟ أهو في تربيته القومية أم في طبعه واستعداده.

شرع محمود سامي في سن الثامنة يتلقى مبادىء العلم على اساتذة كانت تحضر في منزله ودخل سنة ١٢٦٧ هـ أي في سن الثانية عشرة مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ في أوائل تولية سعيد باشا، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة ويقال انه كان يتعاطى صناعة الشعر في أثناء دراسته. أما تربيته الأدبية فإليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفي في الوسيلة الأدبية وكان من أعرف الناس به: «محمود سامي البارودي» لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد في طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . . . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء. «ا. هـ قال ابو العلاء المعري في رسالة الغفران بمعرض الحديث عن بيت لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها	أو يرتبط بعض النفوس حمامها

على لسان ابن القارح يسأل لبيدا: « هل أردت ببعض معنى كل؟ فيقول لبيد: كلا إنما أردت نفسي. وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا وأنت تعني نفسك في الحقيقة وظاهر الكلام واقع على كل إنسان وعلى كل فرقة تكون

بعضا من النـاس. » (ص ٢١٦ من تحقيق ابنـة الشـاطىء، مصر، دار المعـارف ١٩٥٢م).

مقال المرصفي الذي نقلـه السوربوني[1] رحمهما الله فيه «بعض من لـه دراسة» وما أرى المرصفي أراد غير نفسه. ولنعم كان حظه من التوجيه إن كان صاحب الوسيلة قد تولى جانبا من ذلك من أمره.

قال السوربـوني (ص ٢٢ من أدب وتاريخ): لم يكن عصره يساعد على تكـوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء الشعر إذ ذاك محمود صفوت الساعاتي الذي أعقب الدرويش، حدثني المرحوم حفنـي بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمـت في عهد محمد علي هي القصيدة التي مطلعها:

يـا آل طـه عليكم حملتي حسبت   إن الضعيف على الأجـواد محمـول

والتي ما زال إلى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها، وكان الليثي والنجاري والأبياري والنديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من معاصري الساعاتي مولعين بالبديع محتذين مثل البهاء زهير وابن خفاجة وغيرهما من المتأخرين الـذين ليسوا من حلبة هذا الميدان. أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودي:

أنـا في الشعـر عـريق   لم أرثـه عـن كـلالـة
كـان إبـراهيم خـالي   فيـه مشهـور المقـالـة
وسما جـدي علي   يطلـب النجـم فنـالـه

لا أظن أن خال البارودي كان شاعرا يمتاز عن أهل عصره، ولكن لعل البارودي وجد فيـه مشجعـا على قول الشعـر كما وجـد في المعـالي التي يفخـر بها، وفي معاهـد العـز والشبـاب التي درج فيهـا. ولكن هـذا لا يكفي لأن يبرز شـاعـر غض الإهـاب على معـاصريـه ثم يجري على غـاربـه حتى يلحـق بفحـول المتقـدمين قبل أن يطـوي بـرد الشباب. إذن كان سر قوة هـذا الشاعر في طبعه، وكانت في قرارة نفسـه عين كامنة ما

---

(١) ليست «السوربوني» في نص نسبـة الكتاب إلى مؤلفه ولكن بعد اسمه «الحائز لـدكتوراه الدولة في الآداب مع الشرف من السوربـون، استاذ التاريخ الحديث بدار العلـوم «ا. هـ». قلت لقيته رحمه الله بـاسكندرية في مؤتمر ذكرى حـافظ إبـراهيم سنـة ١٩٥٧ في شهر يـوليـه وتحدثت إليـه رحمه الله كثيرا وكـان مما يقال لـه السوربوني.

ورأيتهـا في بعض مـا كتب أظنه الشـوامخ وخبرني الـدكتـور مكي شبيكة رحمه اللـه وكـان لـه معاصرا أن هـذه النسبة كـانت تعجبه كما كان يقـال لأهل العلم الأزهري مثلا ولقـد كان رحمه الله، عظيم الحيـوية، طيب الحابث حقٌ مفيدٍ به. ولقد كان لقائية كَسْباً ومن نعم الله التي لا تكفر. رحمه الله الرحمة الواسعة.

لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم ينضب، روى الأستاذ خليل مطران في فصل رائع: «لقد تسامحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالا به، فأجابني أن خطرات الشعر صحبتني في أيامي كلها ولم تفارقني إلا في أقلها.». ا. هـ.

قلت، ليت شعري هل حسب مطران البارودي صناعا مثله؟ وإذن لكان أجابه، آخذا من كلام ابن قتيبة، يوم شرب الدواء، ويوم المنفى. وصدق مطران لقد تسامح بأيما دالة حين سأله. وصدق البارودي في الجواب، وكان صدوقا.

قولهم البارودي نسبة إلى محلة بمصر يقال لها إيتاي البارود «إحدى بلاد مديرية البحيرة، ذلك أن أحد أجداده الأمير مرادا البارودي بن يوسف شاويش كان ملتزما لها، وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد إلى التزامه» ـ كما في مقدمة ديوانه بقلم محمد حسين هيكل باشا (طبعة دار المعارف ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ص٦).

بلغني أن كتابا صدر رسالة في إحدى جامعات مصر، عن نشأة البارودي فلعله يضيء لنا بعض السبيل عن أوائل تعليمه، فإن في النفس شيئا من أن يكون بدأ التعلم بعد موت أبيه كما هو أول ما يتبادر من ظاهر ترجمة السوربوني رحمه الله له. وكما في مقدمة الديوان (ص٦) حيث قال: «مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره فكفله بعض أهله وضموه إليهم وقد تلقى في بيتهم دراسته الأولى من الثامنة إلى الثانية عشرة من عمره ثم التحق بالمدرسة الحربية ا. هـ» ـ قلت بعيد جدا أن يكون أبوه وهو مدير دنقلة وبربر ومن بيت فضل وسراوة عريق أن يغفل عن قرآن ابنه في السن التي يؤخذ فيها الصغار بذلك. لعلهم حين يبلغون السابعة ـ وذلك حين يؤمرون بالصلاة ويضربون عليها ـ يكونون قد حفظوا من المفصل قدرا صالحا. وقد كانت في دنقلة وبربر خلاوي (أي كتاتيب) قرآن.

وكان في بربر فقهاء على المذهب الشافعي وهو مذهب أهل مصر الغالب، وقرأة لهم علم بالتجويد من طريق الشاطبية وغيرها. فما يبعد أن يكون أبوه وقد كان حاكما قادرا على ذلك، يستقدم منهم إلى داره، أو يبعث بابنه إلى بعضهم في الخلوة مع خادم

بحرسه. وهذا الوجه أقرب وأشبه ببداوة أحوال تلك البلاد وذلك الزمان. مهما يكن من الأمر، فإنه بعيد كل البعد أن يكون أبواه أهملاه لا يقرأ ولا يكتب حتى السابعة.
ورواية السوربوني التي روى عن حفني ناصف رحمة الله عليهما تفيد مثل ما قدمناه من غلبة المديح النبوي على الشعر إذ واضح أن:

يـا آل طـه عليكم حملتي حسبت   إن الضعيف على الأجـواد محمـول

مدحة نبوية على روي بانت سعاد وبحرها.
ومجاراة البارودي للبردة منبثـة بسماعه لها، ويكـون ذلك منذ أيـام الصبا إذ كـانت هي المدحة الكبرى المعروفة في جميع آفاق الإسلام.
وبردتـه كما قدمنا دون شعـره. وله جيمية نبويـة يشوب نصوع الـديباجة فيهـا شوائب تكدره شيئا من أساليب الشعر التي لاتلائم روحانية التعبد والتوسل. وهذا ما حذرت منه البـاعونيـة رحمها اللـه. ونظم البارودي المديح النبـوي منبىء عن تأثره بـه في زمان باكر.
أول الجيمية التي أشرنا إليها:

يا صارم اللحظ مـن أغراك بالمهج   حتى فتكت بها ظلما بـلا حـرج

ومما قال في نسيبها:

أبيـت أرعى نجـــوم الليل في ظلـم   يخشى الضـلالـة فيهـا كـل مـدلج
كـأن أنجمــه والجو معتكــر   غيـد بأخبيـة ينظـرن من فـرج

وهذا مما يقع تحت طائلة نقد الباعونية.
ثم هذا كأن قد ابتعد كل البعد عن القصد بمقدمته إلى المديح النبوي إذ أخذ في بعض مسلك هيام صناعة الشعراء:

ليل غيــاهبــه حيرى وأنجمــه   حسرى وسـاعـاته في الطـول كـالحجج
كأنما الصبـح خــاف الليل حين رأى   ظلماءه ذات أســـداد فلـم يلـج

وهذا يـذكر ببعض أضرب تعب المتنبي ـ ومـا أشبه أن يكون نظر في قـوله كأنما الصبح إلخ إلى قول أبي الطيب كأن الصبـح يطردها وليس ممـا تعب أبوالطيب فيـه ـ ولكن من أمثلة تعبه رحمه الله:

فليت من لامني لانـت شكيمتـه   فكف عني فضـول المنطق السمج

ما أحسب البارودي كان يقدم على استعمال «السمج» لولا ما آنسه بها أبوتمام في قوله: «سماجة غنيت البيت» ونحو ذلك.

يظن بي سفهـــا أني على سرف ولايكاد يرى ما فيه من عوج
فاعدل عن اللوم إن كنت امرأ فطنا فاللوم في الحب معدود من الهوج

في قوله «الهوج» عناء ما. وقد اتبع سبيل النواسي حيث قال:

لاتحظر العفو إن كنت امرأ حرجا فإن حظركه بالدين إزراء

ثم صار إلى خروج المدح النبوي.

هيهات يسلك لوم العاذلين إلى قلب بحب رسول الله ممتزج
هو النبي الذي لولا هدايته لكان أعلم من في الأرض كالهمج

وهذا مأخوذ من قول البوصيري ومحذو عليه، أعنى قوله:

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

ولا يعجبني قوله «كالهمج» ههنا على استقامة معناه ـــ ولا عجز البيت بأسره. تأمله:

لكان أعلم من في الأرض كالهمج

تجده منخفض الدرجة عن الديباجة العالية. وأتى البارودي من متابعة بيت البوصيرى المتقدم، وعجز ذلك قوي الارتباط بصدره. وعجز بيت البارودي كأنه تعليق منفصم. وهذا يجعل نفسا من أنفاس الكلام العامي يوشك أن يخالطه. فذلك مما يكون قد قصر به. ثم يقول رحمه الله:

أنا الذي بت من وجد بروضته أحن شوقا كطير البانة الهزج

قوله «أنا الذي» من أبي الطيب، وهو ظاهر. وقوله كطير البانة الهزج هل عنى به أنه كان يتغنى وهو ينظم من هذه الجيمية وينشد كإنشاد مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم؟

وياليت شعري إذ يشتاق البارودي إلى الروضة الشريفة ها هنا ويحن، هل كان في صباه الأول ابن ست سمع بدنقلا أو ببربر أو بسواكن إذ يصحب أباه فقراء تلك البلاد ينشدون المدائح مما كان قد ازدهر ازدهارا وخاصة في هذه الأقاليم التي ذكرنا هل سمع مثلا:

لقد طال شوقي يا أميني لطيبة ... أشخصها طورا وطورا أناظر
تذكرت يا خلي ليالي ميتنا ... بمسجدها والقوم باك وذاكر
تهيج شوقي قبة النور وهي في ... ضياء له العافون شاموا وسامر
وإن لها نورا إلى العرش ساطعا ... تشاهده أبصارنا والبصائر

صاحب هذه القصيدة توفى قبل مولد البارودي بسبع سنين أو نحوها وكان صيته قد طبق الآفاق ومدائحه تنشد في الاقاليم التي ذكرنا وكثير غيرها، وكان قد صنع للبجاة بناحية سواكن مدائح بالعربية السهلة على أنغامها في صيد السمك فكانوا ينشدونها، وأخذت عنهم فكانت بلا ريب تنشد في نواحي بربر. والله تعالى أعلم.

كان البارودي مثقفا بثقافة الضباط، وكانت من أعلى ضروب الثقافة الحديثة التي يحصل عليها في ذلك الزمان. ومع الثقافة الحربية كانت الممارسة وأنه من طبقة الجاه والرياسة. ثم مع ذلك سعة الاطلاع والعلم بالعربية القليل النظير. ثم ما من الله عليه من تفتح آفاق النفس بتجارب السفر ـ فرأى مع بلاد الإسلام بلاد الكفر أيضا وقد صحب اسمعيل باشا الخديوى الطموح وزار اصطمبول وفرنسة وانجلترا وخاض غمار السياسة وتولى أعباء الوزارة. ثم مع هذا كله وفوقه كان شاعرا. شاعرا فارسا كربيعة بن مكدم وكعنترة بن شداد وكعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب وامرىء القيس وطفيل الغنوي وعمرو بن كلثوم جميعا، أم ليس هو القائل:

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره ... في كل وضاح الأسرة أغيد
تجري به الآرام بين مناهل ... طابت مواردها وظل أبرد
بمضمر أرن كأن سراته ... بعد الحميم سبيكة من عسجد

هذا من قول طفيل:

وكمتا مدماة كأن متونها ... جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

وأحسبه قد مر مع الكلمة التي هو منها في باب الأوصاف.

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة ... منه البياض إلى وظيف أجرد
وكأنما انتزع الأصيل رداءه ... سلبا وخاض من الضحى في مورد

هذا كقول الكلحبة ويروى بعضه لسلمة بن الخرشب وكلاهما مفضلي:

تسائلني بنو جشم بن بكر ... أغراء العرادة أم بهيم
هي الفرس التي كرت عليهم ... عليها الشيخ كالأسد الكليم

أي هو الكليم أو نعت رد على الشيخ ولا إقواء

إذا تمضيهم عـــــادت عليهم وقيـدهـا الـرمـاح فما تـريم
تعـادى من قـوائمهـا ثـلاث بتحجيل وقـائمـة بهيم
كميت غير محلفـة ولكن كلـون الصرف عل بـه الأديم

وقد تصرف البارودي فجعل الأصيل ومورد الضحى مكان «غير محلفة إلخ» ونظر من طرف خفي إلى قول أبي الطيب «كأنه من الليل باق إلخ بيت البائية»

زجل يـردد في اللهـاة صهيلـه رفعـا كـزمـزمـة الحبي المرعـد

هذا عجزه من بيت كعب :

من سره ضرب يمعمع بعضـه بعضـا كمعمعة الأبـاء المحـرق

ومـا خلا أولـه من وحي من بيت طفيل : «وإن يلق كلب بين لحييه يـذهب» وقد تـرى ذكره اللهاة ، فما بدت لهاته إلا لشحوه فاه ، فهذا قول طفيل .

متلفتـا عن جـانبيـه يهزه مـرح الصبـا كـالشـارب المتغـرد
فإذا ثنيـت لـه العنـان وجـدتـه يمطـو كسيـد الـردهـة المتـورد

يشير إلى قول طرفة وليس هذا بأخذ ولا توليد ولا سرقة ولكن تلذذ وترنم

وإذا أطعت لـه العنـان رأيتـه يطـوى المهـامـه فـدفـدا في فـدفـد
يكفيـك منـه إذا أحـس بنبـأة شـد كمعمعـة الأبـاء الموقـد

يشير إلى بيت كعب والأخذ في الحذو الذي أشرنا إليه من قبل لا هنا .

صلب السنـابـك لايمـر بجلمـد في الشـد إلا رض فيـه بجلمـد
نعم العتـاد إذا الشفـاه تقلصت يـوم الكـريهة في العجـاج الأربـد

هذا يشير به إلى قول عنترة «إذ تقلص الشفتان البيت»

ولقـد شربت الخمر بين غطـارف شم المعـاطس كـالغصـون الميـد

هنا نغم عنترة وإيقاعه وإشارة إليه . رنة هذا البيت مثل رنة بيت عنترة :

ولقد شهـدت الخيل يوم طـرادها بسليم أوظفـة القـوائم هيكل

وأوله كأول قولـه «ولقد شربت من المدامة البيت» ـ وفى أبيـات البارودى من قبل «ولقد شهـدت الحرب في إبانها» . وسـائر البيت من قـول حسـان : «شم الأنوف من الطـراز الأول» .

يتـــلاعبـــون على الكئـــوس إذا جـــرت — لعبـــا يـــروح الجد فيـــه ويغتـــدى
لا ينطقـــــون بغير مـــــا أمـــــر الهوى — فكـــلامهـــم كـــالـــروض مصقـــول نـــدى
مـــن كل وضـــــــاح الجبين كأنـــــــه — قمـــــــر تـــــوسط جنـــح ليل أســـــود

هنا شريجان مـن أدب كئوس ضباط الحربيـة العصرية الأروبيـة بعض السمت، ومن أدب «وإذا شربت» و «إذا صحوت» «وفتيـة كسيوف الهند» ذلك قـد يستفاد من قوله: "يروح الجد فيه ويغتدى" . وفى قوله, «لا ينطقون» رنة من إيقاع «لا يستفيقون منها وهى راهنة» . وقوله: «ما أمـر الهوى» يوقف عنده شيئا: أكِان في المجلس نساء أم هي أنفاس نواسية أم معاذ الله ـ بل لا يعدو أن يكون أراد الغناء من عود ونحوه، فهذا الذى يأمـر به الهوى في مثل هـذا المجلس. وقولـه «من كل وضاح» بحتري الصيـاغة والرنة ـ قال أبو عبادة:

وتـراه في ظلـم الـوغى فتخـالـه — قمـرا يغير على الـرجـال بكـوكب

ثم صـار بعد مجلس الشراب إلى ذكـر مغـامرة الغـرام. والقصيدة شبـه مخصرة. بدأها بخلط ذكر الهم بالرحيل من الأحباب وشكوى الصبابة وهو قوله:

ظن الظنـــــون فبـــــات غير مـــوســـــد — حيران يكـــــلأ مستنير الفـــــرقـــــد
تلـــــوي بـــه الـــــذكـــرات حتى إنـــــه — ليظـل ملقى بين أيــــــدى العـــــود
طــــــورا يهم بـأن يـــــزل بنفســــــه — سرفـــــا وتـــــارات يميل على اليـــــد
وكـأنما افترست بطـــــائر حلمـــــــه — مشمـــولـــة أو ســـاغ سم الأســـود
قـــالـــوا غـــدا يـــوم الـــرحيل ومن لهم — خـــوف التفـــرق أن أعيـش الى غـــد
هي بهجـــة ذهب الهوى بشغـــافهـــا — معمـــــــودة إن لم تمت فكـأن قـــــد

هنا تروض الملكة القوية سبيل فض مكنون قلب الشاعر إلى ما يرومه من أغراض البيان الجهير على نمط القصيدة العربية الأصيلة ـــ هنا النابغة، تحس صدى إيقاعه في «غير موسد» «أيدى العود» «يميل على اليد» «غدا يوم الرحيل» ـ وتحس عنترة في «طورا يهم» [تذكـر طورا يجرد للطعـان] ـ وتحس نغم الحماسى في «وكأنما افترست» ذلـك قول سلمى بن ربيعة

وكأن في العينين حب قـــرنفل أو سنبـلا كحلت بـه فـانهلت

وقوله: "وكأن قد"، نابغي. والمطلع كله بعضه نابغي وبعضه كالأسود بن يعفر ثم إذ مهد سبيل النسيب صار إليه:

يـأهل ذا البيـت الـــرفيـع منـــاره أدعـــوكم يـا قـــوم دعـــوة مقصــد
إنى فقـــدت اليـــوم بين بيـــوتكم عقلى فـــــردوه على لأهتـــــدى
أو فـــاستقيـــدونى ببعـض قيـــانكم حتـى تـــرد إلى نفسـى أو تـــــدى

قـول البـارودى "يأهل ذا البيت" يشعـرنا أنـه بإزاء الـوداع. ولا سبيل إليـه إلا بحديث العيون:ـ

بل يا أخا السيـف الطويل نجاده إن أنت لم تحم النـزيـل فأغمـد

جعل نفسه ضيفا على حي المحبوبة ولكن فارس الحى لا يستطيع حمايته من فتك عيون حسانه، وها هم هؤلاء قد أجمعوا أمرهم للرحيل وارتهنوا فؤاده عندهن.

هـــذى لحاظ الغيــد بين شعـــابكم فتكت بنــــا خلســـا بغير مهنـــد
من كل نـــاعمـــة الصبـــا بـــدويـــة ريـــا الشبـــاب سليمـــة المتجـــرد

ما أرى إلا أن هاهنا خطأ في الطبع أو قراءة من قرأ من خط البارودي، وما أشبه أن يكون عجز البيت «ريـا الشباب سليبة المتجرد» أى لو قـد سلب متجردها لألفيت ريا الشبـاب. أما سليمـة المتجرد فضعيفة لا تشبـه أسر القصيدة ونغم جـزالتها. فإن تكن هي الصواب، فلرب كبوة من جـواد. وإن تكن هي التي قالها البارودي فما جرتها إليه إلا إشعارة بأنه حضري حيث جعلها بدوية، ثم أتبع ذلك ما عند الحضر من توهم سلامة الجســم وصحته في البادية ـ والمعنى على هـذا التأويل يسوغ ولكنه يفقـد رنة قوة أسرة. إذ البدوي حقـا هو شاعرنـا لا هذه التي زعمها بـدوية. وسليبة بالبـاء الموحدة التحتية يستقيم بها المعنى ـ وباؤها أشد ملاءمة لما من قبل من الباءات ـ والله أعلم

هيفاء إن خطرت سبت وإذا رنت سلبت فـؤاد العـابـد المتشـدد

سلبت هاهنا يقوى ما زعمنا من «سليبة» قبل وتكون حالا منصوبة.

ثم يجيء شيء كالتخصير، أولـه نظر في أمر النسـاء فيه مشابه من مقـال علقمة حيث قال: «فإن تسألـوني بالنساء...»، ثم بعـد ذلك تنويه بفروسيتـه ويكون ذلك كالنطـاق وكالتوشيح يصل بـه إلى تذكر الخيل والشراب والمغـامرة الغراميـة. وفي هذه الدالية بعد، لبـدئها بالليل، ثم جعل بداية الذكريات اغتـداء بالفرس، كالحذو على

نموذج من دالية الأسود بن يعفر «نام الخلي وما أحس رقادي» وقد بينا من قبل أن هذه الدالية تساير المعلقة من عند ذكر الليل إلى نهايتها أو قريب من ذلك. ــ قال البارودي :ــ

يخفضن من أبصارهن تختلا | للنفس فعل القانتات العبد

«فعل القانتات العبد» يشير إلى قوله تعالى: وقل للمؤمنات» وقوله: يخفضن من أبصارهن» في صياغته ورنة إيقاعه نظر إلى قول الأسود: «ينطقن معروفا وهن نواعم البيت» ينطقن مخفوض الحديث تهامسا»

فإذا أصبن أخا الشباب سلبنه | ورمين مهجته بطرف أصيد
وإذا لمحن أخا المشيب قلينه | وسترن ضاحية المحاسن باليد

فهذا ما زعمنا من اتباعه مقال علقمة ــ ثم يجيء حديثه عن نفسه:

فلئن غدوت دريئة لعيونها | فلقد أفل زعارة المتمرد

الدريئة الهدف وأشار إلى قول قطري:

فلقد أراني للرماح دريئة | من عن يميني مرة وأمامي

وهذه الإشارة صارت به إلى ذكر الحرب:

ولقد شهدت الحرب في إبانها | ولبئس راعي الحي إن لم أشهد

وقد ذكرنا من قبل أخذ البارودي هنا من إيقاع عنترة وحذا على حذوه حيث قال:

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها | بسليم أوظفة القوائم هيكل
فدعوا نزال فكنت أول نازل | وعلام أركبه إذا لم أنزل

هذا العجز من بيت عنترة صداه في قول شاعرنا «ولبئس راعي الحي» وفى روى البارودي وبحره وبعض صياغته أصداء من كلمة عامر بن الطفيل

ولتسألن أسماء وهى حفية | نصحاءها اطردت أم لم أطرد

وأظهر ما في دالية البارودي من أصداء هذه الكلمة العامرية بعد الروي والقافية رنة المضارع المنفي بلم ــ لم أطرد ــ لم يسند ــ لم يقصد ــ لم توقد. وجاء به البارودي مرتين

في القافيـة ـ لم أشهـد ـ لم ينفد وقـارب في قولـه : ان لم تحم النزيل فأغمـد ». وفي لو لم ينقض». [1]

تتقصـف المران في حجـــراتها　　ويعـود فيهـا السيف مثل الأدرد

أى ذا فلول

عصفت بها ريـح الـردى فتـدفقت　　بـدم الفـوارس كـالأتي المزبـد
مـا زلـت أطعن بينهـا حتـى انثنت　　عن مثل حـاشيـة الـرداء المجسـد

قوله ما زلت ينظر الى قول عنترة : "مـازلت أرميهم بثغرة نحره البيت ـ وهذا آخر مـا شبهنـاه بتخصير المتنبي والقـدمـاء من قبل. ومن بعـده مـا ذكـرنـا مـن أبيـات الـذكرى، وختم بمغـامرة الغـرام وبأبيات الحكمـة على النحو الـذي ختمت به داليـة الاسود في رواية من روى :

فإذا وذلك لا مهـاه لـذكـره　　والدهـر يعقب صـالحا بفساد

واستهل أبيات المغامرة بنمط جاهلي ثم مضى فيه :

بل رب غـانيـة طـرقت خبـاءهـا　　والنجم يطـرف عن لـواحـظ أرمـد
قـالت وقـد نظـرت إلى فضحتني　　فـارجع لشـأنك فـالرجـال بمـرصـد
فخلبتهـا بـالقـول حتى رضتهـا　　وطـويتهـا طى الحبيرة بـاليـد

أي كما تطوي الثياب الناعمة بيد طاويها ـ أخذ هذا من قول جرير :
" طي التجار بحضرموت برودا "
هذا من حيث ظاهر اللفظ وفي المعنى أنفاس امرىء القيس :

---

١ ـ جعل موقع الضاد حيث وقعت ضربا من التقفية وفي كلام الأخفش ما يسوغ مثل هذا ثم تشبع الضاد للروى على طريقة ما يقع في القوافي

هصرت بفودي رأسها فتمايلت   على هضيم الكشح ريـا المخلخل

والمرأة الشابة الجميلة كالمهرة الضامر ـ «طي التجار بحضرموت برودا»
وفي المعنى أيضا انفاس سحيم عبد بني الحسحاس :
" افرجها فرج القباء . . . "
قاتله الله . . . زعموا ان عمر قال له انك مقتول . . . ولعله ما قتله الا الأساطير

مـا زلت أمنعهـا المنـام غـوايـة   حتى لقـــد بتنـا بليل الأنقـــد

يقال بات بليل أنقد وبليل الأنقد أي سـاهرا وانقد كأحمد (علم غير منون مطلق على الجنس) وقد تدخلـه اللام ، هو القنفذ ومـا اشبه عندي أن يكون الشاعـر قد قال «بليلة انقد »كقول الاعشى «الم تغمض عيناك ليلة ارمـدا» لذكره السهر في قوله «امنعها المنام »ــ ، الاشارة إلى قـول الأعشى موجودة على كل حـال ، "الا ان ليلة انقـدا " اشد شبها وما بد نا جيد قوي فلا ينبغي ان نعدل عنه " وغواية " تنظر الى قول امريء القيس " ومـا ان ارى عنك الغـواية تنجلي» ومـا زلت منهـا في صيـاغته حـذو على "مـازلت أرميهم " . . . بيت عنترة

روعاء تفـزع من عصافير الضحى   تـرفـا وتجزع مـن صئياح الهدهـد

فترفها على هذا أنها عذراء اذ قد زعم أنها بدوية من قبل

حتى إذا نـم الصبـا وتتـــابعت   زيم الكـــواكب كـالمهـا المتبدد

الصبـا يجوز انها ريح الصبـا وهـذا من قـولـه تعـالى : والصبح اذا تنفس . . ومـا استبعـد ان يكون أراد الصبـاح فحذف على مـذهب الفصحاء كقـول علقمة : «بسبـا الكتان »وقـول لبيد : «درس المنا بمتالع فأبـان »زيم الكواكب ، اي متفرقـاتها والتشبيه بقطيع المها المتبدد من امريء القيس :

فأدبــرن كـــالجزع المفصل بينــه   بجيــد على معم في العشيرة مخول

اللاتي ادبرن هن بقر الوحش . وفي اللاميـة قوله : «إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح» وهو وشاح التي في جيدها هذا الطوق . والمعاني تتداعى فمن هنا جاء البارودي بتشبيهه . وقد كان قلب البارودي وخياله مفعما بصور بيان الشعراء ، وما أجاب به سؤال مطران يدل على ذلك .

قالت دخلت وما إخالك بارحا الا وقد أبقيت عار المسند

أي عار الدهر فهذا يدل على أنها عذراء ـ كعذراء امريء القيس وسحيم.

وما عدا البارودي رحمه الله ان أضفي لونا جاهليا على مغامرة مما أتيح على التوهم أو حقا في بعض دار الحرب أو السلم ، وكأن قوله : «متلثما والسيف يلمع في يدي» كناية ورمز :

فمسحتها حتى اطمأن فؤادها فنفيت روعتها برأي محصد
وخرجت اخترق الصفوف الى العدا متلثما والسيف يلمع في يدي
فلنعم ذاك العيش لو لم ينقضي ولنعم هذا العيش لو لم ينفد

برأي محصد تنظر إلى قول عنترة «وأحفزه بأمر مبرم». وقوله«وخرجت إلخ» يخالف ما قال ابن ربيعة ويؤثر مذهب جميل :

اذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفوني

وقوله «لو لم ينقضي» فيه اشباع كسرة الضاد لشبه التصريع أو هو تصريع على مذهب من قال :

رأى من رفيقيه جفاء وبيعه إذا قام يبتاع القلاص ذميم
خليلي حلا واتركا الرحل إنني بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشري رحله قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب

ذكره الأخفش[القوافي لابي الحسن الاخفش دمشق ١٣٩٠هـ س ٤٧] أو أشبه بقول الآخر [نفسه ٥٢]:

اذا نزلت فاجعلاني وسطا
اني شيخ لا اطيق العندا

لقرب تشابه الحروف. ولعل البارودي لم يقل "لو لم ينقض" ولكن: «لولا ينقضي» وهو اشبه بأسلوبه، وقد يسبق قلم او يقع من طابع خطأ في مثل هذه الأشياء. والله اعلم.

يرجو الفتى في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد

هذا كما تقدم محذو على قول الاسود بن يعفر، في رواية من رواه له :ـ

فإذا وذلك لا مهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

وفي أوله نظر إلى كلمة النمر بن تولب:

يـود الفتى طـول السلامـة والبقـا   فكيف تـرى طول السلامـة يفعل

جمع البارودي في هـذه الداليـة بين الضابط الحربي ابن الطبقـة العاليـة على زمان افنـدينا الخديـوي وبين الشاب المثقف المتحـرر المتحمس المفعم بروح الثـورة والقوميـة وحـرارتها وبين الفارس الامير المصري الجركسي وبين البطل العـربي الاسطوري المثـالي ، عنترة بن شداد وربيعة بن مكدم وعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب .
شخصية البارودي من فوق صهوة جواده : جواد ضابط السواري العزيز الطموح وجواد الاسود بن يعفر، جواد الجاهلية ذات الحمية :

بمضمـــر أرن عتيـد شـــده   قيـد السـوابق والرهـان جـواد

وجواد امريء القيس ، جواد الفتوة والملك الضليل والاحلام العراض :

على الذبل جياش كأن اهتزامه   اذا جاش فيه حميـه غلي مرجل

شخصية فذة نادرة ، يتجسد فيها كل ما كـانت توهمه الرومانسية في ريعان إبانها من المثل العليـا الشـامخات . شخصية هي جـوهـر الـرومانسيـة التي يـروم الانتماء إلى نموذجهـا "المترمنسون" . فهذا تأويل قـولنا آنفا إن البارودي هـو سيد "الرومـانسية" الحديثة في الشعر العربي وهذا لا يدخله في نطاق ما نطلق عليه الآن اسم "الرومنسية" في الشعر العربي ولكن يخرجه من ذلك إخراجا .
رثى برتـراند رسل في فصله عن الـرومنسية في كتـابه عن تأريخ الفلسفة الغـربية الاوائل شبان الشعراء الرومنسيين الألمانيين من مات منهم صغيرا ومن عمر من بعد .
اذا الضرب الاول قـد اختضر قبل استـوائه ونضجـه والضرب الثـاني قـد زعم ان الـذين اختضروا اسعـد منهم لانهم ، اي الضرب الـذي عمـر ، قـد مـاتـوا مـوتـا أكبر باعتنـاقهم الكثلكة على فرط "ترمنس" . وقسـا في ترجمته لفيلسوف الـرومنسية الكبير - جان جاك روسو وليس ذلك لعمري بضـائره . وقد كان جسيم الفكر شجاعه على لين وشذوذ في الطباع ، وفي اعترافاته ما يدل على اطلاع على بعض ما في احياء علوم الدين لأبي حامد . ومما يـذكر في هذا الصدد أنه مرت عليه فترة وهـو ضيف أو صديق لدافيد هيوم DAVID HUME الفيلسوف الاسكتلندي صاحب انكار السببيه واصول فلسفته هذه في تهافـت أبي حامد . كما ان اصـولا من النسبيـة في تهافت ابي حامـد ايضا . ودل برتراند رسل اما على جهل أو تجاهل عن تعصب في الفصل القصير له عنه وعن فلسفة المسلمين وناقض نفسـه في كتابته عن روجـر بيكون اذ مـدحه بمعرفتـه علوم المسلمين

. وقل عالم اوربي يسلم من روح التعصب العنصري والديني والإنطلاق من نقطة دعوى تسليم الناس له بالتفوق، كالذي مر من قول نيكلسون بحسب مقاييس الذوق الأوربي بمعرض حديثه عن أبي الطيب وعند القوم أمثالها .

هذا ومن أوائل الشعراء الرومانسيين الافرنج وردزورث Wordsworth، وكان أقرب الى نموذج الجنتلمان الانجليزي، وتأثر بروسو في حبه الطبيعة ودعواه التصوف بها، وله كلمات حسان، وربما أدركه الفتور. وشعره من الضرب الغنائي الذي يصوغه ذا موضوع وفكرة كالمقالة الإنشائية، ويضمنه إحساسه الذاتي، ومن أشهر كلماته في هذا المعنى كلمة له عما تشعر به النفس من معاني الخلود تستمده من ذكريات الطفولة الأولى (ODE ON INTIMATIONS OF IMMORTALITY FROM RECLLECTIONS OF EARLY CHILDHOOD)

وأحسبها كان لها على بعض أوائل الرومانسيين العرب أثر كبير اذ كانت من مقررات المدارس في مختارات الأدب الانجليزي . واشترك وردزورث في اول أمره مع «صمويل تيلور كلردج» في اصدار الأغاني الشعبية، ديوان شعر دافعا فيه بها انشأآ وما قدما عن قضية التجديد وكلردج أقوى اندفاعا وأحر أنفاسا من ورد زورث إلا أنه قد ابتلى بتخدير الافيون، فذهب ذلك بملكة شعره، واشتغل بالفلسفة والدين، وله الترجمة الأدبية التي تعد من أمهات كتب النقد الحديث . ومن أشهر شعره قصة الملاح العجوز، وفيها نغم جيد وأضغاث أوهام . وقطعة عنوانها "قبلاى خان" قيل نظمها دفعة واحدة ثم طرق عليه الباب فانقطع عنه نفس القطعة عند الموضع الذى اتفق مع بلوغه إياه طرق ذلك الطارق . وقيل نظمها تحت تأثير الأفيون وآخرها كأنه مستعار من ساحرات شكسبير الثلاث في مسرحيته ماكبيث . ومن كبار شعراء الانجليز الرومانسيين بعد هذين :

ثلاثة متقاربو السن، اللوردبيرون (١٧٨٨ــ١٨٢٤م)وكان من سفهاء الطبقة العالية متوسط الشعر في نظر النقاد الانجليز وشيلي(١٧٩٢ـ١٨٢٤)وكان حاد الذكاء ملحدا في شعره اندفاع، واشتهرت له خاصة بين العرب كلمتاه عن الطائر وعن الريح الغربية، وتحمسه ومده بيديه يعطو ولا ينال من خصائص أسلوبه التي انتقل بعض طابعها إلى مقلديه . وأصغر الثلاثة سنا ولعله أشعرهم "جون كيتس "(١٧٩٥ـ١٨٢١) وقتله السل وكان طبيبا . وجميع الرومانسيين لآداب الشرق والعربية خاصة أثر بين في ما نظموه . وذلك في "كيتس" أشد ظهورا وقد استهل كلمته عن البلبل بمطلع نسيبي الروح وذكر فيه الخمر وتعتيقها مع تخير دقيق متذوق لحلاوة الألفاظ، وتعجبني كلمة

له أسطورية الطابع عندي أن بعض أصلها من ألف ليلة وليلة، من طريق مباشر أو غير مباشر وهي التي عنوانها فرنسي

La Belle DAME SANS MERCI

أى «المرأة الحسناء بلا رحمة». وقد بين ماريو براز أن لها أصولا قديمة كثيرة.
وأضع ترجمتها التقريبية بين يدي القارىء الكريم، لا لأنها ترجمة حسنة، فالشعر مما تعسر ترجمته وقد نبه الجاحظ لذلك. {وأذكر إذ قال الاستاذ غرى GURRY بمعهد التربية بجامعة لندن سنة ١٩٤٦ لأحد الطلبة إذ زعم أنه يستحسن تقديم قطع مبسطة من الشعر الجيد ليتذوق جودتها الصغار: «ولكنك لن تستطيع تبسيط الشعر، هل تستطيع ذلك؟»

But you can't simplify poetry, can you?

فهذا في التبسيط فكيف بالترجمة؟}. ولكنى أضع هذه الترجمة لما تنم به هذه الكلمة خاصة من معاني "الترمنس". ولصاحب كتاب "احتضار الرومانسية" The Romantic Agony "ماريوبراز" MARIO PRAZ فصل كامل هو الرابع من كتابه قدم للفصل بأبيات منها وعنونه بعنوانها وبني تحليل جوانب من زعمه احتضار الرومانسية على معان منها وأصل الكتاب باللغة الطليانية، وترجمه منها إلى الانجليزية بالعنوان الانجليزي الذي ذكرناه "انغس دافدسن" ANGUS DAVIDSON (الطبعة الثانية من طبعة أكسفورد، لندن ونيويورك ١٩٧٠ ص ٢٠٠ـ٣٠٠).
فآمل أن يقع مرادى موقعا من بعض ماعسى أن يفيد:

يـآيها الفـارس في الـدرع، مـا تألم فــذا في شحــوب تسير

قــد صــوح النبت الـــذي في الغــديـــر
والطير لا يلفى لــــه من هـــديـــر

يــآيها الفـــارس في الـــدرع مـــا تألم مهمـــومـــا كئيب الفـــؤاد
قـد مـلأ الغـرفـة بـالغلـة السـ ـــنجاب وانجـــاب أوان الحصـــاد
أرى على حـــاجبكم زنبقـــا بـــه نـــدى الحمى وطل الشجن
وقـــد أرى في خـــدكـم وردة حـــالت فما أسرع مـــا تـــذبلن
رأيت في الـــروضـــة إنســـانـــة كـــاملـــة الحسـن ومن نسـل جن
طـــويلـــة الشعـر ووحشيـــة الـــ ـــعينين والخطـــو خفيفـــا وزن
ألبستهـــا إكليل غـــار وســـو ـــورت بـأزهـــار ومنطقتهـــا

ونظـرت لي نظـرات الهوى ... ثمـت أنت حلـوة صـوتها
حملتهـا فـوق جـوادى بنـا ... يخطـو ولا شيئـا سـواهـا أرى
طـوال يـومي حين مـالت إلى ... جنبى وتشـدو اللحن من عبقـرا
ووجـدت لي من عـروق شهيـ ... ـات وحلـوات لـدى المأكل
والعسل البري جـاءت بـه ... والمن يغشـاه نـدى السلسل
ثمت قـالت بلسـان غـريـ ... ـب إنني أهـواك يـا ويح لى
ثمت صـارت بي إلى كهفهـا الـ ... ـمسحور صـارت بى إلى كهفهـا
وحـدقت ثم ومقـروحـة الـ ... ـفؤاد بـالآهـة من جـوفهـا
عنـدئذ قبلتهـا أربعـا ... أغلقن جفن الـوحش من طـرفهـا
ووسـدتنى سـاعـديها وغنـ ... ـت لي إلى أن نمت في حجـرهـا
حلمت في نـومي ويـاحسرة النـ ... ـفس على مـا كـان من أمـرهـا
آخـر حلم كـان لي ذاك في ... جـانب سفح الجبل البـارد
آخـر حلـم أبصرت مقلتي ... من بعـد ذاك السكـر الخالـد
ثم ملـوكـا شـاحبي أوجـه ... رأيتهـم وأمـرا مثلهـم
ويشحـوب كشحـوب الـردى ... فـرسـان حـرب أخـذوا قبلهم
جميعهم قـالـوا معـا إنها الـ ... ـحسنا بـلا قلب رحيم سبتك
والغـادة الحسنـا بـلا رحمة ... يـا ويـح مـا نفسك قـد أحـرزتك
رأيت في ضـوء المكـان الضعيف ... شفـاههـم فـالقلب مني أسيف
ضـورهـا الجوع ويفغـرن تلـ ... ـقائى فغـرا بنـذيـر مخيف
صحـوت والآن أنـا واجـدى ... بجنب هـذا الجبل البـارد
مـن أجل هـذا وفـؤادى كسير ... وحـدى ألفى في شحـوب أسير
من بعـد مـا جف نبـات الغـديـر ... والطير لا يلفى لـه من هـديـر

وإليك النص الانجليزى لتصحح به ما قد يكون مما اضطربت به الترجمة :

What can ail thee knight - at - arms,
Alone and palely loitering?
The sedge is wither'd from the lake,
And no birds sing
What can ail thee knight - at -arms,
So haggard and woe-begone?

The squirrel's granry is full,
And the harvest's done
I see a lily on they brow
With anguish moist and fever dew;
And on they cheek a fading rose
Fast withereth too.
I met a lady in the meads,
Full beautiful - afaery's child
Her hair was long, her foot was light,
And her eyes were wild
I made a garland for her head,
And bracelets too and fragrant zone
She look'd at me as she did love,
And made a sweet moan
I set her on my pacing steed,
And nothing else saw all day long,
For side ways would she lean, and sing
A faery's Song
She found me roots of relish sweet,
And honey wild, and mana dew;
And sure in language strange she said I love thee true
She took me in her elfin grot,
And there she gazed and sighed full sore,
And there I shut her wild wild eyes
With kisses four.
And there she lulled me asleep,
And there I dream'd-ah! woe betide!
The latest dream I ever dream'd
On the cold hill side.
I saw pale kings and princes too,
Pale warriors, death-pale were they all;
They cried – "la Belle Dame sans merci
Thee hath in thrall!"
I saw their starv'd lips in the gloam,
With horrid warning gaped wide,
And I awoke, and found me here,
On the cold hill side.

And this is why I sojourn here,
Alone and palely loitering,
Though the sedge is wither'd from the lake
And no birds sing.

" الترمنس " الكنين في هـذه القطعة هـو هـذا العشق المسحـور، وهذه الحسنـاء القتول التي تشرب دماء معشوقيها .

كـانت " رومنسية " فـرنسة الكبيرة هي ثـورتها . وأبطـالها المثاليـون أولو الطمـوح والدمـوية المرعبة : ميرابـو ـ دانتـون ـ مارا ــ روبسبير ـ ثم نـابليون ، الذي أعـاد ذكرى الاسكندر ,وهنيبعل وقيصر وتيمورلنك ، وفتح بـاب هول أوربا وحروب دمـارها وتفوق استعمارها وهلم جـرا فتحا كما لم يتح لـه من قبل ـ وخاصـة بتوجيهـه الأنظار إلى مصر والشام كما عهدت أوربا أيام الحروب الصليبية . وقد كان من أوائل الرومنسية الأدبية في فرنسة ، مدام دي شتايل وأبوها كان وزير لويس السادس عشر قتيل الثورة وكانت امرأة قـوية الشخصيـة (١٧٦٦ ـ ١٨١٧) دميمـة ومع ذلك ذات فتنة . ومن مقـالاتها : «إن النواوير ومجاري الأنهار كانت ذات كفاية للشعراء غير المسيحيين . أما قلوب المسيحيين فإن لا أبدية ولا نهائية أرواحها تقصر عن مـدى التعبير عنها البحار التي لا ساحل لها والسماوات الملأى بـالنجـوم والغابـات العظيمـة الـوحشـة . » فتأمل هـذه الأصل من مسيحية الرومنسية ووثنيتها معا . وقالوا إن بنيامين كونستان B. Constant(١٧٦٧ ـ ١٨٣٠) ، السويسري ، صاحب قصة " أدلف " (١)، كان لها خليـلا . وقصته هـذه تعد من أوائل «الترمنس» الفـرنسي ، وعليها حـذا دوماس غادتـه التي مثلتهـا في زماننـا نجمة السينما غريتـا غاربـو وصاحب غـادة الكاميليـا أجود عشقـا من أدولف ، الذي كأنما رمـز به المؤلف إلى نفسـه إذ ســلا حب مـدام دي شتـايل ، وجعل صــاحبـة أدلف تموت من حبه ، كما مـاتت ليلى من حب قيس . وقد كانت الـرومنسية الفرنسيـة في الأدب أحدث عهدا ، وداخلهـا فتور مـا بعد الثـورة ، ورروح ثورات مـا بعد الثـورة ـ الثـورة الصناعيـة مثـلا . ومن أشهــر أدبـاء فـرنسـة وشعــرائهـا الـرومنسيين " الفـريــددى مـوسيـه "

(١) أدولف هو فتى عشق أمرأة أسـن منه لا حبا لها ولكن زهوا منه ليـزعم لنفسه أنه عاشق معشق وقـالوا إن القصة كأنها ترجمة ذاتية عرض فيها بغرامياته وضروب من ضعفه .

" ولامرتين " . وقد تأثر أدباء النهضة وروادها الأولون بعد البارودي وقبله، في مصر والشام وغيرهما، أول شيء بالثقافة الفرنسية ثم من بعد بالانجليزية وغيرها من آداب أوربا.

أما البارودي فقد كان صاحب سيف ورجل دولة ونضال. كان تأثره بأوربا محصورا في الجانب العلمى الحربي والسياسي. ولكن الجانب الأدبي لم يفتنه. كان له عنه شغل شاغل بما فتنه وملك عليه جوانب قلبه من أشعار العرب. حتى نثره المسجوع بالنسبة لبعض ما لا نقول به من بعض الأقاويل المعاصرة، ينبغي أن يكون هو ضربا من الشعر. شخصيته التي نعتناها بأنها في الرومنسية ذروة، هي حقا أصل في ذاتها، من نوع تلك البطولات المثالية التي كانت تعطو إليها رومنسية شعراء أوروبا الأولى وأدبائها، بأحلامها ونماذج صناعتها وإلهامها. البارودي بأنه أصل ومثل، لافرع ضعيف ولا حذو على مثال، ذلك مخرجه من زمرة الرومنسية الحديثة إخراجا.

قصيدة البارودي لا ملحمية ولا مسرحية ولا غنائية هي عربية صلته صوت مكافح جهير، كصوت زهير وجرير وأبي تمام وأبي الطيب. الدالية التي أوردناها منذ حين أغلب عليها روح المجاراة على مالها من معدن أصالة وقوة. وقد استقام للبارودي حين بلغ أشدة في الشعر واستوى نهج القصيدة، كما استقام من قبل، لأبي تمام وأبي عبادة وأبي الطيب، ومن بعد هؤلاء للصرصري والبوصيري والبرعي وابن الخطيب والبقية الباقية من شعراء مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في شتى بلاد العربية وآفاق الإسلام.

خذ قوله المشهور في موقفه من ثورة عرابي باشا:

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة ... وربما تاح أمر غير مظنون

تأمل تاح هذه في زمان لا يكاد يعرف فيه هذا الفعل إلا رباعيا مبنيا للمجهول. المبني للمعلوم هنا هو المعبر الأصيل.

فخالفوني وشبوها مكابرة ... وكان أولى بقومي لو أطاعوني

إذ كان هو الرئيس الأمير العالم الشاعر - ولكن التأثر العملي بأوربا تخطى حنكته وتجاربه إلى مذهب من " الغوغاء " كان هو منه جد بعيد. وما أرى هيكلا على جودة رأيه إلا قد ظلمه حيث قال: «واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق. وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وتحركت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك الذين

حكموا مصر وقصيدته التي مطلعها :

قلدت جيد المعالي حلية الغزل وقلت في الجد ما أغنى عن الهزل

لا تبرئه من هذا التفكير وإن ذكر في الديوان انها قيلت في عهد اسماعيل " ١٠. هـ . قلت ما قاله الديوان أصدق عند المتأمل من ظن هيكل الذي ظنه ، رحمه الله ، وذلك لأن هذه اللامية على وضوح مجاراتها للامية الطغرائي - فارس آخر من معادن كمعادنه روحا وأدبا وشعرا - فيها من حرارة الشباب وطيشه ما يشهد بصدق سبق تأريخ نظمها لزمان توفيق . وقال هيكل في موضع آخر: «ولكن اندفاعه في حركة الضباط من بداءتها حال بينه وبين التخلص منهم ، فلم يكن له بد من أن يسير معهم وأن يربط حظه بحظهم» . لو اكتفى هيكل بقوله : « أن يسير معهم »لكان قد أصاب وصار إلى ما قاله البارودى في أبياته النونية ولكن قوله : «وأن يربط حظه بحظهم " مشعر بمعنى "الانتهازية" والدهاء الذي زعم من قبل . وشعر البارودى وسمت صدقه يشهد ببطلان هذه التهمة .

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة وربما تاح أمر غير مظنون
فخالفوني وشبوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتي الأمور على ما ليس في خلد ويخطىء الظن في بعض الأحايين

كأنه يعاتب نفسه شيئا ههنا .

حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة وأصبح الشر أمرا غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي . . . .

هنا البطولة والمأساة معا . . . .

ومن شيمي صدق الولاء وتحقيق الأظانين

تأمل جودة المقابلة في اللفظ والمعنى بين قوله : «ويخطىء الظن إلخ» وقوله : «صدق الولاء وتحقيق الأظانين» - ومكنونة تحت ذلك مقابلة تحمل معنى الأسف الروحي وعتاب النفس ، يكره أن يكون ندما على اتباع ما اتبع ، ويقارب ذلك الندم ، رحمه الله ، وسقت قبره شآبيب المغفرة والرضوان .

من أحب شعره إلي وأجوده قوله بسرنديب :

لكل دمع جـرى من مقلـة سبب   وكيـف يملـك دمـع العين مكتئـب

المطلع بـوصيري الـروح . ولعلـه رحمه اللـه كـان ينشـد من البردة، يتبرك بها ويتـوسل بروحانيتها في منفاه . ـ تأمل «دمع جرى من مقلة» : قال البوصيري :

أمن تـذكـر جيران بـذي سلم   مـزجت دمعـا جـرى من مقلـة بـدم

والبحـر بحر البردة . وقـد رأيت مجاراة أبي الطيب بـاء " السيف أصـدق " بميم «عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم" . وفي بائية البارودي هذه أيضا نوع من المجاراة لميمية أبي الطيب :

واحر قلباه ممن قلبه شبم

روح البحر ونظر روي الباء إلى الميم نسب بين هذه الكلمة وبردة المديح ، ومجرى الضم مع ما تقدم نسب بينها وبين " واحر قلباه ممن قلبه شبم " ـ ثم للبارودي بعد ما انفرد به من بث الشكوى والخطاب الصريح وأمل القومية والمجد والحفاظ الذي ضاع .

قال رحمه الله :

لكل دمع جـرى من مقلـة سبب   وكيـف يملـك دمـع العين مكتئـب
لـولا مكـابـدة الأشـواق مـا دمعت   عين ولابـات قلـب في الحشـا يجب
فيـا أخـا العـذل لا تعجل بـلائمـة   علي فـالحب سلطـان لـه الغلب
لـو كـان للمـرء عقل يستضيء بـه   في ظلمـة الشك لم تعلـق بـه النـوب
ولـو تبين مـافي الغيب من حـدث   لكـان يعلم مـا يأتي ويجتنب
لكنـه غـرض للـدهـر يـرشقـه   بـأسهـم مـا لها ريـش ولاعقـب
فكيـف أكتم أشـواقي وبي كلـف   تكـاد مـن مسـه الأحشـاء تنشعب
أم كيف أسلـو ولي قلـب إذا التهبت   بـالأفق لمعـة بـرق كـاد يلتهب
أصبحت في الحب مطـويـا على حـرق   يكـاد أيسرهـا بـالـروح ينتشب
إذا تنفست فـاضت زفـرتي شررا   كما استنـار وراء القـدحـة اللهب
لم يبق لي غير نفسي مـا أجـود بـه   وقـد فعلت فهـل مـن رحمة تجب
كأن قلبي وقـد هـاج الغـرام بـه   بين الحشـا طـائر في الفخ يضطـرب

صورة الطائر المضطرب تتردد عند البارودي . وله رائية قصيرة حسنة ذكر فيها الطائر الحذر:

يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه ... دحو الصوالج في الديمومة الأكرا
مابالـه وهـو في أمن وعافية ... لايبعث الطرف إلا خائفا حذرا

وذكر طيف غانيه :

حوراء كالريم ألحاظا إذا نظرت ... وصورة البدر إشراقا إذا سفرا

وكأنما حذا ههنا على رائية أبي الحسن التهامي التي يقول فيها يذكر امرأة حسناء

ترمي الحجيج فتصميهم ويرشقها ... راميهم فيولى سهمه هدرا [1]

ثم يقول البارودي

لا يترك الحب قلبى من لواعجه ... كأنما بين قلبي والهوى نسب
فلا تلمني على دمع تحدر في ... سفح العقيق فلى في سفحه أرب
منازل كلما لاحت مخايلها ... في صفحة الفكر منى هاجني طرب
لي عند ساكنها عهد شقيت به ... والعهد ما لم يصنه الود منقضب
وعاد ظنى عليلا بعد صحته ... والظن يبعد أحيانا ويقترب

---

(١) أشرنا إلى هذا في كتابنا التماسة عزاء بين الشعراء ــ طبع بيروت ص١٩٦ . وقد ذكرنا ثم أن أبا العلاء المعرى، وذكروا أن التهامي أنشده شعره، كأنما يغمز التهامي في نعته هذه المرأة التي فتنت الحجاج فكاد يفسد حجهم، في قوله في اللزوميات :

أتت خنساء مكة كالثريا ... وخلت بالعواصم فرقديها
ولو صلت بمنزلها وصامت ... لكان البر أجمعه لديها
ولكن جاءت الجمرات ترمى ... وأبصار الغواة إلى يديها

وما ثريا عمر أراد، ولكن الغواة الذين قدم إليه أحدهم فأنشده. والله أعلم .

هذا آخر القسم الأول. وهو من مرحلتين، الأولى تأمل يخالطه شيء من أسى كالندم ـ ندم يـروم التأسي بالعظة والعبرة والحكمـة، والثانيـة إعلان للشوق والحب والصبـابة. يهيمن على المرحلـة الأولى طائف من روحـانية البـوصيرى. يرفـرف على المرحلة الثـانية جناح من صوت أبي الطيب.

ند مرت الإشارة إلى«مـزجت دمعا جرى من مقلة بدم». وقوله «لـولا مكابدة إلخ» فيه أنفاس:

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

وقوله: «ياأخا العذل» كقول البوصيري «يالائمى أي يا عاذلى» أى يا أخا العذل:ـ

يا لائمي في الهوي العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

لأن الهوى العذرى لاينبغى أن يعذل عليـه صاحبه. وقول البـارودي: " فالحب سلطان له الغلب" يقـابل قول البوصيري: " معـذرة مني إليك " ـ وفي قول البـوصيري جناس معنوي لفظى (العذرى. . . معذرة) وفي قول البارودي مجانسة معنوية «سلطان. . . له الغلب» وقول البارودي«لاتعجل علي». . . يقابل قول البوصيري: «لو أنصفت لم تلم» قـول البـارودي من بعـد« لـو كـان للمـرء عقل إلـخ» يحمل رنـة من إيقـاع صيـاغـة البوصيري:

لو كنت أعلم أني ما أوقره كتمت سرا بدا لى منه بالكتم

وكتمان البوصيري هنا فيه نفحات من كتمان أبي الطيب:

مالي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الأمم

وقد كرر البارودي نغم البوصيرى حيث قال:

ولو تبين ما في الغيب من حدث لكان يعلم ما يأتى ويجتنب

وكأن ههنا سريرة ندم ـ وكأن نفحة من قول الإمام شرف الدين:ـ

من لي برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم

وفي قول البارودي: «فخالفوني وشبوها مكابرة» معنى غواية مستكن. وفي قول البارودي «لكنه غـرض للدهـر إلخ» معنى التسليم للقدر. قـوله "بأسهم مـالها ريش ولاعقب" أخذ لفظه أخذ إشارة من بائية غيلان، والعقب هو العصب تشد به السهام عند أفواقها وحيث مـوضع النصل وفي الشرح [1] العقب بفتح العين والقـاف العصب بفتحتين تعمل منه الأوتار والمراد الأوتـار نفسها ا. هـ والمعنى أوضح من هـذا لمتأمله أي بسهام القدر التي لا تعان بالريش ولا تشد بالعقب وهو العصب.

وإذ هو المسكين غـرض الدهر، فقـد رماه الدهـر بالبعـاد ولا يستطيع أن يكتم الشوق. ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية ـ رفرفـة صوت المتنبي في قوله: «فكيف أكتم أشواقي ـ أبو الطيب: «مالي أكتم حبا» ـ البوصيري:

فكيف تنكـر حبـا بعـدمـا شهـدت بــه عليك عـــدول الــدمـع والسقم

ثم كـرر البــارودي نغم الايقـاع ومعنى الشـوق في قـولــه: «أم كيف أسلـو ولي قلب إلخ» ـ وهنا صدى من البوصيري:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

البيت الـذي يعيبه بعض المتشـددين يـرون ذلك حنبلية في التشـدد، ولعل ابن حنبل رضى الله عنـه لو سمع هـذا البيت ما عابـه، وكيف وهو صـاحب حديث الشفـاعة وحديث عرباض رضى الله عنه؟

والشاهد تشابه النغم في: كيف تدعو. كيف يسلو... وفي بيت البارودي بعد صورة تبدو كما يقول عصريو النقاد ـ مثلاً ـ تقليدية: وذلك قوله:

.... إذا التهبت بالأفق لمعة برق كاد يلتهب

وما أرى إلا أنها مغترفة من بحر تجربة الشاعر غرفا ـ ومثلها قوله من بعد:

إذا تنفست فاضت زفرتي شررا كما استنار وراء القدحة اللهب

عجز البيت وصف دقيق لاستيقاد النار، ولقدحة عود الثقاب

---

١ ـ الديوان ص١١١ هـ٦

ولَكن الصورة الَكبيرة الَكامنة التي زعمنا أنها مغترفة غرفا من بحر التجربة هي صورة برق بلاد سرنديب. برق ركام السحب الاستوائية يتطاير شرره وتروع ألوانه منها ما يبتدىء بنفسجيا ثم يبيض أبهر وأنصع من لهب «المغنيسيوم»، ومنها ما يحمر ومنها ما يتطاير شررا وجمرات ـ تشبيهات البارودي هاهنا مأخوذات من هذه التجارب. ومن براعته الفائقة أنه جعل جميع ذلك يبدو وكأنه "تقليدي"، ما عدا فيه مذهب ما أمر به ابن قتيبة من نعت المياه الأواجن السدم واجتناب التفاح والإجاص!!!

قول البارودي: «أصبحت في الحب مطويا إلخ» ـ فيه نفس أبي الطيب:

مالي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم

وقوله: «لم يبق لي إلخ» ـ كقوله:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا تتيمه عين ولا جيد

وكأنه في قوله «لم يبق لي غير نفسي ما أجود به» أيضا أنفاس من قول أبي الطيب

ولكني حسدت على حياتي وما طعم الحياة بلا سرور

وقد كرر أبو الطيب هذا المعنى في دالية هجاء كافور

إذا أردت كميت اللـون صـافيـة وجـدتها وحبيب النفس مفقـود
مـاذا لقيت من الـدنيـا وأعجبـه أني بما أنـا بـاك منـه محسـود

وجاء البارودي بنغمة «لم يترك الدهر إلخ» في قول «لا يترك الحب قلبي إلخ» ـ وقوله "فلا تلمني على دمع" فيه رجعة إلى نغم «يا لائمي في الهوى إلخ» ـ وفيه صدى غيلان الذي مر صداه في الريش والعقب، ولكأن غيلان فيه نوع رمز لأبي تمام. وفي قوله "فلي في سفحه أرب" إما سفح العقيق وإما سفح الدمع وكلاهما جيد وينظر إلى قول غيلان:

خليلي عـوجا من صـدور الـرواحل بجمهـور حزوى فـابكيا في المنـازل
لعل انهمال الـدمع يعقب راحـة من الـوجـد أو يشفـي نجي البـلابل

وقول البارودي: «منازل كلما لاحت مخايلها» فيه رفرفة صوت أبي الطيب:

منازل لم يزل منها خيال يتابعني إلى النوبنذجان

ورفرفة أبي الطيب ليست إيقاعية ولفظية فحسب، ولكنها مع ذلك فيها حذو

على المعاني والشكل وطريقة الخطاب، إذ قد جعل أبو الطيب حبه لسيف الدولة في القسم الأول مكان النسيب وحمله معنى لواعج الشوق. وكذلك قد جعل البارودي حبه لقومه وضمنه ما مر من تأمل شاك وأنفاس عتاب. وقوله: "وعاد ظني عليلا بعد صحته" ـ فيه إيجاس دبيب من الندم واستشعار لأن القوم قد تناسوا عهده «والعهد ما لم يصنه الود منقضب» ـ «والظن يبعد أحيانا ويقترب»، هذا يذكرك بقوله من قبل: «ويخطيء الظن في بعض الأحايين» ـ بعد الظن، سعة الأمل، واقترابه مواجهته هذا الذي هو بإزائه من الواقع المر. وهنا موضع الصيحة. ويبدأ القسم الثاني من القصيدة: ـ

فيا سراة الحمى، ما بال نصرتكم ضاقت علي وأنتم سادة نجب
أضعتموني وكانت لي بكم ثقة متى خفرتم ذمام العهد يا عرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم أمنا إذا خاف أن ينتابه العطب
فكيف تسلبني قلبي بلا ترة فتاة خدر لها في الحي منتسب
مرت علينا تهادى في صواحبها كالبدر في هالة حفت به الشهب
تهتز من فرعها الفينان في سرق كسمهري له من سوسن عذب
كأن غرتها من تحت طرتها فجر بجانبه الظلماء تحتجب
فهل إلى نظرة يحيا بها رمق ذريعة تبتغيها النفس أو سبب
أبيت في غربة لا النفس راضية بها ولا الملتقى من شيعتي كثب
فلا رفيق تسر النفس طلعته ولا صديق يرى ما بي فيكتئب

هذا آخر القسم الثاني وهو الأوسط وهو خصر القصيدة. وإنما القصيدة غادة، كذلك قال أبو تمام:

بكر تورث في الحياة وتغتدى في السلم وهي كثيرة الأسلاب

وقال أبو عبادة وجعل القصائد عذارى أبكارا:

كالعذارى غدون في الحلل البيـ ـض إذا رحن في الخطوط السود

وهذا ونظائره كثيرة.

وقد ترى هذا التخصير كأوله عند أبي الطيب في "واحر قلباه" حيث قال: «يا أعدل الناس إلا في معاملتي» ـ وهنا يقول البارودي: «فيا سراة الحمى ـ ما بال نصرتكم البيت». وكأنه هنا خلط بين احتجاج أبي الطيب واحتجاج أبي فراس حيث قال:

وأبطأ عني والمنايا سريعة — وللموت ظفر قد أطل وناب
فإن لم يكن ود قريب نعده — ولا نسب بين الرجال قراب
فأحوط للإسلام أن لا يضيعني — ولي عنه فيه حوطة ومناب

وحيث قال

تنكر سيف الدين لما عتبته — وعرض بي تحت الكلام وقرعا
فقولا له من صادق الود إنني — جعلتك مما رابني منك مفزعا

ولأبي فراس في هذا الباب كلمات من رومياته[1]. وقد أخذ من أبي الطيب وحذا على نموذجه. إلا أن البارودي كما تأثر بأبي الطيب تأثر به أيضا. وزاد من قوة تأثيره على البارودي، إنه كان أسيرا ولم يخف سيف الدولة إلى نجدته، وكان البارودي بمنفاه في نوع من الأسر المر، ولم يخف السراة إلى نجدته ورعاية سابقته وقوله «أضعتموني» لا يخفى أنه من قول العرجي، وكان من فرسان بني أمية من ذريةأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا — ليوم ملمة وسداد ثغر

وفي هذا القسم بعد رفرفة من أبي تمام ومن غيلان ومن أبي الطيب ومن غير هؤلاء من مأثور أساليب أهل الجزالة القدماء. فمن نفس أبي الطيب واصدائه:

[مرت علينا تهادى في صواحبها]

فهو كقوله: «مرت بنا بين تربيها فقلت لها البيت» وقوله «في صواحبها» فيه شيء من ابن أبى ربيعة بلا ريب. قوله «كالبدر في هالة إلخ» كثير مثله في الشعر إلا أن الصياغة فيها نغم بوصيري: «كالزهر في ترف والبدر في شرف» ـ الشبه قوله: «البدر في» ثم جاء بقوله «حفت» وقوله «الشهب»، أبت شين الشرف وفاؤه إلا أن تنبا بأنفسها

---

(١) مثل قوله: دعوتك للجفن القريح المسهد لدى وللنوم القليل المشرد.

ومثل قوله

أسيف الهدى وقريع العرب — إلام الجفاء وفيم الغضب

فتأمل. وقوله: «تهتز من فرعها» لا يخفى أنه من قول حبيب.

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة تهتز من قضب تهتز في كثب

الشبه في الصورة ونغم اللفظ معا. قوله «في سرق» مكان قول حبيب «في كثب» عنى ثقل الكفل بإزاء لين القامة واستقامة رشاقتها. والسرق الحرير، واهتزاز الفرع الفينان فيه مشعر بالصدر والخصر والكفل، وأخذه من قول امرىء القيس: «إذا ما اسبكرت بين درع ومجول» من قول الآخر «أبت الروادف والثدى لقمصها البيت» ـ وفي جميع هذا لا يخفى أن أصل أخذه من بيت حبيب، وهذه المعاني والصور الأخريات وحي وإشارة. والسمهري الرمح، وجعله غصنا لما جعل له عذبات من السوسن، وذكر السوسن لا يخفى معه أن أصل المعنى مأخوذ من قول حبيب: "قضب الهندى"ـ «قضب تهتز في كثب» والقضب الأولى السيوف وجعل البارودي مكانها هنا السمهري والكثب مزدوجة المعنى، إذ القضب في الكثب هي الأغصان في الكثبان وهي القامات ذوات الأكفال، وسرق اللفظ والمعنى على بن العباس في نونيته:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن لونان تفاح ورمان

الشاهد قوله «أغصان وكثبان» فهو قضب حبيب وكثبه.

وقول البارودي: «كأن غرتها» هو من غيلان:

فغلست وعمود الفجر منصدع عنها وسائره بالليل محتجب

وليس بمخفيه قوله: فجر بجانحة الظلماء محتجب». ثم بقية التشبيه من قول غيلان المشهور:

كأن عمود الفجر جيد ولبة وراء الدجى من حرة الوجه حاسر

وقد ذكرنا من قبل ما بين هذا وبين صورة جيوكندا لليوناردو دافنشى من قوة الشبه، وقوله: «كانت آية لنا في الحسن فاحتجبت إلخ» يحمل أنفاس قول أبي تمام وله نفس البحر والروى وإن كان أصل هذا مجاراته لبائية غيلان إذ أمرها في هذا الروى وهذا البحر أشهر:

أطاعها الحسن وانحط الشباب على قوامها وجرت في وصفها النسب

بضمتين جمع النسيب

ألقت نقابا على الخدين وانتسبت للناظرين بقد ليس ينتسب

كانت لنا ملعبا نلهو بزخرفه وقد ينفس عن جد الفتى اللعب

وهذا النغم نفسه في الميمية التي على بحرها ورويها بردة المديح وفي نسج البوصيرى ما يدل على نظر منه إليها وقد ألمنا بهذا المعنى في كتابنا «التماسة عزاء» (١) :ـ

كانت لنا صنما نحنو عليه ولم ... نسجد كما سجد الافشين للصنم

هل حقا سجد الافشين للصنم، أم كان في سيوف بنى العباس رهق؟
وقد افتن البارودى في هذا القسم إذ كنى فيه عن مصر بفتاة بارعة الجمال سلبت فؤاده ثم حجبت عنه. تفصيل الوصف الغزلي الذي فصله ذو مشابه من الذي صنعه كعب إذ قال: وما سعاد إلا أغن غراء فرعاء وما ذكره من أوصاف، غير أن سعاد كعب هي ذات الفجع والولع والإخلاف، وسعاد البارودى ليست ذلك، هي بدر حجبته عوادى الزمان كما يحتجب البدر بليل من الغمام وبالخسوف.

كانت لنا آية في الحسن فاحتجبت ... عنا بليل النوى والبدر يحتجب

وهذا الغزل مع أنه في حب الوطن، يقع موقع الاستراحة والتخفيف من حدة انفعال لوعة الشوق والوجدان وشعورى العتاب والندم اللذين في القسم الأول.
وعلى وضوح الرمز والكناية بالفتاة الحسناء عن مصر، فسره البارودي تفسيرا لايدع محلا للشك بقوله:

فهل إلى نظرة يحيا بها رمق ... ذريعة تبتغيها النفس أو سبب
أبيت في غربة لا النفس راضية ... بها ولا الملتقى من شيعتى كثب
فلا رفيق تسر النفس طلعته ... ولا صديق يرى ما بى فيكتئب

وهذه الأبيات الثلاثة التي جاء بها بعد رمز الغزل تفسيرا له، تقابل الأبيات الثلاثة التي افتتح بها هذا القسم صارحا بالشكوى صائحا:

فيا سراة الحمى ما بال نصرتكم ... ضاقت على وانتم سادة نجب
أضعتمونى وكانت لى بكم ثقة ... متى خفرتم ذمام العهد ياعرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم ... أمنا إذا خاف أن ينتابه العطب

(١) راجع التماسة عزاء ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

ولكنها فيها عودة إلى روح اللوعة والانفعال .

ثم يجيء القسم الثالث، وهو في عادة الشعراء للذكرى، ويخالطها فخر ودفاع عن الماضي، يجعله الشاعر في مقابلة ما رمي به من نوائب الدهر ـ كقول امرىء القيس «وقد أغتدى والطير في وكناتها» وقول علقمة «قد أشهد الشرب فيهم مزهر» وقول الأسود بن يعفى «فلقد اروح على التجار» وهلم جرا. وقد جعله البارودي مجالا لتبرير مواقفه والاعتزاز بما كان من ماضى أمره:

ومن عجائب ما لاقيت من زمني ... أني منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلة تقضى على بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

قوله ومن عجائب إلخ مر تشبيهنا له بقول أبي الطيب «ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه» وفيه نفس من قول على بن العباس:

ومن عجائب ما تمنى الرجال به ... مستضعفات لهم منهن أقران

ثم يجيء هذا النمط الحر النبيل الجزل:

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلما وأغترب
فلا يظن بي الحساد مندمة ... فإننى صابر في الله محتسب
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت ... أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب

ثم يجيء الفخر الصريح ـ كقول أبى الطيب «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي» وهو بعد فيه صادق، إذ قوله مخالطه الأسى لا الغضب، الأسى الذي هو أخو الغضب كما قال أبو الطيب:

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

وذلك قوله

إني امرؤ لا يرد الخوف بادرتى ... ولا يحيف على أخلاقي الغضب
ملكت حلمي فلم أنطق بمندية ... وصنت عرضي فلم تعلق بي الريب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة ... إذا تخرص أقوام وان كذبوا

وإذ برر البارودى موقفه وجلى باعتذاره عن نفسه، له أن يقول، كالنابغة في آخر «يادار مية»

هـا إنها فـريـة قـد كـان بـاءَ بهِا   في ثـوب يـوسف من قبلى دم كـذب

الاشارة إلى قول النابغة: «ها إن ذى عذرة إن لاتكن قبلت» وإلى سورة يوسف «وجاءو على قميصه بدم كذب»

فإن يكن سـاءني دهـرى وغـادرنى   في غـربـة ليس لى فيهـا أخ حـدب
فسـوف تصفـو الليـالى بعـد كـدرتها   وكـل دور إذا مـا تـم ينقلـب

وهكذا تنتهى هذا القصيدة الرائعة بنفس من الأمل الديني الصادر عن تسليم العبد إلى قضاء مولاه، وثقته بأن الموقف الذي وقفه لم يكن فيه عليه من مذمة أو عار:

فهل دفـاعي عـن ديني وعـن وطني   ذنـب أدان بـه ظلما وأغترب

فكرة الـدفاع عن الـوطن مع الدفاع عن الـدين معنى قديم عنـد العربي المسلم. ومع هذا، لا أحسب قولـه «وعن وطنى» هنا خاليا من معنى روح الـوطنية الحديثة التي إنما كانت ثورة عرابي باشا من بعض انفجاراتها وسائر الثورات التي جاءت من بعد.
في كتـاب الـدكتـور محمد صبرى السـوربـونى أدب وتـاريخ في الفصل الـذي جعلـه للبارودى، قال (ص ٧٢ ـ ٧٧): روى الكاتب (١): «ومـر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر أيام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا:

هل بـالحمى عن سريـر الملك من يـزع   هيهـات قـد ذهب المتبـوع والتبع
هـذى الجزيـرة فـانظـر هل تـرى أحـدا   ينأى بـه الخوف أو يـدنـو بـه الطمع
أضحت خـلاء وكـانـت قبل منزلـة   للملك منهـا لـوفـد العـز مـرتبع
فـلا مجيب يـرد القـول عـن نبأ   ولا سميـع إذا نـاديـت يستمـع
كـانت منـازل أمـلاك إذا صـدعـوا   بـالأمـر كادت قلـوب النـاس تنصدع
عـاشـوا بها حقبـة حتـى إذا نهضت   طير الحوادث في أوكـارهـا وقعـوا
لـو أنهم علمـوا مقـدار مـا فغـرت   بـه الحوادث مـا شـادوا ولا رفعـوا
دارت عليهم رحى الأيـام فـانشعبـوا   أيـدى سبـا وتخلت عنهـم الشيع
كـانـت لهم عصب يستـدفعـون بها   كيـد العـدو فما ضروا ومـا نفعـوا

---

(١) كاتب في عدد المنار ٧ ـ ١ ـ ١٩٠٥ يرجح السور بونى رحمه الله أنه السيد حسين رضا رحمه الله

أين المعــاقـل بل أين الجحــافـل بل ... أيـن المنـــاصـل والخطيـــة الشرع
لا شيء يـدفع كيـد الدهـر إن عصفت ... أحــداثـــه أو يقي مـن شر مـــا يقع
زالـــوا فما بكت الـــدنيـــا لفــرقتهم ... ولا تعطلـت الأعيـــــــاد والجمـع
والـــدهـر كـالبحـر لا ينفك ذا كـدر ... وإنما صفـــــوه بين الـــــورى لمع
لـــو كـان للمـرء فكـر فى عـواقبـه ... مـا شـان أخـلاقـه حـرص ولا طبع
وكيف يـدرك مـا فى الغيب من حـدث ... من لم يـــزل بغـــرور العيش ينخـــدع
دهــــر يغــــر وآمـــــال تسر وأعـــــ ... ـــمار تمر وأيـــــام لها خــــدع
يسعى الفتـى لأمـــور قــــد تضربـــه ... وليس يعلـم مـــا يـأتى ومـــا يــــدع
يـأيها الســـــادر المزور مـن صلـف ... مهـــلا فـإنك بـــالأيـــام منخـــدع
دع مـــا يـــريب وخـــذ فيما خلقت لـــه ... لعـل قلبـك بـــــــــالإيمان ينتفـع
إن الحيــــاة لثـــوب أنت تخلعـــــه ... وكـل ثـــوب إذا مــــارث ينخلـع

وقد علق كـاتب المنار على القصيدة قائلا: فهـذه القصيدة من آخر مـا نظم وفيها من آيـات النـذر للمغـرورين بكثـرة المال والدثـر (١) ــ تلك القصيـدة من أجـود شعـر البارودى، وهى دمعة وفـاء على أيام اسماعيل التى كانت أيام صبـاه، وهي من الشعر الحي الذي يستمـد قوتـه من الذكرى وهي بكـاء على الحال التى آلت إليها البـلاد بعد عودته إليها، ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه في نواحيها، ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمرة تحت الرماد فلم يصرح عنه مقـاله، وأشد الألم ما كان مكتوما. وتدل قصيدتـه فى الجزيرة على أن الرجل كـان ثاقب الفكر لا تعوقـه الظواهر عن رؤيـة أبعد البواطن، فلم تغره الـرفاهية المادية التى غرت بعض العـرابيين بعد رجوعهم من المنفى فتوهموا أن أغراضهم تحققت، ولم تغـره مظاهر العدل المنظم في الظـاهر، فأزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في البـاطن الـذي يضؤل بجـانبـه كل ظلم. من ذلك نفهم كيف كـان الشـاعـر بـالأمس يبكى من إسماعيل فأصبـح يبكي عليـه. وكأنى بـالشاعـر أحس دنو الأجل فـاستسلم للقضـاء في هذه القصيـدة، ولم تحفزه همتـه إلى الفخر ومغالبة الأقدار، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال:

زالـــوا فما بكت الـــدنيـــا لفــرقتهم ... ولا تعطلـت الأعيـــــــاد والجمـع

---

(١) إلى هنا انتهى كلام كاتب المنار ومن قوله تلك كلام السوربوني الى حيث بينا نهايته.

فهـذا البيت من خير ما قيل في وصف خـروج الإنسـان من هذه الحيـاة الدنيـا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما . قال فيكتور هوجو فى المعني بيتا يشبه هذا البيت

Je m'en irai bientot au miliau de la fete

Sans que rien manque au monde immense et radieux (1)

وقد تكون هذه القصيدة في جملتها أثرا من آثار التأمل الذى يعتري الإنسان عند تقلص الأيام وتقلب الـدنيا ويـدفعه الى عرض الماضى فى صفحـة الفكر فإذا بكى عليـه كان بكاؤه المر عصـارة التجارب والألم . في فصل كتبه : «إن هـذا الوزير الذي اقتـدح زناد تلك الهمة ، وشبت بعـد استقالته تلك الفتنـة المستطيرة لم يكن مع شجاعته وإقـدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغها في مواطن القتال إلا رجل سكينة ووداعة وحلم ، إصابته بكريمتيه هي التـي قلصت من كبده وأودت بجسده ثم إن العارف بحـوادث حياته لا يكاد يصـدق أنه هو الـرجل الذى كان ديدنـه في سنواته الأخيرة أن يجمع أطفـاله وهم غلامـان وأربع فتيات فيجعـل لهم مكانا خصيصـا من البيت لتلقى العلـوم واللغات بضروبها على أساتذة يحضرون في مواعيد كأنهم في مدرسـة قانونية فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهـر ويوزع عليهم المكافآت على أن هـذا البر إنما كان إحـدى شمائله وفضـائله فإن أريـد بعض التعداد فـالجودة مع الجود والكيـاسـة مع لطف الحس ، والصفح مـع المقـدرة والإينـاس مع علـو النفس وشرف الطبع» ـ إلى هنـا ينتهى نقل السوربوني من مطـران وأعجب أنا من قولـه ثم إن العارف بحوادث حيـاته لا يكـاد يصدق ، وأي غـرابة في أن يهتم عالم أديب مثقـف فطن مثله بتعليم ذريته بأجود ما يقدر عليه ، ثم أية غرابة في أن يحافظ جنـدي وإدارى مثـله على المواعيدوعلى متابعة مـا كلفهم بالامتحان والتفتيش والمكافأة وأما رقة القلـب فشاهدها شعره وكذلك الشعراء الفـرسان . واما قول الدكتور محمـد صبرى السوربونى رحمه الله أنه رثى نفسه ببيت الاعياد والجمع ، فما أرى إلا أنـه رثى كل ذوى الإمارة الذين عصف بهم الدهـر، وإسماعيل خاصة ، إذ النـاس مما يحسون مقدم الأمير في العيـد والجمعة . وأحسب أن كـلام فكتـور هوجـو الـذي خيل بـه للسوربـونى أن البـاوردى رام معنى كمعناه . وإنما رام البارودى رحمه الله جمع أبي الطيب في قوله :

مخلى لـه المرج منصـوبـا بصـارخـة   لـه المنـابـر مشهـودا بها الجمع

---

(١) سأنصرف والعيد فى عنفوانه ولن يحس فقداني أحد وسط الزحام الكثيف المنير.

والاعتبار بقول الله عز وجل: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما ءاخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين»

ثم يقول السوربوني مستمرا من حيث انتهى نقله من مطران «نضيف إلى ذلك أن البارودى تمكن بفضل جده وكده من تجديد جزء عظيم من ثروته تركه لأهله وذويه، فكان طول حياته مثال الهمة العلياء، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل، ورياسته الوزارة في أحرج الأوقات والعمل. وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق في حياته السياسية كما وفق في شعره، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى من التأريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية وصدق العزيمة وكراهية الظلم، والاعتدال، والروية والأناة وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواءها اليوم شوقى ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذى ننعاه اليوم إلى الشعر كما ننعى الجود إلى الجود. ولا أعرف رجلا كافح الردى مثلما كافحه البارودي، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثلما طاعنها وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها، وقد كان خلق الرجل عظيما وذكاؤه عظيما وشعره عظيما فكان الثلاثة في مستوى واحد. وفي اعتقادى أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى، شعر العواطف شعر الوجدان، شعر الألم.» ـ ثم يقول فى أخريات الفصل: وقد لبى دعوة ربه في ٦ شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر سنة ١٩٠٤) (ص٧٨). ا. هـ نقلنا من السوربوني رحمه الله من كتابه أدب وتاريخ، فى هذا الموضع قلت وحصر إبداع البارودي فى شعر منفاه فيه بعض النقص من حقيقة قدره ولا يخلو من نوع تشبيه له بأبى فراس، وكان أبو فراس معاصرا لأبي الطيب يجاريه ويحذو حذوه ويأخذ من لفظه وإيقاعه ومعانيه عن قرب زمان ومكان. وما كذلك كان أمر البارودى. كان البارودى شاعرا فحلا صاحب نهج من حر القريض وأصيله من قبل المنفى ومن بعده واقرأ بائيته:

سواى بتحنان الأغاريد يطرب

وفيها يقول عن تجربة قلب وبيان:

وبحر من الهيجاء خضت عبابه	ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
تظل به حمر المنايا وسودها	حواسر في ألوانها تتقلب
توسطته والخيل بالخيل تلتقى	وبيض الظبي في الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتى بين الكر موقفى	لدى ساعة فيها العقول تغيب
لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى	على غيهب من ساطع النقع غيهب

ولا ميته : «ردوا على سواد اللمة البالى» وفيها يقول :ـ

قلبي سليم ونفسى حـــرة ويـــدى مأمـــونـــة ولســـاني غير ختـــال
لكننى في زمـــان عشت مغتربـــا في أهلـــه حيث قلت فيـــه أمثـــالى
بلـــوت دهـــرى فما أحمدت سيرتـــه في ســـابـق من ليـــاليـــه ولا تـــالى
حلبت شطـــريـــه من يسر ومعسرة وذقت طعميـــه مـن خصب و إمحال
فما أسفت لبـــؤس بعـــد مقـــدرة ولا فـــرحت لـــوفـــر بعـد إقـــلال
عفـــافـــة نـــزهت نفسى فما علقت بلـــوثـــة مـن غبـــار الـــذم أذيـــالى
فـــاليـــوم لا رسنى طـــوع القيـــاد ولا قلبى إلى زهـــرة الـــدنيـــا بميـــال
لم يبق لى أرب في الـــدهـــر أطلبـــه إلا صحـــابـــة حـــر صـــادق الخال
وأين أدرك مـــا أبغيـــه من وطـــر والصـدق فى الـدهـــر أعيـا كل محتال
لا في سرنـــديب لى إلـف أجـــاذبـــه فضـــل الحديـث ولا خـــل فيرعـــى لى
أبيت منفـــردا في ظـل شـــاهقـــة مثل القطـــامي فـوق المربأ العـــالى (١)
إذا تلفت لم أبصر ســـوى صـــور في الـــذهن يـــرسمهـــا نقـــاش آمـــالى
تهفـــو بي الـــريح احيـــانـــا ويلحفني بـــرد الظـــلال ببرد منـــه أسمال (٢)
ففـــي السماء غيـــوم ذات أروقـــة وفي الفضـــاء سيـــول ذات أوشـــال
كأن قـــوس الغمام الغـــر قنطـــرة معقـــودة فـــوق طـــامـي الماء سيـــال
إذا الشعـــاع تـــراءى خلفهـــا نشرت بـــدائعـــا ذات ألـــوان وأشكـــال (٣)
فلـــو تـــراني وبـــردي بـــالنـــدى لثق لخلتني فـــرخ طير بين أدغـــال
غـــال الـــردى أبـــويـــه فهـــو منقطع في جـــوف غينـــاء لا راع ولا وال (٤)
فـــذاك مثلي ولم أظلـم وربتما فضلتـــه بجـــوى حـــزن وإعـــوال
شـــوق ونـأي وتبريـح ومعتبـــة يـــا للمحبـــة من غـــدري وإهمالي
أصبحت لاأستطيع الثـــوب أسحبـــه وقـــد أكـــون وضـافي الـــدرع سربـــالي
ولا تكـــاد يـــدي تجري شبـــا قلمي وكـــان طـــوع بنـــاني كل عســـال
فإن يكن جـف عـــودي بعـــد نضرتـــه فـــالـــدهـــر مصـــدر إدبـــار وإقبـــال
عـــلام أجـــزع والأيـــام تشهـــد لي بصـدق مـا كـــان من وسمي وإغفـالي

(١) القطامي الصقر المربأ العالى المكان من جبل نحوه يقف عليه الرابىء والصورة من شعر ذي الرمة وزهير من قبل وقد مرت فى الأوصاف .

(٢) برد الأولى بفتح الباء والثانية بضمها وبرد أسمال أي ممزق

(٣) هنا نظر الى بحيرية البحتري

(٤) غيناء بالغين المعجمة فياء مثناة تحتية ساكنة فنون موحده فوقية فالف المد أي شجرة خضراء

راجعت فهـرس آثـاري فما لمحت | بصيرتي فيـه مـا يـزري بأعمالي
فكيف ينكـر قـومي فضل بـادرتي | وقـد سرت حكمي فيهم وأمثـالي
أنـا ابن قـولي وحسبي في الفخـاربـه | وإن غـدوت كـريم العم والخال
ولي من الشعـر آيـات مفصلـة | تلـوح في وجنـة الأيـام كـالخال
ينسى لها الفـاقـد المحزون لـوعتـه | ويهتـدي بسنـاهـا كل قـوال
فـانظـر لقـولي تجد نفسي مصـورة | في صفحتيـه فقـولي خط تمثـالي
ولا تغـرنـك في الـدنيـا مشـاكلـة | بين الأنـام فليس النبع كـالضـال
إن ابـن آدم لـولا عقلـه شبـح | مـركب مـن عظـام ذات أوصـال

هذه الديباجة الصافية لا نظير لها في الشعـر المعاصر. وقد كان البارودي بحقيقة ذلك عليما يدل عليه قوله:

ولا تغـرنـك في الـدنيـا مشـاكلـة | بين الأنـام فليس النبع كـالضـال

من النبع والضال تصنع القوس ولكنهما لا سواء ـ إذ الضال ذو شوك وثمر والنبع كما قال البحتري:

وعيرتني خـلال العـدم آونـة | والنبع عـريـان مـا في عـوده ثمـر

وقد اهتدى بسنا البارودي من بعده من القوالين جيل تبعته من بعد أجيال. غير أن نهج قصيدته الأصيل لم يسر حقا عليه من كبار من حذوا على رونق ديباجته وقصروا عنهـا أحد. إنما سلكـوا نهجا دعـاهم إليه التجـديد ــ وهو نهج أسلـوب المقالـة، ثم تفرعت عنه فروع أصناف الشعر المعاصر وما إليه.

أسلوب المقالة: أوائله، ثانياً

جاء في الكتاب النفيس أدب وتأريخ للدكتور محمـد صبري السوربوني في ترجمته لاسماعيل صبري (ولـد في ١٦/ ٢/ ١٨٥٤ وتوفي في ٢١/ ٣/ ١٩٢٣ رحمه اللـه)[1] في

---

(١) نقـلا عن الكتاب المذكـور ص ١١١ ــ الفصل الأول من الكتـاب الثاني من نفس السفـر وفصل الهامش عن حيـاة صبري، نـذكر من ذلك أنـه درس بمصر ثم أرسل من مصر إلى فرنسـة فنـال هناك شهـادة البكالـوريا ثم الليسـانس في الحقوق أي القانون ثم عمل في النيابة العمومية بمصر وبلغ أماكن عالية من مراتب العمل في وظائف الدولة، عين محافظا لثغر أسكنـدرية في فبراير ١٨٩٦ ــ ووكيـلا لنظارة الحقانيـة (أي وزارة العدل) من بعـد وبلغ غاية مـا يبلغه الموظف من مرتبات الدولة سنة ١٩٠٧ فاستقال وأحسبه فرغ من حينئذ كل الفروغ للأدب والشعر.

صفحة ١٥٠ ـ إلى ص ١٥٤ : «كان الأستاذ خليل مطران بعث بقصيدة دالية إلى محمد بك مسعود بالمؤيد من سقارة على أثر زيارته لأهرامها، جاء في هذه القصيدة عن فرعون :

شـــاد فـأعلى وبنى فـــوطـــدا لا للعلى ولا لـــــه بل للعـــدا
مستعبـــدا أمتـــه في يـــومـــه مستعبـــدا بنيـــه للعـــادي غـــدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :

إني أرى عـــد الـــرمـــال ههنـــا خـــلائقـــا تكثـــر أن تعـــددا
مجتمعين أبحـــرا منفـــرعـــــ ــــين أنهرا منحـــدرين صعـــدا
صفـــر الـــوجـــوه نـــاديـــا جباههم كـــالكـــلأ اليـــابس يعلـــوه النـــدى
أكل هـــذي الأنفس الهلكى غـــدا تبني لفـــان جـــدثـــا مخلـــدا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التي تؤيد نظرية تخالف نظريته فنظم نونيته قائلا إن البنايات لم تتم إلا على يد عمال كانوا يطلبون الإتقان الفني إكراما للفن لا خوفا ولا طمعا. والحقيقة أن صبري راعى في نظريته ما يسمونه بالوجهة التأريخية الوطنية. أما مطران فقد نظر إلى الوجهة العلمية التي يؤيدها التاريخ فإن بناء الأهرام ما كان إلا سخرة أرهقت الملايين من المصريين وأثارت السخط في البلاد مدة قرنين، ونظر أيضا إلى الوجهة الاجتماعية القديمة، فإن الظلم من شأنه إفساد الأخلاق التي لا تحيا الأمم بدونها. على أن شوقي وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية في قوله :

ولمن هيـــاكل قـــد عـــلا البـــاني بها بين الثـــريـــا والثـــرى تتنسق
هـــي من بنـــاء الظلم إلا أنـــه يبيض وجـــه الظلم منـــه ويشرق
لم يـــرهق الأمـــم الملـــوك بمثلهـــا فخـــرا لهم يبقـــى وذكـــرا يعبـــق

وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نونية أخرى لم يسبق نشرها، وكان ذلك أثر مشاهدته بعض الآثار ورؤية تمثال محفوظ لرمسيس الثاني في الأقصر. وفي هذه القصيدة عاد مطران إلى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره، وأن الفراعنة نهضوا بمصر وان كان اعتقاد

الشاعر أن ضررهم كـان أكبر من نفعهم في جانب شخصية الأمة وتكـوينها الحر، قال مطران :

أكبر بـــرمسيس ميتـــا لا يلم بـــه ... مـــوت وأكبر بـــه حيـــا إلى الآن
لـــولا تماثيلـــه الأخـــرى محطمـــة ... مـــا جـال في ظن فـــان أنـــه فـــان
في مصر عـــز فـــراعين فما بلغـــوا ... بها مبـــالغـــة في رفعـــة الشـــان
ولم يتم لها في غير مـــــدتـــــه ... مـــا تـم من فضل إثـــراء وعمـــران
تخير الخطـــــة المثلى لـــــه ولها ... يعلـــو فتعلـــو بـــه والخفض للشـــاني
مـــا زال بـــالقـــوم حتى صـــار بينهم ... الـــــه جنـــد تحابيـــه وكهـــان
ورب ســـائمـــة بلهـــاء هـــائمـــة ... تشقـى وتهواه في سر وإعـــــلان
يســـومهـــا كل خسف وهي صـــابـــرة ... لا صبر عقـــل ولكـــن صبر إيمان
إن بـــات في حجب بـــاءت إلى نصب ... يلـــوح منـــه لها معبـــودهـــا الحاني
فبجلت تحت تـــاج الملك مـــدميهـــا ... وقبلت دمهـــا في المرمـــر القـــاني

وجاء السـوربوني بالمنظـومة المطرانيـة كاملة، وهي خـالية كما ترى من رنـة إيقاع جزالة القصيد ـ وأمثال :

ورب ســـائمـــة بلهـــاء هـــائمـــة ... تشقـى وتهواه في سر وإعـــــلان

صناعة تقسيم كأنما فطن الناظم بها إلى مغسوليـة ما نظمه وفقدانه كل طعم فألقى بهذا عليه ضربا من ملح وأبزار ـ وفي سر وإعلان إنما هي تتمة مضناة.

وجاء في مختاراته من صبري باشا بالنونية التي هذه المطرانية رد عليها (١٥٧):

لا القـــوم قـومـي ولا الأعـوان أعـــواني ... إذا ونى يـــوم تحصيل العـــلا واني
ولست إن لم تـــؤيـــدني فـــراعنـــة ... منكم بفـرعـون عـــالي العـرش والشـان
لا تقـــربـوا النيـل إن لم تعملـوا عمـــلا ... فماؤه العـــذب لم يخلق لكســـلان
ردوا المجـــرة كـــدا دون مـــورده ... أو فـــاطلبـــوا غيره ريـــا لظمآن
وابنـــوا كما بنت الأجيـــال قبلكمـــو ... لاتتركـــوا بعـــدكم فخـــرا لإنســـان
أمـــرتكم فـأطيعـــوا أمـــر ربكمـــو ... لا يثن مستمعـــا عن طـــاعـــة ثـــاني

فـالملك أمـر وطـاعـات تسـابقـه — جنبـا لجنب إلى غـايـات إحسـان
لا تتركـوا مستحيـلا في استحـالتـه — حتى يميط لكم عن وجـه إمكـان
مقالـة قـد هـوت من عـرش قـائلها — على منـاكب أبطـال وشجعـان
مـادت لها الأرض من ذعـر ودان لها — مـا في المقطم من صخـر وصـوان
لـو غير فـرعـون ألقـاهـا على مـلأ — في غير مصر لعـدت حلم يقظـان
لكن فـرعـون إن نـادى بها جبـلا — لبت حجـارتـه في قبضـة البـاني
وآزرتـه جماهير تسيـل بها — بطـاح واد بماضي القـوم مـلآن
يبنـون مـا تقـف الأجيـال حـائرة — أمـامـه بين إعجـاب وإذعـان
من كل مـا لم يلـد فكـر ولا فتحت — على نظـائره في الكـون عينـان
ويشبهـون إذا طـاروا إلى عمـل — جنـا تطير بـأمـر من سليمان
بـرا بـذى الأمـر لا خـوفـا ولا طمع — لكنهم خلقـوا طـلاب إتقـان
أهـرامهم تلك حي الفن متخـذا — من الصخـور بـروجـا فـوق كيـوان[1]
قـد مـر دهـر عليهـا وهي سـاخـرة — بما يضعضـع مـن صرح وإيـوان
لم يأخـذ الليل منهـا والنهـار سـوى — مـا يأخـذ النمل من أركـان ثهـلان

هذا أراد بـه المبالغة وهو فيـه ضعف، ولعله لو قال كمثل أخـذهما من ركن، كان من جهة المعنى أحسن، واللفظ متهافت على كل حال

كأنها والعـوادي في جـوانبهـا — صرعى بنـاء شيـاطين لشيطـان
جـاءت إليهـا وفـود الأرض قـاطبـة — تسعى اشتيـاقـا إلى مـا خلـد الفـاني
وصغـرت كل مـوجـود ضخـامتهـا — وغـض بنيـانها مـن كل بنيـان
وعـاد منكـر فضل القـوم معترفـا — يثني على القـوم في سر وإعـلان
تلك الهيـاكل في الأمصـار شـاهـدة — بـأنهم أهـل سبـق أهـل إمعـان

وفي القافية ضنى ـ يعني أهل إمعان في السبق والتجويد، وإمعان وحدها لا تفيد هذا المعنى

وإن فـرعـون في حـول ومقـدرة — وقـوم فـرعـون في الإقـدام كفـوان
إذا أقـام عليهم شـاهـدا حجـر — في هيكل قـامت الأخـرى ببرهـان
كأنها هـي والأقـوام خـاشعـة — أمـامهـا صحـف في عـالم ثـان
تستقبل العين في أثنـائهـا صـور — فصيحـة الـرمـز دارت حـول جـدران

---
١ ـ كيوان هو زحل

لـو أنها أعطيت صـوتـا لكـان لـه ... صـدى يـروع صـم الإنس والجان

قـولـه «صـم الإنس والجان» متكلف، إذ المعنى «صـوتـا يسمع الصم فيرتـاعـون لـه» فاحتال على القافية بما تـرى، وقد جعل الجن لهم صم كما للإنس صم وأمرهم مختلف عن الإنس. وكان شوقي أحذق حيث قال على لسان الجن:

نقـول حين نصطـدم ... بسـادة أو بخـدم
صمم صمم صمم صمم ... عمى عمى عمى عمى

على أن قوله صم الإنس والجان ـ تكلف محتمل شيئا

أين الألى سجلـوا في الصخـر سيرتهم ... وصغـروا كل ذي ملـك وسلطـان
بـادوا وبـادت على آثـارهم دول ... وأدرجـوا طـي أخبـار وأكفـان
وخلفـوا بعـدهم حـربـا مخلـدة ... في الكـون مـا بين أحجـار وأزمـان
وزحـزحـوا من بقـايـا مجدهم وسطـا ... عليهـم العلـم ذاك الجاهـل الجاني

قوله في العلم: «ذاك الجاهل الجاني» إغـراب. وإنما عنى البحث باسم العلم إذ العلم لا يجني ـ قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماؤ» ـ والعلم المراد هناهو ما يسمى Science، وهذا نظر وبحث واجتهاد فكر وما ينال من طريقه ليس بالعلم حقا، ولكنه مما يكون بعضه وسيلة وطريقا إلى العلم. والله أعلم.

ويل لـه هتـك الأستـار مقتحما ... جـلال أكـرم آثـار وأعيـان
للجهل أرجـح منـه في جهـالتـه ... إذا هما وزنـا يـومـا بميـزان

نظم صبري أدنى ألا يكون مغسـولا وأسلم من التكلف. خذ مثـلا قول مطران يـذكر جبرية رمسيس:

مخلـدا دون من قـامـوا بـرفعتـه ... من شـوس حـرب وصنـاع وأعـوان
مخالسـا ذمـة العليـاء مضطجعـا ... من مهـد عصمتهـا في مضجع الـزاني

البيت الأول واضح وفي سلامة معناه نظر. لأن شوس الحرب قد خلدت ذكراهم كما قد خلدت ذكـراه. وليس لـه ولا لهم خلود سوى ذلـك. والبيت الثاني قـوله مخالسـا ذمة العليـاء، غير واضح المعنى إلا على تصـور أن العليـاء هـي «لـوكـريشـا» التي خـان مغتصبها ذمتها. فإن كان هذا مراده، أو شيء كهذا أراده، فما معنى مهد عصمتها، إذ المهد للطفـل وما عنى هـذا وما عنى في هـذا الموضع إلا فراش عصمتهـا. واغتصاب

العلياء أمر مجازى لا يجعل صاحبه زانيا ولو على سبيل المجاز. فتأمل. وإنما هي الفتنة بالتماس التجديد من طريق نقل الأخيلة الافرنجية بلا تدبر.
مهما يكن من أمر فإني استوقف القارىء الكريم قليلا عند قول السوربوني بعد عرضه كلمة مطران والإشارة إلى نونية اسماعيل صبري وقد أوردها كاملة كما تقدم: «كلا الشاعرين في قصيدته يستنبط عبر التأريخ وينظمها درسا نافعا لأمته، كلاهما يجيب داعية الوطنية وينتصر للحق والعدل وان اختلفت وجهتا نظرهما، وهما متفقان في جوهر الموضوع، في الاشادة بذكر عظمة مصر الغابرة، وعظمة الفراعنة وتنبيه الخلف إلى مجد السلف. «١» (ص١٥٤).

ههنا كما ترى في قوله، موضوع اتفق الشاعران في جوهره ووجهتا نظر اختلفا فيهما. مطران يذكر جلال رمسيس، وأنه أجل فراعين مصر قدرا، وأن تمثاله الخالد ما كان أحد ليخطر بباله أنه سيفنى لولا وجود تماثيل أخر له محطمة. إنه اختار الخطة المثلى لتخليد نفسه وحمل شعبه عليها. وإنه كان للجند إلها يقدسونه وللكهان سيدا رفيع الشأن يتملقونه، وهذه المرأة البلهاء التي جعلها مطران رمزا لبؤس الشعب وطاعته، لم تزل ذات نصب كادحة من أجل رمسيس، يدفعها حبها الديني له وصبرها الصادر عن إيمانها بألوهيته، هي تدمي من الإرهاق الذي يكلفها إياه، وهي تبجله وتقبل الدم، الذي يسيل منها على مرمر الأبنية التي تبنيها له. (لم يذكر لنا مطران لماذا تقبل المرمر، إذ هي عبارة افرنجية. خطابة الصيغة راقته، ولو تتبعناها بالتحليل لاضطرنا ذلك أن نقول بأنها بتقبيلها دم نفسها كأنما تعلن عن تعلق بنفسها يناقض معنى الحب والتضحية والتأليه الذي قد قال به. هذا ويختم مطران القسم الاول من كلامه بأن رمسيس عاد بالفخر كله وأنه هو المخلد دون جنوده وصناعه وأعوانه. وهذه سنة دنيا الطغيان، كم تهلك الجموع فداء لفرد.

وينتقل مطران في القسم الثاني إلى الشعب أنهم هم الذين يسروا لطغيان رمسيس السبيل بإذعانهم وأنهم بانصياعهم لأمره وصنعهم التماثيل له، مكنوا له كل التمكين. لماذا رضوا أن تنصب له لا لهم النصب، ويكتب اسمه هو لا اسماؤهم. ثم يزعم مطران أن الطغيان أحيانا ربما كان منقذا للأمم من الانهيار الأخلاقي. وقوله:

ليت البلاد التي أخلاقها رسبت يعلو بأخلاقها تيار طغيان

نوع من التمني للمنقذ من حال الضعف والانهيار التي كانت عليها أمة مطران المعاصرة، أن يتاح لها رمسيس يغزو بها ويسومها جبروته ويصنع لها الفخر وتصنع له التماثيل

يهب فيهم كإعصار فينقلهم من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطغاة إذا جلت إساءته فقد يكون به نفع لأوطان
في كل مفخرة تسمو الشعوب بها تفنى جموع مفاداة لأحدان

وههنا روح استخفاف بالمفخرة، غريبة المعدن، مثلها كان يقوله أعداء نابليون عن مجده ثم جعل مطران خاتمة لكلامة تكبيرا مرة أخرى لرمسيس وإشادة بعظمته والتمس لهذا من قوله وجها من الحكمة كونيا يتخطى الأرض إلى الأفلاك.

كم في سنى الكوكب الوهاج مهلكة في كل لمح لأضواء وألوان

أي المجد كهذا الضياء الوهاج، إنما يتألق به أمثال رمسيس بهلاك آلاف يهلكون كما تهلك ذرات الأضواء لينبثق منها هذا التألق الباهر الذي نراه.

ويلاحظ أن مطران قد ناقض بآخر كلامه أوله، إذ زعم في أوله أن الخالد وحده هو رمسيس وأن الآخرين هلكوا في سبيل ذلك وشقوا وكدحوا في سبيل ذلك، وفي آخره قد أثبت لهم صورا ووجوها غرانا. والحق أنه لا خلد رمسيس ولا خلدوا هم، وإنما خلدت الذكرى ـ وهي ذكراهم جميعا ورمسيس قد سخر نفسه كما قد سخر شعبه من أجل هذه الذكرى، وهي المفخرة التي ذكرها مطران في أخريات كلامه وسخر منها بأسلوب نثري الذكاء.

ولله رد أبي الطيب إذ قال :ـ

أين الذى الهرمان من بنيانه ماقومه وما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

لماذا يعد الهرمان أنهما رمزان للتسخير أكثر من كاتدرائيات شارتر وكولون وونشتسر ؟ إن تك تلك قد أقامها صدق العقيدة، فكذلك أقام الأهرام صدق العقيدة، فهي آثار قوم كانوا أهل مجد بقيت بعدهم تشهد بمجدهم، ثم سيدركها الفناء، وقد كان كثير من مثقفي جيل مطران وصبري وأجيال بعدهما إلى زماننا هذا تمسك ببعض قضايا السياسة والاجتماع التي تصدرها أوربا عن واقعها، تمسكا أعمى، كأنما تبغى أن تتقرب إلى

حضارة أوربا وتنسب أنفسها إليها، فتقبل على تجريح مجدها من ماض وذكراه، وحاضر وبقاياه، بأظفار من الدعوى والتقليد كالحات ذوات عبس. وإلى الله ترجع الأمور.

هذا. وقد افتتح صبرى بنداء وحث على لسان فرعون، وكأنه داع من دعاة الوطنية الحديثة لأهل مصر، واستجابة من هؤلاء لاخوفا ولاطمعا ولكن حبا للإتقان. ويبدو أن هذا المعنى كان دائرا فى أوساط المثقفين. ومن شواهد ذلك مثلا قول شوقى.

إذا عمدوا لمأثرة أعدوا لها الإتقان والخلق المتينا

وموضوع الخلق أيضا، يبدو أنه كان مما يدور في أحاديث الجد والتأمل بين المفكرين. هو كثير عند شوقى. وقد رأيت منه في قول مطران

ليت البلاد التي أخلاقها رسبت يعلو بأخلاقها تيار طغيان

ثم يذكر اسماعيل صبرى ما تشهد به الأهرام والهياكل التى أقامها قدماء الفراعنة وشعوبهم من هذا الإتقان وكيف أنهم سجلوا فيها اخبارهم وسيرهم. ثم جاء هذا العلم الحديث فاعتدى على حرمة اسرارهم بهتكها فالذي فعله جهل والجهل الذي هو عدم معرفة كان أرجح من هذا الذي يسمى نفسه علما ويعتدي باسم العلم، كان أرجح ميزانا من حيث حقيقة الخير والإنسانية. وههنا احتجاجه بروح غضبة قومية على ظاهر تفوق أوربا المتمثل في هؤلاء الأثاريين الذين ينبشون قبور أجدادنا باسم البحث العلمي.

كلتاهما وجهة نظر كما قال السوربوني رحمه الله. غير أن اسماعيل صبرى كأنه أصدق وإلى قلوبنا أقرب. ثم كلامه أصفى وأسلم.

وبعد فجلى أن الطريقة التى سلك مطران وسلكها صبري واحدة ـ ليست هي طريقة الوثب والاقتضاب الذى عند البحتري وقد زعم السوربونى أن اسماعيل صبري ينسج على منواله. أحسب الذى دعاه إلى هذا القول أنه يرى أن شعر صبري غنائي ولا سيما مقطوعاته ـ قال: «عند الافرنج نوع من الشعر يدعى (lyrique) نسبة إلى (lyre) وهي القيثارة ولا أدري ماذا الذي يمنعنا من تسميته بالشعر الغنائي، فإن هذا الضرب من الشعر كان يغنى به في القرون الوسطى وهو شبيه بالأغانى في الشعر العربي. وقد تفنن صبرى في هذا الشعر الوجدانى ونظم فعلا للغناء أدوارا خاصة منها: (الفجر لاح قوموا ياتجار النوم) ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نغمات العود:

مذهب بياتي

قـــدك أمير الأغصـــــان — مـن غير مكـــــابـــــر
وورد خـــــدك سلطـــــان — على الأزاهــــــــــــر
دا الحب كلـــــه أشجـــــان — يـــــا قلب حـــــاذر
والصـــــدويـــــا الهجـــران — جـــزا المخـــاطـــــر

دور

يـــــا قلب دنت حبيت — ورجعــت تنــــــــدم
وصبحـت تشكى مـــــا رأيـت — لـك حـــــد يـــــرحـم
صـــــدقت قـــــولى ورأيـت — ذل المتيــــــــم
يـــــامـــــا نصحت ونهيت — لـــــــو كنت تفهـم

دور

أعـــــرض لحسنـك أوراق — واكتـــــب ودون
وابـــــات صريـع الأشـــواق — واحســـــب واخمن
دا هجـــر وصبـــابـــه وفـــراق — يـــــارب هـــــون
وارحـم قلـــوب العشـــاق — داشـــــى يجنـــن

وشعره الغنائى أنواع، منها النوع المتقدم الذى جعل خصيصا للغناء، ومنها ما تتخلله نزعة دينية. وقد نظم لامرتين (١)من هذا النوع ديوانيين. مثال ذلك قول شاعرنا:

[إلى الله]

يـــارب أيـن تـــرى تقـــام جهنم — للظـــالمين غـــدا ولـــلأشرار
لم يبق عفـــوك في السمـــوات العلى — والأرض شبرا خـــاليـــا للنـــار
يـــــارب أهلنى لفضلك واكفنى — شطط العقـــول وفتنـــة الأفكـــار
ومـــر الـــوجـود يشـف عنك لكى أرى — غضـب اللطيـف ورحمة الجبـــــار
يـــا عـــالم الأسرار حسبى محنـــة — علمـى بـأنـك عـــــالم الأسرار
أخلق بـــرحمتك التـى تسع الـــورى — ألا تضيـــق بـــأعظـــم الأوزار

هـذه الأبيات من خير مـا قيل في الاستعطاف والـرجـاء وهي من أرقى الشعر الغنـائي الذي يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة إلى السماء كما تعلو الصلوات لله، وما أكثر الشبه بين قوله:

(١) الفونس دي لامرتين ALPHONSE DE LAMARTINE ولد سنة ١٧٩٠ م توفي ١٨٨٩ م فقارب عمره مائة عام كما ترى وكاد ينتخب لجمهورية فرنسة. على أنه اشتهربشعره الرومانسي والجانب الديني منه خاصة.
قالوا كانت أمه متـدينة فأخذته بتربية دينية خرج عنها الى نوع من الالحاد في أول مراهقـة شبابه ثم عاد الى التدين من أجل سلام الروح والحقيقة التي في الاعماق ويعتبر شاعر المسيحية عند الفرنسيين.

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبـــار

وقول لامرتين

Et j'ai monte devant sa face

(1) et la nature ma dit passe

Ton sort est sublime. Il t'a vu.

«صعدت أمام وجهك الكريم فقالت لى الطبيعة سر في طريقك ما أعظم شأنك. إنه رآك» فأنت ترى كيف التقى الشاعران في سمو الخيال وصفائه. على أننا إذا قلنا إن شعر صبرى الغنائي كان شبيها بالصلاة التى تذهب صعدا نحو السماء فقد كانت الطبيعة له معبدا، وكانت المرأة في هذا المعبد تمثال جمال» انتهى نقلنا من كلام السوربونى رحمه الله في هذا الموضع من ص ١٣٥ ـ ١٣٨»

وإنما وقفنا عند هذا النص من كلام السوربوني لانه تنبه فيه إلى مايسمونه: Lyrique الغنائي اصطلاحا ليس هو مذهب قصيدة شعراء العرب. ولكنه منهج أوربي. ثم كأن السوربونى كره أن ينسبه كل النسبة إلى أوربا، فزعم له أصلا بحتريا لقول ابن الأثير في البحترى «أجاد سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى» وكأنه بذكره أن أصل Lyrique وهي القيثارة يوحى بنوع من الحجة والبرهان على هذا الوجه الذى ذهب اليه.

وغير خاف عنه، لاريب، أن قولهم Lyrique قد صار اصطلاحا فارق أصله الأول، وأن الغناء فيه مراد به مذهب من مذاهب البيان يكون صاحبه فيه له طريقة من محاكاة للطبيعة في موضوعه مع تقمصه له تقمصا ذاتيا مباينا لما في مذهبي المسرحية والملحمة من المحاكاة محاكاة صاحب الليريك أشبه بمحاكاة الرسام لما يرسمه من منظر مع تسجيل انطباعه في نفسه ينقل بذلك مع شكل المنظر نوعا من تأثيره الذي أثره على نفسه.

قول ابن الأثير «فغنى» أراد به أن البحتري لم يكتف بإيقاع الشعر ولكن جاوزه إلى إيقاع الغناء ـ فقوله وصف لرنة الديباجة لا لنفس مذهب البيان. هذا ايضا لا نحسبه كان مما خفي على السوربوني. بل ينبغي أن ننبه هاهنا أنه في هذا الفصل الذي انتسخناه من كتابه ادب وتأريخ ـ لعله ان يكون من أوائل من تنبهوا الى ان مذهب

---

(١) هكذا في نص «أدب وتاريخ» بالحرف الصغير والصواب E t بالحرف الكبير وهذه الأسطر هي من ٩٧ ـ إلى ١٠٠ منظومة لامرتين التى عنوانها لانهائية الطبيعة وقصر عمر الانسان

Eternité de la nature,

briévete de l'homme.

الغنـاء الاوربي في الشعـر Lyrique (كما اصطلحـوا لـه) شيء جاء بـه شعـراء النهضة، وليس من معدن مـذاهب العربية ـ ونأمل ان نلم بهذا المعنـى من بعد ان شاء الله تعالى ونعود الى مـا قلناه من قبل ان كلتا هاتين القصيدتين ذواتـا جوهر متقارب في الموضوع ووجهتي نظر مختلفتين في المعـالجة وبعض الآراء ـ ثم فيهما ما رأينا مـن طريقة ترتيب للكلام ليست من سنخ :

ميلـوا على الـدار من ليلى نحييهـا	نعم ونسـألها عن بعض أهليهـا

ثم من بعد :

قـد اطـرق الغـادة البيضـاء مقتـدرا	على الشبـاب فتصبيني وأصبيهـا
عـاطيتهـا غضـة الاطـراف مـرهفـة	شربت مـن يـدهـا خمرا ومن فيهـا
يـا من رأى البركـة الحسنـاء رؤيتهـا	والآنسـات اذا لاحت مغـانيهـا

أو من سنخ

لـو كـان يعتب هـاجـر في واصل	أو يستقـاد لمغـرم مـن ذاهل

ثم من بعد :

ليـدم لنـا المعتـز إن بملكـه	عـز الهدى وخبـا ضيـاء البـاطل
لما كملـت رويـة وعـزيمـة	أعملت رأيـك في ابتـنـاء الكـامل

ولكنها من سنخ آخر .

في شعـر ابن الـرومي واصحـاب الوصـف وكثير من القدمـاء أمثلـة من وحـدة الموضوع وترتيبـه. وقد نصح ابن طبا طبا شعراءه برصف الكـلام والتفكير فيه منثورا ثم نظمه من بعد ثم ضم اطرافـه بملء الفجوات بينها. ولكن جميع هذا ليس بنهج كنهج المقالـة الصحفية العصرية الصـادرة عن وحدة فكرة ومـوضوع وتجويد تبـويب وترتيب وربط. قـد فطن طـه حسين، سقى غيـث الـرحمة ثـرى قبره، الى ان ابن الـرومي تأثـر باساليب الكتاب ـ هذا في كتابه من حـديث الشعر والنثر. ولكنه قد قيد هذا من قبل بأن الكتاب أنفسهـم ـ الجاحظ ورصفاؤه وسابقيـه الذين مهدوا له من قبل ـ كل اولئك جميعا قـد تأثروا بمنهج الشعراء وطـرائق بيانهم. رسائلهم كـانت الوانا من شعـر كتابي كما قصائد ابن الرومي ألوان من كتابة بالشعر. ولا غرو فقد كان كثير من كتاب ذلك الزمـان أيضا شعراء. حتى ابن المقفع قد كـان شاعرا. والجاحظ أيضا. وقـد كان ابن

الزيات والصولي مشتهرين بالشعر . وكان ابن الرومي كاتبا كما كان شاعرا .

مذهب هاتين القصيدتين ليس من مذهب شعراء العصر العباسي والمولدين من بعد ، السالك طريقة الكتاب . لأن مذهب هؤلاء سنخه سنخ القصيدة . حتى ما جيء به تعليميا فلسفيا نحو .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وزينبية صالح بن عبد القدوس ولزوميات المعري ـ كل ذلك قصيدي السنخ القصيدة أساسه ومنبته الذي فيه واشجة جذوره . أما هاتان القصيدتان فسنخهما شيء مختلف سنخهما كالمقالة الصحفية العصرية التي كانت الاقلام قد استطرفتها وأخذت بها أيام النهضة وجعلتها من عدة النضال والإقبال على تناول حضارة العصر المتمثلة في تفوق أوربا تفوقا بالنسبة اليه حال جميع العرب وبلاد الإسلام حال رجعية وتخلف .

لم يكن اسماعيل صبري ومطران الا من الطبقة الثانية من شعراء النهضة ـ اسلوب المقالة الصحفية العصرية الذي في هاتين القصيدتين من نظمهما هو المهيمن على شوقي وحافظ وتفرعت منه شتى فروع النظم الحديث من بعد .

للبارودي كلمة نظمها في هرمي الجيزة هي التي مطلعها

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

فيها وحدة الموضوع ، وجودة الترتيب ، وكأنه بها كالسابق الى هذا الاسلوب المقالي ، ولكن تغلغل روح القصيدة في ملكة بيان البارودي وشاعريته أبت عليه الا ان يكون هو المهيمن على جملة معدن الاسلوب وسنخه ـ تأمل قوله :

مصانع فيها للعلوم غوامض تدل على أن ابن آدم ذو قدر
رسا اصلها وامتد في الجو فرعها فاصبح وكرا للسماكين والنسر
فقم نغترف خمر النهى من دنانها ونجن بأيد الجد ريحانة العمر

ألا تحس هنا رنة من قول المعري

رآها سليل الطين والشيب شامل لها بالثريا والسماكين والوزن

وكأنه يرد على قوله :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وقال في آخرها ، في نهج قصيدي واضح :

فيا نسمات الفجر ادى تحيتي إلى ذلك البرج المطل على النهر
ويا لمعات البرق ان جزت بالحمى فصوبي عليها بالنثار من القطر
عليها سلام من فؤاد متيم بها لا بربات القلائد والشذر
ولا برحت في الدهر وهي خوالد خلود الدراري والأوابد من شعري

مع ذلك لكأن البارودي ، حتى في هذا النهج الجديد من حمل القصيدة على طريق المقالة الصحفية نجده ذا سبق وذا تجديد أصيل رحمه الله رحمته الواسعة وجادت ثراه شآبيب الغفران .

لعل القاريء الكريم قد تنبه لتأثير شعر المديح والاذكار على ما سماه السوربوني شعر اسماعيل صبري الغنائي الديني وأما ما نبه اليه من شبه بعض ما قال لامرتين بما قاله صبري ، فقد تأسر الرومنسيون الاوربيون بالتصوف ـ تصوف المسلمين ـ وما يخرج لامرتين في باب التأثر من هذا النطاق . وقد سبق التنبيه على ان الرومنسيين انما تأثروا في تقديسهم الطبيعة بالفيلسوف السوسري الفرنسي الرومنسي جان جاك روسو . وكان هذا كما قدمنا واضح التأثر بالصوفية وعلوم المسلمين .

المقالة والقصيدة عند شوقي وحافظ ومن بعد قليلا

المقالة التي قصيدة في ظاهر شكلها والقصيدة التي هي مقالة في باطن أمرها ـ توشك أن تكون هي مادار عليه اكثر الشعر الغنائي عند شوقي وحافظ . وسنرجع الى قولنا الغنائي فنوضح مرادنا منه من بعد إن شاء الله .

كان شوقي طويل النفس ، نظاما ذا ملكة وكان يلتمس اصابة الرصانة ويتحري أن يكون له نصيب وافر من حسن الديباجة ، وكان يعلم مكان البارودي من جميع هذا فاتخذه نموذجا غير انه عمد الى مذهب من التجديد اما عن ظن منه ان البارودي مع ملكته الضخمة قد قصر دونه لغلبة تقليد القدماء على اسلوبه ، وتقيده بحدوده الضيقة واما عن فطنة منه الى ان ملكته هو دون البارودي ، ولا يستطيع بلوغ مستوى ديباجته مهما يجتهد في سبيل ذلك ، واذن فليتلاف هذا النقص بما يعوضه من ضروب

الافتنان ، اذ كان البارودي عنده كما هو نموذج ، هو ايضاشاعر معاصر ينبغي عليه أن يتفوق عليه ـ اليس هو القائل :

شبـــــاب قنـع لا خير فيهـم   وبـورك في الشبـاب الطامحينـا

أم ليس هو القائل :

شـــاعـــر الامير ومـــا   بـــــــالقليـل ذا اللقب

وما أقرب شاعر الأمير في نفس صاحبها أن تكون أيضا بمعنى «أمير الشعر وأمير الشعراء» وهو ـ كما يعلم القارىء الكريم قد صار عليه علما وله لقب حلية مستمرة فيما بعد و إما ـ ولعل هذا الراجح ـ أن يكون قد ظن بالبارودي التقصير عن التجديد واعترف لنفسه بأنه دونه في الديباجة والرصانة وصفاء الأسلوب وأصالته وأن حظه من التجديد لو أحسن القيام عليه جاذب له المستوى الرفيع الذي لايقدر على الارتفاع إليه ، فممكنه بإدنائه قسرا إلى إن يرتفع فوقه ولو على تباين مسافة بين مكان المستويين وبين نوع حقيقة كل منهما .

وقد مر من شعر شوقي شيء كثير في الجزء الأول من هذا الكتاب ومما يصلح للتمثيل به في هذا الموضع مما نحن بصدده قافيته :

من أي عهـد في القـرى تتـدفق   وبأي كـف في المدائن تغـــدق

وميميته :

يا أخت أندلس عليك سلام

ونونيته : قفى يا أخت يوشع خبرينا

وتوشك اكثر قصائد الديوانين الأول والثاني أن يغلب عليها أسلوب المقالة الصحفية .

ونورد ههنا مثالا واحدا نكتفي به وهو قصيدته «مملكة النحل» :

مملكــــة مـــدبـــرة   بـــامـــرأة مـــؤمـــرة

تحمـل في العمال والصنــــــاع عـبء السيطـــــــرة

فـــــاعجـب لعمال يـــــولـــــون عليهـم قيصرة

تحكمهـم راهبــــــــة   ذكـــــــــارة مغبرة

أي مرددة صوتها وهي كلمة تصيدها شوقي من القاموس بلا ريب . سمعت ممن لا أشك في صدق خبره ، وذكر ذلك على أنه من أساليب ترنم الشعراء لايقصد به إلى

طعن فيه، أنه رحمه الله كان يرصد قوافيه عددا قبل النظم

عـــاقـــدة زنـــارهـــا عـن ســـاقهـــا مشمـــرة
تلثمـت بـــالأرجـــوا ن وارتـــدتـــه مئـــزرة
وارتفعـــت كـــأنها شـــرارة مـــطـــيـــرة
ووقعـــت لم تختلـــج كأنهـــا مسمـــرة

هذا أول قسم، وقد تدرج فيه من ذكر مملكة النحل وملكة النحل إلى صورة النحلة العاملة. واستعان في الصفة بذباب عنترة وبيراع النابغة:

تقـد السلوقي المضاعف نسجـه وتـوقد بـالصفـاح نار الحبـاحب

وفي الأبيات إشارة خفية إلى زنار عدي بن زيد. وكان شوقي رحمه الله أبرع من أن يجعل شعره نثريا مغسولا كمطران، أو اجتهاديا كاجتهاديات تلامذة المدارس في موضوعات الإنشاء ــ الإشارة والتشبيه والاستعارة وطلب الرصانة في التعبير ـ كل ذلك مما يرتفع بدرجات التعبير:

ثم رجع شوقي إلى موضوع المملكة الذي بدأ به، وجعله تأملا. ولا يخفي بعد ما ههنا من طريقة العودة القصيدية السنخ:

قـف ســـائل النحـل بـــه بـــأي عقـــل دبـــــره
يجبـك بـــالأخـــلاق وهـــــي كـــالعقـــول جـــوهـــرة

هذا من الموضوعات التي كانت دائرة بين المثقفين والمفكرين ــ وأحسب أنها إنما كانت مذهبا من التعبير عن الإعجاب بحضارة أوربا وتفوقها ومحاولة تأويل ذلك بأن الأوربيين ما تفوقوا بزيادة ذكاء وحذق ومهارة أو رفعة عنصرية كزعمهم وإنما بالأخلاق التي عنوانها ماهم عليه من دقة النظام والمحافظة على المواعيد والديمقراطية في الحكم والحرية في الصحافة الى آخر قائمة ما صار يسمى بحقوق الإنسان:

تغنـى قـــوى الأخـــلاق مـــا تغنـى القـــوى المفكـــرة
ويـــرفـع اللـــه بها مـــا شـــاء حتى الحشرة

وما أحد يبغى لنفسه أن يكون حشرة ولو نحلة ولا حشرات ولو نملا ـ اللهم إلا أن يكره على ذلك إكراها من طريق التناسخ عند من يصححه.

ثم ينتقل شوقي بعد ذكره الأخلاق الى تفصيل ما عناه بذكره، وأن في ذلك تبصرة وذكرى ـ وهذا المعنى كما لا يخفى يشير به الى آية سورة النحل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي

سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . »

أليس في مملكة النحل لقوم تبصرة

والحق أن التبصرة في النحل لا في مملكة النحل ـ ولكن شوقي إنما جعل هذا رمزا لقضية النظام والأخلاق ، وما الإشارة الى التبصرة إلا مذهب من تزيين الأساليب

ملك بناه أهله بهمة ومجدرة

لو التمست فيه بطال اليدين لم تره

تقتل أو تنفي الكسالى فيه غير منذرة

«منذرة» هذه من لغة دواوين الموظفين

تحكم فيه قيصرة في قومها موقرة

جعلها قيصرة لغلبة فكرة تحرير المرأة على الأذهان . فهو يشبه المرأة هنا بعاهلة اوربية ، هي هذه المرأة الأوربية التي شرعت تبارى الرجال وتنافسهم وكان سبيل شوقي إن كان حقا يعني التشبيه بامرأة حاكمة أن يذكر بلقيس أو كليوبطرة أو الزباء ، فليس للروم قيصرة بهذا المستوى ــ اللهم إلا أن يجعل كاثرين الروسية واليزابيث الانجليزية بتلك المنزلة . وقد كان يقال لملكة روسية القيصرة ، وكانت كاثرين ذات جبروت ودهاء .

من الرجال وقيود حكمهم محررة

لاتورث القوم ولو كانوا البنين البررة

الملك للإناث في الدستور لا للذكرة

بكسر الذال وفتحة الكاف بعد وهو جمع نادر الاستعمال من المتصيدات بلا ريب :

نيرة تنزل عن هالتها لنيرة

هذا من ترنم شوقي ، وهو شيء قصيدي المعدن ، ولا يزيد به المعنى كبير شيء ـ ولكنه دندنة حسنة . قولنا لا يزيد به المعنى كبير شيء لأن مراد شوقي من قوله«نيرة» غير واضح ، وإنما هي عبارة مدح لملكة النحل ، جعلها نيرة لتوهمه على رأسها تاجا يلمع ـ أو هو مفرد انتزعه شوقي من جمع المؤنث السالمات : النيرات . ولشوقي ولع بالترنم به :

المترعات من النعيم الراويات من السرور

العاثرات من الدلال الناهضات من الغرور

الآمرات على الولاة الناهيات على الصدور
الناعمات الطيبات العرف أمثال الزهور

وأصله من أبي الطيب ـ

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا
المنهبات عقولنا ونفوسنا وجناتهن الناهبات الناهبا

وهلم جرا ـ

فهل ترى تخشى الطماع في الرجال والشره

هذه قافية لا تعجب ابن رشيق ، ولا بأس بها على قلق ما

فطالما تلاعبوا بالهمج المسيرة
وعبروا غفلتها الى الظهور قنطرة

هنا تعريض ـ وأنفاس من روح العصر التحررية الدعوى

وفي الرجال كرم الضعف ولؤم المقدرة
وفتنة الرأي وما وراءها من أثرة

وهذه الحكمة كأنها استطراد ـ ولكنها متصلة بالموضوع اتصالا غنائيا . وذلك أن هذا المنهج الذي سلكه شوقي من وحدة الموضوع وجودة الصياغة والترتيب ، معه تأمل ذاتي ، مستمد من نفس الموضوع ، مشع به وعليه ـ هذا منهج «ليريكي» . وهنا يصدق حدس السوربوني إذ فطن الى أن في طريقة اسماعيل صبري غنائية ، وقد رام تفسيرها بأداء الغناء ذي الأدوار . ولكن تفسيرها هو هذا . وهذا المنهج عند شوقي وحافظ كليهما أوضح ، وهو مما فارقا به بنية القصيدة القديمة ، بنوع من تجديد غربي المعدن .

ثم رجع شوقي من الاستطراد الى قيصرته :

أنثى ولكن في جناحيها لباة مخدرة

واللباة أنثى فالمقابلة غير جيدة إلا على توهم نوع من "لكن" نابغي مثل "غير أن" التي في قوله .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولا يخلو البيت على ظاهر صياغته من نوع غير متقن الصقل . ولماذا خص الجناحين باللبؤة . هل أراد أنها على طيرانها لبؤة؟ كلا ـ أراد فقط أنها أنثى من صغار النحل ولها من قوة عظام السباع كمثل قوة اللبؤة وشراستها

ذائدة عـن حـــــوضهـــا طـــــاردة مــن كـــدره
تقلـــدت إبـــــرتها وادرعــت « بـــــالحبرة »

فصـارت القيصرة هانـما ست بيت تـرفـو ملابس الـزوج والأسرة ــ وانجرف شـوقي مع التنغيم والرغبة في طول النفس، فخلط في كلامه بما يشبه الإسفاف.

كـأنها تـــركيـــة قـــد رابطت بـأنقـــرة

ولو رابطت بازمير أو افيون قره حصار أو اصطمبـول، لكانت أيضا تركية ـ وإنما جلب " انقرة " القافية، وهذا مما يقع تحت ما عابه قدامة حيث تمثل بقول الآخر:

فـــوقـــاك الإلـــه من وارث وا ل وأبقـــاك صـــالحا رب هـــود

ثم ما للنسـاء والمرابطة؟ـ تأمل تـداعي المعاني، الإبـرة «والحبرة» جاءتـا بالتركيـة. أنقرة جاءت برابطت ليتم البيت، ولعمري، إذ قد اتهم ابن البـاقلاني امرأ القيس بالحاجة الى إتمام الوزن في تكراره الخدر حيث قال « ويـوم دخلت الخدر خدر عنيزة » وامرؤ القيس من لا يتهم، فإن غيره لن يجور إن اتهم شوقيا بالحاجة الى مثل ذلك في قوله:

كـأنها تـــركيـــة قـــد رابطت بـأنقـــرة

ودعت «رابطت»«جان دارك»، كأنه يرد به على من زعم أن النساء لا يرابطن ـ واستطرد الى ذكر شيء عن «جان دارك».

كـأنها جـــان دارك في كتيبـــة معسكـــرة

وينبغي أن تنطق «جندرك» لكيلا يلتقى ساكنان في حشو البيت

تلقـي المغير بـــالجنـــو د الخشـن المنمـــرة

المغير هنـا هم الانجليـز أعـداء شـوقي وأعـداء قـومـه. فقـد جعل "جنـدرك" رمـزا وطنيا، فصرفه ذلك عن التركية ذات «الحبرة»:ـ

الســـابغين شكـــة البـــالغين جسرة

هذا البيت ترنم وفيـه وهن إذ مراده البالغين غاية الجسارة، ولكنـه حذف معمول البالغين، فصار فيها معنى البلـوغ وحده، ولا يصلح وحده إلا على أن يتم نقص معناه قـارئه. وجسرة حـال أي حـال كـونهم جـاسرين، جمع جـاسرا على جسرة، كما في بيت الجموع ـ

غلمانهم لـــلأشقيـــاء عملـــة قطـــاع قضبـــان لأجل الفيلـــة
والعقـــلاء شرد ومنتهـى جموعهـــم في السبـع والعشر انتهـى

ثم أطنب في نعت بطلته « جندرك »عدوة الاستعمار

قـــد نشـــرتهم جعبـــة ونفضتهـــــــــــم مثبرة

هنا بـاخ الترنم بسبب إسراف شوقي فيـه . فقد صارت « جنـدركه » حجـاجا أو عبدالملك بن مروان الذي في خطبة الحجاج : «نثـر كنانته بين يديه وعجم عيدانها» . ثم عادت من حجاجيتها ومـروانيتها هانها تركية في «نفضتهم مثبرة» ـ وتـرك الشاعر مأساة «جندرك» المسكينـة أن يلم بها ، ولو كـانـت حقا نثرتهم ونفضتهم مـا أسلموهـا للعدو والنار ذات الوقود ـ

مـن يبـن ملكـــا أو يـــذد	فبـــالقنـــا المجـــــررة
إن الأمـــــــــور همة	ليـس الأمـــور ثـــرثـــرة
مـــا الملـك إلا في ذرى الـــــ	ألـــويـــــة المنشرة

هذه المعـاني من أبي الطيب ألبسها شـوقي لغة الصحافـة ، وهو ههنـا كأنما يفسر مملكة النحل بما جعلها رمـزا له ، وهو دولة مصر لـو صار ابناؤها نحـلا وخديويها قيصرا ، أو قيصرة جندركية تطرد اللوردات الملاعين

عـــرينـــه مـــذ كـــان لا	يحميــــه إلا قســـــورة
رب النيـــوب الـــزر	ق والمخـــالب المذكـــرة

أحسبه عنى بالزرق ، زرقة الحديد ، كنـاية بذلك عن مضى حدها ثم بعد أن فسر الرمز عاد اليه :

مـــالكـــة عـــاملـــة	مصلحـــــة معمـــــرة
المال في أتبـــاعهـــا	لا يستبين أثـــــــــــره

كما في أتباع ملوكنا يا صاح ـ هذا مراده إن شاء الله .

لا يعــــرفـــون بينهـم	أصـــلا لـــه مـن ثمـــره
لـــو عـــرفـــوه عـــرفـــوا	مـن البـــلاء أكثـــره

كما عرفنا نحن ـ وهنا رجعة الى موضوع الأخلاق . وغمزة من غمزات السياسة :

واتخذوا نقـــابـــة	لأمـــرهـم مسيرة
سبحـــان من نـــزه عنـــ	ـــه ملكهـم وطهـــره
وســـاســـه بحـــرة	عـــاملـــة مسخـــرة
صـــاعـــدة في معمـل	مـن معمـل منحـــدرة
واردة دسكـــرة	صـــادرة عـن دسكـــرة

بـــاكـــــرة تستنهض الــــــ ـــــــعصائب المبكـــــــرة

ثم يجيء الترنم بجمع المذكر السالم على طريقة أبي الطيب :

الثـابتين فـروسـة كجلــودهـا في ظهـرهـا والطعن في لبـاتها

العـــارفين بها كما عـــرفتهـم والـــراكبين جـدودهم أمـاتها

قال شوقي من بعد قياسا على هذا النمط :

الســـامعين الطـــائعيــــ ـــــن المحسنين المهــــرة

ولا يخفى أن أصل النسق قـرآني، ولكن شوقي كان بمحـاكاة الشعـراء ومجاراتهم مغرى وبذلك أدرب، فهذا زعمنا أنه أخذ بطريق أبي الطيب

مـن كـل مـن خـط البنـــــا ء أو أقــــــام أسطـــــــره

أو شـــــد أصـل عقـــــده أو ســــــده أو قــــــوره

أو طــــاف بـــــالماء على جـــــدرانـــــه المجـــدرة

ثم اختتم شـوقي هذه المقـالـة القصيديـة بعـودة الى صفة النحلـة، وقـد كان وصفهـا مفردة، فالآن جاء بها في جموعها ـ في ثولها الدائب ذي الدوى :ـ

وتــــذهب النحـل خفـــا فـــــا وتجيء مـــــوقــــرة

حـــوالب الشمـع من الــــ خمائل المنــــــــــــــورة

جـــــــوالـــب الماذي مـن زهـــــر الـــريـــاض الشيرة

ذوات الشارة أي الحسن والكلمة متصيدة

مشـــــدودة جيـــــوبها على الجنــى مـــــــــــزررة

هنا عودة الى ذباب عنتره

وكـل خــــــرطــــــوم أدا ة العســـل المقطـــــــــــرة

وكـل أنــف قـــــــانـىء فيــــه مـن الشهـــــد بــــرة

هل رأى شوقي أنف النحلة ؟ـ

ذكر هذا المعنى ــ طرفا منه ـ في قولـه أول شيء : "تلثمت بالأرجوان" ـ وبعيد أن يكون رحمه اللـه قد تبين أنف النحلة كل هـذا التبين ولو قـد وقع هذا البيت لأبي عثمان لعده من باب الجسارة ـ كالذي ذكـره عن بعض رواته أنه جسر فزعم أنه رأى أير ذباب وهو يكوم ذبابة

حتـى إذا جـــــاءت بـــــه جـــــاست خـــلال الأدورة

ونظم الآيات عني، وأخذه هذا من الآية: «فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا» ظاهر جلي [آية أول الإسراء].

وغيبته كالسلاف في الدنان المحضرة

هذا التشبيه ضعيف، إذ العسل أصل في النعمة، ولا يقال عسل كالخمر، وإنما يقال عسل ولبن وعسل وخمر - قال حسان رضي الله عنه

كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح هصره اجتناء

ومثل هذه الزلة عند شوقي كثير، وهو قصر باع في صناعة ديباجة القريض.

فهل رأيت النحل عن أمانة مقصرة

رجع هنا كما ترى إلى المعنى الأخلاقي. ولكنه توهم أن كل النحل جوارس من بساتين تعد لهن، وكان رحمه الله امرأ موغلا في الحضارة. وعل ذلك أن يكون مما جعل جزالة بداوة القصيدة - وهي بداوة قلب وروح أول من كل شيء - تعسر عليه وتستعصي على طول المحاولة المجتهدة منه. وإذ نحل شوقي نحل بساتين فإنهن لأمانتهن كالمقترضات من الناس حين يجرسن من أزهار بساتينهم، ولأمانتهن يؤدين ما اقترضنه سكرة بسكرة - وهي قافية لا تسلم من عناء - قال:

ما اقترضت من بقلة ... أو استعارت زهرة
أدت إلى الناس به ... سكرة بسكرة

ولننظر الآن في مقالة حافظية بعد هذه الشوقية. وكان حافظ من تلاميذ البارودي، يحذو على نموذج ديباجته، فتشرق عليه من ذلك أحيانا إشراقة. وما جعل البارودي نموذجا يبغى أن يتفوق عليه بمحاكاته كما فعل شوقي، إذ كأنه كان كالمسلم بتفوقه واستاذيته ولكن منافسته كانت لشوقي. وقد مر لي في كلام سابق: «وحافظ إبراهيم شاعر قرنه حسن الجد بشوقي، وتعصب بعض الناس له، لما كانوا يجدونه في شعره من كلام يناسب روح العصر السياسي المغيظ على البريطانيين. وشعره في حد ذاته لا يجوز أن يقاس ويقرن مع شعر شوقي، ولعل مسافة ما بينه وبين شوقي أبعد من مسافة مابين ابن حجاج والمتنبي - أقول الآن، لعل هذا القول أن يكون فيه جوز على حافظ، إذ هو أحيانا أصفى ديباجة من شوقي، وهذا وجه أحسب أن الدكتور طه حسين ذهب إليه في بعض ماتناولهما به من الدرس والنقد. وإلى القارىء بعد بائيته التي عنوانها غادة اليابان - هي أيضا مقالة قصيدية فيها عنصر غنائي. وحرص حافظ على مقاربة روح القصيدة بنفس فيه أصداء من جزالة البارودي ومقدمات تأملات القدماء التي يجعلونها تمهيدا حزين النغم يقوم مقام النسيب، كقول الأعشى مثلا:

لعمرك ما طول هذا الزمن ... على المرء إلا عناء معن

قال رحمه الله:

لاتلم كفي إذا السيف نبا ... صح مني العزم والدهر أبى
رب ساع مبصر في سعيه ... أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحبا بالخطب يبلوني إذا ... كانت العلياء فيه السببا

عقنى الـــدهـــر ولـــولا أنني أوثـــر الحسنى عققت الأدبـــا
إيـــه يـــادنيـــا اعبسى أو فـــابسمى لا أرى بـــــرقك إلا خلبـــا

المطلع جهير قصيدى قارع للسمع
ثم هو خطابي وسـوغ هذا للشاعر أن يتخـذ سمتا من الخطابة الـواعظة في البيت الذي تلاه ــ غير أن هذا البيت بدأ بحضر جيـد ثم انبهر إذ كأن حـافظا أرادبه تقـوية المعنى الذي أصابـه في المطلع ولكن مراده لم يستقم له. قـوله «الدهر أبى» ـ أجـود وأوجز من قـولـه «أخطأ التـوفيق فيما طلبـا»، إذ هـذا فيــه عنـاء والتـوفيق ليس بـالـذي يخطئـه طالب، وإنما هو عـون يجيء من الله سبحانه وتعالى. قولـه «رب ساع مبصر في سعيه» يحتاج إلى تكملة قوية إذ هو بداية وتوطئـة حسنة، فهذا قولنا إن حافظا بدأ بحضر (أي جري) جيد ثم عجز من بعد.
والبيت الثـالث أولـه حسن، وتتمته تحتمـل ولكن فيها عنـاء. والمعنى في صـدر البيت الرابع واضح ولكن العجز فيه غموض، مع ما عمد إليه حافظ من المقابلة.
ولكأن حافظا جعل في هـذا النفس الخطابي بعض كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات اللـه عليه، حذوا يحتذيه، وذلـك مثل قوله عليه السلام: «يـا دنيا غرى غيري» وقوله: «ولكن لا رأي لمن لايطاع» وقوله «ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل» وقديما قـالوا إن زيادا والحجـاج وعبدالحميد الكـاتب، كل أولئك تعلموا البـلاغة من خطب أمير المؤمنين كـرم اللـه وجهه. فأخـذ حـافظ من بـلاغته سير منـه على طـريق مهيع. وعجز البيت الخامس «لا أرى برقك إلا خلبا»أضعف من صدره.
على أن المتأمل لهذه الأعجـاز الضعـائف، واجـد فيهـا جميعـا مشـابـه غير الضعف. نوعا من مسرحيـة «في جواب سؤال» رب ساع مبصر الخ ـ مـاذا جرى له: لم يوفق. مـرحبا بـالخطب، لماذا ترحب به؟ لأنـه طريق إلى العليـاء، العلياء هي السبب الذي جاء بـه. عقنى الدهر ولولا أنني أوثر الحسنـى ـ ماذا كنت تفعل؟ كنت سكت وتملقت الاستعمار ولم أقل شعـرا. إيه يـا دنيا أعبسي أو فـابسمي. لماذا هذه التسـوية؟ لأنك كاذبة، عبوسك وابتسامك سواء وبرقك برق خلب.
هذا الأسلوب الذي حاق مذهب رصانة القصيدة لا يرضاه، يرضاه حاق مذهب الصحـافة الشعبيـة كل الـرضا. ويكتسب في ضـوء هـذا الرضـا، نـوعا من صفـاء في الديباجة. فتأمل.
ثم بعد أن جعل هـذه الخطابـة العلوية الشكـوى مقدمـة، صرح بمعنى استثارة الهمم الراكدة. التي ركودها هو سبب شكـواه. وهذا موضوع الأخلاق التي هي النظام والدأب والتدبير المبلغ إلى مثل مستوى حضارة أوربا

أنـــا لــــولا أن لي مـن أمتـي	خـــاذلا مـابـت أشكـــو النـوبــا
أمـــة قـــد فت في ســاعـــدهـــا	بغضهـــا الأهل وحـب الغـــربـــا
تعشـق الألقــــاب في غير العلي	وتفـــدي بــالنفـــوس الـــرتبـــا
وهي والأحــــداث تستهـــدفهـــا	تعشق اللهـــو وتهوى الطـــربـــا
لا تبــــالي لعب القــــوم بها	أم بها صرف الليــــالي لعبـــا

فهذا خاتمة لومه أمته التي أحوالها المؤسفة هي سبب شكواه الدهر. البيتان الأولان ثانيهما متم معنى أولهما وأولهما ممهد لتاليهما، متضمن سؤالا فيـه جوابه ـ إذ السؤال كيف خذلتك أمتك ؟ والجواب أنني أدعو إلى حب الأهل وبغض الأجانب وهي لا تطاوعني على ذلك. وكلمة الغرباء لا تؤدي معنى الأجانب، أجانب أوروبا وخاصة البريطانيين المستعمـرين، ولكن حـافظا لم يجد غيرهـا. وكلمـة الأهـل أيضـا لا تـؤدي معنى المواطنين. ولكن مـراد الشاعـر مع هذا ظـاهر. ثم« في الأهل والغـرباء» نـوع من نفس بلدي شعبي، يـوهم بأن الشاعـر قد قصـد إلى هذين اللفظين قصـدا، ولم يلجئه إليهما عجز أو إعياء. قوله "وتفدى بالنفوس الرتبا" إن هي إلا إطناب في معنى صدر البيت «تعشق الألقـاب في غير العلى» وصدر البيت أوفى. وهل أراد حـافظ لغير العلى تفسيرا بقوله «وتفدى بـالنفوس الرتبا» ؟ فالرتب من العلى. وكأن حـافظ يسخر من هذا الذي يتوهمه طلاب الـرتب أن فيها العلى. والتعبير بعد صحفي لأن قوله «وتفـدى بالنفوس» إنما أراد بـه تبذل المجهـود العظيم من أجل الحصول على الـرتب، فكأنه النفيس الـذي يفدى بالنفس والنفيس. وقوله "تهوى الطـربا" أجود لو قال وتهوى اللعب، لأن اللهو واللعب مصطحبان، وعلى ذلك وبه جاء بيان القـرآن. ولكن حافظا احتاج إلى اللعب في البيت التالي، ليهزأ من أذناب الاستعمار الذين لهم في الـدولة مكان، أنهم قد سمحوا للقوم أي الإنجليز أن يعبثوا بمصالح مصر، ثم مـا كان لهم عند أنفسهم من اعتذار إلا أن ينسبوا مـا حل بهم وبأمتهم إلى صروف الليـالي، «وتلك الأيام نـداولها بين الناس» ـ وإذا تأملنا جـانب الخطابة الهازئة في "لا تبـالي لعب القوم" ـ وسر الهزؤ كلـه في القوم الـذين هم أيضـا صرف الليـالي، تبين لنـا أن حـافظـا لعلـه مصيب في ادخـار كلمـة اللعب، ليكـون اللهو الـذي هوطـرب منهم واللعب المصـاحب معه، من القـوم ومن الدهر المهيمنين عليهم.

ثم أخذ حـافظ يقص قصة اليـابان على لسان رمـز ضمنه معنى الحريـة متمثلا فى المرأة الجندركية البـاسلة، ثم في مشاركتها للرجل فى تحمل الاخطـار والنهوض بما تطلبه

واجبات حضارة العصر ودواعي التقدم المنشود. ولا يخفى أن الدب الذي هو رمز الاستعمار الروسي بالنسبة لأهل اليابان والمشرق الأقصى، هو أيضا رمز للاستعمار البريطانى الجاثم على مصر، اذ اليابانية هي كالكناية عما في ضمير مصر الناهضة المشرئبة إلى تجديد مجدها القديم

ليتهــــا تسمع مني قصـــــة ... ذات شجــو وحــديثـا عجبــا
كنت أهــوى فى زمـــانى غــادة ... وهــب اللـــه لها مـــا وهبــا
ذات وجــــه مــــزج الحسن بــــه ... صفــرة تنسي اليهــود الــذهبــا

هل أراد حافظ هنا الإشارة إلى الآية: « إنه يقول إنها بقرة صفرآء فاقع لونها تسر الناظرين »؟ لماذا خص اليهود هنا بأن صفرة هذه الفتاة تنسيهم الذهب.... هنا بلا ريب مبالغة ذات لون من مفاكهة شعبية إذ لا ينسى اليهود صفرة الذهب مهما يبلغ جمال صفرة الحسناء اليابانية من البهجة. ههنا أسلوب صحفى، وكأن شعور حافظ بصحفيته هو الذى دعا من بعد قوله:

حملت لى ذات يـــــوم نبأ ... لا رعــاك اللـــه يـــاذاك النبــا

وإنما تحمل الأنباء الصحف. وفى القافية قلق. ولعلها كانت تكون أقوم لو قد قال: لا رعاك الله يا ذاك نبا من دون الألف واللام وتخفيف الهمزة فيه ما فيه، إذ الألفات اللاتى سبقن كلهن ألفات إطلاق إلا أبى ونبا ورنتها مع ما تلاهما منسجمة.

وأتــت تخطـــــــــر والليـــل فتـى ... وهـــلال الأفق في الأفــق حبــــا
ثـم قـــالت لى بثغـــر بـــاسم ... نظـم الــــدر بــــه والحببــــا

هذا البيت على بساطته وكثرة تداول الشعراء مثل لفظه ومعناه، سلس الموقع ههنا. قوله نظم الدربه، يعود الضمير فيه إلى معنى الابتسام، فالدر الثنايا والأنياب اللاتى لهن وميض والحبب هو اللمى، إذ الشفتان خمر. والبيتان اختزلهما حافظ من مغامرات عمر وأضرابه من شعراء الغزل اختزال إشارة حسنة الموقع.

نبئـــونى بـــرحيل عـــاجل ... لا أرى لى بعــــــده منقلبــــــا
ودعـــانى وطنـى أن أغتـــدى ... علنى أقضـى لـــه مـــا وجبــــا
نـــذبح الــدب ونفـــرى جلـــده ... أيظـن الـــــدب ألا يغلبــــــا
قلت والآلام تفــــرى مهجتى ... ويك مـــا تصنع في الحرب الظبــا
مـــا عهـدنـــاهــا لظبى مسرحــا ... يبتغى ملهى بــــه أو ملعبـــــا

ليست الحرب نفوسا تشترى بالتمنى وعقولا تستبى
أحسبت القد من عدتها أم ظننت اللحظ فيها كالشبا
فسلينى إننى مارستها وركبت الهول فيها مركبا
وتقحمت الردى فى غارة أسدل النقع عليها هيدبا
قطبت ما بين عينيها لنا فرأيت الموت فيها قطبا
جال عزرائيل فى أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبى
فدعيها للذى يعرفها والزمى ياظبية البان الخبا

أعلنت فتاة حافظ بينها إعلانا مفاجئا هي نفسها له . لم تسبقه بأمرها كما سبقت أم عمرو الشنفرى . وما كانت فتاة حى ظعينة يعلق بها القلب ثم ما هو الا أن تروع المحب حولة أهلها وهي تسف الحب ، وركائبها قد زمت بليل . إنها فتاة عصرية يابانية ضربها مثلا يستحث به مصر وأمتها التى تنشد العز والتحرر . وقد أحسن حافظ إذ جعل اليابانية التى تذبح الدب الروسي رمزا لما يأمله من نهضة أمته المصرية العربية المسلمة لتذبح الاستعمار البريطانى وتغوله الصليبى ، ذلك بأن اليابان بدأت نهضتها في وقت مقارب لبداية محمد علي إلا أن محمد علي بدأ بالحربية والأسطول في بلد عيون أعدائه عليه متفتحة أشد التفتح بالمراقبة والحذر، والكراهية الدينية العميقة الجذور. فانتهزوا أول فرصة فوثبوا على الأسطول المصرى فأغرقوه . وعلى تقدم الجيش المصرى فصدوه . ثم دخلوا مصر بتأريخ " استعمارهم " المعروف . وقد كان محمد علي بجهله وغروره مطية من مطاياهم تذرعوا به الى التوغل في افريقية وإدخال التبشير من وراء ظهر الاسلام ليطعنوه به . وكان أمر الله قدرا مقدورا .

هذا وقد تصرف حافظ في نهج القصيدة . شاعر قصيدته يشكو إخفاقه ونبو سيفه وعقوق الدهر له والخذلان الذى حاق به في مكان نسيب الشعراء . ويأتى بنسيب رمزي فتاته يابانية فارسة مقاتلة هى التى تعلن العزم على رحيل جد، لا رحلة ظعينة على هودج ، ولكن رحلة عزم كالتى زعمها طرفة لنفسه ولناقته حيث قال :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى
وجاشت اليه النفس يوما وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد

وقد اصطنع حافظ حوارا خطابي الصيغة ، لا يقصد به إلى تمثيل ما يقع من حوار غرامي ، ولكن جعله مذهبا من مذاهب التحضيض والموعظة الحسنة . وقد تلاحظ جانب المبالغة الشعبية الصحفية الفكاهية الروح شيئا في قوله :

قلت والآلام تفرى مهجتى ويك ما تصنع في الحرب الظبا

النفس ههنا مصرى قاهرى خالص. ثم أتبعة حافظ عبارة ذات لون من تفخيم «ما عهدناها لظبي مسرحا» ـ ثم فرغ من هذا المعنى نوعا كأنه تعريض بها عليه حال النساء المحجبات النواعم

أحسبت القـــد من عـــدتها أم ظننت اللحظ فيهـا كـالشبـا

فسليني إنني مارستها. . .

والأبيات التى تلى، على أنها مذهب خطاب، لا أكاد أشك أن حافظا انتزعها من ذكرى تجربة حـرب خـاضهـا حقـا. أو شهـدهـا تخاض. أو كأن قـد فعل لقـرب عهـد بخوضها. وذلك أنـه كان في جيش كتشنر الذى حارب الخليفـة رحمه الله. وقد وصف قتالهم بخيلهم وحرابهم الـواصفون، إذ هم تحصدهم نيران المكسيم، ويقـدمون، رجاء الشهادة في «شأن الله» وفى «سبيل الله». ومما يدل على صدق المشاهدة ذكره النقع وهو غبار "كـررى". ووصف حافظ قـريب فى جوهره والصـورة الخاطفة التى صـورها من وصف المستر تشرشل فى كتـابه The River War ومما ينبىء بخوف حافـظ قوله: «جال عزرائيل في انحائها»وما كان مشيـه الهيدبى، إذ الهيدبى من مشى الإبل، وانما كان يشد شدا. وأحسب أن حافظا قصد إلى التجنيس حيث جاء بـ«هيدبا» من قبل. وقد يكون استشعـر فى لفظ الهيدبـى نوعـا من التهـويل. ثم رجع إلى التعـريض بحال الحجـاب والتنعم مرة أخـرى: «والزمي يـاظبية البـان الخبا» وفي هـذا من روح الفكاهـة المصرية بعض الأنفاس. وكذلك في قوله من بعد:

فـأجـــابتنى بصــــوت راعنـى وأرتنـى الظبى ليثـــا أغلبـــا

وقد التـزم شوقى فى مبالغتـه "جنس النحلة إذ جعلها لبـؤة. وحول حافظ نـوع الظبية وجنسهـا معا فجعلهـا أسـدا ذكرا. وفي كلتـا الحالتين مـذهب الشاعـرين قـريب من قريب، إذ مـا عدوا التصرف فى تشبيه البسـالة المعروف. ومثل هـذا التصرف من طبيعة الأسلوب الخطابي أو الكتابي المبسط الصحفي المنحى إذ اللبؤة والأسد الأغلب ليسا هنا تصويرا ولكن عبارة لفظية بحتة، كما لو قال شجـاعة مع صفة تقويها نحو جد شجاع وحق شجاع وجد شجاعة وحق شجاعة وهلم جرا.

فـأجـــابتنى بصــــوت راعنـى وأرتنـى الظبـي ليثـــا أغلبـــا
إن قـــومى استعـــذبـوا ورد الــردى كيف تـــدعـــونـى ألا أشربـــا
أنـــا يـــابـــانيـــة لا أنثنـى عـن مـــرادى أو أذوق العطبـــا

قوله راعني فيه تشبيه لصوتها بزئير الأسد الذى شبهها به. ثم رجع بها فى ساحة الحرب ظبية مرة أخرى. وفي كل ذلك من أربه التنبيه على دور النساء الذى ينبغى أن يقمن به في نضال العصر الحضاري الجديد. ولا يخفى أنه بذكره تضميد الجرحى وحصره عمل مشاركة المرأة الحربية في هذا الباب، يرمى إلى ماكان يعتقده هو وكثير من مثقفى عصره من ضرورة التوسط في أمر تحرير المرأة والاعتدال الذي فيه إبقاء على كثير من محافظة الحجاب والحشمة التي معه

أنا إن لم أحسن الرمى ولم   تستطع كفاى تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم   وأواسى في الوغى من نكبا

وهذا منهج التمريض الحضاري الجديد الذى تنسب أوائله إلى «فلورنس نايتنجيل» - وهو أقدم من ذلك بدهور.

هكذا الميكاد قد علمنا   أن نرى الأوطان أما وأبا

«الميكاد» هنا رمز للمستبد العادل. أو الطاغية المصلح، كما زعم مطران ولا يخفى التناقض. أو رمسيس:

ملك يكفيك منه أنه   أنهض الشرق فهز المغربا

وإنما أراد الغرب، إذ المغرب لا يعرف علما إلا على بلاد المغرب الاسلامية ولكنها القافية. ولا أحسبه واجدا غيرها.

وإذا مارسته ألفيته   حولا في كل أمر قلبا

مثل سادة بني أمية - معاوية وعبدالملك والوليد

كان والتاج صغيرين معا   وجلال الملك في مهد الصبا

المعنى هنا غير واضح واللفظ قريب وكأنه ضمن قوله هذا آخذا من الآية «ويكلم الناس في المهد وكهلا» - «وءاتيناه الحكم صبيا» ولشوقي ولع بالمسيح أفاده من تعلقه

بالثقافة العصرية ومثل المسيحية الحضارية وكأن رشاشا من أمواج شوقي أصاب حافظا فمسح من طريق تعبيره ههنا.

فغدا هذا سماء للعلا وغدا ذلك فيها كوكبا

ونظم البيت محذو على قول الخليل بن أحمد المشهور يذكر عيسى بن عمر، وكتابيه الإكمال والجامع

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

وطريقة المحاكاة في هذا ـ وذلك، مع ذكر السماء والكوكب كما ترى.

بعث الأمة من مرقدها ودعاها للعلى أن تدأبا

وما كانت أمة الميكاد راقدة. فهذا مثل ضربه حافظ وعودة منه إلى ماذكره أولا حيث قال: «لا تلم كفى إذا السيف نبا» وحيث قال: «أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا إلخ «وحيث قال«أمة قد فت في ساعدها» ـ فالأمة هنا هي أمة حافظ، وما تقدم من ذكر الميكاد إنما هو مثل واستثارة ورمز:

فسمت للمجد تبغى شأوه وقضت من كل شىء مأربا

من الصناعة والتجارة وذبح الدب جميعا.

ولحافظ كلمات فيهن مثل هذا التصرف بمنهج القصيدة وإشرابه معاني العصر مع وحدة الموضوع والأسلوب الذى يخاطب جمهور المثقفين ـ اقرأ مثلا حريق ميت غمر

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

ورعاية الأطفال:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا بل فتاة بالعراء حيالى

ومدرسة البنات ببور سعيد وهي في موضوع تعليم المرأة:

حافظ وشوقى كلاهما قد أخذا من القصيدة وزنها وقافيتها وتصرفا فى وجوه من أساليبها وحرصا على سلامـة الديباجة ورصانتها مـا استطاعا . وتشوب ديباجة شـوقي خشونة صناعـة وعمل وكـدرهما وتشوب ديباجـة حافظ شعبيـة تقارب أن تنحـرف إلى بعض الابتذال . كلاهما بعـد قصيدته مقالة فى التبـويب و الترتيب والمذهب البياني الصحفى المعدن . إلا أن أسلوب شوقى صحفى كتابي . وأسلوب حافظ صحفى خطابي . شوقي مكب على طرس يكتـب لمن سيكب على طرس . وحافـظ ينشد ويلقى أمام جمهـور ثم تطالع الصحافة من الغد قراءه من سمعـه منهم ومن لم يسمعه . وقد ينشد شعر شوقى من ينوب فيه عنه، ولكن سنخه ما ذكرنا .

هذا وشـوقي وحافظ بعـد يشتبهان في عنصر من عناصر التجـديد، ذكـرنا من قبل أن السـوربونـى رحمه الله، كأنـه قـد فطن لـه فى معرض حـديثـه عن شاعـريـة اسماعيل صبرى، وهو ما اصطلح له النقاد لفظ Lyrique ـ أى الغناء أو الشعـر الغنائي . وقد بينا من قبل رأينا أننا لانعد القصيدة العربية من الشعر الغنائي بما أغنى عن إعادة ذلك ههنا، ولكن حافظا وشـوقيا أخذا بوحدة الموضوع، يـديران القصيدة حول قطب ومحور من فكرة . ثم يتقمصـان تلك الفكرة وذلك الموضوع تقمصا ذاتيـا ـ أعنى أنهما يتمثلان الفكـرة والموضـوع أن ذلك امتـداد من أنفسهما ثم يسبغـان على الفكـرة والموضـوع من تقمص أنفسهما لـذلك، أو بسبب صيرورة ذلك امتـدادا لأنفسهما، معنى إنسـانيـا شاملا، هذا المعنى الشـامل، وهو امتداد ذاتيتها الآن التي قد صارت إنسـانية شاملة، يتوخيان به أن يحاكيا ما تفعله هذه الانسانية الشاملة بقولها . هناعنصرالمحاكاة للطبيعة ـ تمثل شوقي مايريده لأمته من دقة ونظام وتدبير وأمانة وهكذا من الأخلاق التي ينبغي أن تتصف بها حتى لا تـذهب وحتى لايصير بنيـان قـومهـا خـرابـا ـ تمثلـه مملكـة النحل، وحاكي بلفظه ووصفه وتأمله حال النحل ويعسوبها الذى يريده حالا لقومه ـ إلى نحو من هذا الوجه ذهب مطران حيث قال :

أكبر بـرمسيس ميتـا لايلم بـه — مـوت وأكبر بـه حيـا إلى الآن
مـازال بـالقـوم حتى صـار بينهم — إلـه جنـد تحابيـه وكهـان
ورب سـائمـة بلهـاء هـائمـة — تشقـى وتهواه في سر وإعـلان
يسـومهـا كل خسف وهى صـابـرة — لاصبر عقـل ولكـن صبر إيمان
فبجلت تحت تـاج الملك مـدميهـا — وقبلت دمهـا في المرمـر القـاني

مخلــدا دون من قــامــوا بــرفعتــه | من شــوس حــرب وصنــاع وأعــوان
مخالســا ذمــة العليــاء مضطجعــا | من مهــد عصمتهــا في مضجع الــزاني

وقد نبهنا إلى قبح هذا البيت ـ وإلى نحو هذه ذهب اسماعيل صبرى حيث قال

لا القــوم قــومى ولا الأعــوان أعــوانى | اذا ونى يـــوم تحصيل العــــلا وانى
لاتتركــوا مستحيـــلا فى استحــالتــه | حتى يميـط لكم عن وجــه إمكـــان
مقــالــة قــد هــوت من عــرش قــائلهــا | على منــــاكب أبطـــال وشجعـــان
لــو غير فــرعــون ألقــاهــا على مــلأ | فى غير مصر لعـــدت حلـم يقظـــان
لكن فـــرعـــون إن نـــادى بها جبـــلا | لبت حجـــارتــه فى قبضـــة البـــانى
وآزرتـــــــــــــه جماهير تسيـــل بها | بطـــاح واد بماضى القـــوم مـــلآن
بــرا بــذى الأمــر لا خــوفــا ولا طمعــا | لكنهم خلقــــوا طـــلاب إتقـــان

وازن بين جميع هذا وقول حافظ :

هكــــذا الميكــــاد قـــــد علمنـــا | أن نـــرى الأوطـــان أمـــا وأبـــا
بعث الأمـــة مـــن مـــرقـــدهـــا | ودعـــاهـــا للعـــلا أن تـــدأبـــا
فسمــت للمجــــــــد تبغـى شـأوه | وقضـت مـن كل شـىء مـأربـــــا

وقول شوقي :

مالكة عاملة | مصلحـة معمـرة
المال في أتباعها | لاتستـــبين أثــره
لايعرفون بينهم | أصلا له من ثمره

يعنى أصل مال له قائم عليه يثمره .

لـــو عـــرفـــوه عـــرفـــوا | مـن البــــــــلاء أكثـــــــره
واتخذوا نقـــــــابـــــــــة | لأمـــــــــــــرهـم مسيرة
سبحـــــان من نــــزه عنــــــ | ـــــه ملكهـم وطهـــــــره

الهدف في جميع هذه الكلمات واحد . وحافظ وشوقى أجود جرسا وافتنانا وفضل شوقى

على حافظ لا يخفى، مع ما قدمناه من احتراس.
شاعر القصيدة العربية الأصيلة لا يحاكى الطبيعة ملحميا أو «دراميا» أو «ليريكيا» - إنه يقول مكافحة مواجهة مثلما كان يفعل انبياء بنى اسرائيل. هكذا وصفهم الناقد العربي القديم.
ونقول، استطرادا في الموضع، إن الناقد العربي القديم لم يكن بدائيا فطريا ساذجا، هذا قول يقوله من يقلد به دعاوى الافرنج فى التفوق المنطلقة كلها أو جلها من نقطة ارتكاز عرقية"Ethno - centric" كما يقول بعض علماء الاجتماع المعاصرين في اصطلاح اللغة الانجليزية. وقد يحسن أن ننبه إلى أن كتاب الله العزيز فيه من أمر النقد المتمكن الدقيق ما لو تنبه له أهل الفكر لكان لهم ناهيا عن اتهام قدمائنا بالفطرية والسذاجة في النقد ـ قال تعالى (سورة المدثر) «إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر» - هذا الناقد البدائى الفطرى الموصوف ههنا ينظر في قضية من أخطر قضايا النقد. هل هذا وحى صادق من عند الله أو هو قول افتراه ـ هذا الناقد الساذج الفطري الموصوف ههنا بأدق ما يوصف به ناقد متمرس، كان من ملأ قريش، شيخا من كبارهم، وما في الآية إشارة إلى فطرية فيه أو سذاجة، ولكن إلى جبرية ودهاء. وما كان ملأ قريش أهل سذاجة. وهم الذين فتحوا الفتوح وعلموا الناس العلوم وآيات التحدى والنقد التى تنبىء عن حال ما كان عليه القوم من معرفة البيان وتمحيصه كثيرات، وليس ههنا موضع الاستقصاء بله أخبار النقد التى رويت عن النابغة وطرفة وحسان وهلم جرا.
اعلم أيها القارىء الكريم أن حافظا وشوقيا (وقد يرى بعض الفضلاء ألا تنصب شوقى بفتحة ظاهرة وبتنوين ولكن تحكى إذ هذا علم وتكون كقولهم بادى بدا وأيدى سبا وكأن السوربوني يقول بهذا لالتزامه حالة واحدة في اسم شوقي، وعندي أن هذا اسم عربي يخضع أو ينبغي أن يخضع لما تخضع له أسماء العرب وإنما تصح الحكاية في نحو شوكت ورفعت وعصمت ومدحت لأن هذه حكاية لوقف عاصم ونافع وبعض القراء في تاء التأنيث التي رسمت في المصحف مفتوحة وهو مذهب للعرب حكاه سيبويه عن أبى الخطاب) - رجع الحديث إلى ان شوقيا وحافظا ما كانا تقليديين محافظين على عمود القصيدة، ولكنهما أدخلا فيه تجديد شكل وطريقة أسلوب هي هذه " الليريكية " ، مع ما أخذا به من أسلوب المقالة ووحدة الفكرة والموضوع مما كانت تدور حوله أحاديث أهل الفكر واصطراع آرائهم ومذاهب التماسهم سبل النهضة والحضارة الجديدة والتحرر من المستعمر. . . ومن المحافظة التي عليها المسلمون إلى ذلك الحين، مما جرى عند طلاب التقدم مجرى التخلف والتأخر والرجعية.

كان حافظ وشوقي وجيلهما في مصر وغيرها من بلاد العرب، والمتأثرون بهم اولئك جميعا رواد نهضة. وكان شوقي أكثر تجديدا وأعظم افتنانا من حافظ بما نظم من المسرحيات والأقاصيص والسير. وكل هذا فارق به أسلوب القصيدة واستحدث به وجها جديدا من مسالك الوزن والقافية غير أن أول مفارقته الخطير الشأن كان هذا المذهب المقالي القصيدي الغنائي - وقد سبق في أوائله مذهبا، ولكنه هو وحافظ خاصة قد جعلاه طريقا مهيعا. ولم يخل حافظ من نظم مسرحي في كلمته.

ليـــــلاي مـــــا أنـــــا حـي   يـــــرجي ولا أنـــــا ميت

ولا من نظم قصصي في عمريته:

حسب القــوافي وحسبي حين ألقيهـا   أني إلى ســاحــة الفــاروق أهــديها

وقد جارى بها وزن بعض مشهورات المدائح النبوية. غير أنه بجعله الفاروق قصد مدحته، إنما ضرب بذلك مثلا من أمثال روح عصره، التي كان المديح النبوي في أنظار مثقفيها من طابع المحافظة وحالها وكأن ذكر عمر بن الخطاب بمنزلة الرمز لما يرغبون فيه من تجديد مجد الاسلام وفتوحه - فكان عمر في نظر رواد النهضة الاسلامية العصرية التي تمخضت من بعد عن حركة الاخوان المسلمين مثلا، علم البطولة الذي يحركون به القلوب.

هذا وكما كان رأى شوقي وحافظ وجيلهما الاعتدال في قضية تحرير المرأة - قال حافظ:

أنــا لا أقـول دعـوا النسـاء سـوافـرا   وسط الــرجــال يسرن في الاســواق

في دورهـن شئـــــــونهن كثيرة   كشئــــون رب السيـف والمخــــراق

وقال شوقي:

يــاطير لــولا أن يقــولــوا جن قلـت تعقل
انـت ابن رأي للطبيعـــة فيـك غير مبـــدل
ابــدا مــروع بــالإســار مهــدد بــالمقتل
إن طـرت عن كنفي وقعت على النســور الجهل

كذلك كان رأيهما في قضية تجديد الشعر وتحريره من قيوده القديمة أن يكون ذلك فيه اعتدال. وقد كان شوقي كثير الاتباع لشعراء الغرب. حاكى لافونتين وراسين وشكسبير في الأقاصيص والمسرحيات، لا بل في بعض القصائد - مثلا: «ألا أحبذ صحبة المكتب» فهي على جودتها محذوة على كلمة شكسبير All the world is a stage (كل الدنيا كخشبة المسرح) «وقد عرضنا لأشياء من هذا المعنى في غير هذا الكتاب بتفصيل نحيل القارىء الكريم إليه إن شاء الله».

كان شوقي يعلم من أمر حركات التجـديد والتحرر من الأوزان التي كانت بأوربا وربما كان يتحدث بها أدباء زمانه في مجالسهم. والمنظر الذي في مسرحية مجنون ليلى يتخلى فيه الأموى (شيطان الشعر) عن قيس فينظم هذا كلامـا مسجوعا مضطربا غير موزون فيه وحي برأي شـوقي في قضية وزن الشعـر وقيوده وأن التطرف في طلـب التحرر من ذلك غير حسن.

هذا والذي صنعـه حافظ وشوقي من التجديـد ـ على ما اعتدلا به فيـه ـ كأن قد أدخل على عنصر دولة القصيدة الأصيلة كما أقامها البـارودي، جندا دخيلا كان على يديه من بدء انهيار هيبتها المؤذن بالضعف ثم الهلاك والـدمار ـ كما جاء المعتصم بغلمانه وجنده الترك فقتلوا ابنه المتـوكل من بعد وقوضوا أركـان الخلافة، فما لبث بها الضعف من حال إلى حال، حتى أزالها كل الزوال، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإليه المصير.

كان بعد حافظ وشوقي وعلى زمانهما شعراء ــ ولكن ماء ولا كصدءاء (كصدعاع يافتي هكذا قال أبـو العباس) ومرعى ولا كالسعدان. وآثر أهل البراعـة النثر. كإيثار الجاحظ وجيله القادرين على الشعر له، حتى صاروا بأغراض رسائلهم إلى مشابه من أغراضه.

وبرز من بين أهل البراعة طـه والرافعي والعقاد [1] كل تبريز. أما طـه فقد خلص بنفسه خلوصا إلى تجويـد المحاضرة والمقالة والقصـة والكتاب. وقد رزق السلامـة مع الصفاء ونقاء اللغة وسحر إيقاع البيان. كان رحمه الله في هذا نسيج وحده. ولعل أدنى الأدباء ـ كان من بعده من مثل طريقته في النقاء الدكتور "زكي مبارك" رحمه الله.

ثم قد كان للزيات إيقاع مهذب وازدواج ذو عذوبة ونغم ورنين. وكان الرافعي والعقاد شاعرين ناثرين، واحسب أن الـرافعي تخلى عن نظم الشعر باخرة، غير أن في المقالات التي كان يـوافي بها الرسـالة ثم صـدرت معا في كتـاب واحد باسم "وحـي القلم" ما عسى أن يدل على أنه استمـر ينظم الشعر من حين إلى حين، ومن أعجب كلماته إلى في وحي القلـم «بنته الصغيرة» وقد ضمنها قطعة بالدارجة ذات طعم حلو:

يـــــــاليـل يـــــــاليـل يـــــــاليـل
مــــــــــا تنجلي يـــــــــــاليــل
القلـــب أهـــــــــــــــــو راضــى
مـن الهمـــــــــــوم فـــــــــاضـى

---

(١) توفى الرافعي سنة ١٩٣٧ م والعقاد سنة ١٩٦٤ م وطه حسين ١٩٧٣ م رحمهم الله تعالى.

وللرافعي رسائل من النثر عمد فيها إلى اغراض الشعر وروحه، على نحو ينظر بسلامة أسلوبه وقوة أسره إلى مقامات الزمخشري ورسائل قدماء البلغاء، وبأنفاس وجدانه إلى «الرومنسية» التي منها أشياء في نظرات المنفلوطي وعبراته، ولكن سائرها من نفس الرافعي ووجدانه وتصوفه. وربما خلط بين الشعر والنثر على طريقة المقامة الحريرية أو البديعية ــ خذ هذه القطعة مثلا من «زجاجة العطر» في أوراق الورد (الطبعة السابعة ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م ص ٤٢): «وأهدى إليها مرة زجاجة من العطر الثمين وكتب

معها: يا زجاجة العطر، اذهبي إليها، وتعطرى بمس يديها وكوني رسالة قلبي لديها. وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك، فمتى لمستك فضعي قبلتى على بنانها، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنو نظرتها وحنانها، وألمسيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها. وهأنذا أصافحك، فمتى أخذتك في يدها فكونى لمسة الأشواق. وهأنذا أضمك إلى قلبى، فمتى فتحتك فانثرى عليها في معاني العطر لمسات العناق. إنها الحبيبة يا زجاجة العطر. وما أنت كسواك من كل زجاجة ملئت سائلا، ولا هي كسواها من كل امرأة ملئت حسنا، وكما افتنت الصناعة في إبداعك واستخراجك، افتنت الحياة في جمالها وفتنتها حتى لأحسب أسرار الحياة في غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون، وفيها وحدها تعمل بفن وظرف. وأنت سبيكة عطر كل موضع منك يأرج ويتوهج وهي سبيكة جمال كل موضع فيها يستبى ويتصبى.....» هنا عناء وكد أحلى منه عندى انسياب طه وإسماح طبعه. ولكن حظه من الإحساس والتأمل وجودة التعبير وصحته عظيم. وللرافعى شعر هو فيه أسمح طبعا، ولكنه على جودته لا يضعه في مكان من التبريز كما يضعه نثره ـ مثلا قوله في أوراق الورد[(٥٨)]

وكم حار عشاق ولا مثل حيرتى	إذا شئت يوما أن أسوء حبيبي
وهل لى قلب غير قلبي يسوءه	ويأخذ لى في الكبرياء نصيبى
ألا ليت لى قلبين قلب يحبه	مريض وقلب بعد ذاك طبيبى
ويا ليت لى نفسين من رئم روضة	ألوف ومن ذى لبدتين غضوب
وكيف بقلب واحد أحمل الهوى	عجيبا على طبعى وغير عجيب
فو الله إن الحب خير محاسنى	ووالله إن الحب شر عيوبى

رنة الشعر وأسره كل ذلك جيد عربي. غير أن هذه المعاني مما قتله كثير وجميل

وأصحابهما قتلا ــ فأحسب أن الرافعي قد فطن إلى هذا فالتمس سبيل النشر. وقد كان للرافعي بأسلوبه الجاد المرهف الإحساس الشاعري الروح، على كده فيه ونصبه، أثر كبير على عدد كبير من الأدباء ــ من بين هؤلاء مثلا الشاعر «الرومنسي» برومانسية شعراء العرب محمود حسن اسماعيل. هذا، وقد كان العقاد رحمه الله شاعرا ناثرا، وفي نثره وشعره كليهما خشونة، كما فيهما جد وصدق وأثر قراءة ونصب. وقد عرف العقاد بهجومه على شوقى في الديوان في باب التجديد الشعرى أكثر مما عرف بشعره نفسه. ومن تأمل شعره لم يجده فيه غير سائر على نفس الطريق الذي ساره شوقى وحافظ. وكان يلح على قضايا الفكر بأشد من إلحاحهما فيما يورده. وليس بمخطىء من يضعه في مقدمة شعراء الرومنسية العربية خطئا كبيرا. ولكنه أشبه به ما ذكرنا. ومن معاني الرومنسية في شعره أن حديثه عن الحب تخالطه مثالية من تقديس فهم منه خاص للجمال، شديد القرب من معاني صوفية الطبيعة وقدسيتها، وخلود امتلاء الذات بتأثيرها. غير أن أمثال هذه المعاني قديمة في الشعر، واطلاع العقاد الواسع، ولا سيما في آداب اللغة الانجليزية مما جعل طوع تعبيره كثيرا مما يرد في كلام شعرائهم من رومنسيين وميتافيزيقيين وشكسبير ومعاصريه إلى زمان براوننغ وييتس ووليم هاردي وغيرهم. وكانت له في بلادنا مدرسة من الأدباء شديدة التعلق بشعره مدمنة القراءة له. ونبئت أن الشيخ الطيب السراج رحمه الله (توفى سنة ١٩٦٣م) كان إذا ذكروا له العقاد قال:

عقادهم هو كاسمه عقاد ... لا عبقري لا ولا نقاد

وممن تأثر به من شعراء بلادنا يوسف مصطفى التنى رحمه الله وأثره ظاهر في ديوانه الصدى الأول، ومما علق بالذهن من أبياته:

اعبسي لي ففى العبوس ابتسام ... لجمال منوع القسمات

وكان يغلب على الظن أنه تأثر فيه بالعقاد، ولكنى أحسبه أخذه من كلمة للرافعى رحمه الله في أوراق الورد يقول فيها (ص٤٦):ـ

يا واصلاً بالمعاني ... وهاجرى فى الكلام
مخاصمى في نهارى ... مصالحى فى منامي

مـن ألعبـــــوس كـــــلام معنـــــاه معنى ابتســـام
ولـن يغير جسم الـــــــــوداد ثـــوب الخصـــام

وكان صديقاى الأستاذ عبدالرحيم الأمين (توفى ١٩٦٨م) والدكتور أحمد الطيب (توفي ١٩٦٢م) وكانا واسعى الاطلاع في العربية والانجليـزية، يقدمان العقاد في غير إفراط ويذكـران له قصائد ربما تقدم بها عنـدهما على شوقى، منها رائيته في ديـوانه الأول التي عنـوانها " الدنيـا الميتة " ومـا أشك أنـه حذاهـا على رائية الإمـام البرعى التي من رويها وبحرهـا ثم ألبس مواضع ضروبا من الـزي الافرنجي كما قد جارى بـلا ريب رائية أبي نواس " أجـارة بيتينا أبوك غيور" ورائيـة إبن دراج ـ إلا أن نفس البرعية في رائيـة العقاد هذه أظهر وأخذه منها عن معاصريه أخفى لمعـرفة أكثر الأدباء الأفندية بأبي نواس وابن دراج وجهلهم البرعي، وما كان مكانه ليخفي على العقـاد لعلمه ولأسوانيته معا. هذا وقد قدم لها في الديوان بكلمة متعمقة، مما جـاء فيها قوله: «وقد ترى الرجلين يجلسان في حجرة واحدة أحدهما يـود لو يبخع نفسه لقبح الدنيا في عينيه، والثـاني يود لو يعمر أبد الأبيد ليشتف جمالها وبهجتها، فهل يقال في هـذين إن عالمهما واحد؟ فمن هنا ساغ لنا أن نقول إن العالم تموت نسخة منـه كلما مات إنسان. . . . » ثم تجيء القصيدة وهي ستـة وأربعون بيتـا نوردهـا هنا كـاملـة، وقد مضى الاستشهـاد بأبيات منهـا في الجزء الأول، ولعل ما قلناه هناك من تعليق ألا نحتاج إلى مزيد عليه ههنا:

أحبك حـب الشمس فهـي مضيئـــة وأنـت مضـيء بـــــــالجمال منير
أحبك حب الـزهـر فـالـزهـر نـاضر وأنـت كما شـــاء الشبـــاب نضير

هنا كما ترى تعلق الرومنسية بالطبيعـة. والحب لا يحتاج صاحبه أن يعلله ويبرهن على صحتـه. وما مـن محبوب يـرضيـه أن يحب كحب الشمس. نعم يـرضيـه أن يقول لـه العاشق بلسان المقال أو الحال أنت شمس حيـاتى أما أن يقول له أحبك لأنك مضيء كما تضيء الشمس، فلعل آخـر أن يكـون هـو أيضـا مضيئـا كما تضيء الشمس. واحسب أن العقاد إنما أتى من محاكاة كلمة شكسبير:

Shall Icompare theè to a summer's day?
Thou art more lovely and more temperate:
Rough winds do shake the darling buds of may.

إلى آخر ما قاله فيها وهي الثامنة عشرة من قطعه التي يقال لها sonnets (أغنيات) وقد احترس شكسبير حيث ذكر الشمس والزهـر ولم يحترس العقاد. وقد صدر شكسبير فى

كلامه عن حب هو الذي جعله يشبه محبوبه بيوم شامس وزهر نضير غير أن اليوم الشامس ليس له كاعتداله والزهر قد تطيح به وتصوحه الرياح، والعقاد زعم أنه يحبه كحبه للشمس، فنزل بمقدار حبه كما ترى، وكأن قد أحس ذلك فاستدرك بقوله:

أحبك حبى للحياة فإنها ... شعور وكم بالقرب منك شعور

أى أشعر فلذلك أنا موجود. فأنت تعلمنى أنى حي - هل هذا من كلام الصوفية:

أدنيتنى منك حتى ... حسبت أنك أنى

أو محض تعمق. ولعل بديع الذى قال:

أحبك يا ظلوم وأنت عندى ... مكان الروح من جسد الجبان

ولو أنى أقول مكان روحى ... لخفت عليك بادرة الطعان

أن يكون إلى كثير من القلوب أدنى مأخذا وأقرب مأتى. ثم يقول العقاد:

فهل فى ابتغائى الشمس والزهر سبة ... وهل في ولوعي بالحياة نكير

وهل في الهوى معنى سوى أن مقلتى ... تراك وأن الحسن فيك طرير

هذا بعض الهوى - واستحسان المشتهى قد لا يكون أكثر أو أقل من هذا،

وأنك تسبى الناظرين وأننى ... بإحباب سابي الناظرين جدير

إحباب مصدر أحب الرباعي أغرب به العقاد ليصاحب به صيغة المحب بضم الميم وفتح الحاء التي يقال إنه انفرد بها أخو بني عبس.

ألا لا تدعنا نلحظ الحسن أو أجز ... لنا الحب فاللحظ اليسير يجور

وما من سبيل أن تراه عيوننا ... وتغمض عنه أنفس وصدور

صار الحب مقالة وقضية وجدلا كما ترى

فأما وإعشاء النواظر مطلب ... عسير وقد يهوى الجهال ضرير

ولو قال وقد يهوى هواي ضرير لكان أصدق. وقد قال بشار، «قد وصفت لنا بحسن» فنسب معرفة الحسن المرئي إلى غيره

فدع ما يقول الناس واعلم بأننا ... على غير ما سار الأنام نسير

لنـــا عـــالم طلق وللنـــاس عـــالم رهين بـأغـــلال الظنـــون أسير
ووا أسفـــا مـــا أنت إلا نظيرهـم وان لم يكـن للحسن فيـك نظير
وحـــاكيتهم ظنـــا فليتك مثلهم محيـــا فـــلا يـأسى عليك ضمير

العقاد هنا أرفق بحبيبه من جميل إذ قال

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

ولكن جميلا كان أشد صبابة

فيا عجبا منا نسائل أنفسا إذا سئلت حارت وليس تحير

بضم التـاء وعنى: تحير جـوابا وهـو ليس بجيـد، ولكن جـوابـا في قول النحـاة معمـول فضلة وحـذف الفضلـة جـائز. ومضارع حـارت تحار، وعن ابن جنى أن أبـا الطيب سمع أعـرابيا أخطأ فقال تحير فـأصلحه آخر من أصحـابه ونعت ابن جنـى أبا الطيب، إذ ذكر هذا الخبر، بـأنه صدق وكان صدوقـا. وعلى ذكر أبي الطيب فما أشك أن أصل تشبيـه شكسبير فتاتـه أو غـلامه (على أحـد القـولين) بـالشمس من قولـه:

صحـبتني على الفـلاة فتاة عادة الـــلون عندها التبديل
مثلها أنت لوّحدتنى وأضنيـ ـت وزادت أبها كما العطبول

ثم يجيء هذا التبرم بالجهال وما يصحبه من ضن كل جميل وصده وتيهه:

أنشقى بدنيانا لأن منعما من الناس بسام الثغير غرير

كلمة الثغير جيدة معبرة.

أيـذوي الصبـــا فينـــا لأنك نـــاشيء ربيـع الصبـــا في وجنتيـــه غضير
أتعشى مـــآقينـــا لأنـك أحـــور بعينيـــه من ومض الملاحـــة نـــور

هـذا البيت مصنوع مـرهق. المآقى لا تعشى. ومن زعم أن ذلـك قد يسـوغ من أجل مجاورة المآقى للعيون، فلن يسوغ بعده «من ومض الملاحة نور» ـ ذلك بأن العينين نور. وفي أناشيد المديح النبوي:

مرحبا يا نور عيني . . . مرحبا
مرحبا جد الحسين . . . مرحبا

وتعب الشاعر منشأه من أنه أراد أن يجعل الملاحة ببريق ابتسامتها في العين نورا، فجعل ذلك هو النور الذي في العينين، ولو قال ذلك في عين عمياء بها بقية من ملاحة بائسة لربما جاز.

ألا نتملى الحســـن والحســـن جمة مطـــالعـــه إلا وأنـت سمير

فيـــا ضيعــة الـــدنيـــا إذا لم يكن بها　　غنى عنـك للمحـــزون حين يثـــور
ويـــا ضيعـــة النفس التي لا يجيرهـــا　　من البـث والشكـــوى ســـواك مجير

لا يخفى أن الشاعـر هاهنـا تقمص شيئا من روح «الحسناء بـلا رحمة» ـ منظـومة كيتس التي ترجمناها، ونبهنا القارىء الكريم إلى ما فيها من معاني الرومنسية التي تعطو بيدهـا إلى ما لا ينال، والحسنـاء التي تمتص دم المحبين، وتعطيهم الحلم الذي يسلب منهم من بعد كل منام.

إذا الشمس غابت لا نبالي غيابها　　وإن غبت آض العيش وهو كدور

ناقض الشاعر نفسه في كلمة واحدة، وهذا مما لم يجزه قدامة. وقد يعتذر له عاذره بأن هذا إضراب أضرب به عما تقدم ـ أي أحبك حب الشمس كلا، بل لا نبالي غياب الشمس، وتأمل ضمير الجمع للمتكلم ههنا. ويقوى هذا الوجه قوله من بعد:

وليتك مثل الشمس ما فيك مطمع　　فيهدأ قلب بالضلال نفور

نفـور هاهنـا شـديـدة القلق. كيف يكون القلب نفـورا بسبب الضـلال أو مع الضلال وهل النفور هو المقابل للهدوء؟

قـــربـت ولم يخطىء عطـــاش تلهفـــوا　　على جـــدول في السمع منـــه خـــريـــر
وسرت على الأرض التي أنـــــا ســـــائر　　عليهـــــا ولم تضرب عليك ستـــــور
ولـــو لم نـــول القلب شطـــرك لامنـــا　　على الجهل كـــون بـــالجمال فخـــور

هنا أنفـاس «رومنسية» الخالع على مظـاهر الطبيعـة عنصرا من الحيويـة يستحق التقديس لذاته. وهذه الأبيات الثلاثة لعلها غرة القصيدة:

لديك مقاليد السرور وديعة　　وما لمحب في سواك سرور

يعني ما لمحب لك غنى عنك بسواك وسرور به، ولفظه مقصر عن معناه

فإن تأذن الدنيا أباحت شوارها　　وغنت عصافير وفاح عبير

فسر الشوار في الهامش [ديوان العقاد، المجلـد الأول، لبنان ص٢٠١] ـ «شوار العروس جهازها». والشوار المتاع، قال عبدة بن الطبيب:

ومزجيات بأكوار محملة　　شوارهن خلال القوم محمول

قال الشارح وأصل الشوار متاع البيت. ولا يزال هكذا معناه في بعض الدارجة. وقد يستعمل استعمالا مجازيـا وفي خبر الزبـاء: «أشوار عروس تـرى» قالتـه لجذيمة لما

أرادت الغدر به وكـانت مضفورة الإسب أي شعر العانة. فقول العقـاد ههنا «أباحت شوارها» ليس بجيد.

وإلا فما في الأرض حـظ لنـــاظـــر ولا النجم في عليـــا السماء يـــدور
فيـــا خـــازن الأرواح مـــا لقلـــوبنـــا خـــواء وأفـــراح الحيـــاة كثير
ومـــا لـك ضنــانـــا بها لـــو بـــذلتـــه لما ضـــاع منـــه بـــالعطـــاء نقير

هــذا من كلام الميتـافزيقيين ــ وقـد يذكـر القـارىء الكريم قـول إمام العـارفين عبدالرحيم البرعي رحمه الله:

أحيبـــاب قلبـي هل ســواكـم لمهجتي طبيـب بـــداء العـــاشقين خبير
فجـــودوا بـــوصل فـــالـزمـــان مفـــرق وأكثـــر عمـــر العـــاشقين قصير
وإني لمستغـن عن الكـــون دونكـم وأمـــا إليكم ســـادتي ففقير

فلا مبالاة العقاد بغياب الشمس من هاهنا ـ ثم يقول العقاد:
تضن بشيء لست تعلم قدره ـ
أي الجهال إذ نحن لا أنت، يا جميلا وهو جاهل
ـ ونعلم ما نسخو به ونعير

نعير ضعيفة كما ترى.
نجود بحبات القلوب وبالنهى . . . .
ولا أعلم كيف يجاد بالنهى إلا أن يكون تهتك
. . . . وليس لنا في النائلين شكور

وما الشيء مزهودا وإن جل قدره لدى الناس كالمطلوب وهو يسير
وجليل القدر لا يزهد فيه. وأتي العقاد من جهـة طلب الجدل بالمبالغة وفرض ما لا يكون

عذيري وهل للناقمين عذير وأين لمخذول الفؤاد نصير
هل جاء بمخذول الفؤاد من قول حافظ «أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا إلخ»؟
لقد ماتت الدنيا وقدما رأيتها عروسا حفافيها عرائس حور
هنا شيء من اللغة الانجليزية وظلال من الحسناء بلا رحمة
نعم ماتت الدنيا بنفسي ومن يعش وقد ماتت الدنيا فأين يصير؟
يعني الموت المجازي ـ أما موتها الحقيقي فهو قيام الساعة وذلك شامل

وأحنو على الدنيا ويا ربما حنت على الميت الثاوي بهن قبور

ليست ضمة القبر حنوا ــ وهنا شيء من ظلال «الحسناء بلا رحمة» وفرسانها الشاحبين فاغرة أفواههم بالنذير الرهيب.

بكائي عليها يوم أن كان أفقها يضيء وكانت بالأنيس تمور

لا ريب أن الحسناء بلا رحمة هي الدنيا

وكان يتيه اللب كيف بناؤها فأمست يتيه اللب كيف تبور

«تبور» قافية قلقة إذ لاتقابل «تبور» قوله «بناؤها»

فما كان أسناها مدارة أنجم ومنبت ريحان يكاد ينير

وأخصب مرعى اللهو في جنباتها وما من جنى إلا منى وغرور

فهذا كما ترى فيه مشابه من قول جون كيتس وقد مر نصه، ما تقريب تعريبه مما تقدم ذكره أيضا:

ووجدت لي من عروق شهيـ ـات وحلوات وقالت كل

والعسل البري جاءت به والمن يغشاه ندى السلسل

ثمت قالت بلسان غريب إنني أهواك ياويح لي

ثمت صارت بي إلى كهفها المسحور. . .

وهو القبر بلا شك:ـ

نعم ماتت الدنيا بنفسي فهل لها بعطفك من بعد الممات نشور

فأحي بإحيائي فديتك عالما عييت بحمليه فأنت قدير

ولا تسألني كيف أحييك هازلا فأنت بإحياء النفوس خبير

ففي كل نفس عالم يرهب الردى ومن كل حسن حين يعطف صور

أي الصور الذي ينفح فيه إسرافيل فتقبض كل الأرواح ــ أليس هذا برهانا على صحة ما نقول به من أثر.

La Belle Dame Sans Merci

لك الحسن فامنعه ولكن من يغل. .

أي يغتال، فتأمل. . . . .

. . . . . . ولكن من يغل من الناس دنياهم فذاك مغير

مغير هذه مترجمة من كلمة افرنجية تدل على العدوان وما أشبه نحو: trespasser ـ والصواب فذاك متعد أو عاد أو عدو، وما كل غارة بعيب يعاب ولا سيما ذو الحسن إن يقل له إنه يشن على قلوب الناس غارة شعواء فذلك داخل في باب المدح، ولا يخفى أن العقاد يريد بمغير هنا ضربا من خروج عن القانون.

فقد ترى أن الجند الغريب الذي كان عند شوقي وحافظ طريقة أداء ومحاكاة أساليب قد تسرب عند العقاد إلى نفس متن اللغة ـ ولعله أن يعتذر معتذر للعقاد أن هذا نظم ثورة شبابه وأنه أقبل من بعد على تجويد المتن وحرص على نقاء العربية ـ وعسى بعض ذلك.

كانت بداية النهضة والتجديد البعيدة التأثير بمصر. ولا يدفع قولنا هذا ما كان من بوادر السبق في لبنان وغيرها. ولقد كان أحمد فارس الشدياق معاصرا للبارودي. وعاصر الرصافي والكاظمي والزهاوي شوقيا وحافظا والعقاد. ولئن كانت في الرصافي من حافظ مشابه، كذلك كانت في الزهاوي مشابه من العقاد ـ المقالة والليركية ونوع من كذ التفكير، موسوعي عند العقاد، ذو معرية عند الزهاوي، من غير سلامة الأسر التي للمعرى، وكبعض الخشونة التي عند العقاد، وقد يضطرب به وزن العروض أحيانا.

وإنما وقفنا عند العقاد من أجل الديوان وما زعم وزعموا له من التجديد بناء وهدما ـ أما الهدم فالهجوم على شوقي وكان عند الناس أمير الشعراء. وأما البناء فديوان العقاد، وديوان شكري وقد حاول الشعر المرسل ونظمه وسط وقد سبقت منا الإشارة إلى عمله في هذا المضمار. والمازني علم أنه ليس بشاعر حقا، والعاقل من عرف قدر نفسه.

ثم جاءت أبولو على آثار الديوان، وكل الرومنسية والرومنسيين ويذكر أن أبا شادي أهدى أبولو إلى أمير الشعراء شوقي، ولو قد كان البارودي في مكان شوقي هو المهدي إليه، لكان الأمر إذن كما قال أبو تمام:

وسرت أسوق عير اللؤم حتى أنخت الكفر في دار الجهاد

على أن اعتدال شوقي وأصحابه قد كان أقرب إلى معنى دار الجهاد، كما كان المعتصم وجنده الدخيل في باب الخلافة والدولة وتدبير السلطان. وتطرف أبي شادي وأصحابه أقرب إلى إناخة الكفر وسوق عيره، كما كان شأن قتلة المتوكل وسملة عيون الخلفاء وزعزعة هيبتهم من بعده.

وكانت الرومنسية ـ ونؤثر الآن استعمال هذا اللفظ على الترمنس الذي إنما جئنا به

لتوضيح رأي في موضع دعا إلى ذلك - من أربعة أضرب، نذكرها موجزين إن شاء الله فيما يلي:

الضرب الأول:

«رومنسية» الدفاع عن القديم. وهذه يمثلها الرافعي ولها انعكاسات في الضرب الرابع وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله. وقوامها أنها تعتقد أن معاني التصوف وقدسية الجمال وحرارة الوجدان ورؤاه، كل ذلك لا نحتاج إلى أن نستعيره من أوربا. هو أصيل في حضارتنا وفي تصوفنا.

وكأن لونا من رفض التفرنج، ونزوعا إلى إعادة المجد القديم كامن في هذا الموقف. هو موقف قبول تحد، وتحد ودفاع. وهو في جوانب كثيرة منه صادق روح التعبير عن غضبة المجتمعات العربية على عدوان الاستعمار، وغضبة المجتمعات الإسلامية على ما عرا أمة محمد صلى الله عليه وسلم من ضعف واستكانة وخمول.

وإنما ندخل هذا الضرب في عداد الرومنسية لنخرجه منها. وفيه من معادن أصالة البارودي، حب اللغة العربية، وتذوق رونق جزالتها وأسرها وصحة وجوه التعبير بها، ثم يفارقها في نوع خفي ملابس له من معاني عدم الثقة، يلتمس أن يعتذر لدى من لا يقبل له عذرا وأن يجد مكانا لدى من يعلم أنه ليس له بدار. وليس ذلك بضائره حقا. إذ قد أصاب قدرا صالحا من مستوى الجودة والإبداع. إلا أن فيه فرط إغراب وعمل.

الضرب الثاني:

الرومنسية المسيحية العربية

وهذه التي يمثلها جبران وميخائيل نعيمة والمهجريون من بعد - وقوامها أمران: شعور قوي بالانتماء إلى دنيا الحضارة العصرية التي إنما هي حضارة مسيحية في غرب أوروبا وشرقها بين رومها وروسها وصقالبها وبلغارها وفرنجتها وفروع ذلك اللاتينية والسكسونية من وراء البحر الكبير - هذا الشعور بالانتماء المسيحي المتحضر القوي معه شعور بواقع الانتماء المر إلى دولة السلطان، وهي في مرحلة الغرغرة، والقومية التركية الناشئة إلى العرب بغيضة، وسلطان الإسلام إلى القلب المسيحي أبغض.

وشعور قوي بالانتماء إلى العرب والقومية العربية الناشئة، التي تبدو أنها هي أقرب بحكم وحدة اللغة ووحدة الجوار وطول المعايشة والنفور من تعزز قومية الترك الجديدة وتعاليها وجبرية سلطانها والرغبة في التحرر والتقدم العصري، الذي إنما يجاء به بالأخذ من أوروبا ومحاكاتها وأنهم بحكم الصلة المشتركة بينهم وبين مسلمي العرب

وبينهم وبين مسيحية أوروبا، سيكونون في ذلك الوساطة الكبرى والوسيلة الأولى.

ومن هذين الشعورين تولد شعور قوي بالتماس مثل أعلى مشترك، يستمد من القومية العربية، ومن سماحة الدين الحنيف، ومن روحانية دين عيسى ورقة قلوب رهبانيته.

ولقد كان من المسلمين كما كان من المسيحيين دعاة لهذا اللقاء المتسامح المعتدل ويكفيك شاهدا ما تجده كثيرا عند شوقي ـ مثلا ـ من لين القول ورقته عند ما يعرض لأمر المسيحية والمسيح عليه السلام. وأحسب احدى طبعات الديوان الأول (دار الكتب، ١٩٤٥) وقع فيها خطأ في بيت الهمزية التي في أوله:

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء

إذ فيه موسى مكان عيسى وقد مر خبره عليه السلام، فلينظر.

وقد خيل أن من مثل الانتماء المتبادل، الحرية المنشودة، ومعاني الانسانية العليا في الحب والجمال، واستشعار نزعة إلحادية لا تنكر قداسة الدين ولكن تنفر من التعصب والقيود.

مد الأيدي إلى المجهول، التماس ملأ الروح بين الأزهار والأشجار ووحدة الوجود في شهود أسرار الطبيعة على النحو الذى عند وليم ورد زورث وشيلي وكيتس والرومانسيين الإنجليز أول الأمر، وعند أبي العلاء المعري الذي يقول:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

ويقول: اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

ويقول: إن الشرائع ألقت بيننا إحنا وأورثتنا أفانين العداوات.

من هذا المنطلق أو نحوه، بدأ جبران. وتلاه ميخائيل نعيمة. وتبع من بعد المهجريون. وصحب أدب الرومنسية المسيحية العربية جند دخيل جديد كثيف ـ ضعف في أساليب اللغة إذ لم يكن لجبران والمهجريين من علم العربية ما كان لليازجي، وما كان للعلماء اليسوعيين، إنما كان أكثرهم أولى ثقافة كسائر ما كانت عليه ثقافة الأفندية، ومنهم من كان حظه من اللغات الافرنجية والعربية معا ضئيلا، ومنهم من كان ذا حظ من الثقافة الافرنجية، وخلوا من العربية أو ضعيفا. ولم يكن لأكثر هؤلاء رادع من مثل بلاغة العرب الأعلى وهو القرآن ثم ديباجة الشعر الرصين والنثر الرصين، فجسروا من استخدام جند التعبير الدخيل الهجين على شيء كثير.

جبران نفسه كـان يحترم بلاغـة البيـان العـربي الأصيل . ولكن حظه منـه كـان ضئيلا . فكان يجتهد ويتعثر . ميخائيل نعيمـة كان ذا حظ غير ضئيل من معرفة البيان العربي . ولكنه كان منطويا على ثورة نفس هدامة ، ـ " والرومنسية " الأروبية كانت فيها عناصر هدامة ، من شواهـدها مثلا قصيدة كلردج (1) Christabel وحسناء كيتس بلا رحمة ، وريح شيلي الغربية التي يقول لها : «كونى روحا لى يأيتها الروح الشرسة " :

... Be thou, spirit fierce,

My spirit ......

ومنظومة دون جوان لبيرون فيها شر كثير مختبىء تحت براثن ثورة قلب وأنيابها : (مثلا)

I would to heaven that I were so much clay,

As I am blood, bone, marrow, passion, feeling-

Because at least the past were pass'd away-

And for the future- (but I write this reeling,

Having got drunk exceedingly today,

So that I seem to stand upon the ceiling)

I say - the future is a serious matter-

And so for God's sake - hock and soda water

وددت بحق السماء أن لوكنت طينا بقدر

ما أنا دم وعظم ونقي وعاطفة وشعور،

لأنه على الأقل يكون الماضى قد مضى وتولى ،

أما المستقبل ـ (ولكنى الآن إذ أكتب أترنح

إذ قد أسرفت في الشراب اليوم

حتى يخيل لى أننى في السقف واقف)

أقول ، إن المستقبل أمر خطير

لذلك ، بالله ، هات كأسا من الصهباء والصودا

هذا وأكثر شعـراء المهجر تعلقا بسلاسـة الأسلوب إيليا أبو مـاضى ، وأقربهم إلى المثل الأعلى الذي كـانت ترمى إليه طـلاب الانتماء المتبادل ، واللقاء المتسـامح المعتدل تحت رفـرفة أجنحـة الـدين والإلحاد العلائي المهـذب والتصـوف المتعلق بـالطبيعة والحريـة المنشودة في ظلال عزة الوطن العربي :

(١) من شخصيات الشعر الرومنسى الغربية ، امرأة بين مساحقة وقتول .

وطن النجـــوم أنـــــا هنــــا   حـــدق أتــــذكـــر مـن أنــــا
ألمحت فى الماضـى البعيــــــــــ   ـــــد فتى ، غــــريــــرا أرعنــــا
جـــذلان يمـــرح في حقـــو   لك كـــالنسيم مـــدنـــدنـــا
المقتنى المملـــــوك ملــــــــ   ــــعبه وغير المقتنـى
يتسلـق الأشجـــــــــــار لا   ضجــــــــرا يحس ولاونـى
ويعـــود بـــالأغصـــان يبـــــ   ـــريها سيـــوفـــا أو قنــــا
ويخوض في وحـل الشتـــــــا   متهلـــــــــلا متيمنـــــــا
لا يتقـى شر العيــــــــو   ن ولا يخاف الألسنـــــــــا
ولكـم تشطين كـى يقـــــو   ل النـــاس عنــــه تشيطنــا

أول هذه الكلمة مذكر بورد زورث ــ ولكن أولها فقط ، وسائر الوصف من تجربة وتذكر وصفات صوادق

أنـــا ذلك الـــولـــد الـــذي   دنيـــاه كـــانـت ههنـــا
أنـــا مـن ميـــاهـك قطـــرة   فـــاضت جـــداول مـن سنــا
أنـــــا مـن تــــرابـك ذرة   مـــاجـت مـــواكـب من عنـى

لا يخفى ما ههنا من شعور القـومية ، وقد مزجه الشاعر بذكـرى الطفولة الوردزورثى ثم خلص من ذلك إلى التغنى بحسن الطبيعة :

حمل الطـــلاقـــة والبشـــا   شـــة من ربـــوعك للـــدني

أى أمريكا والعالم الذي تظن به الحضارة

كـم عـــانقت روحـى ربـــا   ك وصفقــــت في المنحنـــى
والأرز يهزأ بـــالــــريـــا   ح وبـــالـــدهـــور وبـــالفنـا

ولنعم الأرز لو أبقت عليه الأيـدي السواطى ـ إذ ما أحسب الـذى بقى منه الآن بجبال لبنان إلا قليلا

للبحـــــر ينشره بنــــو   ك حضـــارة وتمدنـــــا

لعله يشير هنا إلى حضارة بنى كنعان القـدماء في صيدا وصور ومن وراء البحر فى أرض تونس والأندلس على عهد حنيبعل العظيم .

لليـل فيـــه مصليـــا   للصبح فيــه مـــؤذنــا
للشمـــس تبطـــىء في ودا   ع ذراك كيـــلا تحزنــا

لم يتضح المعنى ههنا ــ كأنها عنى أن حمرة الشفق فيها معنى من حزن، وما أستبعد أن يكون يشير إلى قول أبي العلاء، وكان إلى «الرومنسية» حبيبا، على بعده كل البعد عن كل جوانبها إلا الوجدان بعد الوجدان وذلك أمر عن الشعر مما لا ينفصم:

وعلى الدهر من دماء الشهيديـ ـن علي ونجله شاهدان
فهما في أوائل الليل فجرا ن وفي أخرياته شفقان

أى تبطىء لكيلا تذكرنا بالمأساة التى ذكرها أبو العلاء

للبدر في نسيان يكـ ـحل بالضياء الأعينا

ذكر الضياء هنا مناسب وحسن، إذ الليل في العيون سواد يغم ضياءها، فالبدر يجلوه ـ فهذا أجود من قول العقاد «بعينيه من ومض الملاحة نور» من حيث حاق تدبير البيان.

فيذوب في حدق المها سحرا لطيفا لينا

قوله «لينا» جيد، ينم عن إحساس مرهف، إذ لا يخفى أن في حدق الملاح لينا ـ وإنما يفطن الفاطن للينه مع السفور الدائم لا حينا بعد حين، إذ ذلك ربما غلب فيه الزهو ـ [وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا] أو المرح [وتصدفت حتى استبتك ـ الحادرة]

للحقل يرتجل الروا ئع زنبقا أو سوسنا

كذلك يرتجل هنا جيدة لما فيه من تحويل الخطابة التى تنسب عادة من الشعراء إلى الطير في باب المجاز، إلى النبات هنا، وما يفاجىء به من النواوير والأزاهير مع تتابع أسابيع الدفء بعد برد الشتاء، خصوصا في بلد يكون كلبنان، يمتد ربيعه من عند سيف البحر الى حيث يدنو من قمم الثلوج ـ ولله در البوصيري إذ يقول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

فرحت به البرية القصوى ومن فيها وفاضلت الوعور سهولا
وزهت وضاهت حسن لبنان الذى لولا كرامة أحمد ما نيلا

فقد ترى أنه أوشك أن يفضل حسن لبنان على حسن جميع البلاد، وهو بعد المحب للنيل القائل فيه من نفس الكلمة :ـ

إني لأورد ذكـــــــره لتعطشي فإخـــال أني قـــد وردت النيـــلا
والنيل يـــذكـــرني كـــريم بنـــانـــه فأطيـل من شـــوقي لـــه التقبيـــلا

وقال أبو الطيب :

بيني وبين أبي على مثلـــــــــــه شـم الجبـــال ومثلهـن رجـــاء
وجبـــال لبنـــان وكيف بقطعهـــا وهـــو الشتـــاء وصيفهـن شتـــاء

فقد جعل رؤوس الجبال عليهن الثلوج تبدو كأنها عدد من أمثال أبي علي هيبة وأمثال رجائه هو الضخم في صور بشرية مشرفات، تخفق عليهن عمائم بيض من ثلج الشتاء ـ ونرجع إلى نونية أبي ماضي

للعشب أثقلـــه النـــدى للغصـن أثقلـــه الجنى

هذا من بوانية أبي الطيب :

عـــــــــاش الجهال مشردا في الأرض ينشــــد مسكنـــا
حتى انكشفـت لـــه فـأل ـــقى رحلـــه وتـــوطنـــا
واستعـــرض الفـن الجبـــا ل فكنـت أنـت الأحسنـــا

والخطاب لجبل لبنان كما سيفصح به بعد

للــــــه سر فيك يـــا لبنـــــان لم يعلـن لنـــا
خلـق النجـــوم وخـــاف أن تغـــوى العقـــول وتفتنـــا
فـأعـــــــار أرزك مجده وجـــلالـــه كي نـــؤمنـــا

الفكرة بعيدة المتصيد

زعمـــوا سلـــوتك ليتهـم نسبـــوا إلى الممكنـــا
فـــالمرء قـــد ينسى المسى ء المفترى والمحسنـــا

جيء بالمفترى ليتم بها الوزن، إذ المراد كل مسيء لا المسيء المفترى وحده، اي الذي إساءته أنه افترى وقد لايكون أساء في غير ذلك.

والخمـــر والحسنـــاء والـــ ـــوتر المرنـح والغنـــا
ومـــرارة الفقـــر المذ ل بلى ولــــذات الغنـى

لكنّــــــــه مهما ســـــــــلا هيهـــــات يسلـــــو الموطنـــــا

والمعنى هنـا خطابي قومـي، شبيه بما كان يصنعـه حافـظ، وفي القصيدة بعد مـواضع إحســان لا تخفى وعندى أن هــذه النونيــة أنطق بشاعـرية إيليـا أبي ماضي من كلمتـه الرائجة«الطلاسم».

جئــت لا أعلـــم مـــن أيـــن ولكنـــي أتيـــت
ولقـــد أبصرت قـــدامـى طـــريقـــا فمشيـت
وسـأبقى مـــاشيـــا ان شئـت هـــذا أم أبيـت
كيـف جئـت، كيـف أبصرت طـــــــــريقـي:-
لست أدرى

أجـــديـــد أم قـــديم أنـــا في هـــذا الـــوجـــود
هـل أنـــا حـــر طليـق أم أسير في قيـــود
هـل أنـــا قـــائد نفسي في حيـــاتي أم مقـــود
أتمنـــــى أننـــــي أدري ولكـــــن...
لست أدرى

وهكـذا وهلم جـرا... نغم لين فيـه عـذوبـة الترنم ووضـوح الـوزن وحسن اختيـار للكلمات ـ ولكن جملـة البيان لا تصل بالقلب حقـا إلى كبير شيء. محاولة نزعة معـرية الإلحاد خياميته[نسبة إلى رباعيات الخيام التي ترجمها فتزجرالد فأحدث ذلك لها شهرة] ـ ثم المعـاني فقاقيع، ممـا هودائر في باب طلب التعمق الفلسفي وليـس بعميق. ـ مع هذا إيليا أبو مـاضى من كبار شعراء عصر التجديد وقد حـاول بجهد صادق أن ينفي عن دولة الشعر التجديدي كثيرا مما احتشد فيها من الجند الدخيل الرهيب.

الضرب الثالث:

«رومنسية» الأفندي

أصل معنى كلمـة الأفندي فيما بلغنا السيـد، وكانت تطلـق على السلطان وعلى خـديوي مصر فيقـال أفنديـنا ويقال لجيش الخديـوي«عسكر أفنـدينا»، ثم صـارت الكلمـة لقبا للسيـد الجديد من المثقفين الـذين تسنموا كبـار الوظـائف، وانعكس في بهائهم بهاء«أفنــدينـا» بهاء«الميري» (أي السلطــان وكأنها الأميري بتخفيف الهمــزة) وجاهه.

كـان لواء القيـادة الفكريـة بيد المشـايخ والفقهـاء . ثم انتقل من هؤلاء إلى كبـار الأفنـديـة ، علي مبارك ، اسمعيـل صبري ، أحمد شوقي ، وهلم جـرا ــ وجـاء التعليم النظامي الخالي من أسـاس القرآن وعلوم الـدين والنحو القديمات . القـرآن واللغة الآن جزء من بـرنامج المدرسة مع اللغات الافـرنجية والحساب والجغرافيـة . وحظ هؤلاء من الاهتمام بهن أكبر إذ تمهيدهن للوظائف ذات الجاه أشد وأوكد . وهكذا أخذت المدارس النظاميـة تخرج أجيالا من الأفنـدية لايلبسـون زي الشيوخ الذي كـان يتزيـا به العلماء ولكن السترة والبنطلـون والكرفتـة ـ الـزي الافرنجي المظهـر، لايميزه في كثير من بـلاد المسلمين عن زي الافرنج إلا الطـربوش على الرأس . وقـد ترك هذا من بعـد ، في أكثر البلاد .

كان حظ الأفندي الجديد من علم العربيـة أول الأمر لا بأس به ، إذ كان لدروس تطبيق النحو والإنشاء فيـه مكان . ولكن التنافس على الوظائف من بعـد وزيادة عدد المتسابقين عليها جـرت إلى ما قدمنا ذكـره من تدهور العنايـة بالعربية ومـوادها وعلوم الدين ودرس القرآن .

وتصدى الأفندية المثقفون بثقافة الافـرنج من أجل الوظائف لحمل ألوية القيادة الفكريـة التي صارت إليهم من جيل أوائل النهضة . وعلى رأسهـا الأدب والشعر إن لم يكن أهم ابوابه فإن أهميته ما زالت بالغة .

وقد كان للعلماء العارفين باللغة نحوها وصرفها ميراث من سلطانهم القديم . إلا أنه الآن قـد زعزعه أمـران ـ حملة أوائل دعـاة التجديـد المتطرفين على شوقي وأصحـابه الذين انتزعوا لواء دولة الشعـر من المشايخ ، ثم ما جعل يغلب من جهل دقائق اللغة ، جهـلا جعل يـزين لكثير من جيـل الأفنـديـة الجديـد التنكـر لقـديمهـا والثـورة على قواعـدها . جيل الأفنـدية الجديـد ، ولا سيما طبقته التي تغلغلت فيما ظنتـه في صميم حضـارة أوروبا من طـريق المهن الكبرى كالطب والهنـدسة والقـانون والتخصصـات العـاليـة المستـوى في الإدارة والجيش والتـدريس العصري ، جعل يعـد نفسـه طليعـة التقدم ، والطرف اللاحق بأوروبا من هذا العالم الذي انتماؤه ، حق انتمائه ، إليه ، ولكنه متخلف يا للأسف .

ومن عند ههنا أجاز لنفسه من جسارة التعـدي على أساليب الفصاحة ما لم يكن يجيزه جيل من اقتدوا بشوقي وحافظ ـ أجـاز ذلك باسم الثورة على القديم ، والتجديد

الذي يرمى إلى استعمال اللغة العامية السهلة، لغة الصحافة، لغة تفاهم المثقفين ـ لغة ثورة الرومنسيين التي عبر عنها «ورد زورث» وعبر عنها «الديوان» حين ثار على جمود شوقي، وعبر عنها «ميخائيل نعيمة» في «الغربال»، وعبر عنها المهجر، ـ لغة القلب والوجدان.

أما أحمد زكي أبو شادي، صاحب أبولو، وقائد العير إلى دار الجهاد، فكان امرأ شديد الطموح، ضعيف الحظ من تذوق ديباجة الشعر العربي، ضعيف الإحساس برنة نغمات أوزانه القوية ما كان منها جزلا أو ذا رقة، ذا حظ من الأفكار «الرومنسية» كبير، ومن الأفكار التي قد تدور بها بعض خواطر مثقفي العلم الحديث، ولكنه كان ذا حظ قليل من حاق وجدان القلوب الذي يكون في الشعر. واعلم أن وجدان القلوب الذي يكون في الشعر ليس ضربة لازم هو وجدان القلوب الذي يكون عند الانفعال الذي نحسه ساعة الغضب أو الحزن أو الفرح الطارىء وما أشبه. وقد مر من أمثلة نظم أحمد زكي أبي شادي شيء ذكرناه في اوائل الجزء الأول وهو قوله:

أهـــلا أبـــو قـــردان	يـــا منقـــذ الفـــلاح
كـــلاكما قـــد هـــان	واستمـــرأ الأفـــراح

فنحيل القارىء الكريم إلى ما علقنا به عليه هناك.

وطبيب آخر، ضعيف الحظ من العربية، عظيم الحظ من وجدان القلوب الذي يكون في الشعر، لو تعهده بما يتعهد به الشاعر الحق فنه، لكان بلا ريب سيجيد ـ لو حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. رحم الله الدكتور ابراهيم ناجي[1] ورحم الدكتور طه حسين إذ قال فيه «إنه من هؤلاء الشعراء الذين يحسن ان تستمتع بها في شعرهم من الجمال كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون أن تشتط عليها بالتقليب والتعذيب. هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت، عذب النفس، خفيف الروح، قوي الجناح. شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقا الغرفة منه بهذه الموسيقا الكبرى التي تذهب بك كل مذهب وتقيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء.» ـ

ولا ريب أن الوردة التي كره طه رحمه الله تقليبها وتعذيبها قد قطفت ـ فهي ضعيفة «بالقوة» كل الضعف.

وهاك مثالا من تغنيه الذي هو موسيقا غرفة، ووردة ستذبل مع التقليب.

---

١ ـ ولد بمصر في ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ وتوفى ٢٣ مارس ١٩٥٣

يـــا غلـــة المتلهف الصـــادي ‏ ‏ يـــا آيتـي وقصيـــدتي الكبرى
مـــاذا تـــركت لـــدي من زاد ‏ ‏ إلا استعـــادة هـــذه الـــذكـــرى

***

يـــا للمســـاء العبقـــري ومـــا ‏ ‏ أبقـى على الأيـــام في خلـــدي
شفتـــاك شفـــا لـــوعـــة وظما ‏ ‏ وجمالك الجبـــار طـــوع يـــدي
نمشي وقـــد طـــال الطـــريق بنـــا ‏ ‏ ونـــود لـــو نمشي إلى الأبـــد
ونـــود لـــو خلت الحيـــاة لنـــا ‏ ‏ كطـــريقنـــا وغـــدت بـــلا أحـــد

***

نبني على أنقـــاض مـــاضينـــا ‏ ‏ قصرا من الأوهـــام عمـــلاقـــا
ونظـل ننسج مـن أمـــانينـــا ‏ ‏ وشيـــا مـن الأحـــلام بـــراقـــا
وأظـــل أسقيهـــــــا وتملأ لي ‏ ‏ من مـــورد خلـف الظنـــون خفي
حتـى إذا سكـــــرت مـن الأمـل ‏ ‏ وتـــرنحـت مـــالت على كتفـي

***

حلفـت بـأني مغتـــد معهـــا ‏ ‏ حيث اغتـــدت وهـــواي في دمهـــا
فمسحت بـــالقبـــلات أدمعهـــا ‏ ‏ وطبعـت ميثـــاقـي على فمهـــا

لولا ما نهى عنه الدكتور طه من التقليب والتعـذيب لوقفنا عند مسائل من الصياغة في هذه الأبيات ـ مثلا شفتاك شفا ـ وأحسب أن البيت الثاني قد كان :

زادي لقـــاؤك عـــز مـن زاد ‏ ‏ يحيـا الـورى ويعيش بـالـذكـرى

ثم راجعها الشاعر ولعل الوضع الأول كان أجود .
ولا بد بعـد من التنبيه على أخذ ناجي من حسنـاء كيتس من قوله وأظل أسقيها وقـوله مالت على كتفي إلى آخر هذ التسميط قال كيتس :

Iset her on my pacing steed
And nothing elso saw I all day long
For sidelong would she bend and sing
A fairy song8
She found me roots of relish sweet
And honey wild and manna-dew,
And sure in languuage she said
I love the true
She took me to her elfin grot
And there she wept and sigh'd full sore
And there I shut her wild wild eyes
With kisses four

(هـذا النص نقلنـاه من Palgrave's Golden Treasury وفيـه اختلاف أحـرف يسير عن النص الذي أوردناه قبل نقلا عن كتاب الشعر الرومنسي كما بيناه في موضعه).
وقد مرت الترجمة وهي (لتيسير الموازنة):ـ

حملتهـــا فـــوق جـــوادي بنـــا	يخطـــو ولا شيئـــا ســـواهـــا أرى
طـــوال يـــومـي حين مـــالت إلى	جنبي وتشـــدو اللحـن من عبقـــرا
ووجـــدت لي من عـــروق شهيــــ	ـــات وحلـــوات لـــدى المأكل
والعسـل البري جـــاءت بـــه	والمن يغشـــــاه نـــــدى السلسل
ثمت قـــالـت بلســـان غريــــ	ــب إنني أهـــواك يـــا ويح لي
ثمت صـــارت بي إلى كهفهـــا الـــ	ــمسحور صـــارت بي إلى كهفهـــا
وحـــدقت ثم ومقـــروحـــة الـــ	ــفؤاد بـــالآهـــة من جـــوفهـــا
عنـــــدئذ قبلتهـــــا أربعـــــا	أغلقن جفن الـــوحش من طـــرفهـــا

ولإبراهيم ناجي كلمة دون المسمطة التي مرت في سلامة الرصف ونغم القريض، وفيها معنى حسناء كيتس ومعان من فتاة أدولف (بنيامين كنستنس) وغادة الكامليا معا.
وهـا هي ذي، عنوانها الحيـاة مع كلمات بين قـوسين كالتقـديم (استعراض للحيـاة في شارع) [ديوان ابراهيم ناجي، دار العودة، بيروت، ص ٣٦].

جلست يـــومـــا حين حـل المســـاء	وقـــد مضى يـــومـي بـــلا مـــؤنس
أريح أقـــدامـــا وهت من عيـــاء	وأرقـــب العـــــــالم في مجلسي
أرقبـــه يـــا كـــد هـــذا الـــرقيب	في طيب الكـــون وفي بـــاطلـــه
ومـــا يبـــالي ذا الخضم العجيب	بنـــاظـــر يـــرقب في ســـاحلـــه

(أحسبه أخذ هذا من حيث لا يشعر من قول أخي تغلب:

مـــا ضر تغلب وائل أهجـــوتها	أم بلت حيث تنـــاطح البحـــران

وقال الآخر:

مـا يضر البحـر أضحـى مـزبـدا!	أن رمى فيـــه غـــلام بحجـــر)

والمعنى كثير. وأحسب القارىء لم يغب عنه بعض أسلوب ناجي هاهنا

سيـــــان مـــا أجهـل أو أعلم	من غـامض الليـل ولغـز النهـار

«أو» بمعنى الواو هنا ضرورة

سيستمــــــــر المسرح الأعظــم   روايـــة طــالت وأين الستـــار

هذا يشير به عمدا أو عن غير عمد إلى All the world is a stage أي كل الدنيا كخشبة المسرح أو خشبة مسرح

عبيت بـــالـــدنيـــا وأسرارهــــا   ومــا احتيــالي وصمــوت الــرمــال
أنشـــــد في رائع أنـــوارهـــــا   رشـــــدا فما أغنم إلا الضـــــلال

المعنى غير واضح. هل أراد أن الناس لا يهتمون بشعره.

أغمضـت عيني دونها خـــائفـــا   مبتغيـــــا لي رحمة في الظـــــلام
فصـــاح بي صـــائحهـــا هـــاتفـــا   كـأنما يـــــوقظني مـن منــــام
أنـت امـــرؤ تـــرزح تحت الضنـي   لم يبق منـــا الــدهــر إلا عنـــاد
وكـل مـــــا تبصره مـن سنـــــا   يهزأ بـــالجذوة خلف الـــرمـــاد
وكـل مـــــا تبصره مـن قـــــوى   تــدوي دوي الــريـح عنـد الهبــوب
يسخـــر مـن مبتئس قـــد ثـــوى   يــرنــو إلى الــدنيــا بعين الغــروب

هذا البيت وهو في الحقيقة آخر هذه المنظومة وبعده اثنتا عشرة رباعية، كلهن زيادة لا طـائل فيها، وكـاد يخرج بها ناجي عن مـوضـوعه، إذ أخـذ في مواعظ من القـول من الضرب الباهت المغسول وختم الكلمة بقوله:

يـــا رب غفـــرانـك إنـــا صغـــار   نـــدب في الـــدنيـــا دبيب الغــرور
نسحب في الارض ذيـــول الصغـــار   والشيـب تأديـب لنـــــا والقبـــــور

والخاتمة التي سبقت، لو قد اكتفى بها أجود

وفي الأبيات بعد أطيـاف «الحسناء بلا رحمة». وأطيافها في شعـر ناجي كثيرة، مثلا في كلمته التي أولها مشهور:

هـــذه الكعبـــة كنـــا طـــائفيهـــا   والمصلين صبـــاحـــا ومســـــاء
كم سجـدنـــا وعبـدنـــا الحسن فيهـــا   كيف بـــاللـــــه رجعنـــا غـــربـــاء

وفي الأبيات: «أغمضت عينى دونها إلخ »شيء من رؤيـة الفارس الأشباح ومن استيقاظه ومن بعـد «كثيبا يسير» وليرجع القارىء الكريم إلى مـاترجمناه عن نص كيتس أو إلى النص نفسه. وفارس الحسناء بلا رحمة جذوته بلا رماد، وعناد لا ريب فيه، إذ هو

يسير بسفح الجبل الكئيب بعد أن جف نبات الغدير والطير لا يلفى له من هدير - ورنو كل شيء في الدنيا بعين الغروب أسى على الكون الفاني - أليس ذلك هو عين الكآبة؟

واقرأ كلمته الخريف ــ ولكيتس كلمة مفعمة بتأمل الطبيعة وتلمظ طعمها بهذا العنوان:

(1) To Autumn

Season of mists and mellow fruit fulness,
Close bosom- friend of the maturing sun
Conspiring with him how to load and bless
With fruit the vines that round the thatch- eves run;
To bend with apples the moss'd cottage trees,
And fill all fruit with ripeness to the core,
To swell the gourd, and plump the hazel shells
with a sweet kemel; to set budding more,
And still more, later flowers for the bees,
Until they think warm days will never cease
For summer has o'er brimm'd their clammy cells.

- كلمة ناجى ليس فيها هذا التلمظ للطبيعة المؤذنة ازدهارة ألوانها بقرب الشتاء - فيها من صدى صور كيتس قوله:

رب كـــرم مـــده الليل لنـــا فتـــواثبنـــا لـــه نبغي اقتطـــافـــه
وعلى خيمتـــــه أســـــوده عـــربي الجود شرقي الضيـــافـــة

هذا الشطر أسرقه من على محمود طه أم سرقه على محمود طه منه [ليالي كليوبطرة]؟

وجـــد العـــرس على بهجتـــه وسنـــاه دون ورد فـأضـــافـــه
ثـم وارث يـــده جنيـــة وطـــوتـــه في أســـاطير الخرافـــة

وقوله

أرج يعبـق في انحـــــائه حملته نحـو عـرشينا الـريـاح

لعله في قول كيتس:

---

(١) انظر The Penguin Book of Romantic Verse- D.wright- (1982)-282-3

يقول كيتس ما معناه: يا فصل الضباب والينع والإثمار، - والخليل المقرب من الشمس المكتهلة، - تتواطأ معها على ان تثقل بالثمر والبركة، ــ دوالي الكرم التي تمتد على حافة سقف الثمام، ــ وأن تحنو بالتفاح أغصان أشجار البيت الصغير، - وكل ثمرة تملأها بالنضج الى الصميم، - وتنفخ الدباءة وتفعم قشر البندقة، ــ بلباب حلو وتشرع في إخراج مزيد، - بعد مزيد من الأزهار المتأخرة الموسم من أجل النحل، حتى يخيل إليهن أن أيام الدفء لن تنتهي، ــ لأن الصيف قد اترع خلاياهن الندية اتراعا.

Thy hair soft- lifted by the winnowing wind (1)

وفي بعض أبيات « الخريف » على خفة وزن، شيء من حلاوة روح ابراهيم ناجي وحرارة أنفاس وجدانه ـ سبب هذه الحرارة مواجهته لنا بخطاب العاطفة، فيشعر القارىء أن له صدقا و إقداما على القول والإفصاح به من غير تكلف تقية أو رياء :

أي سر فيك إني لست آدري ... كل ما فيك من الأسرار يغرى
خطر ينساب من مفتر ثغر ... فتنة تعصف من لفتة نحر
قدر ينسج من خصلة شعر ... زورق يسبح في موجة عطر
في عباب غامض التيار يجرى ... واصلا ما بين عينيك وعمري

* * * *

ذات ليل والدجى يغمرنا ... أترى تذكر إذ جزنا المدينة
كلما روعت من نار شج ... حر ما يصلى تلمست جبينه
بيد شفافة مثل الندى الرطـ ... ـب تعيد النار بردا وسكينة
أيها الآسى لناري هذه ... ما الذي تصنع بالنار الدفينة

من تأمل كثيرا من شعر نزار قباني وجده يستعين بمثل هذا من كلام الدكتور ناجي رحمه الله ويتوكأ عليه. خطابة ناجي عاطفية فيها من روح أسى انفطار "الأوبيرا" ـ هذا جانبها "الرومانسي"، أما نزار فقد انصرف من الخطابة بالذكرى الوجدانية، الى نوع من مماشاة الشباب ومغايظة حسانه بغزل مشاغب. ههنا أيضا "رومنسية". "رومنسية" تعمد الخروج عن المألوف. ولكنها "رومنسية" لا تخلو من رخص روح الشارع الذي تجتهد أن ترتفع به الى مستوى الفن. الحق أنه شارع الصحافة اليومية التي لا يراد لها أن تعيش الى الغد، ولكن قد تبقى عند من يحرص على ذلك في الأضابير:

يا شعرها على يدي ... شلال ضوء أسود
الله سنابلا ... سنابلا لم تحصد
لاتربطيه واجعلى ... على المساء مقعدى
من عمرنا على مخـ ... ذات الشذى لم ترقد
وحررته من شريـ ... ـط أصفر مغرد
واستغرقت أصابعى ... في ملعب حر ندى

الى آخرما قاله، وقد كتبت في الديوان أشطارا، وهي من مجزوء الرجز كما ترى.

---

(١) شعرك يرفعه برفق مر ذرو الرياح ـ الضمير يعود على الخريف وجعله الشاعر إنسانة

هـذا وعلى محمـود طـه كأنـه أسلم متن أسلــوب من ابـراهيم نـاجي غير أن أنفـاسـه أبرد. ذلك بأنه يبالغ في الرقة ويهندس عبـاراته بفرط صقل لها. وعلى أنه سمى ديوانا له بـالملاح التائه، نجـد حسنـاء كيتس التي أثـرت على ابـراهيم ناجـي، أثرت أيضـا على المهندس. وينبغي أن نتنبـه بعد الى أن كلا هذيـن الرومنسيين العربيين لا يريـد لنفسه موت الحب الأعوج الـذي عند La Belle Dame Sans Merci وعند Christabel الجنية المساحقة مصاصة الدم ـ يريد فقط موتا مجازيا[1]:

يـا حبيب الـروح يـا روح الأمـاني ... لست تـدري عطش الـروح اليكـا
وحنيني في أنين غير فــانـى ... للــردى أشربــه من مقلتيكــا
أيها الماضي الــذي أودعتــه ... حفــرة قــد خيم الموت بها (٢)
أيها الشعـــر الــذي كفنتــه ... مقسما لا قلت شعـــرا بعـــدهـا
أيها القلـب الــذي مــزقتــه ... صـارخـا عهـدك يـا قلب انتهى

فمن تأثيرها، هذه الجنية العاشقة القاتلة (ذكر أبو العلاء في غفرانه عشق المردة البنات وقتلهن بذلك، قريب السنخ من بعض ما يقرأونه في صحف الجرائم الآن، اقرأ مثلا في خبر جني المعري قوله دخلت مرة دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم إلخ ص٢٩٣ وقوله ص٢٩٤

وكنت آلـف من أتــراب قــرطبــة ... خـودا وبـالصين أخرى بنت يغبـورا
أزور تلـك وهــــذي غير مكترث ... في ليلــة قبل أن أستــوضح النــورا

وفي ألف ليلة وليلة منه كثير) ـ:

لا تفــزعى يــا أرض لا تفــرقى ... من شبـح تحت الـدجى عـابـــر
مـــا هــــو إلا آدمـى شقـى ... سمـــوه بين النـاس بـالشـاعـــر

هنا نبأة من أول حسناء كيتس:

O,what can ail thee knight-at-arms?

وكذلك في قوله:

حتى اذا ضـــاقـت عليـــه السبل ... وعـــز في الأرض عليـــه المقـــام
أوى الى كهـــف بسفـــح الجبـــل ... عســـاه يقضي ليلـــه في ســـلام
مـــا كـــان إلا حلما كـــاذبـــا ... أفـــاق منـــه مستطـــار الجنـــان
البحـــر يـــرغى تحتـــه صـــاخبـــا ... والشهب نـــار والـــدجى مـن دخـــان

---

(١) ديوان ناجي: (١٣) (٢) نفسه ٤٨٢

البحر والدجى من فكرة الملاح التائه التـي تستعين ملاح كلردج القديم العجوز. ولكن الكهف والجبل والإفاقـة كل ذلك من صورة الفارس الكئيب ـ هـذه الأبيات من كلمة علي محمود طه "الله والشاعر[1]" [وما بينه الله عز وجل في الشـاعر وللشاعر كما يعلم القـارىء الكـريم هـو قـولـه تعـالى: والشعـراء يتبعهم الغـاوون. آيـات آخـر سـورة الشعراء، فالذي صنع المهندس رحمه الله جهد رومنسي أو مترمنس ضائع]:ـ

أمـا تـرى منفـرجـات الشفـاه عن آخـر الصيحـات من رعبهـا
مـا زال فيهـا مـن معـاني الحيـاه إيماءة الشكـوى إلى ربها

تشكو من La Belle Dame بلا رحمة، بلا ريب.

ملاح علي محمود طه، طورا هو أحد هؤلاء الكادحين بقواربهم ومجاذيفهم على نهر النيل لطلاب النزهة، وطورا هو الشاعر نفسه، نسى أنه استأجر قاربا وصار من بعد هو الملاح والقارب معا، وابتعد النيل، وصار بحر النيـل بحرا آخر ـ البحر الملح الكبير هو بحر بلا تعريف واضح، بعيد الشاطىء ـ أو السـاحل ـ يتيه فيه الملاح: ـ تأمل قوله[2]:

أيها الملاح قم واطـو الشراعـا لم نطـوى لجة الليـل سراعـا

ولا أحسب أنه يوجد في الدنيا ملاح عاقل يطوي الشراع حين تكون الريح طائعة رهوا رخـاء ويأخذ بـالمجذاف ـ ولكـن "الرومنسية" ممـا تكون أبعـد شيء عن حكمة العقل:

جـدف الآن بنـا في هينـة وجهـة الشـاطىء سيرا واتبـاعـا

وإنما الهينة واللينة مع الشراع

فغـدا يـا صـاحبي تأخـذنـا مـوجة الأيـام قـذفـا واندفـاعـا
عبثـا تقفـو خطـا الماضي الـذي خلت أن البحـر واراه ابتـلاعـا
لم يكـن غير أويقـات هـوى وقفت عن دورة الـدهـر انقطـاعـا
فتمهـل تسعـد الـروح بما وهمت أو تطـرب النفس سماعـا

هل صار الملاح هنا هو الحبيبة ـ ثم يقول، ولا يخرج في ذلك عن وصف نزهة واستمتاع ـ وربما ـ عن لقاء حبيب:

---

(١) ديوانه الملاح التائه ـ طبع دار العودة ببروت ص ٨٧ إلى ص ١١٤
(٢) نفسه ـ ٣٤ ـ ٣٧

أيها الأحيـــاء غنـــوا واطـــربـــوا وانهبـوا من غفـلات الـدهـر سـاعـا
آه مــــا أروعهــــا مــن ليلــــة فـاض في أرجـائهـا السحـر وشـاعـا
نفـخ الحب بها مــن روحــــــه ورمي عـن سرهــا الخافي القنـــاعــا
وجـــلا من صـــور الحسن لنـــا عبقـــريــا لبق الفن صنــاعـــا

ثم إذا بمعنى آخر يجيء ـ الهاجر والهجران والملاح التائه :

أيها الهاجـــــــر عــــــز الملتقى وأذبت القلـب صـدا وامتنـــاعـــا
أدرك التــــائه في بحــــر الهوى قبـل أن يقتلـــه الموج صراعـــــا

البحر هنـا مجازي لفظي وبحـر كلردج أيضا مجازي إلا أنـه ليس منحصر المجـازية في اللفظ

وارع في الـدنيـا طـريـدا شـاردا عنه ضـاقت رقعة الأرض اتسـاعا

فقـد صـار البحـر أرضـا، وقد يعتـذر معتـذر عن هـذا بأن البحـر في كـوكب اسمـه الأرض، والشاعر مهنـدس علمي عقله ـ يذكـر القارىء الكريم أصلحـه الله قول أبي الطيب :

عـــــربي لســــانـــــه فلسفي رأيــــه فـــارسيـــة أعيـــاده

نعم الأرض هاهنا هي الكوكب الفلكي الجغرافي لا أرض الشعراء التراب

ضــــل في الأرض سراه ومضـــــى لا يــرى في أفـق منـــه شعـــاعـــا
يجتــــوي اللافح من حــــرقتـــه وعـــذاب يشعل الــروح التيـــاعـــا
والأسى الخالـــد من مـــاض عفـــا والهوى الثـــائر في قلب تـــداعـى
فـــاجعـل البحــر أمـــانـا حــولـه وامــلأ السهل ســلامــا واليفـاعـا
وامســح الآن على آلامـــــــــــه بيــد الــرفق التي تمحــو الـدمـاعـا
وقــــد الفلك إلى بـــــر الــــرضى وانشر الحب على الفلـك شراعـــــا

صار البحر غير مجازي وله بر كما ترى ـ وصار ملاح المهندس التائه يترنم بأصداء همزية أمير الشعراء :

رب إن شئت فـــالفضــــاء مضيق وإذا شئـت فــــالمضيـق فضــــاء
فـاجعل البحـر عصمـة وابعث الـرحــ ــــمة فيهـــا الـــريـــاح والأنـــواء

وهل العصمـة والرحمة هنـا لهما لون انجيلي مسيحي ؟ وهل في كلم المهنـدس شيء من نظر إلى القسيس المعدوم فلم تجد روح ملاح كلردج من يصلي لها وهي في غرغرة النزاع؟

يقول المهندس في «الله والشاعر» : ـ

وهــــــذه الأعين نهب العفــــــاء	في رقـــــــــــدة الموت كـأن لم تنـم
محدقـــــات في نـــــواحي السماء	تشهــــدهــــا هـــذا الأسى والألم
وهـــذه الأيـــدي تحوط الصـــدور	كـأنها في مـــــوقـف للصـــــلاة
لم تنس في نــــزع الحيـــاة الغـــرور	ضراعــــة تـــرسمهــا لـــلإلــــه

هاهنا شيء من ملاح كلردج وأشباحه.

أشباح كلردج سباع شرسات، وأعين المهندس التي يذكـرهن وينعتهن محدقات هاهنا، إنما هن أعين سنانير أوالف، أدركهن ما يدرك سنانير الدور من هذا الموت ـ خذ مثلا قول كلردج : (الفصل الرابع[1]) :

I fear thee ancient mariner!
I fear thy skinny hand!
And thou art long, and lank and brown,
As is the ribbed sea - sand.

I fear thee and thy glittering eye,
And thy skinny hand so brown.
Fear not fear not thou wedding guest
This body dropt not down.

Alone, alone, all, all alone,
Alone on a wide wide sea!
And never a saint took pity on
My soul in agony.

The many men so beautiful
And they all dead did lie,
And a thousand thousand slimy things
Lived on; and so did I.

I looked upon the rotting sea,
And drew my eyes away;
I looked upon the rotting deck,
And there the dead men lay,

---

(١) ص ١٦٢ ـ ١٦٣ من كتاب English Romantic Verse

I looked to heaven and tried to pray
But or ever a pray had gusht,
A wicked whisper came, and made
My heart as dry as dust

ترجم زميلي الفاضل الأستاذ عمران العاقب منظومة الملاح التائه كلها، وأكتب وليس من ذلك بيدي شيء فأستشهد منه في هذا الموضع فحسب القاريء الكريم لهذه الأسطر اللاتي مضين هذا التقريب، وإنما هو لتوضيح ما يمكن توضيحه من اتجاه معاني كلردج:

أنا خائف منك أيها الملاح القديم
أنا خائف من يدك المعروقة
وأنت طويل نحيل أسمر
مثل رمل البحر المضلع

أنا خائف منك ومن عينك ذات البريق
ومن يدك المعروقة الشديدة السمرة
لا تخف لا تخف يا ضيف العرس
هذا الجسم لم يسقط(١)
وحدي وحدي لا أحد معي في انفرادي
وحدي في بحر واسع المدى عريض
ولم يرق قلب ولو من قديس واحد
على روحي التي في ألم النزاع

الرجال الكثيرون ما كان أجملهم
جميعهم راقدون أموات
وألف ألف شيء لزج
ما زال حيا، وكذلك أنا

(١) يشير إلى قوله من قبل أن أصحابه سقطوا واحدا بعد الآخر هالكين.

نظرت الى البحر المتأسن
ثم صرفت نظري عنه بعيدا
ونظرت الى سطح السفينة المتعفن
وثم الرجال موتى رقودا

نظرت الى السماء وحاولت أصلي
ولكن لم تكد تنبعث صلاة واحدة
حتى أتى هاجس شرير وجعل
قلبي يابسا مثل التراب

I closed my lids and kept them close,
And the balls like pulses beat,
For the sky and the sea, and the sea and the sky
Lay like a load on my weary eye,
And the dead were at my feet.
The cold sweat melted from their limbs,
Nor rot nor reek did they:
The look with which they looked on me
Had never passed away.

أغمضت أجفاني وأبقيتها مغمضة
وجعلت الحدقات تدق مثل النبض
لأن السماء والبحر والبحر والسماء
جثما كالعبء على طرفي المضني
وعند قدمي جنائز الموتى

وقد ذاب العرق البارد من أعضائهم
ولكنهم لا تعفنوا ولا فاحوا
والنظرة التي كانوا ينظرون بها الي
لم تفارقهم قط .

هذا وقد ضربت الرومنسية التي من هذا الضرب بجران في أكثر البلاد العربية وينبغي أن ننبه الى موضع اليمن والمغرب والسودان في جميع هذا وليس ههنا موضع

الاستقصاء والتفصيل . وقد سبقت الإشارة الى شيء من شعر يوسف مصطفى التني [١] رحمه الله قلنا إنه نظر فيه الى بعض ما قاله الرافعي رحمه الله في أوراق الورد ، وهو قوله :

اعبسي لي ففي العبوس ابتسام   لجمال منوع القسمات

والكلمة من ديوانه الصدى الأول :

اعبسى لي ففي العبوس ابتسام   لجمال منوع القسمات
وادفعيني ففي الصدود اقتراب   من معاني جمالك الأشتات
ايه وادعي علي دون حنان   فدعاء علي منك يواتي

أعزوفا عن الجنان لأني   لا أنال الجنان دون تقاة
أغناء عن الخلود أكيدا   إن يكن مهيعي إليه مماتي
أأعاف النعيم لو يتبدى   في لبوس النحوس والحسرات

قد عهدت الجمال أنفذ سحرا   وهو سر عنه الشفوف تشف
شوق الناس للبدور غياب   وغمام على الضياء يرف
والورود الورود مطمح نفسي   وهي بالشائك الأليم تحف

مرحبا بالعبوس فهو ضياء   قد جلا من محاسن القسمات
مرحبا بالدعا تشابه فيه   أنة العود رنة الكلمات
أنا اعطي لكي انال كثيرا   وأصفي من الاسى فرحاتي

فاعبسي لي ففي العبوس ابتسام   لجمال منوع القسمات
وادفعيني ففي الصدود اقتراب   من معاني جمالك الأشتات
ايه وادعي علي دون حنان   فدعاء علي منك يواتي

والتني كما تأثر بالرافعي تأثر أيضا بالعقاد ـ ثم بسائر روح زمانه "الرومنسي" من شواهد الرومنسية الواضحة هنا هذا الاعجاب بالنفور والعبوس والغضب . هذا اللون

---

(١) ولد رحمه الله سنة ١٩٠٩ ، وتخرج من كلية غردون ، ثم التحق بالجيش ثم تركه فعمل في الصحافة وشارك في الحركة الوطنية وعمل في السياسة وصار سفيرا للسودان في يوغسلافيا وتوفي رحمه الله ١٩٦٨م .

النمري، [نسبة الى النمر]. وقد لاحظ بـر تراند رسل "أن" الرومنسيين يعجبهم الجمال الشرس كجمال النمـر الـذي أعجب وليم بليـك ،ولا يفطنـون للجمال النـافع كجمال حقل القمح . وفي متن هـذه الابيات التي اوردنـا بعض الوهي . وشعـر التني رحمه الله في جملتـه لا بأس به ولـه ديوان في المدائح النبـوية هـو آخـر ما نظمـه ، خرج فيـه من الرومنسيـة التي من هذا الضرب الى نوع من التـدين قريب معـدنه من الضرب الأول . وأكثر نشأة رجال الفكر في بلادنا كانت في أوساط دينية ـ وقديما قال الشاعر :

كل امـريء راجع يـومـا لشيمتـه ولـــو تخلق أخـلاقــا الى حين

رحمه الله ووكفت على جدثه شآبيب الغفران .

ما صنعه الاستـاذ محمد المهدي مجذوب رحمه الله في كلمتـه « صل يا رب [1] على المدثـر » مختلف عن هذا الـذي صنعـه التني رحمه الله إذ هـو لم يـرجع لتقيده قـريش بأحساب الكرام وتميم . الإشارة هنا الى قوله [2]:

فليتى في الـــزنـــوج ولي ربـــاب تميـل بـــه خطـــاي وتستقيم
طليـق لا تقيـــدني قـــريـش بـأحســاب الكـــرام ولا تميـم

فقولـه فليتى شاهد بأن القيـد ما زال معه . فليتأمل جـوانب منه . وليفصح عن محافظته وثـورة وجدانه وافتنانـه ، افتنان المصور الدقيق عن كل ذلك معـا، وليظل بعد ذلك جامعـا بين الرومنسيـة الثالثـة وروح النهضة ثم متجاوزا مـن بعد الى ضروب من النهج الجديد .

ولا يخفى أن جـانب النهضة يصحبـه كما تقـدم وصفنـا له تجويـد في متن النظم وحرص على نقاء الـديباجة ومذهـب الجزالـة وأن ذلك قل أن يتفق مثله في الرومنسيتين الثانية والثالثة .

واعلم أيها القاريء الكـريم اصلحك الله أن شأن الموجـة التجديـدية تخرج من بلاد العـرب التي سبقت بالنهضة ومن مصر على الأخص اذ كانت حقـا هي القائد في هـذا الباب ، تتأثـر بها بلاد العـربية الاخـرى، وسرعان مـا تلحق بها موجـة تاليـة من

---

١ ـ من ديوانه نار المجاذيب، طبع الخرطوم ١٩٦٩ .
٢ ـ من قصيدته « لزيم الجوى من أسفى لزيم » في ديوانه نار الجاذيب .

التجديد فيكون من هم مازالوا تحت غمرة الموجة الاولى ، قد بلغهم فجعل يغمرهم دفاع الموجة الثانية وربما لحق بذلك ألسنة رشاش أو غمر كامل من موجة ثالثة وهلم جرا . فيلفى شاعر نهضي من أوائل المتأثرين بالنهضة قد اصابه رشاش من رومنسية الضرب الثالث كالشيخ البنا والشيخ عبدالله عبدالرحمن رحمه الله . ويلفي شاعر من الجيل الذي كان تحرر التعليم الحديث قوي الأثر فيه ، نهضيا بحكم ما درس من العربية وما كان فيه مجتمع بلاده من طور التأثر بشعراء النهضة وإيثار الجزالة ولا بد له من موقف إزاء الرومنسية وما جاء بعدها من اطوار بحكم ملابسة المعاصرة وتعذر الانفصام عن المشاركة فيها بسلب أو إيجاب .

محمد المهدي مجذوب جمع بنهضيته بين المتانة والسلاسة ومذهب الجزالة ثم مع رومنسيته أخذ بوجوه من التجديد الحديث . محمد عبده غانم حرص من رومنسيته على الصحة والتجويد النهضي وآثر أن يعيب مسائل من مستحدثات الهمس والرمز والخروج عن الوزن ، أو كما قال في كلمة له قالها في مهرجان شوقي وحافظ :

ما ان عهدنا الهمس من خاطب	أكسبه بكرا ولاثيبا
ما للجماهير وللشعر إن	لم تفهم النجوى ولا المطلبا
فتارة يهمس في أذنها	كأنما قد هاب أن تغضبا
وتارة بالرمز ينتابها	والرمز للصفوة إن أعجبا
هامت به بين استعاراته	لا تنتشي إلا إذا أغربا
وقال ليل الفجر في أفقنا	أطبق والبوم به أطربا
وكأسنا في قاعها قطرة	ترفض أن تشرب أو تسكبا

ومن جيد شعر محمد المهدي ، ونموذج من شدة أسره قوله يصف امرأة تتدخن وهوضرب من التزين ، ومن الحمام الساخن ، تقعد المرأة فوق مكان حفرة خاصة معد لتوقد فيه نار من خشب الطلح ، ثم تشتمل المرأة وتستحم بدخان الطلح الخارج منها ـ قال والكلمة في ديوانه نار المجاذيب :

وحفرة بدخان الطلح فاغمة	تندي الروادف تلوينا وتعطيرا
لمحت فيه وما أمعنت عارية	تخفي وتظهر مثل النجم مذعورا
مدت بنانا به الحسناء يانعة	ترد ثوبا إلى النهدين محسورا
قد لفها العطر لف الغيم منتشرا	بدر الدجى وروى عن نورها نورا
يزيد صفرتها لمعا وجدتها	صقلا وناهدها المشدود تدويرا

هذا وشعر المغرب العربي الأقصى وبلاد شنقيط وشعر الجزيرة العربية بأسرها نجدها وحجازها وعروضها وتهامتها ويمنها وأحقافها وعدنها وخليجها وعمانها

وهجرها وبلاد السودان والأطراف اللاحقة به من افريقية وبالعربية من بلاد باكستان والهند والشرق الاوسط والأقصي وداغستان وما وراء النهر وما امتد من ذلك بالهجرة إلى ما وراء البحر المحيط من هذه البلاد ـ وهذا سوى ما تقدم ذكره من هجرة مهجريي لبنان وسورية ــ كل ذلك مما مرت بـه وتمر في شعر العربية خاصة موجات النهضة والتجديد على دفعات متتالية. وكل ذلك مما ينبغي أن يتنبه له ويحرص على درسه ، ولا يتسع المجال هاهنا للاستقصاء والتحليل ـ وهاك مثلا من ديوان الحرية لابن ثابت أورده الدكتور الطريسي أحمد غراب في رسالة له للدكتوراه بعنوان الفن والشعر الحديث بالمغرب ومن ثم آخذيه :

لا تسلني كيف كان الأمر إني لست أعلم
كل ما أعلم أني بت في جوف جهنم
وقضيت الليل والليل سعير يتضرم
هائجا يارب ماذا قد جنيت الليل فارحم
تقفز الاحرف من فيه شرارات تكلم
قال لي ربك أدري بك يا صاح وأحلم
أنت منه قد طلبت النار يوما أنت أظلم
أولم تسمح إليها وتراها بك أكرم
فذق النار التي أبت إليها وتعلم
فلعل النار تهديك وهدى النار أقوم

أول هذه القطعة مهجرى متأثر بطلاسم إيليا أبي ماضي، ثم انتقل ابن ثابت، صاحب هذه الأبيات إلى الرمز وأسطورة برومثيوس. وهذا في معنى ما قدمناه من تداخل دفعات الأمواج. والأصل « رومنسي » ثالث لفق به غيره على نحو ما يقال له إكلكتكي ـ Eclectic ـ أي يأخذ من المذاهب المختلفة ويترجمونها بتلفيقي ولا تعجبني إذ ليس التلفيق مذهوبا فيه إلى أخذ متعمد باستحسان واختيار من مواضع شتى قد لاتتلاءم، ولكن هو ما لفق فيه شق من ثوب بشق آخر أو من ثوبين مختلفين مع حسن الملاءمة اللهم إلا أن نزعم أن الاكلكتكي إنما يريد الملاءمة الحسنة وفيه بعد. والله تعالى أعلم.

هذا وقد مثلنا أكثر ما مثلنا لأخذ علي محمود طه وناجي من رومنسية كيتس وكلردج. وليس القصد إلى استقصاء في «الأدب المقارن»، وإلا فغير محتاج إلى كبير دليل أن أخذهم قد تجاوز هذين وغيرهما من رومنسيي الانجليز وخاصة شيلي، فقد ظل محبوبا مقروءا بين محبي الرومنسية من العرب ولا سيما منظومته Ode to the West

Wind(قصيدة للـريح الغـربية) و Ode to the SKylark (قصيدة للقبرة) ووردزورث شاعر الرومانسية الانجليزيـة الكبير إلى رومنسيى الفرنسيين كلامرتين ودي موسيه ودي فينى وفكتور هـوجو، وقـد ترجم إلى العربيـة من جميع هؤلاء، كما كـان لكثير من أدباء مصر والشام والمغرب بهم معرفة و إلمام واسع ـ على أن شعراء الرومنسية الانجليزية كانوا بسبقهم لهم أثر على الرومنسيـة الفرنسية كما قدمنا من قبل. قـالت مدام دي ستايل في بعض تعميماتها: « الأمة الفرنسيـة التي هي أعظم الأمم اللاتينية حضارة وتثقيفـا تؤثر المذهب الكلاسيكي وتحاكي به اليـونان والرومان. والأمـة الانجليزية وهي أبهى الأمم الجرمانية مكانا، تقصد إلى الشعـر الرومانتيكي وشعر الفروسية وتجد أعمالها الكبرى في هذا الباب» فهذا من معنى ما تقدم ان شاء الله تعالى.

الضرب الرابع وهو رومنسية الفقير المفقود

أو قل الفقيه المفقود أو ما أشبه ، وهو الـذي أقبل على الثقافة الدينية وأحس بأن فوائد العصر من جاه وحضارة جـديدة وما إلى هذا المعنى، كل ذلك فائتـه إن هو لم يرم (١) مكان الشيخ الفقيه العـالم القديم . كان التعليم الديني هـو أصل التربية والتأديب في جميع بلاد المسلمين، يبتدأ بـالقرآن ثم يصار منه الى الفقه والنحو وسـائر علوم اللسان والدين. وكـان يقال لمعلمي القرآن عندنـا الفقراء وربما قيل لهم «المهاجرون» من قـوله تعـالى «للفقراء المهـاجـرين. . . » وهم الصحـابة المهـاجـرون الأولون العلماء. وهـذه التسمية قديمة. وفي شرح الأعلم الشنتمري الملحق بهوامش طبعة بولاق للكتاب:

أتيت مهـــاجـــرين فعلمـــوني ثـــلاثـــة أحـــرف متشـــابهات
وخطـــوا لى أبـــا جـــاد وقـــالـــوا تعلـم سعفصن وقـــريشيـــات

ويقال الفقيـه ولها وجوه مختلفـة في النطق العامي في شتى بـلاد العرب: الفقى الفكى الفئى(٢). . .

ثم جاء التعليم الحكومي أو شبه الحكومي العصري مع الاستعمار المباشر وغير المباشر، وكان سبيـلا الى الوظـائف ومراتب الـدولة وفي ذلك من السلطـة والجاه، وانحصر أمر الوظائف المتاحة« لفقراء» الدين في إقـامة المساجد والقضاء الشرعي والوعظ. ولاريب

---

(١) لم يرم بكسر الراء أي لم يغادر لزام يريم (٢) بتصيير القاف همزة

أن هذا كان يصاحبه غير قليل من الشعور بالمظلمة والسخط. وفي بلادنا، أيام الحكم الثنائى، كان للقضـاء الشرعى قسم خاص به في كلية غـوردن (٣) يكون للمتخرجين منـه إلمام باللغـة الانجليزيـة مع مـا تلقوه من علـوم الشريعـة على مذهب الإمـام أبي حنيفة(٤) (رضي اللـه عنه)، فكـان هذا فيـه تضييق من الفرص على خـريجي التعليم الديني البحت غير المشوب بشوب من هذا النهج الجديد.
حرص كثير من الشبان المتخرجين من التعليم الـديني على ألا يعدوا جانبا متخلفا عن مسايرة روح العصر، حرصوا على أن ينتمـوا الى العصر، ويزيدوا على الانتماء بأن يكونوا فيه أولى صدر وقيادة، ومن هذا المبدأ نشأ بين أصحاب الملكة من بينهم اتجاه يجمع بين الثورة على المحافظة «التقليدية» يـرون أنها هى معدن التأخر، وتطلع إلى الحرية ـ الحرية من قيـود هذه المحـافظـة، والحرية التي ينشـدهـا جميع الوطن العـربي من الاستعمار، والحرية التي ينشـدها الشباب في الجمال والهوى والطلاقة والصعـود المجنح الى الأحلام البعيدة، أحلام الجاه، أحلام العصر والانتماء المسحور.
أبو القاسم الشابي، الشاعر التونسي، ابن القاضي، أديب مسجد الزيتونة وخريجه ممن يعد رمزا لهذا النوع مـن الرومنسية، وقد تأثر بشعراء المهجر وأنفـاسهم المعرية الإلحاد، يشهد لذلك وبه قوله:

نحن نمشي وحـــولنـــا هـــذه الأكـــ	ـــوان تمشي لكن لأيـــة غـــايـــة
نحن نشـــدو مـع العصـــافير للشمـــ	ـــس وهـــذا الـــربيـع ينفخ نـــايــه
نحن نتلـــو روايـــة الكـــون للمـــو	ت ولكن مـــاذا ختـــام الـــروايـــة

هنا أدركه بعض الإعياء وإنما حام حول معنى أبي الطيب:

تمتـع مـن سهـــــاد أو رقـــــاد	ولا تأمـل كـــرى تحت الـــرجـــام
فـإن لثـــــالـث الحالين معنـى	ســـوى معنى انتبـــاهك والمنـــام

وقولـه «ختام الروايـة» يبدر منه الى الـذهن أن ختام الروايـة هو الموت، ولكن قولـه إنه يتلـؤها للمـوت دليل على أن الموت غايـة بهيمنته وإشرافـه، إذ لا يعقل أن يكون هـذا الموت الذي يتلو هو رواية الكـون له شعرا مجرد سامع ومستمع كما نصنع نحن إذ نشهد

---

(١) أنشىء هذا القسم سنة ١٩١٢م

(٢) خـلافا لما عليه أهل بلدنا وذلك مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

تمثيلية من المسرحيات. إذن يعني ما ختام روايتنا كلها؟ وتكون في هذه الحالة مثل رواية هامليت التي هي داخل المسرحية الكبيرة

....the play's the thing

Wherein I'll catch the conscience of the King

« المسرحية هي الشيء
الذي أمسك فيه ضمير الملك بيدي»
والبيت الذي يلي فيه ضعف، والحق أن قوة نفس الشاعر بلغت مداها عند قوله:
نحن نتلو رواية الكون للموت ثم أدركه بعد ذلك إعياء
هكـــذا قلت للـــريـــاح فقـــالت   سل ضمير الــوجــود كيف البــدايــة

والكلمة فيهـا بعد مع الشـك المعري الـرومنسي «الجبراني» المنحى نظر الى بحـر المعرى ورويه في الكلمة التي رثى بها أبا القاسم المغربي الوزير(ت ٤١٨هـ) :ـ

يــا أبــا القــاسـم الــوزيــر تغيبـــ   ـــت وخلفتنـي ثقـــال رحـــايـــه

يشير الى قول زهير «فتعرككم عرك الرحى بثفالها» أي معها ثفالها

إن نحتـك المنـــــــــون قبلي فـإنـي   منتحـــاهـــا وإنها منتحـــايـــه

ولكن في نظم أبي القاسم الشـابي من جودة الصياغـة ما لا تجد نظيره عند نـاجى وعند على محمود طه، ذلك بأن أساسه في العربيـة جيد، ولو أخلص له كل الإخلاص، ولم تفتنه أضـواء مدنيـة العصر الحديث فخف لكى يتأعصر لكان أسلـوبه في النظم أمتن وأبعد مما نجـده يعروه حينا بعد حين من الوهـن نحو قوله: ولكن ماذا ختـام الرواية؟ ونحو قوله: هكذا قلت للرياح فإنه ليس لها كبير معنى ههنا.
قولنا «يتأعصر» أي يكـون من هذا العصر، من قولك أعصر تقيسـه على أنجد أي صار في نجـد وأتهم أى صـار في تهامـة وأصبـح أى صـار في الصبح وأضحى أي صـار في الضحى وأعصر أي صـار في العصر. وربما قيل الآن تعصرن وتعقلن ولا يعجبني ذلك وله وجه بعيـد وهو قولك ضيف وضيفن أي ضيف الضيف بزيادة نـون عليه. وأشهر شعر الشابي أبوليته، أي قصيدته التي ذاعت من طريق مجله أبولو.

عـذبـة أنـت كـالطفـولـة كـالأحــ ــلام كـاللحن كـالصبـاح الجديـد
كـالسماء الضحـوك كـالليلـة القمـ ــراء كـالـورد كـابتسـام الـوليـد
يـا لها مـن وداعـــة وجمال وشبـــاب منعم أملـــود

هذا البيت ضعيف بـالنسبة إلى تتابع التشبيهات من قبل المشعـر بقوة الانفعال . وأتبع الشاعر "يالها" هذه الأولى باثنتين بعدها :

يـالها من طهـارة تبعث التقـ ـديس في مهجة الشقى العنيـد

هل الشقى العنيـد هـو الشاعـر نفسـه ؟ ثم مـا هـذه "التقديس" الكلمـة المسيحيـة الظلال؟ وهل الشقى أيضا كلمة مسيحية الظلال بمعنى صاحب الخطيئة المذنب؟ أو هي قرءانية الأصل «فمنهم شقى وسعيد» تأعصرت بإشراب من ظلال مسيحية؟

يـالها رقـة يكـاد يـرف الـ ـورد منهـا في الصخـرة الجلمـود

وهل الصخرة قلبـه ؟ والياهاءات الثـلاث لم يزدن شيئـا على قوة البيتين الأولين ، وكأن الشاعر أحس هذا فعدل عنه الى وجه آخر:

أى شيء تـراك هـل أنت فينيـ ـس تهادت بين الورى مـن جديد

وفينيس هنا يتأعصر بها الزيتوني ، ولا بأس عليـه من ذلك ، فهى كهذا الزي الافرنجي الذي جعل الناس يلبسونه

لتعيـد الشبـاب والفـرح المعـ ـسول للعـالم التعيس العميـد
أم مـلاك الفـردوس جـاء الى الأر ض ليحيى روح السـلام العهيـد

ملاك "مسيحية" يتوهم العصرى فيها الرقة لأن "الملك" قد يتبادر منها معنى "ملك الموت" ومعنى يوم القيـامة «وجـاء ربك والملك صفا صفـا» والعهيد تبرز منهـا عمامة الفقير الفقيد ، إذ هى فعيل بمعنى مفعـول ؛ هذا أمر لا يقـدم عليه إقدامـا أمثال أبى شادى أو ناجى أو المهندس أو جبران .

ثم هـذه الخطابة الـرومنسية بالفصاحة والبيان القرآنى : «القارعـة ما القارعة» «الحـاقة ما الحاقة» «والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق»

أنت ما أنت . .

ثم يجيء العصر الحديث والانتماء اليه :

. . . أنـت رسـم جميـل عبقـري من فن هـذا الـوجـود

أى من جمال فنون الطبيعة . شيء من فلسفة وحدة الوجود . حتى هذه المعانى العميقة

عندنا يـا معشر العصريين. كأن هنا نوعا من الملاقـاة بين هذا الضرب الرابع المتأعصر والأول المدافع المتحدي:

فيك مـــافيـــه مـن غمـــوض وعمق وجمال مقـــــدس معبـــــــود
أنت مـــا أنت أنت فجـــر من السحـــ ـــــر تجلى لقلبى المعمـــــود

وفجر هنـا ترف عليهـا طيوف من الصـلاة وصوت المؤذن "الصـلاة خير من النوم".
والفجر أول بدء الإسفـار حق جميل. وأكثر ما يذكـر الفرنجة "Dawn" يعنون به ضوء الصباح، وكذلك Aube الفرنسية، والصلاة عند ذلك ليست بأداء ولكن قضاء - أعنى صلاة الغداة المفروضة.
ثم تجيء أنواع من التكـرار. وقد أدار الشابى معانى قصيـدته كلها على خطابـة لفظية تعطـو بيد ولا تستطيع التنـاول حقا من ثمـرات ما يخيل إليـه أنه هـو التفكير المتحضر الفني العصرى. الغنـاء بالطبيعـة المشبهة بها هـذه الحسنـاء ينقصه التأمل. ليس فيـه حديث المعرفة بالطبيعة التي ينبعث منها الإيحاء بالحب لها، والاتحاد القلبى مع جمالها.
هذا واضـح عند "كيتس". وواضح أيضـا فى ريح "شيلي" الغربية إذ هـو لا يكتفى بـالخطابـة اللفظية ولكن يتأمل الطبيعـة نفسهـا ويضع أنامل تأملـه على تفاصيلهـا - الأوراق الميتـة المتطـايرة صفـرا وسـودا وشـواحب وقـانيات، والحبـوب المجنحـة التي تستطردها الريح فى مركباتها إلى مراقدها الشتوية المظلمة.........

Thou on whose stream, mid the steep sky's commotion,
Loose clouds like earth's decaying leaves are shed, ...
Shook from the tangled boughs of Heaven and Ocean,
Angels of rain and lightning (1) ...

واضح فى شعر "وردزورث" عن ضروب الأزهار وضروب مناظر الريف - الفتاة الجبلية مثلا، لا بل واضح في شعـر إيليا أبى ماضى على شح ما فيـه بالنسبة إلى هؤلاء ـــ ذكر التراب والجدول والقطـرة والآرز والـزنبق والســوسن وحقل القمح والشمس والبـــدر والنجـوم والجبـال والعشب والنـدى والجنى والشجر والـربيع والـوحل والشتـاء. ولا يزعمن زاعم أن لبنـان بحسنها هى التي أوحت جميع هذا الى شاعـرها المشتاق الآئب، نعم حسنهـا لا ريب فيـه. ولكن تـونس الخضراء هى أيضـا جميلـة وفيهـا ضروب من

---

(١) أنت يا من فى مجراها وسط جرف هيجان الجو السحيق - تـرى هلهلة أهداب السحاب كما يساقط الورق على الأرض الذابل - تهز ملائكة الحيا والبروق هزا من أغصان السماء والبحر المتشابكة. «من الريح الغربية للشاعر شيلى».

الشجر والثمر والزهـر. ولكن شاعرها الرومنسي برومنسيـة ابن المسجد المحنى الضلوع على ألـوان من الثورة على المسجـد، هو أيضـا ابن مـدينة قليل التعلق بتفـاصيل جمال الريف. الطبيعة التى يعشقها هى طبيعـة هذا التصوف الحضاري الجديد المنبعث من روح التجديـد. وروده وأزهاره على الـورق المكتوب وأنـاشيده ليست من أغـانى عرس العرب ولا ليلات نشيد الأذكار الصوفية والمدائح النبوية، ولكن من توهم ترانيم كنيسة في القلب. من العجب أن إيليا أبى مـاضى ليس في نونيته من الكنسيـات كما فى دالية الشابي هذه

على أن للشابي مقدرة الخطابة المسجديـة ذات المترادفات والمتزاوجات الكثيرة. ثروة من التدفق اللفظي. أما المعانى - بل تأمل هذه الأبيات :-

فأراه الحيـــاة فى مـــونـق الحســـ	ـــن وجلى لـــه خفـــايـــا الخلـــود
أنت روح الـــربيـع تختـــال فى الـــدنـــ	ـــيا فتهتـــز رائعـــات الـــورود
وتهب الحيـــاة سكـــرى مـن العطـــ	ـــر ويـدوى الـــوجـــود بـــالتغـريـــد
كلما أبصرتـك عينـــــاى تمشيـــــ	ـــن بخطـــو مـــوقع كـــالنشيـــد
خفق القلـب للحيـــاة ورف الـــز	هـــر فى حقـل عمـــرى المجـــرود

فى ذا البيت محاولة تعبير عن انفعال صحيح عبر عنه الشاعر بأمر لعله كان يراه ويعرفه وهو هذا الحقل المجـرود - هذا البيت من التفاصيل النادرة فى القصيـدة ولكن له أصلا من مادتـه القرءانية كما لا يخفى وأحسب أن هـذا هو أصل التعبير لا تجربة المشـاهدة والله تعالى أعلم.

وانتشت روحـى الكئيبـــــة بـــالحـ	ـــب وغنت كـــالبلبـل الغـــريـــد
أنت تحيين في فـــؤادي مـــا قـــد	مـــات من أمسى السعيـــد الفقيـــد
وتشيـــــدين فى خـــرائب روحـى	مـــا تـــلاشى من عهـــدى المجـدود

هذا البيت تكرار للذى قبله.

مـن طمـــوح الى الجمال الى الفـــ	ـــن إلى ذلـك الفضـــاء البعيـــد
وتبثين رقـــة الشـــوق والأحـــ	ـــلام والشـدو والهوى فى نشيـــدى
بعـــدمـــا عـــانقت كـــآبـــة أيـــا	مى فـــؤادى وألجمت تغـــريـــدي

معانقة الكآبـة للفؤاد وإلجامها للتغريد فصاحة مسجـدية الأصول (من أبى تمام مثلا) عصرية الفروع. ثم تجىء التأعصرات بالمعانى المسيحية والأساطير الرومية:

أنت أنشـــودة الأنـــاشيـــد غنـــا ك إلـــه الغنـــاء رب القصيـــد
فيك شب الشبـاب وشحـه السحــ ــر وشـدو الهوى وعطـر الـورود
وتــراءى الجمال يــرقـص رقصــا قـدسيـا على أغـانى الـوجـود
وتهادت فى أفــق روحــك أوزا ن الأغــانى ورقـة التغـريـد
فتمايلن في الــوجــود كلحن عبقـرى الخيـال حلـو النشيـد
خطـوات أسكـرنـه بـالأنـاشيــ ـد وصوت كرجع نـاى بعيـد

هذا من مفضلية الحارثي : «نشيد الرعاء المعزبين المتاليا»فهذا رجع ناي بعيد كما ترى

وقـوام يكـاد ينطق بـالألـ ـحان في كل وقفـة وقعـود
كـل شيء مـوقـع فيـك حتـى لفتـة الجيـد واهتـزاز النهـود

تفـاصيل المنظر الجنسي المتمثل في مشيـة هذه الفتاة الافرنجية ، الرومية ، قـولا واحدا ، وهي كما هي جنس هي أيضا كسر أو رمز لكسر قيود المسجد وحجاب البنات وقساوة قلـوب غيرة المحافظة العربية المسلمة المتمسكـة خلافا لإسلامها ببعض روح الوأد الجاهلي المسئول عنه يوم القيامة ــ هذه التفاصيل هي التي تملي على الشابي الدفعة بعـد الـدفعة مـن التعبير القوي ثم يترنـم بعده بـالنشيـد واللحن والتحبب إلى ألفـاظ الأساليب العصرية بملكـة مستفادة من خطابة أئمة الدين وبلغـاء " الفقراء " ومحفوظ قديمات الأساليب ذوات البيان . "وشحه السحـر" مع وشاح ثريا امرىء القيس وغيره من الشعـراء الأوائل . "سكـرى من العطر" . . . عطـر النـد والعـود وبخور حلقـات الصوفيـة مع فواح عطر فـرنسة المنبعث من "البرومنـاد" وهو عطر الـورود لأن الورود ههنا هـي الفتيات بـلا ريب . ثم السكر بـالخطوات نظـر عارم . والأنـاشيد أنـاشيد الكنيسة التي توهمها الشاعر . ثم جاءه تداعي المعاني بقول عبد يغوث الحارثي :

أحقا عباد الله أن لست سامعا نشيد الرعاء المعزبين المتاليا

ولا شك كـان رحمه الله يحفظـه . "المعـزبين المتاليـا" أي الذاهبين بها بعيـدا في المرعى فـالنـاي البعيـد ، كما تقدمت الإشـارة منا الى ذلك من ههنـا . ثم تعـود الحان الكنيسة المتوهمة ومـوسيقا أوروبا في نظرة عـارمة مرة أخرى إلى القـوام والجنس ـ القعود كنايـة عن ثقل العجيزة واختلاج الـوركين بالثيـاب . ثم أتم الصورة لفتة الجيـد واهتزاز النهود ، واحتفظ بتـوقيع سحر الموسيقا : ناي عبـد يغوث الذي في قلبه ؛ ترانيـم ثالوث

فالإله العظيم لا يرجم العبـ ـد إذا كان في جلال السجود

هذا المعنى قرءاني الأصل : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »[الانفال] هذه الأبيـات من "عذبـة أنت" إلى«السجـود» هي مختـار القصيدة وسـائرهـا بعد إطنـاب وإسهاب، بعضه أفضى اليـه اندفاع الشبيبةوبعضه إرث الفقير المسجـدي من المباهاة بطول النفس ، وأكثره فرط إلحاح على قرع باب الانتماء إلى دنيا التجديد وعالم رومنسيتها المسحور: الطبيعة، الربيع، اللحون، الأحلام، تحطيم القيـود، النور، تبديد الظلام، هذا الحشـو الهوائي كأنـه ضرورة للتعبير عن الضيعة التـائهـة والازدواجيـة المركبة، والجنـد الغريب الـذي تغلغل في صميم دولة عرف الإسـلام والعرب، والشابي بـه صيحة حيرة وطموح وإخفاق .

التجاني يوسف بشير رحمه الله [١٩١٢ ـ ١٩٣٦م] ممـا يقرن اسمه باسم الشابي ويقال إنهما شاعران متشابهان[١]ـ بينهما تشابه من حيث إنهما كليهما لم يتلقيا تعليمهما في مدارس العصر الافرنجية الرومية النظام، ولكن في "الخلوة" [أي كتاب القرآن] والجامع وعاصرا زمـان دعوة التجديـد ومجلة أبولو في مصر وحـركة شعراء المهجـر، وتثقفا بأدب النهضة، وشهدا أوائل دعوة القومية والتحرر من ربقة الاستعمار، وشاركا في ذلك بجهد ما استطاعا من انفعال القلب وبيان القلم .

ثم بينهما مع هذا التشابـه اختلاف كبير. السودان بالنسبـة الى مصر وتونس والشام بادية وصحراء . "والبقعة (٢) التى كانت أكبر مدن السـودان على زمان التجانى، ولا تزال، ما كـانت حينئذ إلا أحوية وجـدرا من طين، لولا بقايا أنقـاض من سور الخليفة

---

(١) للأستـاذ ابي القاسم محمـد بدري كتـاب عنهما بعنوان«الشـاعران المتشـابهان» طبعة دار المعارف وللدكتور عبدالمجيد عابدين تأليف قريب من هذا المعنى .

(٢) "البقعة المباركة" هـو الاسم الذى سمى به المهدى المكان الذى اختاره عاصمـة للبلاد فى سنة ١٨٨٥م. ثم لما غزا اللورد كتشنر الدولة المهدية باسم الخديوى فيها زعم وضرب الاستعمار بجران، غلب اسم أم درمان على اسم البقعة فصار لا يعرف لها اسم إلا أم درمان وكان اسم البقعة أشهر بين عامة النـاس إلى سنوات الثلاثين، وكانـوا أكثرهم أدنى الى البداوة .

عبدالله وجانب من قبة المهدى المهدومة وبعض مبانى الحكومة الرسمية من الآجر وطابق أرضي واحد. وشارع مرصوف واحد وسطها يسير عليه الترام وما بنيت قنطرة النيل الأبيض إلا وهو ابن خمس عشرة أو ست عشرة سنة.

فى شعر التجانى رحمه الله تليين من حضارة ولكن أسر البداوة عليه أغلب. ثم حظه من التفصيل فى الوصف والدقة فى المعانى أوفر، مثلا وصفه الساقية وقواديسها [أى جرارها عندنا]: (١)

وهب صـــوت النـــواعيـــ ... ـــر وهـــو فى الشجـــو مـــر
إن الجرار وقـــد ضـــا ... ق بـــالقليـب الممـــر
تكسرت وهـــى تهوى ... فما تـــلاءم كسر
فتلك معصـــوبـــة الـــرأ ... س كـــم تنـــي وتخر
وتلك مـــرضى وهـــاتيـــ ... ـــك للخـــواطـــر قبر

ليت شعرى هل كان يمكنه تجنب «النواعير» وهى كلمة مع وضوح دلالتها غير مستعملة فى بلده وقد تعرف فى بلاد أخرى؟ ألو تمسك بالسواقى وهو اسمها المعروف فى بلده أما كان ذلك أقوى لأمره و إن اضطره الى تشديد الياء مشعرا لها صنفا من نسبة. وكذلك الجرار فالجر ــ بفتح الجيم ـ فى عامية قومه هو حب الماء الكبير [الزير] وجرة الساقية الصغيرة التى إنما هى دلو اسمها عندنا القادوس وقواديس الساقية جرارها كما مر بيان ذلك منذ حين قريب على أن استعمال الجرار هنا يشفع له أنها أوضح لقراء العربية. ثم قد آخى بين قاف "القليب" وقاف "ضاق" فاحتاجت راء "الممر" الى ما يؤاخيها ولعل هذا ما جعله يؤثر "النواعير" على "السواقى". وقد يرى القارىء بعد دقة الوصف وقوة ملكة اللغة ـ يعجبنى قوله «فتلك معصوبة الرأس» وقوله «تنى وتخر» إذ هكذا ترى كثيرا من قواديس الفخار والساقية بها تدور ولعل ما يخلص منها من مائها متشلشلا سربا الى قليبها بمقدار ما ينساب فى الجدول أو أكثر وقوله "وتلك مرضى" أراد به عدة قواديس إذ "مرضى" جمع. ويجوز فى قوله "فتلك

---

(١) سبقت الإشارة الى مطلع هذه القصيدة:

يا درة حفها النيل واحتواها البر

بمعرض الحديث عن بحر المجتث فى الجزء الأول من المرشد وكانت للمؤلف كلمة عنها فى مؤتمر المجمع بالقاهرة سنة ١٩٨٤م

معصوبة الرأس " وقوله «وهـاتيك إلخ» أن يكون اراد به الجمع أو المفرد و إرادة المفرد فى المعصوبة أحب إلى وأقوى فى التصوير.

ومن عـلامات الـرومنسية والتأعصر قـوله، والأبيات مـن هذه القصيـدة نفسها إذ يقول :

كـــــم ذا تمازج فـــــــن	على يـــــديـك وسحـــــــر
يخور ثـــــور وتثغـــــو	شـــــاة وتنهــق حمر
والبهــم تمرح والـــــــزر	ع مــــــونــق مخضر
تجاوب الطحــن واللحـــــ	ــــن والثغـــــاء المسر

وموضع الرومنسية مدح البداوة والتعلق بالطبيعة هاهنا. وجزيرة "توتى" الموصوفة فى هذه القصيـدة فى وسط بحر النيل بين الخرطـوم وأم درمان [البقعـة] وكانت بـادية محضة البداوة الى زمـان قريب. وقوله رحمه اللـه «تجاوب الطحن واللحن» أمر ينبغى أن يشرح وليس مشروحا فى الـديوان إذ كـان ـ أيـام طبعه ـ هذا المعنى معـروفا، وذلك أن النساء كن يطحن الذرة على المراحيك، وطحن المرحاكة هو الموصوف فى قول الحماسي :

تقـــول وصكت نحـــرهـا بيمينهـــا	أبعلى هـــذا بـــالـــرحى المتقـــاعس

اذ الرحى التى تدور لا تقاعس معها ولكن الذى يبرك ليطحن بالمرحاكة يبرز صدره و يتقاعس.

وكانت البنـات حين يطحن بالمراحيك (١) يتغنين بأراجيز لهن وربما شكـون فيهن الأسى والعناء

ومن مواضع الرومنسية قوله الذى مر فى جرار الساقية :

وتلك مـــــرضـى وهـــــاتيـــــ	ـــــك للخـــــواطــــــر قبر

(١) الذى فى القاموس رهك بالهاء (باب منع) ـ ولكن الهاء مما تصير حاء كما تصير الحاء هاء، من ذلك قولنا رحط بالحاء لإزار السيور الـذي تلبسه البنت الصغيرة وفى المعجم بـالهاء وفى العاميـة نقول رهك وهى تـرهك للدلالـة على كثرة الطحن وفى عاميتنا كثيرا ما تصير الهمزة عينا كسعل فى سأل وجعر فى جأر.

فقد جسدها كما ترى، ولا يخلو مراده من غموض. أى تلك الجرار متداعية منهارة وهاتيك لا أمل فيها وفى صناعة البيت تعب. هذا، ولعل قوله «للخواطر قبر» له ارتباط معنوى بذكره الفلاحين من بعد، أى حال هذه الجرار قبر لخواطرهم لقلة المال الذى يجعلون به جرة أخرى فى مكانها.

ومن تفصيله مما سبق الاستشهاد به فى الحديث عن بحر المجتث فى الجزء الأول من هذا المرشد، يذكر شجرة مطلة على الشاطىء:

ورب قنـــــواء للعصـــــــــــ ـــــــم والأنـــــوق مقـــــــر

وقد سبق مأخذنا ما أخذنا على هذا البيت

أوفى على النيـــل فـــــــــــرع منهـــــا وأشرف جـــــذر

هذه صورة غاية فى الدقة، ثم زاد فى تفصيلها حيث قال:

يقلهـــا الـــدهـــر عـــرقـــا ن مستطيـــــــــــــل وشبر
يكـــــاد يلفظهـــــا الشـط وهـى شمطـــــــاء بكـــــــر

وبعد وصفه الطحن واللحن والجرار التى حالها للخواطر قبر، صور الزراع، وقلما تستعمل كلمة "الفلاحة" والفلاح عندنا، وإذا قيل فى الدارجة "فلاحة" بفتح الفاء فهو الفلاح وصاحب "الفلاحة" التى من هذا النوع «فالح ناجح»

كـم فى المزارع قـــــــــوم شـم العـــــرانين صعـــــــر

كل منهم سيد نفسه

هبــــوا سراعـــــا إليهـــــا وليس منهـــــا مفـــــــر

لفرط الشقاوة فى السقى والحرث، والأرض صلبة وحر النهار ساعر، ولكن لا بد مما ليس منه بد

ذيـــــاك يعــــزق فى العشـــــــ ـــــب جــــاهـــــدا مــــا يقـــــر
وذاك يعنيـــــــه حــــــــرث وذاك يعنيـــــــه بـــــــذر

ومـــــــــــاج فى الغيـط نــشء   مـلء النـــــواظـــــر خـــــزر

الغيط كلمـة مصريـة لا تقال عنـدنـا فأحسبـه اضطر ليقيم بها الـوزن وهى بعـد عربيـة . وأما " خزر" فقد جلبتهـا القافية، ولها بعـد معنى صحيح فى هذا الموضع لأنهم يعملون مع آبائهم وينظرون من جانب وبتضييق للعين من الغبار، وأراد أنهـم حـزاورة لهم نشاط، فهم ملء النواظر وهم بشيطنتهم خزر العيون

هنـــــاك فـــــول وهــــــذا   ك فى السنـــــابل بـــــر

وله فى صفة الغلام يسير الى "الخلوة" [كتاب القرءان] كارها :

هب من نــومــه يــدغـدغ عينيــــ   ـــه مشيحـا بـوجهــه فى الصبـاح

هنـا مضغ للكلمات فيـه حسن الترنم، ولكن فيـه لينـا، ذلك بأن قـولـه «هب من نومه» كـلام تام، "يدغدغ عينيـه" بعده نوع من استدراك ومضغ على مـا فيه من زيادة الوصف، وكذلك قوله من بعده «مشيحا بوجهه» إذ من يدغدغ عينيه يشيح ضربة لازم

سـاخطـا يلعـن السماء ومـا فى الــ   أرض من عــــالم ومن أشبــــاح

هنا مبـالغة أشبه بعقول سخط الكبـار منها بعقول سخط الصغار. والأشبـاح ليلية لا نهارية ـ وغير خاف أن الغلام هنا هو الشاعـر، يفكر آنا بالذكرى وآنا بالحال والحاضر فيلعن السماء والأرض على لسان هذا الصغير الذي يتذكره. ولعنة السماء من لسان ابن الجامع ـ أو قلمه ـ آبدة، رومنسية ثالثة!

حنقت نفســـه وضـــاقت بـــه الحيــــ   ـــلة فـاهتـــاجـه بغيض الـــرواح

الرواح فى اللغـة الفصيحة يكون مساء وفي الـدارجة مما يقع على الغدو والـرواح جميعا. ولكن فى البيت طولا فيه تلمظ للكلمات، هذا من التليين. وهذا البيت والذي قبله لو جاء بهما أوجـز لكان ذلك أفصح، ولكن الإطناب أدخـل فى معنى التأمل الرومنسى. والأبيات التالية فيهن وصف متقن صادر من خيال خصب.

وأهـــابـت بـــه الظــلال وقـــد نشـــ   رن فى جلـــوة القـــرى والبطـــاح

كأن فى كلمة «البطـاح» قلقا إذ البطاح لا تقـابل القرى، إذ القـرية قد تكـون بالأبطح وغيره. وهل عنى بالقـرى ما كان "بأم درمـان" من حلل كالمتفـرقات، بينهن ضروب رواب وحفر وبطـاح؟ أم ليت شعرى هل رأي، هل اتفق له أن رأى ديار أصـول أهله وعبر النيل من ناحية المحمية حيث المطمر والجبل والمبانى على التل والظلال قد تنتشر من ثم الى الأبطح فعلقت هذه الصورة بذهنه؟ ويظهر من حديثنا مع من لقينا من أهله أنه لم يرم أم درمان.

ومشى بـــارمـــا يـــدفع رجليـــ ـــــه ويبكـى بقلبـــــه الملتـــاح

صورة الرجلين وقد يركل حجرا هنا وحجرا ثم، جيدة بالغة.

ضمخت ثـــوبـــه الـــدواة وروت رأســـه مـن عبيرهـــا الفيـــاح

كأنـه كان يحمل الـدواة على رأسه أو يمسح رأسـه بـالقلم. ومداد الـدواة من السكن [بالتحريك] وهو فى عاميتنا السواد الذى تتركه النار على الآنية مع الصمغ ولذلك فيح من تخمير الصمغ. ولعل الغلام كان يلبس خرقـة واحدة فوق السراويل، وكانت تلك عادة قـومنا حتى جاء تغيير هذا الـزمان. رووا عن الشيخ ود الشيخ الطاهـر المجذوب رحمه الله أنه قدم «البقعة أى أم درمان» أول أيام الاستعمار بالثوب مخالفا بين طرفيه، كما جاء في السنة وكذلك كان لباس الناس عندنا عامة والفقراء" [أعنى العلماء] خاصة. وإنما استقدم الشيخ رحمه اللـه تحت المراقبة لسابقـة قتاله الكفـرة مع عثمان دقنة رحمهما الله تعالى. وكان الشيخ البـدوى، رحمه الله، شيخ الجامع وكبير العلماء آنئذ قد شفع فيـه فلم يعدم، وأشـار عليه بأن يتخـذ زى العلماء وهو الجبـة والقفطان والعمـة ذات الطربـوش الأحمر المغربي فأبى ذلك واحتج فيها ذكـروا بأن الثوب الذي يلقى بـه ربه في الصلاة ليس أحـد من البشر، حكام أو سـواهم، بأكبر من أن يلقاه فيـه، رحمهم الله جميعا:

ورمى نظـــرة الى شيخـــه الجبـــ ـــار مستبطنـــا خفـى المنـــاحى
نظـــرة فسرت منـــازع عينيـــ ـــه ونمـت عما بـــه مـن جـــراح

الذي رمى نظرة غـلام شيطان ناشيء وهذا الـذي به جراح هو التجـانى الشاب الذي يريـد حطم القيد وقـد ثقلت عليه قيـود الحياة ويحس فى أغوار صـدره وجع المرض ثم

انظر أيها القارىء الكريم الى هذه الصورة من قراءة «حيران الخلوة» أي غلمانها المفرد حوار بتشديد الواو وتخفيفها وضم الحاء المهملة

ونفـوس سجا الكـرى فى حـواشيــ ـــها ودب الفتـــور فى الأرواح

هذه قد تكون نفوس ركب مسافرين. وهذا من التجانى فيه جمع بين إطناب بالكلمات كأنها هى المرادة لجرسها دون ما تدل عليه من صور، وبين محاولة التصوير فى نفس الوقت. هذا التلذذ والتصنيع هو من باب ما قدمناه أولا من تليين فى صياغته هو بلا ريب جزء من نعومة «الرومنسية» الانتماء الى رونق حضارة العصر وأناقتها بتخير اللفظ الفصيح الحلو المتحضر ذى الظلال

فـارجحنت مهـومـات ومـا تبـــ ـــرح مـركـوزة على الألــواح

" ما تبرح إلخ " عربى فصيح. «فارجحنت مهومات» الفاظ متخيرات لهن ظلال. ولو قد أراد التجانى أو سمحت نفسه لشدة الأسر لكان يؤثر الخلوص الى إنجاز الصورة واضحة على البدء بتزيينها قبل تمام الإنجاز، تأمل قوله:

كلما لفهـا النعـاس وأضفـى فـوقهـا عـالما نـدى الجنـاح
قصف الـرعـد فى المكـان ودوى مـرزما صـاخبـا قـوى الصيـاح

فهذا ما ترى من الاستعارة المرشحة [لفها - أضفى] والتشبيه المشتمل على إشارة قرءانية (أضفى فوقها عالما ندى الجناح) من قوله تعالى «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» وفيه نظر الى قول ذى الرمة:

طـراق الخوافى واقع فـوق ريعـة نـدى ليلـة فى ريشـه يترقـرق

وبعد قوله «قصف الرعد» إطناب ضخم فى قوله: دوى، مرزما، صاخبا قوى الصياح. ثم يقول من بعد:

فاستفاقت وهينمت بعض أشياء...

وهذا نعت صلت مباشر وصورة حال الصغار إذ ينام منهم من ينام إعياء ويتناوم من يتناوم عفرتة، ثم يزجر الشيخ الجبار - كالحجاج بن يوسف - زجرته فيصحو النائم والمتناوم ويهينم الحوار إذ يكون قد نسى موضع ما يبدأ به. قوله« هينمت» على حسن

جرسه وجودة تصيد اختياره، هو اللفظ الدقيق المعبر حقا في هذا الموضع ولكن تمام البيت«. . . وعادت وعاد قصف الرياح» جار على ما سبقه من أسلوب الاستعارة والروح الرومنسى التلمس للتعبير والتصوير، إذ ليس ههنا قصف ولا رياح، ولكن هذا تمثيل مثله الشاعر لزجر الشيخ وهوله واستعان عليه بطبيعيات الرومنسيين وزينه بما له من عناية ومعرفة بالألفاظ والتلذذ بنقائها وحلاوتها.

هذه الزينة التى مردها إلى إيثار الاستعارة والتشبيه والجرس اللذيذ هى عطاء «ومساهمة» متعمدة يجود بها التجانى من ثروته اللغوية البيانية ليزيد بها إنتاج التجديد العربى وفي طى ذلك تنبيه الى مكان نفسه ومكان الجامع من هذا العطاء

وهذه المساهمةتأمل قوله «دوى» بالتضعيف، قل من الرومنسيين من يجىء بهذا الفعل مضعفا وإنما يقال دوى (باب ضرب) بالتخفيف ولعل القياس يجيزه ولكنه أى هذا الثلاثى المخفف ليس هو الفصيح الجيد على الأرجح إذ لم يرد في القاموس. وتأمل قوله «هينمت بعض أشياء» إيجازه وفصاحته. وتأمل جودة الاستعارة في «لفها النعاس»

ومن شعر التجانى المشهور قوله فى النيل:

أنت يا نيل يا سليل الفراديـــ ... ـــس نبيل موفق فى مسابك

كم نبيل بمجد ماضيك مفتو ... ن وكم ساجد على أعتابك

وكأن القلوب مما استمدت ... منك سكرى مسحورة من شرابك

قوله "كم نبيل" هل عنى به "شوقى" وهل يعرض بأنه لم ير من جمال النيل إلا مجد الفراعنه؟ ويكون هو الرومنسى الساجد على الأعتاب، وقد صار النيل معبدا ذا أعتاب؟ قوله يا سليل الفراديس تعبير عصرى رقيق، أصله دينى إذ هو من حديث المعراج ـ أصله من الجامع وقد جعله التجانى بروح عصريته كأنه ليس أصله من الجامع. ومن الجامع، مع اعتداد بذلك خفى، أصله. هذا أمر آخر به التجانى مختلف عن الشابي: اعتزازه بالتحصيل الذى ناله من علوم العربية والدين. كأن التجانى بهذا الاعتزاز فيه أنفاس من الضرب الذى ذكرناه أولا من الرومنسية، ضرب الرافعى الذى أدخلناه فى الرومنسية لنخرجه منها، غير أن التجانى بما خالط نفسه من ثورة على المحافظة ورغبة شديدة فى التجديد وإيمان بضرورته مع الإحساس القوى بروح الحركة الوطنية ومناهضة الاستعمار، ثم يخالط ذلك كله نوع من فتنة بنعيم النصارى الذي تمثله الخرطوم وبيوت الحكام البريطانيين ذات البساتين، وصنوف الأجانب من تجار وحاشية أخلاط بينها «البقعة المباركة» ـــ أى أم درمان، يسير السائر فى نصف

نهارها الأحمر الأغبر «وقد خبء آل الأمعز المتوقد» كما قال طرفة بن العبد فى المعلقة.
قال التجانى رحمه اللـه يذكر "برومبناد" الخرطـوم من ضروب نصاراها وأجانبهـا ونابتة مظاهر نعمائها وسرائها [وقد مـرت هذه الأبيات فى معرض الحديث عن بحر المجتث فى الجزء الأول من المرشد، وكان زميلنا الأستاذ حسـن الطاهر زروق رحمه الله وجعل الجنة مثواه يحسن الترنم بها بصوت عذب الشجى عميق]:ـ

آمنـت بـــــالحسـن بــــــردا	وبـــــالصبــــابــــة نــــارا
وبــــالكنيســــة عقـــــدا	منضــــــدا مـن عـــــــذارى
وبــــالمسيح ومـن طــــــا	ف حــــــولــــــه واستجـــارا
إيمان مـن يعبـــــد الحســـــــ	ـــــن فى عيـــون النصــــارى

وأبت هذه الأبيات إلا أن تعلن إسلاما ـ البرد والنار مـن سورة الأنبياء «قلنا يا نار كونى بردا وسـلاما على إبـراهيم »، والطواف بـالبيت الحرام والجوار بالحرمين، وركـز الجامع رايته وثبت ثبـاتا بالرغم من إيمان ابنـه بعبادة الحسن فى عيون بنات نصـارى الخرطوم.
وللتجانى رحمه الله شعر ذكر فيه وحدة الوجود بشىء بين التأمل والتصوف:

الـــــوجـــــود الحق مــــا أو	سـع فى النفس مـــــــــــداه
والسكــــــون المحض مــــا أو	ثـق بـــــالـــــروح عـــــراه
كـل مـــــا فى الكــــــون يمشى	فى حنـــــايـــــاه الإلـــــه
هـــــذه النملـــــة فى رقـــــــ	ـــــتها رجـع صــــــداه
هــــو يحيـــا فى حــــواشيـــــ	ــــها وتحيــــا فى ثـــــراه
وهـى إن أسلمـت الـــــــرو	ح تلقتهــــــــا يــــــــداه

فهذه أفكـار وحدة الوجـود التى سهكتها كثـرة الاستعمال. وللتجانى كما قدمنـا حذق وشغف باختيـار اللفظ ورنين النغم، فهذا ممـا تأعصر به ومما يبـاعده من نـوع رومنسية الدفاع عن القـديم عن أخذه منها بنصيب. وطبع التجـانى جيد. لعله لو كـان مد له فى الأجل، "لكل أجل كتاب"، لكان أسمح به إسماحا.
أحسب أن مكان التجـانى رحمه الله فى مقدمـة الإجادة الرومنسية، غير أنـه أجحف به كونـه من أم درمان، بقعـة المهدى المباركـة، القصية جدا عن مـراكز التقـدم والحضارة العصرية العـربية. صـدق صاحب معجم البلدان يـا قوت حيث زعم فى حـديثه عن تلك البلاد أنها أشبـه بلاد اللـه باليمن وأن في عيش أهلها شـدة، لعله منهـا، أنه قلما يفطن الى مكان المحسنين من أهلها مـؤرخو الأدب وأصحاب التراجم. ولليمن، وهى أصل العرب، وهى الغنية بذخـائر الكتب وفطاحل العلماء وفحول الشعراء من الإهمال

قسط وافر. ولعل ذلك كله خير فليس كل الشهرة بسعادة.
هذا، ومن شعراء الرومنسية الذين ينبغى أن ننبه على مكانهم محمود حسن إسماعيل رحمه الله، لا من أجل مجرد أنه من أسماء الرومنسية من هذا الضرب الرابع على الأرجح ونماذجها، ولكن لأنه كأنما هو نموذج لضرب لو كان أصلا قائما بنفسه لجعلناه ضربا خامسا. ذلك بأنه شاعر أخاذى تلفيقى.
أصل التلفيق فى الفلسفة ألا يلزم الفيلسوف مذهبا بعينه، ولكن يؤلف لنفسه مذهبا من مذاهب متعددة، ليس واحد منها له. يقال لذلك باللغة الإنجليزية Eclectic [إكلكتك] واشتقاقها من اليونانية التى من فلاسفتها أخذ هذا المعنى. ثم قيس على ذلك كل ما يذهب إليه من تلفيق المذاهب مفكر أو فنان على وجه الاستحسان فيجعله منهجا أو كالمنهج لنفسه. انتماء محمود حسن إسماعيل رحمه الله الى صناعة من الشعر تجنح الى الضرب الرابع. وتستعين ما للرافعى رحمه الله من إغراب، وقد مرت منه أمثلة. وتأمل قوله فى "أوراق الورد" [ص٤٤] «فالعاشق الرقيق على فرط رقته هو لفرط رقته وحش فى عالم الحب، ما منه فكر لو فتش إلا فتش عن معنى يفترس، إذ يشعر بالحياة في نفسه لا غذاء لها إلا بمعانى حبيبته، فيأكلها حتى بالنظر، «ويفترسها حتى بالخاطر»
ههنا عنصر ما يسميه "ماريو براز" ظلال "المركيز دى صاد"، أى "السادية" التى تلتذ بنوع من افتراس المحبوب وإيجاعه. احترس الرافعى رحمه الله فجعل افتراسه بالنظر. وهو للمتأمل افتراس كما تفترس الضياغم. ومكان الإغراب اللغوى لا يخفى وهو المقصود الذى تعمد الرافعى، نضر الله ثراه، القصد إليه ـ "يأكل حتى بالنظر ويفترس حتى بالخاطر". وتأمل قوله أيضا فى "أوراق الورد" يخاطب القمر [ص١٧] «من شبهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها، فتكاد أشعتك تقطف منها القبلة، ويكاد جوك يساقط من نواحيه تنهدات خافتة، وتكاد تكون مثلها يا قمر، مخلوقا من الزهر والندى وأنفاس الفجر» ـ ههنا إغراب ناعم كقول الرومنسيين الانجليز في لغتهم honey-dew أى "ندى العسل".
كمثل عناء الرافعى، رحمه الله، وتصيده للمعانى وإغرابه تجده عند محمود حسن إسماعيل ـ مثلا:

عابد النور جاء للنور يشكو	ظمأ فى الحشا لسحر ضيائه
وعلى الجفن ضجة مات فيها	ألق النور والتماع سنائه
وخبت بهجة الحياة وأضفى	بؤسها لوعة على لألائه

حنت الأعين الظماء الى الحسـ ـن وحنت دموعها لبهائه
وتمشى الهوى بأهدابها السو د فكادت تضيء من كهربائه

"كادت تضيء من كهربائه" كأنما جيء بها اختلاسا من الرافعي ـ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ـ من طريقة نثره التى قدمنا. ومن معادنها ضجة الجفن وموت ألق النور فيه و إضفاء اللوعة على اللألاء.

على أن الرافعي عناؤه الأكبر وتصيده للمعاني والصور فى النثر، وطبعه أسمح بالشعر، وكأن الإغراب في نثره حين يرومه شعرا يفلت من بين يديه ويرجع به الى مذاهب العذريين أو أصحاب البديع أو ما هو من مألوف طرائق النظم مثلا:

يا أفق هل خفت من شرارة تحت الضلوع اسمها الفؤاد

هذا لو وقع في نثر فيه صناعة المزاوجة وتقعيدها لكان إغرابا. ومما جاء فى الكلمة التى منها هذا البيت والضمير فى قال يعود على الأفق:

فقال وجه نرى خياله فى قلبك الحامل الضرر
ارجع فلو أن ذى الغزالة تغازل النجم لا نفجر

ومن معانى الغزالة الشمس أيضا. وقوله «لا نفجر» ذو روح عصرى علمى أو علمانى ولو كان قال "لانكدر" لكان ذلك قرآنيا أشبه به، وأحسبه لم يرد إلا المعنى العصرى والله تعالى أعلم. قال البهاء زهير (ت٦٥٦هـ):

فضح الغزالة والغزال فتلك فى وسط السماء وذاك فى وسط الفلا
عجبا لقلب ما خلا من لوعة أبدا يحن الى زمان قد خلا
ورسوم جسم كاد يحرقه الجوى لو لم تداركه الدموع لأشعلا

أحسب أنه لو عاش البهاء زهير فى بعض هذا العصر لعد من الرومنسيين بنحو قوله:

لى إلف أى إلف هو روحى هو حتفى
غاب عن طرفى وقد كنـ ـت أراه مثل طرفى
قبلى يا ريح عنى راحتيه ألف ألف

ومما ألح محمود حسن إسماعيل على الاستعانة به شعر أبى تمام. وأمثلة أخذه منه كثيرة. ليس ههنا موضع إكثار منها ونكتفى أن نشير مثلا الى قوله:ـ

وتمشى الهوى بأهدابها السو د فكادت تضيء من كهربائه
هجرت كوخى وهوى سحره وعشبه الزاهى ونواره

وجئت للقصر أنـــادي بـــه   معبـــودة غـــابت بأستـــاره
فـأطـــرق القصر كجفن حـــزين   ومـــاتـت الأصـــداء فى وحشتـــه
وضجـت العـــذراء فى ضمنـــه   ضجتهـــا الكبرى على غفلتـــه

قوله «فأطرق القصر» من قول حبيب:

لقـد أطـرق الـربع المحيل لفقـدهم   وبينهم إطـراق ثكـلان فـاقـد
وأبقـوا لضيـف الحزن مني بعـدهم   قـرى من جـوى سـار وطيف مباعـد
سقتـه ذعـافـا عـادة الـدهـر فيهم   وسم الليـالي فـوق سم الأسـاود

موضع الشاهد إطراق الربع الذي تحول إطراق قصر ماتت فيه الأصداء، وهذا متفرع من «سقته ذعافا عادة الدهر». وعذراء محمود حسن إسماعيل ذات الضجة من بكر أبي تمام التي ما «افترعتها كف حادثة»، بدليل قوله «الضجة الكبرى» مكان «الراحة الكبرى» في بيت حبيب:

بصرت بـالـراحـة الكبرى فلم تـرهـا   تنـال إلا على جسـر من التعب

ثم مع هذا إشارات إلى أخبار قديمة. «وجئت للقصر» فيه ذرء من خبر المرقش وفاطمة بنت المنذر وابنة عجلان. ولا ريب قرأ محمود حسن إسماعيل مفضليات شاكر وعبدالسلام هارون. وغفلة القصر أو الولي إن شئت وضجة العذراء، في ذلك معنى من خبر همام بن مرة وبناته اللاتي احتججن على غفلته عن حاجة من يكن مثلهن إلى الزواج: «أهمام بن مرة إن همي»، الأبيات وانظر القاموس مادة (قناف كغراب وكتاب).

وقال في أول كلمة عنوانها «وقفة حيال القصر» في ديوانه أغاني الكوخ:

يـا صرخـة الأعصـاب لا تهدئي   في مهجـة المحـروم عن مـورده
فـالنـار مـا زالـت على مضجعي   تـذكـى بخـور القلـب في معبـده

ثم قال من بعد:

ظمآن يـا بـؤسي ويـا شقـوتي   والمنبع الصـافي لثغـري قـريب
تـروح روحي حـول سلسـالـه   فيختفـي عنهـا كأني غـريـب

فهمنا إلحاح أخذ من أبي تمام. الشاعر الرومنسي واقف عند القصر نحوا من وقفة أبي تمام في «أطرق الربع إلخ» وجزع كجزع أبي تمام حيث قال:

هـا إن هـذا مـوقف الجـازع   أقـوى وسـؤر الـزمـن الفـاجع

وبخـور القلب من قبيلة استعـارات أبي تمام، أي القلب الـذي صار بخـورا في

المعبد الذي هو الحبيب أو ما يمت إليه بسبب، والثغر والسلسال من:

عـداك حـر الثغور المستضـامـة عن بـرد الثغـور وعن سلسـالها الحصب

وقوله «تروح روحي إلخ» و «تذكي بخور القلب» كلتا هاتين العبارتين ملفقة من قول حبيب :ـ

أنبطت مـن قلبي لـــوأيـك مشرعــا ظلت تحوم عليـــه طير رجـــائي

القلب هنا مشرع، مورد، ماء، وعند محمود حسن إسماعيل بخور، وعند الرافعي شرارة، وتحوم وتروح وتذكى بمعناه المقلوب، كل ذلك قريب من قريب.

هذا والحسناء بلا رحمة وفارسها الكئيب

يأيها الفــارس في الــدرع مــا تألم فـــذا في شحـــوب تســـير

من بعد ما جف نبات الغدير

وازن بين هذا من معنى أبيات «الحسناء بلا رحمة لكيتس» وبين قول محمود حسن إسماعيل:

هجـرت كـوخـي وهـوى سحـره وعشبـه الـزاهـي ونـــــواره

وجئـت للقصر أنـــادي بـــه معبـــودة غـــابـت بأستـــاره

يـــا قصر قـــد طـــال وقـــوفي ألا يشرق منـك الحسـن للهـــاتـف

أجـب تكلـم إن سحـــــر الهوى طـــار بـــرشـــد المدنف الـــواقف

هنـا اتحاد بين فارس كيتس الكئيب ووقفـة جـازع أبي تمام عند الـربع الذي هـو «سؤر الزمن الفاجع»

ولمحمود حسن إسماعيل كلمة عنوانها «أحزان الغـروب» هل هذه ترجمة من شعر بـودلير المنثـــور Lecre,puscule du soir «شفق الغـــروب» أو مـن أزهــــار الشـــر Les Fleurs du Mal ـ انسجام موسيقى الغروب Harmonie du Soir

Le ciel est triste et beau comme un grand resposoir

السماء حزينـة وجميلة مثل صلـوات موكب كنسى كبير وأول كلمـة محمود حسن إسماعيل:

مـات النهــار وهـذي الشمس جـازعـة عليــه تخطـــــر في دامي الجلابيب

كأنهــــا نعش خــوفـو مــال متكئـا على سريـــر بـذوب النـور مخضــوب

صار الموكب الكنسي فـرعونيا كما ترى، والنظر إلى شـوقي لايخفى. ولا تستبعدن الأخذ مـن بودلير Baudelaire ورجـال رومنسية فـرنسـة فكل ذلك قـد ترجم منـه كثير

والعارفون به المتحدثون عنه في مجالسهم كثيرون. ومما فيه ظلال فارس حسناء كيتس التي بلا رحمة "La Belle Dame Sans Merci" :ـ

وأي مـــا أي ومـــا أمـــرهـــا والقصر في إغفـــاءة الـــذاهـل

والهـــــاتف المحـــروم لما يـــزل يشكـــو الهوى في ذلـــة الســـائل

وسؤال «أي» صدى من دروس النحو:

أي كما وأعـــربـت مـــا لم تضـــــف وصـــدر وصلهـــا ضمير انحـــذف

وعارض في موصوليتها أبوالعباس أحمد بن يحيى ثعلب فيما نقلوا.

وفي «كنز الذهب الأبيض، زهرة القطن» (ص٢٢ من أغاني الكوخ الطبعة الثانية١٩٦٧) :

وبـــدت صفـــراء تحكى غـــادة ذبلت نضرتها يـــوم الـــوداع

هذا التشبيه غير جيد لأن نوارة القطن «فاقع» لونها تسر الناظرين» وقد رجع هو نفسه من بعد إلى هذا المعنى:

تخـــــفق النسمـــة في أهـــدابها خفقـــة العـــاشق في ليل الـــزمـــاع

فسره بالسفر، أحسبه ينظر إلى كلمة ابن زريق «إذا الزمـاع أراه في الرحيل غنى» والزمـاع بفتح الزاي وكسرهـا هو العـزم فظن أنه السفـر وما ظنـه يحتمل أي العزم على السفر:

فتراهـــا في الـــربى راقصـــة زانها الضـــوء بـــزهـــو والتماع

فهـذا رجوعـه إلى «فاقع لـونها» لا ذابلـة نضرتها. ونريـد أن نشير بعد إلى خفقـة النسمة، فهل أخذها من إبراهيم ناجي «خفقة المصباح إذ ينضب زيته» وهي مما عسى أن يحسب من حسان كلماته ومرت في باب الرمل في جزئنا الأول.

ولمحمـود حسن إسماعيل مثل التجـاني يوسف بشير ولع بصفـة الـريف والجرار والسواقي. وعنـدي أنه، حاكى التجـاني، إذ التجاني نشر عددا من قصـائده في مجلة الفجـر وكانت غير مجهـولة المكـان بمصر. وقـد دار نقاش لم يخل من حـدة بين رئيس تحرير الفجر عرفات محمد عبدالله والأمير عمر طوسون رحمهما الله، كان من أسبابه أن الأمير لم يرض بعض مـا جاء في الفجر من الحديث عن تقـرير المصير وما يشعـر بروح الانفصال عن مصر وإنما نشر ديوان محمود حسن إسماعيل عـام ١٩٣٥ قريبا من زمان انتهاء الفجر وموت عرفات محمد عبدالله وفجره التي ماتت بعيد موته.

وبلغني ولا أشك في صحته لتواتره أن التجاني رحمه الله كان قد بعث بنسخة من ديوانه خطية إلى أحد الأدبـاء الشعراء بمصر ليتولى نشره والإشراف على ذلك من أمره، فيـذكر أن الـديوان كـان يقـرأ ولا يجد سبيلا إلى نشره حتى استردت نسخته بعد عنـاء

طويل. ورب شيء كهذا، كما يقول سيبويه. وذكروا أن أبا عمر الجرمي لما خشي هو وآخرون معه أن يدعي سعيد بن مسعدة كتاب سيبويه حملوه حملا على إظهاره للناس. ولعل هذا الخبر باطل لما نص عليه ابن جني في الخصائص أن صدق أبي الحسن يكاد يعلم بالضرورة.

وكاد هنا تنفي «بالضرورة» لا الصدق نفسه وأبو الحسن هو سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط. وسقنا هذا الخبر لمناسبته ما قبله. وقيل إن الأديب الشاعر الذي بعث إليه التجاني ديوانه هو الدكتور ابراهيم ناجي، رحمهما الله.

هذا، وقوة الشبه في موضوعات الأوصاف بين التجاني ومحمود حسن إسماعيل أحسبه من تلفيقية محمود حسن إسماعيل، أعنى مذهبه الأخاذي المتنقل بين المذاهب التلفيقي من أصنافه (eclectic أي الاكلكتكي). يأخذ ويفتن بزيادة صنعة فيما يأخذه. وهذا كأنه أدنى الى السرق منه الى التوليد الذي مدحه البرقوقي رحمه الله في صناعة أبي الطيب. وكأن محمود حسن إسماعيل نحلة تمتص كل زهرة ثم تعمل لتزيد على ما أخذته وهو ماء نوار ورحيق ضروب أزهار تصييره بعملها عسلا كثيفا وشمعا. غير أنه رحمه الله يشارك النحلة في العمل وجده وكده والمرام الذي يرومه به، ولا يشاركها فيما تصيبه من الزيادة على ما أخذته إلا جهد العمل المفرط نفسه، وذلك لعمري هو العناء[1]. وكأنه من ذكره النحلة مرارا في شعره صريحا كما في قوله.

ويخلو مع النحل في ربوة   منغمة الصوت من غير عود

وقوله:

ينهل الفلاح من كوثره   ريقة النحل وسلسال الدماع

خفف ميم الدماع والوجه تشديدها بوزن الرمان أي ما يسيل من العنب.

وقوله: بين ترتيل السواقي   وزفيف النحلات

وقوله: لها طنين النحل في قفرة   يهماء لم تبق على شهده

أو مضمنا في استعارة ومعنى تشبيهي كقوله:

أو مصت الأنواء   من زهره الأفواف

---

(١) وجدت بعد الفراغ من كتابي كلمة د. أنس داود يذهب الى وجه مقارب ما ذهبت إليه في كتابه «شعر محمود حسن اسماعيل مصر ١٩٨٦ ص٤٩ - إذ ينفي عنه الايحاء فتأمل.

الأنواء هنا كنحلة تمص من زهر أفواف، وكقوله

أو تكـن وردا فيـــــــــــــاهـ ـــفة نفســـــــي لعبـــــيرك

جعل نفسه كنحلة وفي البيت قبله كفراشة وهو قوله:

إن تكـــــن نــــــارا فما أشـــــ ـــهى خلـــودي في ســعـــــيرك

وقوله:

طـوافــة بـالـزهــر تنشق عطـره وتحيلـه في الطـرس همس ذبـاب

لا يعنى به ذباب البيوت ولكن ذباب عنترة المترنم، والطواف بالزهر عمل النحلة... كأنه يرمز بالنحل لنفسه، وهذا البيت الذي مـر «طوافة بالزهر إلخ» مما يشهد بذلك. أما قولنـا إنه لم يشارك هذا الرمـز الذي رمز به لنفسه إلا في العنـاء، فذلك أنه قل شيء ذكره التجـاني إلا أفعمه هـو تفصيلا. وقـد أفرد قصـائد لزهـرة القطن، كنز الـذهب الأبيض [ص ٢١ من أغاني الكوخ طبعة ١٩٣٥].

حين ذاب الطـل في كـــــاســـــاتها لـــؤلـــؤا يجري على كف الشعـــــاع
لثمـت خــــــــد الضحـى وابتسمـت كـابتسـام الطفل في عهـد الـرضـاع

وللساقية (ص٧٥) وسماها القيثارة الحزينة

نـــاحت فـلا الـــزهـــر على عـــوده ألقـى عقـــــود الظـل في جيـــــده
ولا مغنـى الطير في وكـــــــــــــره رق لها وازور عــن عــــــــــــوده

وللسنبلة (٨٩ سنبلة تغني):

مـن لـــــــــه في الأرض ملـك مثـــل ملكـــي في الكثيـــب
مـــــــــــوردي النيـل وزادي مـن ثـــــرى النيـل الخصيـب

وهل عنى «بالكثيب» ساكنيه من الناس، إذ السنبل تصلحه الأرض الخصبة والكثيب رملي:

كلـل الفجـــــــــــر جبيني بـــالنـــدى الغض الـــرطيب
والأصيــــــــل البر ألقــــــــى تبره بين جيــــــــــــــوبي

فسر البر بإلقاء التبر، وإلا كان وصف الأصيل بالبر شيئا فيه غموض:

وشعـــاع الشمـس حيـــا في شروق أو غــــروب
لـــو رأى الــرهبــان طهــري وصــــلاتي في المغيـب
هجـروا الــديــر وخـروا سجــدا فــوق كثيبـي

وإذن فالكثيب للسنبلـة، فينبغي أن تكون سنبلـة دخن لا قمح ولا ذرة. ولماذا خص الرهبان بالدير؟ أمن أجل تشبيه السنبلة بفتاة ــ كفتاة النابغة الواقف أصيلانا عند ربع مية والقائل:

ولـو أنها عــرضت لأشمط راهب عبـد الإلــه صرورة متعبـد

فهـذا داخل في الاكلكتية. ؟ أتـراه أوقعـه في هذا الإقحـام ذكـر التجاني لـه مع الغيط والسنابل والفول والطحن في رائيته حيث قال:

وطـــاف حــــولك ركـب مـن الكـــراكـي غـــر
وراح يـــنفـــض عينيـــه مـن بني الأيـك حـــر
فماج بـــالأيـك عـش وقـــام في العـش ديـــر

وإنما جاء التجاني بـالدير لأنه ذكـر النواعير. عدل إليها عن السـواقي من أجل جرس الراء كما قـدمنا، وأيضـا لأن ابن المعتز جعـل رهبان دير «المطيرة ذات الظـل والشجر» «نعارين بالسحر» والسواقي نعارات بالسحر، ينهض إليها الزراع قبل آذان الفجر:
وللراعي (ص ١٤٠):

شجتنـي رنـــة العصفـــو ر في فجــر الــربى الســاجي

وهي ربى التجاني:

يـــا درة حفهـــا النيـــل واحتــــواهـــا البر
صحـــا الــدجى وتغشــا ك في الأسرة فجــــر
وصـــاح بين الــربى الغــــر عبقـــري أغـــر

ثم يقول محمود حسن إسماعيل:

وعــذب اللحن من شـــاد رخيـم الصـــوت صـــداح
فــــزنمت مـع المزمـــا ر أغنيـــات أفـــراحـي
نشيـــد الحقل والشـــاة ولحن الـــروح والـــراح

ولا أرى للراح حسن موضع هنا.
وللضفادع (ص١٨٨):

هـاجهـا في الليل صمت غمـرت ... كل نفـس فيـــه آلام الشجـــون
وضفـاف غـــارقـات في الكـــرى ... حـــالمات بأسى الـــريف الحزين
فغـدت تصرخ في جوف الـدجى ... صرخـات هتكـت ستر السكـون

الغدو لا يكون مع الدجى ، ولكنه أراد معنى الصيرورة

يـا ابنـة الطين لقـــد مل الـدجى ... لغطـــا من فيك مجهـــول الـــرنين

ابنة الطين مأخوذة من «ابنة النور» التي للشابي على الأرجح

ونقيقـــــا أزعجت ضـــــوضـــــاؤه ... أذن الكـــــــون وسمـــع النـــــــائمين
جـــاوبتـــه في الـــدجـى صـــافـــرة ... من بنـات البـوم صـــاحت في الـوكـون

وللبوم قصيدة [ص ١٨٤]:

وشيخـــــة عـــــابســـــة في الضحى ... غبراء تحكـي سحنـــــــة الملحـــــــد
النـــــور ضحـــــاك على وجههـــــا ... ضـــاف بـــوهـــد الأرض والأنجـــد
لكنهـــــا عميـــــــاء في حـــــالـك ... مـن غيهـــــــا ممتقـع أربـــــــــد

وللفراشة وسماها راهبة الضحى (ص ٢١٢)

وراهبـــــــة في الضحـــى أوقـــــدت ... من الـــــزهـــــر مجمـــــرة ذاكيـــــة
إذا فـــــاح منهـــــا العبير النـــــدى ... وطـــوف في الأيكـــــة الضـــاحيـــة

وقد ذكـر في قصيدة الضفـادع العشب والقثاء والبطيخ وعبـاد الشمس وذكر النـاعورة وثورها وسوط سائقه في "فم الريح" :

وكـم نــــاعـــورة نـــاحت ... على مستعبـــــد فيهـــــا
أسير الســـــوط كم ضجـت ... لـــــه يـــــومـــــا أغـــــانيهـــا

وثغاء الشـاة تهليل وتسبيح (ص ١٤٣) . وقد بعثر النور وذوبه مرارا ولم ينس من النيل دومه وسدره وزوارقه ونخيله ، ولم ينس من الرومنسيـة زورقها وملاحها ـ يقول في خصلة شعر حسناء (١٤٧/١٤٨) :ـ

يـــــا غـــــديــــرا ذهبيـــــا ... رق عـن نفح الأصـــــــائل
صفــرت سلســـالــه للصـــــ ... ــــب غيـــــداء الانـــــامل
قـــــــد تهادى فيـك مني ... زورق الـــــروح الحزينـــــة
وبكـى الملاح شجـــــــوا ... هـل تسمعـت أنينــــــــه
غنـــوتي الحيرى لكم طـــا ... رت هيـــامـــا فـــوق مـــوجك

ضلت الخلـــد فجـــاءت ... تـــرتجيـــه بين لجك
كلما يممت شطـــا ... منـــك لماح السمات
غـــامت الاجـــواء في عيـــ ... ـــني وضـــاعـت أمنيـــاتي

ولعله أن يقال إن تذويب النور وسكبه وهدهدته وذكر الطير والاماني والتغني بالطبيعة جملة وتفصيلا كل ذلك مادة مشـاعة للشعراء رومنسيين وغير رومنسيين ، وليس بعض الرومنسيين ، إن خصصنا الرومنسية بهذه المعاني بأولى أن تنسب إليهم دون بعض محمود حسن اسماعيل إذن يغرف من بحر الرومنسية العربية الجديدة الواسع ، ويقطف إن يك كنحلة من زهرها الكثير اليـانع ، وما شابه فيه التجاني يـوسف بشير ـ على تقدير سبق التجاني لـه كما يزعم من يـزعم ذلك مثلما نزعمـه ـ فهـو من توارد الخواطـر على المعاني المشتركة المشاعة .

ليس غـريبا أن يتفق لهذين الشـاعرين المتعـاصرين توارد الخواطـر في نظمهما على ذكر سنبل النيل وفوله وسدره وسواقيه . هذه حجة بينة قاطعة .

ولكن مـا رأي القارىء الكريـم أصلحنا الله جـل جلالـه وإياه في قول محمـود حسن إسماعيل في قصيدة القرية الهاجعة في ظل القمر (ص ٦٠)

لفهـــا الليل فـــاستراحت من الأيـــ ... ـــن على حضنـــه الـــرقيـق الهني
وســـدتها الأضـــواء من لمحهـــا الضـــا ... في وســـاد الطبيعـــة العبقـــري

كان ينبغي هنا نصب العبقري لأنها نعت (وساد)وهذه منصوبة ولا تصلح نعتا للطبيعة لانها مـؤنثـة ـــ وهل نجعـل هـذا من بـــاب الاتبـاع ؟ اللحن عنـد أظهـر

وحبتهـــا المهـــاد مـــوجـــة نـــور ... أشرقت في تـــرابها القـــرمـــزي
لمعـــات من جنـــة القمـــر الـــزا ... هي وفيـض من ثغـــره العسجـــدي
غـــرقت في جـــلالـــه الـــروح سكـــري ... من طـــلا جـــامـــه الـــوضيء السني
تنهـــل الحلـــم مـــن رؤى تتجلى ... هـــامســـات بكـــل معنى خفـي
رائعـــات الأطيـــاف لماحـــة الـــومـــ ... ـــض تهادي على مهـــــاد رضي
نسجتـــه يـــد الشقـــاء مـن العـــ ... ـــش فـــراشـــا لمستضـــام شقي
بـــائس شفـــه القنـــوع فـأغفى ... في حمى كـــوخـــه القنـــوع الأبي
صـــدف الحظ عن حظـــائره الســـو ... د الى ســـاحـــة الـــركـــاب الغني
حضنتـــه على الضنى قـــريـــة نـــا ... مـت على شـط جـــــدول ريفـي
لاح فيـــه نخيلهـــا خـــافض الـــرأ ... س كطيف في خـــاطـــر الصـــوفي
وصغى الســـدر للسكـــون كـــرهبـــا ... ن أصـــاخـــوا في معبـــد قـــدسي [1].

(١) صَغَا كَسما وسَعى صَغْواً أي مال

لفعتـه الأنـوار من بـردهـا السـا　　مي بثـوب من السنـا مـوشى
ورنـا الـدوم للشعـاع كملهـو　　ف، صبـا الى نهره الفضي [٢].
فـاستطـالت سيقـانـه تطلب النجـ　　ـوى وتهفـو الى الـوميض القصي
كعـذاري سبحن في لجة النـو　　رهيـامـا بفيضـه اللجـي

وحسبنـا هـذا القـدر من القصيـدة ولا يخفى أن هـذا البيت من قـول شـوقي :

كعـذاري أخفين في الماء بضـا　　سـابحـات بـه وأبـدين بضـا

ومحمود حسن اسماعيل كثير الأخـذ من شوقي ، وقـد كان شوقي رحمه اللـه كثير الأخذ كثير التوليد، وكم غيره منه كثير الأخذ والسرق قليل التوليد.
ومما يستطرد إليه في هذا الباب أن لـه قصيدة اسمها «العذراء الشهيدة» [ص ١٨٠] في غريقة مغلولة الساعدين سابحة بفتنتها المقتولة على أكفان الموج صاغها على وزن " هلا هلا هيا " [مجنون ليلى لاحمد شوقي الفصل الثاني ، أنشودة الحادي] :ـ

كـأنها مـوجـة　　في صمتهـا تخفـق　　لحنـا بـلا نـاي
أنشـودة اللجـة　　تقـول يـا جـاني
هـزأت بـالموت　　وأنـت لا تـدري　　فصغـت ألحاني

[وهلم جرا]
وقد افتن في القـوافي بأكثر مما افتن شـوقي ولكنه لم يبلغ حلاوة نغم شـوقي هذا وإليك هذه الكلمة من نفس البحر والروي من شعر التجاني :

امـلأ الـروح من سنـا قـدسي　　مبهـم كـالـرؤى وديع رضـى
قمـري كأنما سكـب البـد　　ر عليـه من فيضـه القمـري
واغمـر القلب في مفـاض من الفجـ　　ـر وضيء جم النـدى عبقـري
يثب الحلـم حـول مشرعـه السـا　　جـي ويجري مـع الضحـى في أتي
كم تطـل الـرؤى بـه شـارعـات　　في ينـابيع مـن جـلال نـدى
يتلففـن في جـوانـح بيضـا　　ء ويسحبـن مـن رداء وضي
ويحومـن سـومـا بـاسمات　　يتخففـن مـن هموم العشـى

«هموم العشى » هنا ليسـت صدى من Le Crépuscule du Soir ولكن تشير الى قـول النابغة «وصـدر أراح الليل عازب همه »الأبيات المشهورة وذكـر الكنهور في البيت التالي وفيه مذهب من الاشارة يشهد لصحة ما نذهب إليه ههنا .

---

(٢) هكذا في الديوان ويستقيم الوزن إن قلت «صبا نحو نهره» ولعله كذلك في أصله والله أعلم

ساحبات على الكنهور أصبا — غا رقاقا من واضح وخفي
ناسجات شفائف الافق الزا — هي برودا على الصباح السني
ذاب في الافق رافقا فوق هام الـ — ـبيد يهمي على ثرى بدوي
يغسل النوم من مضاجع رعيا — ن الصحاري ومضرب القروي
عجب للجلال والحسن ماجا — في إطارين فاتر وقوي
ينسجان الهوى من الفجر بردا — علويا لشاعر علوي
صاح من روحه وكبر في أعـ — ـماق دنياه صارخا كالصبي
أفهذا الجمال يا رب هذا السـ — ـحر من أجل ذلك الآدمي

هنا ذروة من ذرا التأمل الفكري ـ لله در المعري إذ يقول

والذي حارت البرية فيه — حيوان مستحدث من جماد

قصيدة التجاني أصفى ديباجة من قصيدة محمود حسن أسماعيل وأجود تشبيها واستعارة وأكثر معاني. والقصيدتان من نفس البحر والروى، قصيدة محمود إسماعيل في الليل المقمر على القرية وقصيدة التجاني يوسف بشير في قرية تستيقظ من قرى النيل الضاربة حولها الصحراء بجران ـ هل رأى جبيل أم على وسقادي؟ـ لا بل هذه البقعة المباركة نفسها ـ أم درمان، يدلك على ذلك قوله « رعيان الصحارى ومضرب القروى» وكذلك كانت أم درمان ولا يزال كذلك قدر منها كبير. وذكره المؤذن حيث جعل الحسن والجلال يتحدان في لحن شاعر علوي (أو علوي) هو المؤذن «صاح من روحه وكبر إلخ» ومن عجب أن لمحمودحسن إسماعيل قصيدة في أغاني الكوخ اسمها شاعر الفجر المؤذن وقدم لها بقوله (ص١٦٦) : «في ذلك الصوت العميق الذي يهتف في صمت السحر من القباب والمآذن تتدفق روحية الشرق، ويهتز الجو بأشباح وطيوف شعرية هفافة» ـ لا يعجبني قوله «روحية الشرق» في معراض الحديث عن الأذان، ولو قال«روحية الإسلام أو الدين الحنيف» لكان أجود وذكر الشرق كأنه ينظر الى الأمر من عين صليبية مستشرقة تضع الإسلام والبوذيةوالهندكية معا في رفرف اسمه الشرق وعند الإسلام أن هؤلاء مع أهل الصليبية كلهن شرك ـ ثم يقول محمود حسن إسماعيل:

وشاعر في الفجر يسبى النهى — بسورة جلت عن المأثم
خياله من سدرة المنتهى — ولحنه من وتر الأنجم

فهذا كأنه ترجمة وشرح لقول التجانى «علويا لشاعر علوي» ومع هذا فالتجاني أتم استيعابا لوصف الأذان: (ماجا في إطارين فاتر وقوي) ـ أي نحو صياح المؤذن حي

على الصلاة في المرة الأولى بنغم واحد وفي المرة الثانية بنغم مختلف بعضهم يطيله ويموجه وبعضهم يقصره ويبتره ـ حي على الصلاة. . . ة ـ كما يعلم القارىء أصلحه الله من آداء المؤذن على ترنيمتين أيما وجه من وجوه أداء الأذان اتخذ، أمبالغا في تحكيك الترنم وترجيعه أم غير محكك في ذلك ولا مبالغ. قول. التجاني« ساحبات على الكنهور» أي على السحاب الذي في الأفق وهي في رائيه أبي الطيب (باد هواك صبرت أم لم تصبرا) حيث قال:

الشمس تشرق والسحاب كنهورا

وقد سبق منا التنبيه على جرى التجاني في هذا على مذهب له في الإشارة، مع أن كلمة التجاني اليائية هذه في الفجر تراه قد استهلها بفيض ضوء القمر، وهذا المعنى واللفظ أيضا كلاهما في قول محمود حسن إسماعيل:

لمعات من وجنة القمر الـزا هى ومن فيض ثغره العسجدي

وكلمة فيض ههنا نمامة. ومكان «واغمر القلب» عنده ـ أى محمود حسن اسماعيل «غرقت في جلاله الروح». وكأن قول التجاني« جم الندى» نتجت منه«من طلا جامه» و «الوضيء السني» كأنهما ترجمة وتفسير ومحاكاة «لجم الندى عبقري» وقول التجاني «يثب الحلم» يقابله عند محمود حسن إسماعيل « تنهل الحلم إلخ» وجاءت كلمة «الرؤى» في هذا البيت وهي في بيت التجاني الذي يلي «كم تظل الرؤى به شارعات إلخ» «ولفها الليل» التي في أول كلام محمود حسن إسماعيل هى في قول التجاني «يتلففن في جوانح بيضاء» وللقارىء بعد هذا أن يتتبع الأبيات ويوازن بين ألفاظها ومعانيها فإنه واجد من شدة التشابه عجبا. فلا بد من القول بأن أحد الشاعرين أغار على الآخر. ولقد مات التجاني وهو ابن خمس وعشرين وديوانه الذي خطه بيده يقرأ عند من أودع عنده في مدينة القاهرة وبعض شعر التجاني قد كان صدر في الفجر شيء منه قبل صدور الطبعة الأولى من أغاني الكوخ، فالأمر يحتاج الى تدبر ونظر ــ والله تعالى أعلم. لا يخفى أن كلام التجاني أصيل من عند نفسه ليس بتلفيقى. ومع ما يظهر من زيادة محمود حسن إسماعيل على التجاني في التفاصيل نزعم أن المتأمل ربما وجد أن التجاني أكثر استيعابا لمناظر القرية. الصبي ــ تلميذ الخلوة ودواته وأثوابه ـ غسل النوم ودغدغة العينين أول الاستيقاظ عند الصباح. ثم أخذ الصور البيانية من حياة القرية المسلمة ـ الدير مأخوذ من كلام ابن المعتز.

إنما وقفنا هذه الوقفة عندما نرى ترجيحه من تلفيقية محمود حسن إسماعيل وتعمده معاني التجاني وتفصيله لها لأن محمود حسن إسماعيا, قد أوشك أن يكون مكانه في

الشعر المعاصر مغمورا مجهولا بين الكثرة الكاثرة من الأسماء هذا مع أنه رحمه الله من عصر غير بعيد من زمان أبولو، ومن أدباء مصر وشعرائها ومصر بلا ريب هي مركز العربية، علومها وآدابها من شعر ونثر. ولعل من أسباب هذا الذي ضرب على اسمه من الخمول أنه قد أغير على شعره إغارة أكبر وأشد مما أغاره هو ـ إن كان حقا قد أغاره ـ على شعر التجاني. وإذن فعلى النقد أن يتتبع بالدرس معاني هذا الشاعر الكادح وألفاظه المثقلة بالاستعارات والأخيلة البعيدة المتصيد والتفاصيل الدقيقة في نعت الريف وغيره من أحوال الحياة في بيئته الحقيقية والمتوهمة وما أشك أنه رحمه الله لو كان أنصع ديباجة وأقل عناء عمل لكان يجد من الاهتمام به قريبا مما وجد غيره كعلى محمود طه وأبى شادى مثلا. أتى محمود حسن إسماعيل رحمه الله، فيما أحسب، من جهة شعوره بمكان «الفقير الضائع» الذي بين جنبي نفسه ذات الشعر والحظ من العربية، فضمن ذلك من ضروب التلفيق مازاد فقيره الضائع ضيعة. وهذا بعد لا ينقص من أهميته في باب الدرس الذي نحن بصدده، وقد سبقت الإشارة الى رأى الجاحظ أن السرقة للشعراء ديدن. وزعم الأصمعي أن تسعة أعشار الفرزدق سرقة، وقال المرزبانى إن هذا تحامل منه شديد، فنعوذ بالله من خطل القول ومن فرط زلات القلم.

ومما يحسن التنبيه عليه في نطاق ما كنا فيه من الحديث عن التجاني أنه واضح صدق الانفعال وحرارة الوجدان إذا وصف الريف والقرية، فإذا أخذ في وصف الخرطوم نفسها على ما كان يفتنه من بهرج فيها خالط حرارته فتور، بالرغم من تخيره للفظ الحلو وتجويده للنغم:

مدينة كالزهرة المونقة	تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة	يخفق قلب النيل في صدرها
تحسبها أغنية مطرقة	نغمها الحسن على نهرها
مبهمة ألحانها مطلقة	رجعها الصيدح من طيرها
وشمسها الخمرية المشرقة	تفرغ كأس الضوء من بدرها

البيت الثاني وحده هو الذي فيه نبأة من روح، وذلك لأنه جرد النيل وضفتيه من المدينة الأجنبية التي دونها. النيل وخضرته ذلك من صميم طبيعة الريف الذي نشأ فيه وملأ جمال فجرها قلبه

فهو دفق من عالم كله قلـ	ـب خفوق ولوعة خفاقة
ظل يهفو إلى السماء ويشكو	لوعة الروح ههنا واحتراقه

كلمة محمود حسن إسماعيل التي ذكرنا أن لها لونا بودليريا (نسبة الى الشاعر الفرنسي الغامض بودلير ١٨٢١ ــ ١٨٦٧ م Baudelaire) في عنوانها وهي أحزان الغروب (ص١٥٢)ما كاد يترك فيها من الريف شيئا ، الثور والساقية والنيل

تحكي سفائنه في الليل سائرة   عرائس الحلم في مهد الرعابيب

القافية قلقة وأحسب أن بعض سبب ذلك كونها صفة لم تعتمد على موصوف قبلها.
والشفق الباكي ودخان الكوخ وكدح الفلاح .

طعامه لقمة عفراء يابسة   والماء من أكدر في النز مربوب
ومهده لا تسل إن لفه وسن   عش الهوام ومهد للعناكيب

ثم ضجة الضفدع وإنشاد الرعاة والحداء ، والبومة في وحشة الليل والجندب الذي يصر في النخاريب (أي شقوق البيوت كما فسرها ولذلك وجه وأصل معنى النخاريب فتحات شمع الشهدة وفي القاموس النخروب بوزن فعلول بضم أوله الشق في الحجر فشبه الشاعر شقوق الجدار بذلك) ـ
ثم النوم ذو الاحلام ـ الصحو الى الشقاء ـ صوت الساقية :

يانغمة في المسا طارت مولهة   حيري تدفق من نأى الدواليب
كأنها خفقة من قلب محتضر   يشدو بها العمر في لهف وتكريب
ماذا شجاك فرتلت الأسى نغما   ورحت نواحة بين المطاريب
النور حين ذوى في الحقل ناضره   وللم الضوء في تلك المحاريب
ونام في حضن زنجي قد اتشحت   متونه بدجى كالهم غربيب

محمود حسن إسماعيل مجتهد معتمل. ولكنه قلما يتنبه لملاءمة التشبيه حقا لموضوع الوصف أو المعنى الموصوف، كجعله صفرة نوار القطن ذبولا، وكوصفه جنازة البنت الطافية بالفتنة وجنائز الغرق يضرب بها المثل في سماجة المنظر، وكتشبيه صوت الساقية بغرغرة المحتضر وسياقه ولو قد لزم التشبيه بالناي لكان ذلك أصوب وأدق من القيثارة، وتهدج صوت الساقية وتهزمه أشبه بالناي في الشجو وجمال الإيقاع منه بالسياق والغرغرة وما فيه من قوة الحيوية يصل الى أعماق القلوب . وكجعله الليل ـ الذي هو في البديع زنجي أو زنجية ـ ضجيعا للنور مثل زنجي الف ليلة وليلة الضخم المشافر ومعشوقته البيضاء التي خانت أميرها وحولت نصفه الأسفل حجرا بسحرها ـ أم كل هذا نفس بودليري كتشبيه تساقط أوراق الخريف بإعداد ألواح صندوق جنازة

الإعدام؟ هذه الكلمة البائية المجارية في الوزن والقافية«من الجآذر في زي الأعاريب» على تعسف أسلوبها مادة لكثير مما نقرأ اليوم من إنتاج الشعراء ـ من أجل ذلك ما لزم التنبيه على مكان هذا الشاعر الرومنسي التلفيقي الكدود المفقود.

كثير من الشعراء الذين أخذوا من بعد هذه الأضرب التي ذكرنا بسبيل مزيد من التجديد إن هم في الحقيقة إلا فرع منها. مثلا البياتي إن هو في كثير من الأخيلة والبيان إلا امتداد للرومنسية الثالثة داخله أخذ من الرومنسية الثانية المسيحية مثلا:

الصحف الصفراء
توزع الألقاب
تلثم أيدي القاتلين
تمسح الأعتاب
تمنح أشباه الرجال العور والأذناب
صكوك غفران بلا حساب... إلخ

وما لنا نحن المسلمين ولصكوك غفران بلا حساب

ومثلا:

الشمس والفارس فوق المدخنة
ينازل اللصوص والمشوهين
بالحروف المزمنة
يذرع صيف الأزمنة
يثأر للحقيقة الممتهنة
يحمل في ضلوعه صليبه ووطنه.

وما صلة الحروف المؤمنة والوطن المسلم بحمل الصليب؟

وأي شيء تكون دلالة«يحمل صليبه» عند قارىء مسلم لم يتنصر فكره بعد؟

وهل وصل التعبير المجازي عند أهل ملته أن يحمل الصليب على الضلوع أو على الظهر والكتف؟

مثلا قصيدة انتظار من الأباريق المهشمة.

صلى لأجلي ـ

هذه عبارة مترجمة منPray for me وهي انجليزية والعربية تقول ادع لي وصل على، إلا أنك لو قلت«صل على» جعلت نفسك جنازة تنتظر التكبيرات الأربع، لعل هذا هو

الذي جعل الشاعر يفر الى Pray for me
«صلي لأجلي
عبر أسوار
وطني الحزين الجائع العارى»
ولك أن تكتب هذا البيت كما ينبغى أن يكتب، هكذا:

صلى لاجلي عبر اســـــــــوار	وطنـي الحزيـن الجائع العـــــــاري
وعلى رصيـف المرفـأ انتظـــــــرى	يــــا كـــوكبي وحـــديث سماري
قلبـي ميـــاه البحــــر تحملـــه	تفـــاحـــــة حمرا كتـــــذكـــار
وعـــــــــــبير آذار	ورفـــــــاق أسفـــــــار
يتلمســـون طـــريـق عـــودتهم	ورســـــائلي وأبي وأزهـــــاري
وكلبنــــا الضــــــاري	... ...
يعـــوى وعينــا شيخ حـــارتنـــا	مصلـــوبتـــان على لظى النـــار
وشجيرة الليمـــون يسرقهـــا	مهما تعـــالت صبيـــة الجار
وكقبرات الصبح هـــائمـــة	... ...
والموت والثـــــــــار	ستطـل أفكـــــــــــاري
	وتعلــــو عبر أســـــوار
وطنـي الحزيـن الجائع العـــــاري	... ...
وأنــــــــــا وأطمارى	في غــــربـــــة الـــــدار
وحـــدى بـــلا حب وتـــذكـــار	

وزن هذه الـرائية من الكـامل الأحذ المضمـر وجزىء منـه إنما جيء به بنـوع من دعوى التنـويع التجديـدي. تلفيق كأنه مـلائم لتلفيق ما بين النصرانيـة والأوربية والإسـلام في «مصلـوبتان على لظى النـار» ومن قبل ما مـرت بنا «صلى لأجلى» وقـوله «وصكـوك غفران بلا حساب» ـ «بلا حساب» فيها نفس إسلامي.
ونهج هـذه الـرائية رومنسي محض ينظـر الى مـذهب محمـود حسن إسماعيل إن لا إليـه مباشرة، نظرا شديدا.
بدر شاكر السياب رومنسي تشهد لرومنسيته أنشودة المطر:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أوشرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

يرجه المجذاف وهنا ساعة السحر

كأنما تنبض في غورهما النجوم

يوشك الشاعر أن يكون قد أخلى من عند قوله «يرجه المجذاف»، وفي الكلمة طول والأصل رومنسي والافتنان في الوزن فرع من التوشيحات التي دعت إليها أبولو.

ومحمد مفتاح الفيتورى شاعر رومنسي عربي، أقرب إلى الضرب الرابع وداخله ما داخل أصناف التجديد المعاصر من الروح المسيحي أحيانا. وقد أشرب شعره قضية اضطهاد الزنوج الذي في أمريكا وجنوب افريقيا وغيرهما وهذا من صميم روح الرومنسية:

كإفريقيا في ظلام العصور

عجوز ملفعة بالبخور

وحفرة نار عظيمة

لعل الفيتوري أخذ هذا من صفة الدخان التي مر وصفها في شعر محمد المهدي مجذوب وجاء بعده بما يشعر بأن هذا ليس مراده ـ ولكن السحر:

ومنقار بومة

وقرن بهيمة

وتعويذة من صلاة قديمة

وليل كثير المرايا

ورقصة سود عرايا

يغنون في فرح أسود

وغيبوبة من خطايا

الفيتوري ممتلك لناصية النغم جيد عبارات البيان سليم متن اللغة، ولكن أكثر هذا من تجربة الأفلام

وسفن معبأة بالجواري

وبالمسك والعاج والزعفران

هدايا بلا مهرجان

المسك هنا مسك التمساح لا الذي هو «بعض دم الغزال» بدليل ذكر العاج، و"الزعفران" مع حسن انسيابها مع ما تقدم قافية جليبة لأن تجار الرقيق الذين كانوا بنيل القرن الماضي كانوا إنما يجلبون المسك والعاج وقرن الخرتيت مع الرقيق.

كبدر شاكر السياب والبياتى وآخرين ركب الفيتورى في مركبة تجديد التفعيلة وخلط

رومنسيته بألوان من أقـوال الواقعية وغضب اليسار السياسي. وللفيتـورى إيقاع مطبوع وحذق في تنويع التفعيلات ولكن عمود الوزن المعروف المألوف مركز له يفرع عنه ويدور حوله وربما لزمه وأظهر توزيعا للبيت على أسطار على نحو نجد مثله عند البياتى وعند نزار قباني ـ مثلا

كان ليل وكان صبح
وكانت قصة آدمية محتومة
قصة تعرفينها . . .
فلقد مثلت أدوارها معي يا أثيمة
ومضينا أنا وأنت
فقد تمت فصول الرواية المرسومة إلخ

فهـذا بحر الخفيف، وزع الشـاعر بيتـه على مواقـف اختارهـا جعل لكل موقف منهـا سطرا، وينبغي أن يلتزم في كتابة الشعر ما يعين على بيان إيقاعه، على النحو المألوف :

كـــان ليل وكـــان صبح وكـــانت	قصـــة آدميـــة محتـــومـــة
قصـــة تعـــرفينهـــا فلقـــد مثـــ	ـــلت أدوارهـــا معي يـــا أثيمـــة
ومضينـــا أنـــا وأنـت فقـــد تمـ	ـمت فصـول الـروايـة المرسـومـة
ومضينـــا كـل إلى حيث يبنـى	من جـديـد أيـامـه المهـدومـة

واقرأ الأفعى (ديوانه، المجلد الأول ٩٥) فهي من بحر المجتث والشك (١٠١) فهي من السريع ولقـاء (٩٨) فهي من المتقارب والضعـف (١٢٧) من الرجـز القصير وبعض هؤلاء وزعت أبياته على أنصاف كل منهن في سطر وما بذلك كبير بأس.

ورومنسية "نازك الملائكة" من ضرب الرومنسية الثـالثة، وقد يذكر أنها سابقة إلى تحرير الوزن من قيود أعاريض الخليل وقوافيه، وأوائل هذا النوع من التجديد في عصرنا هذا يجب أن ترد إلى مسرحيات شوقي وقد مرت الإشارة إلى أصحاب الديوان وإلى محمد فريد أبي حديد رحمه الله وكانت لديباجته مسحة رونق وفي كتاب الباقلاني ما يدل على أن ترك القـافية والافتنان في مخالفـة مألوف الأوزان أمر قـديم، وشيء من هذا المعنى في "الصاهل والشاحج" للمعري وأعداد أوزان الموشحات لا تكاد تحصى.

وفي نفس شعر نازك الملائكة تلفيق من الأشيـاء المخيفة وأوصاف الطبيعة ـ شيء من "كولردج" وشيء مـن "وردزورث" وإضافات أخريات ـــ من حسناء كيتس ومن إدغار ألان بو وهلم جرا :

«وعدوي المخيف

مقلتاه تمج الخريف
فوق روح تريد الربيع»
خريف العراق قد وصفه أبو عبادة حيث قال :

لاحت تباشير الخريف وأعرضت قطع الغمام وشارفت أن تهطلا
فترو من شعبان إن وراءه شهرا يمانعنا الرحيق السلسلا

خريف نازك أوربي لاصلة له بخريف العراق . خريف من قراءة الرومنسيين :
«وراء الضباب الشفيق»
ذلك الافعوان الفظيع
ذلك الغول أي انعتاق
من ظلل يديه على جبهتي الباردة
أين أنجو وأهدابه الحاقدة
في طريقي تصب غدا ميتا لا يطاق
أين أمشي . . . . »
ومن قبل هذا :ـ
« . . . . وعدوي الخفي العنيد
صامد كجبال الجليد
في الشمال البعيد
صامد كصمود النجوم»
ويجيء من بعد :
«أسمع الصوت
سيري فهذا طريق عميق
يتخطى حدود المكان
لن تعي فيه صوتا لغمغمة الأفعوان
إنه لا برنث سحيق»
هذا من أساطير يونان من طريق الأدب الإنجليزي أو غيره ومن بعد :ـ
«إنه جاء . . . . يا لضياع رجاء المسير
في دجى اللابرنث الضرير
وأحس اليد المارده
تضغط البرد والرعب فوق هدوئي الغرير
بأصابعها الجامدة

إنه جاء . . . . فيم المسير
سأودع حلمي القصير
وأعود بجثته الباردة»
القطعة طويلة بعنوان "الأفعوان" وهو كالرمز[١]:
«أين أمشي مللت الدروب
وسئمت المروج»
الـدروب واقع والمروج خيال رومنسي وفي القطعـة تلفيق للأخيلـة والصور. وهـذا البرد والضباب، كل ذلك أوربي السنخ. فيه بدليرية: اقرأ مثلا[٢]

CHANT D'Automne

Bientot nous plongerons dans les froides tenebres,
Adieu, vive clarte de nos etes drop courts!
J'entends deja tomber avec des chocs funebres
Le bois rentissant sur le pave des cours.

Tout l'hiver va rentrer dans mon etre: colere,
Haine, frissons, horreur, labeur dur et force,
Et comme le soleil dans son enfer polaire,
Mon coeur me sera plus qu'un bloc rouge at glace.

J'ecoute en fremissant chaque buche qui tombe;
Le'echafaud quon batit na pas d'echo plus sourd.
Mon esprit est pareil a la tour qui succombe
Sous les coups du belier infatigable et lourd.
Il me semble, berce par ce choc monotone,
Qu'on cloue en grande hate un cercueil quelque part.
Pour qui?- C'etait hier l'ete voici l'automne!
Ce bruit mysterieux sonne comme un depart.

هذا الجزء الأول مـن "نشيد الخريف "تـرجمته لـو كان الشعر يترجـم وإنما يقرب حين نرومه أن يعرب:

عما قليل سنلقى بأنفسنا في الظلمات الباردة

---

(١) انظر قصيدة Le Serpent Qui Danse في أزهار الشر فههنا عنها تلفيق
(٢) أزهار الشر Les Fleurs du Mal لبودلير طبعة ١٩٧٢ ص ١٩٣

وداعا أيها الإشراق الحى من صيفنا الشديد القصر
هأنذا أسمع السقوط ذا الصوت الجنائزي
من ألواح الخشب المرتجة على بلاط الحوش

الشتاء كل الشتاء سيدخل في كينونتى ؛ المرارة
البغضاء، الرجفة، الرعب، المشقة والإكراه
ومثل الشمس في جحيمها القطبى
سيكون قلبي ما هو إلا كتلة حمراء من جليد

أسمع كل خشبة إذ تسقط بارتعاد
الأعواد التي تنصب للإعدام ليس صداها بأصم من ذلك
روحى مثل صومعة تنهار
تحت دقات دكاكة ثقيلة دائبة بلا لغوب

كأنما أنا على مهد يهدهدنى هذا الدوى الرتيب
ومسمار يدق على عجل في صندوق جنازة بمكان ما
من أجل من ؟ الصيف كان أمس ـ جاء الشتاء .

هذا الدوى الغامض مؤذن بفراق .

هذا الجزء الأول من قصيدة غـرامية الموضوع بدليرية السماجة ـــ رحم الله أبا تمام حيث قال :

سماجــة غنيت منــا العيــون بها   عن كل حسن بدا أو منظر عجب

كأنما قد نظـر بعين الكشف والغيب وضرب من أجزاء النبوة الحدسية الى هـذا الإغراب ثم يقول بودلير في الجزء الثانى من القصيدة

J'aime de vos longs yeux le lumiere verdatre
Douce beaute, mais tout aujourd hui m'est amer,
Etrien ni votre amour, ni le boudoir, ni l'atre,
Ne me vaut le soleil rayonnant sur la mer.
Et pourtant aimez,- moi, tendre coeur! soyez mere,
Meme pour un ingrat, meme pour un mechant;

Amante ou soeur, soyez la douceur ephemere
D'un glorieux automne ou d'un soleil couchant

Courte tache! La tombe attend; elle est avide!
Ah! laissez-moi, mon front pose sur vos genoux,
Gouter, en regrettant l'ete blanc et torride,
De l'arriere-saison le rayon jaune et doux!

أحب من عينيك الطويلتى الأهداب ضوءهما المخضر
أيها الجمال الحلو الذى صار اليوم قد أمر
لا حبك ولا الفراش ولا الصلاء ، لا شيء من هؤلاء
يعادل تلك الشمس منك المشعة علي الدأماء

على أية حال كونى بقلبك الرقيق كأم حنون
على هذا الولد العاق على هذا الخبيث الملعون

كونى لى خليلة أو أختا مثل بقية الحلاوة الزائلة عما قليل
من فصل الخريف الجيد أو شمس الأصيل

ايها المسعى القصير الأمد القبر وهو نهم ينتظرك منذ حين
أوه ، دعيني أضع على ركبتيك هذا الجبين
ذوقى بعد الأسف على فوت الصيف ذى النصوع والحر
من الفصل الأخير شعاعه الحلو الأصفر

ما قـدمه بودلير من معـان قائمة في الجزء الأول لم يعد فيها بسـاطة قول من شبـه الفراق بالموت ـ قال أبو الطيب

بقـــائى شـــاء ليس هم ارتحالا   وحسن الصبر زمـــوا لا الجمالا

وما أسرف فيه من ذكـر صندوق الجنائز والمسامير وسقـوط ألواح الخشب وأعواد منصة الإعدام كل ذلك ظلام مشئوم وكدح لاغب .
ويشفع له بعد هذا الجزء الثانى على بعد التصيد في طريقة الربط .
وأحسب أن نزار قبانى فى قوله :

لا تســـــألينـــــى هـــــل أحبها   عينـــــــــــاك إنـــى منهما لهما
وجميـع أخبـــــاري مصـــــورة   يـــومـــا فيـــومـــا فى اخضرارهما

وستـــــارتـــــان إذا تحركتـــــا أبصرت وجـــــه اللـــــه خلفهما
كـــوخـــان عنـــد البحـــر هل سنـــة إلا قضيـت الصيـف عنـــــدهما
الشمـس منـــــذ رحلـت مطفـأة والأرض غير الأرض بعـــــدهما

نظر نظرا شديدا بل أخذ وسرق من هذا الجزء الثانى من نشيد خريف بودلير

قلنا في أخريات الجزء الثالث من المرشد بمعرض الحديث عن هذه الأبيات إن فيها أصلا جاهليا يمكن رد بعضه الى متجردة زياد ـ ثم أضفنا : [ص ١٢٧٥ طبعة ١٩٧٠م]:

"ثم إن صورة العينين واضحة حية والإيحاء المنبعث منهما قوى ـ قوى فى هذه الخضرة الشاملة ذات العمق التي كالبحر، وفى هذا الإشراق البهج الدافىء، كالمأوى عند البحر حين تهب الرياح، أو كالرمل عند البحر، أو كالبحر نفسه حين يفيض ضوء الشمس، وفى هذا السجو سجو الأهداب، وأحسب أن هذا الوضوح مع ما حوله وما ينبعث منه من إيحاء، مزيج من الاشتهاء واللوعة، يغفر لهذه الأبيات بعض ركاكتها وأوزارها. ولا ريب أن هذا الوضوح فيه رجعة الى المذهب الجاهلي كما ترى. وعسى هذا ونحوه من نزار وغيره من المعاصرين، أن يكون بادرة نهضة، كما كان العثور بالصبايا الثلاث والحذو عليهن بادرة النهضة في الفن الأوربى والله تعالى أعلم وبه التوفيق . ا.هـ. "

فيضاف الى هذا أن معنى فتنة العينين وسحرهما قديم، قال غيلان

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وتسمية العين عينا فيه معنى الماء والعمق. وقالوا فى تفسير: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين» أن أحد الزنادقة قال تأتينا به المعاول والفئوس فأصبح لزندقته أعمى قد ذهب ماء عينيه.

مع هذا قلما نجد شعراء العرب القدماء يشبهون العين بالبحر أو يذكرون عمقا في ذلك أو سباحة، كأن قد اكتفوا بأن ذلك مضمن فى قولهم عين ومحاجر العين كما يقولون عين الماء وحجرة البحر فنزار قبانى، في الرجعة الجاهلية التي رجع به إليها، إنما أصاب ذلك من طريق محاكاته لبودلير. قوله "عيناك إنى منهما لهما" تعبير صحفى لا طائل وراءه وهو ما أشرنا إليه من قبل من معنى الركاكة. وقوله "يوما فيوما فى اخضرارهما" فهذا قول بودلير: "أحب من عينيك الطويلتين نورهما المخضر" عنى بالطويلتين طول أهدابهما ولو قلنا من "عينيك السلهبتين" كان أجود في الترجمة ولكن

هـذا غريب والترجمة نثـر وابن الأثير أجاز الغـريب في الشعر لا النثـر. وقولـه «وجميع أخبـاري مصـورة» يؤكـد مـا زعمنـاه من صحفية التعبير إذ الصحف صنـاعتهـا نقل الأخبار. وقوله : «وستارتان إذا تحركتا» مأخوذ من طول العينين أى طول أهدابهما الذي ذكره بودلير وإنما هي أمثـال هذه العبارات التي تبين لنا الأخذ ومـواضعه. و " تحرّكتا " ترشيح لقـوله «وستـارتان» ولكنه غير منـاسب لصفة العينين والهدب المغـدف ـ ذكـرنا المغدف هنا نشير به إلى قول عنترة :

إن تغـــــدفى دونى القنــــاع فـإننى طـب بأخـــــذ الفــــارس المستلئم

وما ذكر عنترة إغداف القناع إلا وهو مشربـه ظلالا من إغداف العينين أهدابهما. وقال امرؤ القيس :

. . . . . كمـرآة الصنـاع تـديـرهـا لمحجـــرهــا من النصيف المنقب

فى قولـه «تحركتا» ثقل وأنفـاس صحفية . وقولـه «أبصرت وجهه الله» فيـه نظر ـــ عبارة البخارى حين يرتاب ، وقـوله : «خلفهما» آبدة فان وجه الله سبحـانه وتعالى ، على معنى سلفى أوأ شعـرى أو صـوفى أو حتى على مـذهـب من وحـدة الـوجـود ، أو على محض التـوسع فى التعبير والمجاز، لا يمكن أن يـوصف «بخلف كذا أو كـذا» وإن يكن ذلك عينى فينوس نفسها التـى زعم لها كفارهم أنها ربة . لو قـال فيهما لشعر على ما فى ذلك من نظر، ولكن القافية لم توات . وقوله :

كـــوخـــان عنـــد البحـــر هل سنـــة إلا قضيت الصيـف عنــــــــــدهما

فهذا بـودليرى من بودلير مأخـوذ أخذا ، بحره وصيفـه وقضاء الصيف عنـده ألا يقول بودلير ما عسى معنـاه : «بعد الأسف على فوت الصيف ذى الدفء والنصـوع؟» وقوله " كوخان " ليس بمليح . وهل ألمعت بـه " كورت تاش " "Courte tache" برنة نطقها المقـاربـة لـــ " كـــوخ " ثم معنـاهـا ليس عن معنى الكـوخ ببعيـد اذ الكـوخ واجب قصير، كدح قصير، فسر المعجم " تـاش " بأنها العمل المعين الذى يلـزم أداؤه ، وما أراد بودلير إلا أن هـذه الحياة واجب قصير وفى هـذا التعبير غرابة وبـراعة إذ الـواجب يراد قصره والحياة يراد طولها ولكن المعرى يقول :

تعب هـــــذه الحيـــــاة فما أعـــــــ ـــــــجب إلا من راغـب فى ازديـــــاد

ويقول أبو الطيب

وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة وإنما الضعف ملا

وقد أخذنا على الشاعر من قبل جعله العينين كوخين وأراد كما لا يخفى معنى الخصوصية ولكنها خصوصية من نوع سياحى قصير الأمد، عينا الجميلة ولو لمحة أبد طويل ولله در كيتس إذ يقول

A thing of beauty is a joy for ever

" الشىء الجميل سرور خالد أبدا " ـ هذا تقريب وتعريب لمعنى ما قاله

ولكن شدة تقصى نزار لاتباع معانى بودلير ألجأه الى جعل عينى جميلته شيئا صحفيا خبريا عابريا يكون مع عطلة الصيف كبعض هذه الأكواخ التى تستأجر لتكون سترة رحلة متعة محدودة الأمد. وقوله: "الشمس منذ رحلت مطفأة" مأخوذ من موضعين من كلمة بودلير ـ من موضع ذكر الوداع فى الجزء الأول فى آخره ومن موضع ذكر الشمس الآفلة فى الأربعة الثانية من الجزء الثانى فى آخرها ـ «والأرض غير الأرض» من سورة إبراهيم، من آخرها.

أزال نزار العبوس اللاغب البودليرى وبدله صحافة تتجمل بالمبالغة «إنى منهما لهما»وروم الاقتباس «والأرض غير الأرض» ــ وانطفاء الشمس وتبديل الأرض غير الأرض، ذلك قيام الساعة والفزع الأكبر ولا يناسب موضوع الفراق أو الوداع الذي للغرام ـ فرط المبالغة فى هذا الباب ليس بمليح، وإنما تكون معه الرقة هى المعنى المليح، قال البحترى رحمه الله:

دنت عند الوداع لوشك بين دنو الشمس تجنح للأصيل

وصدت لا الوصال لها بقصد ولا الإسعاف منها بالمخيل

وذكرنيك والذكرى عناء مشابه فيك بينة الشكول

نسيم الروض فى ريح شمال وصوب المزن فى راح شمول

أين هذا الضرب من الذكرى من ذلك الذى يقرن شاعره تساقط أوراق خريفه بخشبات تتساقط ليسمرها نجار صناديق جنائز الإعدام

عذيرى من عذول فيك يلحى على ألا عذير من عذول

ثم ماذا؟ كما كان يقول الدكتور زكى مبارك رحمه الله الرحمة الواسعة.

ثم بعد هـذا الجند الغريب اجتاحت القصيـدة العربية غارة كغارة هـولاكو وكما دخل التتار. ليس لنا ولا لغيرنـا أن ينكر التجديد فإنه من سنن التطـور والرغبة فى التغيير من ظواهر الحيـاة وبواطنها ومكملاتها وشواهـد كينونتها ووجودها. ومن التجـديد صادق ومنه إفـك وافتراء. والافك والافتراء زبد يـذهب جفاء. والصـدق وكل ما هـو صادق يبقى وينتفع به قال تعالى: «وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» [سورة الرعد].

ومما يختبر بـه الافتراء أن المجىء بأمثاله سهل، ومـا ليس بافتراء تعسر محاكاتـه بما يكون مثله.

ضروب التجديد التـى نراها الآن أكثرهـا غثاء وزبد جفاء. ممـا يدل على أنها افتراء كثرة امتلاء الطـروس والصحف السيارة بـأمثالها، ثم خروجهـا كل الخروج عن عـرف اللغة الفصيحة وهى لغة ميراث لا يجوز التـلاعب به ولا التفريط فيه إذ ذلـك يفسد الطريق الى معرفة أسراره وفهمه ــ هى لغة القرآن، وعن عرف اللغة الدارجـة، وهذا دليل فساد حجـة من يـدعى أن هـذه الضروب التجديـدية تطـور وانعكاس لحال البيئـة وبيـان عنهـا. ذلك بأن طبقـات النـاس في المدن والبوادى فى جميع أقطـار العـربيـة تتغنى فى أعـراسها وأفـراحها ومنـاحاتها ومـواكبها بين الفـلاحين والجنود والعمال والطلبـة، وفى احتفالات سمـرها وابتهـاجها ذوات الصبغـة الخاصة أو العامـة، فى جميع ذلك تتغنى بالكلام الموزون المقفى بحسب مـا عليه طريقة الوزن والتقفيـة فى الكلام الدارج، فلماذا إذن هــذا التعــدى على اللســان الفصيح؟ لم يكن حــافـظ وشــوقى وجيلهما جيل تقليديين، كـان جيل التقليديين جيل من نظموا فى ضروب أصنـاف الشعر نظم علماء من غير انفعال ولا تجويد إيقاع. وكـان بعض مرد ذلك الى ضعف التحصيل وانشغال أكثـر أهل العلم بمتـون الفقـه، حتى إن المعلقات السبـع والعشر نفسها كـانت تقـرأ وتنسخ على أنها متون، لا على أنها من الشعر عيون.

وقد اقتدى عصر كـامل بجيل شوقى وحافظ وكان كل اولئك أهل تجديـد، إلا أنه كان يخالطه عنصر الإعذار والاعتـذار الى الغرب، المنبعثين عن إقرار بتفوق حضـارته، فكان التجديد مع صـدوره عن رغبة صادقة وعن حسن نية آخـذا بسبيل أدت آخر الأمر الى تيهاء وخراب وضياع.

كانت حركـة الديوان وأكثر الحركة الـرومنطيكية أو الرومنسية محاولة زيـادة فى التجديد مشتملة على اتهام لجيل شوقى بالتقليد ـ ولم يكن الحسد الخفى لشوقى عن ذلك بالأمر البعيد ـ والله تعالى أعلم؛ .

تداخلت عناصر التجديد والثورة والصراع المذهبي "الايديولوجي"، بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) وبعد سنوات الخمسين من هذا القرن الميلادي العشرين.

ظل البارودي رحمه الله هو فارس القصيدة العربية الأصيلة حقا، مشرفا بأصالتها وجزالتها وقوة أسرها وصفاء ديباجتها على جميع ضروب التجديد وجنده الدخيل.

ولكن بلاد العربية لم تخل في الجزيرة العربية ولا في العراق ولا الشام ولا مصر ولا المغرب كله إلى بلاد شنقيط ولا في بلاد سنار والسودان العربية كلا ولا في سائر بلاد الإسلام من أنفاس فحولة ومحافظة على الجزالة وإتقان. إليك مثلا شعر الشاعر النجدي محمد بن عثيمين رحمه الله (١٢٧٠ ـ ١٣٦٣هـ) وفيه من الجزالة وجودة الديباجة ورنين القصيدة القديمة أنفاس جيدات. قال رحمه الله:

نعم هـذه أطـلال سلمى فسلم ... وأرخ بها سيل الشئـون وأسجم
أقـول لصحبى والمراسيل ترتمي ... بنـا سهما ترمى الفيـافي بسهم

كان هذا قبل السيارات والطائرات، على أن هذه ربما وجدت هي أيضا سهما ترمى الفيافي بسهم ـ وطريقة تجنيسات أبي تمام كما ترى أيها القارىء الكريم:

ألا عوجة منكم على الربع ربما ... شفيت الذي بي أو قضيت تلومي

فهذا نحو من قول غيلان: "خليلي عوجا من صدور الرواحل"

فعـاجـوا فغطت نـاظـر العين عبرة ... فلم أتبين شـاخصـا من مهـدم
أجـدكما أن لا أمـر بمنـزل ... لميـة إلا أمـزج الـدمع بـالـدم
ولا أستبين البرق يفـري وميضـه ... جـلابيـب مسـدول من الجنـح مظلم

و"جلابيب" هاهنا من قول حبيب:

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

وقوله «إلا أمزج بالدمع» من مبالغات الشعر المعروفة المألوفة ولم يخل من أخذ الرنة واللفظ من البوصيري رحمه الله:

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

واسم مية فيه ظلال غيلان بلا ريب. وقوله "فلم أتبين شـاخصا من مهدم"

حذاه على نهج أبي الطيب :

وأجياد غزلان كجيدك زرنني فلم أتبين عاطلا من مطوق

يجوز أن يكون أراد معنى العفة وغض البصر ويجوز أن يكون أراد أنه بهره الجمال حتى حار فلم يتبين عاطلا من مطوق . وأحسب أن ابن عثيمين لو قال : "لم أتبين قائما من مهدم" كان أجود - «جدارا يريد أن ينقض فأقامه الآية» - ولا بأس بما قال

وكقوله رحمه الله في قصيدة قافية تقتري بحر غيلان ورويه في كلمته : "أداراً بحزوى إلخ" :-

أرقت لبرق ناصب يتألق إذا ماهفا ظليت بالدمع أشرق

ظليت أي ظللت وهي عربية فصيحة ويقال ظلت وظلت بكسر الظاء وبفتحها أيضا وأحسب ان الشاعر فر إلى الياء ليتجنب زحاف القبض في ثاني أجزاء العجز ولو أقدم عليه ما ضره

إذا فاض لم أملك سوابق عبرة تحم لها الأحشاء والقلب يخفق
أمد له طرفي ومن دون ومضه خبوت وأحقاف وبيداء سملق
ومجهلة للجن في عرصاتها عزيف يراع الذئب منه ويفرق

هاهنا روح من غيلان وهو القائل «للجن بالليل في حافاتها زجل البيت»، وكقوله :

تسمع في تيهائه الأفلال فنين من لهاله الأغوال

ولا عجب أن يتبع عثيمين رحمه الله نهج غيلان رحمه الله ففي ترجمته التي في صدر ديوانه أنه ولد بالخرج وفي الخرج قول غيلان يصف مية في بعض ما وصفها به في بعض تشبيهاته :-

مهطولة من خزامي الخرج هيجها من صوب غادية لوثاء تهميم (١)

وقد مرت الأبيات . وقال ابن عثيمين رحمه الله من كلمة أخرى :

خليلي مرا بي على الدار واربعا لنشعب قلبا بالفراق تصدعا
وإن أنتما لم تسعداني على الأسى فلا تعدماني وقفة وتوجعا
بمستوحش من شبه آرام عينه تناوح فيه الهوج بدءا ورجعا

أي تتناوح فيه الرياح الهوج

---

(١) أو خرقاء ويقال إن خرقاء هي مية والله تعالى أعلم .

أمـا إنـه لـو يـوم جـرعـاء مـالك غـداة التقينـا ظـاعنـا ومشيعـا
تبينتها عينـا تجود بمائهـا ومحجـوبـة تـومي بطـرف وإصبعـا

أي تبينتها عينا ومحجوبة وإصبعا يشار به.

أكثر شعر ابن عثيمين في مدح رجال من رؤسـاء العرب على زمانه ورثائهم. فمما سلك فيه من ذلك نمطا حبيبيا البائية التي في أول ديوانه :

العـز والمجـد في الهنـديـة القضب لا في الـرسـائل والتنميـق والخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمهـا أممـا إن خـالـج الشك رأي الحاذق الأرب

وفيها بعد من روح النظر إلى أبي الطيب كقوله :

لكن شمس ملوك الأرض قاطبة عبدالعزيز بلا مين ولا كذب

يعني الملك عبدالعـزيز بن عبدالـرحمن آل سعود مؤسس المملكة السعـودية رحمه الله ولا تخفى الاشارة النابغية "بأنك شمس والملوك كواكب البيت"، ثم يقول

قـاد المقـانب يكسـو الجو عثيرهـا سماء مـرتكم في نقـع مـرتكـب
حتى إذا وردت مـاء الصراة وقـد صـارت لـواحق أقـراب من السغب

أي حتى ضمرت فلحقت أقرابها "جمع قرب" أي جنوب خواصرها بظهورها

قـال النـزال لنـا في الحرب شنشنـة نمشي إليهـا ولـو جثيـا على الـركب
فسـار من نفسـه في جحفل حـرد وسـار من جيشـه في عسكـر لجب

فقوله "قاد المقانب" كقول أبي الطيب من حيث الحذو والإيقاع :

قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع

هذا في الصدر وإيقاع عجز البيت من أبي تمام مثلا قوله :

هيهات زعزعت الأرض الوقور به من غزو محتسب لا غزو مكتسب

وصدر البيت التالي محذو على أبي الطيب :

حتى وردن بسمنين بحيرتها
تنش بالماء في أشداقها اللجم

والعجز يذكر بغيلان وبقافية رؤبة :

لواحق الأقراب فيها كالمقق

أي كالطـول. والبيت الثالث أوله من الأعشى وعجـزه من أبي تمام والبيت الرابع محذو على قوله:

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا　　　من نفسه وحدها في جحفل لجب

نحو هـذا الحذو لما فيه من قصـد الإشارة إلى أقوال من سبقـوه (تأمل قولـه " ولو جثيا على الركب" ألا يـذكر بقول حبيب: " تجثو الكماة به صغـرا على الركب" ؟) نحو هذا الحذو منبيء بتلـذذ الشاعر بجيـد أقوال هؤلاء الفحـول يومىء إليهم أو يشير، لا مجرد السرق.

وأثر قصيـدة المدح النبوي جد جلي في صيـاغة ابن عثيمين رحمه الله وديبـاجته. تأمل هذه الخاتمات، قوله:

وخـــذ شـــوارد أبيـــات مثقفـــة　　　كـأنها درر فصلن بـــالـــــذهـب
زهت بمـدحك حتى قـال سـامعهـا　　　" اللــه أكبر كل الحسن في العـــرب"

يشير كما ذكر محقق ديوانه إلى قول ابن النبيه:

اللـــه أكبر ليس الحسن فى العـــرب　　　كـم تحت لمة ذا التركى مـن عجـب

إلى هنا نظر شوقي رحمه الله فى قوله:

اللـــه أكبر كم في الفتـح من عجـب　　　يـا خـالـد الترك جـدد خـالـد العـرب

وكـان شوقى رحمه اللـه كثير الأخـذ والشعـراء من أفعل شيء لـذلك كما تقدم ذكـره، وأحسب أن ابن عثيمين أخـذ من شوقى فى الحذو وطـريقة الصيـاغة ولاريب أنه تـأثر بديـوانه وقـرأه وأثر شـوقى على شعراء النصف الأول من هـذا المائة الميلاديـة كبير. هذا ويقول ابن عثيمين بعده، وهذا بمعرض ماقدمناه من أثر القصيدة النبوية عليه:

ثم الصـــلاة وتسليـم الإلـــه على　　　من خصـه الله بـالأسنى من الكتب
المصطفى مـن أروم طـــاب عنصرهـــا　　　محمـد الطـاهـر ابن الطـاهـر النسب
والآل والصحب مـــانـاحـت مطـوقـة　　　ومـا حـدا الرعـد بـالهامي من السحب

وقلت قصيدة لا يختتمها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وما يصحب من ذلك من مديح ينبىء عن التقوى وصدق روح العبادة والتقرب إلى المولى سبحانه وتعالى بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقوله في آخر النونية التي مطلعها "عج بى على الربع حيث الرند والبان إلخ" ومدح بها الملك عبدالعزيز رحمه الله، قال:

ثم الصلاة على الهادى الذى خمدت ... فى يوم مولده للفرس نيران
والآل والصحب ماناحت مطوقة ... خطبا تميد بها فى الدوح أغصان

خطبا أى خطباء بقصر المدود وهو جائز كثير والخطبة لون الورقاء أى الحمامة قال المعرى:

ترى كل خطباء الجناح كأنها ... خطيب تنمى فى الغضيض من الينع

ومن هنا أخذ ابن عثيمين. وقال آخر الرائية التي أولها "تلألأت بك فى الإسلام أنوار إلخ":

ثم الصلاة على الهادى وشيعته ... وصحبه ماشدا فى الأيك أطيار

وفى أخرى

وصلى إله العالمين على الذى ... بأنواره الأكوان تزهو وتشرق
كذا الآل والأصحاب مالاح بارق ... ومناح فى الدوح الحمام المطوق

وفى أخرى

وصل إلهى كلما ناض بارق ... ومـا طلعت شمس ومالاح مرزم
على سيد السادات نفسى فداؤه ... أصلى عليه مدتى وأسلم
كذا آله الغر الكرام وصحبه ... هم صفوة الرحمن منا هم هم
وفى أخرى

وصـل إلهي كلما حـن راعـــــــد ومـانـاض بـرق في خـلال السحـائب
على خير مبعــــوث إلى خير أمــــة كــذا آلـه الأطهــار مع كل صــاحب

والشواهـد بعد كثيرة . ومن أعجب شعر ابن عثيمين إلى قـوله في نسيب نونيـة مدح بها الملك عبدالعزيز رحمهما الله تعالى :

ربع تـأبـــد مـن شبـــه المهـــا العين وقفت دمعـى على أطـــلالــــه الجون
إن الـــذين بـــرغمى عنـــه قـــد رحلـــوا حفظت عهــدهم لكـن أضــاعــونى
نــــاديتهم والنـــوى بى عنهم قـــذف نــــداء ملتهب الأحشــــــاء محزون
يـــــاغـــــائبين وفى قلبـى تصــــورهم ونــــازحين وذكـــــراهـم تنــــاجينى

وهنا حذو على قول الشيخ عبدالرحيم رحمه الله :

يـــــــاراحلين بقلبى أينما رحلـــــــوا ونــــازلين بقلبى حيثما نـــــزلــــــوا
تـــرفقـــوا بفـــؤادى فى هــــوادجكم راحت بـــه يـــوم راحت بـــالهوى الإبل

ثم يقول

مالي وللبرق يشجينى تألقه وللصبا بشذاكم لا تداوينى

وهذا فيه نفس من محمود غنيم فى كلمته التى نشرت فى عـدد الهجرة من رسالة الزيات ومطلعها " مالى وللنجم يرعانى وأرعاه إلخ "

ليت الـــريـــاح التي تجرى مسخـــرة تنبيكـم مــــــا ألاقيـــــــه وتنبينـى
وجـــد مقيم وصبر ظـــاعن وهـــوى مشتـت وحبيـب لا يـــــــــــواتينى
من لى بعهـــد وصـــال كنت أحسبـــه لاينقضى وشبـــاب كـــــان يصبينى
لم يبق مـن حسنـــه إلا تـــذكـــره أو الأمــــانـى تـــدنيــــه وتقصينى
تلك الليـالى التي أعـددت من عمـرى أيـــام روض الصبـا غـض الـريـاحين
أيـام أسقى بكـــاســات السرور على رغم الــــوشـــاة بحـظ غير مغبـــون

فهذا شعر سلس وفيه روح رقيق من عاطفة وذكرى . بحر الأبيات ورويها على قرى : "يامن لقلب طويل البث محزون" وفيه من ألفاظها وضرب صياغتها كقوله "وللصبا بشذاكم لا تداوينى" فهذا فيه حذو من قول العدوانى " ولا دماؤكم جمعا ترويني " وكقوله " مشتت وحبيب لا يواتينى " فهذا فيه من قول العدوانى " وأصبح الوأى منها لايواتينى " وفى القصيدة بعد من أنفاس ابن زيدون فى النونية وبعض طريقة لفظها كهذه الأبيات الأخيرة من عند قولة " من لى بعهد وصال إلخ " وكقوله من بعد :

يجنيك من خده وردا بنسرين

وفى هذه القصيدة من المدح الجيد قوله :

إنى آويت من العليا إلى حرم	قبل الإناخة بالبشرى يحيينى
ينتابه الناس أفواجا كأنهم	جاءوا لنسك على صهب العثانين

يعنى الإبل

ترى الملوك قياما عند سدته	وتنظر ابن سبيل وابن مسكين
ذا يطلب العفو عن عقبى جريرته	وذا يؤمل فضلا غير ممنون
نزلت منه إلى جم فواضله	عبدالعزيز ثمال المستميحين

بكسر نون الجمع وهى لغة صحيحة وروى القافية يسيغها هاهنا كما قال ذو الإصبع :

إنى أبي أبي ذو محافظة	وابن أبي أبي من أبيين

ثم يقول ابن عثيمين بعد أبيات :

فدم سليما قرير العين مبتهجا	بالآل والحال فى عز وتمكين ،
واشدد عرى الدين والدنيا بمنتجب	من عنصر السادة الغر الميامين ،

يعنى ابنه الملك سعود وكان آنئذ ولى عهده ، رحمهم الله جميعا :

فرع الأئمة والأذواء من يمن	أهل القباب المطاعيم المطاعين ،
غمر الندى نجلك الميمون طائره	سعود أهل التقى نحس المناوين ،

بتنوين دال سعود ونقل حركة الهمزة ولك منع سعود من الصرف وقطع الهمزة والأول أحب إلي وكسر نون الجمع كما ترى

تلتك فى خلقك السامى خلائقه تلو المصلى المجلى في الميادين

هكذا وأحسبه " يتلو المصلى المجلى " والمعنى المستقيم بهذا ومصدر تلا، تلو بضم التاء واللام لا بفتح وسكون إلا لمن زعم العموم قياسا للثلاثى المتعدى كقول ابن مالك

فعل قياس مصدر المعدى من ذى ثلاثة كرد ردا

وفي الذى قدمناه مندوحة عن الضرورة ومخالفة المنقول، هذا ثم ختم بقوله :

ثم الصلاة وتسليم الإله على من خص بالخلق المحمود فى نون
وآله الغر والأصحاب كلهم ما ناح ورق بملتف البساتين

وتأمل بعد هذه الأبيات العينية من حيث رصانة سبكها وزنة حرف الروى والخروج بعده وفحولة النفس :

أهاج له ذكر الحمى ومرابعه لجاجة شوق ساعدتها مدامعه
فبات بليل الجيب مضطرم الحشى كأن بسفا البهمى فرشن مضاجعه
يمد الى البرق اليماني طرفه لعل الحمى والخبت جيدت مراتعه
منازل خاللت السرور بربعها ليالي يدعوني الهوى فأطاوعه
أرب عليها كل محلولك الدجى أحم الرجى مستغجمات مطالعه

هذا البيت خاصة قوى الرنة شديد الأسر غيلاني المعدن. الرجى الناحية، عنى أن السحاب المحلولك النواحي سوادا قد ألح عليها بالهطول، وجعله أحم الرجى لسواده ودوى رعوده كأن ذلك صوت الرحى، وإذا الرعد يحدو المطر والحداء ضرب من الغناء والغناء سليل القريض، فقد نسب الى الرعد مطالع كما للقصيد مطالع وهن ابتداءات هديره، وجعلهن مطالع مستعجمات، وكأن هاهنا توليدا خفيا من قول حميد المشهور:

فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربيا شاقه صوت أعجما

وقد مر في صفة الحمامة في الجزء الثالث من المرشد:

إذا ما بكت فيه السحائب جهدها ضحكن بنوار النبات أجارعه
وقفت بها والصحب شتى سبيلهم عذول ومعذول وآخر سامعه
فكاتمتهم ما بي وبالقلب لوعة إذا اضطرمت تنقد منها أضالعه

وهكذا وهلم جرا. والبحر والروى يشعران بمجاراة خفية لحبيب وأبي الطيب معا في كلمتيهما:

هن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك النجح طالبه
وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وكأن عين رويه صدى من عين روى البحتري في:

منى النفس من أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

وقد تعلم أيها القارىء الكريم أصلحك الله كيف سمج المتوكل إذا زعم أن عينها تثير القيء والتهوع في خبر ذكروه وما أحسبه خفى عن ابن عثيمين رحمه الله فقد كان واسع الاطلاع ضليعا في علم العربية. ومن جيد شعره في المدح والحكمة قوله للملك عبدالعزيز رحمهما الله تعالى:

يأيها الملك الميمون طائره اسمع هديت مقال الناصح الحدب
اجعل مشيرك في أمر تحاوله مهذب الرأي ذا علم وذا أدب
وقدم الشرع ثم السيف إنهما قوام ذا الخلق في بدء وفي عقب
هما الدواء لأقوام إذا صعرت خدودهم واستحقوا صولة الغضب
واستعمل العفو عمن لا نصير له إلا الإله فذاك العز فاحتسب
واعقد مع الله عزما للجهاد فقد أوتيت نصرا عزيزا فاستقم وثب
وأكرم العلماء العاملين وكن بهم رحيما تجده خير منقلب
واحذر أناسا أصاروا العلم مدرجة لما يرجون من جاه ومن نشب
هذا وفي علمك المكنون جوهره ما كان يغنيك عن تذكير محتسب

وخذ شوارد البيت، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من بعد كما قد مر ذكره ولا يخلو ابن عثيمين رحمه الله مع رصانته وجودة ديباجته من بعض الكلال والسرد أحيانا، وقل كاتب أو ناظم يسلم مما يؤخذ عليه، والسرد أهون خطبا من الركاكة واللين، وربما قصد أحيانا قصد عمد إلى بعض ما شذ ومثل هذا من مذاهب العلماء معروف كقوله:

فقلدوا أمركم من فيه رشدكمو　　　ياالمسلمون وشدوا منه بالعضد

أم لعله لم يقل إلا «يامسلمون» وبها الوزن مستقيم وأرجح والله أعلم أنه تعمد هذا حذوا على «فيا الغلامان اللذان فرا»، والخطأ النسخي لا يستبعد(١)

ومن أمثلة الديباجة الرصينة الشيخ محمد سعيد العباسي رحمه الله، وإليك هذه الدالية من شعره وكان رحمه الله مما يواتيه طبع سمح في هذا الضرب والعروض من البسيط.

باتت تبالغ في عذلي وتفنيدي　　　وتقتضيني عهود الخرد الغيد
وقد نضوت الصبا عني فما أنا في　　　إسار سعدي ولا ألحاظها السود
سئمت من شرعة الحب اثنتين هما　　　هجر الدلال وإخلاف المواعيد
لاتعذليني فإني اليوم منصرف　　　يا هذه لهوى المهرية القود

هنا محاولة فيها رقة لمكافأة صدهن بصد مثله، وقد كره أبو السائب المخزومي التخشين في هذا الباب في قول من قال:

وكنت إذا حبيب رام هجري　　　وجدت وراي منفسحا عريضا

وهو مذهب لبيد: «فاقطع لبانة من تعرض وصله» في الميمية المعلقة، وكان العباسي رحمه الله ربما سافر السفر الطويل في بادية غرب السودان وكان السفر إلى حين قريب بالجمال. وقوله «المهرية» أراد الإبل النجائب ومن أنجب الإبل البجاوية الصهب وما أشبه أن يكون العباسي كانت له راحلة منها:

لم يبق غير السرى مما تسر له　　　نفسي وغير بنات العيد من عيد

وبنات العيد الإبل النجائب ينسبن إلى العيد فحل مشهور وأصل كلام العباسي رحمه الله بيت حبيب:

(١) وراجع ديوان الشاعر، العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين الطبعة الثالثة الرياض، سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م (ص١٩٧)(راجعه وصححه وأعد معجمه واشرف على طباعته السيد أحمد أبوا الفضل عوض الله)

(٢) ديوان الاستاذ الشيخ محمد سعيد العباسى رحمه الله، ديوان العباسى، الطبعة الثالثة، الدار السودانية طبعة سنة ١٣٨٨هـ =١٩٦٨م

حتى أغـــادر كل يـــوم بـــالفـــلا — للطير عيـــدا مـن بنـــات العيـــد .

ثم قول العباسي رحمه الله :

المدنيـــاتي مـن رهطي ومـن نفـــري — والمبعـــداتي مـن أسرى وتقييـــدي ،

أثــرتها وهي بـــالخرطـوم فـانتبـذت — تكـــاد تقــذف جلمـــودا بجلمـــود .

تـــؤم تلقـــاء من نهوى وكـم قطعت — بنـــا بطـاحـــا وكم جـــابت لصيخـــود .

عدى جابت باللام وأحسبه بـذلك فصيحا في هذا الموضع لما في اللام من مناسبة لقول تؤم تلقاء من نهوى فلم يجعل «من» يتسلط عليها الفعل «تؤم» من غير حاجز:

نجـــد يـــرفعنـــا آل ويخفضنـــا — آل وتلفظنـــا بيـــد إلى بيـــد

وشـــد مـــا عـانقـت بـالليـل من عنق — يضنى ومن حيـف أخـــدود فأخـــدود

حتى تـــراءت لحادينـــا النهـــود وقـــد — جئنـــا على قـــدر حتم ومـــوعـــود

النهود بلد بغـرب السودان كان منها نهود ـ أي نهوض ـ القـوافل وقاصدي الموارد والمراعي في حر الصيف وهي في اقليم كردفان غرب مدينة الأبيض في طريق دارفور.

معـالم قـد أثـارت في جوانحنـــــــا — شـوق الغـويـر لمهضـوم الحشى رود

ثم كأنه استحيا من هذا الغزل فقال :

استغفــر اللـــه لي شــــــــوق يجدده — ذكـــر الصبـــا والمغـــاني أي تجديـــد

وتلـك فضلـــــة كـأس مـــــا ذممـت لها — طعما على كبر بــــرح وتـأويـــد

وفي هـذا البيت حـرارة من عاطفـة وجـانب من رقـة وكبعض مـذهب الشريف الرضي شيئا ما . وكان أبوه رحمه الله تعـالى ، شيخا معتقدا وكان هو خليفته من بعده ، تـلاميذه وتـلاميذ أبيـه يكرمـونـه ويتلقاه من يتلقـاه منهم بالحفـاوة البالغـة والاحترام والترحيب . وكان رحمه الله قـد درس العربية والقرآن في صباه ، ثم نـال حظا من الحياة العصريـة والتـدريب العصري في الحربيـة بمصر حين ألحق بها ، ثـم تخلى عن ذلك وانصرف إلى سبيل آبائه في العلم والتصوف .

مذهب الشريف مع سماحة ذات ظرف ساذج سهل أظهر في هذه الأبيات :

درس العربية والقرآن فى صباه، ثم نال حظا من الحياة العصرية والتدريب العصرى فى الحربيــة بمصر حين ألحق بها، ثــم تخلى عن ذلك وانصرف إلى سبيل آبــائه فى العلم والتصوف

مذهب الشريف مع سماحة ذات ظرف ساذج سهل أظهر فى هذه الأبيات :

وكم بــــرزن إلى لقيـــاى فى مــــرح ... وكم ثنين إلى نجـــواى مـن جيــــد

لــو استطعن وهن السـافحـات دمى ... رشفننى رشف معســول العنـاقيــد

يــا دار لهوى على النـأى اسلمى وعمى ... ويـــا لــــذاذة أيـــامى بهم عــودى

ثم سلا عن هذا إلى غناء الحمامة :

وذات طــوق نــــزلنــا تحت دوحتهــا ... وقـــد تغنت بـأهــــزاج على عـــود

وأحسبه على كثرة ما ورد فى غناء الحمامة لم يخل هنا من نظر إلى قول المعرى

إذا لمست عـــودا بــــرجل حسبتهـــا ... ثقيلـــة حجل تلمس العـــود ذا الشرع

أى تلمس العـود ذا الأوتار ــ واحد الشرع بكسر الشين شرعـة ـ وقـد أخذ المعـرى من شاعره الكبير أبى الطيب حيث يقول :ـ

إذا غنـى الحمام الــــورق فيهـــــا ... أجـــابتـــــه أغـــــاني القيــــان

ومن بــــالشعب أحـــــوج من حمام ... إذا غنـى ونــــاح إلى البيـــــان

وقـــد يتشـــابـــه الــوصفـــان جـــدا ... ومــــوصـــوفــاهما متبـــاعـــدان

وقد مر حديث فيه طول عن هذه الأبيات النونية

فقلت حييت هـل تــدرين مــا فعلت ... بنـــا التبـاريح مـن وجـد وتسهيـــد

حتى أجـدت لنـا لحن القــريض قـرى ... ومــا بخلت على ضيف بمـــوجـــود [1]

هذا مأخوذ من المثل المعروف فى عاميتنا : "الجود من الموجود ولو من قطع الجلود"

أنت الجواد على العــــلات فــاتخذى ... فينـا جميــلا ومن هــذا القــرى زيـدى

وسائر الكلمة جيد.

وللعباسى بسيطية أخرى يذكر "مليط" بفتح الميم وتشديد اللام المكسورة، وهى بلدة علي واد خصيب فى غـرب السودان غير جـد بعيدة البعـد عن الفـاشر، موقعهـا شمالى

(١) وهل أراد لحن الغريض بالغين وهو من أهل الإتقان فى الغناء.

بالنسبة إلى الفاشر:

حياك مليط صوب الرائح الغادى وجاد واديك ذا الجنات من وادى
فكم جلوت لنا من منظر عجب يشجى الخلى ويروى غلة الصادى
أنسيتنى برح آلامى وما أخذت منا المطايا بإيجاف وإيخاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها أنس لدى وحشة رزق لمرتاد

وذلك أنها تحتفظ بالماء فى جوف تربة رمالها فتزرع وما حولها مجدب

فباسق النخل ملء الطرف يلثم من ذيل السحاب بلا كد وإجهاد

هل يعنى بلا كد من الزارعين ولا إجهاد؟ المعروف فى النخل أنه على شدة حاجته إلى الماء لا يصلحه كثرة هطول المطر عليه ورد الكد والإجهاد إلى اللثم يجعل العبارة ذات ضعف، فالمعنى الأول كأنه هو الوجه الأفضل على ما فيه مما ذكرنا من أمر إفساد المطر النخل إن كثر عليه.

والورق تهتف والأظلال وارفة والريح تدفع ميادا لمياد

سياق هذا البيت وسلاسته تقوى رد نفى الكد والإجهاد الى لثم فروع النخل أذيال السحاب - على هذا التأويل قوله " بلا كد وإجهاد " مع كونه لا يخلو من ضعف لا يخلو أيضا من وجه يسوغه على تعب ما

لو استطعت لأهديت الخلود لها لو كان شىء من الدنيا لإخلاد

أحسبه حمّل الإخلاد معنى التخليد وفيه نظر

أنت المطيرة فى ظل وفى شجر فقدت أصوات رهبان وعباد.
أعيذ حسنك بالرحمن مبدعه ياقرة العين من عين وحساد.

هذا بيت فيه عذوبة

وضعت رحلى منها بالكرامة فى دار ابن بجدتها نصر بن شداد.
فاقتادت اللب منى قود ذى رسن ورقاء أهدت لنا لحنا بترداد.
هاتى الحديث رعاك الله مسعفة وأسعدى فكلانا ذو هوى بادى،
فحركت لهوى الأوطان أفئدة وأحرقت نضو أحشاء وأكباد.

هـــوى إلى النيل يصبيني وســـاكنـــه ‏ ‏ أجلـــه اليـــوم عن حصر وتعـــداد
وحــــاجـــة مـــا يعنيني تطلبهـــا ‏ ‏ لـــولا زمـــانى ولـــولا ضيق أصفـــادى
يـــاسعـــد سعـــدبنى وهب أرى ثمـــرا ‏ ‏ فجـــد فـــديتك للعـــافى بعنقـــاد

قوله "نضو أحشاء وأكباد" وقوله "عن حصر وتعداد" فيها بعض الوهى وما بعد قوله "حاجة" ليست للنفى ولكن للإبهام وهى جيدة والبيت ممهـد للذى بعده وفيه ما ترى من الإشارة إلى قـول سيدنا عمـر "يا سعد سعـد بنى هيب" رضى الله عنهما، وجعل الشـاعر ذلك رمـزا كنى به عن بعض حـاجـات نفسه وفيـه روح من صبابـة وعاطفـة ووجدان وقوله "بعنقاد" حسن الموقع فى هـذا الموضع ـ قال تأبط شرا وأورده أبو العلاء فى رسالة الغفران :

وقـــد لهوت بمصقـــول عـــوارضهـــا ‏ ‏ بكـــر تنـــازعنى كـــأســـا وعنقـــادا
ثم انقضـى عصرهـــا عنى وأعقبـــه ‏ ‏ عصر الشبـــاب فقل فى صـــالح بـــادا

وفى هذه الدالية أبيات خاطب بها الحمامة جعلها خاتمة لها

ورقـــاء إنك قـــد أسمعتنى حسنـــا ‏ ‏ هيـا اسمعى فضل إنشـائي وإنشـادى
إنـــا نـــديمان فى شرع الهوى فخـــذى ‏ ‏ يا بنـت ذى الطوق لحنا من بنـى الضاد
فـــــربما تجمع الآلام إن نـــــزلـت ‏ ‏ ضـــدين فى الشكل والأخـلاق والعـــاد
لا تنكـــرينى فحـــالى كلهـــا كـــرم ‏ ‏ ولا يـــريبـك إتهامـى وإنجـــادى

آحسبه أراد هنا معنى مجازيا، أى الافتنان فى ضروب القول مما يقع فيه التعبير العاطفى المنحى فربما ظن ظان أنه لايلائم وقـار الشيوخ . وفى قوله "فربما تجمع الآلام" نظر إلى قول شوقى :

إن المصـــائب يجمعن المصـــابينـــا

وإلى أبى الطيب

وقـــد يتشـــابـــه الـــوصفـــان جـــدا ‏ ‏ مـــوصـــوفـــاهما متبـــاعـــدان

ورحم الله العبـاسى فقد كـان رقيق الإحساس فصيحا يغـرف بسماحة طبعـه من بحر ولإيقاعه رنين وعذوبة

هذا وقد كنت جعلت هـذا آخر أبواب الكتاب وقلت إنـه لا يتسع المجال للخوض فى ضروب تجديد العصر، فأقل مـا يقال فى ذلك إن المعـاصرة حجاب. وكـان الفراغ من ذلك كله فى مـدينة فـاس حرسها اللـه تعالى لليلتين بقيتـا من شعبان سنـة ١٤٠٣ هـ. وذلك يوافق ٩ من شهر يونيه سنة ١٩٨٣م

ثم بدا لى الآن بعد أن حيل دون خروج الكتاب كله منشورا مطبوعا أن استدرك شيئا مما فـاتنى ذكـره. من ذلك الإلماع إلى مكان شـاعـر العـراق محمد مهـدى الجواهـرى بين، الآخذين بمـذهـب الجزالة في هذا العصر وله طـول نفس وقوة أداء ولكن تشقيق الجدل، والسياسـة ربما كدر من صفاء ديباجتـه ـ وهو بعد يحسن أن يترنم تـرنما بحترى الإيقاع، كقوله:

في قصيدة بعنوان ساعة مع البحترى في سامراء

أكبرت شـاعـر جعفـر وشعـوره ... يستـوجـب الإكبـار والترفيعـا
ولمست فى أبيـاتـه دعـة الصبـا ... ولـداتـه والخاطـر المجمـوعـا

ولا أدرى معنى المجموع ههنا إلا أن تكون رويا مقحما إذ وصف الخاطر بالمجموع يحتاج إلى تأويل كقولك أمر مجموع أى مجمع عليه وقد لا يخلو ذلك من تكلف

ولئن تشـابهت المنـاسـب أو حكى ... مطبـوع شعـرى شعـره المطبـوعـا

فلو قد قال: مطبوع نظمى لكان ذلك أصح

فلكـم تخالف فى المسيـل جـداول ... فـاضـت معـا وتفجـرت ينبـوعـا

وهذا توليد من أبى الطيب فى بيته الذى كثر التوليد منه والأخذ:

وقـد يتشـابـه الـوصفـان جـدا ... ومـوصـوفـاهما متبـاعـدان

ثم يقول :ـ

عبث الـوليـد بشرخ دهـر عـابث ... وصبـا فنـال من الصبـا مـا اسطيعـا

يشير هنا كما ذكر فى الهامش (ديوانه الطبعة الخامسة ص ٤٢١) إلى كتـاب المعرى عن نقد بعض ما وقع فى شعر البحترى الذى سماه «عبث الوليد» واسم البحترى الوليد بن

عبيد فهنا تورية

ونبا رفيعـــا فى ظـــلال خـــلائف   فى ظلهم عـــاش القـــريض رفيعـــا
لا عن بيـــوت المال كـــان إذا انتمى   يقصى ولا عـن بـابهم مـدفـوعـا
قـدروا لـه قـدر الشعـور وأسرجـوا   أبيـاتـه وسط البيـوت شمـوعـا

وهذا غناء سلس ذو عذوبة، ثم التوى بالجواهرى الطريق إلى مقالة السياسة وشعور القومية الحديثة الأوربية المعدن، تحاكيه وتباريه، وهذا ديدن قد غلب:

ضيف العـــراق نعمت مـن خيراتـــه   وحمدت فيـــه قـــرارة وهجـــوعـــا
إن تعقـــد الحفـلات كنـت مقـدمـا   أو تنبر الأمـــراء كنت قـــريعـــا

ضبطت تنبر بضم التاء وما أحرى هذا أن يكون خطأ مطبعة إذ نبر (باب ضرب) ثلاثى ويجوز أنه مضارع من "انبرى له" أى اعترض. هـذا ولعل قولنا « التوى بـالجواهرى شعور القومية الحديثة وهو ديدن قد غلب» حيث قال يخاطب البحترى:

ضيف العـــراق نعمت مـن خيراتـــه   وحمدت فيـــه قـــرارة وهجـــوعـــا

أن يكون على خلاف وجه آخر أراده الجواهرى وهو أشبه بمذهبه وعلمه بالشعر وذلك، أن يكون قصد إلى الإشارة إلى قول البحترى المشهور:

حنت قلـوصى بـالعـراق وشـاقهـا   فى نـــاجـــر بـــرد الشأم وريفـــه
ومـدافع السـاجـور حيث تقـابلت   بـالضفتين تـلاعـــه وكهـــوفـــه

فهل أراد عتابه على هذا الحنين إلى برد الشأم وريفه؟ فإن يكن شيئا من ذلك أراد فقد جعل المعرى من قبله عتاب البحترى وملامته مركبا قال:

وقـال الـوليـد النبع ليس بمثمـر   وأخطأ سرب الـوحـوش من ثمـر النبع

وقال:

ذم الـــوليـــد ولم أذمم ديـــاركم   فقـال مـا أنصفت بغـداد حـوشيتـا
فإن لقيـت وليـــدا والنـــوى قـــذف   يـوم القيـامـة لم أعـدمـه تبكيتـا

ثم رجع الجواهرى إلى معانى الثورة المحتدمة فى نفسه فقال يخاطب البحترى ويذكره بأن العراق أحسن ضيافته إذ لم يكن عراقيا مولدا ودارا

وأظن أنك لو نمتك ربوعه　　لشكوت منه فؤادك المصدوعا
كما يشكو الجواهري
ولكنت كالشعراء من أبنائه　　ممن تجوهل قدرهم فأضيعا
وهذا من الشعراء ديدن قديم
لك فى التى راشت جناحك رفقة　　لولا جلادتهم لماتوا جوعا

ولا تمنع جلادة صاحبها أن يموت جوعا أو عطشا إن لم يجد من ذلك أدنى حاجته. وهل عنى بالرفقة أولى الجلد ابن الرومى إذ عاصر البحترى ولم يصب من الحظوة كما أصاب؛ أو هل عنى نفسه وفى قوله " فى التى راشت جناحك " يعنى العراق ولعل الكاف هاهنا عنى بها غير البحترى وجعله رمزا، وما أقرب هذا من مذهب ابن الرومى إذا حسد الغصون المجازية وذمها فى قوله :

نعم ألبستهم نعم اللـ　　ـه ظلال الغصون منها الرطاب
إن تلك الغصون تصبح عندى　　ظالمات فهل لها من متاب

ومن غضبات الجواهرى التى قد يخال أنهن مدنيات له من يسار مركس وقل شاعر فحل يكون من يسار مركس قريبا، قوله

خبت للشعر أنفاس　　أم اشتط بك اليأس
أم الحي وقد أغفيـ　　ـت إبلاس وإخراس
كأن لم يعترف ناسا　　فهل أنت به الناس
ويا رب المقاييس　　ترى أعياك مقياس
أكفرا بالقياسات　　وما قيس ومن قاسوا
أم الخير شكا الندر　　ة حيث الشر أكداس
أم الثروة للقبح　　وعند الحسن إفلاس
أم العبد على الأحرا　　ر أقوام ونخاس
أم الفكر بأظلاف الـ　　وحوش الغبر ينداس

أحسبه لو جعل مكان الوحوش كلمة أخرى لربما كان أصح إذ ليس للوحوش، إن أريد بها السباع أظلاف، وغير السباع يقال لهن الوحش كالوعول والظباء وما أشبه، وقد أراد أمثال الدواب من البشر فهذا مقالنا لو جعل كلمة أخرى وذلك كثير وما جاء به له وجه وفوق كل ذى علم عليم.

أم الأصنـــــــام أربـــــــاب ... أم الأرؤس آعجـــــــــــــاس

جمع عجس بفتح فضم كعجز

أم الموت غشـــــــــى الحى ... فما فى الـــــدار أحــــلاس

غشى كسعى لهجة طيىء وما في الدار أحلاس أراد بـه ما فى الدار أحد وهو حلس داره أى لا يفارقها لكبر سن أو نحو ذلك فأحسبه تصرف فى استعمال هذا اللفظ وعسى أن يصلح

أدر كــــاسك بـــا خـــوس ... فقـــد صـــوحت الكـــاس

فى الهامش (ص ٣٥٧) (١) : باخـوس إله الخمر عنـد الإغريق ويريـد به الشاعـر هنا نفسه ـ ولا يخفى أن باخوس هنا من الجند الغريب

واسمع قرعة الغضبة واقرأ قوله

عــــدا على كما يستكلب الـــذيب ... خلـق ببغــــداد أنماط أعـــاجيب

خلق ببغـــداد منفـــوخ ومطـــرح ... والطبل للنـــاس منفـوخ ومطلـــوب

خلق ببغـــداد ممســـوخ يفيض بـــه ... تأريـخ بغــداد لا عـــرب ولا نـــوب

لا الأريحى الـذى ضمت مـــلاعبهـا ... ولا التقـى الـــذى ضمت محاريـب

هـذا من مر الهجـاء، أن يكـون صـاحب الملاعب واللهو غير ذي أريحيـة فيـه بل ذو سماجـة وأن يكون مظهـر الدين يصلي بـه في المحاريب غير ذي تقـوى ولكن من أهل النفاق

لـو شئت مزقـت أستارا مهلهلـة ... فـراح سيـــان مهتـوك ومحجـــوب

أي فراح الشأن ـ سيان خبر مقدم والجملة خبر راح واسمها ضمير الشأن

إني لأعـــذر أحــــرارا إذا بـــرمـــوا ... بـــالحر يلـــويـــه تـــرغيب وتـــرهيب

والصـابـــرين على البلـــوى إذا عصفـوا ... بـــالصـــابـــر الشهم آدتـــه المطـــاليب

فما لعبـــدان أهـــواء وعنــــدهـم ... في كل يـــوم من التغـــريـــر أسلـــوب

١ ـ ديوانه/ ٢

وما لهذا الجبان النكس قد هزئت ... منه ومن صحبه الغيد الرعابيب
منافقون يرون الناس أنهمو ... شم أباة أماجيد مصاحيب
وأنهم قادة صيد وأنهموا ... غر المصابيح والدنيا غرابيب
ما أغرب الجلف لم يعلق به أدب ... وعنده للكريم الحر تأديب[1]

هذا، وممن عسى أن يحسن الإلماع إلى حسن ديباجته الأستاذ أحمد محرم رحمه الله. وقد أورد الأستاذ محمد إبراهيم الجيوشي في كتابه عنه، (شاعر العروبة والإسلام)[2] اختيارا حسنا من شعره ما نورده ان شاء الله هنا منه، مثلا قوله

إليك دموعي في الصحيفة فاقرئي ... رسالة أشواقي إليك وأشجاني
فان تطلبي مني دليلا على الهوى ... فهذا دليلي في هواك وبرهاني
فيا هند عذرا إن جزعت فإن لي ... تباريح من شوقي إليك وتحناني
ولا تنكري هذي الدموع تذكري ... عصارة قلبي في هواك ووجداني
ويا هند إن جئت الشهيد تذكري ... شهيد هوى مادان يوما بسلوان

زعم الأستاذ الجيوشي ان اسم الفتاة «رفقة» ومكانه في نص الديوان فراغ وأن الوزن يستقيم بـ «رفق» مناداة مرخمة. وقد وضعنا اسم «هند» لأن رمزيته واضحة كليلى ولبنى وسعدى وسلمى وما أشبه وكرهنا أن نضع «رفق» لما فيه من الظن والقول بها لا نعلم إذ ما ذكروا من عشق محرم لرفقة هذه لا دليل عليه. ولقد أحسن أبو الطيب رحمه الله إذ قال في رثائه لخولة أخت سيف الدولة رحمهما الله تعالى:

كأن «فعلة» لم تملأ مكارمها ... ديار بكر ولم تخلع ولم تهب

وقال:

أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ... ومن يصفك فقد سماك للعرب

(١) ديوانه ٢/ ٣٥١

(٢) شاعر العروبة والاسلام، أحمد محرم محمد ابراهيم الجيوشي الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م ص ٩٤.

فإنـه لم يـرد «بفعلـة» إلا «خـولة» ولم يكتم اسمهـا لـدفع حـرج ولكن أدبـا وإجـلالا لقدرها.

ويعجبني من أبيات له في قصة تحرير المرأة[1]

أغــرك يــا أسماء مــا قــال قــاسم ... أقيمـي وراء الخدر فــــــالمرء واهـم
ذكــــرتـك إني إن تجلت غيــــابتـي ... على مــا نمى من ذكــرك اليـوم نــادم
تضيقين ذرعــا بــالحجـاب ومــا بــه ... ســوى مـا جنت تلك الــرؤى والمزاعم
ســلام على الأخـــلاق في الشرق كلــه ... إذا مــا استبيحـت في الخدور الكــرائم
أقـــاسم لا تقـــذف بجيشـك تبتغي ... بقـــومـك والإسـلام مــا اللـــه عــالم
لنـــا مـن بنـــــاء الأولين بقيــــة ... تلـــوذ بها أعـــراضنـــا والمحــــارم
أســائل نفسي إذ دلفـت تــريــدهــا ... أأنت مـع البــــانين أم أنـت هــــادم

ليس جمال هـذه الأبيات من قـوة الحجة والجدل ولكنـه من صـدق العاطفـة وسلامـة الديباجة ولا يعجبني قوله «في الشرق كله» إذ فيه كالتسليم بأن أوربا مركز الدنيا تنسب إليها الجهات. ويقولـون الآن الشرق الأدنى والشرق الأوسط ـ الأدنى إلى ماذا والأوسط مماذا؟

وذكر صاحب كتاب شاعر العـروبة والإسلام أن أحمد محرم رحمه الله كان له رأي حسن في «قاسم امين» الرجل المصري على ما كان يأخذه عليه من قوله في تحرير المرأة وقد رثاه فذكر من ذلك في رثائه له، قال:

إذا رأى الـــرأي لم تنكص عـــزيمتــــه ... خـــوف الملام ولم يقعــد بـــه اللــــدد
رمى الحجــاب فلـــولا اللـــه يمسكــه ... لا نشق أوخــار اوخــرت بــه العمــد

قوله «فلولا الله يمسكه» كأنه يشير به الى قول المعري «فلولا الغمد يمسكه لسالا» وذلك أن لولا بعدها غالبا حذف الخبر كما ذكر ابن مالك.

(١) نفسه ١٧٤

لم يبغ حين رمى شرا بأمته — وإنما خانه رأى ومعتقد
إنا نعيش بواد غير مؤتمن — تنزو القلوب به ذعرا وترتعد
تعدو الذئاب به والويل ان غفلت — عين الربيئة أو أغفى به الرصد

وقوله «أغفى به الرصد» فيه وهي ما وسائر الكلام ذو جزالة سلس.

هذا ومما فاتني ذكره (وليس هذا موضعه ولكنه لا يحسن أن يترك وقد طال هذا الكتاب فيقع فيه النسيان والسهو والتكرار، كما صنع الجاحظ وكما وعد أبو الفرج ولم يفه، وما بمثل ما صنعا يقاس هذا الصنيع وأين الظالع من الضليع) التنبيه على ما كان للطهطاوي من سبق في مجال نهضة الشعر إذ كان من أوائل من أدخلوا عليه روح المقالة وكما تعلم كانت أكثر عيون الشعر في المديح النبوي.

أرسل الشيخ رفاعة إلى السودان مع رفاق له في مهمة تعليمية، وكأن ذلك لم يخل من بعض التخفيض لمنزلته ونوع من النفي له ولم تعجبه الإقامة في الخرطوم، ونظم قصيدة من بحر الوافر دالية على قرى كلمة أبي الطيب:

أحاد في سداس في أحاد — لييلتنا المنوطة بالتنادي

أو على قرى كلمة حبيب:

سقى عهد الحمى سبل العهاد — وروض حاضر منه وبادى

قال رحمه الله فذكر تأخر السودان وخشونة بعض جوانب الحياة والمجتمع فيه:

رعى الحنان عهد زمان مصر — وأمطر ربعها صوب العهاد
رحلت بصفقة المغبون عنها — وفضلى في سواها في المزاد
وما السودان قط مقام مثلى — ولا سلماي فيه ولاسعادى
بها ريح السموم يشم منها — زفير لظى فلا يطفيه وادي

أنث «السودان» كتأنيث «مصر» على العلمية. ولقد فرض الإستعمار هذا الاسم على بلادنا فرضا ثم تمسكت به حركة الخروج من الاستعمار باسم الدعوة القومية الحديثة.

واسم السودان إنما هو اختصار لقول العرب ومن أخذ عنهم بلاد السودان ويطلق ذلك على البلاد الواقعة جنوب الصحراء من بحر الهند وبحر القلزم الى المحيط الأطلسي الكبير، ولقد استقلت بلاد اخرى في افريقيا كانت تحت حكم فرنسا وكان اسمها السودان الفرنسي فسمت نفسها السودان، فحدث من ذلك أيما التباس ففطن أهلها ورجعوا الى اسم قديم وهو «مالي» كما رجع من قبلهم الرئيس نكروما من ساحل

الذهب إلى اسم قديم ادعاه لبلده هو «غانا» كما فر هيلاسلاسي من اسم الحبش إلى اسم «اثيوبيا» وكان هذا يطلقه اليونان القدماء بكبريائهم، ينبزون به سواد الواننا، على بلادنا دون بلاده وقيل إن «اثيوبيا» اشتقاقها من الطيب إذا كان يجلب من بلاد كوش وما وراءها، وفيه نظر، وكان يقال لبلادنا السودان الانجليزي المصري بعد أن شارك الانجليز أسرة محمد علي في إدارته وتولى أمره. وإنما كان اسم بلدنا سنار على اسم عاصمة السلطنة التي كانت قائمة على أمرها فيما بين ١٥٠٠ إلى ١٨٢١م. وقيل إن الملك عمارة مؤسس سلطنة الفنج لقى فتاة اسمها سنار فتفاءل بحسن طلعتها فسمى بلدته باسمها ويجوز أن يكون الاسم اختزل من سنمار «أي القمر» ويجوز غير ذلك وكان قومنا يقال لهم السنارية وعلى ذلك رواق السنارية بالأزهر الشريف هذا ثم أخذ الشيخ رفاعة في ذم الناس والبلاد وبعض ما ذكره ملاحظات قيمة تدخل فيما يقال له الآن علوم الاجتماع أو «انثوبولوجيا»، قال: وليس هذا بموضع عتب عليه كما سأذكر من بعد إن شاء الله تعالى:

فلا تعجب إذا طبخوا خليطا بمخ العظم مع صافي الرماد

أحسب هذا ما يسمى «ملاح المرس» وكان يصنع فيما بلغني من قصب يحرق وعظم يترك حينا ثم يطبخ وهو طعام عام مسنت ولا يخفى أن الرماد يستعان به على هواء البطن

ولطخ الدهن في بدن وشعر كدهن الإبل من جرب القراد

أحسبه أصاب في الصدر وأخطأ في عجز البيت وبلاد السودان جنوب مصر حارة جافة ولأهلها بجفافها وعلاج ما ينشأ من ذلك من أثر على البشرة دراية وقد كان الصغار في جيل مضى والكبار لايبيت أحدهم إلا بعد أن يمسح بزيت السمسم جسمه وكان البداة يضعون على رءوسهم الودك وكان للنساء خبرة بصناعة أدهان ذات طيب فائق من الودك بعد أن يسلأ ثم يخلط بالصندل والعطور الهندية ولا أشك أنه عطر النجاشي المذكور في السيرة وتمكن به عمرو بن العاص أن يشي بعمارة بن الوليد ويوقعه فيما وقع فيه من آبدة وكانت في وادي النيل عندنا حضارة لم يكلف رفاعة رحمه الله نفسه عناء تتبعها، ولا يلومنّه على ذلك أحد لما كان من غيظه من شبه النفي الذي وقع ثم كأنه صادف عام وباء فدخل عليه مع الغيظ خوف شديد.

ويضرب بالسياط الزوج حتى يقال أخو بنات في الجلاد

يضرب مبنى للمعلوم وذلك أن«العريس» يقف أمامه صف من الشبان يضرب كلا منهم على جلد ظهره سوطا أو سوطين أو يزيد، حسب ما يتفق عليه أنه ثمن الشبال ـ أو شر الشبال«والشبال» أن تدنو الفتاة التي ترقص بعد أن كشفت رأسها، ولا تفعل ذلك في هذا الموقف الفارح المحتفل به، إلا الحرائر، من الشاب الذي يحجل أمامها فتشير بشعرها ثم تغطيه مجفلة، هذا هو الشبال ولا ترقص البنات إلا بعد أن يجدد«شر» الشبال، «ولابد دون الشهد من إبر النحل» ـ وإنما كان يتقدم للسوط الشبان تعزيزا«للعريس» وتأييدا له. ومن أدب الوقوف للسوط أن يكون الفتى ثابتا كأنه جدار، ولا يختلج منه خد أو طرف أو مايدل على ألم. وقد يداخل الشبان تنافس فيرفعون«شر الشبال» وإنما يقدم على ذلك الباسلون الذين يقال لهم«إخوان البنات» أي حماتهن. والسوط مصنوع من جلد فرس البحر(العينسيت ـ الكلمة مقاربة لقولهم عنس في العربية).

وما السودان قط مقام مثلي ولا سلماي فيه ولا سعادي
بها ريح السموم يشم منه زفير لظى فلا يطفيه وادي

قوله«فلا يطفيه وادى» كقوله من قبل « وفضلى من سواها في المزاد» ولا يخلو من نفس عامي.

فلا تعجب إذا طبخوا خليطا بمخ العظم مع صافي الرماد
ولطخ الدهن في بدن وشعر كدهن الإبل من جرب القراد

قولنا من قبل إن ما ذكره في عجز البيت غير صحيح فقد بينا أمر دهن الجلد، وقال الشنفري:

بعيد بمس الدهن والفلى عهده له عبس عاف من الغسل محول

فافتخر بصعلكته وجعل منها ألا يدهن رأسه. وقال يزيد بن الطثرية وهو إسلامي:

فيسلك مدرى العاج في مدلهمة إذا لم تفرج مات غما صؤابها

والصؤاب صغار أولاد القمل وإنما احتاج إلى تفريج لماته لما بها من دهن وفي خبر كعب بن عجرة أنه جهده ترك الدهن من أجل عبادة الحج فيما يبدو حتى جعل القمل يتناثر من لمته فأمر بالهدى ونزلت فيه«فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه الآية١٩٦ من البقرة» والعجب للطهطاوي أن يكون خفى عنه مثل هذا مع وافر علمه ونسبه الشريف.

ويضرب بـالسيـاط الـزوج حتى　　يقـال آخـو بنـات في الجلاد
ويـرتق مـا بـزوجتـه زمـانـا　　ويصعب فتق ذاك الإنسـداد

يشير بهذا إلى عادة خفض النسـاء وأعياه النظم هنا فـزعم أن الرتق للـزوجة وإنما تختن الفتاة وهي صغيرة فقد تبالغ الخاتنـة فينشأ من ذلك ضرر عظيم كأن تصير الفتاة رتقاء لايستطاع جماعهـا، والختانة قديمـة في العرب وفي حديث أم عطيـة ذكره ابن الأثير في أخريات مادة خفض. «إذا خفضت فأشمى» قال الخفض للنساء كالختان للرجال وفي مادة«نهك» وفي حـديث الخافضة قـال لها أشمى ولاتنهكي أي لاتبالغـي في استقصاء الختان ١ هـ ؟»

فاستقصاء الختان كان للعرب عادة قال جرير

والتغلبيـة في ثنيي عبـاءتها　　بظـر طـويل وفي بـاع ابنهـا قصر

لأنها من قوم نصارى ذمهم جرير بأن نساءهم لا يخفضن فجعله سبة:

وقال الفرزدق:

ومـا وجعـت ازديـة من ختـانـة　　ولا شربت في جلد حـوب معلب

يجعل الختانة الموجعة كشرب اللبن من انـاء الجلد أمرا خصت به العرب. والحوب عنى به البعير لأنه يزجـر بحوب. والختانة الموجعة استقصاء ولكنـه لايبلغ به من الفساد ما زعم الطهطاوي إلا في حالات تشـذ وليس الشذوذ بما يصح تعميمه وما منعـت ختانة من افتضاض طبيعي ولا منعت من نفـاس، وليس في هذا تزكية لها فـالوجه ما أمـر به صـاحب الشرع صلى اللـه عليـه وسلم ومـا أمـر إلا بـالإشمام. وقـد يبـالغ في بعض البلاد، (وليس قطرنا ولاأحسبه في قطر افريقـي) في ختانة الرجال وفي الكتاب المقدس في خبر غيرة أبناء يعقوب على سباء وقع لنسائهم أن ختـانة بني اسرائيل لرجالهم كانت يبالغ فيها حتى يلزم المختون الفراش من وجع الجراح.

ومن تعب النظم في هذا البيت قطع همزة الانسداد.

وإكـراه الفتـاة على بغـاء　　مع النهـى ارتضـوه بـاتحاد

هذا بـاطل. ولعله أنكـر أن يكون لبعضهم مملوكـات وأن يهدي المملوكـة فهذا قبل أن يمنع الافـرنج بيع الرقيق وملك المملـوكين بدعـوى التحريـر، وإنما منعوا ضربـا وأبقوا ضروبا لعلها شر مما منعوا، وفي قول الله تعالى«فك رقبة» مذهب واضح لمن كان يرغب في محض التقوى، وما سوى ذلك فما يعتذر به بعض من يدعون التفكير من معاصرينا

إلى مطاعن الافرنج ليس بكبير شيء فتأمل. وقال أبو الطيب في مدحته للملوك:

من كل مـوهـوبـة مـولـولـة　　　كـاسرة زيـرهـا ومثـناهـا

فلعل من أهـدى مملوكـة ممن عسى أن يكـون رفاعـة شهد ذلـك منه مـا خرج بـه عن مذاهب العلية وأهل الشراء. وقد كان أخذ الرقيق من مـرتبات الموظفين أول أيام حكم محمد علي باشـا ثم نهى عنه احتراما لفرنسة وبـريطانيا ذكر ذلك الـدكتور مكي شبيكة رحمه الله في تأريخه، وقول الطهطاوي«ارتضوه باتحاد» لا يخفى ضعف القافية منه.

لهم شغـف بتعليـم الجواري　　　على شبق مجاذبـة السفـاد

وهذا أمر خاص بـالنساء ومعروف عند العرب منه شكـوى الذي شكا إلى علي انه كلما دنا إلى امـرأته قالـت قتلتني وما كان أغنى رفـاعة عن ذكـره. قال أحد المادحين يـذكر الصوفية وإقامتهم الليالي يذكرون الله ويسبحون بسبحات خرزها من ثمر«اللالوب» في كل سبحـة ألف حبة يعد بها المسبـح مثلا١٢٩x١٢٩ من عدد «يالطيـف»، فهذ قد يقضى فيه ليلة بأكملها:

يـاليلى النـوم تـركـوه
يـاليلى الـلالـوب بكـوه

«ليلى» اسم الحضرة العلوية الصوفية النبوية، جعل«اللالوب» كالعرائس يبكين تغنجا ودلالا فافهم حفظك الله:

قـوله رحمه الله "لهم شغف" أبـدة، إذ كثير من الشبـان ربما فاجأهـم هذا من تـدبير اللـواتي وصفهن الكتـاب المحكم بالكيـد العظيم في ليلـة الـدخلة ويـذكـر ان الشيخ الدردير رضي الله عنـه أهدى له بعض مريديه مملوكة لقنت هـذا العلم ففزع من امرها أول الأمر ثم أحبه حبا فالله أعلم أي ذلك كان من خبر الرواة.

ولا يلام الشيخ رفاعـة على انكاره ما أنكر وتفرنجه بالـزعم ان اهداء الجواري من البغاء المنهي عنه في قـوله تعـالى: "ولا تكرهوا فتيـاتكم على البغاء إن أردن تحصنـا" وكانت قريش في جاهليتها تفعـله. فقد بلغ من رقة التأثر بما فتنه من حضارة مبلغـا، ولعـل ما أصابه من ذلك في زمانه دون ما أصابنا من ذلك في هذا الزمان.

وقال الحارث بن أبي ربيعة وكان في وجه الحرب عاملا لابن الزبير رضي الله عنهما يزجر أخاه عمر إذ بعث اليه يطلب منه جارية:

بعثت إلي تستهـدي الجواري　　　لقـد انعظت من بلـد بعيـد

ثم يقول الشيخ رفاعة :

وشرح الحال عنـــه يضيق صـــدري ولا يحصيـــه طـــرسي أو مـــدادي
وضبط القـــول بـــالأخبـــار يـــزري وشر النـــــــــاس منتشر الجراد

أي هذا قليل من كثير وليس الخبر كالعيان والشر الذي رأيناه كالجراد المنتشر

ولولا البعض من عـرب لكانوا سـوادا في ســـواد في ســـواد

أي سواد وجوه وقلوب وعيون فالعياذ بالله من ذلك . وهذا البعض الذي أشار اليه كثير قديم يرجع زمان أوائله إلى ما قبل الجاهلية والله اعلم

وحسبي فتكهـا بنصيف صحبي كـــأن وظيفتـــي لبـــس الحداد

وسخطته ههنا لا تخفى وتداخل ذلك مع الأسى روح النكتة القاهرية

وقـــد فـــارقت اطفـــالا صغـــارا بطنطـــا دون عـــودي واعتيـــادي
افكـــــــر فيهم سرا وجهـــــــرا ولا سمـــــــري يطيب ولا رقـــادي
وطـــالت مـــدة التغـــريـب عنهم ولا غنم لـــدى ســـوى الكســـاد

وهل تجارة اكسد من أن يغادر القاهرة إلى خرطوم ذلك الزمان

ومـا خلت العـزيز يـريـد ذلى ولا يصغي لأخصـــام لـــداد

فصرح هنا بما كان يحسه قلبـه من أن بعثه للسودان ضرب من النفي ومنبيء عن سخط عليه من الخديوي عزيز مصر أو جفوة «وتلك التي يهتم منها وينصب» كما قال النابغة وفي الابيات التي ذكـر فيها أطفـاله وأسرتـه صدق حنين واسماح أسلـوب . وعلى طول القصيـدة لم تجده عنـد العزيـز . فعـدل إلى الإستغـاثة فنظم تخميسـا لقصيـدة الشيخ عبدالرحيم البرعي :

خل الغـرام لصب دمعـه دمـه حيران توجده الذكـرى وتعدمه

وعسى أن يكون توسل بالسيد البدوي حامي طنطا قدس الله سره . فكان ذلك أجدى عليه من :

ومـا السـودان فيـه مقـام مثلي ولا سلماى فيـــه ولا سعـــادي

فاستجيب له وعاد رحمه الله إلى مصر.
وفي معجم البلدان لياقوت حيث ذكر بلاد النـوبة شبهها ببلاد اليمن وذكر أن في عيش أهلها شدة .

وقال العباسي رحمه الله :

أحبتي هــــذي الــــدمــو	ع بعـــــدكم غيـث همي
صيرت عن كــره قــري الســـ	ـــودان لي مخيما
ولي بمصر شجـــــن	أجـري الـدمـوع عنـدمـا
فـــارقـت مصر ذاكـــرا	أرجـــاءهــا والهرمـــا
والنيـل والجزيـــرة الــ	فيحـــاء والمقطما
ربـــوع خير طـــالما	أســــدت إلي أنعما
مصر وأيــــام الشبـــا	ب الغـــض مــن لي بهما
للـــه محبـــوب رأي	حبـــة قلبي فـــرمى،
أعيـــذه مـن جــائر	حكمتـــه فـــاحتكما
مـــررت بـــالحي ضحى	أروض مهـــرا أدهما
مـــرتـــديـــا من الشبـــا	ب ضـــافيـــا منمنما
لقيتـــه في أربـع	بيـض كـأمثـــال الــدمى،
شـــابهن ازهـــار الــربيــ	ـــع وحكين الأنجما

قولـه " صيرت عن كره " أي غير اختيـار لا يعني عن بغض ، وقد عـرضت في " ذكرى، صديقين " (١) لهذه الأبيات ثم قلت : " ورب آخذ على العباسي قوله :

صيرت عن كــره قـرى الســ	ـــودان لي مخيما

ولا آخـذه عليـه فان قلب الشعـر كما وصفـه أبـو الطيب ــ وهذا من آيـات الصـدق، والصفاء . الإشارة إلى قوله :

وبي مـا يـذود الشعــر عني أقلـه	ولكن قلبي يـابنــة القــوم قلب

هذا ، والاستاذ محمد عبد القـادر كرف(١٩١٢ـ ١٩٨٩م)ممن ينبغي التنبيه على مكانه، في الرصانـة وكان معاصرا للتجاني يوسف بشير رحمهما الله من أديبين كبيرين وقـرينا له،

(١) ذكرى صديقين، صدر سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م، الطليعة، الكويت انظر ص ١٤

في درس جامع أم درمان وصديقا وشاعرا موهوبـا مثله مؤثرا للجزالة شديد الأسر وكان، عـالما ومعلما محسنا متقنـا وجميل الخط اريحى النفس كريـم الخلق جوادا بـرا بالاقـربين، والإخوان نزيها محبوبا عز فقده وقل في النـاس نده توفى رحمه الله يوم ١٣ من المحرم سنة، ١٤١٠هـ=١٥ من أغسطس ١٩٨٩ م .

كتب الى منذ تسعة عشر عاما قصيدة من المتقارب إخوانية نونية علائية رنة الروى أثبتها ههنا كما جـاءني نصها البديع البارع منـه الى الأخ الفذ حامل لـواء الفصحى وصاحب، المرشد الدكتورعبدالله الطيب أقدم هذه القافية العسية له ولمن أحبه وعرف قدره .

عطفـت فلم ألـــو عنـك الأعنـــة ... وكم لى مـن حنـــة بعـــد حنـــة،

وعجت ومـن لـــوعتي مـــزهـــر ... لـــه نبرات القـــوافي المرنـــة،

وهشـت لي الـــــدار واستبشرت ... مقـــاصيرهـــا والـــريـــاض المغنـــة،

واذ جئتهـــا خلتنـي مـــذنبـــا ... صليت بنـــار وبـــدلت جنـــة،

وكـــائن دلفـت إلى ظلـــة ... لـــديها وروض انيـق وكنـــة،

وقـــد وشـت الجدر المشرقـــات ... بنـــان قـــريـــز لـــدا وهي المفنـــة،

وقـــد اشربـت من ضروب الـــوفـــا ... ء حتى غـــدت وهـي أخت وحنـــة،

تبـــادر مـــا أوجبتـــه الحقـــوق ... عليهـــا وتلـــزم مـــا العـــرف سنـــه،

ولم نلق الا النـــدى عنـــدهـــا ... والا فتى آثـــر الـــدهـــر فنـــه

اقـــــام على الجد لا ينثنـي ... ومن قـــدم جنب اللهـــو سنـــه

وشتـــان مـــا واهـن عـــزمـــه ... وذو ثقـــة واعتـــزام ومنـــة

وأتحفنـــا وهـــو طلـق الجبين ... بما ليـس تلفيـــه إلا لـــدنـــه[1]

وعنـــدي لك الـــود أخلصتـــه ... نقيـــا ونـــاهيك مـــا القلب كنـــه

(١) بضم الدال وتشديد النون لغة في لدنه بتسكينها كما يجوز تسكين الدال واعراب النون في غير هذا الموضع .

وانك دهقـــان هـــذا القـــريض ... سبقت النـــدامى وافـــرغت دنـــه

لصـــدرك زمـــزمـــة تستجيب ... الى جـــرســـه أو بغـــام وغنـــة

وكـــالشنفـــري اذ يـــرود الشعـــاف ... وإذ هـــو حلس لكهف اجنـــه

وفي النفس شنشنـــة من عكـــاظ ... ومن ذى المجـــاز ومن ذى المجنـــة

نثـــرت فجـــاوزت شأو البيـــان ... ولم تـــأت قـــافيـــة ذات ظنـــة

وجـــاهـــدت في اللـــه لا في الطماع ... وذلـك فضـل حبـــاه ومنـــه

وطـــاعنت حتى انـــزوى الأرذلـــون ... وبـــوأتهم مـن بـــوار أكنـــة

وأرزمت تخطـف ألبـــابهم ... كما تـــرزم الغيمـــة المرجحنـــة

وظن امـــرؤ الســـوء أن يـــدعى ... عليك الشنـــار فكـــذبت ظنـــه

الى أن غـــدوت وأنت الفـــرنـــد ... لـــه فـــوق هـــام الأعـــادي دنـــة

وأنـــت المجلى اذا أخـــرت ... هـــوادى الفحـول الخناذيـذ عنـه[2]

ومـــا إن ينـــوشك سهم الـــدعي ... ودونك مـن عصمـــة اللـــه جنـــة

ألا حي بـــالشـــاطىء الـــدامـــرى ... ربـــوعـــا على حجـــره مطمئنـــة[3]

بني نقـــر اذ هـم المتقـــون ... واذ دأبهم في كتـــاب وسنـــة[4]

اذا أطفأ الـــدهـــر نـــار القـــرى ... فنـــار المجـــاذيب نـــار مبنـــة

ومـــا ضنكت أو عفـــا قـــدرهـــا ... اذا ألف النكس لـــومـــا وضنـــة

وتـــالين من حـــولها يجأرون ... لهم أرج مستطـــاب وبنـــة

وحي أخـــا الـــرشـد واصـدح لـه ... بقـــافيـــة ذات ردف ضفنـــة

وقـل للفتى العبقـــري السما ... ت وابن الثقـــات وعلـق المضنـــه

تـــولت سني الصبـــا الحافـــلات ... ولم تبـق الا العجـــاف المسنـــة[5]

فليتن في النعـف نعف الـــربـــاب ... وفي كـــاهلي فضل حبل وشنـــة[6]

(١) بتشديد النون ـ لغة

(٢) نسبة الى الدامر بلدنا

(٣) بنو نقر من قبيلة المجاذيب ومنهم الشاعر محمد المهدي مجذوب رحمه الله نصب بني نقر بفعل محذوف أي اذكرهم والاشارة الى الشاعر محمد المهدي رحمه الله وديوان شعره الأول نار المجاذيب.

(٤) سني بتشديد الياء مفتوحة أي سنوات عمري أنا والصبا عطف بيان وقال أيضا (سنين الصبا) مضاف ومضاف اليه والنون ثابتة، كلاهما قاله رحمه الله.

(٥) الرباب بكسر الراء قبائل من العرب معروفة ونعف الرباب موضع والنعف أصله جزء من الجبل.

أصـــادي النجـــوم فـإمـــا خبت — غمست لها أعيني في الــــدجنـــة
طليق الجنـــاحين أغشـى الـــوهـــاد — وأعلـــو الـــذرى قنـــة بعـــد قنـــة
وألقـــــاك في زمـــــر الأولين — على شـــارف أو قلـــوص زفنـــة[7] (١)
وتختـــال تحتـي ذات البغـــام — لها خطـــــرات وللنسـع أنـــــة
ونضرب في التيـــه لا نـــرعـــوي — جموحـــا ونصحب في الـــدو جنـــة[8] (٢)
أو أني ذو صـــولـــة فـــاتـك — أغير وحـــولي الطبـــول المطنـــة
ودوني مـــن خثعـــم فيلـــق — يغمغـم تحت الظبـــا والأسنـــة
فـــذرني والمقـــرفين الغـــواة — أولى الضغن و الفتكـــات المجنـــة[9] (٣)
عسى الـــدهـــر يحسر مـن كيـــدهم — ويفلق هـــام العبـــدى الأقنـــة
فـأوجههم كــــالحات قبـــاح — وأبـــدانهم منتنـــات مصنـــة
وإنهم مـــذ أصـــابـــوا الحيـــاة — خســاس النفـــوس ومـــذ هم أجنـة
وأنهم قـــــذر لـــــو دنـت — أكفهـم مـن طعـــام تسنـــه

محمد عبدالقادر كرف
العاشر من ذي الحجة ١٣٩١هـ
السادس والعشرين من يناير١٩٧٢م

هذا والعلامات المشروح عليها الهامش من صنع مؤلف هذا الكتاب

وجلي واضح ما في هذه القصيدة من برهان واضـح على ما أوتى صاحبها من الفصاحة وقوةالشاعرية وسحر البيان. قوله « وقد وشت الجدر المشرقات» يمدح به لوحات رسم السيدة قريـزلدا زوج المؤلف، وقوله « ودوني من خثعم فيلق » يشير بـه إلى أصول نسبه في شرق الســودان بأقطار جبـال البحر الأحمر وسـواكن ومـا بين شاطىء البحـر الأحمر الغربي والشرقي من شـوابك الأرحام والنسب نبه عليـه من قبل الرحالة ابن بطـوطة في صفة رحلته إذ زار ذلك الإقليم في المائة التاسعة. وصفة الشنفرى التى وصف بها نفسه فيها شبه شديد بما عليه مظهر فتيان البجاة أهل الحروب، قال:

ويـــوم من الشعـــري يـــذوب لـــوابـــه — أفـــاعيـــه في رمضـــائه تتململ
نصبت لـــــه وجهى ولا كـن دونـــه — ولا ستر إلا الأتحمـــــى المرعبــــل
وضـــاف إذا هبت لـــه الـــريح طيرت — لبـــائد من أعطـــافـه مـــا تـــرجل
بعيـــد بمـس الـــدهن والفلى عهـــده — لـــه عبـس عـــاف مـن الغسل محول

(١) الشارف من الابل كبيرة والقلوص شابة.
(٢) الدو: الصحراء.
(٣) المجنة بضم الميم وفتح الجيم أي الخفية.

هـذا وكنت وعـدت نفسى أن أجيب الأستاذ كـرفـا رحمه اللـه بكلمة على روى كلمتـه ووزنها. أردت شيئا شبيها بما صنعـه أبو العلاء حين وافته قصيدة لأحـد معاصريه من الشرفاء أهداها إليه مطلعها:

غير مستحسن وداد الغـــوانـى　　بعـــــد سبعين حجـــــة وثمان

فأجاب أبو العلاء بالكلمة السقطية المشهورة:

علــلانـى فإن بيـض الأمـــاني　　فنيت والظـــلام ليس بفـــاني

عنى ظلام عينيه وظلام الزمان حوله بالفتن والحروب وقال فيها:

قـــد أجبنـــا لفـظ الشريف بلفظ　　وأثبنــــا الحصى من المرجــــان

أى بدلا من المرجان وفي مكانه. ولعمري لقد كانت أبيات المعري من نفس المرجان لا بدلا منه، ولم أكن أشك أن نونية كرف رحمه الله

عطفت فلـم ألـــو عنك الأعنــــة　　وكم لى مـن حنـة بعـــد حنـــة

هى المرجان. وكأن قد خشيت أن تكون الإجابة عنها بمعارضة لها في البحر والروى إنما ذلك حصى. فأخـرنى هـذا التهيب عن المسـارعـة بجـوابها. ثم إن السنين تعـاقبت وتعـرضت للنونيـة المذكورة بإلماع وحسن ثنـاء في ذكرى صـديقين[1] وتحدثت عنهـا من مذيـاع أم درمان وعلمت أن ذلك وقع من الأستاذ كـرف رحمه الله موقعـا حسنا وكنت أزوره من حين الى حين فعقدت العزم أن أنظم نونية جوابه حصى أو مرجانا وإذا بالمنية تبادر إليه. نادانى أستاذ العربية الـدكتور بابكر دشين وأنا أجتاز بعض الطريق فقص على النبأ الحزين. لكل أجـل كتـاب، وإذا بهذه المرثيـة تنثـال على مع الـدمـــوع:-

سقت قبرك الــــديمـــــة المرجحنــــة　　يــــاكــــرف الخير والموت سنـــــة
وأسكنك اللــــــه دار المقــــــامـــــ　　ـــــة تـــرضى بها نفسـك المطمئنـــة
كما لغـــــة للكتـــــاب العـــــزيـــــز　　عـــــراهـــــا بـــــدرسـك وثقتهنـــــه
وتصبر حتى عقـــــول التـــــلاميـــــ　　ـــــذ بـــــالفهم تلفى إليهـــــا ركنـــــه
وقـــد كنت في الشعـر تعطى الغـريب　　معـــــانيـــــه واضحـــــا شرحهنـــــة
وتنشـــــده عـــــربي السليقـــــ　　ـــــة والصـــــوت ذو نبرات وغنـــــة
بهيـــــا بـــــه وشجيـــــا بـــــه　　وأشجـــــانـــــه عن ســـــواه شجنـــــه[2]

(١) نفسه ص٢١
(٢) أي أحزان الشعر قد حبسته عن كل شيء سواه ـ شجنته عنه (من باب نصر)

وتكتبــــه مثـل خط ابـن مقلـــــــ ـــــة تشرق أسطـــار نسخ ضمنــــه

وللنحــــو عنـــدك إتقـــانـــــه اذا مـــا البـــديهيـات فيـــه امتحنــه

وتحفـظ آي الكتـــــاب الحكيم وفيـك مع الحفـظ تجويـــدهنــــه

وفقــــه المشـــايخ أحـــرزتـــه وتلك المتـــون تـــدبـــرتهنــه[٣]

ومع عـــزة النفس فيك القنــاعـــــ ـــة إن القنــاعـــة كَنْــزٌ وَجُنَّــة

وذاك بـــلا كلفـــة منـك تأتيـــــ ـــه إن التكلف لا أحمدنــــه[٤]

ومـن تخذ الكبر سمتـــا فـــرب عـــزيـــز بكبر خطـــوب أهنـــه

وكنت امــرأ صــدره قـد حـوى الـــ ـــعلوم وحـــاز مـن الشعـــر فنّــه

وصنـــو التجـــاني ديبـــاجـــة معـــا لكما القـــول مــرخى الأعنــة

وشرفتما قـــومنـــا بـــالبيـــا ن الــذي ليس فيـه عيــوب يشنـه

وخلــدتما معهـــدا ســوحــه بــذكـر كماخــالــد ذكـرهنــه[٥]

وهبت الفصــاحــة ثم البـديــــ ـــع أبيـــاتـــه الغـــر حبرتهنـه

وأغــراض شعـــر الــزمـــان الحديث تنـــاولتهـــا بضروب رصنـــه[٦]

أسيـت لفقـــدك كنـت امـــرأ صحيح المودة مـــا فيـــه ظنــة

وكـم من سجيـــة بـــر لـــه وكم مـن عطـــاء لـــه لم يمنــه

وقـــد ذقت في دارك الطيبـــات وشــاهــدت مـن فضلك الجم قنـة[٧]

وألفيـت فيـك الأديـب اللبيـــــ ـــب الــذي ليس كالضعفـاء الأظنة[٨]

ومن قلبـــه فيــه ضـــوء البصير ة ذرهـم قلــــوبهم في أكنـــة

عـــرفتـك فى عنفـــوان الشبـــا ب والضـــاد عنـــدي علـق المضنــة

إذ الحرب نيرانها مشعــــــلات وهتلــــر غـــاراتــــه شنهنــه

وإذ وضعت حــرب أهـل الصليــ ـــب أوزارهـــا المشرعـــات الأسنــة[٩]

وأعجبنـــى منــك حــب الأصيــل وعبـك من منطـق العـــرب دنـــه

كأن العنطنطـــة العنس بـــالــد و تحتك بـــارت زفــوفـــا زفنــة[١٠]

(٣) أي متون العلوم كألفية ابن مالك ومختصر خليل والشاطبية وجوهرة التوحيد والخريدة

(٤) أي لا أحمدنه والنون للتوكيد قال تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أي لا تصيبهم

(٥) هو المعهد العلمي بأم درمان ومنه تخرج الأستاذ كرف وفيه درس الأستاذ التجانى يوسف بشير رحمهما الله تعالى. ولدا كلاهما في سنة ١٩١٢ وتوفي التجاني سنة ١٩٣٧م.

(٦) أي بأنواع ذات رصانة وإلها للسكت.

(٧) قنه أي ذروة وقمة عالية.

(٨) الأظنة جمع الظنين أي المتهم.

(٩) كان ذلك سنة ١٩٤٥م لما استسلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط.

(١٠) العنطنطة من غريب الحديث أي الناقة الشابة الجيدة الخلق وتوصف المرأة الشابة كذلك، العنس القوية. والدو الصحراء. الزفوف الناقة التى تتبختر في مشيها وكذلك الزفنة وزفوف من كلمات معلقة الحارث اليشكرى.

كأنك بالنعف نعف الرباب ... ولم تلف ثم الضعيف الضفنة[11]
ولم تفد رجليك يوم الكلاب ... بأميك والجرى حاذى حذنة[12]
نبذت جوار الدنية نبذا ... كنبذ أبي بكر ابن الدغنة[13]
ونبذ ابن مظعون ابن المغير ... ة لا يبتغى لسوى الله منة[14]
وجنات روض السهيلي ردت ... وروضات جنات اخرى كهنه[15]
ورمت الوجادات في الخرد العيـ ... ـن أي عين نشوان إذ هن عنه[16]
وشيخ أبي روف الطيب الفـ ... ـذ والشرد الحوش مما فتنه[17]
أجلك قد كان دأبا له ... ويقرع غيرك إن زار سنه[18]
تذكرت لما دعانا معا ... ومجلسه ذاك لا أنسينه
تهلل منبلجا كالغماما ... ت برق الخريف سرى بينهنه
وكان جميل المحيا نبيلا ... له لم كيزيد يزنه[19]
ولحيته كثة زانت الخـ ... ـد والأنف ياشؤم يوم أطنه
وما كان بعد بنى قصره ... ولكن له دار طين زونة
وكل المساكن فى أم درما ... ن كن مداميك طين يطنه[20]

(١١) الضفنه بوزن فعلة : أي الضعيف الاحمق ـ هو ضفن بكسر الضاد وفتح الفاء وتشديد النون مفتوحة وهى صفته وهنا للمبالغة .

(١٢) هنا اشارة لقول الحارث بن وعلة الجرمى :

فدى لكما رجلى أمي وخالتي ... غداة الكلاب إذ تحز الدوابر
كأننا وقد حالت حذنة دوننا ... نعام تلاه فارس متواتر

وانظر القصيدة (٣٢) من المفضليات البيت الأول والبيت الرابع وخبر القصيدة في الشرح .

(١٣) بتنوين راء أبي بكر وهو الصديق رضي الله عنه رد على ابن الدغنه بضم الدال والغين مضمومة مشددة ونون مفتوحة مشددة .

(١٤) هو عثمان بن مظعون رضي الله عنه رد جوار الوليد بن المغيرة وصبر للأذى .

(١٥) الروض الأنف للسهيلي كهنه أي مثلهنه والهاء للسكت وتاء جنات منونة وهمزة أخرى منقولة .

(١٦) الوجادات العلوم والنفائس منها ، الخرد العين الكتب ولنشوان بن سعيد كتاب اسمه الحور العين أراد الكتب ، عنه من عانه يعينه اذا نظر اليه .

(١٧) هو الشيخ الطيب السراج رحمه الله وأبوروف حي بأم درمان .

(١٨) سنه مفعول ليقرع الرباعي .

(١٩) هو يزيد بن الطثرية الشاعر.

(٢٠) أي يصنعن طينا من مداميك طين جمع مدماك والكلمة معروفة فصيحة بكسر الميم وفي العامية بضمها . زونة بكسر ففتح فنون مشددة مفتوحة أي قصيرة حسنة .

وفي جـانب الحوش كـانت لـه | من الشعـر خيمـة بـدو وشنـة[٢١]
ويـا ربما ارتبط الصـافنـات | وسيف لـه وسنـان أسنـة[٢٢]
وقـد كـان يلبس زيـا سريـا | يسر العيـون اذا مـا شفنـه[٢٣]
ومـدت سماطـا لنـا أريحيـ | ـته بجفـان مـلاء مفنـة
وأنشـدنـا كلمات حسـانـا | رصـانـا بـوشي بـديع وزنـه[٢٤]
ولحن طـويس بما بـال همـ | ـك أنشـده يـا طـويس تغنـه[٢٥]
وجـاذبنـا مـن كـلام الأوائـ | ـل أخبـار إنس وأخبـار جنـة
وأمـر الخلافـة والأمـر من بعـ | ـد حين العصـائب للملك دنـه[٢٦]
وأنشـدتـه أنـا بـائيـة | فَسرَّ وَهَمَّ لبيت بـزنـة[٢٧]
وعنـدك نصر لما قلتـه | شـواهـد في ابن عقيل مبنـة
ويـا نعم سـاعـات ذاك اللقـاء | ويـا طيبهـن ويـا حسنهنـه
ظللنـا نسـاقى , سـلاف القريـ | ـض , صرفا وكـاسـاتـه مـا صبنـه[٢٨]
لـدن غـدوة ذاك حتـى دنـا الـ | ـعشاء واذان بـر أذنـه[٢٩]
ومـا زالت النـاس عنـد السـذاجـ | ـة عـاداتها فيهـم لم يخنـه
ولم تكـن اللغـة المجتبـاة | تصـدت لها شبهـات رطنـه
وكيـد الشعـوبيـة المحـدثين | أولاك أولـو عتكـات مصنـة[٣٠]

(٢١) شنة : قربة بفتح الشين .
(٢٢) كان له فرسان ماتا فرثاهما فقال :

فـرسـان مـاتـا للفتى السراج | من شـدة الإبكـار والادلاج
كـانـا لـه حصنـا حصينـا مثلما | سكـن السمـوأل شـامخ الأبـراج

(٢٣) شفنه أي نظرن بطرف العين والهاء للسكت .
(٢٤) بديع بالتنوين وبالاضافة اذ كان رحمه الله يحب البديع .
(٢٥) اشارة الى خبر الأغاني لطويس حيث تغنى :

مـا بـال همك ليس عنك بعـازب | يمـري سـوابق دمعك المتسـاكب

يا طويس لك تنوينها
(٢٦) دنه : أي خضعت ـ دانت
(٢٧) بزنة باتهام وعيب وذلك أنني أنشدت : لهم شرف عالي الـذرا والمناكب فذكر الشيخ الطيب أن المنـاكب ضخمة لا عالية وقال كرف (رحمها الله) هذا مثل وزجحن الحواجب والعيونا وهو من الشواهد فقبل الشيخ ذلك .
(٢٨) لم تصرف عنا .
(٢٩) أذنه أي أذنت اليه أي سمعته
(٣٠) عتكات : أرجاس وسخ ذات صنان .

أولاك هم المقـــرفـــون الغـــواة ... أولـو الضغن والفتكـات المجنـة[31]

وتلك لقـــاءات فكـــر وذكـــر ... سعـــدت بها في فـؤادي خـــزنـه

عـــرفتك في فتيـــة كـــالنجـــوم ... وكـــان سنـــاك يضـيء الـــدجنـة

نعــــاك الي صـــديق حبيب ... درى أن قلبـي لك الحب كنـــه[32]

رءاني أبـــادر عـــرض الطـــريق ... مغــــذا فألمع لي أن تـأنـــه

نعـــــاه الي فللنبـإ المـ ... ـــر أحسست أغـوار قلبي حـزنـه

لقـــد كنت أنـــوي زيـــارتـه أمـ ... ـــس حنت اليـــه من النفس حنـة

سبقت إليـــه . قضـــاء المهيمـ ... ـــن يمضي ونحن العبيـد الأقنـة[33]

وفي عـــالم الـــذر كـــان الكتـا ... ب من قبـل أن في البطـون الأجنـة

تـــذكـــرت إنشـــاده الشعـــر حتى ... لـــه في الشغـــاف من القلـب رنـة

اذا أنشـــد الشعـــر ألفيتـــه ... تكشـف أسراره المستكنــــة[34]

لمعـــرفـــة عنـــده بـــالبيـــان ... اذا مـــا خفـــايـــاه لم يستبنـــه

أسيت على فقـــده إنـــه ... لقـــد كـــان ريحانـــة ذات بنـة[35]

ومـــات ومـــا قـــدرتـــه بـــلاد ... كم العبقـــريـــات فيهـــا دفنـــه

وكـم من نفـــوس وهـن النفيســـا ... ت فيهـــا لعمـــرى غبنـــا غبنـــه

[1] (٣١) مجنة بضم الميم أي مستورة مخفية للاغتيال وهذا من نصف بيت للفقيد رحمه الله بل أكثر من نصفه وهو قوله :

فـــذرني والمقـــرفين الغـــواة ... أولي الضغـن والفتكـــات المجنـــه

(٣٢) كنه وأكنه أي أخفاه وحفظه.

(٣٣) الأقنة أي لهم قدم في العبودية ، وعبد قن أي قديم العبودية ورثه عن آبائه.

(٣٤) تكشف : أي تتكشف بحذف التاء الأولى.

(٣٥) بنة أي رائحة فائحة والكلمة معروفة في عـاميتنا واشتقاق لفظ البـن الذي يصنع منه القهـوة من هذا الأصل لأن رائحته تفوح.

أخي هـــاك مني هــــذى الـــدمـــوع دمـــوعـي هــــذى القـــوافي المرنـــة

لمثلـك فلتنـح البــــاكيــــات بـأدمعهـن غـــــزارا هتنـــــه

وكـم لك عنـــدي مـن عهـــد ود وكم لـك من ذكـــريــات يصنـــه

ونـــونيــــة لك طـــوقتنيهـــا لشـــدتها الجزلــــة الأسر طنـــة

فهـــذا جـــوابي ولكن عـــدت سماعك أقضيـــة قـــد أحنـــه [٣٦]

سقت قبرك الـــديمـــة المرجحنـــة وأسكنك اللــه في الخلــد جنــة [٣٧]*

(٣٦) أي أحانها الله وقضاها.

(٣٧) المرجحنة: الثقيلة الممطرة.

* العلامات والشروح من عمل المؤلف.

رحم الله كرفا فقد كان شاعرا فحلا

ولمحمد المهدى مجذوب رحمه الله تعالى (١٩١٨ ـ ١٩٨٢) قصيدة بعنوان "اللغة حجاب[١]" نوردها هنا كـاملة لأنها تتناول موقفا له بها نال من ثقـافة عصرية من درسه الانجليـزية والمنهـج الحديث في المدارس العصرية إلى كليـة غـوردون وقـد كان والـده الأستاذ محمـد مجذوب جلال الدين من كبار أسـاتذة العربية فيهـا ، وبها نشأ عليه من ثقافة دينية عربية عريقة في أهل بيته ـ قال :

سئمت مـن لغـة الإعـراب قيـدني ... فيهـا بيـاني مـن حفظ وإمـلاء [٢]
لم يشفهـا الـزيت غـرافـا ومـا بـرحت ... تـذري المدامـع في أطـلال أسماء [٣]
أرح قـوافلهـا الحسرى بمنـزلـة ... لا في الجزيـرة أو في تيـه سينـاء
جـرحي ينـوح وراء الـروح منتظـرا ... إطـلاق نفسي من أمسي وإبـرائي
أشتـاق صـوتي لا مـا كنت آخـذه ... من صـوت غيري لا يـدري بأنبـائي [٤]
اجهـر بنفسك وانفض مـا شعـرت بـه ... ولا تبـال بـأفعـال وأسماء
واسمع بسمعك صـوتـا تستريح لـه ... كما تبسـم وجـه البـدر في الماء
هل يمسك الشعـر ميـزان يكيل بـه ... مقلـدون بـلا وحـي وإصغـاء
مضى ابـن أحمد محمـودا ومن ورثـوا ... أوزانـه الآن مثلي غير أكفـاء [٥]
سمى البحـور تعـالى البحـر عن صفـة ... وعن قـواف تحاكـي عى فـأفـاء
حتـام أذهل في آثـار شـاردة ... وكيف أعقـد آفـاقـا بإرشـاء
إني وثبـت مع العميـان أحسبني ... لا أستقـر على أحضـان ظلماء

(١) ديوانه «تلك الأشياء» ، بيروت ، ١٩٨١ ص٢٨٢ .

(٢) الإعراب بكسر الهمزة وفي الديوان الهمزة فوق الألف وهو خطأ مطبعي .

(٣) غرافا بالغين المعجمة ولو كانت بالمهملة لكان المعنى أيضا مستقيما كقول عروة بن حزام .

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد ان هما شفياني

ولو كان الشاعر رحمه الله أراد المهملة لكان قد جعل القافية عفراء مكان أسماء لانها صاحبة عروة .

(٤) أشتاق لازم ومتعد ، اشتقت الشيء وإلى الشيء .

(٥) أكفاء أي نظراء أهل لأن يكونوا ازواجا للأوزان وايقاعها وكفء مثلثة الكاف وبضمهـا وكأمير وسفينة وكساء ، ذكر ذلك في هامش القاموس وقريب منه في تفسير سورة الاخلاص عند الطبري .

نـاد العبيـد عبيـد الشعـر هل حصـدوا إلا نــدامــة مــداح وهجــاء [1]

يلقى الـــربيع روايـــات وعنعنـــة عميـــاء تسأل في آثـــار عنقـــاء [2]

هـــومير ينشـــد مسحـــورا مـــلاحمه وينشـــدون مـــديـح الإبل والشـــاء

من مغرب الشمس جاء الصبح منطلقا يمسي مضيئـــا ومـــا يسعى لإمســـاء

يحيـا بـه النـاس أفـراحـا سـواسيـة كأســا بكـأس وإغـــراء بإغـــراء

يعبرون كما شـــاؤوا ومـــا عـــرفـــوا متنـــــا يعـــــالـج أدواء بـأدواء

أتعـــرف الشرق كـــان الشرق في بلـــد قـــد استراح إلى يـأس وإرجـــاء

خـــان الحضـــارة في صفين من بخلـــوا على ابن فـــاطمـة الـزهـــراء بـالماء

أم أنت تسخـــر منـي ليس في وتـــري إلا قـــوافل أوزان وضـــوضـــاء

هـــون عليـك جـزاك اللـــه صـــالحة إن بـت أتبع إقـــــواء بـإيطـــــاء

أزريت بـالشعـر والفصحى مقـدسـة فـــاحمل على ومـــا يعـــدوك إزرائي [3]

أمـا سمعـت بعبـدان العصـا طـربـوا لما أخل عبيـــد الشيخ بـــالبـــاء

أصـــابـــر اللـــوم أحيـانـــا وأغفـــره ولا أنـــام على هـــون وإغضـــاء

هـــاتـوا ابن أحمد تـرضيني حكـومتـه إذا تملأ مـن نقلي وصهبـــــائي [4]

يطـــوى الموازين في بغـــداد منتجعـــا بـــاريس عـــالم إيقـــاع وأزيـــاء

تنسيـــه صيحتـــه في البئـــر قيـــدهـــا في دفتر نـــدب الأطـــلال بكـــاء

(١) عبيد الشعر زهير والنابغة والحطيئة ومن تبع طريقتهم وله أيضا دلالة عامة.

(٢) العنقاء طائر خرافي، ويشير الشاعر هنا إلى سؤال الشعراء الأطلال، يسألونها عن أمر مبهم مستحيل كالعنقاء.

(٣) لك أن تجعل والفصحى مقدسة جملة معترضة أو تعطف وتجعل مقدسة حالا منصوبة وأزريت الضمير تاء الفاعل، أي احمل على أيها المعتقد أني أسأت إلى الفصحى وتكون قد أنتقمت لها ولم يقع الإزراء عليها ولكن عليك.

(٤) ابن أحمد عنى به الخليل (١٦٠هـ).

بيكـــاس جـــرد أشكـــالا حقيقتـــه لم يخفهـــا بين أظــــلال وأضـــواء (١)
يـــرنـــو ويخرج في عينيــــه من أبـــد كـــالموميـــات بألـــوان وأصـــداء
كم شق نفســا كسـاهـا لحم لـذتـه بها يعـــود إلى بـــوح وإفضــــاء
إن كانت اللغـة الفصحى فهل سمعت سحـــر الطبيعـــة مـن صمت وإيماء
ضحكت منطلق الأنفـــاس مبتهجـا مـع الحيـــاة أحبتني وأهـــوائي
سكـرت حبـا على صحـــو يـلازمني في ظلمـــة الخمـــر حب غير نســـاء
أصـــارع الشعـــر كي تبـدو حقيقتـه فيهـــا حقيقـة ميــلادي وإنشـــائي
قيـــد بنفسي لا أنفـك أضربـــه حتـى أســـالم في جنبـى أعـــدائي
نشأت في اللغــة الفصحى مقـدسـة حتى اكتهلت ومــا فـارقت صحـــرائي
أتعـــرف العـــرب الأمجاد في بلـــد فيــــه تحطم معـــراجي وإسرائي

نسج هذه القصـدة متين محكم، وقال شـاعرها يخاطب نفسـه بثورة العصر على قيود اللغة وإعرابها "ولا تبال بأفعال وأسماء" وقد بالى هو بذلك فقوله «أشتاق صوتي» أدق تعبيرا ممـا لـــو قـال «أشتـاق إلى صـــوتي» وكـلا الـــوجهين صحيح والتمييـز بين الصحيحين أدخل في ملكة البيان. ولـلـه المثل الأعلى، جاء بالفعلين مضارعـا وماضيا في سورة الكهف (اسطاع واستطاع) قـال تعالى: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا» وهـذا يتضمن معنى إشارة الخضر عليـه السلام إلى مـا كان من عجلـة موسى علـيـه السلام ـ لم تسطع تتضمن معنى العجلة عن تـريث للصبر حتى يتبين ما هناك. وقال تعالى: «فما اسطاعـوا أن يظهروه وما استطاعـوا له نقبا» فالظهـور ومحاولة الصعود، في ذلك تعجل يتضمنـه معنى التعبير بـ (اسطـاعوا) والنقب ومـا فيه من أداة وعمل فيـه بطء يتضمنه معنى التعبير بـ (استطاعوا) ـ والله تعالى أعلم نعوذ به أن نقول في كتابه بما لا نعلم.

وقال شاعرنا «وعن قواف تحاكي عى فأفاء» يعتذر عن التزامه القافية وكأن تكرار الـروى برتـابتـه فيها فـأفأة من غير فصيح اللسان. وهـذا النعت صحيح حين تكـون القافيـة مغتصبة متكلفـة وإيقاع الشعـر غير رنان. وهنـا تواضع تـواضع به كـالمعتذر للخليل أن نظامه المحكم نعجـز عنه الآن ونضعف عنه. سمى الوزن بحـرا لأنه عنده ذو سعة ممتدة النغم، ونحن إنما نـدركه الآن بتضييق مجاله في حدود وصفنا لـه بالأوتاد

(١) أي بيكاسو الفنان المعروف.

والأسباب والفواصل والأعاريض والضروب. ونحن الذين ورثنا أوزانه غير أكفاء لهن، ومن شواهد انعدام الكفاءة[1] بيننا وبينهـا أننا نتصيد القـوافي، نذهل عن المعنى وعن أنفسنا في طلب قافية شاردة شرود ــ شاردة إذ كلما طلبناها أمعنت في الفرار، شرود أي جيدة، إذ كذلك نريدها، فلا نظفر بها إلا ضعيفة، ذلك بأن إيقاع بحر الشعر واسع كالبحر وآفـاقه ونحن نمد بحبال تصيدنـا نريد أن نعقد الأفق البعيد بقـافية. الكلمة التي في آخر البيت «نعقد آفاقا بإرشاء» كلمة إرشاء، مصدر بكسر أولها الرباعي أرشى الـدلو يـرشيها أي جعل لها رشـاء بكسر الراء وهـو حبل البئر والجمع أرشيـة وفي طبع الـديـوان خطأ، إذ الهمـزة تحت الألف دالـة على الكسرة وقـد طبعت فـوق الألف في الديوان.

وزعم شاعرنا لنفسـه أنه يتبع "إقواء بإيطاء" وقد مر تعـريف الإقواء والإيطاء في الجزء الأول من هذا الكتاب، وليس في هذه القصيدة إيطاء أو إقواء. قوله "في أطلال أسماء" وبعـده بثلاثـة أبيات «بأفعـال وأسماء» ليس بإيطاء لاختـلاف الكلمتين معنى ولفظا، الأولى علم مؤنث أصله "وسماء" أي جميلة قلبت واوه ألفا والثانية جمع «اسم» وليس في القصيدة إقواء. قوله:

إلا قوافل أوزان وضوضاء

ان عطفت ضوضـاء على قوافل رفعتها فكان هـذا إقواء ولكن ضوضاء معطـوفة على أوزان، وتوهم الشاعر الإقواء لأن ههنا إشارة إلى الحارث بن حلزة حيث قال:

أجمعـــوا أمـــرهـم عشـــاء فلما	أصبحـــوا أصبحت لهم ضـــوضـــاء
من منـــاد ومن مجيب ومـن تصـــ	ـــهال خيل خـــلال ذاك رغـــاء

وفي القصيـدة بيت الإقـواء المشهـور الـذي آخـره «ملك المنـذر بن مـاء السماء» والروى كله مرفوع.

قول محمد المهدي رحمه الله: "أما سمعت بعبدان العصا البيت" ـ منع "عبيد" من الصرف جـائز ويجوز أن يكون الشـاعر قد نـون اسم عبيد [هـو عبيد بـن الأبرص]

(١) أى الشبه والمناظرة والمكافأة التى تكون في الزواج مثلا.

وأدغم التنوين في الشين المشددة تبعا لقراءة أبي عمرو في «أهلك عادا الأولى» [عاد أولا][1] وبها قرأ المهدي رحمه الله في صباه.

المهدي في هذه القصيدة صاحب ثورة ومحافظة معا، وقد اجتهد في معاني الثورة ولكنه كأنه غيرمقتنع بصحتها كما هو مقتنع بالقيد والمحافظة. من أجل هذا في أداء الأجزاء الثائرة من القصيدة نوع من عناء فكري وغموض مع جهارة المنحى الخطابي ووضوحه. الشاعر مقدام جريء على التعبير الثوري، ولكنه في نفس الوقت فزع الروح من هذه الجراءة نفسها غير مقتنع حقا بها ـ خذ مثلا قوله :ـ

نـاد العبيـد عبيـد الشعـر هل حصـدوا	إلا نـــدامــــة مــــداح وهجـــاء
يلقى الــــربيع روايـــات وعنعنـــة	عميــــاء تسأل في آثــــار عنقــــاء
هــــومير ينشـــد مسحـــورا مـــلاحمه	وينشـــدون مـــديح الإبل والشــاء

هنا شيء من روح «عاج الشقى على رسم يسائله» وقد بينا أن هذا من مذهب الشعراء قديم ضجر قريب الأمد.

من مغرب الشمس جاء الصبح منطلقا	يمسي مضيئـــا ومـا يسعي لإمســـاء
يحيـا بـه النـاس أفـراحـا سـواسيـة	كأســـا بكـأس وإغــــراء بإغــــراء

هل هنا إعجاب مفرط بأساليب الأدب وبالمدنية الحديثة والحضارة الغربية؟ نعم ولكنه إعجاب مشوب بخوف فقراء "الـدامر" وعلماء الإسلام المغروس في النفوس منذ النشأة الأولى.

قال الفكى ود دوليب من علماء السودان في القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) (٢)

واختلفوا في رابع القرون   هل ناقص أو كامل التكوين
أي هل تقوم الساعة في أوله وقبل أن يكتمل

(١) عاد الأولى قوم هود عليه السلام والأخرة قوم صالح عليه السلام ذكره في الجلالين وهذا مرتب على أنهم خلفوا عادا كما في سورة الأعراف. والله تعالى أعلم.

(٢) قصيدة "ود دوليب" مشهورة، والذي قرأناه منها على أنه هو هي في الصغر لم يبلغ عشرين بيتا، ثم قد وجدنا منها ما جاوز المائة ـ وداخلته تنبؤات سياسية، فهل ذلك من الأصل أو زيد فيه؟ بعضه زيد بلا ريب إذ ليست فيه روح أسلوب الشيخ وسمته رحمه الله تعالى.

ثم خروج الدابة الغريبة   من الصفا بهيئة عجيبة
وهي المذكورة في سورة النمل «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم»
ثم طلوع الشمس من مغربها   صاعدة قاصدة مشرقها

وقالوا فى تفسير قوله تعالى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض ءايات ربك» [فى آخر سورة الأنعام] - قيل طلوع الشمس من مغربها وحين ذلك لا تقبل التوبة ممن لم يكن تاب من قبل.
كانت قصيدة " ود دوليب " يعرفها فقراء الدامر وغيرهم ويحفظها من يعقل من الصغار وتكتب فى الألواح أحيانا. وفى وصف علامات الساعة أن القرءان يرفع من السطور ومن الصدور وأن الناس يعيشون كالأنعام يأكلون ويشربون ويتسافدون. أم ليس فى قول الشاعر: -
يحيا به الناس أفراحا سواسية   كأسا بكأس وإغراء بإغراء

بعض الإشارة إلى هذا المعنى. هذه القبلات العلانية فى السينما. هذه المادية التى لا تهاب
يعبرون كما شاؤوا وما عرفوا   متنا يعالج أدواء بأدواء

داءالأنانية والمادية بخوف المجهول،

ثم خروج الدابة الغريبة   من الصفا بهيئة عجيبة

هذا أحد المتون مما كان وما زالت تتداوى به البقية الباقية من تراث الفقراء.
هاهنا عند شاعرنا مع الإعجاب (يعبرون كما شاؤوا خوف الساعة وعلاماتها - تأمل قوله (وما يسعى لإمساء) لكفر هذا الغرب لا ينتظر ظلام «إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت» وتأمل قوله «وإغراء بإغراء». هل الدابة الغريبة هى هذا الناس بعد أن تمسخهم المادية قردة وخنازير ثم يقع بهم الخسف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب؟ حتى الغربيون أنفسهم منهم من فزع من مادية حضارة عصره وسماها الدابة The Animal
والذى يدلنا على فزع شاعرنا من جراءته وثورته التى كأنها شعوبية يسارية الظاهر التجاوه إلى تراث العقيدة السنية القديم العميق:
أتعرف الشرق كان الشرق فى بلد   قد استراح إلى يأس وإرجاء

الشرق الأولى هى العبارة المعاصرة التى يراد بها دار الإسلام كما مر فى شعر أحمد محرم والشرق الثانية بمعنى الشروق والضوء . جاء الصبح الآن من الغرب ولكنه من قبل كان هاهنا ونحن صرفناه عن دارنا يوم استرحنا إلى اليأس وفرضنا التحكيم على على وهو له كاره ، ثم داهنا وأدهنا من بعده وصرنا مرجئين وأطلق العنان للدهاة وللملوك وللجبارين .

خان الحضارة فى صفين إلخ

أى صلةبين هذا وبين قضايا اللغة والشعر الحديث والثورة الجرئية اللسان ـ نعم الشك والفزع وجذور الإيمان التى فى الجنان

أم أنت تسخـــــــــر منى إلـخ

الشاعر يخاطب محافظه ثائره ، الذى نسى العصر ودابته وثار مع عمار بن ياسر ومع الحسين بن على رضى الله عنهم ـ نعم "أنا" المحافظ أسخر منى أنا الثائر ، والثائر المعترف فى بمحافظته يسخر من ذلك أيضا ــ وترى ما هو إلا تكرار للغناء القديم ، قوافل الأوزان الخليلية التى تقف على الأطلال وتسائلها

هـل غـــادر الشعـــراء مـن متردم

وعبدان العصا هم هذه الشراذم التى تطرب لتهديم الأوزان واضطرابها ، هؤلاء هم عبيد العصا . "عبيد الشيخ" رمز به الشاعر لنفسه حين حاول التحرر من الوزن ، مضطربا به عن عمد ، كاضطراب عبيد بن الأبرص فى :

أقفـــر مـن أهلـــه ملحـــوب

هذا وفى الثلث الأخير من القصيدة يعرض الشاعر لثلاثة أغراض ، أحدها بقية ثورة وتهيب ولا يخلو من غموض وهو قوله :

هـاتوا ابن أحمد ترضينى حكومته ... إذا تملأ مـن نقلى وصهبـــــــائى
يطـوى الموازين فى بغداد منتجعـا ... بـاريس عـالم إيقـاع وأزيـــاء
تنسيـه صيحتـه فى البشـر قيـدهـا ... فى دفتر نـدب الأطـلال بكـــاء

وفى هذا نفس من مقاربة الشعوبية والثورة على قديم التراث باسم العصر الحديث . وفى قوله "حكومته" صدى من صفين وتحكيمها وفى خطب على وردت «الحكومة» بمعنى التحكيم وأراد شاعرنا : «يرضينى حكمه» ولكن بشرط أن يتملأ من فتنة العصر

الحديث ويطوى موازين عصر بغداد ـ إذ كان الخليل بالبصرة وكانت بغداد قصبة الدنيا آنئذ ـ منتجعا باريس بما فيها من فن وموسيقا واوبرا وترف مادى وأدبى . إذن لأنسته فتنتها عمل العروض واستعانته بسماع صدى صيحته فى البئر وتقييده ذلك فى الأعاريض

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
ماذا وقوفى على رسم عفا مخلولق دارس مستعجم

وهلم جرا
الغرض الثانى الاستدلال بثورة بيكاسو الفنان وتجديده ، وزعم شاعرنا أنه كان ينظر ثم لا يجعل فنه بعد ذلك مستعبدا لقوانين الظلال والرؤية والضوء ، بل يجرد انفعاله إزاء ما يرى فى هيئة أشكال ، يحنط فيها أشباح لذته كما تحنط الموميات فهو بدلا من أن يرسم الجميلة بظلال وأضواء تبين ظاهر ملامحها ، يشق هذا المنظر الجميل بمبضع تشريحى ، فلا يبقى إلا الهيكل العظمى ، فيكسو هذا الهيكل لحما موميائيا معبرا عما أصاب هو من لذة . عمل وتعب تأوله الشاعر الرسام أنه هو مذهب بيكاسو. ولعل أمر ما صنعه بيكاسو لم يكن أكثر من محاولة يائسة للتجديد ، إذ مع ما كان له من مهارة ، قد سبقه الفنانون الأولون واللاحقون بهم من بعدهم ، وكان يعلم فى نفسه تقصير ما يستطيعه من إبداع ، أقصى ما كان يستطيعه من إبداع ، عن مدي غوية (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨م) والغريكو من فنانى قطره ، بله من سبقوه فى عصر قريب من التأثيريين ومن إليهم ومن تقدمهم وهلم جرا .
ثم يقول المهدى رحمه الله :

إن كانت اللغة الفصحى فهل سمعت سحر الطبيعة من صمت وإيماء

هل ههنا يوازن الفنان المهدى بين مقدرة صاحب الريشة المصورة وصاحب القلم المبين ، هل هو ثائر على أن ضحى الأول من نفسه هو من أجل الإخلاد إلى الثانى ـ التصوير حرام ، والبيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة ، إلا أن يكون شىء غير ذى حيوية أو بمنزلة اللعب للأطفال كالخيل المجنحة التى ذكر بعض رواة الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآها عند عائشة رضى الله عنها مرجعه من تبوك فقالت إنها خيل الملائكة؟

والغرض الثالث وهو ختام القصيدة وزبدة معناها، اعتراف صريح بتمرد على ما أحاط به من بيئة محافظة من نفسه ونشأته ولغته وثقافة آبائه الفقراء فقراءالدامر المجاذيب ومجدهم وأورادهم واحتفالهم بالمولد:

صلينـــــا مشتـــــاقين لسيــــد الكـــــونين
صلينـــــا مشتـــــاقين لقـــــــرة العينين

وبرجبية المعراج:

ردف الســــــــلام للنبــي الإمــــــــام
صـــــاحب المقـــــام يــــوم الازدحــــام
وجهـــــه كـــــالسراج نـــــوره وهــــاج
ليلـــــة المعـــــراج كبروا لـــــه التـــــاج

ومن أخريات نماذجهم وكبرياتها والده الأستاذ العلامة الحافظ الشاعر المثقف أستاذ العربية بكلية غوردون وقد تخرج منها من قبل فى أول دفعة كما تخرج ابنه هذا الشاعر من بعد، بارعا فى معارفها وفى اللغة الانجليزية وآدابها وأفنديا مبنطلا من صميم الجيل المتحرر الواعد الحديث.

ومع التمرد انتماء عميق وقيد بالانتماء عتيق:

ضحكت منطلق الأنفـاس مبتهجـا مـع الحيـاة أحبتنى وأهـوائى
سكـرت حبـا على صحـو يـلازمنى فى ظلمـة الخمـر حبـا غير نسـاء

فى التعبير هنا عناء حبيبى المعدن. سكر الشاعر بحب العصر وفتنته ومع هذا السكر صحو مـلازم هو الشعور بالانتماء والقـديم ـ ولأمر مـا حين شبه الشاعر افتنانه بحب التحـرر الحديث بسكـر الخمـر ولذتها، جعـل الخمر والسكـر ظلمـة ـ ولا يخفى أن الصحو الذى هو نور هو هذه المحافظة وهذا الانتماء.

أصـارع الشعـر كى تبـدو حقيقتـه فيهـا حقيقـة ميـلادى وإنشـائى

الرسم ذوبان فى فتنة العصر الحديث. الشعر يتيح لى عرض الصراع الذى فى نفسى بين الثورة والمحافظة. عدوى هذه الثورة وهى أنـا. لابد من القيد لترويضها وتذليلها. أنا ابن اللغة الفصحى وقيـودها. لعنة على هذه الحركـات العربية الثـورية التى تمزق عنى ثوب مجدى القديم. مجد فقرائى علماء السيرة أهل الأوراد والأذكار والإسراء والمعراج

قيـــــد بنفسى لا أنفـك أضربـــــه حتـى أســـالم فى جنبـى أعـــــدائى
نشأت فى اللغــة الفصحى مقــدســة حتى اكتهلت ومــا فــارقت صحــرائى

مقدسـة، لبدئهـا بحفظ القرآن وحرصهـا على قيم بلاغتـه. وما فـارقت صحرائى أى بلدى الدامر التى وصفها بوركهاردت وبروس وأعجبوا بما فيها من سخاء وعلم وفضل وشيم نبيلات

أتعــرف العــرب الأمجاد فى بلـــد بـــه تحطم معـــراجى وإسرائى

الأمجاد صفة للعرب أى هل تحس من عـربى ماجد في هذه العاصمة الكـافرة، فى هذا العصر الحديث؟

القصيدة رصينة ولكن انفعال عاطفة الشاعر فيها غير شاف لما خالطه من شك وتهيب وجسـارة يخالطها غمـوض. بهذا هـذه القصيـدة من أجود أنـواع التعبير عن مشكلـة العارف بهذه اللغة المتذوق لروائعها إزاء ما يحيط به من فتنة محاربتها والتنكر لأساليبها ـ هذا الذى قارب شاعرنا المهدى التصريح به فى قوله:

(أتعرف العرب الأمجاد إلـخ) قد صرح به تصريحا فيه حمية أهلـه الجعليين حيث قال فى قصيدة عنوانها «يوم الماهية»: [1]

وقفت إلى الصراف والـدين واقف بكشف كحبل البئر أهوى إلى الورد

(كان الناس إلى عهد قريب لا يعرفون الماء عندنا إلا من الآبار)

ســـــلام على الصراف أضحى أصابعا تـراقـص بين الخضر والحمـر والــربـد

كان المهـدى محاسبا فنظره إلى الصراف عن مـراقبة عارفة والخضر أوراق الجنيـة والحمر والربد ما دونها إلى قطع البرونز

أوقـع فى كشـف المواهـى فليتهـم وقد نقدوا صانـوا حيائى من النقد

أى وقد أعطونى النقـد، والنقد الثانية أى الطعن والوخـز والعيب لأن فى فرض التوقيع نوعا من إذلال

أقلب أوراقـــا وصفــرا وفضـــة أعـد فلـوسـى كم خسرن على العـد
صكـوك بلـونـاهـا طـويـلا وضيعت هـداى وسمانى أولـو الـرشـد بـالمهـدى
أكل غنـى بـــات فى النـــاس آمـــرا يجوز لـــه أكل الجهـــود بــلا جهـــد
ورب جنيـــه بـــات عنــــدى أصره يطير إلى البنيـــان طـــاروا إلى الهنـــد

البنيان طائفة من الهندوس كان منهم بالسودان تجار كثيرون وما زالت منهم بقية ويظهر أن صلتهم بهذه البلاد ضاربة في القدم.

(١) تلك الأشياء ص ١٦٨ ـ ١٧١.

أجـــور ألفنــاهـــا وورد مكـــدر وحمد لـرب النـاس أشبه بـالجحـد
فليتن بعـث المش فى الحى كـاسبـا وأعليت من أطبـاقـه شرف المجـد
لأن الطبق لـه حافـة ناتئـة تظلل رأس من يحملـه وتبدو كأنها شرفـة بالنسبـة إلى جسم حاملها ـ فليتنى بتخفيف كسرة نون الوقاية بلا إتباع لها بياء المتكلم
عجبت لنفسى كيف أصبحت جالسـا إلى مكتب أبلى حيـاتـى بـالجرد
وصـاحـوا أتـى الصراف أهـلا بطـائف يـزور على طـول الترقب والـوعـد
وأمسى أبـو حيـان عنـدى مقلبـا كتـابـا وأقـلامـا حـرثن بـلا حصـد

وقد أحرق أبوحيان كتبه واعتذر عن ذلك فى رسالة له حزينة

تجردت إلا من خـلال كـريمـة خشيت عليهـا الصبر فقـدا على فقـد
يعلمنى الإيثـار قـومى ثـراؤهم من الـدين والأحسـاب والكـرم العـد
أى الغزير الكثير كعد الماء الذى لاينقطع مدد عينه

ومـرت ضحـى سيـارة ذات غبرة وزهـو على الـدنيـا مصعـرة الخد

أى صاحبها يصعر خده زهوا وغرورا

من الحلـب الأشرار فيهـا مغـامـر رآنى فحيـانى حـريصـا على ردى
وأعـرض عنـه حـاقـرا منـه نفخـة ألم يـدر أن الـزيف محتقـر عنـدى
الحلب أصل معناها الأخلاط من الناس لا أصل لهم وتطلق فى العامية على الغجر ومن هم كالغجر من نابتة العصر الطارئين على البلاد.

هذه الأبيـات من قصيدة طويلة آثـر الشاعر فيهـا كما قدمنا البيان الصـارح مع حرارة نفس وانفعالـة ثورة أصالـة ليس معها شك أو تـردد ـ ومع ذلك تصويـر بليغ وأنفاس سخرية وفكاهة.

وشعر المهـدى الجيد كثير لا تتسع لـه صفحات هذا المجـال المحدود ودونك نمـوذجا أخيرا هذه الأبيات من قصيـدة له بعنوان "غارة طليانيـة" يصف بعض تجاربه إذ تطوع فى الجندية الإضافية بالعاصمة سنة ١٩٤١م إلى حين:

يقـــول البريطـــانـى دافع ولا أرى دفـاعـــا ومـالى فى بـلادى مــوطن
وراطنتـــه حينـــا وأصغيت معجبـــا لصـوتـى كأنى كـــافـــر متمـــدن
يقـــول تطـــوع قلـت لا ثم ردنـى أخ ضيـق العينين كـــالتيس أرعـن
يخوفنى مكـــر الخواجـــة حـــاقـــدا على وسجنـــى إن تمردت ممكـــن

ولى إن تعلمت الســـلاح وسيلـــة بها يشتفى حقــد أعــانيــه مـــزمن
وأصبحت جنــديــا فجــاءت مغيرة وزامـــرة صـــاحت ففـــر المؤذن(١)

الزامرة صفارة الإنذار ـ وأغارت طائرة طليانية

أمــد حبالا مـن شـواظ متينـة وأمسك أقطـــار السماء وأطعن

هذا وصـف جيد وكـان المهدى رحمه الله يطلـق النار من مـدفعه الـرشاش بـالخرطوم البحرية حين أغارت الطائرات الطليانية ذات عشاء

عجبت لهذا الإنجليـــزى لابـــدا بخنـدقـه والطير فـــوقى تـدنـدن

لبد يلبد من بابى نصر وفرح

وألقت رعـودا قـاصفـات ولـذنى من الخوف موت فيه من خاف يأمن

لذ من باب فرح لذنى الشيء ولذذته ، وجهان

ومــــالى إلا مــــوطـن ليس حكمــــه إلى ولكنـــــــى أسير مسجــــــن
ومن فـــوق رأسـى خـــوذة مستــديـرة وكمامـــة بلعـــومهـــا ليس يـــؤمن

الخوذة بضم الخاء لا فتحها كما ضبط خطأ في الديـوان. وكانت الكمامـة للوقايـة من الغاز السام ولم يستعمل فى معارك الحرب الثانيـة ، وقوله "ليس يؤمن" لأن الكمامات التي صرفت للمطوعة كانت قديمة يخشى ألا تقى مما جعلت وقاية منه

وأطلق نيرانـــا تعـــاوى وتـــرتقى لها شعل بـــالليـل تهذى وتــــرطن
هى الحرب جـــاءتنـــا ونصلى أوارهـــا ومـــا بلـــدى رومـــا ولا هى لنـــدن

والطائرات المغيرة بأمـر روما والمدافع ترميها بـأمر لندن وضلع الشاعـر مع الألمان غيظا على الاستعمار البريطاني ، وكذلك كان كثير من العرب

سـلام على الألمان ذقنـا هـزيمـة معـا وأتى روميل فـــالثأر ممكن

وصف الشاعر لحبال الذخيرة حى دقيق.

وتعجب الشاعر من نفسه كيف تطوع ليـدافع كما قيل وزعم عن الوطن والوطن ما زال تحت المستعمر، وذلك قصر السردار، الحاكم العام البريطانى يشرف على النيل ببياضه من شاطىء الخرطوم المقـابل ، إذكان هو عند مـدفعه بالخرطوم البحـرية على الشاطىء الشمالى من النيل الأزرق ، ألا يوجه مدفعـه إليه فيدكه دكا ـ نسى الشـاعـر رحمه الله أنه

(١) ديوان الشرافه والهجرة للشاعر السودانى محمد المهدى المجذوب بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ ص١٨ .

مدفع رشاش لن يصنع فى الجدران الضخمة كبير شيء ولكن عسى أن تصيب طلقة منه السردار نفسه. وفى الصبح جاء الضابط المسئول وهو برتبة ميجر [1] فطلب عهدة الذخيرة وعدها كما يتطلب ذلك نظام الفرنجة الدقيق، فغضب الشاعر على الصاغ البريطانى غضبه مضرية ـ قال وهو قصص جيد ذو حيوية وروح فكاهة ساخرة مع النمط العربي الرصين

عجبت لنفسي في قيودي محاربا — على النيل والسردار فى القصر يكمن
ويا مدفعى الصخاب لو درت دورة — عليه شفانى قصره وهو مثخن
ألم نحتمل غوردون رأسا بحربة — لها صيحة بالنصر والفخر تعلن
ويا كسلا صبرا ولا بأس إنها — حروب وإنى بالمقادير مؤمن

وقعت كسلا فى قبضة الطليان، فقوله "ولا فرق" أى كله استعمار،

ولا بأس أن نشقى بحرب لعلها — تدك بلاد الانجليز وتدفن
وصبحنى فى أول الصبح ميجر — يعد رصاصى وهو للعد محسن

هذه شهادة المحاسب والشاعر المراقب

فصحت به حاربت عنك فهل ترى — أبيع رصاصى وهو صنف مدون

وهذه غضبه وطنى وحجة مدنى إدارى، وما حارب هو عن البريطانى حقا ولكن عن وطنه

فقام ولم يغضب وسلمت عهدتى — إليه وحيانى الكدوس المدخن

كان رئيس المصلحة التي كان يعمل فيها المهدي الميجر «فلي» فيجوز أنه كان الميجر الذي عد الرصاصات المائة وخمسين رصاصة كما بين الشاعر من بعد، ويجوز أنه يكون قد جاء «ميجر» حربي وعدها بحضرة الميجر «فلى» ولكن السياق يدل على أن الذي تولى ذلك هو «فلى» وكان إداريا حازما ووصفه الشاعر هنا ببرود وتعال ومظهر تهذيب ـ حياه، ولكن بنزع غليونه من فمه حينا يسيرا

ليسقط «فلى» وليعل في الحرب هتلر — فقوموا بني السودان فادعوا وأمنوا

كما كان يدعو فقراء الدامر ويؤمنون كلما حزبهم أمر يخشونه، يقرأون يس أربعين ومائة وألفا ـ آمين آمين آمين كل منهم يؤمن بعدد ما قرأ ثم إذا اكتمل العدد أذن «الفكى» الكبير ءآمين

(١) أى صاغ أورانلد كما يقال الآن.

ومن يـــرد شرا لنــــا يقـــود فكيــــده في نحـــره يعـــود
ومن يـــرد شرا لنــــا يجر فسقفـــه من فـــوقـــه يخر

حياه فلى بالغليون المدخن وأعفاه من التطوع، أنف أن يكون دفاعا عنه هو، وأعطاه مكافأة وبرر تصرف إعفائه له بتقرير إداري

وأبعدني من خدمة الجيش صارفا مكـافأه عن خدمتي ليس تسمن
جنيه ونصف كل قرش بطلقة ومـا الحيـاتي عنده من يثمن

لا يخفى ما ههنا من مرارة

وسجل في التقرير أني مشاغب وأسعـــدني أني طليق ملجن

التلجين هو أن تجتمع لجنة وتصدر تقريرا بالاستغناء عن كذا وكذا واكثر ما كان يطلق التلجين على الأشياء والمعدات التي يستغنى عنها، فالملجن كأنه غير صالح ليستفاد منه.

وهذا وقد طال هذا الكتاب ولا أريد أن أخرج به عن جادة ما وضع له من تتبع قضايا الوزن والجرس والبيان وأشكال تقصيد القصيدة وأطوارها وما طرأ عليها من معاني العصر الحديث وهزاته وتحدياته وهي عبارة لا تعجبني، أعدها من هذا الجند الغريب الذي طرأ على لغتنا وأساليبنا. لا أريد أن أخرج إلى باب من التراجم والاختيار فذلك يصيربنا إلى بحر لا ساحل له. والمحسنون ممن لايزال يؤثر مذاهب الجزالة قد جعلوا بحمد الله يكثرون في بلدنا وفي سائر البلاد العربية، كما أن بدعة الشعر الذي يقال له حر قد جعلت كبرى غمراتها توشك أن تنحسر والله المستعان وبه التوفيق.

وقد كان الشيخ مصطفى السقا رحمه الله أشار على حين تولت شركة مصطفى البابي الحلبي طبع الجزئين الأول والثاني ونشرهما سنة١٩٥٥م١٩٥٦م ذكر لي أنه يستحسن أن أكتب عن الموشحات، وحسن ما أشار به رحمه الله وجزاه خيرا عن كل ما أسدى إلى من خير ولكن الموشحات باب قائم بنفسه، تدخل فيه مع عامية الأندلس أساليب المورسكيين وما يصل ذلك بما تطور منه في بروفنس وأقاليم فرنسة وأوربا في العصور التي يقال لها الوسطى، فهذا يطلب تخصصا وانصرافا جديدا إلى بابه من البحث، ولعل غيري أن يكون أجدى كفاية وأدري دراية بذلك مني فى هذا المضمار، وكل ميسر لما خلق له وليس من الحكمة أن يقدم المرء على ما عسى ألا يكون له محسنا ــ إن الله يحب المتقن عمله.

وفي النفس شيء من باب من أبواب الشعر الحديث لايسمح الطول الذي طاله هذا الكتاب والجهد الذي كلفنيه من الإقبال على شيء منه الآن ــ وذلك هو الجانب

المسرحى فإن نسأ الله في العمر سبحانه عز وجل، وأعان بمدد منه من صبر وصحة وعمل وتوفيق فآمل أن أفرد لذلك بحثا. رحم الله أحمد شوقي فهو أول من جود المسرحية العربية وروض الأوزان والديباجة الناصعة عليها. ونظرت عرضا في أوائل مسرحية مجنون ليلى:

وأنت إذا ما ذكرنا الحسين تصاممت

«بشر هامسا ومتلفتا كأنها يخشى أن يسمعه أحد»

لا جاهلا موضعه

ولكن أخاف امرأ أن يرى — على التشيع أو يسمعه

حبست لساني عن مدحه — حذار أمية أن تقطعه

إذا الفتنة اضطرمت في البلاد — ورمت النجاة فكن إمعة

«ليلى»

ابن ذريح نحن في عزلة — فهل على مستفهم منك باس

دار النبي كيف خلفتها — كيف تركت الأمر فيها يساس

«ابن ذريح»

تركتها ياليل مضبوطة — يحكمها وال شديد المراس

إن حديث الناس في يثرب — همس وخطو الناس فيها احتراس

«ليلى»

ابن ذريح لا تجر واقتصد — أحلام مروان جبال رواس

يؤسسون الملك في بيتهم — والعنف والشدة عند الأساس

«تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن للأخرى»

«فتاة»

ليلى على دين قيس — فحيث مال تميل

وكل ما سر قيسا — فعند ليلى جميل

«ابن ذريح»

ما الذي اضحك منى الظـ — ـبيات العامرية

ألأنى أنا شيعيـ — ـى وليلى أموية

اختلاف الرأي لا يفـ — ـسد للود قضية

«الخ إلخ. ١. هـ

أحسن أبوالعباس محمد بن يزيد المبرد إذ يقول في الكـامل في معرض تقديمه أبياتا دالية لابن مناذر رثى بها عبـد المجيد بن عبد الوهـاب الثقفي قال: «فله في شعره شـدة كلام العرب بروايته وأدبه وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته، ولايزال قد رمى في شعره بالمثل السائر والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل والقـول المتسق النبيل وقصيدته لها امتـداد وطول» ـ وكـذلك مسرحية مجنـون ليلى وما جمع شـوقي رحمه الله من تجديـد إلى حسن صياغة وصفـاء ديباجة ومحافظة على الوزن والفصاحـة وتعبير عن معان عصرية بروح حضرية ـ هذا ولنجعل ما ألمعنا إليه وما نسأل الله أن يعيننا على أن نفي ببعض ما وعدنا فيه خاتمة لصفحات هذا الكتاب. . . .

والمرء مظنة الزلل ونعوذ بالله من شرور أنفسنـا وسيئات أعمالنا ونسأله القبول وله الحمد أولا وأخيرا وكان الفـراغ منه في الليلة الخامسـة عشرة من ربيع الأول سنة١٤١١هـ (أي مساء٣ من نوفمبر سنة١٩٩٠م) في مدينـة الخرطوم أعني الفراغ من الفصل الأخير بعد مراجعتـه كما تقدم من ذكر ذلك وصلى اللـه على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مؤلفه عبدالله بن الشيخ الطيب بن عبدالله بن الطيب بن محمد بن
أحمد بن الفقيه محمد المجذوب
رضي الله عنه

فهرست الجزء الرابع ـ القسم الثاني

الموضوع   الصفحة

وزارة الاعلام
مطبعة حكومة الكويت